

ميخائيل زيغار

كل جيش الكرملين

موجز تاريخ روسيا المعاصرة

ترجمة: د. نزار عيون السود

كل جيش الكرملين

موجز تاريخ روسيا المعاصرة

ميخائيل زيغار

ترجمه عن الروسية: د. نزار عيون السود



كل جيش الكرملين - موجز تاريخ روسيا المعاصرة

ВСЯ КРЕМЛЕВСКАЯ РАТЬ - Краткая история современной России

تأليف: ميخائيل زيغار МИХАИЛ ЗЫГАРЬ

ترجمه عن الروسية: د. نزار عيون السود

تصميم الغلاف: ليلى شعيب

ISBN: 5 - 68 - 540 - 9933 - 978

الطبعة الأولى: 2018

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: /9838/

هاتف-فاكس: /6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

fb.com/Adwan.Publishing.House

twitter.com/AdwanPH

تمت ترجمة هذا الكتاب بمساعدة صندوق منحة معرض الشارقة الدولي للكتاب للترجمة والحقوق.



منحة الترجمة
Translation Grant
صندوق منحة الشارقة للترجمة
Sharjah Translation Grant Fund

هذا الكتاب

يتحدث هذا الكتاب عن تاريخ روسيا طيلة فترة حكم فلاديمير بوتين منذ عام 2000 لغاية عام 2015. ويرتكز هذا الكتاب في أساسه على وثائق، ومصادر علنية مفتوحة، وعلى عشرات المقابلات الشخصية الفردية الأصيلة التي أجراها المؤلف مع شخصيات من الدائرة المقرّبة من فلاديمير بوتين. إن الوقائع والأحداث والدسائس وآراء شخصيات الكتاب، المجتمعة في كل واحد، تشكل لوحة كاملة لحياة الكرملين، التي يُفهم منها للمرة الأولى منطق تحولات فلاديمير بوتين: كيف ولماذا تحول من رئيس ليبيرالي ميّال للغرب في بداية الألفين، ليصبح حاكماً استبدادياً، وأحد ألد أعداء الغرب.

المقدمة

عندما بدأت العمل على كتابي هذا، كنت أفكر في أنه سيكون تأريخاً لما حدث لروسيا خلال الخمسة عشر عاماً الأخيرة، وكيف تبدلت رؤية فلاديمير بوتين والدائرة القريبة منه للعالم، وكيف بدأ كل شيء، وإلام أوصلنا هذا كله. ولكن تبين أن المشاركين في الأحداث لم يتذكروا أبداً ما حدث فعلاً. فكل منهم يبني ذكرياته على نحو يبدو فيها بصورة لائقة، بطولية، والأهم أن يكون دوماً مصيباً، وعلى حق. وخلال سنوات عملي أجريت مقابلات صحافية مع عشرات من الأشخاص القريبين من فلاديمير بوتين: نواب الدوما الروسية، رجال أعمال من قائمة Forbes، وسياسيين أجانب. وكان كل واحد تقريباً يروي قصته التي لا تتقاطع مع قصص الشخصيات الأخرى. وكثيرا ما كانوا ينسون الوقائع ويخطئون في الزمان، حتى أنهم لم يتمكنوا من تذكر أفعالهم وأقوالهم. وعادة، كانوا يرجون ألا أستشهد بها. وعموماً تمكنت من الحديث مع ذلك العدد من المشاركين بحيث أن الصورة ظهرت واضحة بما فيه الكفاية.

في المحصلة نتجت قصة رجل تحول بصورة عرضية إلى ملك. في البداية أراد أن يثبت أقدامه فحسب. فأخذ الحظ يحالفه، وقرر بأنه يمكن أن يصبح مناضلاً موفقاً، وملكاً مصلحاً – قلب الأسد. وأراد أن يدخل التاريخ. ثم أراد أن يحيا حياة فاخرة. وأصبح ملكاً رائعاً. ثم تعب وأراد أن يرتاح. لكنه أدرك، أنه لا يمكنه أن يسمح لنفسه بالراحة، لأنه أصبح جزءاً من التاريخ، لأنه أصبح القيصر الرهيب.

كيف حدثت لديه جميع هذه التحولات؟ لقد حدثت إلى حد كبير، بفضل الدائرة المحيطة به، بفضل الحاشية المتنوعة التي كانت طيلة هذه السنوات تصاحب الملك وترافقه. لقد أمسكت به الدائرة القريبة منه، واستقطبته بمخاوفها ورغباتها، ودفعته إلى الأمام. إلى حيث لم يكن هو نفسه يحلم بأن يكون.

وإذا ما أعدنا ترتيب الأحداث، مع علمنا إلام آلت إليه هذه الأحداث، لبدا هذا

التاريخ منطقياً للغاية. بل وقد يظهر لدينا إحساس بأن كل شيء كان يسير نحو ما وصل إليه الآن، وتلوح أمامنا خطة البداية. كانت الشخصيات تخترع في وقت متأخر المبررات لأعمالها. وتعثر على الأسباب التي لم يكن لها وجود في الواقع، وعلى المنطق الذي لم يكن ليخطر في أذهانهم.

بيد أن هذه الخمسة عشر عاماً وأكثر من تاريخ روسيا، لم يكن لها منطقٌ دقيقٌ. فسلسلة الأحداث التي أمكنني استرجاعها، تكشف عن غياب خطة أو استراتيجية واضحة لدى بوتين وحاشيته المحيطة به. وكل ما يجري هو خطوات تكتيكية، واستجابة عملانية للمثيرات الخارجية، لا تقود إلى أي هدف نهائي.

إن النظرة المتمعنة إلى أفعال ودوافع السياسيين الروس خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة تثبت أن نظرية المؤامرة خاطئة. وإذا ما كان ثمة أقل شك فيما سبب هذا الحدث أو ذاك - نية شريرة أو خطيئة، فيجب دوماً اختيار الثانية.

فهل كان يعرف القادة الروس في عام 2000 إلام سيصلون بعد 15 عاماً من الحكم؟ لا. وهل كانوا يعرفون في عام 2014 كيف سيستقبلون عام 2015؟ أيضاً لا.

عندما أقول «قادة» بصيغة الجمع، فهذا ليس خطأ أبداً. من المتعارف عليه في روسيا، أن جميع القرارات يتخذها شخص واحد - فلاديمير بوتين. هذا صحيح جزئياً. حقيقة، جميع القرارات يتخذها بوتين. لكن بوتين ليس شخصاً واحداً. إنه عقل جمعي كبير. عشرات، بل ومئات من الناس يخمّنون يومياً ماهي القرارات التي يجب أن يتخذها بوتين. وفلاديمير بوتين نفسه يخمن طيلة الوقت، ما هي القرارات التي عليه اتخاذها، كي يكون ذات شعبية، كي يكون مفهوماً ويحظى بتأييد فلاديمير بوتين الجمعي الكبير.

فلاديمير بوتين الجمعي هذا كان يشيد طيلة هذه السنوات ذكرياته، كي يثبت لنفسه أنه على حق. كي يقنع نفسه بأن أفعاله منطقية وأن لديه خطة

واستراتيجية، وأنه لم يرتكب أخطاء، بل كان مضطراً إلى التصرف على هذا النحو، لأنه كان يصارع الأعداء، ويخوض حرباً قاسية ومستمرة.

لهذا فإن كتابي هو تاريخ حرب متخيلة. حرب يُحظر عليها أن تنتهي، وإلا سنضطر إلى الاعتراف بأنها لم تكن موجودة أصلاً.

الجزء الأول: بوتين الأول قلب الأسد

الفصل الأول: في كيف تعلم ألكسندر فولوشين، أيديولوجي الكرملين، تقبل لينين

ألكسندر فولوشين - رأسمالي نموذجي. في ملامحه الخارجية ثمة شيء من ملامح العم سام، كما كان يُرسم في الكاريكاتيرات السوفييتية: لحية شيباء، نظرة باردة نافذة (ولاكتمال الصورة، لا تنقصه سوى قبعة سوداء فوق رأسه، وكيس من الدولارات، وقنبلة خلف ظهره).

مكتب فولوشين في مركز مدينة موسكو، في ساحة بوليانكا، يبعد عن الكرملين عشر دقائق سيراً على الأقدام، وهو مكتب متواضع جداً، يحوي كل ما هو ضروري، لكنه لا يحوي أي شيء من وسائل الرفاهية والبذخ، فمالِك العالم الخفي ليس في حاجة إلى البذخ.

جلي أن فولوشين ليس خطيباً مفوهاً، فهو يتحدث بصوت منخفض، حتى أنه يتلعثم قليلاً عند الغضب. كما أنه يحب الإفراط في استخدام الكلمات الإنكليزية. ليس المصطلحات اللغوية الإنكليزية، بل الكلمات الأجنبية تحديداً المستخدمة في الحياة العملية. «الوضع في أوكرانيا ليس manageable (تحت السيطرة) جداً»، «يجب أن تكون دوماً لدينا في رؤوسنا agenda (أجندة)». «حلَّ deadlock (العقدة) كامل». «مهمة جداً آراء stakeholders (أصحاب المصالح) الرئيسين». وهو يفعل هذا ليس بشكل صريح مقصود - فهذا أبسط بالنسبة إليه. فهو رجل أعمال وليس رجل سياسة.

على الأغلب، كان فولوشين يعتقد أن مهمته التاريخية الرئيسة قد نفَّذها: فقد وفر الاستقرار السياسي والرأسمالية، وبصورة مريحة. وهو يقول إنه لا يأسف على عدم قدرته على التأثير في السياسة.

في السياسة يفضل الحديث بمصطلحات تجارية بحتة: «لقد صنع الأمريكيون لأنفسهم اقتصاداً جباراً متنوعاً، مستجيباً للابتكار بفضل التنافس الشديد. ومثل هذا التنافس المرهق الشديد واضح أيضاً في السياسة الأمريكية، بما في ذلك داخل الأحزاب السياسية الرئيسة. وبفضل هذا تمكنوا من صياغة نظام سياسي ثابت يرفض التطرف والحالات المتطرفة. أما في السياسة الدولية، فبعد اختفاء الاتحاد السوفييتي أصبحت الولايات المتحدة، بحكم الواقع، قطباً واحداً مهيمناً. وفي ظل غياب المنافسة أصبحت شديدة الثقة بنفسها، وغير فاعلة، وغير منطقية. وارتكبت كومة من الأخطاء الفاحشة، وألحقت خسارة كبيرة بالأمن العالمي وبنفسها أيضاً». وعموماً، هو يتحدث عن أمريكا على الرغم من نقده، ولكن بمحبة، وبتفاصيل غير متوقعة: فهناك تعرّفَ بالمصادفة على جيب بوش، وهناك رأى السياسية العجوز المعروفة كونداليزا رايس، لكنه قرر عدم مصافحتها.

المسألة الأوكرانية تثير غضبه الحقيقي الشديد. فينتقل من الإنكليزية إلى الروسية. وسياسة السلطات الأوكرانية تجاه السكان الناطقين باللغة الروسية تثير امتعاضه الشديد: «لو جرب الكنديون التصرف على هذا النحو مع سكان كويبك الناطقين بالفرنسية. لَتلقوا صفعة أكبر».

دفن لينين

في عام 1999 وضعت في الكرملين خطة دقيقة لدفن لينين. كان من المفترض نقل جثة لينين من الضريح في الساحة الحمراء ونقله إلى سانت - بطرسبورغ في منتصف الليل، وفي ظروف من السرية المطلقة. وليستيقظ الناس صباح اليوم التالي، ولم يعد هناك لينين في الساحة الحمراء.

الشيء نفسه تماماً، قبل 38 عاماً، وفي أمسية خريفية متأخرة، نُقلت جثة ستالين من الضريح، حقيقة، لم ينقلوها بعيداً، دفنوها على مقربة، عند جدار الكرملين. وقد كان هذا بالنسبة إلى نيكيتا خروتشوف، الزعيم السوفييتي

آنذاك، رمزاً للقضاء على تقديس ستالين، وإلغاء تقديس الشخصية.

وكان من المفروض إجراء عملية إعادة دفن «بصورة لائقة وبلا وقاحة»، يتذكر العاملون في إدارة الكرملين. من أجل هذا كان لا بد من تطويق مقبرة فولكوفسكوي في سان بطرسبورغ لمدة شهرين (حيث دفنت والدة لينين وأخواته، وحسب ما يقال إن مؤسس الدولة السوفييتية أوصى بدفنه فيها)، ومن ثم الصبر بضعة أشهر على اعتراضات الشيوعيين. وبعد هذا ستهدأ الخواطر: وكان قد خُطط لإزالة الضريح وتشييد نصب لضحايا النظام الشمولي مكانه، كي لا يفكر أحد في إزالته. كان من المفروض أن يشكل هذا ضربة حاسمة للإيديولوجيا الشيوعية. في تلك الفترة كان هذا بالنسبة إلى الكرملين المسألة الأهم: عدم السماح بانقلاب سوفييتي وانتصار الشيوعيين.

كان مكتب ألكسندر فولوشين رئيس إدارة الكرملين على بعد نحو 10 -15 متراً عن تابوت لينين الحجري في الضريح. يروى، أن فولوشين، كان يمزح قائلاً: «لا يبعد الجثمان عني أكثر من 15 متراً كخط مستقيم. هو يرقد هناك وأنا أعمل هنا. ولا يزعج أحدنا الآخر».

في الواقع، كان لينين يزعجه جداً. كان يزعج الرئيس بوريس يلتسين في وضع نهاية للماضي - وقد أصبحت إعادة دفن لينين، بالنسبة إليه، رمز حلول أزمنة جديدة وحدوث تحولات لا رجوع عنها، مثل إعادة دفن ستالين بالنسبة إلى خروتشوف قبل 36 عاماً. أول من اقترح دفن لينين كان العمدة الأول لمدينة بطرسبورغ أناتولي سوبشاك عام 1991، ولكن آنذاك وفي الأعوام اللاحقة، لم يستطع يلتسين تلبية طلبه، لم يرغب في الإقدام على مواجهة مع الشيوعيين.

أما بالنسبة إلى فولوشين، لم يكن لينين رمزاً، بقدر ما كان لاعباً حياً ملموساً في السياسة المعاصرة. فالصراع ضد الحزب الشيوعي كان الجزء الأهم من الاهتمامات اليومية لأكبر استراتيجيي الكرملين. لينين كان بالنسبة إليه ورقة رابحة في يده، وفرصة لتوجيه ضربة قاضية للعدو. فالشيوعيون أصبحوا

القوة الرئيسة في البرلمان ولهذا كان في إمكانهم نسف إي إصلاح مهم ضروري جداً. وبعد أزمة عام 1998 سيطر الشيوعيون عملياً على الحكومة أيضاً، التي كان يرأسها يفغيني بريماكوف البالغ من العمر 69 عاماً، المرشح السابق لعضوية المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ووزير خارجية روسيا الأسبق.

لم يبق من فترة رئاسة بوريس يلتسين المحددة في الدستور سوى ما يزيد قليلاً على عام ونصف - وكان يبدو وكأن الشيوعيين لم يكونوا أقوياء، في يوم من الأيام، كما هم آنذاك. وقد أطلق الشيوعيون عملية إقالة الرئيس يلتسين بتوجيه خمس تهم إليه: تدمير الاتحاد السوفييتي، وحل البرلمان في عام 1993، والحرب في الشيشان، وانهيار الجيش، ومذبحة الشعب الروسي. وكان بريماكوف، الذي يشغل منصب رئيس الوزراء، يشغل المركز الأول في سباق الساسة الأكثر شعبية في روسيا، وبدا أنه المرشح الأوفر حظاً لمنصب الرئيس.

وقد جلبت له شعبية خاصة حركته الساطعة المعادية لأمريكا: دورانه فوق الأطلسي. في 24 آذار/مارس 1999 طار بريماكوف إلى واشنطن عندما اتصل به نائب الرئيس الأمريكي ألبرت غور وأعلمه أن الولايات المتحدة الأمريكية تبدأ بقصف يوغسلافيا بهدف وقف النزاع في كوسوفو. فما كان من بريماكوف المستاء إلى أن استدار بطائرته وعاد إلى موسكو. وقد انتقدت الصحافة الروسية - المقربة من الكرملين والليبيرالية - تصرف بريماكوف الشعبوي هذا، ومغازلة الناخبين الشيوعيين. وقد أكدت صحيفة «كومرسانت» أول صحيفة لرجال الأعمال في الاتحاد السوفييتي وأكبر صحيفة لرجال الأعمال في روسيا، أنه بسبب خطوة بريماكوف هذه خسرت روسيا 15 مليار دولار، كان في إمكانها الحصول عليها بتوقيعها على الاتفاقيات المعدة في واشنطن: «وعلى هذا النحو سجل رئيس الوزراء اختياره - إنه اختيار الشيوعي الحقيقي، البلشفي، المستعد لتجاهل مصالح وطنه وشعبه بالكامل، لصالح الأممية، وهذا أمر لا يفهمه إلا الأعضاء السابقون في الحزب الشيوعي السوفييتي» - كتبت

صحيفة «كوميرسانت» باستياء وسخط1.

لقد أصبحت هذه الاستدارة فوق الأطلسي الإشارة الأولى للمعاداة الحكومية الروسية لأمريكا في السنوات الـ 1990 وأظهرت مدى شعبيتها بين الروس الذين فقدوا الشعور بكرامتهم الوطنية. وهي أصبحت بداية الصراع الحاسم على السلطة: بين المحافظين - المعادين للغرب الذين أصبح بريماكوف زعيمهم، وبين القوى الليبيرالية والموالية للغرب، المطالبة بعدم السماح بعودة النظام السوفييتي، والذين لم يكن لديهم زعيم، ولكن كان لديهم منسق سري - هو ألكسندر فولوشين رئيس إدارة الكرملين.

في هذا الموقف، كان لا بد من إخراج الشيوعيين عن طورهم. وكان يمكن لإعادة دفن لينين أن تشكل ضربة قاضية بروتوكولية. لكن التشريع القانوني لم يسمح بذلك. فحسب التشريع القانوني المعمول به، يمكن نقل جثمان لينين في إحدى الحالات الثلاث. إما برغبة مباشرة من الورثة - لكن ورثة لينين كانوا ضد نقله بصورة قطعية. أو بقرار من السلطات المحلية (أي، من حيث الواقع، بقرار من عمدة موسكو يوري لوجكوف) «في حال خرق المتطلبات الصحية والبيئية لحفظ جثمانه في الضريح» - وهو كان يستعد للصراع على السلطة ليس أبداً إلى جانب الكرملين والليبيراليين، أو إذا كان الضريح يعيق سير المواصلات العامة. ولكن ليس أبداً بتوجيه مباشر من الرئيس. وكان يعد خرق هذا التشريع القانوني جريمة جنائية. وبالإضافة إلى التهم الخمس الموجهة للرئيس التي رفعها الشيوعيون إلى البرلمان، فإن التخريب كان شديد الخطورة. ولهذا قرروا في الكرملين الإقدام على خطوة حادة أخرى - توجيه الضربة لبريماكوف وليس للينين.

في 12 أيار/مايو 1999، وقبل ثلاثة أيام من التصويت على الاتهامات في الدوما (البرلمان الروسي)، أقيل بريماكوف من منصبه بذريعة رسمية «لانعدام الدينامية في الإصلاحات في تقريره للمسائل الاقتصادية». وفي 15 أيار/مايو لم يتمكن الشيوعيون من جمع 300 صوت الضرورية لبدء عملية الاتهام - فقد

نشطت إدارة الرئيس بصورة نوعية بين أعضاء البرلمان، وصوت جميع النواب المستقلين تقريباً ضد الاتهام. لقد كان هذا نصراً تكتيكياً لفولوشين، لكنه لم يلغ المسألة الأساسية. وهي كيف يمكن تجنب انتصار تحالف الشيوعيين وبريماكوف بعد عام، عند انتهاء فترة رئاسة يلتسين؟

الصعوبة الأساسية كان تكمن في عدم وجود رجال سياسة حول يلتسين يتمتعون بتصنيف سياسي ما. وتصنيف الرئيس يلتسين الهرِم نفسه هو تصنيف سلبي تقريباً - وذلك إلى حد كبير بسبب الاتهامات التي كانت توجهها الصحافة والمعارضة (الشيوعيون بالدرجة الأولى) لأسرته. في تلك المرحلة، كانت الصحافة تكتب «الأسرة» بأحرف كبيرة، قاصدة، أن أسرة الرئيس ذات وزن خاص، وكبير بصورة غير متناسبة في الدولة، وفي الاقتصاد أيضاً. وكانوا يقصدون بالأسرة بالدرجة الأولى تانيا وفاليا (كانت الصحافة تدعوهما باسميهما المختصرين، ويدرك الجميع على الفور المقصود بهما)، أي تاتيانا دياتشينكو (ابنة الرئيس) وخطيبها فالنتين يوماشيف (رئيس إدارة يلتسين السابق). لم يكونا متزوجين آنذاك - فقد تزوجا (تانيا وفاليا) في عام 2001. وبالمعنى الأوسع، كانوا يُدرجون ضمن الأسرة أيضاً الأوليغارشيين الأقرب إلى تانيا وفاليا: بوريس بيريزوفسكي ورومان أبراموفيتش. وأخيراً، كان ألكسندر فولوشين رئيس إدارة الرئيس يلتسين الوصي على الأسرة، فعليه تقع مهمة حل الوضع المسدود، الميؤوس منه الذي كان فيه الكرملين.

كانوا يدعون فولوشين في الكرملين أحياناً بـ«المُجمَد» لصرامته وقسوته وحزمه في تلك المسائل التي تبدو له مهمة مبدئياً، كإخراج لينين من الضريح.

فولوشين، ابن البيزنس، الذي عمل في التسعينيات في عشرات الشركات ذات السمعة المختلفة، كان يعد رجل دولة عن قناعة، وكان يدافع عن مصالح الدولة كما كان يراها. وكان يبدو له اقتصاد السوق قيمة مطلقة ذات أهمية حيوية، أما حقوق الإنسان وحرية الكلمة – فهي جانب جزئي غير مفيد دائماً، وأحياناً لا لزوم له.

وزاد من صعوبة الموقف الذي وجد فولوشين نفسه فيه، باعتباره كبير المديرين في الكرملين، أن لأسرة الرئيس عدواً قوياً – هو عمدة موسكو يوري لوجكوف. وكان عمدة موسكو يُعد فترة طويلة الوريث الطبيعي للرئيس يلتسين، على الرغم من أنه كان نقيضه - مثل عمدة باريس جاك شيراك في عهد الرئيس الفرنسي الهرم فرانسوا ميتيران. كانت تعرفه روسيا كلها، ولكن ليس بصفته ليبيرالياً أو محافظاً - لم يكن هناك أية أيديولوجيا لدى لوجكوف - كانت تعرفه كـ«اقتصادي قوي».

كان لوجكوف يريد السلطة لنفسه شخصياً ولم يكن يخفي رغبته هذه أبداً تقريباً. وعندما نوى ترشيح نفسه للرئاسة عام 1998، أسس حركته «أوتيتشيستفو» (الوطن). وكان لديه في الكرملين مجموعة من المؤيدين، الذين أخذوا يقنعون يلتسين بأن يعتمد لوجكوف ويختاره خليفة له. لكن لوجكوف لم يكن يروق ليلتسين.

وأجريت معه مفاوضات مسبقة. يتذكر لوجكوف، أنه التقى بيريزوفسكي، كموفد من أسرة يلتسين، الذي قال له، أن أسرة يلتسين يمكنها أن تؤيده وتدعمه في حال تنفيذه لشرطين: ضمانة حصانة لجميع أفراد أسرة يلتسين، وضمانة ثبات نتائج الخصخصة. فرفض لوجكوف هذين الشرطين، ولهذا فيما بعد، حسب قول لوجكوف، شُنت ضده حرب إعلامية.

كان لوجكوف على ثقة تامة بأن أوضاع الأسرة سيئة، ومن المستبعد أن يسعفها أي شيء. وحسب الإشاعات، فقد وقع رئيس إدارة التحقيق في مكتب المدعي العام أمر توقيف تانيا وفاليا. وكانت أمزجة المعادين للأسرة في الكرملين على النحو التالي: هل سيلحقون في هذه الحالة الوصول إلى مطار شيريميتيفو أم لا. ومن المنطقي جداً ألا يرغب لوجكوف في الدخول في صراع إلى جانب من كان يعدهم خاسرين. كان يريد الاتحاد مع الفائزين، المنتصرين.

ما إن أصبح فولوشين على رأس إدارة الكرملين، حتى حاول إرسال علائم الاهتمام للوجكوف، وكان يزوره، ويشرب الشاي في مكتبه. لكن شرب الشاي معه لم يؤدِّ إلى أي نتيجة: لم يتمالك لوجكوف نفسه، وعندما رأى ضعف الرئيس يلتسين، انتقل بصورة غريزية إلى الهجوم. بيد أن الحرب الإعلامية بين لوجكوف وأسرة يلتسين قضت على تقييمه وتوصيفه. ولهذا قرر عمدة موسكو اللجوء إلى الحيلة. فأيد بريماكوف، ظناً منه بأنه بتقديمه لبريماكوف الهرم – بطريرك الأمة - أمامه سيحتمي من وراء ظهره من العاصفة، وبعد أربع سنوات سيرشح نفسه للرئاسة.

ميخائيل خودوركوفسكي، أوليغارشي نفطي، كان في تلك الفترة على تواصل وثيق مع لوجكوف، ومع بريماكوف، وكان واثقاً من أنهما لن يقدِما على تحدي الرئيس يلتسين نفسه لأنهما شخصان محترمان، معتبران. وبحسب رأي خودوركوفسكي، فقد كان الهدف من صراعهما الحصول من يلتسين على حق خلافته. أما على المستوى الثاني - ضد حاشية الرئيس وأسرته - فقد كان الصراع جاداً وشديداً.

لم يكن هناك، لدى الكرملين، شخصية وازنة، مكافئة لبريماكوف المُقال، ذي الشعبية الكبيرة. وقبل عام من انتهاء فترة رئاسة يلتسين بدأت أسرته البحث عن وريث ليلتسين. وانتهت فترة رئاسته في شهر آب/أغسطس، حيث تم قبل ذلك تعيين فلاديمير بوتين، مدير جهاز الأمن الاتحادي، رئيساً للوزراء. فلاديمير بوتين شاب غير معروف، ضابط أمن، الساعد الأيمن سابقاً لأناتولي سوبشاك عمدة سان بطرسبورغ، الذي ضاع في شعبيته السابقة كديمقراطي الموجة الأولى.

وقبل تعيينه بيومين، قام مسلحون من الشيشان بالاعتداء على جمهورية داغستان المجاورة في شمال القوقاز. وهكذا أصبح بوتين أول رئيس وزراء لم يضطر إلى الاهتمام بقضايا الاقتصاد وإضاعة هيبته وسمعته فيها - لقد صارع العدو الخارجي وكسب نقاطاً لنفسه. وبعد شهر فجر الإرهابيون بنائين في

موسكو - وقد شكل هذا ضربة لموقع عمدة موسكو لوجكوف وعزز من موقع بوتين.

ولكن مع ذلك، كان من المستحيل التصديق أن أسرة الرئيس التي وضعت نفسها تحت الشبهات، يمكنها أن تفوز في الانتخابات. «إن بريماكوف هو الإنسان المقدر له أن يفوز في انتخابات الرئاسة». هكذا قال على الأثير كبير المعلقين التلفزيونيين في روسيا، رئيس مجلس إدارة القناة التلفزيونية ن.ت.ف. HTB يفغيني كيسيلوف قبل ثلاثة أشهر من العام الجديد، في أيلول/ سبتمبر 1999. وكانت شهرة بريماكوف هي الأعلى، يدعمه عمدة موسكو لوجكوف وجميع محافظي المدن الروسية. تموله أكبر شركتين نفطيتين روسيتين: «لوكوي» و«يوكوس»، وكان يقدم له الأموال فلاديمير يفتوشنكوف، الذي كان يُلقب بـ «بيل غيت الروسي»، كما كانت تؤيده شركة «غازبروم» العملاقة وأكبر مالك لأجهزة الإعلام في روسيا فلاديمير غوسينسكي، ولهذا كانوا يكيلون المديح لبريماكوف في قناة ن.ت.ف، القناة التلفزيونية الأفضل سمعة في روسيا.

بقي ثلاثة أشهر على الانتخابات البرلمانية. والحزب الموالي للكرملين لم يفز في انتخابات الدوما مرة واحدة حتى الآن، ووضعه في هذه المرة أسوأ. ولم يكن لدى الكرملين حزبه الخاص به. أما بريماكوف فكان لديه حزب ينوي الفوز في الانتخابات البرلمانية. ويضم هذا الحزب جميع محافظي المدن الروسية تقريباً، وبالتالي فالمرجع الإداري لجميع أنحاء روسيا كان إلى جانب بريماكوف. حزب «الوطن – روسيا كلها» أو باسمه المختصر OBP كان الحزب الأكثر شعبية.

واضطروا من جديد إلى تأجيل دفن لينين. وانتقل الصراع مع تركة الشيوعية إلى المرتبة الثانية - كان لا بد في البداية من الفوز على الشيوعي السابق بريماكوف.

في 31 كانون أول/ديسمبر تقدم ألكسندر فولوشين، رئيس إدارة الرئيس يلتسين بطلب استقالة. وقبل ساعة منه، تقدم رئيسه نفسه، الرئيس يلتسين بطلب استقالة وعين رئيس الوزراء بوتين قائماً بأعمال الرئيس. وهذا يعني، أن أعقد عملية في نقل السلطة - وهي ما دعاه الصحافيون بـ«عملية الخليفة» – قد تمت بنجاح.

«ولمَ هذا؟»، سأل بوتين، عندما شاهد طلب استقالة فولوشين. فقال فولوشين مبتسماً، إن رئيس الإدارة عيّنه الرئيس السابق، وهذا يعني أنه يجب أن تتوفر لفلاديمير بوتين فرصة تعيين رئيس إدارته. فابتسم بوتين وطلب من فولوشين أن يبقى في منصبه. تبادل سيد الكرملين الجديد والأيديولوجي القديم التحية وانصرفا.

وقبل 12 يوماً من هذا جرت في روسيا الانتخابات النيابية، التي شكلت فوزاً لفولوشين واستراتيجيته - فقد فاز الحزب المجمع «يدينستفو» أي «الوحدة» على منافسه الرئيس، على كتلة «الوطن – روسيا كلها»، التي كان يرأسها رئيس الوزراء السابق يفغيني بريماكوف وعمدة موسكو يوري لوجكوف. قبل ثلاثة أشهر كان يبدو مثل هذا الفوز مستحيلاً. قبل ثلاثة أشهر، كان يبدو أن رئيس روسيا المقبل هو يفغيني بريماكوف البالغ من العمر سبعين عاماً، المرشح السابق لعضوية المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي.

في بداية أيلول/سبتمبر سجلت اللجنة الانتخابية المركزية حزب «الوطن – روسيا كلها» كمشارك في الانتخابات. كان رصيد الحزب يعادل 30%، حيث يأتي بخطىً واثقة في المركز الأول، ويتفوق على الشيوعيين بـ10% من النقاط. ولم يكن هناك أي شيء يتنبأ بالكارثة له. وفي هذا الوضع بالذات، وقبل ثلاثة أشهر من الانتخابات، بدأ ألكسندر فولوشين تشكيل حزب جديد، أعاق فوز بريماكوف.

لقد أصبح بوريس بيريزوفسكي عرّاب حزب «الوحدة». وقد دعته الصحافة الروسية بالذات في تلك الفترة بزعيم الكرملين الخفي، وكانت هذه مبالغة بالطبع. فبوريس بيريزوفسكي، عالم الرياضيات السابق، العبقري الشارد كان يزود الكرملين فعلاً بالأفكار التي استخدمها فعلاً واستفاد منها. وكان يصغي إليه تانيا وفاليا، لكن يلتسين لم يكن يحبه. ولم يلتق بيريزوفسكي ولا مرة وجهاً لوجه مع الرئيس. لكن بيريزوفسكي كان يعوض عن هذا بالقصص والأحاديث التي يرويها للصحافيين، حول أن سياسة الكرملين كلها تعد استمراراً لرواياته الخيالية العبقرية.

ولكن، في الحقيقة، كان بيريزوفسكي في مركز حزب «الوحدة» - فهو نفسه كان يتنقل ويقنع عدداً من معارفه محافظي المدن، بأن يتركوا لوجكوف - بريماكوف وينتقلوا إلى معسكر الكرملين. لكن بيريزوفسكي سرعان ما فقد الاهتمام بالعمل الروتيني في البناء الحزبي - وشرع بالاهتمام به مساعد فولوشين الشاب فلاديسلاف سوركوف (الذي سرعان ما أصبح نائبه). وهذه أصبحت، عملياً، الحملة الانتخابية الأولى لأيديولوجي بوتين المقبل.

وقد تم إغراء 39 محافظاً بمشروع الكرملين الجديد، بينما بقي لدى بريماكوف 45 محافظاً. ثم بدأت عمليات البحث عن زعيم للحزب. كان من الخطر أن يطرح بوتين نفسه زعيماً - فإذا ما خسر الحزب فجأة في الانتخابات فسيدفن معه خليفة الرئيس، ويجعل من انتخابه مستحيلاً. ولهذا، ومن باب الاحتياط، قرروا العثور على بطل مشهور آخر، وأصبح سيرغي شويغو وزير الطوارئ والدفاع المدني هو المنقذ المحترف. وقد ظهرت عناوين في الصحف المقربة من الكرملين «شويغو يهب لإنقاذ روسيا» قبل أن يوافق شويغو نفسه على الترشيح لرئاسة الحزب - وقد اضطر يلتسين بنفسه إلى إقناعه.

كان يموّل الكتلة الجديدة بالمرتبة الأولى بيريزوفسكي وأبراموفيتش، على الرغم من أنه انضم إلى جمع التبرعات لها حتى أولئك الذين كانوا يقدمون الأموال لبريماكوف – فالعقل التجاري كان يحسب حساب كل احتمال. كانت

قيمة «الشيك المتوسط» تعادل 10 ملايين دولار - هذا المبلغ كان يدفعه الأوليغارشيون عادة. وبلغت الميزانية الإجمالية لكتلة «الوحدة» المتحالفة مع بوتين نحو 170 مليون دولار.

وقد جمع فولوشين بنشاط تحت راية حزب «الوحدة» الرأي العام الليبيرالي أيضاً. وكان منظِّر الكرملين يشرح ذلك بأن حزب «الوطن – روسيا كلها» – هو طريق إلى الماضي، هو عودة سوفييتية، محاولة من الـ ك.ج.ب للعودة للسلطة. (حقيقةً، عيّن غورباتشوف في أثناء تراجع البيريسترويكا بريماكوف نائباً أولاً لمدير الـ ك.ج.ب لكن بريماكوف لم يكن قبل هذا من العاملين فيها).

وكان يقال في الكرملين إنه إلى جانب حزب «الوحدة» وبوتين يجب أن يقف الليبيراليون والإصلاحيون وكل من يريد التغيير. أما في الواقع، فقد انتسب إلى هذا الحزب المنتفعون، مثله مثل حزب «الوطن – روسيا كلها»، وكل من لم يجد لنفسه مكاناً في الحزب الآخر. ومع ذلك، فإن انطلاق «الوحدة» كان موفقاً. ومشكلة بريماكوف الرئيسة كانت أنه كبير السن، وبالتالي شديد الشبه بيلتسين المريض والضعيف. على العكس، كان بوتين وشويغو شابين نشيطين. وبحلول بداية تشرين أول/أكتوبر انخفض ترتيب حزب «الوطن – روسيا كلها» إلى 20%، وارتفع ترتيب «الوحدة» من الصفر إلى 7%. وكان ترتيب كل من بوتين وبريماكوف يعادل على التوالي 15% و20%.

في الشهرين ونصف الشهر التاليين حدثت أشد الحملات الانتخابية قذارة في التاريخ الروسي. وبلغت ذروتها في الحديث عن عملية المفصل الحرقفي لبريماكوف في برنامج سيرغي دورينكو في قناة أو.ر.ت OPT التابعة لبيريزوفسكي. القناة التلفزيونية ن.ت.ف. كانت تدعم بريماكوف باستبسال، بيد أنها لم تشكل أي خطر جدي على حزب «الوحدة»، وخسرت الحرب الإعلامية. ولسخرية القدر، أن هذين الرمزين الرئيسين لتلك الانتخابات، قناتي أو.ر.ت و ن.ت.ف، وكذلك أسيادهما دورينكو وكيسيلوف، سرعان ما أصبحا ضحية السلطة الجديدة، بصرف النظر عن إلى جانب أي طرف كانا يصارعان.

والأهم من ذلك ما حصل للخبراء السياسيين الذين كانوا يقودون الحملتين الانتخـابيتين، وصارعوا من أجل القضاء على أحدهما الآخر. من جانب الكـرملين كـان يقـود الحملـة الانتخابيـة فلاديمير سوركوف، ومن جانب بريماكوف، خبير سياسي شاب من ساراتوف اسمه فياتشيسلاف فولودين. وكانت هذه معركتهما الأولى. ولكن ليست الأخيرة - فخلال الخمسة عشر عاماً اللاحقة سيخوضان معارك كثيرة من أجل النفوذ والتأثير على فلاديمير بوتين.

وفي محصلة حملة الانتخابات حصل حزب «الوحدة» بإدارة سوركوف على 23% من النقاط حسب القوائم الحزبية، متخلفاً عن الشيوعيين بنقطة واحدة، بينما حصل حزب «الوطن – روسيا كلها» بإدارة فولودين على 13%. لكن الأهم، أن تصنيف بوتين كان يستمر في الصعود وبلغ 30%، في حين أن شعبية بريماكوف قد توقفت على 20%.

إن الهزيمة المفاجئة في انتخابات 19 كانون أول/ديسمبر أصابت بشيء من الخوف معسكر بريماكوف - لوجكوف. ولكن كانوا يعتقدون في أركان حزب «الوطن - روسيا كلها» أنه بقي نصف عام على انتخابات الرئيس، والمعركة ما زالت في الأمام. علاوة على ذلك، كانوا واثقين، أن نواب حزب «الوطن – روسيا كلها» في الدوما - البرلمان الجديد سيتحالفون مع الشيوعيين، الذين شغلوا المركز الأول في الانتخابات، وأن بريماكوف نفسه سيغدو ناطقاً باسم البرلمان وفي هذا الموقع سيتمكن بسهولة من منافسة رئيس الوزراء بوتين على منصب الرئيس. حتى أن بريماكوف في أركان الحملة الانتخابية بدأ بتقاسم المناصب: من سيترأس الأركان ومن سيُبعد عن اتخاذ القرارات. وعلى أية حال، كان الجميع يدرك، أن ثمة وقتاً كافياً، وأنه حتى بداية العام الجديد لن يحدث شيء مهم آخر. وقد سافر الجميع للاستراحة وقضاء فترة العيد بعد الحملة الطويلة والشرسة.

في 29 كانون أول/ديسمبر أعلنت النتائج النهائية. وبعد يوم واحد، اتضح أن اللعبة انتهت. في 31 كانون أول/ديسمبر، أعلن الرئيس يلتسين أنه يستقيل من

منصبه ويعين بوتين خليفة له. وهذا يعني أن الانتخابات الرئاسية ستجري في شهر آذار/مارس وليس في شهر حزيران/يونيو، حسب ما هو وارد في الدستور. وكان هذا يعني أنه ليس لدى بريماكوف ولوجكوف وأعداء الكرملين الآخرين الوقت الكافي الذي كانوا يظنونه متوفراً لديهم. فهم لن يتمكنوا من الصحوة من هزيمتهم في الانتخابات البرلمانية. كان هذا بالطبع، غشاً وخداعاً من جانب الكرملين، لكنه أمَّن له النتيجة المرجوة.

لقد انتهت اللعبة فعلاً في ليلة رأس السنة تلك، على الرغم من أنه لم يتوقع أحد ذلك. فبينما كان معسكر بريماكوف يوزع المناصب في أركان الحملة الانتخابية، أنجز فولوشين، رئيس إدارة الكرملين، الذي كان جالساً في مكتبه على بعد عشرة أمتار من جثمان لينين، وحالماً بنزع جاره من ضريحه، مهمة مستحيلة - فقد اتفق مع الشيوعيين. كان هدف الكرملين الرئيس بسيطاً: تمزيق التحالف بين الشيوعيين وأنصار بريماكوف. كانوا يفكرون في الكرملين على النحو التالي: «الأمر الأهم الآن هو أن نصبّ لعنتنا على حزب «الوطن - روسيا كلها» - فهم أشخاص نفعيون، ويجب أن نبيِّن لهم بأنهم إذا ما بقوا مع بريماكوف ولوجكوف، فإنهم يعادلون صفراً على الشمال».

في 18 كانون ثاني/يناير في الجلسة الأولى لمجلس الدوما، تبين أن حزب «الوحدة» والشيوعيين وقعوا حزمة اتفاق يكون بموجبها ممثل الحزب الشيوعي هو رئيس البرلمان، وجميع مناصب رؤساء اللجان توزع بين الجانبين. وبقية الأحزاب، بما فيها حزب «الوطن – روسيا كلها» لا تحصل على شيء. لقد أصبح هذا ضربة لحاشية بريماكوف. كانوا يظنون أنهم ذاهبون إلى مجلس الدوما كي يحتلوا مناصب سياسية كبيرة ويديرون كل شيء، بينما أظهر لهم فولوشين بأنهم إذا كانوا ضد الكرملين، فسيبقون مجرد نواب، ومن نواب الأقلية. وبعد أن أدركوا أن القدر يدير ظهره لبريماكوف، انفصل ثلث مرشحي حزب «الوطن – روسيا كلها» عن حزبهم، وانضموا إلى المجموعات الأخرى منذ الجلسة الأولى. «إنها مؤامرة»، صرخ بريماكوف من على المنبر،

تعبيراً عن اعتراضه، وخرج من قاعة الاجتماع.

وفي المحصلة، لم يرشح بريماكوف نفسه لمنصب الرئيس. واستسلم. وبعد عام ونصف، خرج من مجلس الدوما، تاركاً منصب رئاسة حزبه المحمي للنائب الشاب فياتشيسلاف فولودين. وسرعان ما أقسم الأخير يمين الولاء لبوتين وبحلول نهاية عام 2001 يتفق معه على توحيد حزبه «الوطن - روسيا كلها» وحزب «الوحدة» في حزب حاكم جديد باسم «روسيا الموحدة». وبعد عشر سنوات يصبح فولودين كبير منظِّري الكرملين.

الترف السوفييتي

كان كبار رجال الأعمال يقدمون الأموال بكل سرور لبوتين في الحملة الانتخابية لدرجة تستدعي الحيرة. وبحسب الروايات، فإن سيرغي بوغاتشوف، المصرفي الكبير القريب من أسرة يلتسين، الذي ارتبط بصداقة مع بوتين، شرع أيضاً في ممارسة التمويل الجماعي في الحملة الانتخابية بين كبار رجال الأعمال. لكن، لم يطلب منه أحد هذا، والمال لم يصل إلى هيئة أركان الحملة الانتخابية، حسب زعمهم. وبحسب الشائعات، فقد كان هذا مشروعاً تجارياً خاصاً لرجل أعمال، استخدم بمهارة صداقته مع رئيس الوزراء الجديد.

إن بوغاتشوف، مثله مثل آخرين كثيرين من رجال الأعمال النافذين، كان يعرف بوتين من أيام سان بطرسبورغ. وهو بالذات كان الصديق الأقرب لخليفة يلتسين. يروي بوغاتشوف الآن، أنه في تلك الأثناء كان بوتين إنساناً وحيداً تقريباً، وأولئك المتعارف على تسميتهم بأصدقاء بوتين، لم ينتقلوا بعد إلى موسكو. ويؤكد بوغاتشوف أن أصدقاءه «ياكونين وكوفالتشوك وروتنبرغ لم يكن لهم أي وجود».

كان بوتين وبوغاتشوف جارين، يتنقلان معاً في عربتيهما في الأراضي المملوكة للرئاسة في ضواحي موسكو، عند اختيار مقر إقامة الرئيس المقبل. توقفا عند مقر الإقامة الحكومي السابق لميخائيل غورباتشوف - في نوفو -

أوغاريفو. وبحسب قول بوغاتشوف، أشد ما أدهش بوتين في هذا المقر المسبح الكبير البالغ طوله خمسين متراً. على أية حال، جميع المسؤولين في الدولة عاشوا في مقرات وقصور الزعماء السوفييت. وعلى سبيل المثال، فولوشين، رئيس إدارة الكرملين كان يعيش في المنزل الذي كان يشغله في فترة سابقة الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي يوري أندروبوف.

وكما يقول بوغاتشوف، فقد راقت الحياة الجديدة لبوتين. فمن ناحية، لم يسعَ بوتين أبداً إلى السلطة، بل ورفضها بشدة، وقاوم العروض والتواطؤات. ومن ناحية أخرى، كانت تسحره الرفاهية المنزلية والامتيازات الرئاسية. في تلك الفترة، كانت الغالبية العظمى من الموظفين الكبار، بمن فيهم مديرو جهاز الأمن الاتحادية يعيشون بصورة متواضعة، لم يكونوا حتى ليحلموا بالفيلات واليخوت والطائرات الخاصة التي كانت لدى الأوليغارشيين. وارتقاؤه المفاجئ إلى منصب القائم بأعمال الرئيس كان بالنسبة إليه هزة يومية، بادئ ذي بدء.

بقي بوغاتشوف فترة طويلة صديقاً مقرّباً من بوتين: كانا يتناولان المشروبات معاً، ويذهبان إلى الساونا الروسية سوية، وأولادهما تربوا معاً. على أية حال، هذا لم يساعد بوغاتشوف في الحصول على روافع سياسية. وكان يضطر إلى العمل والتصرف، محتمياً باسم بوتين كي يتمكن من تحريك صفقاته التجارية. وربما هذا الاستغلال المفرط للصداقة مع بوتين بالذات سيلعب بعد مضي عشر سنوات دوراً مصيرياً في حياة المصرفي بوغاتشوف.

الصديق الأول

في الحادي عشر من آذار/مارس 2000 قدّم مسرح مارينسكي عرضاً للمرة الأولى. كل الحاضرين كانوا هنا للمرة الأولى، وبصورة رمزية للغاية.

للمرة الأولى في هذه القاعة يجتمع أناس سيغدون النخبة السياسية لروسيا خلال السنوات العشر المقبلة. وكان العاملون في المسرح ينظرون إليهم بدهشة: لأول مرة يرون هذا العدد الكبير من الأشخاص يحملون معهم هواتف

جوالة.

كان العرض الأول فخماً. أوبرا سيرغي بروكوفييف «الحرب والسلام» من إخراج المخرج السينمائي الروسي العائد من هوليوود أندرون كونشالوفسكي.

ولكن في هذه الأمسية لم يكن بطل مارينسكي الرئيس لا المخرج كونشالوفسكي، ولا شقيقه نيكيتا ميخائيلكوف، الحائز على جائزة الأوسكار، فكلاهما كانا جالسين في الصالة. الشخصيتان الرئيستان كانا يجلسان في الشرفة القيصرية، لقد كانا رئيسي وزراء: رئيس وزراء الحكومة البريطانية توني بلير ورئيس الحكومة الروسية فلاديمير بوتين. فقد مر شهر ونصف على قيام بوتين بأعمال الرئيس، وكان هذا عرضه العالمي الأول، فلأول مرة كان يستقبل زعماء الدول الأجنبية، وبهذه الأبهة والفخامة.

قبل شهرين، في مؤتمر دافوس الاقتصادي، أذهلت الصحافية الأمريكية ترودي روبين الوفد الروسي بسؤالها المباشر في المؤتمر الصحافي: Who is Mr Putin? (من هو السيد بوتين؟) لم يكن هناك أحد في العالم يعرف خليفة بوريس يلتسين، ولم يكن يدرك، ما هي فرصته، وما هي خلفيته السياسية، وما هو مدى استقلاليته أو تبعيته، بمَ يؤمن، وماذا يخشى، أيريد الإصلاحات أم الانقلاب والثأر؟ وهذه أمور لم يعرفها الجمهور الروسي أيضاً. عُرضت عليها صورة بسيطة للغاية: tough guy (رجلٌ قاسٍ)، نقيض كلي لبوريس يلتسين الهرم والضعيف. وقد اختار بوتين وفريقه للجمهور الغربي الخارجي صورة أخرى: smart guy (رجل ذكي ووسيم)، حقوقي شاب أنيق، نشيط، عالي المؤهلات، واثق من نفسه، لكنه منفتح وودي. وقد أصبح توني بلير عملياً نموذجه الدوري. ومعه بالذات، قرر بوتين إقامة علاقات الصداقة الأولى. ومع من أيضاً؟ كلينتون وشيراك كانا صديقين ليلتسين، ومرتبطين معه بصورة مفرطة، علاوة على ذلك، بعد عام ستنتهي فترة رئاسة كلينتون.

تذكرنا أيضاً، ما حدث سابقاً، قبل 16 عاماً، حين فتحت مارغريت تاتشر العالم

أمام ميخائيل غورباتشوف، بقولها: «يمكنني أن أقيم معه علاقة عمل». لم يرغب بوتين في أن يصبح «غورباتشوفاً» ثانياً، لكنه كان ينوي أن يقيم مثل هذه العلاقات العامة الخارجية، كما كانت لدى رئيس الاتحاد السوفييتي. في نهاية الأمر كان يريد بوتين جداً أن يحوز على الإعجاب. فأخذ يهتم بتوني بلير بعناية فائقة - أو بتعبئته لصالحه.

دُعي رئيس الوزراء البريطاني إلى سان بطرسبورغ، مسقط رأس بوتين، حيث كانت تبدو عملية، وأكثر أوروبية من موسكو. التقى بوتين توني بلير أولاً في بيترغوف، في القصر الصيفي الإمبراطوري. ثم اقتاد رئيس الوزراء البريطاني إلى متحف الإيرميتاج. وأخيراً، توجها مع زوجتيهما إلى حضور العرض الأول في مسرح مارينسكي.

قرب مدخل المسرح، كانت تنتظر الزعيمين مظاهرة صغيرة تحمل شعارات «بوتين – هو الحرب» (المقصود الحرب في الشيشان). ولسخرية القدر، شاهدوا في المسرح أوبرا «الحرب والسلام»، التي تتحدث عن فترة مشرقة في تاريخ روسيا وبريطانيا، حيث كانت الإمبراطوريتان حليفتين وانتصرتا على العدو المشترك. في المشهد الأول ظهر على خشبة المسرح الإمبراطور ألكسندر الأول، الذي يشبه من حيث شكله الخارجي بوتين، يحمل بيديه كلباً قزماً من نوع بودل - وقد تعرف الجمهور بسرعة على شبيهه، كلب بوتين المنزلي القزم «توسيا».2

الإمبراطور ألكسندر الأول - واحد من أكثر الشخصيات غموضاً في التاريخ الروسي. فبعد انتصاره على نابليون، أعلن قائلاً: «لدينا ما يكفي من الأراضي»، ولم يشرع تقريباً في زيادة مساحة روسيا. بينما جميع القادة الآخرين كانوا يتصرفون بطريقة مغايرة. علاوة على ذلك، وحسب الرواية (المشكوك في صحتها)، هو نفسه تخلى عن السلطة، وأخرج مسرحية موته وهاجر إلى سيبيريا باسم العجوز فيودور كوزميتش. في عام 2014، بعد ضم القرم إلى روسيا وبداية الحرب في أوكرانيا، رفع بوتين الستار عن تمثال كبير

للإمبراطور ألكسندر الأول على جدار الكرملين. وهذا ما سنتناوله لاحقاً.

ولكن في عام 2000 دُهش توني بلير، وشعر بسرور كبير حقاً من الاستقبال القيصري الذي لقيه في مسرح مارينسكي. وقد كتب عنه بعد عشر سنوات في مذكراته: ففي موقف مشابه في لندن قبل العرض المسرحي الأول، كان عليه أن يبتسم وأن يمد يده مصافحاً. ولكن في مسرح مارينسكي كل شيء كان مغايراً. ابتعد جمهور الحاضرين، وأحنوا رؤوسهم احتراماً. «إن بوتين في روسيا كالقيصر»، قال بلير مندهشاً في كتابه «رحلة».3 المفارقة واضحة للعيان: كان بوتين يظن أنه باستقباله بلير في بطرسبورغ، سيبدو أوروبياً، أما رئيس الوزراء البريطاني فقد بدا له الترف القيصري، على العكس، آسيوياً.

ولكن في عام 2000 تحدث توني بلير بشكل آخر: «إن بوتين هو إنسان مثقف رفيع الثقافة، لديه تصور دقيق مرهف لما يريد تحقيقه في روسيا. وبلاده روسيا هي دولة كبيرة قوية، يسودها القانون والنظام، كما أنها بلاد ديمقراطية وليبيرالية»، هذا ما قاله توني بلير في حديث صحافي أدلى به بعد عودته إلى لندن. لقد نجح بوتين في الامتحان الأول، فقد ترك لدى توني بلير انطباعاً لا يمحى. وفي المؤتمر الصحافي نفسه، أعلن مكتب بلير الصحافي، أن توني بلير بعد عودته إلى مقره في دوانغ ستريت، اتصل هاتفياً بجميع زملائه في «السباعية» وشاركهم انطباعاته السارة من تواصله مع بوتين.

بعد أسبوعين فاز بوتين في الانتخابات وعين حكومته وإدارة الرئاسة. وبقي ألكسندر فولوشين نفسه مدير إدارة الرئاسة. وبتنفيذه الانتقال الناجح للسلطة من يلتسين إلى بوتين، أصبح فولوشين منظّر الفترة الرئاسية الأولى ومطبقاً لجميع الإصلاحات التي بدأ بها بوتين رئاسته.

لقد بدأ بوتين رئاسته، واثقاً ثقة كاملة بأنه سيتمكن من إقامة علاقات جيدة مع الغرب، وبالتحديد مع أمريكا. كان يعتقد بأنهم بكل بساطة لا يدركون الخصائص الروسية. ويجب الالتقاء بهم، وإقناعهم، والشرح لهم: أين نحن نقع،

ما هي مشاكلنا. كان بوتين يستقبل كل زعيم غربي، وكل وزير خارجية غربي، ويجلس معهم أكثر مما هو مقرر في البروتوكول، ومما يتطلبه العقل السليم.

بدا وكأن كل شيء تم بنجاح مع توني بلير. لم يتميز رئيس الوزراء البريطاني، بادئ ذي بدء، بانتقاد خاص للأعمال العسكرية في الشيشان، وبدا وكأن تفسيرات بوتين كانت تناسبه وترضيه. لقد روى بوتين لصديقه الانكليزي طويلاً وباهتمام، أن الحرب الشيشانية الثانية بدأت بتدخل المسلحين في داغستان، وأن شعار الإرهابيين: «الله فوقنا، والتيوس تحتنا»، و«التيوس - هم نحن جميعاً!» قال بوتين محتداً. لم يفهم بلير المقصود، لأن كلمة «تيس» الإنكليزية ليست شتيمة. فكان بوتين يشرح له أن هذه الكلمة «تيس» أي (كوزيول козел) بالروسية شتيمة مسيئة جداً.

في عام 2000 التقى بوتين وتوني بلير خمس مرات. في شهر نيسان/إبريل، وبعد الانتخابات، ولكن قبل أن يستلم الرئاسة، سافر بوتين لزيارة صديقه بلير في لندن، في أول زيارة خارجية له. استقبلته الصحافة الإنكليزية بفظاظة. قالت صحيفة ديلي ميل: «السمة الوحيدة المعروفة عن الرئيس البالغ من العمر 48 عاماً خارج موسكو - هو منزل خشبي صغير... مع حفرة مرحاض في الفناء. فندق رويال غاردن الذي لم يخرج منه السيد بوتين مساء الأمس، أكثر ترفاً بلا شك. ويضم جناحه تلفزيوناً فضائياً، وقناة سينمائية تعمل 24 ساعة، ودوشاً للمساج، وأنواعاً لا تحصى من الصابون والشامبو، والمناشف، والمراهم الطيبة، وهاتفاً ببريد صوتي، وفاكساً، ومأخذاً للإنترنت، ومكتباً كبيراً، يؤدي إلى غرفة نوم مترفة للضيف الذي يحتاج إلى مجال رحب... ونأمل بأن يلجم رغبته في أخذ رداء الحمام الرائع التابع للفندق من جناحه». قرأ بوتين هذا، واستاء، لكنه تمسك بالصبر.

بهذه المناسبة، في لندن بالذات، عقد أول مؤتمر صحافي له بعد انتخابه رئيساً، بالاشتراك مع توني بلير. كانا يتبادلان النداء باسميهما من دون ألقاب «فلاديمير» و«توني».

في تشرين الثاني/نوفمبر قدِم رئيس الوزراء البريطاني إلى روسيا، ونزل في موسكو هذه المرة. اقتاده بوتين إلى مطعم «بيفنوشكا»، وفيه شربا الفودكا (كان بوتين قد عرف أن بلير يحب المشروبات القوية)، وأكلا، كمقبلات، البطاطا والسمك المملح ومخلل الفطر، وناقشا كيفية إقامة العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية في ظل الإدارة الجديدة. فقبل أسبوعين من لقائهما جرت في أمريكا الانتخابات النيابية، لكن نتيجتها لم تُعرف بعد. استمرت إعادة عد الأصوات في فلوريدا، وكان من غير المعروف ما إذا كان اسم الرئيس الجديد سيكون معروفاً بحلول العام الجديد. بوتين وبلير سياسيان لهما شعبية كبيرة، نجحا بثقة في الانتخابات، وأخذا يضحكان على هذا الموقف.

صليب من الألومنيوم

في أثناء الحملة الانتخابية الأمريكية «غور ضد بوش» كانت روسيا تلعب دوراً خاصاً. فالجمهوريون كانوا يستخدمونها كأداة في الصراع ضد الديمقراطيين - حين اتهموا بيل كلينتون وألبرت غور في أنهما «خسرا روسيا». حيث نُشر عشية الانتخابات في الكونغرس تقرير خاص لجماعة الخبراء في الشأن الروسي باسم «طريق روسيا نحو الفساد». واتهم التقرير إدارة كلينتون بالفشل الذريع في المسألة الروسية. وقد قارن واضعو التقرير بين عامي 1945 و1991، عامي انتهاء الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة. لقد ربحت الولايات المتحدة الأمريكية الحربين معاً، ولكن في الحالة الأولى تمكنت إدارة الرئيس ترومان من عمل كل شيء لتجنب ميول الثأر والانتقام في أوروبا، بوضعها لبرنامج مارشال، وتمكنت من النهوض بالاقتصاد الأوروبي، وبالتحديد الاقتصاد الألماني، وإعادة أوروبا إلى الحياة الطبيعية، وعلاوة على ذلك، جعلها حليفة لها، أما بعد عام 1991 فقد فعلت إدارة كلينتون العكس تماماً. فجميع الأموال المخصصة لإنعاش الاقتصاد الروسي سُرقت بتغاضي الحكومة الأمريكية، ولم يحدث أي اقتلاع للمرحلة السوفييتية في روسيا (مثل اقتلاع النازية الألمانية). وأخيراً، مع بداية عام 2000، كان مستوى العداء لأمريكا هو

الأعلى، وهذا تباين مذهل عما كان عليه في بداية التسعينات. وقد أوضح واضعو التقرير، أنه في أثناء انهيار الاتحاد السوفييتي كانت الولايات المتحدة الأمريكية ذات شعبية كبيرة للغاية. وبعد عشر سنوات زالت شعبيتها نهائياً. والآن يتهم الشعب الروسي الأمريكيين في أنهم السبب بانتشار الفقر والفساد اللذين سيطرا على روسيا. لقد أضاعت إدارة كلينتون فرصة مساعدة روسيا لكي تصبح دولة ديمقراطية، لأنها وثقت أكثر مما يجب ببعض زعماء روسيا: يلتسين، تشرنوميردين وتشوبايس. والمسؤولية في هذا، بحسب التقرير، تقع على ثلاثة أشخاص كانوا يتابعون شخصياً الشؤون الروسية، وهم نائب الرئيس ألبرت غور، نائب وزير ومن ثم وزير المالية لورنس سامرس ونائب وزير الخارجية ستروب تلبوت. كان التقرير، بالطبع، حيلة انتخابية كلاسيكية، موجهة للتشهير بسمعة غور. وبهذا الصدد، جاء في خاتمة التقرير، أنه ثمة فرصة أخيرة، فالرئيس الروسي الجديد فلاديمير بوتين يحاول إجراء الإصلاحات الضرورية، ومن الأهمية الكبيرة بمكان مساعدته في ذلك. وهذه بالذات ستغدو الفرصة الأخيرة، سواء لروسيا أو لأمريكا. ولم يرد في التقرير صراحة، لكنه كان يومئ إلى أنه لا يصح تسليم هذه المسألة المهمة إلى إدارة غور، ولا يمكن أن تنجح فيها إلا إدارة بوش.

حقيقة، ازداد بصورة حادة مستوى العداء لأمريكا في نهاية التسعينيات (1990). وبهذا ترتبط، بصورة جزئية، شعبية المحارب القديم في زمن الحرب الباردة يفغيني بريماكوف. على خلفيته، كان يبدو بوتين، وبخاصة ساعده الأيمن فولوشين (بلغته الإنكليزية الرائعة) أمريكيين أكثر مما هما شريكين مرغوبين. وكان قد قال بيل كلينتون قبل الانتخابات الرئاسية في روسيا: «إن بوتين لديه فريق متميز من الدرجة الأولى، وأنا أثق بأنه جاهز لإجراء الإصلاحات الضرورية».

لقد كان ألكسندر فولوشين على معرفة جيدة بستروب تلبوت وبلاري ساميرس، وكان يعرف جيداً كيفية بناء العلاقات مع فريق غور، إذا ما فاز في

الانتخابات. أما بالنسبة إلى فريق بوش فكانت معرفته أقل بكثير. ولهذا قرر في آب/أغسطس عام 2000 إرسال وفد كبير من حزب «الوحدة» إلى أمريكا بالاتفاق مع الحزب الجمهوري، الذي كان من المقرر أن يرشح بوش لمنصب الرئيس. وشرح فولوشين قائلاً، إن الجمهوريين هم ساسة عملانيون وإيجابيون أكثر، وأقل تعلقاً بالإيديولوجيا، ولا يهتمون كثيراً بحقوق الإنسان، وإن العلاقات بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية كانت دوماً أكثر بساطة في مراحل رئاسة الرؤساء الجمهوريين. وحدث التعارف: وقد أُعجب بوش ومستشارته للشؤون الخارجية كونداليزا رايس كثيراً بمبعوثي بوتين وفولوشين.

كان الكرملين يعلق آمالاً كبيرة على الإدارة الأمريكية المقبلة، لأنه لم يحصل تواصل مباشر شخصي مع الإدارة الراحلة. في أيلول/سبتمبر عام 2000 وصل بوتين بالطائرة إلى نيويورك، لحضور ما عرف باسم «قمة الألفية» اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة، التي حاول فيها الرئيس المنتهية ولايته بيل كلينتون حشد جميع زعماء العالم تقريباً. وكان بوتين جديداً على المستوى العالمي: فمنذ تلك اللحظة التي طُرح فيها السؤال الشهير: من هو السيد بوتين؟ لم يمض نصف عام. ولهذا كان يُنظر إلى اجتماع القمة باعتباره استعراضاً مهماً للرئيس الروسي الجديد. والذي كان يهمه جداً أن يحدث انطباعاً جيداً.

ولكن منذ البداية لم تجر الأمور كما يجب. فبحسب القرعة، جاء دور رئيس الوفد الروسي في المركز الحادي والثلاثين لإلقاء خطابه، بينما ألقى بيل كلينتون، سيد البيت الأبيض خطابه في البداية. بذل الوفد الروسي جهوده كافة، وفي المحصلة توفرت لبوتين فرصة تبادل الدور مع الرئيس القبرصي غلافكوس كليريديس، الذي كان دوره الخامس.

كان خطاب كلينتون خطاباً احتفالياً ظافراً. قال إن الحياة الإنسانية في العالم المعاصر أهم من الحدود، ومن سيادة الدول واستقلالها. كان على كلينتون بعد بضعة أشهر أن ينهي فترة رئاسته، وكانت هذه أهميته، وقد أدى له جميع

الضيوف الآخرين واجب الاحترام.

وبعد إنهاء خطابه، رجع كلينتون إلى مكانه مرافقاً بالتصفيق من الجميع. خلال هذا الوقت، كان بوتين جالساً في مكانه، وعلى مرأى من الصحافيين، كان يراجع خطابه. ولكن عندما حان وقت إلقاء خطابه، تمدد بيل كلينتون ببطء، ثم نهض وتوجه نحو المخرج. وبعد دقيقة، اتجه نحو المخرج أكثر من نصف كبار الضيوف. وأنهى فلاديمير بوتين خطابه الذي استمر خمس دقائق في قاعة نصف فارغة.

لكن بوتين في اليوم التالي انتقم من الذي أساء إليه. في حفل الاستقبال في متحف المتروبوليتان، كان بيل كلينتون واقفاً أمام المدخل، يستقبل الضيوف، ويلتقط معهم صوراً للذكرى. عندما تبادل الرئيس الأمريكي الحديث مع فلاديمير بوتين واقترح عليه التقاط صورة، قاطعه بوتين فجأة قائلاً: «أنت لا تزال سياسياً على رأس السلطة، لماذا تضع نفسك في المتحف وأنت لا تزال حياً؟».

تعامل فلاديمير بوتين في تعارفه على الرئيس اللاحق، جورج بوش، بدرجة كبيرة من المسؤولية، كما كان الأمر عند لقائه توني بلير. قرر تقليده والتكيف معه.

قبل لقائهما الأول في لوبليانا عاصمة سلوفينيا، درس بوتين الملف الذي جُهز له عن بوش مع وصف تفصيلي لطباعه وسيرة حياته. وعلى وجه التحديد، جاء في الملف، أن بوش متدين جداً، وأنه في شبابه كان متعلقاً بالمشروبات الكحولية، وعندما بلغ 40 عاماً أقلع عن معاقرة المشروبات الكحولية، واستعاد إيمانه المكرس لله.

في بداية التواصل غير الرسمي روى بوتين لبوش قصة من حياته. كان لديه فيما مضى بيت ريفي في ضواحي سان بطرسبورغ. وقبل عدة سنوات احترق هذا البيت بكامله تماماً، ومن حسن الحظ، لم يتضرر أحد من أهله وأسرته.

وبأعجوبة نجا من الحريق صليب من الألومنيوم، هدية أمه، كان بوتين قد نزعه من رقبته عندما دخل إلى الساونا. ولخص بوتين هذه الحادثة بأنها أقنعته أن العجائب والمعجزات تحدث. كان بوش المتدين مذهولاً. وقد قال بوتين بعد لقائه الأول المشهود هذا: «نظرت إلى عينيه واستطعت رؤية روحه».

يبدو، أن بوش أيضاً كان يعتقد أنه يستدرج بوتين. وقد قال ديفيد فرام، كاتب خطب بوش آنذاك، كان هذا إطراءً في حساب العلاقات الجيدة المقبلة. وبحسب قوله، فإن بوش كان يعتقد في البداية أن روسيا يمكنها أن تنهض وتصبح بلداً أوروبياً طبيعياً، مثل ألمانيا. ليس دولة عظمى، بالطبع، كالولايات المتحدة الأمريكية أو الصين، ولكن بلداً طبيعياً ناجحاً.

في صيف عام 2000 اتخذ بوتين قراراً بإغلاق القواعد العسكرية التي ورثتها روسيا عن الاتحاد السوفييتي: في فييتنام وفي كوبا. أصيب العسكريون وضباط الأمن بالصدمة، لكنه شرح بصبر، أن القواعد لم يعد أحد يستخدمها منذ سنوات عديدة. وشرح وزير الخارجية إيغور إيفانوف الموقف الرسمي للكرملين قائلاً: «طيلة عشر سنوات لم يدخل أسطولنا البحري الحربي المحيط الهندي ولم يستخدم خدمات القواعد الحربية البحرية». فمركز الاستخبارات الإلكترونية في مدينة لوردس الكوبية والقاعدة البحرية الحربية في كامران بفييتنام كانتا تشكلان خسائر ونفقات كبيرة، وكانت تصرف أموال كبيرة على إيجار القاعدتين وخدمتهما، ومن دون أية فائدة. ففي نهاية الأمر، وبوسائط الاستخبارات الفضائية يمكن الحصول على معطيات أكبر بكثير مما يمكن الحصول عليه من القواعد العسكرية السوفييتية القديمة. وحسب العادة، قام الوطنيون المتحمسون في صفوف القوات المسلحة بصب اللعنات على القيادة السياسية واتهموها بخيانة المصالح الوطنية، لكنهم خضعوا للقرار.

في عام 2013، أعاد بوتين النظر في قراره. وبدأت المفاوضات حول القاعدة في فييتنام، وفي عام 2014 تم توقيع اتفاقية حول استخدام سفن الأسطول الحربي الروسي ميناء كامران.

سنوات الـ 2000 السِّمان؟

«الفريق المتميز من الدرجة الأولى» الذي تحدث عنه بيل كلينتون، بدأ بالفعل، من دون تأجيل، بتنفيذ إصلاحات منهجية نظامية. وقبل تنصيبه رئيساً، كلف بوتين معارفه القدامى من بطرسبورغ، الاقتصاديين الليبيراليين الذين عملوا في فريق أول عمدة ديمقراطي في بطرسبورغ أناتولي سوبشاك، بوضع خطة إصلاحات للحكومة الجديدة. وكان يقود هذا الفريق الإبداعي غيرمان غريف وألكسي كودرين. وبعد انتخاب بوتين حصلا على حقائب وزارية، وأصبحا بالترتيب وزيري التنمية الاقتصادية والمالية.

ومنذ أن بدأوا بالعمل على مخططات المستقبل، كانوا يدركون أن الحظ حليفهم، فمنذ عام 1999، وإثر تعيين بوتين رئيساً للوزراء، بدأت ترتفع أسعار النفط حول العالم. وبفضل ذلك، تمكن وزير المالية كودرين في عام 2000 وللمرة الأولى في روسيا بعد البيريسترويكا، من تحقيق فائض في الميزانية. والآن كان من الواجب استغلال هذه السعادة غير المتوقعة، التي هبطت من السماء. وبذل «اقتصاديو بطرسبورغ» جهدهم كي يكونوا طموحين إلى الحد الأقصى.

وضعت الحكومة سلماً مسطحاً لضريبة الدخل: 13%. وتم تقليص النسبة العامة للضرائب ثلاث مرات، وتمت إعادة توزيع الحمولة على قطاع النفط، وازدادت الضرائب المحصّلة. وتم وضع تشريع للأراضي، ولأول مرة بعد ثورة 1917 تم السماح في روسيا ببيع وشراء الأراضي الزراعية.

وقد أيد مجلس الدوما هذه الإصلاحات الثورية. وبينما كان البرلمان في عهد يلتسين ينسف أي قانون يصدر عن الحكومة، أصبح في عهد بوتين يؤيد كل قانون، بفضل التحالف الجديد في الدوما: فقد انضم أنصار بريماكوف إلى حزب «الوحدة»، وحصل الحزب الموالي لبوتين «روسيا الموحدة» على الأغلبية في الدوما وصوّت مؤيداً جميع مشاريع القوانين.

واستمرت أسعار النفط بالارتفاع بوتائر كبيرة، سمحت للحكومة بتسديد الديون الخارجية قبل مواعيدها. وأخذ السكان يشعرون بالثراء - فقد كانت معجزة بوتين الاقتصادية واضحة للعيان. وإثر السنوات التسعينيات القاسية العجاف بدأت في روسيا سنوات الألفين السمان.

وفي الوقت الذي كان فيه غريف وكودرين يجريان الإصلاحات الاقتصادية، أجرى بوتين وفولوشين عدة تحولات سياسية جذرية. فقد ابتدع فولوشين مبدأ جديداً لتشكيل مجلس الاتحاد - المجلس الأعلى للبرلمان. كان سابقاً يجتمع فيه حكّام الأقاليم شخصياً، وبحسب المبدأ الجديد يجب أن يجتمع فيه النواب الخبراء - ممثلو الأقاليم. وفي هذه المرحلة دعا المنظرون السياسيون السياسة الجديدة باسم «الديمقراطية الإدارية»، قاصدين بذلك، على الأغلب، أن هذه الديمقراطية في عهد يلتسين كانت «غير إدارية». إن الرقابة الأفضل على الأقاليم هي الخطوة الأولى نحو تحسين الإدارة ورفع مستواها. وكان الهدف من ذلك واحداً، وهو منع حكام الأقاليم وجماعات رجال الأعمال الضاغطة (اللوبي) من نسف الإصلاحات.

هذا الإصلاح لم يرق أبداً لحكام الأقاليم أنفسهم، الذين طُردوا من البرلمان، وبالتالي، حُرموا من حق التصويت على مستوى الاتحاد. وهذا الإصلاح لم يرق بوجه خاص لحكام الأقاليم الذين أدوا القسم أمام بوتين ودعموا حزب «الوحدة». فقد كان واضحاً للجميع سبب قمع الحكام والمحافظين المؤيدين لبريماكوف، فهم أقدموا على رهان خاطئ وعليهم أن يدفعوا الثمن، ولكن لماذا تتم معاقبة المحافظين والحكام المؤيدين لبوتين؟ طلب المحافظون والحكام من بوريس بيريزوفسكي نقل استيائهم المشترك إلى الرئيس. فهو الذي أقنعهم بتأييد بوتين. توجه بيريزوفسكي إلى بوتين وطلب منه مقابلة خاصة ليوحي له بذلك. استقبله الرئيس، لكنه لم يصغ إلى طلبه.

لكن هذا الإصلاح وافق عليه البرلمان بتأييد كبير، فقد أيده بكل أريحية النواب

المؤيدون سابقاً لبريماكوف. ومن أجل إثبات حيادهم واستقلاليتهم، كان الأعضاء السابقون في حزب «الوطن - روسيا كلها» مستعدين للتصويت والموافقة على كل شيء. وعندها قرر فولوشين ونائبه سوركوف إنجاز عملية بناء المؤسسات الجديدة: توحيد حزبي «الوحدة» و«الوطن - روسيا كلها» في الحزب الموالي لبوتين «روسيا الموحدة». وفي الوقت نفسه، توزيع جميع المناصب في مجلس الدوما، وإلغاء اتفاق كتلة التحالف السابق مع الشيوعيين، باعتبار أنه لم تعد هناك حاجة إليه. وبعد هذه الهزيمة لم تقم للشيوعيين قائمة، ولم يعودوا يشكلون قوة سياسية وازنة، ولم يعودوا يشكلون أي خطر. وبعد هذا لم يعد فولوشين يتحدث عن فكرة نقل جثمان لينين، ولم يعد يشكو من كونه إلى جواره.

في نهاية العام ظهرت لدى الكرملين فكرة إدخال نظام رمزي إلى رموز الدولة. فمنذ آخر التسعينيات لم ينشد أحد النشيد الوطني في روسيا، نظراً لأنه كان من دون كلمات. في عام 1990 اختار بوريس يلتسين نشيداً وطنياً جديداً لروسيا: حيث ألغى النشيد الوطني السوفييتي، الذي كان قد وضع منذ أيام ستالين، ووضع بدلاً منه لحناً وضعه الموسيقار ميخائيل غلينكا منذ القرن التاسع عشر. ولكن لم يكتب أحد كلمات لهذا اللحن. هذا اللحن لم يرق لفولوشين وكذلك لبوتين، وقالا: من الصعوبة حفظه. وضعوا قائمة طويلة بالألحان الجديدة، من ألحان المارش القديمة بصورة رئيسة، من أجل اختيار واحد منها وجعله نشيداً وطنياً لروسيا الجديدة. ولكن في اللحظة الأخيرة، غير بوتين رأيه، وقرر العودة إلى النشيد الوطني القديم الستاليني، بعد تغيير الكلمات فيه. ومن أجل وضع كلمات أخرى للنشيد، قرر تكليف الشاعر السوفييتي المسن سيرغي ميخالكوف، والد المخرجين السينمائيين نيكيتا ميخالكوف وأندرون كونشالوفسكي.

كان فولوشين الذي يكره الشيوعيين ضد ذلك. وأدركت أسرة يلتسين أن هذا سيكون ضربة للرئيس المتقاعد بوريس يلتسين. لكن بوتين أقنع مستشاريه

وناصحيه بأن هذا سيكون مفيداً للإصلاحات، لأنه يجب تركيز جميع القوى على الاقتصاد، وتطبيق إصلاحات غير شعبية ومؤلمة، ولهذا لا حاجة إلى تهييج السكان بأشياء تافهة. فليفرح الشيوخ وكبار السن، وبذلك نحن نوفر القوى للإصلاحات الليبيرالية ورفع القيود، هكذا كان بوتين يقنعهم. ووافق فولوشين: فليبق النشيد الوطني السوفييتي من أجل الإصلاحات.

الفصل الثاني : المهاجر السياسي بوريس بيريزوفسكي لم يُدعَ إلى العرس الملكي

لم ألتق أبداً ببوريس بيريزوفسكي، على الرغم من أنني عملت نحو عشر سنوات في صحيفة تعود ملكيتها إليه وهي صحيفة «كوميرسانت»: صحيفة رجال الأعمال الرئيسة في الألفية الثانية.

عندما ألّفت كتاباً عام 2007 عن شركة «غازبروم Газпром»، كان عليَّ، بالطبع، أن ألتقي ببيريزوفسكي كي أجري معه حديثاً صحافياً. لكنني لم أفعل هذا عن قصد. كان يبدو لي أن بيريزوفسكي يمكنه أن ينال من الكتاب ويسيء إليه، إلى هذه الدرجة كانت تبدو لي مشبوهة سمعته وسمعة كل من يرتبط به. علاوة على ذلك، كنت مقتنعاً بأن بيريزوفسكي يكذب دوماً. وأي فائدة من إجراء حوار مع شخص إذا كنت متأكداً من عدم مصداقيته؟

قبل عام من وفاته، أدلى بيريزوفسكي بحديث صحافي كبير لزملائي الصحافيين في قناة «دوجد*». وبعد هذا الحديث، وصف بيريزوفسكي ببلاغة قصوى روايته لأحداث نهاية التسعينيات وبداية عام 2000 في شهادات الشهود في أثناء محاكمة رومان أبراموفيتش في لندن. وقد رأت المحكمة في لندن، أن بيريزوفسكي في شهاداته كان يكذب باستمرار، ولهذا حكمت المحكمة بخسارته للقضية التي رفعها.

كانت لدى بوريس بيريزوفسكي خاصية مهمة جداً، تميزه عن جميع شخصيات

هذا الكتاب (من دون استثناء). كان يعترف عدة مرات بأنه أخطأ. وفي نهاية حياته (وليس بالطبع في مرحلة فوزه المغامر)، أعرب مراراً عن توبته على أفعاله. ويقول البعض إنه كان صادقاً في توبته. بينما كان آخرون واثقين من أن توبته غير مقنعة.

تقييد الإوزة

يقول رومان أبراموفيتش مازحاً: «البارحة شعرت بنفسي أنني بيريزوفسكي. حددت عدة لقاءات مع أشخاص مختلفين في وقت واحد». الناس الذين عرفوا بيريزوفسكي جيداً يتذكرونه في أحيان كثيرة أنه أستاذ رياضيات مشتت الذهن، يولّد الأفكار باستمرار، لكنه لا يتمكن دوماً من متابعة كيف تُطبق أفكاره في الواقع.

ويُروى أن بيريزوفسكي دعا إلى مكتبه، في آن واحد، عدة رجال أعمال لا يمكنهم أن يجتمعوا معاً: فلاديمير غوسينسكي، وميخائيل خودوركوفسكي، وفلاديمير بوتانين. وقد أدخلهم إلى غرف مختلفة، كي لا يرى أحدهم الآخر، وفي هذه اللحظة جاء صديقه الذي نوى الذهاب معه إلى الساونا الروسية. فذهب بيريزوفسكي إلى الساونا مع صديقه (كانت غرفة الساونا واقعاً في منزله نفسه) ونسي ضيوفه. وبعد نحو ساعة تقريباً، بدأ الضيوف يتمشون في أنحاء المنزل، فاكتشف أحدهم الآخر، واجتمعوا معاً في غرفة الضيوف على مائدة واحدة، وفجأة يظهر بيريزوفسكي في رداء الاستحمام. فأخذه العجب كل مأخذ.

وما حدث مع بيريزوفسكي في عام 2000 أصابه بصدمة كبيرة، على الرغم من أنه كان أيضاً نتيجة جهوده وأفعاله.

تعرّف بيريزوفسكي إلى بوتين في بداية الأعوام التسعينيات، حيث قدمه، عندما كان بوتين نائباً سابقاً لسوبشاك** إلى أشخاص من الحلقة المقربّة من بوريس يلتسين (وقد عرّف رجل أعمال آخر هو سيرغي بوغاتشوف، بوتين

على تاتيانا ابنة يلتسين). لكن بيريزوفسكي بالذات في صيف عام 1999 هو الذي أطلق فكرة أن بوتين هو أفضل خليفة للرئيس. غير أن هذه الفكرة في أواخر عام 1999 اكتسبت حياتها الخاصة المنفصلة عن حياة بيريزوفسكي. ويوماً بعد يوم أصبحت هذه الفكرة تزعجه أكثر.

لم يخطر في بال بيريزوفسكي أبداً أنه محكوم. وأنه ليس بوتين هو الذي خرج عن طوره وقضى عليه، فالواقع أن أسرة يلتسين كلها وضعته خارج جميع الحسابات. وحدث هذا ليس في عام 2000، بل في خريف 1999. ويُروى أنه ظهر في الأسرة إجماع بهذا الخصوص: «حان الوقت لاستبعاد بوريس بيريزوفسكي». وهذا يعني أن بيريزوفسكي، بغروره السياسي، والأهم من ذلك، بأحاديثه الصحافية وتعليقاته الدائمة حول مختلف المسائل، قد أضجر تانيا وفاليا وفولوشين وأبراموفيتش. وقرروا بأن ضرره أكبر بكثير من نفعه. وما إن ضعف خطر فقدان السلطة وتوقيفهم، بدأوا بالتدريج بإزاحة الصديق السابق.

لقد امتعض بيريزوفسكي بشدة من انعدام إثابة المشاركين في فوز بوتين ومعاقبة أعداء الأمس. فهذا بالذات ما جرى في عام 1996 عندما وظف بيريزوفسكي وغوسينسكي قوتهم الاقتصادية الكبيرة في دعم يلتسين، فقد كوفئا بعد فوز يلتسين. حيث حصلت قناة ن.ت.ف على الترددات وأصبحت القناة المفضلة، وعُين بيريزوفسكي نائب سكرتير مجلس الأمن الروسي. ولكن في أثناء الحملات الانتخابية في 1999-2000 وقف بيريزوفسكي وغوسينسكي في معسكرين مختلفين، وكان في معسكر الخاسرين، إلى جانب غوسينسكي، بريماكوف ولوجكوف وعشرات من المحافظين. لكن الفائزين لم يحصلوا على أية مكافآت خاصة، ولم يُعاقب الخاسرون. وبقي لوجكوف عمدة لموسكو. وحصل بريماكوف على منصب شرفي: منصب رئيس غرفة التجارة والصناعة. واندمج أنصارهما السابقون في صفوف أنصار بوتين.

أما فلاديمير غوسينسكي، قطب وسائل الإعلام الكبير، الذي وقف ضد بوتين وشن ضده حرباً إعلامية، فقد قرر الكرملين معاقبته. أولاً، كان غوسينسكي قد

تحدى بوتين منذ شتاء عام 2000، عندما أعلن، كما يقال، أن بوتين لن يصبح رئيساً أبداً من دون دعم قناته التلفزيونية ن.ت.ف. وثانياً، شعر بوتين بالإهانة من برنامج «الدمى» التلفزيوني الساخر، حيث قورن بوتين بالطفل تساهيس***.

«ليس في الأمر أي شيء شخصي، إنه مجرد عمل». كان يقولها فولوشين في تلك الفترة. كان غوسينسكي غارقاً في القروض: وقد زادت قروضه تجاه الشركات الحكومية عن مليار دولار. وفي كل مرة عندما كان يحين موعد تسديد القروض، كان غوسينسكي يشن حملة إعلامية وقائية استباقية على الدائن، فيضطر الدائن على الفور إلى تمديد فترة التسديد بشروط سهلة. وهنا لا حاجة إلى بذل أي جهد بشكل خاص، يمكن أخذ كل شيء بالقروض.

لكن الوضع تغير بطريقة أخرى. فبعد شهر من تنصيب بوتين، نظم مكتب المدعي العام قضية جنائية ضد غوسينسكي، فأُوقف، وأودع في غرفة التحقيق الموسكوفية الانفرادية البائسة، في سجن بوتيركا. يتذكر العاملون في الكرملين قائلين: «هذا لم يكن ضرورياً، كان من الممكن الاستغناء عنه». لقد بدأ يحدد قواعد اللعبة مسؤولو الأمن من حاشية الرئيس. وفي المقابل كان بيريزوفسكي راضياً - ففي يوم اعتقال غوسينسكي لم يُخفِ بيريزوفسكي سروره، حيث كان يكرر قائلاً: «يجب تقييد غوسيا**** وربطه! كي يعرف! كي يعرف!». أصيب كبار رجال الأعمال بالصدمة: وكتب الأوليغارشيون رسالة جماعية مطالبين فيها بإطلاق سراح غوسينسكي. وكان بيريزوفسكي رجل الأعمال الوحيد الذي لم يوقع هذه الرسالة.

في أثناء اعتقال غوسينسكي، كان بوتين يقوم بزيارة رسمية لإسبانيا، ورداً على سؤال الصحافيين ماذا يحدث لغوسينسكي، أجاب بأنه لا يعرف، حسب زعمه، لأنه «لا يستطيع الاتصال بالمدعي العام». بقي غوسينسكي خلف القضبان ثلاثة أيام فقط. حضر لعنده إلى الزنزانة وزير المطبوعات ميخائيل ليسين. فوقعا اتفاقية يتم بموجبها إطلاق سراحه مقابل أن يسلم قناة ن.ت.ف

للدولة. أُطلق سراح غوسينسكي، وسرعان ما غادر روسيا ونشر الاتفاقية التي تم توقيعها في الزنزانة. وقد وجه بذلك ضربة قوية جداً لسمعة بوتين الدولية - فقد عاد بوتين للتو من جولة دعائية أوروبية، وانطلق فلاديمير غوسينسكي في جولة أوروبية دعائية مضادة، متحدثاً عن فظاعة الرئيس الروسي الجديد. شعر بوتين بإحباط شديد، ليس بسبب فظاظة عملية إطلاق سراحه، حيث لم يُعاقب أحد من منظمي هذه العملية، بل بسبب الفضيحة. ولهذا أمر بوتين بإيقاف مصادرة القناة التلفزيونية من غوسينسكي، ريثما تهدأ المشاعر.

لقد أطلق اعتقال غوسينسكي الجِنيّ من الزجاجة. فقد بدأت لدى جميع ممثلي الاقتصاد الكبير - الأوليغارشيين - كما كانت شائعة تسميتهم في عهد يلتسين عمليات التفتيش والتدقيق والمصادرة. بدهي أنه لم تكن هناك عملية مخططة، ولكن هكذا فهم رجال الأمن المحيطون ببوتين الإشارة الصادرة عن الرئيس: يجب التنظيف وإحلال النظام.

في الفترة الأخيرة من رئاسة يلتسين، كثيراً ما كان مكتب المدعي العام يرفع دعاوى جرمية كبيرة، في آخر التسعينيات حلت ذروة الحرب ضد الأوليغارشيين. ولكن، ظهر شعور الآن بأن تعزيز أجهزة التحقيق القضائية هو علامة دالة على الزمن الحديث. وقد صاغتها في عناوينها صحيفة «كوميرسانت» (التي كانت تصدر عن مطبخ بيريزوفسكي الإعلامي)؛ فقد كانت من فترة لأخرى تنشر على صفحاتها الأولى عناوين تبدأ بكلمات «جاؤوا لأخذ...» - وهذا تلميح واضح إلى فترات القمع والاعتقالات الستالينية.

ولكن إذا ما نظرنا إلى هذه الحالات، بصورة منفصلة، لم يكن هناك في الحقيقة أية أعمال قمعية ستالينية في عام 2000، فكل حالة من حالات «جاؤوا لأخذ...» كانت تتحول إلى مراحل التحقيق، لأنه في كل حالة كان الحديث يدور عن ابتزاز مقذع. كان أول عنوان في صحيفة «كوميرسانت» من هذه السلسلة الشهيرة هو «جاؤوا لأخذ أليكبيروف»، وذلك عن أعمال التفتيش في شركة «لوكويل Лукойл» أكبر شركة نفط في روسيا. شركة «لوكويل» نفسها

التي مولّت في الانتخابات مجموعة بريماكوف - لوجكوف.

في الحقيقة، لم تكن هناك أية سياسة في هذا الموضوع: فجميع نواب «لوكويل» كانوا أول من تخلى عن بريماكوف وابتعدوا عنه؛ ورفضوا على الفور الدخول في حزب «الوطن - روسيا كلها» وشكلوا جماعة «أقاليم روسيا». وفيما بعد صوتوا متضامين مع حزب «الوحدة»، ومن ثم انتسبوا إلى حزب «روسيا الموحدة».

أما بالنسبة إلى تحقيقات المدعي العام في شركة «لوكويل»، فبحسب الرواية المنتشرة، فقد حرض عليها مصرفي كبير معروف؛ حيث استغل صداقته القديمة مع بوتين، وجاء إلى رئاسة شركة «لوكويل»، قبل انتخابات مجلس الدوما عام1999، وأعلن أنه يجمع الأموال بتكليف من الكرملين، وحصل على نحو 50 مليون دولار. وكي لا تطلب منه شركة «لوكويل» إعادة المبلغ إلى الشركة بعد الانتخابات، قام المصرفي الكبير صاحب هذه المبادرة واشتكى لمكتب المدعي العام على الشركة. وسرعان ما انتهت فعلاً ادعاءات أجهزة التحقيق على شركة النفط، وانتهت معها مطالبة أليكبيروف باستعادة مبلغ 50 مليون دولار.

الغواصة

كان بيريزوفسكي مزعوجاً إلى حد كبير من عدم قدرته على السيطرة على السلطة الجديدة، لدرجة أنه قرر الإقدام على تدابير استثنائية. كان يريد إرغام بوتين على إطاعته، ولكن بعد أن استنفد جميع الوسائل لإقناعه بالكلام، أخذ يتصرف بالأسلوب الذي اعتاد عليه، أي أنه أقدم على المغامرة.

بعد أسبوع من بدء صحيفة «كوميرسانت» تشكيل صورة جديدة لروسيا البوتينية، بنشرها مقالات «جاؤوا لأخذ...» على صفحتها الأولى، أعلن بيريزوفسكي أنه يسلم تفويضه النيابي ويغادر البرلمان. لم يدرك أحد لماذا أقدم على هذه الخطوة، وماذا ينوي. كان بيريزوفسكي يعلن على الملأ أنه

ينوي تأسيس قوة معارضة حقيقية، وينوي أن يركز جهوده كلها عليها. وبالفعل، سرعان ما بدأ نزاعاً جدياً مع السلطة.

أصبحت كارثة الغواصة النووية «كورسك» أول امتحان جدي لبوتين. فقد غرقت في 12 آب/أغسطس في اليوم الـ 97 من رئاسة فلاديمير بوتين. في البداية لم يولِ بوتين الكارثة أهمية، وذهب في إجازة إلى سوتشي. كان العسكريون يرسلون إليه التقارير أن كل شيء تحت السيطرة، ولا حاجة إلى القلق، وسيتم قريباً تسوية كل شيء. وبدأت أعمال الإنقاذ في اليوم التالي، وعندها اتضح أن 118 من البحارة العاملين في الغواصة محاصرين في الفخ تحت الماء على عمق 108 أمتار. قطع بوتين إجازته ولم يغادر سوتشي إلا بعد خمسة أيام. ولهذا السبب تعرض لانتقاد شديد من جانب الصحافة.

في 22 آب/أغسطس، عندما اتضح أن جميع البحارة قد هلكوا، توجه بوتين إلى لقاء مع أهالي الضحايا في قرية الغواصات فيديايفو على بحر الشمال. كان اللقاء مؤثراً وأليماً جداً: كان أهل البحارة القتلى يصرخون وينوحون، واتهموا بوتين والعسكريين بالكسل والخمول، وبأن القيادة كانت تضيع الوقت، ولم ترغب في طلب العون من الخارج. ورداً على ذلك، هاجم بوتين التلفزيون ثلاث مرات، وقال إنه «يكذب»، كما هاجم أصحاب الأقنية التلفزيونية. في بداية اللقاء كان يتردد هذا التوجه: «هناك في التلفزيون أشخاص يصرخون اليوم أكثر من الآخرين، وهم الذين دمروا الجيش والأسطول، خلال عشر سنوات، حيث يموت البحارة اليوم. وها هم اليوم في الصفوف الأولى من المدافعين عن هذا الجيش. كذلك من أجل التشهير والانهيار النهائي للجيش والأسطول! إنهم خلال بضع سنوات سرقوا الأموال وهم الآن يشترون الجميع وكل شيء! وقد صاغوا هذه القوانين!». وفي منتصف اللقاء عاد بوتين إلى الموضوع نفسه قائلاً: «لقد كدسوا الأموال المسروقة، واشتروا وسائل الإعلام الجماهيرية وهم يستقطبون الآن الرأي العام». وأوجز في نهاية اللقاء قائلاً: «إن مخطط عملهم ومنطقهم بسيط للغاية. بسيط جداً. التأثير في الجمهور، وعلى هذا النحو

يظهرون للقيادة العسكرية، ولقيادة البلاد السياسية، أننا نحتاج إليهم، وأننا في قبضة أيديهم، وأن علينا أن نخشاهم، وأن نطيعهم، وأن نوافق على أن يقوموا في المستقبل أيضاً بسرقة البلاد والجيش والأسطول. هذا هو في الواقع الهدف الحقيقي لأفعالهم. لكننا لا يمكننا أن نقول لهم:
«توقفوا!» كان من الصحيح أن نقول لهم هذا، ولكن... علينا أن نطبق نحن، بأنفسنا، في الوقت المناسب، سياسة إعلامية أكثر موهبة، وأكثر مصداقية، وأكثر دقة. لكن هذا يتطلب قوى، وموارِدَ، ومختصين أكفاء».4

لم يُسمح في اللقاء باستخدام أجهزة التسجيل، ولكن بعد أسبوع نشرت مجلة «كوميرسانت - السلطة» التي من ضمن ممتلكات شركة بوريس بيريزوفسكي، النص الحرفي للقاء. وبعد يومين، وفي وقت الذروة ظهر على قناة و.ر.ت.OPT (التي يشرف عليها بيريزوفسكي أيضاً) برنامج سيرغي دورينكو، هو نفسه الذي كان قد تحدث قبل عام عن عملية بريماكوف، وحط من قيمته وأدائه، وعلى هذا النحو ساعد بوتين في أن يصبح رئيساً. حلل دورينكو أقوال بوتين وتصريحاته حول كارثة الغواصة «كورسك» واتهمه بالكذب. ومن بين أشياء أخرى، قدم مقاطع من لقاء بوتين المسجل مع أهالي البحارة، الذي كانت مجلة «كوميرسانت» قد نشرت نصه. وكانت هذه المرة الأخيرة التي يظهر فيها دورينكو على شاشة التلفزيون، حيث سرعان ما تم حظر البرنامج. في هيئة تحرير برنامج «فريميا» الإخباري - الذي أصبح البرنامج الرئيس الموالي للكرملين في القناة الأولى - يتناقلون حتى الآن، من فم إلى فم، أسطورة تزعم، وكأنه بعد هذا البث مباشرة، رن جرس الهاتف في قناة و.ر.ت. وكان المتكلم هو بوتين نفسه. ورأى أن مثل هذا الخطاب من جانب القناة هو خيانة. ولم يصفح بوتين عن بيريزوفسكي بسبب هذا البرنامج.

لم يتطلب الأمر جهوداً كبيرة من أجل انتزاع قناة و.ر.ت. من بيريزوفسكي. وكما صرح فيما بعد فولوشين في محكمة لندن في أثناء شهادة بيريزوفسكي ضد أبراموفيتش، فقد اتصل هاتفياً بالمدير العام للقناة كونستانتين إيرنست،

وطلب منه ألا يُعر بعد الآن بيريزوفسكي أي اهتمام. حيث قال له على هذا النحو تقريباً:

«كوستيا***** انس منذ الآن تعليمات بيريزوفسكي. لا حاجة إلى أن تطيعه بعد الآن، وإلا سوف نتخذ قرارات بهذا الخصوص».

لقد كان هذا عملاً مشروعاً قانونياً، لأن بيريزوفسكي كان يملك 49% من أسهم القناة بينما تملك الدولة 51% منها. وأعلن فولوشين أن المساهم الرئيس قرر استعادة حقوقه، ويبدأ بإدارة القناة التلفزيونية بصورة مستقلة. قال لبيريزوفسكي: «المسرحية انتهت». وقد تذكر رئيس إدارة الكرملين سابقاً هذه الجملة بالذات في إفادته في محكمة لندن. وكان هذا يعني أنه لا يمكن لبيريزوفسكي بعد الآن أن يتصل بالقناة ويعطي أية تعليمات، فقد حُظر على إدارة القناة الإصغاء إلى تعليماته. لم يعترض أحد من العاملين في قناة و.ر.ت.، باستثناء دورينكو، الذي تم تسريحه من العمل على عجل.

في أواخر آب/أغسطس أعلم فولوشين الرئيس بوتين، أن بيريزوفسكي يطلب مقابلة شخصية معه. وافق بوتين، لكنها كانت مقابلة مختلفة تماماً عما في الماضي. حتى أن بوتين لم يكن فاتراً معه. وقد قال لبيريزوفسكي، أنه لن يدير بعد الآن قناة و.ر.ت. التلفزيونية، ويمكنه بيع حصته فيها إذا رغب، أو يمكنه البقاء. ولكن على أية حال، لن يُسمح له بإدارتها أو توجيهها.

لقد صُدم بيريزوفسكي من هذا الاستقبال - فقد كان يظن في كل مرة، أن بوتين سيستسلم، وأنه سيخاف من شيء ما، وأنه سيتنازل. في أوائل أيلول/سبتمبر كتب بيريزوفسكي لبوتين رسالة مفتوحة، نشرها في صحيفته «كوميرسانت»: «أرجوك، أيها السيد الرئيس، توقف قبل أن يتأخر الوقت! لا تطلق من الزجاجة جنيّ السلطة الشمولية المطلقة التي دمرت بلادنا ما يزيد عن سبعين عاماً. لن تتمكن من السيطرة على هذا الجنيّ. وهو سيقضي على البلاد وعليك». وقد وعد في هذه الرسالة أن يسلم حصته من أسهم القناة إلى إدارة الصحافيين والانتليجينتسيا الإبداعية، لكنه لم ينفذ هذه الخطوة.

في تشرين أول/أكتوبر باع حصته من أسهم قناة و.ر.ت. لصديقه القديم رومان أبراموفيتش. ولكن، بعد 12 عاماً عندما رفع بيريزوفسكي دعوى قضائية على أبراموفيتش، لأنه، كما زعم، لم يسدد له كامل قيمة حصته من أسهم القناة التلفزيونية والشركات الأخرى مثل شركة «سيبنفط»، اتضحت تفاصيل هذه الصفقة، علاوة على ذلك نشرت المحكمة نص الحديث الذي تم التنصت عليه بين بيريزوفسكي وأبراموفيتش وبدري باتراكتسشفيلي في فندق لو برج الفرنسي. حيث قال الأوليغارشيون الثلاثة، إن بيع قناة و.ر.ت يتم بإذن من بوتين، وإن فيكتور غيراشينكو رئيس البنك المركزي الروسي سيهتم شخصياً من أجل تسهيل عملية تحويل أموال أبراموفيتش إلى حساب بيريزوفسكي. كما سيروي أبراموفيتش في المحكمة بأن بوتين وفولوشين قد كلفاه بشراء أسهم من بيريزوفسكي. وسوف يؤكد، أنه لم تكن هناك أية حصص في شركات أبراموفيتش لدى بيريزوفسكي، بل كانت هناك تسديدات دورية منتظمة، كان يحولها له، وكانت تسديداً لخدمات «السقف السياسي».

منذ حادثة غواصة «كورسك» على وجه التحديد بدأ صراع بوتين مع أولئك الذين «اشتروا وسائل الإعلام الجماهيري وبدأوا باستقطاب الرأي العام»، أي من حيث الجوهر، مع وسائل الإعلام الجماهيري التي لا تخضع لسيطرة الدولة ورقابتها. وهذه لم تكن استراتيجية مبرمجة مسبقاً، بل كانت مجرد رد فعل عفوي على المثيرات الخارجية. ولكن، ومع كل خطوة تالية، كان يود أن يقوم بخطوات جديدة أخرى، لأن عدم الاستماع إلى النقد أبعث على السرور من سماعه.

وكان فولودين يؤكد لزملائه بأن هذه تكاليف ونفقات ضرورية، والمهم أن تستمر الإصلاحات.

أندروبوف الجديد

ثمة سبب آخر لقلق بوريس بيريزوفسكي لم يشاركه فيه إلا قليلون، وهو أن

فلاديمير بوتين قدِم من الأجهزة الأمنية. لم يكن بيريزوفسكي يثق بالـ ك.ج.ب في البداية، لم يقلقه ماضيه الأمني. ولكن مع تناقص نفوذه، أخذ يميل بشكل أكبر لتفسير كل ما لا يروقه في سلوك بوتين بماضيه الأمني المخابراتي.

في حين أن بوتين كان يناور بنشاط مع العاملين في جهاز الأمن الاتحادي، الذين كان يعتمد على دعمهم. في كانون أول/ديسمبر 1999، وقبل أسبوع ونصف من تعيين يلتسين له قائماً بأعمال الرئيس، حضر بوتين إلى لوبليانكا - مقر جهاز الأمن الاتحادي الروسي للاحتفال بيوم رجل الأمن. وفي أثناء إلقائه كلمته في حفل الاستقبال، قال مازحاً: «إن مجموعة العاملين في جهاز الأمن الاتحادي، التي أرسلتموها للعمل السري في الحكومة، تقوم بمهامها بنجاح في المرحلة الأولى». فضجت القاعة بالتصفيق. وكل من شاهد فيما بعد شريط فيديو تسجيل الاحتفال شعر بالرجفة.

وفي عام 1999 سمح بوتين بالاحتفال على نطاق واسع بالذكرى الـ 85 لميلاد يوري أندروبوف، السكرتير العام الأسبق للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، الذي بقي على رأس الـ ك.ج.ب أكثر من عشرين عاماً، ويعدُّ، في الأجهزة الأمنية، زعيم الاتحاد السوفييتي الأكثر حكمة. وفي كانون أول/ديسمبر وُضعت لوحة شرف تذكارية على بناء جهاز الأمن الاتحادي في
لوبليانكا تكريماً لأندروبوف.

وفيما بعد، وفي المنشورات المتعددة بمناسبة الذكرى التسعين لميلاد السكرتير العام للحزب الشيوعي الأسبق أندروبوف، أخذت تنتشر رواية مفادها أن أندروبوف بالذات وحده كان يمكنه، وكان عليه، إنقاذ الاتحاد السوفييتي من الانهيار. فهو كان ينوي تنفيذ تلك الإصلاحات السديدة الرشيدة التي يمكنها أن تقود الاتحاد السوفييتي على طريق الصين، ولا تسمح بقيام البيريسترويكا وانهيار البلاد. لكن موته المبكر قضى على جميع الآمال. لقد توفي أندروبوف في عام 1984، ولم يتمكن من قيادة الاتحاد السوفييتي سوى عام ونصف. وكان متقاعدو الأجهزة الأمنية الوطنيون يرون في بوتين فرصة ثانية غير

متوقعة، وتقمصاً وبعثاً لأندروبوف، يمكنه أن يبعث العظمة السوفييتية السابقة من الرماد.

أما بوتين نفسه، فجلي أنه لم يكن يعد نفسه متابعاً لقضية أندروبوف، كما أنه لم يكن مؤيداً متحمساً لرئيس الـ ك.ج.ب الأسطوري، وفي أشهر رئاسته الأولى كان يفكر في أشياء أخرى. بطريقة أخرى كان ينظر إلى الاحتفال نيقولاي باتروشيف، مدير جهاز الأمن الاتحادي الجديد، والنائب الأول السابق لبوتين. كان يعتبر أندروبوف مثلا أعلى شخصياً له: فقد أمضى أندروبوف شبابه في كاريليا، وباتروشيف كان يعمل هناك في بداية التسعينيات، وترقى إلى منصب وزير الأمن في كاريليا.

في عام 2004 نشر باتروشيف مقالة في الصحيفة الحكومية «روسيسكايا غازييتا» بمناسبة ذكرى ميلاد السكرتير العام المرحوم أندروبوف، حيث قال: «إن شخصية أندروبوف يُنظر إليها ليس في أوساط متقاعدي الأجهزة الأمنية فحسب، بل وبين العاملين في جهاز الأمن الاتحادي، وفي نظر جميع الذين يعملون في الجهاز في مرحلة ما بعد الاتحاد السوفييتي، على أنه نموذج رجل الدولة الحقيقي وممثل النخبة الاستراتيجية في البلاد، الساعية إلى بلوغ وتطبيق المصالح الوطنية العامة... إن الوقت حقيقة ليس له أي وزن على من خدم ويخدم الوطن بإخلاص وشرف».5 لقد كان هذا غريباً جداً، بالنسبة إلى عام 2004، الافتخار بالماضي السوفييتي، ولا سيما بأجهزة القمع السوفييتية. وبعد عشر سنوات سيغدو هذا خطاباً عادياً لبوتين ولباتروشيف، الذي أصبح بعد ثورة 2014 في أوكرانيا أحد أكبر منظرّي النزعة الاستقلالية الانعزالية الروسية الجديدة.

تسديد الديون

لم يشعر الفريق الاقتصادي الليبيرالي الذي جمعه بوتين من حوله، تلاميذ أناتولي سوبشاك، الذي يمثل فاتسلاف هافل الروسي، بأية معاناة تجاه توقيف

غوسينسكي، وتجاه ما كتبته الصحافة عن بداية القمع، وتجاه إعادة توزيع سوق وسائل الإعلام الجماهيرية. كانت الحكومة الشابة تدرك أنه ليس لديها كثيراً من الوقت على الغالب، من أجل الإصلاحات الاختراقية، وبالتالي الأليمة، لأنها لن تتمكن قبيل الحملة الانتخابية الدورية من إجراء كثير من الإصلاحات. كانت تسعى إلى تحقيق الحد الأقصى طالما أن الظرف يسمح، وطالما ترتفع أسعار النفط، وشعبية الرئيس تسمح بإمكانية تحقيق تحولات ثورية. لقد كان الليبيراليون الشباب يكرهون الأوليغارشيين المتآمرين، الذين فقدوا نفوذهم بعد استقالة يلتسين، ولهذا فقد شعروا في داخلهم بالسرور من قطع طريق الكرملين عليهم – فمن دونهم أكثر هدوءاً. وكانت ردة فعل الحكومة على العويل في الصحافة صامدة - لا بأس، فهذا ثمن حتمي للإصلاحات القاسية الأليمة.

الشيء الوحيد الذي لم تتوقعه حكومة بوتين الليبيرالية، هو أن يبدأ الغرب بعرقلتها، الذي أعرب بالماضي القريب عن إعجابه بـ «الفريق المتألق» للرئيس الروسي الجديد. ذلك لأن الدولة الروسية كانت غارقة في الديون حتى أذنيها: فمن ناحية، نادي باريس (أي الهيئة غير الرسمية للبلدان المانحة التي كانت تعطي القروض بسخاء للاتحاد السوفييتي، ومن ثم لروسيا في الأعوام التسعينيات)، ومن ناحية أخرى، نادي لندن (الذي يضم البنوك التجارية والشركات الخاصة التي كانت أيضاً تعطي القروض بنشاط للحكومة الروسية). وكل عام كانت الديون المستحقة السداد على روسيا تزداد ويمكن أن تبلغ الذروة في عام 2003، وكان الاقتصاديون يفكرون في هذا الأمر برعب، وتحدثوا عن «مشكلة عام 2003»، وتنبؤوا بأن الاقتصاد الروسي سيختنق تحت أعباء الديون.

عين بوتين رئيساً لحكومته ميخائيل كاسيانوف، الذي كان وزيراً للمالية قبل قدوم بوتين إلى رئاسة الحكومة في عام 1999. كان التخصص الرئيس لكاسيانوف بالذات هو إجراء المفاوضات مع هيئات الاقتراض الدولية - كان

قادراً أكثر من أي شخص آخر على إقناع المقرضين الأجانب بإعادة هيكلة الديون الروسية. وفي أثناء تشكيل الحكومة، ومع أن كاسيانوف كان النائب الأول لرئيس الوزراء بوتين، لكنه لم يكن مفضلاً عنده. وليس هو من وضع خطة الإصلاحات الاقتصادية، فقد قام بوضع هذه الخطة مركز التصاميم والدراسات الاستراتيجية الذي كان يرأسه غيرمان غريف. علاوة على ذلك، كان بوتين يعرف كودرين وغريف قبل ذلك بسنوات طويلة، منذ عمله في بطرسبورغ - وكان من المنطقي أن يترأس الحكومة أحدهما. لكن بوتين اختار كاسيانوف لأنه، من ناحية، كان أقرب إلى أسرة يلتسين، ومن ناحية أخرى، لأن مسألة تسوية الديون الخارجية كانت مسألة مفتاحية لرئيس الوزراء الجديد. وقد حاز كودرين على منصب وزير المالية، أما غريف فقد ترأس وزارة جديدة، هي وزارة التنمية الاقتصادية.

قد يبدو غريباً، لكن الاتفاق مع البنوك الخاصة تبين أنه أبسط بكثير: فقد اتفق ميخائيل كاسيانوف على شطب أكثر من ثلث الدين مع نادي لندن. أما نادي باريس فقد رفض وطالب بتسديد الدين بكامله، هذا على الرغم من أن الوزن الرئيس في النادي كان لأصدقاء بوتين الجدد: جورج بوش وتوني بلير. «البزنس هو بزنس»، ولا شيء شخصي.

وبحلول العام الجديد أصبح الوضع متأزماً لدرجة أن بوتين لم يسمح لأي من الفريق الاقتصادي بالذهاب إلى عطلة السنة الجديدة. ففي 3 كانون ثاني/يناير 2002 اجتمع الجميع في الكرملين من أجل تقرير كيفية الخروج من مأزق الديون: بوتين، رئيس الوزراء كاسيانوف، رئيس إدارة الرئاسة فولوشين، والوزيران كودرين وغريف، وكذلك مستشار بوتين الاقتصادي، «المعتمد» الروسي في اجتماع قمة الثمانية الكبار أندريه إيلاريونوف، طفل الكرملين الرهيب الجديد، المشهور بآرائه الليبيرالية التحررية المتطرفة، وطبعه العجيب.

تحول الاجتماع إلى فضيحة بين كاسيانوف وإيلاربونوف. كان رئيس الوزراء يقول إنه يجب الضغط أكثر على نادي باريس، لأن من غير الممكن تسديد

جميع الديون - فهذا سيستنزف الاقتصاد. بينما كان إيلاريونوف يصرخ بأنه يجب تسديد كل شيء، بما أنهم قبلوا روسيا ضمن «الثمانية» الكبار، فعلى روسيا أن تبرر حصولها على هذا الوضع الرفيع، ولا يمكنها أن تريق ماء وجهها، وتطلب تأجيل تسديد الدين وإعادة هيكلته. هذه الحجج كانت تستفز كاسيانوف، وكان يرى أنه ليس ثمة مذلة في المفاوضات من أجل إعادة هيكلة الدين. كان يروق لفولوشين بوضوح موقف إيلاريونوف الراديكالي - فقد كان رئيس الإدارة «الصقيعي» مع تسديد الدين بكامله برأس مرفوع، بينما اعترض كودرين، بأنه لا يتوفر في الخزينة هذا المبلغ الكبير. قرر بوتين الانتظار: وأرسلوا للمانحين رسالة مفادها أن روسيا مستعدة لدفع فائدة على الديون، بشرط تأجيل تسديدها.

لكن نادي باريس لم يوافق على هذا. ورد على رسالة موسكو، مصراً على أن تدفع روسيا الدين بكامله، لأن الوضع الاقتصادي مناسب وأسعار النفط في ارتفاع. وفي أواسط كانون الثاني/يناير أصدرت وزارة المالية الألمانية بياناً صحافياً جاء فيه أنه إذا لم تبدأ روسيا بتسديد ديونها، فإن برلين ستقف ضد إعطاء روسيا عضوية كاملة في عداد «الدول الثماني الكبرى».

في تلك الفترة لم يكن المستشار الألماني غيرهارد شرودر يدخل في عداد أصدقاء بوتين الأجانب المقربين، وكان واضحاً أن هذا البيان يعد - موقفاً متوافقاً عليه بين الدول «السبع الكبرى». لقد كانت هذه ضربة للكرملين. كان انضمام روسيا إلى الدول «السبع الكبرى»، الذي جرى في عام 1997، التركة الإيجابية الوحيدة التي ورثها بوتين عن بوريس يلتسين - وما تبقى كانت مشكلات كثيرة. وها هو ذا الآن بوتين وحكومته قد وجدا نفسيهما على حافة الحرمان من فرصة أن تصبح روسيا عضواً كاملاً في هذا النادي المهيب.

غضب بوتين غضباً شديداً، لدرجة أنه أوقف النقاش بين كاسيانوف وإيلاريونوف، وانتصرت أطروحة «المعتمد»: نحن أقوياء، وعلى الأقوياء أن يسددوا. ووضعوا وزير المالية كودرين أمام الأمر الواقع؛ فعليه أن يعثر على

المال المطلوب من أية جهة لتسديد الدين. وعد كودرين بأن يجد المال اللازم، فكاد كاسيانوف يفقد عقله - وجميع جهوده التي استمرت سنوات ذهبت هباء منثوراً، ولم يعد يرغب بوتين في الاستماع إليه. وختاماً لهذا كله، عقد أندريه إيلاريونوف مؤتمراً صحافياً، من دون استشارة أحد، وأعلن فيه أن روسيا ستسدد ديونها، وبوتائر أسرع من المطلوب. كان يعرف أن الرئيس قد أكد بصورة نهائية أحقية وجهة نظره، ولم يستطع الصبر كي يوجه إهانة لرئيس الوزراء كاسيانوف. حتى هذه اللحظة، كان كاسيانوف يعد شخصية مؤثرة وفاعلة وذات نفوذ، وهنا لحقت به هذه الضربة وهذا الإحراج. كما غضب كودرين أيضاً من إيلاريونوف - لأنه لم يكن لديه أية أفكار بخصوص من أين يأتي بالمال اللازم لتسديد الدين، ووجد نفسه في وضع محرج. وفي المحصلة، وخلال بضعة أسابيع، تشاجر أفراد المعسكر الليبيرالي في الحكومة فيما بينهم بصورة حادة، وأضمروا ضغينة قوية على الغرب، الذي وضعهم في هذا الموقف.

بعد فترة قصيرة، تبين أن كل هذه الاضطرابات والقلاقل كانت عبثية، بلا مبرر. فأسعار النفط لم تنخفض، وطيلة العام حافظت على مستواها، نحو 27 دولار للبرميل (كان السعر طيلة السنوات العشر السابقة أقل بمرة ونصف بالمتوسط). وتبين أن الأموال المجمعة من أسعار النفط كانت كافية، ليس فقط لتسديد دين نادي باريس، بل ومن أجل تسديد ديون صندوق النقد الدولي. وتم تنفيذ ميزانية عام 2001 بالكامل مع فائض، وتوقفت روسيا عن تنسيق سياستها الاقتصادية مع صندوق النقد الدولي. بيد أن العداء الذي نشأ بين الاقتصاديين بقي قائماً. ومن سخرية القدر أن العدّوين كاسيانوف وإيلاريونوف، عند تقديم استقالتيهما (كاسيانوف في شباط/فبراير 2004 وإيلاريونوف في كانون أول/ديسمبر 2005) أصبحا من ضمن المعارضة الشديدة لفلاديمير بوتين. ولم يفكر لا كودرين ولا غريف في الدفاع عنهما ولم يحاولا إبقاءهما في السلطة.

الأممية المعادية للإرهاب

خلافاً لقضية الغواصة «كورسك» التي غرقت، لم تشكل العملية العسكرية في الشيشان، أو حرب الشيشان الثانية، مشكلة بالنسبة إلى بوتين. بل العكس، فقد شكلت نجاحاً له. وبفضل هذه الحرب بالذات، اكتسب صورته الرئاسية. الشيء الوحيد الذي كان يقلقه هو الأسئلة العديدة لزملائه الرؤساء الغربيين. فعملية الشيشان العسكرية كانت تبدو في أعين الغرب حرباً ضد الشعب الشيشاني: خرق منظم لحقوق الإنسان، وجرائم ضد السكان المدنيين، وتعذيب. وقد اتهموا روسيا بهذا في أثناء حرب الشيشان الأولى 1994 -1996. بيد أنه ثمة فارق كبير بين الحملتين الأولى والثانية.

في الحملة الثانية راهن بوتين على محلية الحرب وجعلها محدودة ضيقة. في أثناء حرب الشيشان الأولى انقسم الطرفان المتحاربان إلى «نحن» و«هم»، وكان هذا يعني لجميع سكان الجمهورية «الشيشان» و«الروس». أما في عام 2000، فقد راهن بوتين على أحمد قديروف، مفتي الجمهورية، القائد العسكري الميداني السابق، الذي وافق على أن يصبح رئيساً للجمهورية الشيشانية، موالياً للروس، وجمع حوله أنصاره. وهكذا انتقلت نقطة التحول «نحن» و«هم» إلى داخل الشيشان- وهكذا أصبح النزاع بين «أنصار قديروف» و«أنصار المقاومة السرية».

وأصبح في وسع بوتين أن يقول إن الذنب كله يقع على الإرهابيين، وإن الشيشان تحارب عملاء «القاعدة»، بمن فيهم الأردني خطاب، وإن السلطة الشيشانية المحلية تحاربهم. وكان يعيد إلى الذاكرة بالطبع، أن الحرب بدأت بتدخل الإرهابيين في داغستان في شهر آب/أغسطس عام 1999. ولكن بعد أن أصبح بوريس بيريزوفسكي وفلاديمير غوسينسكي لاجئَيْن سياسيين في الغرب، ألحقت ضربة ظاهرة ملحوظة برواية بوتين. فقد كان فلاديمير غوسينسكي في لقاءاته الصحافية العديدة يتحدث عن خرق حقوق الإنسان في الشيشان، أما بوريس بيريزوفسكي فكان يقول إن الحرب الشيشانية الثانية قد نظمتها الحاشية المحيطة بفلاديمير بوتين وكانت جزءاً من حملته

الانتخابية.

عندما كان بوتين يتحدث لزملائه الغربيين عن الحرب على الإرهاب، كانوا يصغون بانتباه، ويتظاهرون بأنهم يصدقونه. كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون إنهم سيسعون إلى المساهمة فيها. ولكن، في الواقع جرى كل شيء بطريقة أخرى. في البداية نقلت الاستخبارات إلى الكرملين صورة يظهر فيها العاملون في السفارة الأمريكية في أذربيجان يوزعون وثائق مزيفة على المشاركين في العصابات الشيشانية المسلحة. وقد عُرضت هذه الأدلة من دون ضجة على السفارة الأمريكية في موسكو. اعتذر الأمريكيون، وأكدوا أنه حدث خطأ، وأن هذا نتيجة تصرف تعسفي فردي من موظف، وأن هذا الدبلوماسي المذنب سوف يُستدعى من السفارة بأسرع وقت.

ولكن، مع مرور الزمن، كان يظهر واضحاً باطراد، أن الولايات المتحدة الأمريكية ليست في عجلة من أمرها لمساعدة روسيا في الحرب ضد الإرهاب. وعلى سبيل المثال، لم تغلق الولايات المتحدة الأمريكية تلك الصناديق الإسلامية التي اتهمها الكرملين بتمويل العصابات الشيشانية. وقالوا في واشنطن: «نحن صدقناهم، وهم يقومون بوظائف إنسانية بحتة». وبهذا الصدد، بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر تم إغلاق هذه الصناديق على الفور. وقد شعروا في الكرملين بالغضب والاستياء: فسلوك واشنطن كان يعني أن وظائف الصناديق ليست إنسانية أبداً. وكل ما في الأمر، أن الأمريكيين كانوا غير مبالين عندما كان الإرهابيون يقتلون الجنود الروس، أما عندما بدأوا بقتل الأمريكيين، اتخذوا الإجراءات اللازمة.

لقد أصبح يوم الحادي عشر من أيلول/سبتمبر لحظة اتحاد نادر بين روسيا والولايات المتحدة الأمريكية. فقد كان فلاديمير بوتين الزعيم العالمي الأول الذي اتصل هاتفياً بجورج بوش وعبر له عن دعمه. ومنذ تلك اللحظة، أصبح من السهل على بوتين أن يشرح من يحارب في الشيشان- إنه تنظيم «القاعدة» ذاته الذي هاجم الولايات المتحدة الأمريكية. لقد كان نيقولاي باتروشيف مدير

جهاز الأمن الاتحادي هو صاحب هذه الفكرة القائلة بأن أعداء روسيا هم أكثر مما قد يبدون للعيان.

لقد أيد الكرملين بقوة خطوات الأمريكيين اللاحقة. ونظام طالبان في أفغانستان كان دوماً شديد العداء لروسيا: فأولاً، كان الطالبان الورثة الأيديولوجيين لأولئك المجاهدين الذين انتصروا في الثمانينيات على الاتحاد السوفييتي. وثانياً، كانوا دوماً يثيرون القلاقل ويأزمون الوضع في طاجيكستان وأوزبكستان، أي كان في إمكانهم في أي وقت شن حرب واسعة النطاق على الحدود الجنوبية لروسيا. وكان الأمريكيون بالذات يؤيدون، بصورة غير ظاهرة، حكومة طالبان طيلة التسعينيات، ولهذا شعرت موسكو بالفرح عندما قرر الأمريكيون الإطاحة بحكومة طالبان.

قبل بداية القصف الجوي لأفغانستان، توجه الأمريكيون بطلب إلى روسيا: ألا تعترض روسيا على إقامة قاعدة حربية -جوية في قرغيزيا لضرورة العمليات المقبلة- وذلك لفترة العمليات العسكرية، ولعام واحد كحد أقصى. في البداية اتصلت كونداليزا رايس مساعدة الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي هاتفياً بألكسندر فولوشين، ثم طلب جورج بوش من بوتين مباشرة. كانت موافقة موسكو ضرورية، لأن تزويد القاعدة بالمعدات والتجهيزات يجب أن يمر عبر الأراضي الروسية، كما أن قرغيزيا كانت تتحرك بالتوافق مع موسكو. وقد فكر بوتين مخاطباً فولوشين: «إن هذا يناسب مصالحنا - إنها من أجل الحرب على طالبان». وردا على الطلب الأمريكي: «نحن لا نعترض».

كانت العملية الحربية في أفغانستان خاطفة. استمرت أقل من أسبوع، وبعدها بدا وكأن الطالبان ذابوا واختفوا. فقد سلموا السلطة لحكومة حامد كرازاي الموالية لأمريكا، واختفوا، ولكن فقط لكي يعاودوا الظهور بعد سنتين في كل شق ويشنوا ضد الأمريكيين حرب عصابات منهكة. ولكن في بداية عام 2002 كان يبدو كل شيء مظفراً منتصراً: ولأول مرة وقف العالم المتمدن كله موحداً، وقضى بين عشية وضحاها على العدو الهمجي.

وفي نهاية عام 2002، عندما سأل فولوشين نظيرته الأمريكية كونداليزا رايس، متى ينوي الأمريكيون مغادرة قرغيزيا، فقد انتهت العملية. فأجابوه من واشنطن: «أتعرف، لقد أدركنا، أن هذه القاعدة ضرورية جداً لنا. وسنبقى فيها بشكل دائم».

غضب بوتين غضباً شديداً. كان يشعر أن الأمريكيين يخدعونه دائماً - في كل خطوة. وهم خلال ذلك، لا يعترفون بأخطائهم أبداً، من ناحية. ومن ناحية أخرى، يؤشرون للكرملين على أخطائه، ويوجهون إليه اللوم ويعلمونه كيف يجب أن يتصرف.

لكن الحرب في العراق أصبحت نقطة التحول الأهم. فقد قرر جورج بوش، مدفوعاً من اللوبي النفطي والحربي ومن الإيديولوجيين المحافظين الجدد، إطلاق عملية حربية للإطاحة بنظام صدام حسين. تم اتخاذ القرار في نيسان/ إبريل 2002، فور انتهاء العملية الحربية ضد طالبان في أفغانستان. بيد أن الكرملين لم يعرف على الفور أن القرار قد اتخذ بالهجوم على العراق. في البداية، قام ممثلو واشنطن (وبادئ ذي بدء، كونداليزا رايس) في أثناء جميع المفاوضات، بوصف مدى شناعة نظام صدام حسين، ببلاغة كبيرة، ومدى قربه من إرهابيي «القاعدة»، وكيف يهدد العالم بأسلحته الكيميائية والبيولوجية. لم تكن كونداليزا رايس صريحة - ولم تقل إنه قد تم اتخاذ القرار ببدء العملية الحربية في العراق، وعلاوة على ذلك، كان رئيس الوزراء البريطاني توني بلير قد وافق على المشاركة فيها.

على أية حال، من المشكوك به أن كونداليزا رايس كانت تعرف أن السلطات الروسية لا يمكنها أن تصدق فظائع صدام حسين التي تفننت في وصفها، فالسلطات الروسية تعرفه أكثر مما يمكن أن يتصور الأمريكيون. فرئيس الوزراء الروسي السابق، ومنافس بوتين السابق، يفغيني بريماكوف، الذي كان مستعرباً كبيراً في الماضي، كان يعد بمثابة صديق لصدام حسين، كما أن

زعيمي أكبر الأحزاب الروسية التي تدّعي المعارضة، الشيوعي غينادي زيوغانوف والشعبوي فلاديمير جيرينوفسكي كانا غالباً ضيفين دائمين في بغداد. وكانت الشركات الروسية (وبالدرجة الأولى شركتا «لوكويل» و«زاروبيجنفت») تستخرج النفط في العراق، كما كانت الشركات الروسية تتعاون مع العراق في برنامج «النفط مقابل الغذاء». ومن الصعب إحصاء الروابط - الرسمية وغير الرسمية - بين روسيا والعراق. وكان الخط الجوي الأسبوعي يوم الاثنين، الذي يتوجه من موسكو إلى بغداد، كثيراً ما يجلب العاهرات لأبناء صدام حسين وحاشيته.

بعد مرور سنتين، اتهمت لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة برئاسة بول فولكر، الرئيس السابق لنظام الاحتياطي الفدرالي الأمريكي، عشرات من الشركات الروسية، وكذلك وزارة الطوارئ الروسية والكنيسة الأرثوذكسية الروسية في أنها حصلت على حصص لتوريد النفط العراقي ودفعت عمولات كبيرة لحكومة صدام حسين. كما اتهمت لجنة فولكر عدة سياسيين روس بأنهم حصلوا على رشاوى من صدام حسين. وقد أنكر جميع المتهمين هذه التهم، باستثناء ألكسندر فولوشين الذي أثبت للجنة التحقيق أن توقيعه على الوثائق المقدمة مزوّر.

وبشكل أو بآخر، فإن فهم موسكو لبنية النظام العراقي كان أكثر كمالاً وصحة من فهم واشنطن. ولم يكن للسلطات الروسية أية مصلحة في الإطاحة بصدام حسين، المفهوم والمراقب، والقابل للتنبؤ، الغارق في الفساد، وليس في إنتاج أسلحة التدمير الشامل الكيميائية. كان الاقتصاد الروسي ينشط في العراق، وسيفقد هذه الإمكانية في حال بدء الحرب. بيد أن الكرملين لم يكن في استطاعته تقديم هذه الحجج لكونداليزا رايس. ولهذا فقد اقتصر على استخدام حجج اللاعنف، ومساعدة السكان المدنيين، والطرق الدبلوماسية لحل المشكلة. وكل هذا لم يترك أي انطباع أو رد فعل لدى الأمريكيين.

مضى عام 2002 بكامله في النقاش حول العراق: وتابع بوش وبلير الكذب على

بوتين بخصوص خطر السلاح الكيميائي والجرثومي عند صدام. في حين كان من الأسهل بكثير على بوتين إيجاد لغة مشتركة مع المستشار الألماني غيرهارد شرودر والرئيس الفرنسي جاك شيراك. فهُما، كانا أيضاً يدافعان عن السلام بالكلمات، لكنهما، عملياً، لم يخفيا مصلحتهما الخاصة. والشركات الفرنسية كانت أيضاً تعمل في العراق، وربما تقدم الرشاوى أيضاً، وهذا ما برره جاك شيراك بالنضال من أجل السلام. ربما كانت أسباب سياسة شرودر المؤيدة للسلام أكثر نبلاً. في تشرين أول/أكتوبر 2002 كان من المفروض أن تجري انتخابات في ألمانيا، وكان مقدراً لحزبه -الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني- الهزيمة. وأمام هذه الهزيمة المؤكدة، حاول شرودر المراهنة على الميول المفضلة لدى الناخبين والمعادية للحرب، ولاعتبارات شعبوية حصراً بدأ الاحتجاج على المخططات الحربية الأمريكية. وكلما كان يزداد تأييد شرودر للسلام، كانت شعبيته تقوى وتزداد -وفي المحصلة حدثت المعجزة ونجح في الانتخابات. وقد انضم بوتين إلى هذه المجموعة، فهم ثلاثتهم -بوتين وشرودر وشيراك- شكلوا حلفاً معاديا للحرب في مواجهة الحلف المضاد للعراق للولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإسبانيا.

وعموماً، ما جمع بين شيراك وشرودر وبوتين ليس حساب المصالح الخاصة فحسب، بل انزعاج حقيقي أيضاً. فثلاثتهم كانوا منزعجين من أن بوش قد قرر شن الحرب، ولم يهتم حتى بسؤالهم عن رأيهم. ولم يسمح لزعماء روسيا وألمانيا وفرنسا، بل وحتى بريطانيا، في الدخول في هذا المجلس العالمي للمدراء: ولكن كان يضم هذا المجلس نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني، والاتحادات الاحتكارية الدفاعية والنفطية التي يشرف عليها، ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد، ونائبه بول ولفوفيتس، وغيرهم من المحافظين الجدد ذوي النفوذ الكبير. واتضح أن أهمية كل واحد منهم في السياسة العالمية أكبر بكثير من أصوات زعماء الدول «السبع الكبرى».

ومع بداية الحرب في العراق، تغير موقف بوتين من الولايات المتحدة

الأمريكية، كما يقول مستشاروه، ولم يتحسن بعدها أبداً. حتى أن بوتين انزعج من صديقه توني بلير، وكان في كل لقاء معه يوبخه، حتى في المؤتمرات الصحافية. وقد وقفت الصحافة البريطانية من هذه الحوادث موقفاً عصبياً متوتراً: بوتين يهين علناً رئيس الوزراء البريطاني، ورئيس الوزراء يبتسم بارتباك ويلوذ بالصمت. على أية حال، هذه الحوادث لم تشكل نهاية الصداقة بينهما.

لم يتم الكشف عن أي سلاح كيميائي أو جرثومي في العراق. وبعد مضي عدة سنوات، اعتذر وزير الخارجية الأمريكية آنذاك كولن باول علناً، لأنه بالخطأ كان يضلل الرأي العام العالمي.

مجموعة صحافية فريدة

إن النضال من أجل السلام قد زاد إلى حد كبير من شعبية فلاديمير بوتين على الصعيد الدولي. في حزيران/يونيو 2003 نشر المكتب السوسيولوجي The Pew Research Center (مركز أبحاث بيو) نتائج استطلاع، احتل فيه بوتين المركز الأول، باعتباره الزعيم السياسي الأكثر شعبية في العالم، وحل شيراك في المركز الثاني، وشرودر في المركز الثالث. وقد ساءت علاقات الزعماء الثلاثة بالولايات المتحدة الأمريكية.

ولكن، وكما قالت وسائل الإعلام الأمريكية، فقد اتخذ البيت الأبيض قرارات مختلفة تجاه كل من الزعماء المتمردين: «معاقبة فرنسا، تجاهل ألمانيا، مسامحة روسيا». ودعت وسائل الإعلام الأمريكية بوتين، فترة من الوقت، بصديق الدكتاتور صدام، على الرغم من أن بوتين لم يلتق بصدام حسين إطلاقاً، خلافاً لوالد الرئيس الأمريكي، جورج بوش الأب، بيد أن هذا اللقب لم يُلصق به كثيراً.

لكن سمعة فلاديمير بوتين الدولية أساء إليها أكثر بكثير صديقاه القديمان: بوريس بيريزوفسكي وفلاديمير غوسينسكي.

فمنذ شهر تشرين الثاني/نوفمبر 2000، عندما هدأت فضيحة الغواصة «كورسك»، تذكرتهما أجهزة الأمن الروسية وبدأت البحث عنهما. وأعلن مكتب المدعي العام أن فلاديمير غوسينسكي قد خضع من جديد لإجراء «الحجز» الوقائي. أما بيريزوفسكي فقد خضع للتحقيق. لكن الاثنين كانا بحلول هذه الفترة قد غادرا روسيا. فقد كان غوسينسكي يعيش في فيلا في إسبانيا، أما بيريزوفسكي فكان يعيش في قصره في لندن. وأعلن الاثنان أنهما لا ينويان العودة إلى روسيا.

وفي 6 كانون أول/ديسمبر أرسل مكتب المدعي العام بطاقة بحث عن غوسينسكي عن طريق الإنتربول. وبعد أسبوع جاء رجال الشرطة إلى فيلا غوسينسكي وأودعوه في السجن. وسُلمت قضية غوسينسكي للتحقيق إلى القاضي الشهير بالتاسار غارسون الذي كان سابقاً قد حقق في قضية رئيس تشيلي السابق أوغوستو بينوتشيت. أمضى غوسينسكي في السجن الإسباني 11 يوماً، سمح القاضي بعدها بإطلاق سراحه بكفالة قدرها 5,5 مليون دولار. وبقي خلالها غوسينسكي تحت رقابة الشرطة الإسبانية، خاضعاً للإقامة الجبرية، بعد سحب جواز سفره.

جرى التحقيق في قضية غوسينسكي طويلاً وبعناية كبيرة. وفي نيسان/إبريل 2001 أصدر القاضي بالتاسار غارسون حكمه بأن القضية المرفوعة ضد غوسينسكي ذات دوافع سياسية ومن غير الممكن تسليمه لموسكو. وقد ساعدت أحداث موسكو غارسون على اتخاذ هذا الحكم -فبينما كان غوسينسكي محتجزاً في إسبانيا، وخاضعاً للمحاكمة، قاموا في روسيا بانتزاع أصوله الأساسية- قناة ن.ت.ف التلفزيونية. فقد قرر مجلس احتكار الغاز الروسي «غازبروم Газпром»، الذي أقرض غوسينسكي عدة مرات واشترى منه حصته من الأسهم، الاستيلاء على القناة التلفزيونية مقابل الديون.

كانت الغارة على قناة ن.ت.ف الفضيحة السياسية الداخلية الرئيسة في شتاء

2001. وقد انقسمت روسيا كلها إلى معسكرين: بعضهم كان يقول إنه مع مصادرة القناة ستموت حرية الكلمة، وقال آخرون إن هذه القناة تخدم المصالح التجارية الشخصية لغوسينسكي، ولا وجود لأية حرية كلمة على هذه القناة. وكان لكل من وجهتي النظر هاتين أسسهما وحججهما. لكن السخرية الخاصة كانت تكمن في قوام شخصيات هذه الفضيحة. فقد قام بدور «قاتل ن.ت.ف» (المدير العام لشركة «غازبروم - ميديا» التي صادرت القناة مقابل الديون) الليبيرالي البارز ألفريد كوخ، صديق إيديولوجي إصلاحات يلتسين الاقتصادية أناتولي تشوبايس. وبعد 13 سنة سيغدو هو نفسه منشقاً ولا يعود إلى روسيا، حيث رفعت ضده دعوى قضائية جرمية، أي يكرر مصير غوسينسكي.

قليل من يذكر أن المدافع الناري المتألق عن حرية الكلمة، ومحامي غوسينسكي وقناة ن.ت.ف. في جميع المحاكم كان القانوني الشاب بافل ستاخوف. وهو نفسه بعد عشر سنوات سيصبح ليس فقط موظفاً حكومياً، بل وأحد أبرز رموز النزعة الحكومية الشعبية المعادية لأمريكا. وبصفته مفوضاً للدفاع عن حقوق الطفل في روسيا، كان يدافع عن القانون المعروف باسم محزن «القانون المعادي للأيتام»، الذي كان يحظر تبني الأطفال من جانب المواطنين الأمريكيين أولاً، ومن ثم من جانب مواطني جميع البلدان التي تسمح بالزواج لأفراد الجنس الواحد.

لا تزال هزيمة قناة ن.ت.ف تعد حتى الآن واحدة من أسوأ الرموز القاتمة للهجمة على حرية الصحافة في روسيا. بيد أنها لم تبُد على هذا النحو آنذاك للكثيرين. وقد انطلقت تأييداً للقناة التلفزيونية مسيرات ضخمة بعديد من الألوف، ولكن لم يشارك فيها سوى المثقفين المتقدمين في السن. فالطبقة المتوسطة الفتية والناجحة كانت غير مبالية بمصير القناة التلفزيونية، وكثير من زعماء الليبيراليين (الذين كانت لديهم مجموعتهم في مجلس الدوما) وقفوا في هذا النزاع إلى جانب شركة «غازبروم»، لأنهم لم يستطيعوا أن

يصفحوا عن قناة ن.ت.ف لدعمها فريق بريماكوف - لوجكوف في الانتخابات الفائتة.

كانت طرق انتزاع القناة التلفزيونية بعيدة عن الاستقامة. في أثناء التحقيق، استُدعيت للتحقيق في مكتب المدعي العام أشهر مذيعة أخبار في القناة، الصحافية الجريئة والمتألقة تاتيانا ميتكوفا، كي يحققوا معها حول كيف حصلت على القرض لشراء شقة سكنية. ورداً على هذا السؤال توجهت زميلتها سفيتلانا سوروكينا، مذيعة برنامج الحوارية، بنداء إلى بوتين. وبعد انقضاء عدة دقائق على كلمتها الانفعالية العاطفية اتصل الرئيس بالقناة ن.ت.ف. ودعا صحافيي القناة إلى الكرملين للحديث معه. ولكن لم يعد ممكناً لأية أحاديث تقديم أية مساعدة.

ولم يكن في الإمكان استدعاء غوسينسكي لتقديم العون: كان يجري مفاوضات لبيع حصته في القناة لمؤسسة قناة سي.أن.أن الأمريكية تيد تيرنر، ولكن لم يستطع إنجاز الصفقة بشكل نهائي.

في ليلة 13 ليوم 14 نيسان/إبريل استبدل ممثلو شركة «غازبروم» حرس استوديو قناة ن.ت.ف ولم يسمحوا بخروج الصحافيين، بمن فيهم رئيس التحرير يفغيني كيسيلف. قرر قسم من العاملين في القناة (بمن فيهم ميتكوفا التي خضعت للتحقيق منذ فترة قريبة) البقاء في القناة التلفزيونية والعمل بإشراف مديري شركة «غازبروم». وبعد انقضاء عشر سنوات ستغدو ميتكوفا أحد رموز الدعاية الحكومية.

تم استبعاد الفريق الموالي لغوسينسكي من البث، ولكن بعد بضعة أيام استدعاه واجتذبه بوريس بيريزوفسكي، الذي بقيت لديه بعد بيعه قناة و.ر.ت OPT قناة تلفزيونية ضخمة هي (6- TB 6ت.ف-). وقد سرح الفريق الصحافي لقناته التلفزيونية بكامله، واقترح على فريق ن.ت.ف الأسطوري المتميز العمل عنده. وبعد عام تم إغلاق قناة ت.ف-6 بخطة مشابهة بسبب ديونها، ولكن في

هذه المرة كان الدائن شركة النفط الخاصة «لوكويل Лукойл» وليس شركة «غازبروم» الحكومية.

ومـن أجـل وضـع حـد للفضيحة، اقتـرح فولوشين علـى «الفريق الصحافي التلفزيوني الأسطوري» برئاسة يفغيني كيسيليف فرصة أخرى. هبت جماعة تتألف من عشرة من كبار الأوليغارشيين الروس لتأسيس قناة تلفزيونية جديدة نوعياً، بدلاً من قناتي ن.ت.ف و ت.ف-6 المغلقتين، لا تخضع لبيريزوفسكي ولا لغوسينسكي، ولا تخضع لرقابة أحد. ومن باب السخرية الجلية قام فولوشين بتكليف يفغيني بريماكوف بإدارة المجلس الاستشاري للقناة التلفزيونية الحرة الجديدة. وكان منطقه التالي: لقد كانوا يريدون أن يصبح بريماكوف رئيساً، فليصبح رئيساً عليهم. لكن القناة التلفزيونية الجديدة ت.ب.س TBC لم تعش سوى سنة واحدة، من 2002 إلى 2003؛ فقد اختلف مالكوها، وبدأوا يشترون الحصص من بعضهم بعضاً، وبعد ذلك قررت إدارة الرئيس إغلاق القناة. وعلى أية حال، لم تعد هذه القناة تجتذب اهتماماً خاصاً لدى المشاهدين.

بحلول هذه الفترة، وعندما هب بيريزوفسكي لنجدة صحافيي قناة ن.ت.ف، لم تكن قـد صدرت بحقـه مذكرة بحث. ولكن، فـي المقابل، اعتُقل في موسكو صديقه القريب نيقولاي غلوشكوف، الذي اتهم بسرقة أموال شركة الطيران «آيروفلوت» (وكان بيريزوفسكي مساهماً فيها). فيما بعد أكد بيريزوفسكي أن غلوشكوف كان رهينة وأداة للضغط عليه. ولكن بحلول خريف 2001 - بعد أن استقر صحافيو قناة ن.ت.ف السابقة في قناته التلفزيونية ت.ف-6 - جاء دوره وصدرت بحقه مذكرة بحث.

في شهر أيلول/سبتمبر 2001، اتهم المدعى العام بيريزوفسكي غيابياً بالتواطؤ على الاحتيال وغسيل الأموال. بيد أن الحكومة لم تسارع في الاستجابة؛ وفي 11 أيلول/سبتمبر هزت الأعمال التخريبية العالم كله، ووقفت روسيا وبريطانيا جنباً إلى جنب في صف محاربي الإرهاب العالمي.

لكن الأوليغارشي الهارب كان يتابع صراعه. ففي أوائل عام 2002 نشر في بريطانيا على حسابه كتاب «جهاز الأمن الاتحادي الروسي ينسف روسيا»، كما أخرج فيلماً، بالاستناد على هذا الكتاب، بعنوان «اغتيال روسيا». كان مؤلفا الكتاب والفيلم من أصحاب بيريزوفسكي المقربين (وأحدهما كان ألكسندر ليتوفنكو، وهو ضابط سابق في جهاز الأمن الاتحادي الروسي، ومساعد بيريزوفسكي). وقد طُرحت في كليهما روايات تآمرية، مفادها أن تفجير الأبنية السكنية في موسكو والمدن الروسية الأخرى في خريف 1999 قد نظمها جهاز الأمن الاتحادي الروسي وليس الإرهابيون الشيشان. وقد أكد واضعا الكتاب والفيلم، ومعهما بيريزوفسكي، أن الأعمال الإرهابية قد نُفذت من أجل زيادة شعبية بوتين، الذي كان قد عُيّن للتو رئيساً للوزراء، وخلق صورة له على أنه محارب للإرهاب.

وبعد توجيه الاتهام لجهاز الأمن الاتحادي الروسي، ازدادت قوة الحملة الهجومية ضد بيريزوفسكي. وكانت قناة ت.ف-6 التلفزيونية قد أغلقت في المرحلة النهائية من إنجاز الفيلم والكتاب. في آب/أغسطس 2002، وجهت لبيريزوفسكي اتهامات جديدة، وفي شهر تشرين أول/أكتوبر أرسلوا مذكرة بحث بحقه إلى الإنتربول. كان الموظفون المسؤولون الروس يظنون أن بريطانيا ستسلمهم بيريزوفسكي في القريب العاجل. لكن التقارب السياسي والفكري بين موسكو ولندن لم يعد له وجود، فالعملية العسكرية في العراق وضعتهما في معسكرين مختلفين. لكن توني بلير وحكومته سعيا، كما في السابق، إلى عدم تدهور العلاقات مع صديقهما القديم. في 2 نيسان/إبريل، وقبل يوم واحد من بداية الهجوم على العراق، رفضت وزارة الخارجية البريطانية رسمياً منح بيريزوفسكي اللجوء السياسي. وكان على المحكمة أن تقرر مسألة تسليمه لروسيا. وبعد الجلسة ارتدى بيريزوفسكي، غريب الأطوار، قناع بوتين، وأعلن أمام الصحافيين، قائلاً: «يمكنكم الآن أن تسمّوني فلاديمير بوتين».

في آب/أغسطس 2003، وبينما كان بيريزوفسكي يسعى إلى حق البقاء والإقامة في لندن، وصلت أخبار جيدة للمدعي العام الروسي من أثينا – حيث احتجز فلاديمير غوسيسنكي في مطار إليفتيريوس فينيزيلوس في أثينا. فبعد أن أطلقت سراحه المحكمة الإسبانية، وجهت له روسيا اتهامات جديدة، ووجهت مذكرة بحث عنه إلى الإنتربول. أمسكت به الشرطة اليونانية، وأرسلت ملك الميديا السابق إلى سجن المدينة، وكانت فرصة تسليمه لروسيا أكبر بكثير من الفرصة السابقة باستبعاده من إسبانيا.

شمال - شرق (Nord-Ost)

أصبح يوم 23 تشرين أول/أكتوبر 2002 أشد الأيام رهبة في تاريخ رئاسة فلاديمير بوتين. ففي مساء هذا اليوم سيطرت مجموعة من الإرهابيين على المركز المسرحي في موسكو - في تلك الأثناء كانت تعرض في قاعة تغص بالمشاهدين مسرحية «شمال - شرق Nord-Ost» الموسيقية الراقصة. وكان عدد المحتجزين من الجمهور نحو 850 شخصاً. بوتين رأى في هذا العمل الإرهابي كارثة - حرباً كان قد وعد بوضع حد لها قبل ثلاث سنوات، لكنها لم تنته بل وصلت إلى موسكو.

وبحسب ذكريات الناس من الدائرة القريبة منه، لم يكن بوتين محرجاً فحسب، بل كان على قناعة بحلول نهاية منصبه السياسي. وقد قارن أحد معارفه المقربين حالته في تلك الأثناء بسلوك ستالين في حزيران/يونيو عام 1941. فمن المعروف، أنه بعد أن استولى الألمان على مدينة منسك. من دون مجابهة عسكرية تقريباً، سيطرت على ستالين حالة من الإعياء، فغادر موسكو إلى أقرب فيلا حكومية، ولم يخرج منها طيلة يومين. وعندما قدِم لعنده أعضاء المكتب السياسي للحزب الشيوعي، راجين أن يقود الهيئة الجديدة لإدارة الاتحاد السوفييتي في حالة الحرب، «تسمر وتشبث بمقعده» (حسب ذكريات ميكويان)، وكأنه كان يتوقع أنهم جاؤوا لاعتقاله.

بوتين لم يهرب بالطبع إلى أي مكان، لكنه كان مقتنعاً بأن المجتمع الروسي لن يسامحه على هجوم الإرهابيين في موسكو. بينما كان نيقولاي باتروشيف أكثر هدوءاً منه، على الرغم من أن وصول الإرهابيين المسلحين بحرية إلى موسكو كان يعني فشل إدارته تحديداً.

ولكن لم تنتج أية عواقب سياسية عن احتلال المسرح الذي كان يعرض المسرحية الموسيقية. فبعد ثلاثة أيام هاجمت القوى الأمنية المركز المسرحي واستولت عليه: حيث أطلقوا في القاعة غازاً منوّماً، نام على إثره جميع الموجودين في القاعة.

وثمة أرقام مختلفة، تذكر أن عدد من مات نتيجة هذه العملية الأمنية الخاصة يتراوح بين 130 - 175 شخصاً، نتيجة لعدم تقديم الإسعاف الطبي السريع لهم. فالرهائن فاقدو الوعي الذين كانوا في القاعة تم جرّهم ورميهم في سيارات الباص، وكثير منهم هلكوا ليس من الغاز، بل لأنهم كانوا مهروسين بعضهم فوق بعض، أو اختنقوا بالإقياء الجماعي الشديد.

في أثناء الانقضاض على المسرح تم إطلاق النار على جميع الإرهابيين - وفي المحاكمة التي جرت فيما بعد، لم يكن هناك من يمكن التحقيق معه، وبقيت ظروف التحضير للانقضاض على المركز المسرحي والاستيلاء عليه سراً إلى الأبد.

بعد نصف سنة نشرت الصحافية آنّا بوليتكوفسكايا حديثاً صحافياً أجرته مع شخص دعا نفسه بأحد المشاركين في مجموعة الإرهابيين الذين سيطروا على المركز المسرحي.6 وبحسب أقواله، فقد كان شيشانياً جندته المخابرات الروسية في صفوفها. وقد جاء في الحديث الصحافي أن المخابرات الروسية كانت على علم مسبق بالعمل الإرهابي الذي يجري التحضير له في موسكو. ومن غير الممكن الآن، غالباً، التحقق من مصداقية هذه الرواية - فهذا الشيشاني الذي أدلى بحديثه للصحافية بوليتكوفسكايا سرعان ما تُوفي في

حادث سيارة.7 كما قُتلت الصحافية بوليتكوفسكايا نفسها في عام 2006.

لقد كان الصحافيون الوحيدين الذين عوقبوا على العمل الإرهابي: فقناة ن.ت.ف التلفزيونية تم تبديل إدارتها من جديد. والمدير العام بوريس إيوردان، الأمريكي ذو الأصل الروسي، الذي ساعد قبل ذلك خلال عام ونصف في انتزاع القناة التلفزيونية من غوسينسكي، تم تسريحه. وقد اتهمه بوتين هو وزملاءه بالرغبة في «العمل وجمع الأموال على حساب دماء مواطنيه، هذا إذا كانوا يعتبرونهم أبناء وطنهم»، وكل هذا، حسب زعمه، لأن قناة ن.ت.ف عرضت على الهواء مباشرة بثاً حياً لعملية الانقضاض على المركز المسرحي (يؤكد العاملون في هذه القناة، أنه في الواقع لم يكن هناك أي بث حي لهذه العملية).

وقد رُشِّح قادة الأجهزة الأمنية، الذين نظموا عملية تحرير الرهائن، لنيل جوائز الدولة، أما النائب الأول لمدير جهاز الأمن الاتحادي الروسي باتروشيف، الذي كان على رأس العملية، فقد نال جائزة، وحصل على لقب بطل روسيا.

ولم يُكشف النقاب عن الصيغة الكيميائية للغاز الذي استخدم في عملية المركز المسرحي حتى الآن. وقد رفع رهائن المسرح السابقون دعاوى قضائية ضد روسيا منذ عدة سنوات إلى مختلف المحاكم الدولية، بما فيها محكمة ستراسبورغ، لكن الدولة الروسية ترفض الكشف عن المعلومات حول الغاز المستخدم، وهي المعلومات الضرورية لعلاج الرهائن الذين تعرضوا لهذا الغاز.

العرس الملكي

في 24 حزيران/يونيو عام 2003 وصل فلاديمير بوتين وزوجته لودميلا إلى مطار «هيثرو» في لندن. وقد استقبلهما في المطار الأمير تشارلز. وتوجهوا معاً إلى ساحة هورسغاردس، حيث كانت تنتظرهم ملكة بريطانيا إليزابيث الثانية - لم تكن هذه زيارة عادية، بل زيارة رسمية حكومية، زيارة على أرفع مستوى، يرافقها استقبال فخم بأعلى درجات الشرف. وقد شرح توني بلير، الذي وجه هذه الدعوة لبوتين، للصحافيين هذا الاحتفال الجاري قائلاً: «إنها زيارة دولة

رسمية - إنها أعلى درجة إطراء يمكن أن تقدمها دولة لأخرى. لم تكن العلاقات بين بلدينا في يوم من الأيام جيدة كما هي الآن». وبالفعل، فقد كانت هذه أول زيارة رسمية لرئيس الدولة الروسية إلى المملكة المتحدة منذ عام 1896، عندما زار القيصر الروسي الأخير نيقولاي الثاني، القيصر الإصلاحي الأول في تاريخ روسيا، فيكتوريا ملكة بريطانيا.

لكن بوتين ومرافقوه لم يصلوا في الساعة المقررة. فقد تعثر الموكب في حركة المرور. انتظرت الملكة 15 دقيقة - وهذه فضيحة دبلوماسية لا سابقة لها، على الرغم من أن فلاديمير بوتين لا ذنب له فيها.

سامحته الملكة على التأخير، ثم سار كل شيء على ما يرام. وتوجه بوتين والملكة إليزابيث في عربة واحدة نحو قصر باكنغهام، وفي العربة الثانية ركبت لودميلا بوتينا******، ودوق إدنبورغ، وفي الثالثة – وريث العرش الأمير تشارلز ووزير المالية ألكسي كودرين على الرغم من أنه ليس وريثاً.

في المساء هيأت الملكة حفل استقبال على شرف بوتين وزوجته، اللذين نزلا في قصر باكنغهام بالذات. أُخذت «الأسرة الروسية الحاكمة» لرؤية كنيسة وست منستر والبرج، والتقى الرئيس الروسي برؤساء الأحزاب البريطانية الثلاثة الكبار، وركب الطائرة ليوم واحد إلى إيدنبرغ، حيث التقى بممثلي النخبة المثقفة الأسكتلندية.

قال بوتين للمثقفين الأسكتلنديين: «إن روسيا، من دون أدنى شك، جزء من أوروبا. وتمتد أوروبا حتى ما وراء جبال الأورال، لأننا إذا ما أخذنا الناس المقيمين في الشرق الأقصى، فهم لا يختلفون إلا قليلاً عن مواطني روسيا المقيمين في الجزء الأوروبي من روسيا. وهذه من حيث المبدأ، إمكانية جيدة جداً لتطور أوروبا المقبل، لكننا اليوم علينا أن نضع نصب أعيننا أهدافاً واقعية. علينا، كحد أدنى، أن نعمل حتى لا تظهر في أوروبا خطوط فاصلة جديدة، وكي تتوفر للناس فرصة التواصل فيما بينهم، وكي لا يُنظر إلى قواعد منطقة

الشينغن على أنها شبيهة بجدار برلين، الذي كان يقسم أوروبا قبل بضعة أعوام. علينا أن نفعل كل شيء، كي تساعد روسيا وأوروبا إحداهما الأخرى على التطور بصورة منسجمة وثابتة. لدينا مصلحة متبادلة فيما بيننا، لأن روسيا وأوروبا، حتى من حيث البنية الاقتصادية، تكملان إحداهما الأخرى بنجاح»8. صفق الحضور للرئيس بوتين.

لكن النتيجة الرئيسة لهذه الزيارة كانت اختراقاً في التعاون الاقتصادي. وقد عقد الرئيس بوتين ورئيس الوزراء البريطاني توني بلير مؤتمراً حول الطاقة. أولاً، بحضور الزعيمين، وقع اللورد جون براون رئيس شركة بريتش بتروليوم BP وميخائيل فريدمان صاحب شركة «تيومين للنفط (THK)» اتفاقية لتأسيس شركة روسية - بريطانية BP- THK. حيث اشترت شركة النفط البريطانية العملاقة 50% من الشركة الروسية (ما سمح لها بأن تصبح ثاني أكبر شركة نفط في العالم والتفوق على منافستها الكبيرة شركة شل Royal Dutch Shell). وقد ظهر خبر الصفقة منذ شباط/فبراير 2003، وجميع التحضيرات كانت ناجحة، ولم يفشل أي شيء، وكان فلاديمير بوتين شخصياً يتابعها. وقد حافظت الشركة على تسجيلها الروسي، لكنها حصلت على مدير عام بريطاني وهو روبرت دادلي. لقد كان هذا اختراقاً رائعاً وعظيم الدلالة - ومنذ الآن سيبدأ الإنكليز في استخراج نفط سيبيريا. وكان الصحافيون البريطانيون يمزحون قائلين: لقد كرر بوتين إنجاز القيصر ألكسندر الثاني، الذي قدم إلى لندن في زيارة حكومية رسمية في عام 1874، كي يزوج ابنته من دوق إيدنبرغ، وبوتين قدم إلى لندن، كي يزوج «ابنته» النفطية من اللورد براون من شركة بريتش بتروليوم BP.

لقد كان هذا عيداً رمزياً. ولم يصفق للعرس في القاعة بوتين وبلير وحدهما، بل وكذلك رئيس شركة «غازبروم» ألكسي ميلر، ومالك أكبر شركة نفطية في روسيا ميخائيل خودوركوفسكي. لكن شريكه في الأعمال بلاتون ليبيديف اعتقل بعد أسبوع - وبدأت في روسيا «قضية شركة يوكوس ЮКОС». وبعد

عشر سنوات أُرغم ميخائيل فريدمان على بيع حصته في الشركة الروسية - البريطانية THK -BP، وهذا سيكون عملية إنقاذ له. فقد نقل جميع ملكيته من روسيا، ونقل أسرته إلى لندن واستقر في بريطانيا العظمى. وهكذا لم يعمر الزواج طويلاً، وقرر «الأبناء» العيش بعيداً عن روسيا.

لكن اندماج شركتي تومين النفطية وبريتش بتروليوم THK -BP لم يكن الإنجاز الوحيد لهذه الزيارة التاريخية. فقد أعلن بوتين وبلير أن البلدين قررا إطلاق مشروع طموح - بناء خط الغاز الشمالي - الأوروبي، الذي تبلغ قيمة أنابيبه 5,7 مليار دولار، ويربط هذا الخط بين روسيا وبريطانيا العظمى. وقد وقعت الحكومتان المذكرة، ولم يبق سوى أن تقوم شركتا «غازبروم» و«شل» Royal Dutch Shell الممولتان للمشروع بتوقيع الاتفاقية المطلوبة. وكما أعلن بلير بفخر، فإنه بحساب استثمار شركة شل Royal Dutch Shell في مشروع «سخالين – 2» ستصبح بريطانيا أول دولة من حيث حجم الاستثمارات في الطاقة الروسية.

طيلة فترة زيارة بوتين لم يُلاحظ أبداً تقريباً وجود بوريس بيريزوفسكي في لندن على مقربة منه. باستثناء أنه في الحي المجاور لقصر باكنغهام كان تجري عروض المهرجان السينمائي للدفاع عن حقوق الإنسان، وقد عُرض خلاله فيلم «اغتيال روسيا». وقد طبع منظمو المهرجان بطاقة دعوة ضخمة جداً لبوتين وبلير وعرضوها بسرور على الصحافيين.

استمرت الزيارة الرسمية أربعة أيام، وأصبحت، على الأغلب، ذروة التقارب بين روسيا والعالم الغربي.

ولكن بعد ذلك انهار كل شيء. ففي 9 أيلول/سبتمبر أعادت وزارة الداخلية البريطانية النظر في قرارها ومنحت بيريزوفسكي اللجوء السياسي. وفي اليوم التالي رفضت المحكمة تسليمه لروسيا.

وفي 14 تشرين أول/أكتوبر رفضت المحكمة اليونانية تسليم غوسينسكي

لروسيا، ولم ينتظر غوسينسكي استئناف مكتب المدعي العام، وركب الطائرة متوجهاً إلى إسرائيل.

وفي شهر تشرين ثاني/نوفمبر أصدرت المحكمة في لندن قراراً آخر في قضية مؤلمة ومهمة بالنسبة إلى بوتين - رفضت تسليم أحمد زاكييف، الذي طالبت السلطات الروسية أيضاً تسليمه لروسيا، وكانت تعده أحد زعماء الإرهابيين الشيشان. وكأنه لم تتشكل أممية معادية للإرهاب.

إن رفض بريطانيا تسليم بيريزوفسكي وزاكييف قد وضع نقطة النهاية في الصداقة بين فلاديمير بوتين وتوني بلير. واعتبر الرئيس الروسي عمل بلير هذا خيانة. وقد أكد بلير له، أن القضاء البريطاني مستقل، وأنه هو، كرئيس للحكومة، لم يستطع التأثير على قرار المحكمة، لكن بوتين كان يعرف بالطبع، أن المحكمة المستقلة لم تتخذ هذا القرار إلا بعد أن تبلغت وثيقة من وزارة الداخلية البريطانية تنص على منح بيريزوفسكي اللجوء السياسي.

وسينسى بوتين فكرة بناء خط أنابيب الغاز من روسيا إلى بريطانيا، لكنه تذكر هذه الفكرة بعد ثلاث سنوات، ولكن مع شريك جديد هو غيرهارد شرودر. وفي عام 2006 انتُزعت آبار النفط في سخالين من شركة شل Royal Dutch Shell. ولكن قبل ذلك بكثير كانت قد بدأت حرب باردة بكل معنى الكلمة بين روسيا وبريطانيا.

الفصل الثالث: عن ميخائيل خودوركوفسكي، أغنى رجل في روسيا، الذي فقد شركته وثروته وحريته، وأسرته اختفت

التقيت بميخائيل خودوركوفسكي في 22 كانون أول/ديسمبر 2013، بعد يوم من إطلاق سراحه من السجن. التقينا في برلين في فندق أدلون. كان خودوركوفسكي يبدو مثقفاً متواضعاً جداً وخجولاً، وليس كما وصفه معارفه

قبل الاعتقال، زعيماً قاسياً، متسلطاً، قوي العزيمة. قال إنه لا ينوي في القريب العاجل الانغماس في السياسة، لكنه كان يكرس كل دقيقة من وقت فراغه للتواصل مع الصحافيين.

كان يجيب بدقة ومن دون تفكير طويل، على جميع الأسئلة (وكأنه قد أجرى بروفات عديدة عليها قبل ذلك). وعلاوة على ذلك، كان في أثناء إغلاق الكاميرا التلفزيونية يطرح هو نفسه الأسئلة. وكانت عادة تتعلق بتوازن القوى في الكرملين، حيث كان يسعى خودوركوفسكي إلى معرفة كيف تجري الأمور الآن، وماذا تغير، ومن يمسك بعجلة القيادة. وكان أكثر ما يهمه صورة إيغور سيتشين، حيث كان يسأل: «هل لدى سيتشين فرصة لأن يصبح رئيس وزراء؟».

خلال عام من بعد إطلاق سراحه، «نضج» خودوركوفسكي. واستأنف العمل في صندوقه «روسيا المفتوحة»، ووظف عدداً كبيراً جداً من الصحافيين، الذين لم يكونوا يدركون جيداً ماذا يريد منهم خودوركوفسكي.

وافق خودوروفسكي على الإدلاء بحديث صحافي من أجل هذا الكتاب، لكنه خصص له فترة زمنية قصيرة جداً. أجرينا جميع الأحاديث بواسطة تطبيق «فيس تايم»، وكان خودوركوفسكي مسروراً بوضوح، لأنه يمكنه استخدام أداة ذكية تكنولوجية ظهرت عندما كان في السجن.

في حديثه عن أسباب قضية شركة «يوكوس ЮКОС»، كان، لسبب ما، يستخدم مصطلحات عسكرية وليس تجارية: «بوتين كان يتصرف كقائد عسكري نموذجي. كانوا يقولون لنا في الجيش: «لا تصرخوا في التشكيل العسكري». وهذا ما فعله، عندما اكتشف سخطاً جماعياً لدى أوساط الاقتصاديين الكبار، بحث عن الحلقة المفتاحية وانهال عليها. وبعد هذا لم يرغب أحد في التعبير عن سخطه».

لو عبر بوتين عن ذلك لما قالها بأسلوب أفضل.

محظورات الشاشليك

في صيف 2001 جمع بوتين في بيته الريفي في نوفو-أوغاريفو أكبر عشرة رجال أعمال روس على حفلة شواء. وقد دخل هذا اللقاء التاريخ باسم «اجتماع الشاشليك». كان الرئيس الجديد يحدث الأوليغارشيين عن رؤيته لقواعد اللعبة، وكيف يجب العمل، كي لا يتكرر مصير غوسينسكي وبيريزوفسكي، اللذين فقدا أعمالهما. عموماً، كانت القاعدة بسيطة: لا تتدخلوا في السياسة. يتذكر خودوركوفسكي، الذي كان لا يزال آنذاك مالكاً لثاني أكبر شركة نفط في روسيا، شركة «يوكوس ЮКОС»، أن هذا يتعلق بصورة أساسية بمالكي وسائل الإعلام الجماهيرية: من البدهي أنه كانت تتوفر لدى كل رجل أعمال كبير إمكانية ممارسة الضغط السياسي على السلطة. وهذا بالذات ما طلبه بوتين؛ ألا يستخدموا هذا الضغط.

يتذكر خودوركوفسكي قائلاً: «كانت شركة «يوكوس» المورِّد الاحتكاري لمنتجات النفط إلى 42 إقليماً. ولو توقفت عن تزويدها بالمنتجات النفطية لكان من المستحيل تعويض النقص من خلال المورّدين الآخرين خلال أسبوعين. وهذا كان يعني، أن هذه الأقاليم ستثور. وستتوقف جميع سيارات الإسعاف السريع، وسيارات الإطفاء، وجميع الخدمات الحيوية الضرورية خلال ثلاثة أيام».

كان طلب بوتين ألا يستخدم الأوليغارشيون مثل هذه الروافع، وعندها لن تحدث لديهم أية مشاكل مع القوى الأمنية. تنفس رجال الأعمال الصعداء. وتقبل الجميع بكل سرور شروط الرئيس.

بيد أن الواقع، أن كلاً منهم فهم الشروط التي وضعها بوتين بطريقته الخاصة. فبعضهم فهم مطالب الرئيس بدقة كافية: عدم تمويل المعارضة. ومثل هذه الصيغة كان يعبر عنها رئيس الوزراء السابق ميخائيل كاسيانوف، على سبيل المثال. وآخرون يقولون إنه لم يكن كل شيء بمدلول واحد، ومن غير الممكن

أن يكون. في ذلك الوقت كانت رعاية الأوليغارشيين للأحزاب السياسية ظاهرة عادية مألوفة. وكانت هناك في مجلس الدوما، على سبيل المثال، جماعة باسم «الأقاليم الروسية» ترعاها بالكامل شركة «لوكوي» النفطية. لم يكن لدى شركة «يوكوس» جماعتها، لكن فلاديمير دوبوف، أحد مالكيها، كان عضواً في مجلس الدوما، وهو الذي كان يعدّ اللوبي الرئيس للصناعة النفطية في البرلمان.

وكان بنك «ميناتيب МЕНАТЕП»، الذي تعود ملكيته لخودوركوفسكي، قد اشترى 45% من أسهم شركة «يوكوس» منذ عام 1995 في مزاد رهن عقاري مريب بمبلغ 159 مليون دولار. وفي عام 1997، بعد بداية التجارة العامة بأسهم «يوكوس»، وصل رأسمال الشركة الاحتكارية بسعر السوق إلى 9 مليار دولار. وبحلول عام 2003، وبفضل الإدارة الناجحة ونهج الشفافية الكاملة، قارب رأسمالها 15 مليار دولار. وتم نسيان ماضيها بمزادات الرهن العقاري.

كانت بداية الألفية الثانية فترة زمنية موفقة جداً لميخائيل خودوركوفسكي. فقد بذل جهوداً كبيرة لتحويل شركة «يوكوس» إلى أكبر شركة عامة في روسيا. وقد نجح في ذلك: وأصبحت شركة «يوكوس» شفافة وجذابة للمستثمرين الغربيين في الشركة.

وقد كتب اللورد براون رئيس شركة بريتش بتروليوم البريطانية BP في مذكراته، أنه في سعيه إلى الوصول إلى مكامن النفط الروسية، بحث في ثلاث صيغ ممكنة للاستثمار فيها: المركز الثالث كان لشركة ت.ن.ك ТНК، والمركز الثاني لشركة «روس.نفت Роснефт»، أما المركز الأول فلشركة «يوكوس ЮКОС».

يصف اللورد براون لقاءه بخودوركوفسكي في كتاب مذكراته «أكبر من عمل»:

في 17 شباط/فبراير 2002 اقتربت من منزلي عدة سيارات سوداء مدرعة، خرجت منها دزينة من الحرس الشخصيين. ومثل غيره من الأوليغارشيين، كان خودوركوفسكي يقيم في ضاحية من ضواحي موسكو في منزل ذي حراسة

مركزة بعناية، ذي أسوار عالية، وإنارة ليلية لكامل محيط الموقع. كان مهووساً بالناحيـة الأمنيـة. منزلي كان أكثر تواضعاً بكثير، وليس محروساً على هذا النحو، لكنه كان آمناً بما فيه الكفاية.9

وبحسب أقوال رئيس شركة بريتش بتروليوم، في أثناء تناول طعام الغداء، بحث مع خودوركوفسكي إمكانية شراء 25% من رأسمال الشركة بالإضافة إلى مجموعة من الأوراق المالية لشركة «يوكوس». كان يبدو هذا قليلاً للورد براون. وعندما صرح برغبته في حصة أكبر، أجاب خودوركوفسكي: «خمسة وعشرون في المئة، لا أكثر - ومن دون أية رقابة. وإذا تعاونت معي، سوف يعتنون بك».

ويتـذكر اللـورد بـراون قـائلاً: «بنظارتـه، وصـوته الـهادئ، كـان يمكـن لخودوركوفسكي أن يشكل انطباعاً مزيفاً لإنسان متواضع. ولكن كلما تحدثنا أكثر كنت أزداد غضباً.

لقد بدأ الحديث حول كيفية إيصال رجاله إلى مجلس الدوما، وكيف سيسعى إلى تخفيض الضرائب على الشركات النفطية، كما كان يتحدث عن كثير من الأشخاص مـن ذوي النفوذ الـذين يخضعون لرقابتـه. بحسـب نظـرتي كـان خودوركوفسكي قوياً جباراً. من السهل الحديث الآن، لكن في تلك الأثناء وجدت في هذا شيئاً لا يناسبني».

في تلك الفترة، عندما أحدث خودوركوفسكي في نفس رئيس شركة بريتش بتروليوم انطباعاً بأنه «قوي وجبار جداً»، كان ميخائيل خودوركوفسكي يعاني من دوخة كبيرة في رأسه لنجاحاته الكبيرة. فهو لم يقتصر على جعل شركته أكبر شركة في روسيا، وأصبح أغنى رجل فيها فحسب، لكنه أصبح أيضاً، خلال أشهر معدودة، محبوب المثقفين الروس الليبيراليين. كان يموّل منظمة «روسيا المنفتحة» التي كانت ترعى القسم الأكبر من المنظمات الروسية الأهلية غير الحكوميـة، ويقـدم الأمـوال للمشـاريع الثقافيـة والتنويريـة، ويزود المـدارس الريفيـة النائيـة بـالإنترنت. وكـان خودوركوفسـكي نفسـه يلقـي المحاضـرات

والكلمات والخطب، مبيناً بأنه قد أصبح زعيماً ناضجاً، على الرغم من أنه ليس رجل سياسة بعد.

لم يكن في استطاعة فلاديمير بوتين، بالطبع، في «اجتماع الشالشيك» في عام 2001 أن يوافق صراحة على تطور الأحداث على هذا النحو. ولم يكن في استطاعته القول إنه يحظر على الأوليغارشيين أن يكونوا محبوبي الجماهير، لكن هذا بالذات، ما كان يقصده إلى حد كبير.

الجمهورية البرلمانية

لم يكن خودوركوفسكي معبود المثقفين الليبيراليين فحسب. فقد أصبح بسرعة زعيماً غير رسمي للصناعة النفطية الروسية كلها. في عام 2002 عندما وضعت الحكومة الروسية ضريبة جديدة على استخراج الثروات الباطنية، تزعمت شركة «يوكوس» بالذات لواء النضال ضدها. فقد زادت الضريبة من أعباء العاملين في صناعة النفط بالدرجة الأولى، وعشية بحث التعديلات في قانون الضرائب، جاء إلى غيرمان غريف وزير الاقتصاد، ومنظِّر الإصلاح الضريبي، شريك خودوركوفسكي ورئيس فرع شركة «يوكوس - موسكو» فاسيلي شاهنوفسكي. وأعلن للوزير بثقة كاملة أن هذا القانون سيكون مرفوضاً، لأنه «يناقض مصالح يوكوس»، وإذا ما أصرت عليه الحكومة، فإن العاملين في الصناعة النفطية سيرفعون طلباً جماعياً بإقالة غريف******* وكودرين******** (وزير التنمية الاقتصادية - المترجم.) لعدم الأهلية والكفاءة. وأن على الحكومة أن تؤجل، بصورة مستقلة، بحث مشروع القانون في مجلس الدوما، وتنتظر ريثما تضع شركة يوكوس مقترحاتها بخصوصه.

غضب غريف وكودرين غضباً شديداً. وفي صباح اليوم التالي توجها معاً إلى مجلس الدوما للدفاع عن الضريبة التي فرضاها. كانا واثقين من أن مجلس الدوما الذي تتبع غالبيته للجماعات الموالية للكرملين، لن يمكنه رفض مشروع القانون الذي قدمته الحكومة. بيد أن مشروع القانون سقط وانهار أمام

أعينهما. والأشد سخافة ومرارة، أن الشيوعيين وكذلك أعضاء كثير من الجماعات البرلمانية، بمن فيهم الأعضاء الموالين للكرملين، صوتوا ضد القانون الذي يزيد من أعباء الضرائب على أوليغارشيي النفط.

وقد كان هذا درساً مقيتاً لليبيراليين الحكوميين، فاعتباراً من الآن عليهم أن يأخذوا في اعتبارهم لاعباً يزداد قوة، هو ميخائيل خودوركوفسكي. لم يرق هذا الأفق لا لغريف ولا لكودرين. وقد تطلب منهما عاماً كاملاً من الضغط لإقرار قانون استخراج الثروات الباطنية.

لم يقتصر ميخائيل خودوركوفسكي على استخدام نفوذه في مجلس الدوما في الضغط من أجل القوانين المفيدة للصناعة النفطية وحدها.

وهو يروي الآن، أنه ومنذ أوائل عام 2003، كان يبحث مع نواب من «روسيا الموحدة» إمكانية تغيير الدستور، والانتقال إلى «النموذج الفرنسي من الجمهورية الرئاسية - النيابية».

يقول خودوركوفسكي: «جميعهم كانوا يدركون، أنهم في دستور 1993 بالغوا كثيراً في صلاحيات الرئيس. ولكن لم يكن في الإمكان إقناع السلطة بهذا الإصلاح إلا بعد عام 2004».

في عام 2004 كان من المفروض أن تجري الانتخابات الرئاسية. وكان من المفروض إعادة انتخاب فلاديمير بوتين لفترة رئاسية ثانية، وقبل ذلك، في كانون أول/ديسمبر من عام 2003 كان من المفترض أن تجري الانتخابات في مجلس الدوما. وبالتالي، ولهذا، فمن أجل إدخال التعديلات الضرورية في الدستور، كان على خودوركوفسكي أن يحوز على برلمان قادر على التوافق معه بل والإصغاء إليه. ولهذا، وقبل عام من الانتخابات، بدأ خودوركوفسكي بتمويل جميع الأحزاب الروسية المعارضة تقريباً: بما فيها حزب «يابلوكو – Яблоко» أي «التفاحة» و«اتحاد القوى اليمينية» والشيوعيين.

كان فولوشين، رئيس إدارة الكرملين، مطلعاً على أطماع خودوركوفسكي السياسية المتزايدة. وقد بحث معه خودوركوفسكي شخصياً، غير مرة، فكرة الانتقال إلى النموذج البرلماني. وقد لاحظوا في الكرملين، أن أصحاب شركة «يوكوس» يهتمون بهذا الموضوع بصورة جدية، ويفرضون رقابتهم على اللجان المختصة، ويتحدثون باستمرار عن الجمهورية البرلمانية.

كان فولوشين يرحب بأن ترعى شركة «يوكوس» الحزب الشيوعي: فكلما أخذوا أموالاً أكثر من الرأسماليين، كلما أعطوا تفويضاتهم أكثر للمموِّلين، كلما تفسخوا من الداخل، وفقدوا هويتهم الشيوعية. وكان الجميع يدرك أن الناخب الشيوعي لا يأتي إلى الانتخابات من أجل المال، ولهذا إذا ما توفر لدى الشيوعيين مال أكثر، فلن تزداد نتائجهم وأصواتهم. وإذا ما شكل رجال المال والأعمال نصف قائمتهم، فهذا سيدفعهم نحو الاشتراكية - الديمقراطية.

النخبة الجديدة

إذا ما كان الوزراء الليبيراليون، أصحاب النفوذ، مثل ألكسي كودرين وغيرمان غريف قد انزعجا من ازدياد نفوذ خودوركوفسكي، فإن رئيس إدارة الكرملين ألكسندر فولوشين ورئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف كان يقلقهما أكثر بكثير شخص آخر. فقد كان منافساً مفاجئاً، غير متوقع، لم يفطنا له ولم يقدراه حق التقدير في الوقت المناسب. كان اسمه إيغور سيتشين، وكان يعمل على مقربة من فولوشين، فهو نائبه المباشر، ورئيس المكتب الخاص للرئيس بوتين.

حتى أنهما لم يلحظاه في السنتين الأولى والثانية، مفترضين أنه مجرد موظف صغير، يحمل حقيبة بوتين، ويستقبله كل يوم عند المصعد الكهربائي، وينظم له جدول لقاءاته ومراسلاته. ولكن في منتصف فترة بوتين الرئاسية الثانية، (وعمل سيتشين في الكرملين)، أدركا أنهما لم يقدرا سكرتير الرئيس حق التقدير. واتضح أن هذا العنصر الأمني المثالي، الذي يقف دوماً باستعداد أمام رجل روسيا الأول، يتمتع بنفوذ كبير في جهاز الأمن الاتحادي الروسي، وبين

المتخرجين من الأجهزة الأمنية. وقد تمكن من الضغط وتعيين عدد من الكوادر غير المتوقعة، وتشكلت حوله بالذات مجموعة غير رسمية من أصدقاء بوتين القدماء، الذين كانوا يعملون في الـ ك.ج.ب السوفييتية، وكانوا يعرفونه منذ شبابه في لينينغراد. وكانوا يدعون هذه المجموعة في وسائل الإعلام الجماهيرية باسم «سيلوفيكي силовики»******** (وقد دخلت هذه الكلمة siloviki فيما بعد في جميع لغات العالم وبدأت تظهر في جميع المطبوعات حول السياسة الروسية). وإلى هذه الجماعة ينسبون، إلى جانب سيتشين، المدعي العام أوستينوف (الذي تمكن من المصاهرة مع سيتشين - حيث تزوج ولداهما)، ورئيس جهاز الأمن الاتحادي الروسي نيقولاي باتروشيف، ونائباً آخر من نواب فولوشين، وهو فيكتور إيفانوف، وبعض الأوليغارشيين: رئيس شركة «روس نفط» سيرغي بوغدانشيكوف والمصرفي سيرغي بوغاتشوف.

على أية حال، يقول بوغاتشوف الآن، إنه لم يكن لديه أية علاقات خاصة برجال الأمن، وسيتشين بقي بالنسبة إليه دوماً «ذلك الرجل الذي يحمل حقيبة بوتين ويمشي خلفه». في حين أنه يدعو باتروشيف بصديقه القديم، أما خودوركوفسكي، حسب أقواله، فقد كانت علاقته به سيئة للغاية.

وما يدل على أن فولوشين وكاسيانوف لم يقدرا حق التقدير مدى قرب سيتشين من بوتين - واقع أن سيتشين طيلة السنوات التسعينيات كان يعمل سكرتيراً شخصياً لبوتين، وهذا ما ميز بوتين في مكتب عمدة بطرسبورغ (كانت لدى جميع المديرين الآخرين في مكتب العمدة سكرتيرات – نساء، باستثناء بوتين كان لديه سكرتير وليس سكرتيرة). عندما كان بوتين يستقيل من منصب، كان سيتشتين يستقيل معه، ثم طلب منه أن يأخذه معه إلى موسكو. واستدعاه بوتين، لأنه لم يكن يشك في إخلاص مساعده.

وحسب أقوال ستانيسلاف بيلكوفسكي، الذي كان يرأس آنذاك نادي السياسيين الأكثر نفوذاً في روسيا، ومجلس الاستراتيجية الوطنية، الجزء الليبيرالي من الإدارة، كان سيتشين يُذكِّر بألكسندر كورجاكوف - الحارس

الشخصي الأسطوري القوي لبوريس يلتسين، الذي كان يصارع باستبسال الإصلاحيين الجدد - وقد أطاحوا به في حملة الانتخابات الرئاسية في عام 1996. وهكذا الآن، كان الليبيراليون يأملون بأنهم سيتمكنون بسهولة من الإطاحة به.

يؤكد خودوركوفسكي، أن الجميع كانوا يشعرون بالنزاع المقبل: «كان جناح سيتشين يتحرك حسب نموذجه، وكنا نود أن نتحرك في طريقنا نحو اقتصاد شفاف». وبحسب قوله: «كان الجميع يشعر أنه يقترب زمن اتخاذ القرار، وأن على بوتين أن يختار بين أحد هذين الفريقين: بين رجال الأمن المتنفذون أو الليبيراليين».

وعموماً، فليبيراليون أو أمنيون - هو كليشة اصطلاحية، أصبحت نمطاً مقولباً عادياً. وبيلكوفسكي نفسه يؤكد أن أسباب الصراع لم يكن اختلافاً أيديولوجياً. فالمعسكران المتصارعان يشكلان النخبة القديمة والنخبة الجديدة. وأحد طرفي النزاع يمثل أسرة يلتسين والمقربين منها، الذين كانوا يمسكون بأيديهم جميع مصادر السلطة وروافعها، والطرف الثاني يمثل المنتفعين الشباب الذين لم يكتسبوا بعد الوزن والثراء الكافيين. وكان هدف الطرف الأول هو الدفاع عن مواقعه التي يسيطر عليها، بينما هدف الثاني هو انتزاع أكبر قدر ممكن من هذه المواقع من الطرف الأول.

يقول بيلكوفسكي، من أجل مجابهة سيتشين قرر فولوشين استخدام رئيس شركة يوكوس - لم يكن بوده أن يظهر بنفسه، ولهذا قرر القضاء على سيتشين بأيدي خودوركوفسكي. كان يبدو له أن هذا أمراً بسيطاً. وقد تم تعيين الضربة الحاسمة في يوم 19 شباط/فبراير - ففي هذا اليوم كان من المقرر لقاء بوتين بالاتحاد الروسي للصناعيين ورجال الأعمال، أي بنادي أكبر الأوليغارشيين.

شبح مزادات الرهن العقاري

يتذكر خودوركوفسكي، أنه قبل بضعة أيام من اللقاء المشهود في 19 شباط/

فبراير 2003، اجتمع أعضاء الاتحاد الروسي للصناعيين ورجال الأعمال في مكتب إدارة الكرملين لبحث الكلمات التي ستلقى في اللقاء. لم يكن ألكسندر فولوشين حاضراً في هذا اللقاء - وقد ترأس هذا الاجتماع نائبه الأول دميتري ميدفيديف. اتفق المشاركون على كل شيء، بما في ذلك، ناقشوا الكلمات التي ستلقى حول الفساد وضرورة محاربته. تقرر في البداية أن يتحدث عن هذا ألكسندر ماموت رجل الأعمال المقرب من أسرة يلتسين وصديق رومان أبراموفيتش القديم. بيد أن ماموت تجنب حق الكلام، وأخذ خودوركوفسكي على عاتقه هذه المبادرة. وقد أعد كلمة، ورد فيها هجوم على شركة «روس نفط»، وجاء في الكلمة أن هذه الشركة اشترت شركة «نفط الشمال» الصغيرة بثمن يزيد نحو ثلاثة أضعاف عن سعرها الحقيقي.

في يوم اللقاء عند بوتين، اقترب خودوركوفسكي، من باب الاحتياط، من فولوشين ومعه نص الخطاب، وسأله: أليس الخطاب شديد اللهجة؟ وهل ثمة حاجة إلى قول هذا كله أمام الكاميرا، وبحضور الصحافيين؟ أجابه فولوشين: «سأسأل الرئيس الآن»، واقترب حاملاً نص خطاب خودوركوفسكي إلى بوتين. وسرعان ما عاد إليه قائلاً: «كل شيء «أوكي»، الرئيس يخبرك أنه يمكن قوله أمام الكاميرا».

وبعد ذلك، وأمام الكاميرا التلفزيونية حدث مشهد درامي. ألقى خودوركوفسكي الخطاب المعد مسبقاً، والذي لم يكتبه، وبدأ بوتين يرد عليه شخصياً. وأخذ يدافع عن صفقة شركة «نفط الشمال»، قائلاً، إن الاحتياطي عند شركة «روس نفط» غير كافٍ، وليس ثمة غرابة في أنها تحاول زيادة احتياطيها. وقال بوتين: وفي المقابل لدى شركة «يوكوس» احتياطيات كبيرة جداً، وثمة سؤال كبير، كيف حصلت الشركة عليها؟ وقال بوتين ساخراً: «إن هذا بالذات يتعلق بالموضوع الذي نبحثه»، قاصداً بذلك مكافحة الفساد. بالإضافة إلى ذلك، ذكّر الرئيس خودوركوفسكي بأن لدى شركة «يوكوس» مشكلة عدم تسديد الضرائب، ولخص ذلك قائلاً: «كيف ظهرت هذه المشاكل؟

وهكذا أعيد الكرة إلى ملعبك».

وبحسب أقوال بوغاتشوف، بعد هذا اللقاء، استدعاه بوتين وسأله ممتعضاً: «من هو هذا؟». فأجاب بوغاتشوف: إنه رئيس شركة «يوكوس». وقال بوتين ساخطاً، حسب رواية بوغاتشوف: «ومن أين جاء بشركة «يوكوس» هذه؟ والآن، وبعد كل ما فعلوه، يتهمني هو الآن بأنني أخذت رشوة؟ هل يريد أن يعلِّمني ويعظني أمام الجميع؟».

يفسر بيلكوفسكي سخط بوتين، من خلال أقواله: «إما أن نعترف، أننا جميعاً قد سرقنا، وكلنا متكافلون متضامنون في هذا، وفي هذه الحالة لا يحق لأحد أن يلاحق الآخر. وإذا ما طالبتموني بخصوص شركة «نفط الشمال»، فسأجد ما أطالبكم به».

من أجل فهم ماهية انزعاج بوتين المفاجئ، علينا أن نتذكر قصة مزادات الرهون العقارية - العملية المحزنة الشهيرة، التي حصل بنتيجتها الاقتصادي الروسي العملاق على ممتلكاته.

في عام 1995، وقبل عام من الانتخابات الرئاسية، وضعت الحكومة الروسية خطة؛ كان عليها تأمين إعادة انتخاب بوريس يلتسين. وتنص هذه الخطة على خصخصة أكبر الشركات الحكومية، بما فيها الشركات المستخرجة للثروات الباطنية وتسليمها لأكبر المجموعات المصرفية والبنكية الروسية. قدمت البنوك والمصارف القروض للدولة، وككفالة لهذه القروض حصلت البنوك والمصارف على أسهم الشركات الحكومية. وكان معروفاً مسبقاً أن الدولة لن تسدد هذه القروض، وبالتالي، فستنتقل ملكية الشركات الحكومية إلى ملكية البنوك والمصارف.

كانت تحوي هذه الصفقات بعض التفاصيل الإضافية: على سبيل المثال، البنوك أقرضت الدولة من أموال الدولة ذاتها، ومن أجل هذا كانت وزارة المالية تفتح في كل بنك حساباً وتغذّيه بالأموال.

بيد أن التواطؤ لم يقتصر على هذا فقط. من الناحية الشكلية، كان يشترك في كل مزاد عدة شركات مرشحة. أما من الناحية الواقعية، فإن نتيجة كل مزاد كانت مقررة مسبقاً. في أثناء المحاكمة في لندن «بيريزوفسكي ضد أبراموفيتش» في عام 2011، اعترف رومان أبراموفيتش، أن المزاد لبيع شركة «سيبير نفط» الحكومية كان خيالياً مزيفاً. فقد كان معروفاً مسبقاً أن الفائز سيكون شركة مرتبطة بأبراموفيتش وبيريزوفسكي. وقد تم إبعاد أحد المتنافسين بقوة الإقناع: فتحت الضغط سحب المدير العام للشركة المنافسة عرضه. والمنافس الثاني كان مزيفاً – فالشركة المرتبطة بميخائيل خودوركوفسكي كانت تلعب دور المنافس لصالح بوريس بيريزوفسكي.

بصورة مماثلة، ووفق مخطط متوافق عليه مسبقاً، تم بيع أكبر مكامن الثروة الباطنية في روسيا: شركات النفط «يوكوس»، «سيبير نفط»، «سورغوت نفط غاز»، «سيدانكو» (فيما بعد عُرفت باسم ت.ن.ك THK) ومجموعة شركات «لوكويل» وشركتا المعادن «نورنيكل» و«ميتشيل» ومجمع نوفوليتسك للمعادن (ن.ل.م.ك - НЛМК). والطريف في الأمر، أن بعضاً من أكبر عشرة بنوك، مثل «إنكوم بنك»، و«ألفا بنك»، استبُعد من اقتسام ملكية الدولة أو خسر جميع المزادات. وكانت محاولاتهم اللاحقة لمراجعة نتائج المزادات عبثية. وفي المقابل، فمن كان الربح حليفه، فقد حقق أرباحاً ضخمة: وكانت هذه بالدرجة الأولى كيانات وشركات مرتبطة ببوريس بيريزوفسكي، وميخائيل خودوركوفسكي وفلاديمير بوتانين. وبهذا الصدد، يُعتقد أن بوتانين بالذات، الذي كان في عامي 1996 - 1997 النائب الأول لرئيس الوزراء، هو المؤلف الحقيقي لمزادات الرهن العقاري.

جميع المزادات كانت ذات مرحلتين. المرحلة الأولى - حصول الشركة على الكفالة - وهذه تمت قبل الانتخابات الرئاسية. والمرحلة الثانية - الاكتساب النهائي لحق الملكية - جرت بعد الانتخابات. وهكذا ضمنت الحكومة أن جميع أصحاب البنوك سيتقيدون بالاتفاق.

فيما بعد، قام منظِّر الخصخصة الروسية أناتولي تشوبايس، الذي كان في الأعوام 1994 -1996 النائب الأول لرئيس الوزراء، في حديث أدلى به لصحيفة فاينانشال تايمز، بشرح ذلك بأنه لم يكن لدى الحكومة خيار آخر. قال تشوبايس:

«لم يكن في استطاعتنا الاختيار بين الخصخصة «الشريفة» و«غير الشريفة»، لأن الخصخصة الشريفة تتطلب قواعد دقيقة تحددها دولة قوية، يمكنها أن تضمن التقيد بالقوانين. لم يكن لدينا خياراً آخر. لو أننا لم نجرِ الخصخصة المكفولة لفاز الشيوعيون في الانتخابات عام 1996، ولأصبحت آخر انتخابات حرة في روسيا، لأن الشيوعيين لا يتخلون عن السلطة ببساطة».10

في عام 2014، وفي حديث أدلى به لصحيفة «فيدومستي» الروسية تذكر خودوركوفسكي مزادات الرهن العقاري بقوله: «وأين كان التواطؤ، والمؤامرة؟ كانت هناك قائمة طويلة جداً من الشركات التي ستخضع للخصخصة، نحو 800 شركة، وكل واحد منا كان يقول: أي منها يمكنه التعامل معها وأخذها. لم تكن المشكلة آنذاك في الأموال التي يجب دفعها للدولة، بل في توفر الكوادر. كان يمكنني أن آخذ أكثر - لم تكن هناك أية قيود. كان على الدولة أن تحل بشكل ما، الموقف مع المديرين الحمر********، الذين توقفوا، عشية الانتخابات، عن تسديد أجور العاملين، ناهيك عن الحديث عن الضرائب. فهم «المديرون الحمر» كانوا يشكلون دوماً بؤر توتر. وهنا كانت تكمن المشكلة السياسية.

وهكذا، كنت أدرك جيداً - بحلول هذه الفترة، كنت قد تمكنت من إدارة بعض الأمور - أن الموارد لدى فريقي بالكاد تكفي لشركة واحدة».11

واعترف خلال ذلك، أنه في بداية العام 2000 كان يعاني من تأنيب الضمير بخصوص الخصخصة غير الشريفة، حتى أنه كان يقترح إقرار«قانون بتعويض المدفوعات»: «درسنا التجربة البريطانية، وجهزنا مذكرة بهذا الخصوص، وأرسلناها لبوتين عن طريق رئيس الوزراء كاسيانوف. كنا آنذاك ننوي وضعها

في صندوق المعاشات التقاعدية، وتوفير إمكانية من خلال ذلك، للتعويض عن عجزه الحتمي في المستقبل». ثم روى كاسيانوف فيما بعد، على الملأ وبصورة شخصية، أنه أوصل المذكرة إلى بوتين، وقال له بوتين: «هذا ليس وقتها».12

وبصورة أو بأخرى، فقد اعتبر بوتين أن ملاحظات خودوركوفسكي، حول أن شركة «نفط الشمال» الصغيرة نسبياً قد بيعت بمخالفات وخروق، بمثابة تحد له. كان يذكر أن جميع الشركات الكبيرة لم تشترِ أبداً ملكياتها، بل حصلت عليها، عملياً، هدية من الدولة. وبحسب هذا المنطق، وبالمقارنة مع مزادات الرهن العقاري، فإن أي خرق لاحق هو ساقط ببساطة، ولهذا لا يملك خودوركوفسكي أي حق معنوي لقراءة محاضرة على الرئيس حول الفساد.

تمّ الاختيار

يتذكر ميخائيل كاسيانوف، رئيس الوزراء آنذاك، الذي كان يجلس في اللقاء مع أعضاء الاتحاد الروسي للصناعيين ورجال الأعمال، أنه بعد الاجتماع، أدهشه بوتين بمعرفته الدقيقة العجيبة لجميع تفاصيل صفقة «نفط الشمال»، وبدأ الرئيس يذكر أرقاماً لم يكن يعرفها حتى رئيس الوزراء. عندها أدرك كاسيانوف، أن الموقف أصعب بكثير مما يمكن تصوره.

يقول الآن خودوركوفسكي: «لم يكن في استطاعتنا أن نعتقد، أنه قد تم اتخاذ القرار، وأنه قد تم الاختيار. وهذا الشيء الوحيد الذي أثار دهشتنا». وهو يعتقد أن صفقة شراء شركة «نفط الشمال» الحكومية من قبل شركة «روس نفط» الخاصة قد تمت بإشراف شخصي من بوتين، وأن العمولات منها قد مَوّلت فيما بعد الحملتين الانتخابيتين في عامي 2003 و2004.

عموماً، تبدو الآن فضيحة الكرملين في 19 شباط/فبراير 2003 نقطة تحول، لكنها آنذاك لم تترك لدى الشخصيات الفاعلة الرئيسة انطباعاً خاصاً. فقد تابع خودوركوفسكي ممارسة تجارته وأعماله، وكأنه لم يحدث أي شيء، وتابع الإدلاء بتصريحات كبيرة.

أولاً، اتخذ موقفاً نشيطاً بخصوص العملية العسكرية التي كان يجري تحضيرها ضد العراق - وكان يدعو روسيا إلى تأييد الحملة الأمريكية ضد صدام حسين، من أجل تأمين حصة للشركات النفطية الروسية في التوزيع اللاحق للثروات الطبيعية للعراق.

ثانياً، كان يجري مفاوضات نشيطة حول اندماج شركة «يوكوس» مع شركة «سيبنفط» التابعة لرومان أبراموفيتش، بل وأكثر من ذلك، حول بيع حصة الشركة المتحدة المقبلة لإحدى الشركات الأمريكية الكبيرة العملاقة: إكسون موبيل ExxonMobil أو شيفرون Chevron. وباختصار، كان خودوركوفسكي على بعد خطوتين فقط من أن يصبح مالكاً مشاركاً لأكبر شركة نفط في العالم. ويقول خودوركوفسكي إن تنفيذ هذه المخططات كان مستحيلاً من دون موافقة بوتين، لأن الدولة الروسية كان في إمكانها حظر هذه الصفقة، على سبيل المثال، وكان من الممكن ألا توافق عليها الإدارة الاتحادية الروسية لمكافحة الاحتكارات. ومع ذلك لم تقدم الدولة أية علامات سلبية. وفي 22 نيسان/إبريل أعلن رئيسا شركتي «يوكوس» و«سيبنفط» رسمياً عن اندماج الشركتين في شركة واحدة.

يقول خودوركوفسكي: «كنا ندرك أنه لا يمكن أية شركة مثل شركة إكسون موبيل أن تنفق 20 مليار دولار، من دون أن تحصل على الموافقة من الرئيس». ولهذا عمل هو وأبراموفيتش بصورة مشتركة للحصول على موافقة السلطات على الصفقة: فقام صاحب شركة «سيبنفط»، باعتباره الأقرب إلى بوتين، بتنسيق الاندماج المقبل للشركتين معه، أما رئيس شركة «يوكوس» فقام بالتنسيق بهذا الخصوص مع الحكومة وميخائيل كاسيانوف.

بعد انقضاء أسبوعين على فضيحة الاجتماع مع أعضاء الاتحاد الروسي للصناعيين ورجال الأعمال - حسب ذكريات كاسيانوف - جاء إليه خودوركوفسكي بمشروع قانون يثبّت نتائج الخصخصة للأعوام التسعينيات،

ويمنع تعديلها. وبحسب هذا الاقتراح، يبدي مالكو الشركات المخصخصة في التسعينيات، الذين امتلكوها بثمن بخس، والتي أصبح ثمنها في أعوام الألفية الثانية يقدر بالمليارات، استعدادهم لدفع التعويض للدولة، وفي المقابل يحصلون على ضمانات أكيدة 100% بعدم انتزاع حقوقهم في الملكية، وفي الوقت نفسه، يحصلون على زيادة رسملة أصولهم وممتلكاتهم لعدة أضعاف. حمل خودوركوفسكي هذا المشروع المقترح إلى رئيس الوزراء باسم اتحاد الأوليغارشيين كله، باعتباره هو زعيم هذا الاتحاد. وكانت المبادرة مناسبة للجميع - فقد حصلت الميزانية على موارد ضريبية كبيرة غير متوقعة، وزاد الأوليغارشيون من جاذبية الاستثمار لشركاتهم. وكان مثل هذا القانون ضرورياً جداً لخودوركوفسكي وأبراموفيتش، من أجل بيع حصة شركتهما الموحدة المقبلة بسعر أعلى للأمريكيين.

يقول كاسيانوف، إنه في حالة إقرار هذا القانون يمكن أن يصل دخل الميزانية إلى ما بين 15 -20 مليار دولار. راقت له فكرة خودوركوفسكي، وقدم مشروع قانون جاهزاً لبوتين. لكن الرئيس لم يجب بكلمة واحدة. أخذ ورقتي النص اللتين أحضرهما كاسيانوف ووضعهما عنده. ولم تُطرح هذه المسألة بعد ذلك إطلاقاً.

عملية «إينيرغيا – الطاقة»

لكن التجمع المعادي، ما يدعى بـ«الأمنيين المتنفذين» لم يضيعوا الوقت عبثاً. يروي خودوركوفسكي، أن الأجهزة الأمنية كانت تعد، حسب معطياته، عملية خاصة باسم «إينيرغيا - الطاقة»، أي عملية تجميع شامل للمعلومات التشهيرية بقيادة جميع شركات الطاقة. ويقول خودوركوفسكي، إنه ظهرت فيما بعد معلومات تقول إن الهدف الأساسي هو شركة «مجموعة ألفا» وليس شركة «يوكوس». لكن فلاديمير بوتين لم يحبذ تسليط الأضواء على هذه الشركة والتشهير بها. فأولاً، كان يعرف صاحب هذه الشركة بيوتر آفين منذ أوائل التسعينيات، وكان له فضل كبير على بوتين، فبيوتر آفين هو الذي قرّبه من

النخبة المحيطة بالكرملين، وبالتحديد عرّفه على بوريس بيريزوفسكي. وثانياً، كانت شركة «مجموعة ألفا»، بدعم من بوتين، تعِدُّ صفقة اندماج شركتها «ت.ن.ك» مع شركة بريتش بتروليوم البريطانية. ولم يكن ينوي بوتين أبداً المخاطرة باتفاقية العصر وعلاقاته بتوني بلير.

يقول خودوركوفسكي: «بدأنا نشعر بالتوتر منذ حلول الربيع، لكن هذا التوتر لم يكن غير عادي ولا يشكل تهديداً لشركاتنا». فاعتقال عنصر الأمن في شركة «يوكوس» ألكسي بيتشوغين، على سبيل المثال، لم يعتبره ذا دلالة، وقرر بأنه نزاع يومي عادي. فبعد اعتقال بيتشوغين، جرى لقاؤه الأخير مع بوتين، وحضره أبراموفيتش، حيث حدثا الرئيس عن الصفقة التي يجري إعدادها لتوحيد الشركتين. ويتذكر كاسيانوف أن بوتين في ذلك اللقاء أكثر من اللسع والصراخ، وكان يسخر قائلاً: «ولماذا تحدثاني عن هذا كله؟ فحتى لو لم يرق لي، فسوف تتابعان الصفقة، أليس كذلك؟». أما في الواقع، فقد كان من المستحيل إنجاز الصفقة من دون موافقة بوتين.

ثم جاءت الخطوة الحاسمة التي تمثلت في اعتقال بلاتون ليبيديف، شريك خودوركوفسكي، ونائب رئيس شركة «يوكوس». لقد اقتادوه إلى السجن من سريره في المستشفى، وبعد هذا الاعتقال، اتضح أن حملة جدية قد بدأت ضد شركة «يوكوس».

وقد ربطت وسائل الإعلام الجماهيري بدايتها بنشر تقرير غامض بعنوان «الدولة والأوليغارشيا» (أو «يجري إعداد انقلاب أوليغارشي في روسيا»).13 وقد أعد هذا التقرير مجلس الاستراتيجية الوطنية، وهي المؤسسة التي كانت تضم في تلك الأثناء أكبر السياسيين في روسيا، وكتب هذا التقرير ستانيسلاف بيلكوفسكي، الذي كان آنذاك مديراً عاماً لهذا المجلس.

لقد كان هذا التقرير، على الرغم من صدقية الحقائق المعروضة فيه، يشبه الوشاية إلى حد كبير. وهاكم أهم مقاطعه الرئيسة:

«... فعلاً، روسيا أصبحت على عتبة انقلاب أوليغارشي.

ويمكن القول إن الأوليغارشيين، بعد أن أنجزوا الخصخصة الأولية لأهم منشآت الاقتصاد الوطني، انتقلوا إلى ما يشبه خصخصة الحياة السياسية-السلطوية لروسيا. في مثل هذا الوضع، فإن مؤسسة رئاسة البلاد، باعتبارها أساس النظام السياسي لروسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي، تتحول من ضمانة لاستقرار الطبقة الحاكمة، كما كانت خلال الأعوام من 1992 - 2002 إلى عقبة في طريق سيادة الاحتكار النهائية وتهديداً محتملاً لمنطق التحديث الأوليغارشي.

تجدر الإشارة، أنه ومع مراعاة ما ورد، فإن نموذج توظيف الأوليغارشية في روسيا قريب من توظيفها في جمهورية فنزويلا في القرون الثالث عشر حتى الثامن عشر (الأوليغارشيون يؤدون دور مجلس العشرة، أما الرئيس الذي ينتخبونه، بحكم الواقع، يؤدي دور الدوق).

تجدر الإشارة أيضاً، أن أسر غالبية الأوليغارشيين تقيم بشكل دائم خارج روسيا، ويدرس ورثتهم في الخارج. وهذا يشير إلى أن غالبية الأوليغارشيين لا يربطون مصالحهم الاستراتيجية الشخصية والأسرية بروسيا، كجوهر جيوسياسي وإثنوغرافي-ثقافي.

إن استمرار السحب الكبير لرؤوس الأموال إلى خارج روسيا لا يرجع فقط إلى خصائص المناخ الاستثماري في روسيا، بل وإلى تصورات أساسية للأوليغارشية حول استراتيجيتها الشخصية والعائلية. وهذه الاستراتيجية ترتبط عادة بالغرب، ولا ترتبط أبداً بروسيا.

إن أهم عناصر منظومة القيم الأوليغارشية هي:

- مبدأ المتعة والترف.

- تقديس المال كأداة للسلطة.

- الاستخفاف المقصود بالناس، الموجودين خارج الاتحادات والشركات الاحتكارية الأوليغارشية، وبمصالحهم الحيوية».

ثم ينتقل كاتب التقرير إلى التفاصيل الملموسة، فيذكر المتآمرين المحتملين: مالكو شركة «ف.ب.غ ФПГ» (الألومنيوم الروسي) بالتعاون مع شركة «ن.ك.يوكوس» واتحاد «مجموعة ألفا»، أي أكبر الأغنياء الأربعة في روسيا - رومان أبراموفيتش، أوليغ ديريباسكا، ميخائيل خودوركوفسكي وميخائيل فريدمان. وبحسب قول كاتب التقرير «هم يعتمدون على موارد سياسية-إدارية حصرية، لكنهم لا يقتصرون على هذا، فهم يمارسون تأثيراً خاصاً على رئيس الحكومة م. كاسيانوف وعلى رئيس إدارة رئاسة روسيا الاتحادية آ. فولوشين».

ولكن في المحصلة، دعا التقرير ميخائيل خودوركوفسكي بالذات باسم زعيم المتآمرين: «بتوحيده المصدر الإداري للمساهمين في «سيبنفط»، المعروفين في إمكاناتهم الضاغطة، والرقابة غير الشكلية على عدد من الشركات والبنى السلطوية ذات النفوذ، يمكن لميخائيل خودوركوفسكي أن يحقق مهمات طموحة طويلة الأجل. وفي الفترة الأخيرة يتفق مراقبون كثيرون على الرأي القائل بالمنصب السياسي المقبل لخودوركوفسكي. ويدل على هذا بصورة غير مباشرة تمويل شركة «يوكوس» لغالبية الأحزاب المتطلعة إلى حجز مقاعدها في مجلس الدوما».

وتتحول خاتمة التقرير إلى ترويع واضح للرئيس:

«... إن الدولة المستسلمة، بتستُّرها بخطاب ليبيرالي، لا يمكنها اليوم أن تقوم حتى بوظيفة «حارس ليلي»، لكنها تعبد الطريق لتعزيز سلطة ونفوذ الأوليغارشيين، محققة مبدأ «السيطرة النهائية للاحتكارات» ومركزة في أيدي الأوليغارشيين جميع مفاتيح السلطة السياسية.

... وبما أن مؤسسة الرئاسة قد نفّذت، من وجهة نظر الطبقة الحاكمة، رسالتها

التاريخية، لهذا لم تعد ضرورية (في المستقبل ستكون أكثر خطورة، بسبب الصلاحيات الشكلية الواسعة بصورة استثنائية لرئيس الدولة، التي قد تسمح بتصحيح الفلسفة الأساسية وتكنولوجية السلطة)، وكذلك - بما أن الأوليغارشيين، كأشخاص ماديين، لا يملكون مصادر سياسية عامة للفوز في انتخابات وطنية مباشرة، فإن الفاعل الرئيس للطبقة الحاكمة قد اتخذ قراراً بالحد من صلاحيات رئيس روسيا الاتحادية وتحويل روسيا من جمهورية رئاسية إلى جمهورية رئاسية-برلمانية (على النمط الفرنسي). ويَبرز رئيس شركة «ن.ك.يوكوس» ميخائيل خودوركوفسكي منظِّراً رئيساً لهذا التحول، حيث يؤيده بصورة مباشرة وغير مباشرة الشخصيات المفتاحية الأخرى للتجمع الأوليغارشي (ر. أبراموفيتش، و. ديريباسكا، م. فريدمان).

وبحسب مخطط الفاعل الرئيس للطبقة الحاكمة، يمكن في عام 2004 تشكيل حكومة جديدة لروسيا الاتحادية خاضعة لرقابة ومحاسبة البرلمان. ويعد ميخائيل خودوركوفسكي المرشح المفضل لدور رئيس هذه الحكومة، المتشكلة وفقاً للدستور الجديد... ومن الواضح أن النزول من مسار «التحديث الأوليغارشي» في المستقبل القريب غير مضمون، إنه مجرد فرصة تاريخية لروسيا، لكن هذه الفرصة من الضروري استغلالها».

نُشر هذا التقرير في أيار/مايو 2003، وسرعان ما وقع في أيدي فلاديمير بوتين، كما تؤكد وسائل الإعلام الجماهيرية. وقد نقله له إيغور سيتشين نائب رئيس إدارة الكرملين والزعيم غير الرسمي للأمنيين الأقوياء. علاوة على ذلك، أكدت وسائل الإعلام الجماهيرية المستقلة في عام 2003 أن التقرير قد كُتب بطلب من رئيس شركة «روس نفط» سيرغي بوغدانشيكوف (الذي كان يعد في تلك الفترة مموّل جماعة رجل الأمن المتنفذين).

يؤكد الآن بيلكوفسكي، أنه لم يكن هناك أي طلب لهذا التقرير، وعلى الرغم من أن المعطيات الواردة فيه استفزازية، من حيث الشكل، لكنها صادقة. وكان المبادرون لمثل هذه الضجة حول التقرير، برأي بيكوفسكي، هم قادة شركة

«يوكوس»، وبالدرجة الأولى، نائب خودوركوفسكي لشؤون الأيديولوجيا ليونيد نيفزلين: «إن شركة «يوكوس» هي نفسها التي أطلقت العنان لهذا التقرير، وجلبت الأنظار إليه. كانوا واثقين من أنهم حققوا فوزاً كبيراً، وكانوا يظنون أنهم إذا ما تظاهروا «بدوافع سياسية»، فلن يمسهم بالتأكيد أي ضرر».

وبحسب أقوال بيلكوفسكي، فإن ما ترك أثره العميق على بوتين ليس التقرير العلمي حول «الانقلاب الأوليغارشي»، بل طباعة تقارير التنصت على أحاديث خودوركوفسكي الهاتفية، التي أحضرها له سيتشين أيضاً. «لم يأخذوا في اعتبارهم التنصت الكامل المفروض. ولم يقدروا حق التقدير درجة تسرب كل ما يفعلونه. فبعد أن أصبح خودوركوفسكي معبود المثقفين الليبيراليين، كان خودوركوفسكي يتحدث باستمرار عن مدى تفاهة بوتين، من دون أن يأخذوا في اعتبارهم أن بوتين نفسه يمكنه الاطلاع على هذه الأحاديث».

وإلى جانب الأحاديث عن التغيير المقبل للدستور وآفاق ترأس خودوركوفسكي للحكومة (وقد أكدها خودوركوفسكي نفسه)، كانت تدور شائعات حول اتهام آخر موجه إلى خودوركوفسكي، والذي اخترعه سيتشين، وترك انطباعه على بوتين. وقد جاء في تقارير التنصت التي كانت على مكتب الرئيس، أنه في أثناء المفاوضات حول الصفقة المقبلة مع شركة شيفرون أو شركة إكسون موبيل، وكأن خودوركوفسكي تحدث مع كونداليزا رايس ووعدها بأنه عندما يصبح زعيماً لروسيا سيتخلى عن السلاح النووي. يؤكد خودوركوفسكي أنه لم يدل بأية أحاديث بهذا الخصوص. ولم يكن هذا على درجة من الأهمية. المهم، أن بوتين صدّق هذه المعلومة.

إنجاز المهمة

بعد اعتقال بلاتون ليبيديف، بدا واضحاً أن السلطة الروسية تقترح على ميخائيل خودوركوفسكي التوجه إثر بوريس بيريزوفسكي وفلاديمير غوسينسكي: إلى الهجرة. غير أن خودوركوفسكي لم يغادر روسيا إلى أي بلد،

بل العكس توجه بجولة في أنحاء روسيا. وقد اعتقل في تشرين أول/أكتوبر في مطار نوفوسيبيرسك.

يرى ستانيسلاف بيلكوفسكي، أن خودوركوفسكي كان واثقاً من أنه لن يُعتقل، لأنه كان يعتقد أن فولوشين وكاسيانوف يحميانه. لكن فولوشين لم يستطع حمايته، لأنه لم يتوقع أن يُعتقل. يقول بيلكوفسكي: «كان فولوشين يظن أن بوتين سيستدعيه أولاً لتبادل الأراء معه، على الأقل. كان فولوشين يظن أن خودوركوفسكي لن يُعتقل، لأن هذا سيكون قاسياً جداً. لكن بوتين قرر، أنه ليس هناك ما يقلق، سنوقفه».

كان هذا التوقيف صدمة للكثيرين في الكرملين - رئاسة إدارة الكرملين عرفت باعتقال خودوركوفسكي من أخبار التلفزيون. في ذلك اليوم التقى أندريه إيلاريونوف المستشار الليبيرالي المتحمس للرئيس لشؤون الاقتصاد في البهو نائب رئيس الإدارة فلاديسلاف سوركوف، الذي بدأ حارساً، ومن ثم أصبح مدير العلاقات العامة عند خودوركوفسكي، قبل أن يغادر شركة ميناتيب МЕНАТЕП ثم أصبح في الكرملين. سأله إيلاريونوف المصدوم من الخبر: «سلافا******** وما العمل الآن؟ وماذا ستفعل الآن؟».

أجاب سوركوف مبتسماً: «أتعرف أندريه؟ لا حدود لمرونة الإنسان».

بيد أنه تبين أن رئيسه ألكسندر فولوشين لا يتحلى بالقدر اللازم من المرونة: فقد قدم استقالته في 30 تشرين أول/أكتوبر، بعد اعتقال خودوركوفسكي بخمسة أيام. وبعد فترة قصيرة جداً أصبح سوركوف بالذات المنظِّر الرئيس الجديد للكرملين.

يقول بيلكوفوسكي: «من حيث المبدأ، كان في استطاعة فولوشين أن يبقى، فبوتين لم يطلب منه تقديم استقالته، لكن هذا كان يمكن أن يعني أن فولوشين بالاشتراك مع أبراموفيتش هما اللذان رتبا اعتقاله، كي ينتزعا شركة «يوكوس» من خودوركوفسكي».

وبهذا الصدد، فإن بيلكوفسكي نفسه، في كانون أول/ديسمبر 2003 لم يعد مديراً عاماً لمجلس الاستراتيجية الوطنية وتفرغ للعمل مستشاراً لبوريس بيريزوفسكي. وفيما بعد عمل مستشاراً عند ميخائيل خودوركوفسكي ولا يزال حتى اليوم مستشاره، بعد إطلاق سراحه وانتقاله إلى سويسرا. وبعبارة أخرى، فإن رئيس شركة «يوكوس» لم يحتفظ بأي إساءة على تقرير «الدولة والأوليغارشيا».

أما فولوشين، فيفضل الآن الحديث عن استقالته بطريقة فلسفية أكثر:

«كان لدي شعور بأننا فقدنا القيادة. في السنوات الأولى من وجودي في السلطة عملنا كثيراً من الأشياء المفيدة: السلّم المرن المتحرك للضرائب، الملكية الخاصة للأرض، وإصلاحات أخرى. كنا جميعاً نتحرك باستمرار وننطلق. كنت مدركاً على ماذا أصرف أيام حياتي وسنواتها. كنت أظن أنني أنهض بالبلاد. لأن الوقت المستهلك في الكرملين هو سنوات مهدورة من الحياة، من جميع وجهات النظر. فأنت لا ترى أطفالك أبداً. ولا تقرأ أي كتاب - طيلة خمس سنوات. عموماً، هذه ليست حياة. يجب أن يكون الإنسان مريضاً بكل معنى الكلمة كي يروق له هذا العمل. أو يجب أن تكون قادراً على تقسيم نفسك إلى أجزاء - ثمة أشخاص قادرون على ذلك. لم يكن في استطاعتي ذلك، لقد كنت هناك في الكرملين بكليّتي».

والآن يقول فولوشين إنه أدى رسالته تجاه بلده روسيا «من مرحلة الثورة الدائمة، التي كانت في الأعوام التسعينيات، إلى النمو الارتقائي». ويقول: «إن أعوام التسعينيات كانت زمن الإمكانات والفرص للمثقفين، للطبقة المبدعة، ولكنها، عموماً، كانت أعواماً قاسية جداً بالنسبة إلى الجميع. كانت قواعد اللعبة تتغير باستمرار. وكانت المهمة الرئيسة للجميع هي البقاء على قيد الحياة. لم ينمُ الناس في الحياة الجديدة، بل كانوا يتألمون في التشنجات. فالانتقال إلى المرحلة الارتقائية قلب كل شيء - من أبيض إلى أسود، ومن أسود إلى أبيض.

والحرية واقتصاد السوق في روسيا بعيدان عن الكمال، لكنهما موجودان، لقد تم الوصول إلى الكتلة الحرجة، وهذا يكفي. وكان لا بد من تسديد قيمة هذا بحياة أقل رفاهية للمثقفين وللطبقة الابتكارية. ولكن، كان كل شيء جيداً بالنسبة إلى الباقين. ويظهر للجميع وضع سياسي واقتصادي أكثر ثباتاً».

بعد عام، حُكم على خودوركوفسكي بالسجن ثماني سنوات. وفي عام 2010 اختتمت محاكمته بالتهمة الثانية، وزادت فترة سجنه إلى 14 عاماً. ولكن في عام 2014 تم إعفاء رجل الأعمال الكبير خودوركوفسكي من فترة السجن المتبقية، وأُطلق سراحه.

اختفاء أسرة يلتسين

لقد أصبحت قضية شركة «يوكوس» هزة عنيفة غيرت بشكل كامل توازن القوى في السياسة الروسية. فأسرة الرئيس يلتسين - أو ما كان يعدُّ أسرته - نأت بنفسها. ورومان أبراموفيتش - آخر لاعب وازن ومقرّب من فلاديمير بوتين من معسكر الأسرة، اشترى نادي كرة القدم «تشيلسي» وانتقل إلى العيش في إنكلترا. ونُسفت صفقة توحيد شركتي «سيبنفط» و«يوكوس»، لكن أبراموفيتش لم يعبر علناً مرة واحدة عن أسفه بهذا الخصوص - فبعد عامين باع شركة «سيبنفط» لشركة «غازبروم» بسعر أعلى بمرة ونصف من سعر السوق. وقبل ذلك، كان قد باع جميع ممتلكاته الباقية في روسيا: حصصه وأسهمه في شركات «إيروفلوت»، «شركة الألومنيوم الروسي» شركة الطاقة «ايركوتسك إينرغو»، وفي محطة كراسنويارسك الكهرمائية، وفي شركة صناعة السيارات الروسية «روس بروم أفتو».

لقد اختفت أهم «عشيرة» سياسية كانت تقود روسيا طيلة العقد السابق، كما اختفت قيادة العراق السابقة مع ظهور الدبابات الأمريكية بالقرب من بغداد: وذابت في الهواء أسرة صدام حسين وموظفو حزب البعث. وبالمثل تماماً اختفت تلك «الأسرة». الجبارة التي كانت تعد أساس النظام السياسي في

روسيا، هربت من ساحة المعركة بعد أول ضربة، على الرغم من أنها لم تُوجه إليها، بل وُجهت لميخائيل خودوركوفسكي، الذي ليس له أي ارتباط بها. لقد ظهرت خطة استخدام شركة «يوكوس» للصراع ضد رجال الأمن الأقوياء، لكن الأسرة استسلمت على الفور، متظاهرة بأنها لم تنوِ الصراع أبداً.

ويمكن اعتبار التقرير المضاد، الذي نُشر في صحيفة «نوفايا غازييتا» الروسية وعدد من مواقع الإنترنت، مظهرَ المقاومة الوحيد. وقد كتبه غليب بافلوفسكي، أشهر خبراء السياسة في تلك الفترة، وجاء رداً على تقرير ستانيسلاف بيلكوف. وقد حمل عنوان: «حول الآثار السلبية لـ«الحملة الصيفية» للأقلية المعارضة لنهج رئيس روسيا الاتحادية».

وقصد بالأقلية بالذات جماعة من رجال الأمن الأقوياء (ورد في التقرير أسماء إيغور سيتشين، المدعي العام فلاديمير أوستينوف، وفيكتور إيفانوف، ورجلي الأعمال بوغاتشوف وبوغدانشيكوف). أكد كاتب التقرير أن هذه الجماعة ليست سوى: معارضة منظمة جديدة، شكلت عملياً مركزاً موازياً للسلطة، وتحاول إجراء تصحيح لنهج الرئيس من الداخل، معتمدة على دعم العناصر الأمنية في الدولة تحت راية دعم وتعزيز الرئيس «الضعيف».

لم ينتج عن التقرير أية عواقب على رجال الأمن المتنفذين نفسها - فقد بقوا الأقوى نحو ثلاث سنوات. ولكن كانت له أسوأ العواقب على كاتبه - فقد خسر في المحكمة مليون دولار دفعها لسيرغي بوغاتشوف، الذي اتهمه بالافتراء.

وعموماً، يمكن اعتبار جزء من هذا التقرير المضاد تنبؤياً. وهاكم كيف وصف غليب بافلوفسكي في عام 2003 الأهداف التي وضعتها نصب عينيها «جماعة رجال الأمن المتنفذين»:

«أولاً، تكوين نوع جديد من الأعمال حددته «قضية يوكوس»: الحياد التام نحو أسياد الكرملين الجدد، الذين يحددون سياسة الكوادر والاقتصاد. وسوف يتم قمع عدم الامتثال والخضوع بتأثير القوة. يمكن للمشروع نفسه أن يبقى خاصاً،

لكن دور الدولة في إدارته يجب أن يكون كبيراً.

ثانياً، تأسيس احتكارات حكومية قوية أو شركات قابضة بمشاركة الدولة في غالبية أسرار الاقتصاد الجذابة.

ثالثاً، حل مسألة نمو الاقتصاد عبر إعادة الموارد والملكية في قطاع الطاقة والخامات وفي قطاعات الاقتصاد الأخرى، وإدخال «ريع الموارد»، وتأسيس الاحتكارات الحكومية (بما فيها إعادة فرض احتكار الدولة على إنتاج الخمور والفودكا)، وتعزيز الرقابة على توظيف الأعمال الاقتصادية واستثماراتها.

رابعاً، التعزيز الشديد للعنصر الأمني في السلطة، وتحويل رجال الأمن المتنفذين إلى الركيزة الرئيسة، ومن حيث الجوهر، الوحيدة للرئيس. تعزيز التدخل الأمني في السياسة، بدءاً من الانتخابات على جميع المستويات وانتهاءً بالرقابة على الحياة الخاصة.

خامساً، تشكيل منصة أيديولوجية «يسارية شعبوية» جديدة للسلطة، ترتكز على الأرثوذكسية المبسطة والمحولة إلى أيديولوجيا، والتوجه نحو «جماهير موظفي الدولة» والأعمال المتوسطة والصغيرة المعادية للأوليغارشية».14

لقد تحققت النبوءة خلال فترة طويلة - فالبند الخامس، على سبيل المثال، لم يتحقق إلا بعد عشر سنوات.

آخر فرد في أسرة يلتسين

لم يكن من الممكن للتحول الجذري في الكرملين ألا ينعكس على السياسة العامة، لا سيما وأن انتخابات مجلس الدوما كانت مقررة في كانون أول/ديسمبر 2003. والحزب الحاكم «روسيا الموحدة»، المكون من حزبي «الوحدة»

و«الوطن» أقدم على الانتخابات للمرة الأولى بصفته الحزب المفضل. والحزب الشيوعي الذي كان يشغل المركز الأول في القوائم الحزبية في روسيا لنحو عشر سنين، كان عليه أن يخسر في هذه الانتخابات، وكل هذا لأن فولوشين

الذي كان يكره الشيوعيين قد شكل قبل استقالته، بديلاً للشيوعيين - تجمع «الوطن» التركيبي الشعبوي، بالتوجه القومي. وكان على هذا التجمع التركيبي أن يفوز في الانتخابات ويدخل البرلمان، وينتزع من الشيوعيين قسماً مهماً من ناخبيهم.

وأخيراً، كان الحزبان الليبيراليان «يابلوكو» و«اتحاد القوى اليمينة» قد أضعفا معنوياً وقضي عليهما ولم يكونا مهيئين للانتخابات. فمن ناحية، توقفت شركة «يوكوس» عن تمويلهما في تلك الفترة بالذات التي بدأت فيها الحملة الانتخابية. ومن ناحية أخرى، لم يستطيعا صياغة وعودهما للناخبين ولم يخاطرا بالدفاع علناً عن خودوركوفسكي. فالقنوات التلفزيونية الاتحادية قدمت للجمهور قضية يوكوس وكأنها نضال بوتين ضد الأوليغارشيين الذين نهبوا البلاد، ووجدت هذه الفكرة قبولاً كبيرة وشعبية بين السكان. ولم يسِر الحزبان ضد الرأي العام، ولم يدافعا عن مصالح الاقتصاديين، أو على الأقل لم يعبرا عن قلق رجال الأعمال الصغار.

وعلى أية حال، فاختفاء المجموعة الليبيرالية من الكرملين لم يكن من الممكن أن يترافق باحتفاظ الليبيراليين بمواقعهم في البرلمان - فحزبا «يابلوكو» و«اتحاد القوى اليمينة» لم يتجاوزا حاجز الخمسة بالمئة وبقيا خارج مجلس الدوما. حتى أن إدارة الكرملين الجديدة لم تعقهما، واكتفت بعدم مساعدتهما وعدم تجميع الأصوات لصالحهما. وحُشدت جميع الجهود والقوى حصرياً في مساعدة حزب «روسيا الموحدة».

لكن هزيمة بقايا أسرة يلتسين لم يقتصر على هذا. علاوة على ذلك، لم يتوقف البحث عن المتآمرين. لا سيما وأنه بقي في السلطة، كحد أدنى، رجل واحد له وزن قوي، لم يكن من أتباع فلاديمير بوتين، بل كان على الأغلب مفروضاً عليه - وهو رئيس الوزراء ميخائيل كاسيانوف.

في عطلة رأس السنة استقل الطائرة رئيس الحكومة وسافر إلى النمسا للتزلج

على السكي. فقد دعاه المستشار النمساوي شليوسل وأمضيا فترة الأعياد معاً. وقد انضم إليهما ليوم واحد، للتزحلق وتبادل الأحاديث، بوريس نمتسوف رئيس حزب «اتحاد القوى اليمينية» الخاسر. وحاول إقناع كاسيانوف بترأس الحزب، لكن كاسيانوف رفض بعد تفكير.

وبينما كان كاسيانوف يتزلج في النمسا، وُضعت تقارير جديدة على مكتب بوتين. وهي تدل على أن كاسيانوف هو الشخصية الرئيسة للمؤامرة الهادفة إلى الإطاحة ببوتين - وهو بالذات كان يبحث تفاصيلها مع المستشار النمساوي شليوسل.

كان جوهر المؤامرة كما يلي: كان من المقرر أن تجري الانتخابات الرئاسية في آذار/مارس 2004. ولكن كان من الممكن نسفها، إذا كان الحضور أقل من 50%. وكيف يمكن نسفها؟ إقناع جميع المرشحين بإلغاء ترشيحهم. من بين القوائم المطبوعة التي أحضرت لبوتين، حسب قول كاسيانوف، كانت هناك تقارير حرفية لأحاديثه مع نيمتسوف، التي دارت حسب زعمهم، لكنها في الواقع كانت مختلقة. وبحسب هذه التقارير، تحدث كاسيانوف ونيمتسوف حول أن جميع منافسي بوتين؛ بمن فيهم الشيوعي خاريتونوف، والمرشح الكومبارس ماليشكين، والاشتراكي غلازييف، والليبيرالية خاكامادا يخرجون من سباق الرئاسة، ولا يبقى في القائمة سوى بوتين وبديله الجاهز سيرغي ميرونوف، الناطق بلسان مجلس الاتحاد، فيفقد الناخبون اهتمامهم بالانتخابات و«يصوتون بأرجلهم». والخطوة التالية واضحة: تعيين جولة جديدة من الانتخابات في شهر حزيران/يونيو، في حين أن صلاحيات بوتين تنتهي في 6 أيار/مايو. وهذا يعني أن القائم بأعمال الرئيس، حسب الدستور، يصبح رئيس الوزراء كاسيانوف. وعشية الانتخابات تكون صلاحيات السلطة بكاملها بين يديه.

لم يكن كاسيانوف يشك في وجود مثل هذه المؤامرة، في حين كان العمل قائماً على قدم وساق في إدارة الرئيس من أجل مجابهتها. استدعي إلى

الكرملين فيكتور غيراشينكو، البالغ من العمر، وقتها، 66 عاماً، الرئيس السابق للبنك المركزي الروسي لفترة طويلة - الشبيه الروسي بآلان غرينسبان******** - العجوز الكاريزمي، الذي انتخب في مجلس الدوما على قوائم كتلة «الوطن» الشعبوية. وقالوا له في الكرملين: «فيكتور فلاديميروفيتش، نرجوك رجاءً حاراً أن ترشح نفسك للانتخابات الرئاسية». رفض بمختلف الوسائل، قائلاً إن هذه مسألة صعبة وغير لازمة له، لكنه تلقى جواباً: «كلا، أنت لا تدرك، نحن نرجوك رجاءً حاراً». وترشح غيراشينكو، ربما من دون أن يشك في أنهم يستخدمونه من أجل إضفاء إثارة إضافية على الانتخابات وعدم السماح بنسفها.

عندما عاد كاسيانوف من إجازته، لم يدرك على الفور ما حدث. يذكر أنه في حفل الاستقبال بمناسبة يوم الجيش الروسي في 32 شباط/فبراير كان بوتين يتصرف بغرابة - لم يتواصل مع أحد، بل كان يتهامس في الزاوية مع نيقولاي باتروشيف مدير جهاز الأمن الاتحادي.

في اليوم التالي استدعى بوتين كاسيانوف إلى الكرملين وأعلن أنه قرر استخدام حقه الدستوري واتخذ قراراً بإقالة رئيس الوزراء. ويذكر كاسيانوف أن بوتين كان غاضباً، ولهذا اختلط عليه الأمر - وصحح له كاسيانوف قائلاً: «لا يمكنك أن تقيل رئيس الوزراء، يمكنك فقط أن تقيل الوزارة كلها».15

عندئذ أخبر بوتين كاسيانوف بأنه يعرف كل شيء عن المؤامرة. عبر كاسيانوف عن استغرابه الصادق، وبعدها عرض بوتين على رئيس الوزراء السابق منصب سكرتير مجلس الأمن القومي. فرفض كاسيانوف عرضه.

استقال كاسيانوف بهدوء، ولم يدل بأي تصريح أو بيان، وحافظ على صمته عدة سنوات. وطيلة هذا الوقت كانت السلطة متسامحة معه بصورة مطلقة، مثله مثل باقي أوصياء أسرة يلتسين.

لم يحاول كاسيانوف العودة إلى السياسة إلا قبيل الانتخابات الرئاسية - وفشل فيها. بل على الأصح هُزم فيها. وتذكرت جميع وسائل الإعلام الجماهيرية

الاتحادية تلك الأسطورة القديمة الذي كان قد أطلقها غوسينسكي، حول أن كاسيانوف في جميع الصفقات التي تداولها أخذ لنفسه حصة بنسبة 2%، وبالتالي استحق لقب «ميشا 2%». لم يُسجل كاسيانوف مرشحاً للرئاسة، وتصنيفه لم يزد أبداً على 2%.

إن هزيمة كاسيانوف وعدم السماح له بالوصول إلى السلطة أصبحا ليس صراعاً ضد بقايا أسرة يلتسين بقدر ما أصبحا صراعاً علاجياً نفسياً ضد الخوف الرئيس التالي لفلاديمير بوتين. أصبحا تذكيراً له بهزيمته الرئيسة: «الثورة البرتقالية». وسعيا ثابتاً لعدم السماح بتكرارها في روسيا، وعدم السماح لميخائيل كاسيانوف بأن يصبح فيكتور يوشنكو******** ثانياً.

* دوجد дождь (المطر) - قناة تلفزيونية روسية مستقلة معارضة، حازت على شهرة كبيرة وعلى جوائز عديدة لتحليلاتها السياسية الجريئة، يشارك في إدارتها وتقديمها كبار الصحافيين والمحللين الروس المتميزين، وقد حاولت السلطات التضييق عليها، فحصرت بثها بالمشتركين. (المترجم).

** عمدة مدينة بطرسبورغ. (م).

*** من قصة الكاتب الألماني غوفمان الساخرة بعنوان الطفل تساهيس الملقب بتسينوبر. (م).

**** فرخ الإوز - اختصار كنية غوسينسكي، والتي تعني الإوزة. (م).

***** صيغة التصغير والتحبب لاسم كونستانتين. (م).

****** زوجة بوتين. (م).

******* غيرمان غريف: وزير الاقتصاد الروسي من العام 2000 إلى العام 2007. (م).

******** ألكسي كودرين: وزير المالية الروسي من العام 2000 إلى العام 2011.

(م).

******** تعني الأقوياء، والمقصود رجال الأمن أصحاب النفوذ القوي. (م).

******** الشيوعيون. (م).

******** تصغير وتحبب لاسم فلاديسلاف. (المترجم).

******** رئيس البنك المركزي الأمريكي لفترة طويلة من 1987-2006. (م).

******** رئيس أوكرانيا بعد الثورة البرتقالية. (المترجم).

الجزء الثاني: بوتين الثاني الجميل

الفصل الرابع : عن دميتري ميدفيديف، رئيس إدارة الكرملين، الذي أسس طبقة روسية جديدة

يُحدث دميتري ميدفيديف انطباعاً غير عادي، بالنسبة إلى رجل السياسة - فهو يبدو إنساناً طيباً. ويظهر لمن يمعن النظر فيه، أنه غير واثق من نفسه بما فيه الكفاية، وهذا يُلاحظ، على نحو خاص، من سعيه إلى أن يظهر على أنه واثق من نفسه. إلى جانب ذلك، أنه قادر على الإصغاء بصورة دقيقة، بل ويحب تبادل الآراء: على سبيل المثال، قد يَسأل الصحافيين، قبيل الحديث التلفزيوني، ما لون ربطة العنق الذي يجب أن يرتديها. أو ربما الأفضل من دون ربطة عنق؟

بدأ دميتري ميدفيديف حياته الوظيفية مدرساً - لا يزال في شخصيته كثير من سمات المدرس الشاب الذي يدخل الصف، واثقاً من استيعاب الطلاب له، لهذا يبذل جهده كي يبدو أكبر سناً، وأكثر جدية، وأحياناً بالعكس، يتحدث بلغة الشباب. ويبدو، وكأنه قد اعتاد ألا يكون في مكانه المناسب. وحتى عندما يُظهر قِطّه المفضل لمحدِّثه أو يتحدث عن دراسة ابنه، يبدو جلياً جهده الذي يبذله كي يحدث انطباعاً صحيحاً.

أحياناً يبدو ميدفيديف، عموماً، شبيهاً بطالب مثابر مواظب. عندما يتحدث عن أشياء لا يوافق عليها أبداً، لكن وظيفته تلزمه بالموافقة عليها، يظهر عنده شيء من الطالب المتفوق، الذي حفظ درسه غيباً. ويمكنه أن يرويه بصورة متميزة، بل ويرتجله ارتجالاً، على الرغم من أن موضوع الدرس نفسه لا يروقه بل ويكرهه.

بالطبع، لم يخطط دميتري ميدفيديف أبداً لأن يصبح سياسياً. لقد وجد نفسه منغمساً في السياسة بالمصادفة، ومن غير قصد. وربما رغماً عنه. بيد أنه

متفوق. ولهذا يضطر إلى التمسك بالصبر، رغم شعوره بأنه ليس في مكانه المناسب. ويبدو أنه يثق بقدرته على الصبر على الجميع.

ديما********

بعد أن قبل بوتين استقالة ألكسندر فولوشين، رئيس إدارة الكرملين، عيّن دميتري ميدفيديف نائب فولوشين الأول رئيساً جديداً للإدارة. وهو الموظف غير المعروف إطلاقاً للجمهور، وليس في جعبته سوى أنه جاء من بطرسبورغ، وفي عام 2000 ترأس أركان الحملة الانتخابية لفلاديمير بوتين في انتخابات الرئاسة. مع أن الجميع كان يعرف أنه كان شكلياً رئيس أركان الحملة الانتخابية، ولم يقم في الواقع بأي عمل (فهو لم يقد حملة بوتين الانتخابية: لم يشارك في المناظرات، ولم يلصق الإعلانات والدعايات). فحملة بوتين الانتخابية الحقيقة قادتها إدارة الكرملين برئاسة فولوشين: فالكرملين بالذات كان يوزع التعليمات على القنوات التلفزيونية الاتحادية، والكرملين كان ينظم جميع جولات بوتين في أثناء الحملة الانتخابية، ولم تكن تدعى جولات انتخابية بل جولات عمل رئيس الوزراء.

ورث ميدفيديف تركة قوية، فهكذا كان، أن إدارة الرئيس بالذات منذ عام 1999 كانت المركز الرئيس للقوة في الدولة. ومن حيث الجوهر، ولأنه أصبح رئيس إدارة الكرملين، أصبح دميتري ميدفيديف الموظف الأكبر نفوذاً في روسيا، وعلاوة على ذلك، كان يشغل منذ عام 2000 منصب رئيس مجلس إدارة شركة «غازبروم». وربما شغل ميدفيديف منصبين مهمين، بسبب أنه بقي عدة سنوات غير ملحوظ إطلاقاً، لم «يسحب اللحاف باتجاهه»، ولم يكتسب أي وزن سياسي - إلى أن حصل من بوتين على العرض التالي.

حول أن ميدفيديف يعدّ «الخليفة الرسمي» لفولوشين وأنه سيترأس إدارة الكرملين من بعده، كان بوتين نفسه قد صرح بذلك قبل أن يصبح رئيساً. فقد تحدث بوتين عن هذا منذ شهر آذار/مارس 2000 في كتابه «مِن الشخص

الأول». وهو كتاب تضمن سيرته الذاتية الرسمية، وصدر قبيل الانتخابات، ويتألف من أحاديث صحافية أدلى بها لثلاثة صحافيين من صحيفة «كوميرسانت» (أفضل صحيفة في روسيا، كان يملكها بيريزوفسكي) وهم ناتاليا تيماكوفا وناتاليا غيفوركيان وأندريه كوليسنيكوف. (لسخرية القدر، بعد صدور الكتاب مباشرة تقريباً، افترقت طرق الصحافيين الثلاثة وساروا بطرق متعارضة. تيماكوفا تركت الصحيفة وباشرت عملها في الكرملين، كي تصبح فيما بعد السكرتير الصحافي لدميتري ميدفيديف وساعده الأيمن، ناتاليا غيفوركيان رحلت إلى باريس واستقرت فيها، لتصبح بعد 15 سنة المستشار الصحافي لميخائيل خودوركوفسكي وساعده الأيمن، أما أندريه كوليسنيكوف فقد بقي في صحيفة «كوميرسانت» وبقي موالياً ومخلصاً لبوتين: أصبح كاتب سيرته الوحيد بصفته «مراسلاً محسوباً على بوتين).

وهاكم مقطعاً صغيراً من كتابه، عدّد فيه بوتين أقرب الأشخاص إليه وأشدهم ائتماناً:

س: إلى اقتراحات من تصغي، وبمن تثق؟ كنت تقول إن خبراءك يعتبرون تشكيل الفريق المهمة الأولى. ممن يتألف فريقك؟ بمن تثق؟

ج: بمن أثق؟ أثق بسيرغي إيفانوف، سكرتير مجلس الأمن القومي.

س: أتعرفه منذ زمن طويل؟

ج: منذ زمن طويل، ليس من فترة قريبة. بدأ العمل في إدارة لينينغراد لـ: ك.ج.ب. كنت فقط أعرف بوجود شخص بهذا الاسم. ثم انتقل إلى موسكو وبقي فيها. قام بمهمات عمل طويلة في الخارج، لعدة سنوات. كان بيننا عدد كبير من الأصدقاء المشتركين. عموماً، كانت المعلومات عنه من أطراف مختلفة، معلومات إيجابية. يعرف عدة لغات: الإنكليزية والسويدية والفنلندية، كما أعتقد. أرى أنه جدير بمركزه. عاد منذ فترة قريبة من الولايات المتحدة الأمريكية، وقام بعمل جيد جداً. التقى بالرئيس كلينتون وأولبرايت وبيرغير.

أنا مسرور بعمله.

س: ولكنك لم تعاشر أحداً وتشاركه طويلاً.

ج: بالطبع، الأفضل، إذا ما توفرت الإمكانية أن يقتنع المرء عملياً بالشخص. ولكن، لنتفق أنه ثمة مفهوم آخر هو الشعور بالتواصل المشترك. يظهر لدي هذا الإحساس مع إيفانوف، وكذلك مع نيقولاي باتروشيف، ومع دميتري ميدفيديف.

س: لقد ترأس ميدفيديف أركان حملتك الانتخابية. هو أيضاً من بطرسبورغ؟

ج: كان ميدفيديف يعمل في قسم الحقوق المدنية في جامعة لينينغراد، وهو مرشح للدكتوراه في الحقوق، وخبير قانوني من مستوى رفيع. في أثناء عملي مع سوبشاك، في مكتب العمدة، كنت في حاجة إلى أشخاص أكفاء. طلبت مساعدة العاملين في كلية الحقوق، واقترحوا عليّ دميتري. عندما كنت نائباً للعمدة، كان مستشاراً، وعمل معي عاماً ونصف. ثم بعد تلك الانتخابات الفاشلة، ترك عمله في المحافظة بالطبع، وعاد إلى الجامعة.

س: أنت دعوته إلى موسكو منذ فترة قريبة؟

ج: نعم منذ فترة قريبة جداً. في هذا العام. عموماً، كانت عندي فكرة أخرى بخصوص دميتري. كنت أريد أن يرأس اللجنة الاتحادية للأوراق المالية. فهو خبير في سوق الأوراق المالية. يبدو أنه يرتاح للعمل في فريقنا، ولكن أين بالتحديد، سنرى.

س: ومن أيضاً؟

ج: أنا أثق بألكسي كودرين. هو الآن النائب الأول لوزير المالية. أعتقد أنه شاب لائق وذو خبرة. عملنا معاً عند سوبشاك، كنا نحن الاثنان نائبي العمدة. خلال أعوام العمل المشترك، يمكن معرفة الإنسان كما يجب.

س: ومن أين جاء إيغور سيتشين؟

ج: كان سيتشين يعمل معنا في بطرسبورغ، في قسم المراسم. وهو خريج كلية فقه اللغة. يتقن اللغات البرتغالية والفرنسية والإسبانية. عمل في الخارج - في موزامبيق وأنغولا.

س: هل شارك في الحرب؟

ج: عموماً، شارك في الحرب. ثم توظف في اللجنة التنفيذية لمجلس مدينة لينينغراد. عندما أصبحتُ نائباً للعمدة وبدأت باختيار الكوادر لمكتبي، أعجبني سيتشين. واقترحت عليه الانتقال للعمل عندي. كان هذا في عام 1992 -1993. وعندما جئت للعمل في موسكو، طلب القدوم إلى موسكو للعمل معي. فأخذته.

س: وماذا سيحصل للحرس القديم في الكرملين، للمستشارين؟ يقولون: انتظروا، سينجح بوتين قريباً في الانتخابات، ويتخلص منهم. يسرّحهم كأفضل تقدير.

ج: أتعرف، مثل هذا المنطق يميز الأشخاص ذوي التفكير التوتاليتاري (الشمولي). لأنه هكذا، من حيث المبدأ، يجب أن يتصرف الإنسان الذي يريد البقاء على الكرسي طيلة حياته. أنا لا أريد.

س: ولكن ثمة شخصيات تثير حساسية اجتماعية عامة. نحن نتحدث عن بافل بورودين. وكذلك رئيس إدارة الرئيس والكرملين ألكسندر فولوشين. غير محبوب من الرأي العام.

ج: فولوشين غير محبوب ليس من الرأي العام بقدر ما هو غير محبوب من قسم من المؤسسة ذاتها التي يعمل فيها. ثمة جانب سلبي ظهر في مستوى التجمعات والكتل المتصارعة فيما بينها. وقد أصابت فولوشين نفسه. وبهذه المناسبة، كانوا يتصارعون بوسائل غير صالحة. لكنني لا أعد هذا أساساً لتسريح شخص ما. بالنسبة إلى الوقت الحاضر هو يناسبني إلى أبعد حد.

والعمل الذي يمارسه فولوشين دقيق للغاية. وقد تناقشت معه حول من يمكنه أن يحل في منصبه، وذكرنا اسم دميتري ميدفيديف. وقال لي فولوشين نفسه: «ليعمل دميتري نائباً لي، وفيما بعد قد يصبح صالحاً كبديل لي». لا حاجة الآن إلى التنبؤ والتخمين16.

واتضح، كما لو كان بوتين يعرف مسبقاً - فكل شيء جرى كما كان يتوقع في عام 1999. وبالفعل، جميع الأشخاص المذكورين شغلوا مناصب مفتاحية حول بوتين. وكذلك كان الصحافيون على حق - فحاشية بطرسبورغ لم تخفِ فرحتها، عندما قدّم فولوشين، رئيس إدارة الكرملين، المؤيد لأسرة يلتسين، استقالته. وقد قال ألكسي كودرين، وزير المالية، في حديثه مع صحيفة «كوميرسانت»، تعليقاً على خبر استقالة فولوشين: «انتهت أسرة «بيزنطة» كلها».

الرئيس الجديد لإدارة الكرملين، ميدفيديف هو نقيض كامل لسلفه، ولم يكن أبداً شبيهاً بـ«البيزنطي». إنه أشبه بموظف غوغولي مثالي********. فبعد بضعة أشهر من تعيينه، اقترح على بوتين بنية جديدة للإدارة: فعلياً، لم تختلف بشيء عن البنية القديمة، وجميع الموظفين السابقين حافظوا على مناصبهم ووظائفهم، تغيرت تسمياتهم فقط. ألغى مناصب النواب الأوائل لرئيس الإدارة. وعين نائبين لرئيس الإدارة: سيتشين وسوركوف. أما بقية نواب رئيس الإدارة فسماهم بـ«مساعدي الرئيس».

شرح ميدفيديف هذا التغيير (ربما على سبيل المزاح) للصحافيين بأن هذا سيكون أوضح للأجانب، مَن، وما هو المنصب الذي يشغله: «حتى أنه هكذا أجمل. أنا أسافر إلى الخارج. ليس كثيراً. وقد سافرت مرة إلى أمريكا، على سبيل المثال، بصفتي نائب رئيس الإدارة - ولم أترك أي انطباع لدى الموظفين العاديين. بيد أنهم يفهمون ماذا يعني مساعد الرئيس. عندهم رئيس جهاز إدارة البيت الأبيض إندريو كارد - مساعد الرئيس. والآن أصبح عندنا كل شيء طبيعي».

لكن الإنجاز الرئيس لميدفيديف في منصبه الجديد يكمن في أنه تمكن من إقرار قانون «الخدمة المدنية الحكومية»، الذي كتبه بنفسه. وكان هذا القانون، من حيث جوهره، تكراراً للإصلاح الإداري، الذي أجراه في روسيا الإمبراطور بطرس الأول في بداية القرن الثامن عشر، والذي أدخل جدول تصنيف المراتب لموظفي الدولة. وقد أعاد ميدفيديف، من حيث الجوهر، صياغة هذا الجدول، ولكن بدلاً من «المستشارين السريين» و«المستشارين المدنيين»، ظهر في الجدول الجديد «مستشارو الدولة الفعليون من المراتب الأولى والثانية والثالثة». علاوة على ذلك، كان ميدفيديف أكبر موظفي روسيا يقول مراراً، إن الجهاز الحكومي في روسيا ليس متضخماً ولا يحتاج إلى تقليص - بل العكس، فلدينا بالمقارنة مع البلدان الأخرى نقص في الموظفين الاحترافيين الخبراء.

وسرعان ما تحققت رغبة ميدفيديف هذه. فالعقد التالي أصبح عقداً ذهبياً لموظفي الدولة الروس. فقد زاد عددهم إلى ثلاث مرات ونصف. أما كم زاد ثراؤهم؟ - فهذا يمكن تخيله. في عام 2003 كان الموظفون الروس لا يزالون بسيطين وغير مغرقين في الفساد، إذا كانت هذه الصفة تنطبق على الموظفين الروس. وكان في إمكانهم تقديم أفضليات ضخمة جداً لأصدقائهم من رجال الأعمال مقابل علامات الاهتمام المتواضعة. وعلى سبيل المثال، كان إرسال الموظف وأسرته للاستجمام في الخارج نوعاً منتشراً من أنواع الرشوة. كان المقاولون ورجال الأعمال ينظمون رحلات استجمام في الخارج لكبار موظفي الدولة وعائلاتهم (وكان هذا يكلفهم كحد أقصى بضعة آلاف من الدولارات)، وفي المقابل كانوا يحصلون على عقود تقدر قيمتها بملايين الدولارات.

حتى أن مثل هذا التقارب بين الموظفين ورجال الأعمال لم يعتبر تضارب مصالح: على سبيل المثال، كان الجميع يعرف أن فلاديمير ريسين نائب عمدة موسكو، الذي يشرف على أعمال البناء، عاش مع أسرته في إمارة موناكو في فندق فاخر مع شالفا تشيغيرينسكي أكبر مطور في البناء. ولم يحرج هذا أحداً.

فقط بعد خمس سنوات بدأ الموظفون يتذوقون الترف والبذخ، ويدركون قيمتهم الحقيقية، ويدركون، أنه لا حاجة إلى أخذ أعطيات وصدقات من أصحاب المليارات، إذا كان يمكنهم هم أن يصبحوا من أصحاب المليارات. ولكن في أوائل الألفية الثانية لم تخطر هذه الفكرة الثورية أبداً في أذهانهم.

المرشح المثالي

بصفته رئيس إدارة الكرملين، أصبحت إعادة انتخاب بوتين لفترة رئاسية ثانية مهمة ميدفيديف الرئيسة. في المرة الأولى كان رئيس أركان الحملة الانتخابية، أما الآن فهو يرأس أركاناً حقيقية - يرأس الكرملين. وكان السياسي الاستراتيجي الفعلي الذي أدار الحملة الانتخابية هو فلاديسلاف سوركوف، النائب الأول لميدفيديف الذي ورثه عن فولوشين.

للنظرة الأولى، تبدو الانتخابات شكلية بحتة: فقد فاز بوتين بسهولة وبثقة. لكن، في الحقيقة، كانت المؤامرة تكمن في شيء آخر: مع انتهاء الفترة الرئاسية الأولى (وانتهاء قضية شركة «يوكوس») ومع بداية الفترة الرئاسية الثانية تنازل حرس يلتسين القديم نهائياً لحرس بوتين الجديد (عشيرة لينينغراد)، كما كانت المدينة تدعى في الأعوام السوفييتية، أو «عشيرة مدينة بطرس»، كما كانت تدعوها الصحافة آنذاك، فقد اكتسبت سلطة حقيقية، وخرج أفرادها نهائياً من الظل بعد أربع سنوات من «التدريب».

«شكراً لكم لأنكم أريتمونا كيف يجب إدارة البلاد. والآن يمكننا إدارتها بأنفسنا». هذه الجملة التي قالها مساعد بوتين إيغور سيتشين، يتذكرها، وينقلها عنه حسب ادعائه، رئيس الوزراء السابق ميخائيل كاسيانوف. وبحسب قوله، بهذه العبارة ودّعه سيتشين بالذات، من البيت الأبيض******** بعد أن أعلمه بوتين بإقالته المفاجئة.

عشية الإعلان عن رئيس الوزراء الجديد، كان من المفترض تعيين وزير المالية ألكسي كودرين، ووزير الدفاع سيرغي إيفانوف، وحتى دميتري كوزاكوف

رئيس أركان حملة بوتين الانتخابية في هذا المنصب. لكن بوتين أقدم على خيار غريب - نحّى جانباً جميع الأشخاص المقربين لديه، وجميع أعضاء «عشيرة بطرسبورغ»، وراهن على شخص غريب تماماً وغير معروف.

أصبح رئيس الوزراء ميخائيل فرادكوف، موظف مجهول الهوية، لكنه يتمتع بخبرة كبيرة في جهاز الحكومة. كان فرادكوف يخدم في الأجهزة الأمنية (على الرغم من عدم ذكر ذلك في سيرته الرسمية)، ووزيراً للعلاقات الاقتصادية الخارجية والتجارة في عدة حكومات في عهد يلتسين، كما كان يرأس الشرطة الضريبية في أعوام يلتسين الأولى، وفي عام 2003 عُيّن سفيراً في بروكسل. ومن هناك أخرجه بوتين بصورة مفاجئة، ما أذهل النخبة السياسية كلها. وليست لديه أية أفضليات سوى أنه لا يشكل أي خطر على بوتين.

كان بوتين يعرف فرادكوف منذ السنوات التسعينيات، وكان آنذاك رئيسه المباشر. في تلك الفترة، عندما تزعم الرئيس المقبل لجنة العلاقات الخارجية في محافظة سانت-بطرسبورغ، كان رئيس الوزراء المقبل يعمل نائب وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية الروسية. لكن اللحظة الحاسمة لتعيين فرادكوف كان حديث رواه بوتين فيما بعد للصحافيين.

في أوائل عام 2003 قام الكرملين بعملية تنقلات في صفوف رجال الأمن المتنفذين الأقوياء وقرر إلغاء ثلاث دوائر قوية: الوكالة الاتحادية للمعلومات الحكومية السرية ФАПСИ (كانت الوكالة تقوم بالعلاقات الحكومية السرية)، وجهاز حرس الحدود الاتحادي، والشرطة الضريبية. وانتقلت وظائف الوكالة الاتحادية للمعلومات الحكومية السرية وجهاز حرس الحدود إلى جهاز الأمن الاتحادي، وانتقلت مكافحة الجرائم الضريبية إلى وزارة الداخلية. وقد أخذ رؤساء الدوائر الثلاثة التي تم إغلاقها مواقف مختلفة من خبر تسريحهم (على الرغم من أن كلاً منهم حصل على منصب جديد): حتى أن بعضهم حاول مناقشة بوتين في الموضوع. باستثناء فرادكوف، الذي اتخذ موقفاً أثار دهشة بوتين.

سأله بوتين: «ميخائل يفيموفيتش! انس أنك رئيس إدارة، وقل لي، إذا ما تصرفنا وفقاً لمصالح الدولة، فكيف ترى إمكانية نقل جميع وظائفك إلى وزارة الداخلية؟ قل بصراحة». فقال فرادكوف على الفور، هكذا سيكون، بالطبع، أكثر فاعلية. وأضاف نأمل أن «لا يشعر الناس بأية معاناة في ظل أي قرار». لقد قدر بوتين استعداد فرادكين للتضحية بالذات بإرادة القائد. وأرسل فرادكوف إلى أرفع منفى: سفيراً لروسيا في الاتحاد الأوروبي، في بروكسل. والمهم - أن بوتين رسخ في ذهنه أنه إنسان موضوعي للغاية.

حدثني موظف كبير في الكرملين: «يمكنني بسهولة أن أتصور، كيف كان بوتين يفكر عند اختياره فرادكوف رئيساً للوزراء. عنده إيجابيات وليس لديه أية سلبيات. لديه خبرة في العمل في الأجهزة الأمنية، كان رئيساً للشرطة الضريبية. وفي الاقتصاد، كان وزير العلاقات الاقتصادية الخارجية. وفي الساحة الدولية، كان سفيراً في بروكسل. ولم يُصب بالغرور في أي منصب».

عندما أصبح رئيساً للوزراء، نسخ فرادكوف بصورة دقيقة الإصلاح الذي أجراه دميتري ميدفيديف في إدارة الرئيس (الكرملين) – قام بتقليص عدد الوزراء ورؤساء الدوائر مع زيادة في البنية العامة لمجلس الوزراء. وبدلاً من ستة نواب لرئيس الوزراء بقي نائب واحد، وبدلاً من 23 وزيراً بقي 14، ولكن في المقابل، ضمن كل وزارة نشأت عدة وكالات ومؤسسات اتحادية.

كلما كبُر جهاز الحكومة أكثر كانت نتائج عمله أقل. يقول فولوشين وكاسيانوف، إنه في أواخر وجودهما في السلطة توقفت الإصلاحات عملياً، ولكن مع قدوم فرادكوف، بدأ الانجراف المكثف والمحاكاة الاستثنائية للنشاط العاصف. كان فرادكوف يدرك أنه في هذا بالذات يكمن مصيره - لم يكن يملك إمكانية إظهار أية مطامع، كان عليه ألا يعيق طريق أحد ما.

إنها مفارقة، لكن النهج الاقتصادي الرسمي الذي أعلنه بوتين قبل إعادة انتخابه لفترة رئاسية ثانية، كان طموحاً إلى أقصى حد - كان يطالب بأن يتضاعف

الناتج المحلي الإجمالي بحلول عام 2010. كان غريف وزير التنمية الاقتصادية، ومهندس إصلاحات بوتين، يعارض بفتور، مؤكداً أن من المستحيل تحقيق ذلك بحلول 2010، ومن غير الممكن تحقيقه قبل 2015. أما رئيس الوزراء فلم يعارض الرئيس، وأكد أن كل شيء سيتم إنجازه. في أروقة البيت الأبيض. كان يوجد التفسير التالي لعدم اكتراث فرادكوف: «التسريح لا يتم بسبب سوء الأداء - التسريح يتم بسبب عدم الولاء». لهذا كان فرادكوف مطمئناً بصورة مطلقة ولم يخش عدم تنفيذ تعليمات الرئيس. وفي المحصلة لم ينجح في أي من المناصب السابقة، وجميع الإدارات التي عمل فيها تم إلغاؤها لعدم الحاجة. ومع ذلك، فهو بهذه الطريقة حقق النجاح.

مضاعفة الناتج المحلي الإجمالي

جرت الانتخابات الرئاسية في عام 2004 من دون أي إخفاق. وحصل بوتين على 71% من الأصوات. وفي تلك الفترة، عندما كان يجري إحصاء الأصوات احترق بناء مانييج التاريخي في مركز مدينة موسكو، مقابل الكرملين مباشرة. وهو قاعة العرض المركزية للعاصمة. أحدث مشهد الحريق أمام جدران الكرملين انطباعاً قاتماً على الجمهور الذي كان يتابع نتائج التصويت. لقد شُيد هذا البناء في عام 1817 بأمر الإمبراطور ألكسندر الأول على شرف الذكرى السنوية الخامسة للانتصار على نابليون. وفي السنة الخامسة من رئاسة فلاديمير بوتين احترق. غادر بوتين مكتبه وصعد مع الصحافيين إلى أحد أبراج الكرملين، كي يراقب الحريق.

في أثناء إطفاء الحريق استشهد اثنان من العاملين في الإطفاء. وبقيت أسباب الحريق غامضة، وكل شيء كان يشير إلى إحراق متعمد. كانوا يتهامسون في مكاتب الحكومة، أن مانييج قد أحرق، على الأغلب، لصالح عمدة موسكو يوري لوجكوف، كي يتمكن من حل النزاع مع الممولين. والطريف في الأمر، أن لوجكوف نفسه وصل إلى مكان الحريق بعد دقائق معدودات، وصرح على الفور للصحافيين، إن رواية الإحراق المتعمد مستبعدة.

وتهامس الصحافيون بصوت واحد عن أنه فأل سيئ. ولكن يقال، إن بوتين لم يظهر أي غضب. فالمهمة قد أنجزت، والانتخابات مرت بخير، وكل ما تبقى أشياء صغيرة. ولم يقم بوتين بمعاقبة يوري لوجكوف، خصمه السابق الرئيس، لأنه أفسد له فرحته. فلوجكوف أمّن لبوتين نتيجة جيدة في موسكو - 69% من الأصوات، وهذا هو المهم.

حصل بوتين على أعلى نتيجة تصويت في الشيشان. فالزعيم الشيشاني الجديد، أحمد قديروف، مفتي جمهورية الشيشان سابقاً، الذي أعلن الجهاد ضد الروس في عام 1990، لكنه أيد بوتين في عام 1999، أمّن له 92,4% من الأصوات. وكان هذا رمزاً لفاعلية فترة رئاسة بوتين الأولى: فالحرب في الشيشان التي جلبته إلى الكرملين قبل أربع سنوات، قد انتهت.

بعد يوم من تنصيب بوتين، في التاسع من أيار/مايو 2004، في أثناء الاحتفال بيوم النصر، دوّى انفجار كبير في العاصمة الشيشانية. لقد وُضعت القنبلة تحت المنصة التي كان يجلس عليها الرئيس الشيشاني أحمد قديروف. ومات في طريقه إلى المستشفى. في اليوم نفسه، أحضروا إلى بوتين في الكرملين ابنه الأصغر رمضان. كان في بذلته الرياضية، ولم يستطع وقف دموعه إلا بصعوبة. والجملة الوحيدة التي نطق بها أمام الكاميرا كانت: «لقد حدد الشعب الشيشاني خياره، وهذا الخيار نهائي». كان لقاء رمضان ببوتين يعني عملياً، بأن الرئيس قد حدد خياره أيضاً، وهو خيار نهائي: يُعيّن قديروف الابن رئيساً للشيشان. لكنه لم يكمل عامه الثلاثين، وقانونياً لا يحق له أن يصبح رئيساً. ومع ذلك فقد بدأ يعد العدة لاستلامه السلطة. في البداية كان يقود جماعة رجال الأمن المتنفذين في الجمهورية بصفته نائب رئيس الوزراء، ثم أصبح رئيساً للوزراء، وبعد مضي ثلاث سنوات - أصبح سيداً مطلقاً لجمهورية الشيشان.

صيف ساحر

كان صيف عام 2004، على الأغلب، الصيف الأكثر هدوءاً في تاريخ بوتين،

وربما الأكثر عبثاً. فقد توقف أي نشاط حكومي. وانتقلت شمس روسيا، بحكم الواقع، إلى سوتشي - ففيها كان يعمل ويستجم جميع قادة الدولة الروسية.

فقد أمضى بوتين في سوتشي شهر آب/أغسطس بكامله تقريباً، وإليها كان يفد لمقابلته الزعماء الأجانب: رئيس الوزراء الصربي فويسلاف كوشتونيتسا، الرئيس البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو، الرئيس الأرمني روبرت كوتشاريان، الرئيس الأوكراني ليونيد كوتشما، مع وريثه فيكتور يانوكوفيتش.

في آخر آب/أغسطس حدث عند بوتين ما سبق له أن رآه (ديجافو). فكما حدث قبل أربع سنوات، في نهاية الصيف الأول من فترته الرئاسية، حدثت مأساة مريعة. آنذاك كان حادث الغواصة «كورسك»، أما الآن فجاءت حادثة طائرتين أقلعتا من مطار دوموديدوفو في موسكو. تم تفجيرهما في الهواء من قبل إرهابيات - انتحاريات. وكي لا يكرر خطيئته قبل أربع سنوات، طار بوتين سريعاً إلى موسكو، وعقد اجتماعاً في الكرملين، ثم عاد إلى سوتشي. وقد حدث هذا العمل الإرهابي قبل يومين من انتخابات رئيس جديد للشيشان (بدلاً من قديروف الأب المقتول). وكان على هذه الانتخابات أن تظهر أن السلطة الجديدة الموالية لبوتين في جمهورية الشيشان شرعية تماماً.

جرت الانتخابات في الشيشان. ولكن، والحق يقال، شهد كثير من الصحافيين الذين جاؤوا لحضورها إلى الشيشان، أن مراكز الانتخابات كانت شبه فارغة، فالناخبون كانوا يخشون الخروج من بيوتهم. وعلى الرغم من كل شيء، بلغت المشاركة «الرسمية» 85%.

بعد يوم، حل جاك شيراك وغيرهارد شرودر ضيفين على بوتين في قصره في سوتشي. وأعلنا أنه ليست هناك أية شكوك في صدقية وشرعية الانتخابات الشيشانية. وتم إغلاق الصورة الرئيسة التي تسلم معها بوتين منصب الرئيس. وأصبحت الحرب الشيشانية في الماضي، ولم يعد أحد يهتم بما يحدث هناك. وفي أثناء جلوسهما في مقر الرئاسة الفخم في سوتشي، أكد الرئيس الفرنسي

والمستشار الألماني لبوتين، أنه ليست لديهما تجاهه أية مطالبات.

لكن هذا النصر أفسد في اليوم التالي، في الأول من أيلول/سبتمبر 2004. لم يكد الرئيس شيراك والمستشار يغادران سوتشي، حتى سيطرت مجموعة من الإرهابيين على مدرسة في بيسلان في جمهورية أوسيتيا الشمالية، التي تبعد 100 كم عن غروزني عاصمة الشيشان. لقد كان هذا أفظع عمل إرهابي في تاريخ روسيا (أشد هولاً من مسرح «نورث – إيست»)، وكان هذا أبرز دليل على أن الحرب في الشيشان بعيدة عن النهاية.

قطع بوتين إجازته من جديد واستقل الطائرة إلى موسكو. كي لا تتكرر أخطاء الغواصة «كورسك». وفيما بعد كررت السلطات أخطاءها السابقة - وبشكل أشد رهبة. فقد أنقصت الأخبار الرسمية من عدد الرهائن: وبث التلفزيون أن عددهم يتراوح بين 200 - 500 رهينة. ثم أكدت السلطات أن الإرهابيين لم يقوموا بأية محاولة لإجراء مفاوضات. في حين قال الشهود الذين بقوا على قيد الحياة إن الإرهابيين قد بثوا عدة أشرطة فيديو ضمّنوها طلباتهم. وأخيراً، وبحسب الرواية الرسمية، فإن الانقضاض على المدرسة في 3 أيلول/سبتمبر جاء نتيجة نسف متفجرة يدوية الصنع داخل بناء المدرسة. ولكن، وبحسب معطيات التحقيق المستقل الذي أجراه عضو مجلس الدوما يوري سافيلييف، فإن سبب موت القسم الأكبر من الرهائن هو إطلاق النيران من الخارج على المدرسة، أي نيران العناصر الأمنية الذين انقضوا على المدرسة17.

في ذلك اليوم الذي تم فيه دفن الذين قضوا نحبهم في المدرسة في مدينة بيسلان، حضر إلى المدينة كثير من قادة الدولة الروسية: رئيس الوزراء فرادكوف، رئيس إدارة الرئاسة ميدفيديف، عمدة موسكو لوجكوف، والناطقان بلسان مجلسي البرلمان، والمدعي العام. ولم يذهبوا إلى المقبرة، بدلاً من ذلك قاموا بمسيرة حداد في الساحة الرئيسة للمدينة، نقلتها الكاميرات التلفزيونية. كان المطر يسقط غزيراً طيلة ذلك اليوم في المدينة. ولم يحضر هذه المسيرة أي من سكان المدينة الذين فقدوا أولادهم في المدرسة. ولم يذهب إلى المقبرة

أي من موظفي موسكو، الذين كانوا يقفون على المنصة أمام الكاميرات التلفزيونية وتحت المظلات السوداء.

لم يجر أي تحقيق في أسباب هذا العمل الإرهابي. وبقيت أبشع جريمة في الألفية الثانية، من حيث الجوهر، مجهولة الأسباب.

في اليوم التالي بعد اقتحام المدرسة، ألقى بوتين خطاباً فلسفياً مطولاً، يذكّر إلى حد كبير بخطاب جورج بوش بعد العمل الإرهابي في 11 أيلول/سبتمبر 2001. ولكن في الحقيقة، بالاختلاف عن الأعمال الإرهابية في نيويورك، لم يكن هناك أجنبي واحد بين جميع الذين هاجموا المدرسة في بيسلان - فهم جميعاً كانوا من الإنغوش والشيشان والروس (في البداية كتبت وسائل الإعلام عن العثور على جثة أفريقي، ولكن اتضح بسرعة، أنها كانت جثة محترقة جداً).

بدأ بوتين خطابه بالذكريات عن الاتحاد السوفييتي: «نحن نعيش اليوم في ظروف نشأت بعد انهيار دولة عظمى كبيرة، دولة تبين أنها، للأسف، غير قادرة على الحياة في ظروف العالم المتغير بسرعة. ولكن، وعلى الرغم من جميع الصعوبات تمكنا من الحفاظ على نواة هذه الدولة الجبارة - الاتحاد السوفييتي. وسمينا هذه الدولة الجديدة بالاتحاد الروسي. نحن جميعاً كنا نتوقع تغيرّات. تحولات نحو الأفضل. لكننا كنا غير مهيئين إطلاقاً لكثير من التغيرات في حياتنا».

ثم بدأ بوتين يتّهم الأعداء الخارجيين: «إن بلادنا - التي كانت تتمتع بأقوى منظومة دفاع عن حدودها الخارجية - وجدت نفسها، بين عشية وضحاها، غير محمية لا من الغرب ولا من الشرق. عموماً، علينا الاعتراف بأننا لم نبدِ تفهماً لصعوبات وأخطار العمليات الجارية في بلادنا وفي العالم ككل. وعلى أية حال، لم نستطع الاستجابة لها على النحو الملائم. أظهرنا ضعفاً، والضعفاء يتعرضون للضرب. بعضهم يريدون أن يقتطعوا منا قطعة «أسمن»، وآخرون يساعدونهم.

يساعدونهم، معتقدين، أن روسيا – من حيث أنها دولة من أكبر دول العالم النووية - ما تزال تشكل خطراً للبعض، ولهذا يجب استبعاد هذا الخطر».

لم يأت بأي حديث ملموس أو تفاصيل محددة. وفي المقابل، فسر وضع زمن الحرب بتغير النظام السياسي: «هذا ليس تحدياً للرئيس، والبرلمان أو الحكومة. إنه تحدٍّ لروسيا كلها. إنه هجوم على بلادنا كلها. أبناءَ وطني المحترمين! إن أولئك الذين دفعوا بقطّاع الطرق إلى هذه الجريمة الرهيبة، كانوا يهدفون إلى استنزاف شعوبنا، وإرباك مواطني روسيا، وإشعال الصراع الداخلي الدموي في شمال القوقاز. في المستقبل القريب سيجري التحضير لمجموعة من الإجراءات الهادفة إلى تعزيز وحدة البلاد».

وقصد بوتين من عبارته «تعزيز وحدة البلاد» إلغاء انتخاب المحافظين. واعتباراً من الآن يعين الرئيس شخصياً محافظي المدن والأقاليم - وبعدها على البرلمانات الإقليمية أن تحاكي قرار رئيس الدولة.

في أيلول/سبتمبر 2004 كان ميخائيل كاسيانوف، رئيس الوزراء المسرّح، واثقاً من أن إلغاء انتخابات الولايات والمحافظات كان جاهزاً. وهو يرى أن بوتين كان في حاجة إلى ذريعة، من أجل اتخاذ القرار اللازم، وأصبحت بيسلان هي هذه الذريعة.

لا يؤكد العاملون في إدارة الكرملين هذه الفرضية. بل على العكس، فالمزاج العام قبل العمل الإرهابي في بيسلان كان هادئاً للغاية. ولم تكن هناك أية خطة، وقرار إلغاء انتخاب المحافظين كان علامة تهيج يائس.

لقد أنهى العمل الإرهابي في بيسلان الصيف الأكثر هدوءاً واطمئناناً في حياة بوتين. لكن المدهش، أن رد الفعل غير المكافئ على العمل الإرهابي، الذي حول عملياً روسيا إلى دولة موحدة مركزية، وقف منه المجتمع موقف اللامبالاة. فهذا الصيف الدسم والهادئ، الذي وفره التدفق الدائم للدولارات النفطية، استمر في البلاد أربعة أعوام أخرى - حتى أزمة عام 2008.

لقد بدأت في روسيا سنوات الألفية الثانية الساحرة - المرحلة المحيِّرة للغاية في تاريخها. فبؤرة الاهتمام العام تحول كلياً إلى استهلاك منتجات الثقافة المحلية. ولأول مرة في حياته، كان المجتمع الروسي، من حيث الكفاية والرفاهية ليس متخلفاً عن البشرية، بل متقدماً عليها.

والمواطنون الروس العاديون كانوا في العالم من الأوائل الذين استطلعوا الآيفون والآيباد، وشاشات البلازما، والسيارات الجديدة، والجلاّيات والعصارات والمكانس الكهربائية. وفي كل مدينة كبيرة من مدن روسيا ظهرت المولات الضخمة، وصالات السينمات المتعددة الأغراض، وصالات البولينغ، والمطاعم والأندية الليلية. وبدأ المواطنون الروس يسافرون للاستجمام في الخارج بصورة دورية وبأعداد كبيرة. وبدأت روسيا تتعلم، من دون ثقة بالنفس، ومن دون إتقان، أن تكون بلداً ثرياً.

ولم يعد هناك ما يدهش النخبة السياسية والتجارية ورجال الأعمال بالترف المنزلي والمحلي. كانوا يتنافسون على ترف غير مسبوق. وقد اكتشفت هذه النخبة لنفسها الشاطئ اللازورد (الكوت دازور) ومنتجعات كورشوفيل الفرنسية، حيث كانت النخبة الموسكوفية تطير إليهما بطائراتها الخاصة لأمسية واحدة - فقط كي يشربوا الكحول ويتنزهوا ويرفهوا عن أنفسهم.

وكان ثمة طابور من رجال الأعمال الموسكوفيين على شراء طائرات فالكون الخاصة - فقد أصبح من المخجل لهم ألا يملك كل منهم طائرته الخاصة. ولم يكن المعمل المنتج لها يستطيع تلبية الطلب عليها من جانب الأثرياء الروس، وفي المقابل ظهر في روسيا نوع جديد من الأعمال. وكان رجال الأعمال المتوسطون يحجزون أماكن في الطابور على بيزنس الطائرات النفاثة، ومن ثم يبيعون أماكنهم في الدور لملياردير أقل نشاطاً.

كان كل واحد من الأوليغارشيين يحاول أن يسبق جاره في شيء ما. كان لدى الأوليغارشي الملياردير رومان أبراموفيتش أغلى يخت بين أقرانه. أما

ميخائيل بروخوروف فكانت تعقد عنده الأمسيات الأكثر ضجة مع الفتيات عارضات الأزياء.

وقد أصبح مطعم «ماريو» رمزاً للنخبة الموسكوفية العليا، وفيه كان يتناول طعام العشاء كل يوم ليس جميع الأثرياء الروس المدرجين في قائمة فوربس فحسب، بل وأحياناً الرئيس بوتين - كان يُحجز له الطابق الثاني بكامله. أما الرئيس الشيشاني الشاب رمضان قديروف فكان يفضل المطعم الإيطالي أنتينوري - وكان يحجز المطعم كله.

أما أندية موسكو الليلية الرئيسة فكانت تُقام وتفتح لفترة ثلاثة أو أربعة أشهر، وتُغلق فيما بعد، لأن الجمهور المتخم يريد شيئاً ما جديداً. تتذكر كسينيا سوبشاك - الطالبة التي كانت تشارك في أمسيات النوادي الليلية، ابنة عمدة سانت بطرسبورغ المتوفى أناتولي سوبشاك ورئيس فلاديمير بوتين في فترة سابقة - كان حجز طاولة فيها يكلف أموالاً طائلة، ومع ذلك كان من الصعب جداً أن تجد مكاناً فارغاً فيها. لم يكن الموظفون الحكوميون يترددون على النوادي الليلية، ولكن يتواجد فيها كبار رجال الأعمال: مثل رومان أبراموفيتش، وميخائيل بروخوروف، وفلاديمير بوتانين، وأوليغ ديريباسكا.

أمضت البلاد الروسية سنوات الألفية الثانية الساحرة في حالة من النشوة والنسيان. لم تكن هناك أية سياسة، وأية حياة اجتماعية. كان ثمة استغراق كامل في متعة مستمرة.

في هذه المرحلة كان «الأوليغارشيون» الموسكوفيون والحاشية الملتصقة بهم أشد ثراءً وكانت حياتهم أشد بريقاً من جيش كبار موظفي الدولة. فالوزراء والمحافظون، وإن كانوا في وضع مادي جيد، لكنهم كانوا ينظرون إلى ترف الأوليغارشيين الجنوني من بعيد: فهم لم يجربوا بعد شمبانيا كريستال الملكية الفرنسية، ولم يعتادوا بعد التزلج على الجليد في منتجع كورشوفيل الفرنسي الفاخر في جبال الألب. وبينما كان «أوليغارشيو موسكو» يستمتعون، كان

«موظفو بطرسبورغ» يعملون: وأمسكوا بزمام السلطة كلها في أيديهم. ولن يتذوقوا الثراء الحقيقي إلا بعد خمس سنوات، حيث سيكون قد فات الأوان.

الفصل الخامس: فيكتور ميدفيدتشوك رئيس إدارة الرئيس الأوكراني، هو الأوكراني الوحيد الذي يثق به بوتين

في بداية الألفية الثانية، كان يبدو ميدفيدتشوك، على خلفية رجال السياسة الأوكرانيين، وكأنه رجل من الفضاء. وقد وصفه الخبيران السياسيان الموسكوفيّان مارات غيلمان وغليب بافلوفسكي اللذان عملا معه في بداية الألفية الثانية بأنه رجل أوروبي بالمطلق، لا يشبه أبداً الآخرين. إنه مثقف، ومتعلم، وشديد الفاعلية.

أما الآن فهذا «الأوروبي بالمطلق» يحدث انطباعاً آخر - لقد أصبح الآن إنساناً منغلقاً بالكامل على نفسه، يسعى إلى تجنب التكلم مع الصحافيين، وإذا ما تكلم فإنه ينطق بكمية كبيرة من الكلمات، بحيث يمكن التهرب من أي جواب وإخفاء أي معنى. إنه رجل محترف ليس له مثيل في إخفاء مشاعره، رجل لا ينطق أبداً بما يفكر فيه بالفعل.

إن فيكتور ميدفيدتشوك محاط بحاشية ضخمة. ومن أجل الحديث معه، عليك أن تجتاز عشرة حواجز أمنية، وتجيب عن مئة سؤال، وتتحايل على عشرات المساعدين والمستشارين. وهنا تجد كل شيء: شباب يشبهون قطاع الطرق، ورجال يشبهون موظفي البنوك، وفتيات بأوجه عارضات الأزياء، ونساء مثل معلمات المدارس. عندما تدور حول كل هذه الدوائر، وتصل إلى الشخص الأكثر نفوذاً في أوكرانيا، فلا تكتشف أي شيء تقريباً. تجد نفسك وجهاً لوجه أمام مرآة تعكس وجه محدثك إذا ما رغبت. وقد لا تعكس أي شيء.

ولكن ميدفيدتشوك بحد ذاته، على الغالب، صادق ومخلص حقاً. وهو يسعى،

حقاً، إلى قيادة أوكرانيا بطريق آخر تماماً، يعده مُنقِذاً، وأوروبياً. إنه مقتنع بأن تطور أوكرانيا الحضاري الحقيقي ممكن فقط مع روسيا - كما في ذلك الزمن عندما كان الأوكرانيون يقودون الإمبراطورية السوفييتية الشاسعة. فهذا، حسب رأيه، الطريق الأوروبي الحقيقي، إنه الطريق إلى المستقبل. والاتحاد السوفييتي بالذات، هو الذي جعله طريقاً أوروبياً، وجعل أوكرانيا المعاصرة بلداً متطوراً بطاقات جبارة. وأما فيكتور الآخر******** الذي يبدو أوروبياً لأعدائه، يعده ميدفيدتشوك ريفياً وإقليمياً، وطريقه يقود إلى قارعة طريق أوروبا، إنه طريق نحو الفقر والخسة. وربما لهذا السبب يعامل ميدفيدتشوك حاشيته بتساهل وتسامح وبصورة غير واضحة.

صديق القرم

عندما كان الأوليغارشيون الروس يتذوقون الترف الحقيقي، كان فلاديمير بوتين يستجم في مقر إقامته في «بوتشاروف روتشي- ينابيع بوتشاروف» في ضاحية سوتشي. كان هناك كل شيء فاخراً وثرياً، ولكن على الطريقة السوفييتية مع ذلك. فالقرم كان الخيار الرئيس للاستجمام بالنسبة إلى بوتين، كما هو بالنسبة إلى كل إنسان سوفييتي. وكان هذا لأن فيلا صديقه - فيكتور ميدفيدتشوك - رئيس إدارة الرئيس الأوكراني - كانت في القرم أيضاً.

ولد ميدفيدتشوك في منطقة تيومين بروسيا، ولم يكن يتكلم اللغة الأوكرانية تقريباً، على الرغم من أنه كان مواطن جمهورية أوكرانيا، وكان يشارك موظفي موسكو في محبتهم لأوكرانيا. في شبابه، كان يتعاون كما يبدو مع لجنة أمن الدولة السوفييتية ك.ج.ب في السبعينيات وفي أعوام الثمانينيات، وفي أثناء عمل ميدفيدتشوك محامياً في كييف، على سبيل المثال، كان محامي الدفاع في قضية أشهر المنشقين يوري ليتفين وفاسيلي ستوس. وقد حُكم كلاهما بالسجن لأطول مدة، ومات كلاهما في معسكر الاعتقال. وقد اتهمَ ليتفين في كلمته الأخيرة محامي الدفاع عنه ميدفيدتشوك بالسلبية المفرطة، الناتجة عن تعليمات السلطة العليا. وفي المحصلة، اشتهر ميدفيدتشوك في أوساط

المنشقين على أنه عميل لأمن الدولة ك.ج.ب بيد أن خلفيته هذه كانت، بالنسبة إلى بوتين، ميزة إيجابية.

ارتبط ميدفيدتشوك بعرى الصداقة مع بوتين بسهولة، وكذلك مع معاونيه – رئيسي إدارة الكرملين فولوشين أولاً، ومن ثم ميدفيديف. وفي عام 2004، عندما ولدت ابنته داشا، توجه ميدفيدتشوك إلى بطرسبورغ لتعميدها. وفي حفل التعميد الذي جرى في كاتدرائية كازان كان فلاديمير بوتين نفسه وسفيتلانا ميدفيدوفا - زوجة رئيس إدارة الكرملين - عرابيها. وقد أصبح ميدفيدتشوك تحديداً مصدر المعلومات الرئيس للكرملين عما يجري في أوكرانيا، كما أصبح المستشار الرئيس وقناة الاتصال الرئيسة. حتى أنه، عملياً، حل محل زميله الموسكوفي ميدفيديف بصفته القيِّم الرئيس على الجبهة الأوكرانية.

وبحسب قول موظفي الكرملين السابقين، بدأ بوتين يقلق على مستقبل أوكرانيا بشكل خاص، بعد أن أصبح رئيساً مباشرة تقريباً. وكان يكرر، غير مرة، عبارة: «يجب عمل شيء ما، وإلا فسنخسر أوكرانيا».

الليننغراديون والأوكرانيون

بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، هكذا حدث أن وزارة الخارجية كانت تهتم بالعلاقات مع الدول الأجنبية البعيدة، أي البلدان التي لا تنضوي ضمن رابطة الدول المستقلة س.ن.غ СНГ. أما الجمهوريات الشقيقة، السوفييتية السابقة، فتهتم بها إدارة الرئيس والكرملين - من حيث الجوهر، كان هذا استمراراً للخطة السوفييتية القديمة، حيث كانت الجمهوريات السوفييتية الاتحادية تتبع للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي. وبما أن إدارة الرئيس والكرملين كانت تشغل البناء نفسه في ساحة ستارايا، الذي كانت تشغله اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، فنتج أن هذا التقليد الروتيني لم يتغير طيلة عدة عقود، على الرغم من أنه لم يعد هناك وجود للاتحاد السوفييتي.

فأوكرانيا، ثاني جمهورية من حيث المساحة بعد روسيا في الاتحاد السوفييتي والشريك الأقرب لروسيا، كان يدير شؤونها رئيس إدارة الكرملين شخصياً. أي في البداية كان فولوشين، ومن ثم ميدفيديف.

الموقف من أوكرانيا كان دوماً متميزاً، في البناء على ساحة ستارايا. فـ«العشيرة الأوكرانية» (وبعبارة أدق «العشائر الأوكرانية») كانت الأقوى، تقليدياً، في لجنة الحزب المركزية. ويمكن القول إنها هي التي قادت الاتحاد السوفييتي طيلة عدة عقود. وإذا ما نظرنا نظرة تحليلية إلى التركيب الشخصي لأعضاء المكتب السياسي، لا يصعب علينا أن نلاحظ أنه كان يسيطر عليه، تقليدياً، أعضاء من ذوي الأصل الأوكراني. وكان خروتشوف وبريجنيف من أبرز الأوكرانيين الذين تزعموا الاتحاد السوفييتي. كان خروتشوف زعيماً لأوكرانيا (بصفته السكرتير الأول للحزب الشيوعي فيها ورئيس مجلس وزرائها) من عام 1938 إلى عام 1949، وكان بريجنيف من عام 1946 إلى 1950 زعيم منطقتي زابوروجسك ودنيبروبتروفسك الأوكرانيتين. بالإضافة إليهما، يمكننا أن ننسب إلى «العشيرة الأوكرانية» أيضاً خلال الأعوام 1950 - 1980 نيقولاي بودغورني رئيس مجلس رئاسة السوفييت الأعلى (الرئيس الشكلي للدولة السوفييتية)، ونيقولاي تيخونوف رئيس مجلس الوزراء، والسكرتيرين الثانيين للجنة المركزية (أي رئيسي الإدارة) كيريتشنكو وكوريلنكو، وأعضاء المكتب السياسي للحزب شيربيتسكي، وشيليست، وبوليانسكي، ووزير الداخلية السوفييتي شيلوكوف.

دنيبروبتروفسك، وهي مركز صناعي صخم يقع في شرق أوكرانيا، أصبحت بالنسبة إلى بريجنيف أهم مصدر لكوادر جهاز الدولة. ومما هو مميز، أن عشيرة دنيبيروبتروفسك، حتى بعد عشر سنوات من وفاة بريجنيف، قد حافظت على مواقعها - وكان من بين أبنائها ليونيد كوتشما، الذي أصبح في عام 1994 رئيس أوكرانيا.

ويشكل أبناء لينينغراد المجموعة الثانية، من حيث كبرها، في القيادة

السوفييتية. ففي عام 1949، في عهد ستالين، تم إجراء تطهير كبير للقيادة السوفييتية من «اللينينغراديين»: فقد اتُهموا بأنهم أرادوا تشكيل حزب شيوعي معارض للحزب الشيوعي السوفييتي الاتحادي ونقل العاصمة إلى لينينغراد. وبالمحصلة، جرى إعدام 23 مسؤولاً سوفييتياً رمياً بالرصاص، بمن فيهم النائب الأول لستالين في الحكومة (ووريثه المحتمل، حسب الشائعات) كوزنتسوف، ورئيس مجلس وزراء روسيا روديونوف، والقياديان في لينينغراد «عاصمة الشمال» بوبكوف وكابوستين. وبعد خمس سنوات، تم الاعتراف رسمياً بأن «قضية لينينغراد» كانت مختلقة، وتمت إعادة الاعتبار لجميع الذين أعدموا. وعلى الرغم من جميع أعمال القمع والاضطهاد، كان اللينينغراديون يتواجدون في المناصب المهمة: وأولهم شفيرنيك (رئيس مجلس السوفييت الأعلى)، ومن ثم كوسيغين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتي. وكان يُضمن دوماً للزعيم الحزبي لمدينة لينينغراد (في البداية كوزلوف، ومن ثم رومانوف، وزايكوف) مقعد شخصي في المكتب السياسي للحزب. ولم يحظ بمثل هذا الامتياز إلا زعيم حزبي إقليمي واحد هو السكرتير الأول للحزب الشيوعي الأوكراني.

ومن سخرية القدر أنه طيلة القرن العشرين كان «الأوكرانيون» و«اللينينغراديون» يشكلون القوتين الكبيرتين في السلطة السوفييتية. فكانوا يتصارعون تارة فيما بينهما، ويتعاونون تارة أخرى. وفي بداية الألفية الثانية، عندما وصلت «العشيرة اللينينغرادية» إلى السلطة في روسيا، تزعمت «عشيرة دنيبروبتروفسك» أوكرانيا، وكان من غير الصعب عليهما العثور على لغة مشتركة.

على أية حال، كان شيء ما يزعج موظفي الكرملين في الرئيس كوتشما «المدير الأحمر» السوفييتي التقليدي، وفي فريقه القريب منهم والمفهوم إلى أقصى حد. وهذا ليس أبداً لأن الموظفين الأوكرانيين كانوا أكبر بجيل، وأقل ليبيرالية وإصلاحية بكثير من النخبة السياسية الموسكوفية. كانت تزعجهم فيهم «نزعتهم الأوكرانية».

يتذكر أحد كبار موظفي الدولة السابقين عن قدومه إلى كييف في زيارة رسمية. أنزلوه في دار الاستقبال في شارع البنوك - في البناء المجاور لإدارة رئيس أوكرانيا. لم يضطر إلى الذهاب بعيداً من أجل المحادثات - اتصل به الرئيس كوتشما وقال له إنه هو سيحضر إلى مقر إقامة الضيف المقبل من موسكو. وما إن ظهر في العتبة، طلب الرئيس الأوكراني من عنصر الخدمة «تجهيز المائدة». وعلى الرغم من أن الساعة كانت الحادية عشرة صباحاً، إلا أن الفودكا كانت حاضرة على المائدة - بالمحصلة امتدت المحادثات «الحميمية» حتى المساء. واضطر ممثل روسيا إلى إلغاء جميع اللقاءات الرسمية المقررة - فمن غير الممكن أن يرفض طلب الرئيس. لكن ما أذهل الموظف الروسي الكبير، في أثناء المحادثات أكثر من أي شيء آخر، هو موقف الرئيس كوتشما من القوميين الأوكرانيين المتشددين. حيث نقل عنه ضيفه الروسي قوله: «هم بالطبع أوكرانيون أكثر منا. والمستقبل لهم، وعلينا أن نتعلم منهم الكثير».

مثل هذه المقاربة كانت تزعج موسكو إلى حد كبير. ففي الكرملين، على سبيل المثال، كانوا يستاؤون من التقليد الأوكراني بـ«ترجمة» الأسماء الروسية إلى أوكرانية: فاسم نيقولاي يصبح ميكولا، واسم دميتري يصبح دميترو، واسم ألكسندر يصبح أوليكسندر، وهكذا دواليك.

ويجدر القول، إن الاستياء من «أكْرَنة» الأسماء كان ظاهرة متكررة حتى في المكتب السياسي السوفييتي. ويمكن العثور على المجادلات حول موضوع، هل هناك لغة أوكرانية أم أنها مجرد «لغة روسية غير صحيحة»؟ ولماذا يخرق الأوكرانيون حقوق الناطقين باللغة الروسية، في محاضر جلسات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي؟ وكان من أشهر المعادين لـ «للفوبيا الأوكرانية» شيليبين رئيس لجنة أمن الدولة ك.ج.ب في عهد خروتشوف، وسولومنتسيف رئيس حكومة جمهورية روسيا الاتحادية السوفييتية في عهد بريجنيف. ولكن كان هناك دوماً مدافعون موثوقون عن أوكرانيا واللغة الأوكرانية يتمثلون في الزعماء الأوائل في الدولة. في أعوام بوتين أصبح

الموقف من مقولة «دولة الأمة الأوكرانية» سلبياً جداً.

لم يكن لدى دميتري ميدفيديف، كما هو الأمر لدى ميدفيدتشوك رئيس إدارة الرئيس الأوكراني، وجهة نظر متميزة. وبصفته منفذاً جيداً للتعليمات الرئاسية، وحقوقياً دقيقاً، استوعب هذا التوجه الذي ورثه من فولوشين وبوتين.

في البحث عن الضعيف

بصفته خبيراً في التوظيف والانتقاء، يتقن جيداً سبر غور محدثه، صاغ فلاديمير بوتين موقفه من أوكرانيا من خلال شخصية الزعيم الأوكراني آنذاك، وهو ليونيد كوتشما، «المدير الأحمر»، «ممثل عشيرة دنيبروبتروفسك». كذلك فعل ليونيد كوتشما، متظاهراً بأنه يلعب مع موسكو حسب القواعد السوفييتية القديمة.

كان من المفترض أن تنتهي في عام 2005 فترة رئاسة ليونيد كوتشما الثانية، ولم يستطع أن يقرر نهائياً: هل يمدد رئاسته لفترة ثالثة، أم يجلس في مقعد رئيس الوزراء، محتفظاً بالسلطة الحقيقية، ويعين خليفة قابلاً للتفاوض رئيساً. وكان المرشحون المحتملون يسافرون إلى موسكو لـ «المشاهدة»، بالدور - تماماً كما كان يسافر المرشحون لمنصب السكرتير الأول للجنة المركزية. وهم كانوا في الغالب، السابقين لميدفيدتشوك في منصب رئيس إدارة كوتشما، أي الأشخاص الذين كان يثق بهم الرئيس. وأحدهم كان يفغيني كوشناريف رئيس إدارة سابق، ومحافظ خاركوف. وآخر كان فلاديمير ليتفين، رئيس إدارة الرئيس سابقاً، الناطق بلسان البرلمان الأوكراني. وكان رئيس إدارة الرئيس ميدفيدتشوك جاهزاً بوضوح لاقتراح نفسه مرشحاً أيضاً، وكان بوتين مستعدا للنظر في ترشيحه، لكن الرئيس كوتشما قال إنه لن يقبل به. وأرسل لـ «المشاهدة» في موسكو محافظ منطقة الدون يانوكوفيتش.

لم يَرقْ يانوكوفيتش لبوتين، وهنا اتضح، أن كوتشما لا يلعب جدياً، بصورة محايدة، مع موسكو على دور السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي

الأوكراني، بل يراعي آداب المجاملة. فهو في الواقع، لم يكن ينوي منح بوتين حق الاختيار، بل كان يتظاهر بذلك. فهو بنفسه اختار يانوكوفيتش، شارحاً بوضوح مطلق، أن جميع من تبقى غير مناسبين: يانوكوفيتش وحده سيتمكن من تسديد حملته الانتخابية، وليس لدى الآخرين نقوداً كافية: «من سيدفع؟ هل ستدفع أنت؟». بهذه الحجة كان كوتشما يواجه محدثيه على الفور. وهل لدى موسكو رغبة في تمويل مرشحها بسخاء؟ وطالما ليس لديها هذه الرغبة، فيانكوفيتش هو المناسب.

في الحقيقة، في الكرملين كانوا يشكّون في أن خلف هذه الحجة يكمن عنصران آخران: يانوكوفيتش ربح «المزايدة»، أي عرض على كوتشما المبلغ المالي الأكبر. وعلاوة على ذلك، على الرغم من أن محافظ دونتسك لم يكن من جماعة الرئيس، ابن دنيبروبتروفسك، لكنه ترك في نفسه انطباع رجل قصير النظر، من السهل توجيهه. وقد بدا هذا للسياسي الداهية كوتشما، أنه سيتمكن من الاحتفاظ بالحد الأقصى من السلطة، إذا ما أجلس في مقعد الرئاسة يانوكوفيتش الضعيف، وليس أحداً من الرجال الأمنيين ذوي الخبرة والقريبين من الكرملين. لكن الأهم، أنهم كانوا يعتقدون في الكرملين أن كوتشما لن يترك الرئاسة - بل هو يسبر إمكانية البقاء رئيساً لفترة رئاسية ثالثة. ولهذا، فكلما كان خليفته أسوأ كان كوتشما نفسه أكثر فوزاً.

وهكذا أصبح يانوكوفيتش رئيس الوزراء. بقي عام على الانتخابات الرئاسية في أوكرانيا، ثم بقي نصف سنة - وبقي كوتشما شكاكاً متردداً. لم يكن واثقاً من نفسه بأنه يريد ترك كرسي الرئاسة. وكان يتمهل من أجل تأييد ترشيح يانوكوفيتش. بدأ منافسه المعارض ورئيس الوزراء السابق فيكتور يوشنكو حملته الانتخابية. وكان قد تم تشكيل أركان حملة انتخابية لدى يانوكوفيتش، لكنه لم يفعل شيئاً، لأنه كان ينتظر الضوء الأخضر من كوتشما. وكوتشما بقي متردداً. بحسب الدستور، لا يحق لكوتشما ترشيح نفسه لدورة رئاسية ثالثة. ولكن، كان في إمكانه إيجاد منفذ. فمثلاً، لو لم تجرِ الانتخابات الرئاسية

الدورية لسبب ما، أي تم نسفها، كان في إمكانه المشاركة في انتخابات رئاسية غير دورية.

قدم إلى موسكو عدة مرات، والتقى ببوتين. فكان بوتين يقنعه: من الخطأ إلغاء الانتخابات الرئاسية، فالسلطة يجب أن تتصرف وفقاً للقانون، يجب تسليم السلطة للخليفة. ولم يتخذ كوتشما قراره إلا في شهر نيسان/إبريل - حيث رشح يانوكوفيتش نفسه رسمياً.

الكرنفال الخريفي

في الخريف توافدت أعداد كبيرة من علماء السياسة والساسة الاستراتيجيين الروس إلى أوكرانيا. وبعضهم وقع عقوداً قبل الموعد المحدد، مدركاً أن الانتخابات الرئاسية المقبلة في أوكرانيا هي منجم من ذهب. وآخرون حاولوا القفز إلى العربة الأخيرة من القطار المنطلق إلى أوكرانيا، إدراكاً منهم أن الحملات ما قبل الانتخابية في روسيا، بعد إلغاء انتخاب المحافظين، ستصبح نادرة جداً، وعليهم البحث عن مورد رزق في الخارج.

في السنوات التسعينيات 1990 وفي منتصف العقد الأول من الألفية الثانية أصبح المحللون السياسيون الاستراتيجيون يشكلون طبقة خاصة. وقد تكاثرت أعدادهم بشكل كبير: فالحملات الانتخابية الإقليمية والمنطقية كانت في روسيا عملاً مربحاً للغاية، وكان يعمل لدى كل مرشح (وبخاصة إذا كان المرشح مسؤولاً كبيراً) فِرَق كبيرة من المختصين بالعلاقات العامة السوداء. وكانوا يستخدمون، عادة، أساليب رهيبة لا تنسجم مع الأخلاق ولا مع القانون والدستور.

في خريف 2004 توجه، عملياً، جميع المحللين السياسيين الروس إلى أوكرانيا. علاوة على ذلك، أوفد إلى أوكرانيا فريق خاص من الأجهزة الأمنية الروسية ومجموعة من المستشارين من إدارة الرئيس بوتين. وتم تنظيم ما عُرف باسم «النادي الروسي» – فريق دائم من المحللين السياسيين الروس، الذين يجرون

موائد مستديرة بلا نهاية (وسخيفة إلى حد كبير).

وعلى الرغم من أن يانوكوفيتش كان هو المرشح الرئاسي الذي تدعمه موسكو رسمياً، لكن الخبراء السياسيين الروس كانوا يعملون أيضاً في المعسكر المعادي - في معسكر مرشح المعارضة فيكتور يوشنكو. لا سيما وأن حملته الانتخابية تكفّل بتمويلها المعارض الروسي المبعد، والمقيم في لندن، بوريس بيريزوفسكي. فهو الذي أرسل، على سبيل المثال، ستانيسلاف بيلكوفسكي بصفة مستشار إلى «المعسكر البرتقالي».

كان دعم موسكو لفيكتور يانوكوفيتش صريحاً جداً. فكان بوتين يلتقيه بصورة دورية (مرة كل شهرين تقريباً)، من دون خجل، ويتحدث عن دعمه في الانتخابات المقبلة. وذهب يانوكوفيتش مرتين إلى سوتشي، وثلاث مرات إلى نوفو - أوغاريفو، وكان بوتين يتواصل معه هاتفياً، هنأه بعيد ميلاده، وحل ضيفاً في القرم (لكنه، في الحقيقة، كان ينزل في فيلا ميدفيدتشوك). أما فيكتور يانوكوفيتش فقد حل ضيفاً على فلاديمير بوتين، بمناسبة عيد ميلاده، قبل ثلاثة أسابيع من موعد الانتخابات.

لقد وُظِّف الكثير من أجل فوز يانوكوفيتش: فقد هيأت روسيا مجموعة من التسهيلات للمهاجرين الأوكرانيين، العاملين في روسيا (سمحت لهم بالبقاء في روسيا من دون تسجيل لمدة 90 يوماً - وحتى للمواطنين الروس، الذين كانوا ينتقلون من مدينة لأخرى أعطتهم تسهيلاً مشابهاً لمدة ثلاثة أيام)، وخفّضت أسعار مصادر الطاقة والوقود وألغت الضريبة على النفط والغاز المصدر إلى بلدان رابطة الدول المستقلة СНГ (هدية قيمتها 800 مليون دولار).

كلما اقتربت الانتخابات أكثر، كلما بدا دعم فلاديمير بوتين لفيكتور يانوكوفيتش أكثر هزلية. في 28 تشرين أول/أكتوبر، وقبل ثلاثة أيام من الانتخابات جرى عرض في شارع كريشاتيك، الشارع الرئيس في كييف، بمناسبة الذكرى الستينية لتحرير كييف من الفاشية. عموماً، تم تحرير كييف

في 6 تشرين ثاني/نوفمبر، لكن السلطات الأوكرانية، من دون تأنيب ضمير، نقلت الذكرى السنوية لأسبوع سابق، من أجل تحويلها إلى عرض انتخابي قوي دعماً لفيكتور يانوكوفيتش. وجُلبت خصيصاً من موسكو راية النصر، الراية الحمراء التي رُفعت على الرايخستاغ******** في برلين في 9 أيار/مايو 1945. جرى العرض في شارع كريشاتيك (كان أشبه بموكب كرنفالي): مئات الفنانين، الذين ارتدوا البزات العسكرية لمقاتلي الحرب العالمية الثانية، كانوا يسيرون أمام منصة ضيوف الشرف. وكان يقف على المنصة الرئيس الأوكراني ليونيد كوتشما وخليفته المقبل فيكتور يانوكوفيتش، وفلاديمير بوتين ورئيس إدارته دميتري ميدفيديف (آنذاك، لم يكن يخطر في ذهن أحد أن الأخير سيكون أيضاً خليفة بوتين المقبل)، وإلى جانبهم، ولسبب غير معروف، الرئيس الأذربيجاني إلهام علييف (ولسخرية القدر، أنه هو أيضاً ورث كرسي الرئاسة عن أبيه المتوفى حيدر علييف).

كان الاحتفال سابقة لا مثيل لها: رئيس روسيا اشترك شخصياً في حملة انتخابية لدولة أجنبية.

كان الموضوع الرئيس للكرنفال الوطني - الروس والأوكرانيون معاً في النضال ضد الفاشية - وقد أصبح في الآن نفسه الموضوع المفتاحي في أي حملة يانوكوفيتش الانتخابية. وبتغذية من المحللين السياسيين الاستراتيجيين الروس أخذت تُكال الاتهامات لأركان يوشنكو «الموالي للغرب» بأنه «معاد لروسيا»، بل و«قومي متشدد» و«ممالئ للفاشية». وعلى أية حال، كانت هذه الحملة مجرد «بروفة» للحرب الإعلامية التالية في عام 2014.

إن ما سيتكرر بعد عشر سنوات كمأساة، كان قد بدأ على شكل مهزلة. كان موقع يوتيوب في بداية انتشاره وتطوره، لكن الفيديو الذي ظهر فيه يانوكوفيتش، في أثناء العرض، يعرض على بوتين مصاصة أصبح ضربة موفقة للإنترنت الناطق باللغة الروسية. يرفض بوتين المصاصة. عندها يقدم رئيس الوزراء الأوكراني يانوكوفيتش قطعة حلوى لميدفيديف - فيوافق الأخير ويضعها في

فمه.

وقد أصبحت مأدبة أخرى الحلقة الأكثر غموضاً في تلك الحملة الانتخابية - وهي حفل العشاء الذي أقيم لفيكتور يوشنكو بالاشتراك مع قادة الأجهزة الأمنية الأوكرانية. بعد هذا العشاء شعر يوشنكو بانحراف صحته، وبعد أيام معدودات أدخل المستشفى بحالة تسمم شديدة. وقد أنقذ الأطباء النمساويون حياته، لكنه عاد إلى كييف في ذروة الحملة الانتخابية بوجه مشوه. إن يوشنكو الذي كان شاباً جميل الطلعة، تحول خلال أسبوع إلى شخص مشوه بوجه متورم. لقد أصبح هذا الحدث، من ناحية، ضربة قوية لحملته الانتخابية، لكنه من ناحية أخرى، قدم أقوى دليل، على أن المرشح الرئاسي المعارض مستعد للتضحية بنفسه في سبيل شعبه، وأن أعداءه لن يتورعوا عن أي وسيلة. كان يوشنكو نفسه، بهذا الصدد، يؤمن بتضحيته بنفسه، وبتفرده وبرسالته السامية.

لم تعرف ظروف تسمم يوشنكو حتى الآن. لكن يوشنكو يقول، وهو الآن رئيس سابق، إنه يعرف من دبر محاولة تسميمه واغتياله، لكنه لا يمكنه الحديث عن ذلك على الملأ.

يقول الخبير السياسي غليب بافلوفسكي، الذي كان يعمل آنذاك في أركان يانوكوفيتش بصفة «مراقب من الكرملين»، إن تسميم يوشنكو، من حيث الجوهر، قد غير بالكامل اتجاه الحملة الانتخابية الرئاسية. فقد انتهى الكرنفال - وسيطر جو من الخوف. وبعد حادثة التسمم هذه أصبح الموقف يبدو كصراع يمكن خلاله القتل، وليس ألعاباً وحيلاً يمارسها المحللون السياسيون.

لم يكن يانوكوفيتش، بالطبع، المنافس الرئيس ليوشنكو في تلك الانتخابات. بل كان بوتين نفسه. فهو كان يدير الحملة الانتخابية، وكأنها حملته الانتخابية الشخصية. وقبل الجولة الأولى من الانتخابات أدلى الرئيس الروسي، لمن لا يفقه شيئاً، بحديث صحافي للأقنية التلفزيونية الأوكرانية الرائدة الثلاث.

ويتذكر بيلكوفسكي، الذي كان يعمل في أركان يوشنكو، أن هذا الحديث زرع التثبيط والإحباط في نفوس مؤيدي الثورة «البرتقالية». فالقسم الأكبر من أنصار يوشنكو كان يثق بأن فرصة نجاحه كبيرة جداً، ولكن بعد ظهور بوتين على الهواء في جميع القنوات التلفزيونية الأوكرانية اختفت هذه الثقة بالنفس، وزال الاطمئنان والإشراق والثبات والمصداقية.

بالمناسبة، كانت شعبية بوتين في أوكرانيا كبيرة جداً - أكبر بكثير من شعبية أي زعيم سياسي، سواء كان كوتشما أو يانوكوفيتش أو يوشنكو. قوضتها قليلاً مأساة بيسلان - وكان هذا بتأثير الخوف من الإرهاب الشيشاني - ولكن لفترة قصيرة.

ولسخرية القدر، أن المستشاريْن الرئيسيْن الروسيين لأركان الخصمين أصبحا ستانيسلاف بيلكوفسكي وغليب بافلوفسكي - كبيرا علماء السياسة في موسكو، اللذان قاما قبل عام بتنظيم «معركة التقارير» حول قضية شركة يوكوس.

«لا حاجة إلى مقاومة المحتوم» – هكذا كان يقول غليب بافلوفسكي، مستشار يانوكوفيتش في الهواء، على القناة الخامسة المعارضة عشية الانتخابات، في منازلة انتخابية داخلية لمستشار يوشنكو ستانيسلاف بيلكوفسكي. أما بيلكوفسكي فكان يتصرف وكأن فوز يانوكوفيتش حتمي: فقد لسعه الشر ودعا ناخبي رئيس الوزراء بالعنيدين والمستذئبين.

انتهت الجولة الأولى من الانتخابات فجأة بالتعادل تقريباً: وتجاوز يوشنكو يانوكوفيتش بـ 0.5% (حاز الأول على 39,87% من الأصوات وحاز الثاني على 39,32% منها). لم تترك هذه النتيجة أي انطباع في الكرملين. ولم يكن هناك أحد من محبي يانوكوفيتش يشك، كما في السابق، في أن فوزه حتمي، وأن كل شيء قد تم ضبطه. وما حدث فيما بعد أصبح أول وأكبر هزيمة تاريخية لفلاديمير بوتين خلال السنوات العشر الأولى من وجوده على رأس السلطة.

في 12 تشرين ثاني/نوفمبر أبحر بوتين إلى القرم - من أجل افتتاح العبارة. وأبحر معه على العبارة ليونيد كوتشما، واستقبلهما يانوكوفيتش في ميناء كيرتش بالقرم. وقد رافقه وزير النقل غيورغي كيربا الذي وقّع في الميناء مع زميله الروسي حزمة من العقود حول بناء ميناء جديد في كيرتش لنقل الحاويات. وهذا العقد الذي جرى قبل الانتخابات لم ينفذ. والوزير نفسه كيربا الذي وقع العقد انتحر بعد شهر - في ليلة الانتخابات عندما عرف بهزيمة يانوكوفيتش.

في 21 تشرين ثاني/نوفمبر جرت في أوكرانيا الجولة الثانية من الانتخابات الرئاسية. في هذه الأثناء كان فلاديمير بوتين يقوم بزيارة رسمية للبرازيل. عندما أغلقت صناديق الاقتراع في كييف، كانت الساعة نحو الرابعة مساءً في ريو دي جانيرو. اتصل بوتين بكوتشما، فأخبره بأنه بحسب استطلاعات الرأي، فاز يانوكوفيتش في الانتخابات. وبعدها اتصل بوتين بفيكتور يانوكوفيتش كي يهنئ رئيس الوزراء بالفوز حسب نتائج الاستطلاع. وقد نشرت وكالات الأنباء هذا الخبر على الفور. وفي صباح 24 تشرين ثاني/نوفمبر أعلنت المفوضية العليا الأوكرانية للانتخابات يانوكوفيتش فائزاً، وأرسل له بوتين في اليوم التالي برقية تهنئة.

في ليلة 22 تشرين ثاني/نوفمبر اجتمع في الساحة الرئيسة في كييف، في ميدان الاستقلال، عشرات الآلاف من أنصار يوشنكو. وأقاموا مخيماً هناك رفعوا عليه الأعلام البرتقالية واعتصموا في الصقيع قرابة شهر كامل. كانوا يطالبون بإلغاء نتائج الجولة الثانية باعتبارها مزيفة. ويعتقد يوري لوتسنكو أحد قادة الميدان، أن ما أسقط يانوكوفيتش في أعين شعبه في تلك الفترة، دعم بوتين المفرط له - فقد استاء الناخبون من أن يدعوه رئيس روسيا، بوقاحة، بمرشحه المفضل.

يتذكر مستشار يانكوفيتش الموسكوفي غليب بافلوفسكي، أنه كان يشعر بالحرج عند خروجه من الفندق، القريب من الميدان - وكي يمر عبر الحشد الذي كان يملأ مركز المدينة، اضطر إلى ارتداء وشاح برتقالي. وعندما قدم إلى موسكو، اكتشف أن الكرملين بعيد كلياً عن الفهم الحقيقي للموقف: كانوا في الكرملين يشربون الشمبانيا ويهنئونه بالحملة الانتخابية التي قادها بنجاح. كان يبدو للجميع، أن الانتخابات قد تمت، ولن تكون هناك بعد الآن أية مشاكل، وأن يانوكوفيتش هو الرئيس، والحشد في الميدان يمكن تجاهله.

لكن الحشد لم يتفرق ولم يغادر ميدان العاصمة الرئيس.

لم تجرؤ السلطات على إغلاق المخيم الذي يضم آلاف عديدة من الناس. وكان ليونيد كوتشما يعارض بشدة طرد المعتصمين - فمسؤولية إصدار القرار، وبالتالي المسؤولية عن احتمال إراقة الدماء، تقع عليه. ولم يكن ليربح أي شيء من سيناريو القمع واستخدام القوة - فالفائز كان يانوكوفيتش، وكوتشما سيستقيل على أية حال. ولم يقدم كوتشما على الصراع من أجل خليفته، مخاطراً بمستقبله. وبحسب أقوال أحد مستشاري كوتشما، فقد حذر السيناتور الأمريكي ريتشارد لوغار، الذي كان يتزعم وفد المراقبين في الانتخابات، الرئيس بعد الجولة الثانية، بأن مصيره سيكون مثل مصير ميلوسيفيتش.

من موسكو كانوا يحثون كوتشما لحل المسألة بسرعة وقسوة. لكن كوتشما ذهب إلى مقر إقامته في ضاحية كييف، واستقر فيه. سيطرت الحيرة على يانوكوفيتش ولم يستطع اتخاذ أية خطوة. كان بناء إدارة الرئيس فارغاً، عملياً، خالياً من العاملين. وكان فيكتور ميدفيدتشوك الشخص الوحيد الذي تابع عمله، على الرغم من أعمال التمرد والعصيان التي سيطرت على كييف. فقد بقي على تواصل دائم مع موسكو، وكان يستقل الطائرة إليها باستمرار، كي يتشاور مع بوتين - وكما كان يقال في كييف، فقد كان لديه من أجل هذا الغرض طائرته الخاصة ومطاره الخاص. وميدفيدتشوك بالذات هو من تمكن من إلزام مفوضية الانتخابات المركزية على إعلان النتائج الرسمية للجولة

الثانية من الانتخابات - وإعلان يانوكوفيتش رئيساً.

لكن، كان الوقت قد تأخر. كانت كييف بكل قاطنيها تقف على ساحة المدينة الرئيسة بأوشحة برتقالية. وبدأت القنوات التلفزيونية الحكومية تنتقل إلى معسكر المعارضة. وبدلاً من أن يقوم الرئيس ليونيد كوتشما بتسليم السلطة لخليفته، دخل في مسار المباحثات: في 26 تشرين ثاني/نوفمبر وصل إلى كييف رئيس بولونيا ألكسندر كفاسنيفسكي، ورئيس ليتوانيا فلاداس آدامكوس، والأمين العام السابق لحلف شمال الأطلسي خافيير سولانا، وأجلسوا يوشنكو، ويانوكوفيتش وكوتشما إلى مائدة المفاوضات. كما أرسل إلى كييف ممثل روسيا، وهو الناطق بلسان مجلس الدوما، الذي نُسبت إليه عبارة: «البرلمان ليس مكاناً للنقاش». وهو كان موجوداً في كييف ليس كمفاوض، بل كمبعوث عليه ألا يسمح بإجراء المفاوضات. وقد سجلت الدورة الأولى من المفاوضات مطلب يوشنكو الرئيس - إلغاء نتائج الجولة الثانية من الانتخابات والتصويت من جديد. وفي اليوم التالي طالب البرلمان الأوكراني باعتبار جولة الانتخابات الثانية غير شرعية - وبقي الحكم من اختصاص المحكمة العليا.

غضب فلاديمير بوتين غضباً شديداً مما يجري في كييف. ولم يستطع أن يفهم لماذا لا يطرد كوتشما المعتصمين في الميدان، ولماذا لم يصبح يانوكوفيتش رئيساً حتى الآن. أجاب كوتشما أنه لا يستطيع فعل أي شيء، زاعماً أن الأمريكيين يضغطون عليه. ولم يحاول بوتين إخفاء انزعاجه وغضبه. في طريق عودته من البرازيل حطت به الطائرة في البرتغال، حيث صرخ على الصحافيين الذين طرحوا عليه أسئلة حول أوكرانيا. واتهم المجتمع الدولي بالخيانة، فهو يعترف بالانتخابات في أفغانستان وكوسوفو والعراق (كان يقصد أنها دول غير ديمقراطية)، لكنه لسبب ما لا يعترف بنتائج الانتخابات في أوكرانيا.

في 25 تشرين ثاني/نوفمبر وصل بوتين إلى لاهاي للقاء قيادة الاتحاد

الأوروبي. وفي المؤتمر الصحافي النهائي بعد المحادثات، غضب من جديد، واتـهم الولايـات المتحـدة الأمريكيـة صراحة بالتـدخل فـي شـؤون أوكرانيـا الداخلية؛ زاعماً أن السيناتور الأمريكي ريشتارد لوغار جالس دوماً في أركان يوشنكو ويقود حملته الانتخابية.

كانت وسائل الإعلام الجماهيرية الروسية تغطي ما يجري في كييف من جانب واحد: في أوكرانيا يجري انقلاب معاد لروسيا بإيحاء من الغرب. وفجأة في أواخر تشرين ثاني/نوفمبر ظهرت الحركة الانفصالية، باعتبارها إحدى الأوراق في هذه اللعبة. بداية، صوّت نواب مجلس لوغانسك الإقليمي على تأسيس جمهورية جنوب شرقي أوكرانيا، وتوجهوا بنداء إلى فلاديمير بوتين لدعمهم. وفي 28 تشرين ثاني/نوفمبر جرى في مدينة سيفيرودونتسك ما عرف باسم «مؤتمر نواب من جميع المستويات» - وهو اجتماع لأعداء «الثورة الأوكرانية» جاؤوا من 15 إقليماً في أوكرانيا. وقد قاد هذا العمل الانفصالي محافظ مدينة خـاركوف ورئيس مجلـس دونتسك الإقليمي، اللذان اقترحـا إجراء استفتاء حـول تأسيس «دولـة جنـوب شرقي أوكرانيـا وعاصمتها خاركوف». وكممثـل شخصي للـرئيس بوتـين قـدم عمـدة موسـكو يـوري لوجكوف، وهـو سياسي شعبوي خبير، اشتهر منذ التسعينيات كمدافع عن حقوق السكان الناطقين باللغـة الروسـية فـي أوكرانيـا، وخاصـة فـي القرم. ولكنه لم يقل شيئاً محدداً للمشـاركين فـي المؤتمـر، ربمـا لعـدم إعطائه أي تفويض من جانب الكرملين، واكتفى بقوله: «الآن، ثمة قوتان قطبيتان في أوكرانيا. الأولى، تدخلٌ صارخ في شؤون أوكرانيا، والثانية - روسيا التي تنظر باحترام كامل إلى سيادة أوكرانيا. وأنـا، بصـفتي عمـدة موسـكو، مسـتعد لـرفع قبعتي الحبيبة، كي أكون شبيهاً بفيكتور يانوكوفيتش».

وكان أقل تحديداً وقطعية في خطابه يانوكوفيتش، الذي كان لا يزال يأمل بأن يصبح رئيساً لأوكرانيا كلها، وأراد استخدام المؤتمر كورقة رابحة في اللعبة السياسية، حيث قال: «لم يبق إلا القليل وينهار كل شيء. تعالوا نسعى من أجل

اتخاذ قرار، من دون اللجوء إلى الإجراءات الراديكالية. إذا ما أريقت حتى نقطة دم واحدة، فلن نتمكن من إيقاف تيار الدم. هدفنا حماية القوانين وحقوق الناس. أرجوكم، اتخذوا القرار الذي يضمن الوحدة في البلاد والنظام العام في الدولة...».

تحادث المشاركون ورحلوا كل إلى بلده - ولم يكن هناك أكثر من ذلك باتجاه الحكم الذاتي. ونُسيت الفكرة نهائياً لعشر سنوات.

كان لدى ليونيد كوتشما عدة خطط أخرى. فقد تذكر فجأة، أنه يتمنى صادقاً قبل نصف عام مثل هذه الصيغة - ألا تتم الانتخابات لسبب ما، ومن ثم سيتمكن من ترشيح نفسه من جديد. في 2 كانون أول/ديسمبر قصد (مع ميدفيدتشوك) موسكو والتقى ببوتين، من أجل مناقشة مخرج من الوضع الناشئ. وحاول أن يقنع بوتين باحتمالية مثل هذا السيناريو. لكن بوتين لم يعد يثق بكوتشما. أصبح الآن يثق برجل واحد في أوكرانيا - إنه يثق بعرّابه ميدفيدتشوك وحده. لكن ميدفيدتشوك نفسه لم يستطع إقناع كوتشما بإعلان حالة الطوارئ.

وفي نهاية المباحثات أصدر رئيسا روسيا وأوكرانيا بياناً، اقترحا فيه إلغاء جولتي الانتخابات معاً وإجراء انتخابات جديدة «من دون تدخل أجنبي». في الحقيقة، كان هذا مجرد خيال. فمن الناحية الشكلية، لم يعترض أي من الطرفين المشاركين على شرعية الجولة الأولى، لكن الجانبين كانا يتجادلان حول الجولة الثانية (كان معسكر يانوكوفيتش أيضاً يقول إنه كان هناك غش وتلاعب لصالح يوشنكو في كييف وفي غرب أوكرانيا). وفي المحصلة ألغت المحكمة العليا الجولة الثانية وحدها - وحدد موعد الجولة الثالثة (بالأصح الجولة الثانية المكررة) في 26 كانون أول/ديسمبر.

في 8 كانون أول/ وبنتيجة مناظرات طويلة اتخذ البرلمان الأوكراني عدة قوانين توفيقية وسطية. فمن ناحية، وباقتراح يوشنكو تم تعديل قانون

الانتخابات - أدخلت قواعد تجعل من الصعب جداً الغش والتلاعب في نتائجها. علاوة على ذلك، وعشية ما يدعى بالجولة الثالثة في 26 كانون أول/ديسمبر، تم تغيير طاقم المفوضية العليا للانتخابات. وباقتراح من كوتشما تم إدخال تعديلات على الدستور: وبموجبها فقد الرئيس قسما كبيراً من صلاحياته التي انتقلت إلى الحكومة، والحكومة تشكلها الأغلبية البرلمانية. كان حساب كوتشما بسيطاً - فالغالبية البرلمانية كانت في تلك الأثناء إلى جانب معسكر كوتشما ويانوكوفيتش. كان يأمل بأنه سيتمكن من البقاء عائماً، واقفاً على قدميه ويصبح رئيس وزراء. لم يكن في استطاعة الرئيس كوتشما أن يتوقع أنه في لحظة هزيمة يانوكوفيتش في 26 كانون أول/ديسمبر ستنتقل غالبية مؤيديه إلى صف الفائز.

كانت نتيجة التصويت في 26 كانون أول/ديسمبر 2004 صدمة كبيرة بالنسبة إلى موسكو. فحتى اللحظة الأخيرة كان يعمل في كييف فريق كامل من علماء السياسة والمحللين السياسيين الاستراتيجيين، والنواب، الذين كانوا يرسلون إلى الكرملين برقيات مفادها، أن الوضع تحت السيطرة، وأن الشعب «لن يقبل بالكابوس البرتقالي»، وأنه «ليست هناك تقريباً فرصة أمام المرشح الموالي للغرب للفوز». لم يستطيعوا شرح الانهيار بعدم فاعليتهم وانعدام تأثيرهم. فقد كان الاعتراف بأن الأموال المدفوعة لهم صُرفت عبثاً وهباء، وأنهم لم يفعلوا شيئاً وأخطأوا في جميع حساباتهم، أشبه بالانتحار. وكل ما استطاعوا فعله - التبليغ بأنهم فعلوا كل ما استطاعوا فعله، والتذمر والشكوى من الغرب.

حتى أن فلاديمير بوتين نفسه لم يستطع أن يعترف لنفسه بأنه قد أفرط في جهده فانقلب ضده، وأنه كان يتصرف بشكل أخرق، وأنه أخطأ في إدراك النوايا الحقيقية لكوتشما ويانوكوفيتش، وأنه اعتمد أكثر مما يجب على صديقه ميدفيدتشوك.

لقد كانت الهزيمة ممرِضة بشكل مرعب، لأنهم في الكرملين لم يفهموا أبداً أسبابها. كيف لم تحقق مثل هذه الجهود الضخمة التي يصعب تصديقها، التي

بذلتها روسيا من أجل تحقيق النتيجة المطلوبة، أي نجاح؟ هناك حالة وحيدة، إذا كان العدو، أي الغرب، قد بذل جهوداً أكبر.

قبل ثلاثة أشهر من الهزيمة في ميدان كييف، كان فلاديمير بوتين قد فوجئ بالعمل الإرهابي في مدينة بيسلان، وبصورة غريزية اتهم بهذا العمل الأعداء الذين يريدون توجيه ضربة لروسيا خلسة. ولم تدع له الهزيمة في أوكرانيا أي مجال للشك في هذا.

الفصل السادس : فلاديسلاف سوركوف، نائب رئيس إدارة الرئاسة يدافع عن الكرملين المحاصر

يشبه فلاديسلاف سوركوف بطلاً رومانسياً من روايات القرن التاسع عشر. يمكنه أن يبدو ناسكاً وحيداً، مستغرقاً في التفكير، حتى إذا ما كان يسير على البساط المخملي الأحمر في قصر الكرملين الكبير. إنه يبدو مستغرقاً في الفلسفة، حتى إذا كان يشرب كأساً في الليل في مطعم «بوشكين» الفاخر، الواقع في مركز مدينة موسكو، والذي يحبه السياح الأثرياء الأجانب و«نجوم البوب» الروس. إنه يبدو دوماً كرجل يعرف أكثر بكثير مما يقوله، كإنسان قرأ كل شيء مسبقاً، ولهذا ينظر إلى جميع المسائل بسخرية ظاهرة. وعلى الرغم من هذا كله، يسُهل عليه سحر محدثه. يمكنه أن ينطق بأشياء ماجنة للغاية، لكنه يبدو دوماً صادقاً وحكيماً.

يبدو سوركوف للكثيرين عبقرياً - أو عبقري الشر. فهو يتحدث عن أشياء مرعبة بكثير من الفتنة والروعة: عن القتل، والحرب، والموت. يصدم المثقف المصقول سوركوف الجمهورَ قائلاً بابتسامة: «ومن قال لكم إن الحرب ليست أسلوب الحياة في القرن الحادي والعشرين؟ لقد صُنع في القرن الحادي والعشرين السلاح الأكثر قتلاً في تاريخ البشرية، وسنرى في القرن الحادي والعشرين أكثر الحروب المميتة».

وحتى في وقت متأخر بعد منتصف الليل، جالساً في صحبة النجوم (مثل نجمة الروك زيمفيرا والممثلة المحبوبة ريناتا ليتفينوفا) في مطعم فاخر، متحدثاً عن الفن المعاصر، وهو يشرب قدحاً، يبقى رجل الدولة الأكثر إخلاصاً لفلاديمير بوتين.

هو بالطبع، لا يعد نفسه موظفاً عادياً. إنه يعد نفسه، غالباً، «الساموراي» الذي يضحي بنفسه خدمة للإمبراطور. هو ليس مثل الآخرين - وهذا ظاهر للعين المجردة. هذا ما أقنع سوركوف نفسه به 100%.

شقة مستأجرة

في 17 شباط/فبراير 2005، في شقة كبيرة مستأجرة ضمن بناء سكني في مركز بطرسبورغ، جرى لقاء سري، يشبه كثيراً اجتماع الثوريين السري. لقد انتصرت «الثورة البرتقالية» للتو في أوكرانيا، والشباب الذين دخلوا إلى الشقة كان حديثهم عنها فقط، كانوا يبحثون احتمال تكرارها في روسيا.

أحد آخر الشباب الداخلين إلى الشقة كان أكبر سناً من الآخرين - كان قد أكمل عامه الأربعين - وكان يرافقه حارس. لقد كان هذا فلاديسلاف سوركوف، نائب رئيس الإدارة الرئاسية، ومنظّر الكرملين الرئيس. وبعد دخوله إلى الشقة التنكرية التآمرية، بدأ يصدم شبيبة بطرسبورغ بآرائه الحرة بل والمعارضة. وعلى سبيل المثال، تهجم بقسوة على جميع الأحزاب السياسية الروسية، بما فيها حزب «روسيا الموحدة» الحاكم. (لكن نائب رئيس إدارة الكرملين لاذ بالصمت، حول حقيقة أنه هو، سوركوف، قد أسس عملياً هذا الحزب، وهو من كان يقوده في تلك الفترة).18

اتهم سوركوف بصورة نارية رجال السياسة الحاليين بالفساد، شارحاً للشباب أن سياسيي المستقبل يجب أن يكونوا أيديولوجيين عقائديين - والمجتمعون في هذه الشقة لديهم جميع الفرص ليكونوا سياسيي المستقبل. وربما قد يشكلون الهيكل العظمي للسلطة المقبلة.

لم يكن الاجتماع، بالطبع، حلقة متمردين، بل العكس تماماً - هكذا وُلدت المنظمة الشبيبية المعادية للثورة «ناشي НАШИ - (جماعتنا)». وقد قلّد سوركوف بمهارة الوسط المحيط الخارجي للمنظمات الشبيبية المتمردة، كي يجعل منها بنية دفاعية - وقائية قوية. وشرح سوركوف ومساعده فاسيلي ياكيمنكو، زعيم «ناشي - جماعتنا» المقبل، للشباب والشابات، أنه تم استحداث إدارة خارجية في جورجيا وصربيا وأوكرانيا، وهذا لا يمكن السماح به في روسيا. علاوة على ذلك، وبحسب قولهما، تم في موسكو تأسيس فرع من حركة «بارا - ПОРА (حان الوقت)»، وهي المنظمة الشبيبية الأوكرانية، التي أعدت «الثورة البرتقالية» في أوكرانيا. ويجب أن تصبح منظمة «ناشي - جماعتنا» موازية معارضة لمثل هذه المنظمات العميلة.

بعد عشرة أيام، جرى في منتجع يقع في ضاحية موسكو، تابع لإدارة أعمال الرئيس، المؤتمر الأول للحركة الجديدة. وقد حضره نشطاء من جماعات الكرملين السابقة، وطلاب - نشطاء معاهد العاصمة العليا، وكذلك ممثلو اتحادات هواة كرة القدم المتعصبين. وكان عليهم أن يشكلوا أساس «الفصائل الشبيبية لحفظ النظام» التي يمكنها، بالقوة عند الضرورة، مجابهة «الثورة البرتقالية» الزاحفة.

لقد جرت جميع الاجتماعات التنظيمية في جو من السرية الشديدة المطلقة. كما لو أنه يجري تشكيل جمعية سرية هادفة إلى قلب نظام الحكم، وليس كبنية قوية للدفاع عن النظام. كانوا يؤكدون للصحافي أوليغ كاشين، العامل في صحيفة «كوميرسانت»، والذي تمكن من التغلغل إلى المؤتمر الأول، أنه لا وجود لأي تنظيم باسم «جماعتنا»، وطردوه بأقصى سرعة من المنتجع في ضاحية موسكو، حيث جرى المؤتمر.19

في 15 أيار/مايو خرجت منظمة «ناشي» لأول مرة من النشاط السري إلى العلنية: حيث قامت بأول تجمع جماهيري في موسكو، بمناسبة يوم النصر.

جلبوا بالباصات إلى العاصمة 60 ألف شاب وشابة من المناطق المجاورة، ومن أجل هذه الحشد الجماهيري تم إغلاق شارع لينينسكي، أحد أهم الشوارع الرئيسة في موسكو، الذي يؤدي إلى مطار فنوكوفو. وكان الخطباء يعلنون بأن هذا الحشد الجماهيري «ميدان روسي حقيقي».

في بداية شهر تموز/يوليو، أقامت منظمة «جماعتنا» معسكراً صيفياً على شاطئ بحيرة سيليغر في منطقة تفير. وقد جلبوا شباباً وشاباتٍ من 45 إقليماً إلى هذا المعسكر لمدة أسبوعين. خلال الأسبوعين كانوا يمارسون الرياضة، ويشاهدون عروض الحفلات الموسيقية للموسيقيين والفنانين الشباب (جاءت إلى المعسكر على شاطئ البحيرة زمفيرا - مغنية الروك الأكثر شهرة وشعبية في روسيا).

حضر لإلقاء المحاضرات على أعضاء المنظمة عالم السياسة غليب بافلوفسكي، الذي كان يقود، قبل عام، حملة يانوكوفيتش الانتخابية في كييف، ثم أسس مركز بحوث سوركوف - «خلية تفكير»، المضاد الرئيس للثورة، صندوق السياسة الفاعلة. ومن أقواله: «إن مشكلتكم الرئيسة هي الثقة الفائضة في وجودكم. أؤكد لكم أنها غير مضمونة. إن الحضارة الأوروبية مبنية على نحو، بحيث يلزمها دوماً عدو، وخاصة في المراحل التي يكون فيها كل شيء على ما يرام. هذا ما حدث لليهود في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهذا ما يحدث الآن للروس. فالروس بالنسبة إلى الغرب اليوم هم المنبوذون الرئيسون، مهما كنا جيدين. إن الروس هم يهود القرن الحادي والعشرين، وهذا يجب أخذه بعين الاعتبار. عليكم أن تكونوا أكثر صرامة، وأن تتعلموا الإمساك بالبنادق بأيديكم، وأن تردوا على خصومكم بصلابة. برأيي، إن منظمة «جماعتنا» هي تلك القبضة التي يجب على المجتمع أن يريها للفاشيين. لكنني لا أرى منكم نشاطاً».20

وفي الخريف ذهب بافلوفسكي إلى أبعد من ذلك. فقد أصبح الداعية الرئيس من داخل الملاك لسوركوف وبدأ يدير برنامجاً تحليلياً أسبوعياً في وقت

الذروة بيوم الأحد على قناة ن.ت.ف. وقد دعي البرنامج باسم «السياسة الواقعية». والآن يندم بافلوفسكي على ما أقدم عليه قائلاً: «في تلك الأثناء بالذات بدأنا نضيع الوقت عبثاً. في تلك الأثناء، كان يبدو لنا أننا منشغلون بقضية مهمة. لكن السلطة، في الواقع، كانت تخترع لنفسها مهمات وهمية وأخذت تنفذها بحماسة. كان كل هذا في الواقع، عبثاً. ولكن، آنذاك، عندما كنا ننظر إلى الموقف من الداخل، لم نكن ندرك ذلك».

في 26 تموز/يوليو، في اليوم التالي بعد انتهاء المعسكر، أحضروا إلى الرئيس بوتين أبرز نشطاء منظمة «جماعتنا». قال فلاديمير بوتين: «إن منظمتكم – مثال ساطع على المجتمع المدني»، وأضاف، إنه «يأمل كثيراً بأن «جماعتنا» ستتمكن من التأثير على الوضع في البلاد».

لقد تحولت منظمة «جماعتنا» إلى بنية فاعلة نشيطة باستمرار - وربما هي المنظمة السياسية الوحيدة في روسيا، التي كانت تجتمع خارج مواعيد الاحتفالات الجماهيرية أو المؤتمرات، بل كانت تنشط في مختلف الأوقات: فقد تم قبول نشطائها في الدراسة أو في العمل، وكانوا ينظمون لهم تدريبات منتظمة، ويرسلونهم في رحلات سياحية مجانية. وقد تم بناء المنظمة وفق المخطط الكلاسيكي لشبكة التسويق. فكان على كل ناشط أن يجلب أكبر عدد من الأصدقاء - وبناء على هذا يرتقي وضعه في المنظمة.

كان سوركوف، نائب رئيس إدارة الرئاسة، يدرك أن الفكرة الرئيسة لأية ثورة هو جدول الأعمال السلبي وليس الإيجابي. فمن الصعوبة تعبئة الجماهير للنضال «مع»، بينما من الأسهل بكثير تعبئتها للنضال «ضد». هل اجتمعت الآلاف العديدة من الناس في ساحة «ميدان» في كييف لأنهم كانوا يريدون الديمقراطية والحرية؟ بالطبع، لكنهم كانوا بدرجة أكبر يناضلون ضد نظام كوتشما والفساد. بالطبع، كانت العاطفة الأقوى التي جمعت الناشطين في «ميدان» كييف هي الرغبة في التحرر من روسيا، ومجابهة ضغط بوتين وإملاءاته. إن الخوف من العدو الخارجي، وبخاصة العدو الخارجي التقليدي،

يعبئ الناس أكثر من أي شيء آخر. وقد أخذ سوركوف، نائب رئيس إدارة الكرملين كل هذا في اعتباره، عند تشكيله المنطلق الرئيس للشبيبة. ومن حيث الجوهر، عمل سوركوف كل شيء، كما لو أنه كان يعدُّ لثورة: فقد انتقى الشباب الأكثر نشاطاً ومبادرة، ثم شحنهم شحناً أيديولوجياً. زد على ذلك فهي لم تكن بالذات أيديولوجية حراسة وحماية، بل على العكس، كانت فكرة النضال والتمرد - ضد العدو الخارجي، ضد المعتدي الأمريكي والمؤامرة العالمية.

لقد كانت منظمة «جماعتنا» مشروع سوركوف الأسطع، لكنها لم تكن مشروعه الوحيد. فبعد «الثورة البرتقالية» تم تكليفه بتشكيل عقيدة كاملة معادية للثورة.

قام سوركوف، نائب رئيس إدارة الرئاسة، بتحليل جميع القوى المحركة التي ساعدت على إحداث الثورة في كييف، وبدأ يعمل بصورة هادفة في جميع الاتجاهات. فما هي القوى الرئيسة التي أدت إلى انتصار «الثورة البرتقالية»؟ إنها: منظمة الشبيبة «بارا Пора -حان الوقت»، وموسيقيو الروك الشعبيون، الذين كانوا يعزفون موسيقاهم في ساحة «ميدان»، والمنظمات غير الحكومية التي قامت برصد الانتخابات وإحصاء حر موضوعي للأصوات، ووسائل الإعلام الجماهيرية المستقلة - وبالدرجة الأولى، القناة الخامسة، التابعة لملك صناعة الشوكولا بيتر بوروشنكو.

سار سوركوف على جميع البنود. في شهر نيسان/إبريل، أجرى في أحد فنادق موسكو لقاءً سرياً مع أشهر موسيقيي البوب في روسيا - من أجل تجنيدهم وتعبئتهم. وكان اللقاء ناجحاً.

ووضعت قوائم في جميع القنوات التلفزيونية الحكومية – قوائم بأسماء الأشخاص الذين لا تصح دعوتهم أو حتى ذكرهم، ومن ناحية أخرى، قوائم بأسماء الإعلاميين البارزين الذين يُحظر انتقادهم.

تمّ الاستيلاء عملياً، في خريف 2003، على قيادة أكبر وكالة روسية للأبحاث

السوسيولوجية ВЦИОМ: واضطر رئيسها يوري ليفادا وفريقه إلى مغادرة وكالتهم، وحل محلهم أشخاص جدد لا علاقة لهم أبداً بعلم الاجتماع (السوسيولوجيا).

في كانون أول/ديسمبر 2005، أقر مجلس الدوما تعديلات على قانون المنظمات غير الحكومية. وهدف هذه التعديلات مكافحة تمويل النشاط السياسي من الخارج. وصرح فلاديسلاف سوركوف، غير مرة، إننا في حاجة إلى قانون يمنع محاولات الغرب تنظيم «ثورة برتقالية» في روسيا. وقد قال سوركوف في 16 أيار/مايو (في اليوم التالي بعد اللقاء الحاشد لمنظمة «جماعتنا» في شارع لينينسكي) في لقاء مغلق: «يعرف الجميع، أن «بيت الحرية- Freedom House» يترأسه ولسي، الذي كان في فترة سابقة على رأس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ولا يمكن إلا لغبي أن يصدق الرسالة الإنسانية البحتة لهذه الدار. وبحلول شهر تشرين أول/أكتوبر اضطرت لجنة مراقبة حقوق الإنسان Human Rights Watch، ومنظمة العفو الدولية، ومنظمة «أطباء بلا حدود» إلى إيقاف أنشطتها مؤقتاً، بزعم أن وثائقها صيغت بطريقة غير صحيحة.

وقد جرت حادثة أسوأ مع «جماعة موسكو - هلسنكي» - أقدم منظمة لحقوق الإنسان في روسيا. فبعد بضعة أيام من إقرار التعديلات على قانون المنظمات غير الحكومية، عُرض على شاشة القناة التلفزيونية الحكومية «روسيا» فيلم وثائقي باسم «الجواسيس»، كان يتحدث عن حجر تجسسي، موضوع في مركز مدينة موسكو، زُعم أن الدبلوماسيين البريطانيين جمعوا بواسطته معلومات سرية. وقد استخدمت في الفيلم لقطات تسجيلية، وذُكرت أسماء محددة، مثل السكرتير الثاني للسفارة البريطانية مارك دوو. كما ورد في الفيلم أن المذكور دوو كان يموِّل المدافعين الروس عن حقوق الإنسان، وبالتحديد يموِّل جماعة موسكو - هلسنكي التي كانت ترأسها لودميلا ألكسييفا، التي رشحت طيلة عدة سنوات متواصلة لنيل جائزة نوبل للسلام. وقد أصيبت ألكسييفا بالصدمة،

وقالت إنها تسمع باسم دوو للمرة الأولى، وإن منظمتها لم تحصل سوى على منحة بريطانية واحدة.

والطريف في الأمر، أنه لم يصدق إلا القليل الفضيحة التي أعدتها قناة «روسيا» التلفزيونية - فقد بدا فيلم «الجواسيس» دعاية سوفييتية سمجة. ولكن بعد ست سنوات، اعترف فجأة جوناتان باول، الرئيس السابق لمكتب رئيس الوزراء توني بلير، أنه فعلاً، كان هناك حجر تجسسي، وأن كثيراً من الوقائع المعروضة في الفيلم كانت صحيحة.

وبعبارة أخرى، فإن بوتين وسوركوف ورفاقهما لم يكونوا مصابين بالبارانويا. فقد كانوا يحصلون وفق نظام يومي على معلومات مفادها أن الشركاء الغربيين يقومون بعمل استخباري مكثف على الأراضي الروسية. وقد قاد هذا إلى استنتاجات مخيفة، على خلفية الثورة الأوكرانية.

القلعة المحاصرة

دُعيت العقيدة الأيديولوجية الجديدة التي صاغها سوركوف باسم «الديمقراطية السيادية». وهي، في الواقع، حلت محل «الديمقراطية الإدارية» التي وضعها ألكسندر فولوشين. أي أن منظِّر الكرملين في فترة رئاسة بوتين الأولى كان يعتقد جاداً، أن الاقتصاد الروسي والنظام السياسي فيها كانا في حاجة إلى إصلاحات جدية، والديمقراطية لا يمكنها أن تقوم بنفسها، ولهذا تحتاج إلى مساعدة خارجية، وقائية أحياناً وجراحية أحياناً أخرى. وكان يكمن مفهوم سوركوف في أن المشاكل لا يمكن حلها بتعديل داخلي بسيط، لأن مشاكل روسيا ليست داخلية بقدر ما هي خارجية (وربما ليست داخلية أبداً). إن ما يعيق روسيا هو عدو خارجي يحاول الانتقاص من سيادتها. ولهذا، يجب أن تكون الديمقراطية الروسية خاصة متميزة - يجب أن تكون مستعدة للدفاع عن نفسها من الخطر الخارجي.

لم يكن من باب المصادفة، أن يشعر الكرملين نفسه وكأنه في قلعة محاصرة

في أوائل عام 2005. فقد كانت ثمة أسباب كثيرة لهذا الشعور. وأهمها - الهزيمة المذلة التي ألحقتها به «الثورة البرتقالية» في كييف. لكنها لم تكن الذريعة الوحيدة للشعور بالذعر.

في الآن نفسه تقريباً، كانت تجري الانتخابات الرئاسية في أبخازيا، الجمهورية الصغيرة غير المعترف بها، التي انفصلت عن جورجيا في أوائل التسعينيات، والمحاذية لسوتشي، أي التي لا تبعد سوى عشرات الكيلومترات عن مقر بوتين المفضل. وكان الموظفون الروس يحبون الذهاب إلى أبخازيا، بصورة خفية، عندما كانوا يشعرون بالملل في الجو الرسمي لمنتجع الرئيس.

وبنتيجة إحدى هذه الزيارات غير الرسمية تم تسليم جوازات سفر روسية بأعداد كبيرة جداً لسكان أبخازيا - حيث اقترب أحد السكان المحليين من موظف الكرملين الكبير الذي كان يستجم على الشاطئ في العاصمة سوخومي. وأخبره أنه لا يستطيع نقل والده المريض بالسرطان إلى أي بلد، لأن جوازات السفر الأبخازية لا يُعترف بها أي بلد في العالم. أعلم الموظف الكبير بوتين بهذا الحادث واقترح - من باب الإنسانية البحتة، منح الأبخاز جوازات سفر روسية. وهذا ما حصل.

باختصار، كانوا في الكرملين ينظرون إلى أبخازيا ليس بصفتها «حديقة خلفية»، بل كمزرعة فرعية مجاورة لمقر الرئيس الصيفي المفضل. ولهذا كانت مقاربتهم للانتخابات الرئاسية أبسط من ذلك: فقد عينوا «المرشح الموالي لروسيا» حسب معيار واحد - اختاروا من حاز أكثر على إعجاب بوتين. لم يكن لدى بوتين الوقت اللازم (ولا الرغبة) لدراسة المرشحين، ولهذا اختار، بصورة عشوائية، رئيس لجنة الأمن المحلية ك.ج.ب رئيساً.

بعد أن تم الاختيار، مُنح المرشح راؤول حاجيمبا مجموعة قياسية من مراتب الشرف، التي يجب أن ترمز في وطنه إلى أنه هو بالذات، رجل بوتين. أي تقريباً، كل ما قُدِّم ليانوكوفيتش، بعد التعديل حسب مقاس أبخازيا. وفي أثناء

استجمامه في شهر آب/أغسطس في مقر إقامته بسوتشي، استقبل بوتين حاجيمبا أمام كاميرات القنوات التلفزيونية، في تلك الأيام ذاتها التي استقبل فيها يانوكوفيتش. كما قدِم إلى سوخومي «الخبراء» الروس (بصورة أساسية من جهاز المخابرات الروسية الاتحادية) الذين كانوا يظهرون على شاشة التلفزيون ويلقون الخطب والكلمات، قائلين إن على أبخازيا أن «تشكر روسيا على دعمها لها، وذلك بتصويتها للمرشح المطلوب. ولكن في الانتخابات التي جرت في 3 تشرين أول/أكتوبر (أي قبل شهر من الجولة الأولى للانتخابات في أوكرانيا) فاز المرشح المعارض، أما مرشح بوتين المفضل من لجنة ك.ج.ب الأبخازية فقد خسر وانهار.

كان من الممكن أن تسامح القيادة الروسية أبخازيا لو لم تأت هزيمة الكرملين على خلفية الرعب الذي أصابها من أوكرانيا. كان من المفروض قمع تمرد الناخبين، لكن مواطني جمهورية أبخازيا غير المعترف بها كانوا حرونين جداً، وكذلك المرشح المعارض سيرغي باغابش، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي الأبخازي ومدير شركة الطاقة في أبخازيا.

وبعد فوزه، قدِم الرئيس المنتخب وصحبه إلى سوتشي لتقديم عصا الطاعة للموظفين الكبار الروس. استقبلهم فلاديسلاف سوركوف - وصرخ عليهم من العتبة. (عموماً، سوركوف كان مسؤولاً عن السياسة الداخلية في الإدارة، لكن أبخازيا لم تكن تعدُّ أبداً دولة أجنبية، على الرغم من أنها كانت تعتبر قانوناً، في العالم كله، جزءاً من جورجيا). لقد أهين باغابش ورفاقه بشدة، لدرجة أنهم استداروا وعادوا أدراجهم إلى سوخومي.

لم يخضع الرئيس المنتخب لضغط جهاز الأمن الاتحادي الروسي ФСБ إلى أن أوقفت روسيا عن أبخازيا الأوكسجين. أي حظرت روسيا استيراد فاكهة اليوسفي من أبخازيا - وهي البضاعة التي كانت تعتاش الجمهورية كلها من بيعها. وعندما وجد الرئيس المنتخب باغابش نفسه محاصراً، تنازل ووافق على حل وسط - وافق على إعادة الانتخابات، واتخذ من رجل بوتين الخاسر، رئيس

إدارة الأمن الأبخازية المحلية، نائباً للرئيس. وبعد تنازله هذا انتخب باغابش من جديد رئيساً. وقد حدث هذا في 12 كانون ثاني/يناير 2005، بعد يوم من الاعتراف بفيكتور يوشنكو رئيساً في كييف.

لكن الثورة الأبخازية لم تكن إشارة التنبيه المقلقة الثانية بل الثالثة، بالنسبة إلى الكرملين. هنا، يتذكر المحللون السياسيون الموسكوفيون أيضاً «ثورة الورود»، التي حدثت قبل عام في جورجيا. وهي الثورة التي عزلت الرئيس الهرم إدوارد شفارنادزه. كانت القوة المحركة الرئيسة لها هي مجموعة (كمارا - يكفي) الشبيبية، وقد أيدت المنظمات الأمريكية غير الحكومية الثوار ودعمتها بشكل نشيط.

على أية حال، لقد أسقط الكرملين الثورة في جورجيا من حسابه - ففي عام 2003 لم ير فيها أي خطر يهدده. وذلك أولاً، كانت روسيا تنزعج كثيراً من إدوار شفارنادزه، الرئيس الجورجي الهرم، وفي السابق كان وزير خارجية الاتحاد السوفييتي والساعد الأيمن لميخائيل غورباتشوف. كانوا يحبون القول في موسكو إن شفارنادزه كان مذنباً، شخصياً، في انهيار الاتحاد السوفييتي، وأنه، حسب زعمهم، وقّع، عمداً، اتفاقيات مجحفة جداً بحقوق روسيا، لأنه لم يكن يعدّها وطنه، وكان يتطلع بظمأ إلى انهيار الإمبراطورية السوفييتية السريع.

في السنوات التسعينيات كانت سياسة شيفارنادزه كلها تُعتبر في موسكو معادية لروسيا، وعلى سبيل المثال، كان شيفارنادزه أحد المؤيدين الرئيسين لبناء خط أنابيب النفط باكو - تبيليسي - جيحان، وهو خط الأنابيب الأول الذي تدفق فيه نفط حوض بحر قزوين إلى الغرب، متجاوزاً روسيا.

كانت علاقات بوتين بشيفارنادزه سيئة للغاية: فقد اتهمه بدعم الإرهابيين الشيشان، وقد قصفت الطائرات الحربية الروسية غير مرة وادي بانكيسي في شمال جورجيا، حيث كانت تختبئ فصائل المقاتلين الشيشان. وكانت جورجيا

في عهد شيفارنادزه البلد الأول الذي فرض عليه بوتين العقوبات - حيث تم فرض نظام الحصول على تأشيرة دخول إلى روسيا للمواطنين الجورجيين، على الرغم من أن جميع مواطني البلدان الأخرى لرابطة الدول المستقلة، كانوا يدخلون روسيا من دون تأشيرات.

في لحظة سقوط شيفارنادزه، لم تُثر «ثورة الورود» عام 2003 أي عداء أو نفور. بل العكس. حتى أن الكرملين ساهم في إسقاط شيفارنادزه.

لسخرية القدر، في يوم السبت بتاريخ 22 تشرين ثاني/نوفمبر 2003، توجه أعضاء مجلس الأمن الروسي بعد اجتماعهم الأسبوعي التقليدي إلى مطعم «غيناتسفالي» الجورجي، الواقع في أغلى منطقة بموسكو، في شارع أوستوجينكي، بالقرب من الكرملين. وكما يصف الصحافي البريطاني آنغوس روكسبورو في كتابه، في أثناء تناول طعام العشاء، أخبروا بوتين، أن إدوارد شيفارنادزه يريد الحديث معه على الخط الهاتفي المغلق.21

في تلك الأثناء بدأت الاضطرابات والفوضى في العاصمة تبليسي. فالانتخابات النيابية التي جرت في 2 تشرين ثاني/نوفمبر فاز فيها حزب المعارضة بزعامة ميخائيل ساكاشفيلي، حسب معطيات استطلاع الرأي، لكن السلطة أعلنت فوزها. وبحلول 22 تشرين ثاني/نوفمبر وصلت المظاهرات والمسيرات الحاشدة المعادية للحكومة إلى ذروتها - فقد اقتحم المتمردون بناء البرلمان، ولم يبق أمام شيفارنادزه سوى طلب المساعدة من عدوه اللدود فلاديمير بوتين.

وعلى الرغم من كراهيتهم لشيفارنادزه، كان جميع أعضاء مجلس الأمن الروسي لا يثقون كثيراً بالمعارضة الجورجية، ولم يرق لهم أفق سقوط السلطة نتيجة ثورة شعبية في إحدى الجمهوريات المجاورة. ولهذا توجه مباشرة من مطعم «غيناتسفالي» إلى المطار، ومن ثم إلى تبليسي إيغور إيفانوف وزير الخارجية الروسي. فهو نفسه أولاً، ولد في جورجيا، وثانياً، كان يعرف

شيفارنادزه شخصياً، من خلال عمله في وزارة الخارجية السوفييتية. وقد كانت هذه زيارة استطلاعية أكثر من كونها مهمة محددة، لأن بوتين لم يكن يدرك جيداً ماذا يحدث في جورجيا ولماذا. لم تكن هناك تعليمات محددة لدى إيفانوف، والأمر المهم - عدم السماح بإراقة الدماء والثورة. ففي المواقف غير الواضحة، كان الكرملين يفضل دوماً دعم الزعيم الموجود على رأس السلطة.

بعد أن وصل بالطائرة إلى تبيليسي، توجه إيفانوف إلى الساحة أمام البرلمان، وتحادث مع زعماء المعارضة، بمن فيهم ميخائيل ساكاشفيلي، والتقى بأصدقائه من سكان تبيليسي، وفي الصباح توجه إلى مقر إقامة شيفارنادزه في ضاحية تبيليسي. وفي هذه الأثناء، اقتنع إيفانوف، أن شيفارنادزه قد فقد هيبته ونفوذه نهائياً. ولو أن بوتين طلب من إيفانوف العمل على وقف الثورة، لحاول ذلك على الأغلب. ولكن، بما أنه لم يكن لديه مثل هذا الطلب، قال الوزير صراحة لشيفارنادزه، إنه لا يثق بمستقبله السياسي وأن عليه أن يبدأ المفاوضات بسرعة. وبعد بضع ساعات، جمع إيفانوف شيفارنادزه مع ثلاثة من زعماء المعارضة برئاسة ساكاشفيلي على طاولة واحدة، وربت على أكتافهم قائلاً: «إن الرئيس بوتين طلب مني المساعدة في اتخاذ قرار سياسي. والآن، مسؤوليتكم إجراء مفاوضات وتجنب إراقة الدماء. وأنا الآن أودعكم».22

ركب إيفانوف الطائرة مباشرة متوجهاً إلى مدينة باتومي، وعرف من هناك أن شيفارنادزه قدّم استقالته. كان الرئيس العجوز ينتظر عبارات دعم واضحة، وعندما لم يسمعها، فسّر إشارة إيفانوف على أنها مطالبة له بالاستسلام للمنتصرين.

في 4 كانون ثاني /يناير جرت في جورجيا انتخابات رئاسية مبكرة. وفاز فيها ميخائيل ساكاشفيلي، الذي توجه بعد شهر من توليه الرئاسة إلى موسكو بأول زيارة يقوم بها إلى الخارج. في أثناء لقائه في الكرملين قال الرئيس الجورجي الجديد بنشوة، إنه يحترم الرئيس بوتين احتراماً كبيراً وإنه يود كثيراً أن يكون شبيهاً به. (بالفعل، بدأ في الأشهر اللاحقة يرتب في جورجيا سلطة عمودية

بوتينية عملياً). كما أكد ساكاشفيلي لبوتين أنه سيسعى إلى تصحيح الأخطاء العديدة التي ارتكبها شيفارنادزه.

وكما يتذكر ساكاشفيلي، رداً على ذلك، ألقى عليه بوتين محاضرة صغيرة حول العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية. وحدثه عن قصة، مفادها أنه كان عليه أن يستقل الطائرة إلى مولدافيا في عام 2003، لحضور توقيع اتفاق التسوية المولدافية – الدنيبروبتروفسكية، حتى أن الطائرة المتقدمة المرافقة قد أقلعت، عندما اتصل به رئيس مولدافيا فلاديمير فورونين. وقال له، حسب زعمه، إنه لن يكون هناك توقيع، لأن «السكرتير الثاني في السفارة الأمريكية حظر عليه التوقيع». كما روى له قصة أخرى - فقد طلب رئيس ليتوانيا من بوتين تخفيض أسعار الغاز، لكن بوتين رفض، لأن الليتوانيين يتصرفون بطريقة سيئة. يقول ساكاشفيلي: «إنها قاعدة بسيطة - لا تكن سيئاً ولا تتصادق مع الأمريكيين».

وافترق بوتين وساكاشفيلي، وهما راضيين، أحدهما عن الآخر، على الرغم من كل شيء: فقد كان الرئيس الجورجي معجباً بزميله الأكبر، والرئيس الروسي كان مقتنعاً أنه وجهه إلى الطريق القويم.

لم تتغير العلاقة مع جورجيا وساكاشفيلي بصورة حادة إلا بعد أن أيد ساكاشفيلي «الثورة البرتقالية» في أوكرانيا. آنذاك، أعاد الكرملين النظر في موقفه من أحداث جورجيا. ولم يستطع المبدع اللاإرادي للثورة الجورجية إيغور إيفانوف المجادلة في هذا – فقد كان قد أقيل في تلك الفترة. ففي ختام فترته الرئاسية الأولى عين فلاديمير بوتين سيرغي لافروف وزيراً للخارجية.

فقط في خريف 2004، توصل فجأة خبراء المؤامرات في موسكو إلى نتيجة مفادها، أنهم لم يقدروا العدو حق التقدير. فالثورات حول حدود روسيا، الجورجية، والأوكرانية وحتى الأبخازية - هي نتيجة مؤامرة معادية لروسيا. علاوة على ذلك، من البدهي، أن لدى حماة «المؤامرات الملونة» فيما وراء

المحيط هدف آخر، هو روسيا. ويجب عدم السماح بقيام «ثورة برتقالية» في روسيا بأي ثمن.

في عام 2005 تعزز الذعر والخوف: فقد حدثت في شهر نيسان/إبريل ثورة في قرغيزيا - بلد صغير في آسيا الوسطى، ومن أشد جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابق فقراً. وقد أطاح المتمردون بالرئيس عسكر آكايف ونهبوا مقر إقامته. وهرب آكايف نفسه إلى موسكو، مؤكداً لمستقبليه، أنه وقع ضحية لمؤامرة أمريكية، ولم يطح به أصحاب المحلات الصغيرة، الذين تعبوا من الابتزاز الدائم.

وقد أكد ممثلو الولايات المتحدة الأمريكية، أنه ليست لهم أية علاقة بالثورة في قرغيزيا -والعكس هو الصحيح، فآكايف كان يناسبهم، لأنه منذ عام 2001 سمح لهم (بموافقة بوتين) بإقامة قاعدة جوية أمريكية في مطار بيشكيك. إلا أن جورج بوش رحب بسرور بحركة الشعب القرغيزي نحو الديمقراطية، وقد اعتبروا في الكرملين هذا الإعلان اعترافاً صريحاً.

لقد كادت ثورة قرغيزيا أن تنتقل إلى أوزبكستان المجاورة، وهي أكبر جمهوريات آسيا الوسطى من حيث الكثافة السكانية. فالجزء الشرقي من هذه الجمهورية واقع في وادي فرغانة، ومفصول عن باقي أوزبكستان بسلسلة جبال، ولا يجمع بينهما سوى مضيق صغير. وتتبع أطراف وادي فرغانة لقرغيزيا، وقد أثّر انتصار الثورة فيها على أمزجة السكان المجاورين، وإثر انتصار الثورة في قرغيزيا، بدأت أعمال التمرد في أوزبكستان. حتى أن أعمال التمرد هذه لم تكن ضد السلطات الأوزبكية - فقد خرج إلى الساحة الرئيسة في مدينة أنديجان أهالي المقاولين الذين أودعوا السجن من أجل انتزاع تجارتهم وأملاكهم. وقد طالبت أسرهم بإطلاق سراح معيليها.

ثم حدثت أعمال استفزازية، وخرجت المدينة كلها إلى الساحة الرئيسة، وحرر المتظاهرون جميع المعتقلين. أما في ليلة 13 أيار/مايو فقد أطلقت الشرطة

النار على المتظاهرين. بدأ إطلاق النار في الساحة الرئيسة - حيث كانت تجتمع الحشود. وقد هرب سكان أنديجان خوفاً من إطلاق النار باتجاه حدود قرغيزيا - وهي تبعد نحو 15 -20 كيلومتر عن المدينة. ولكن في الطريق، كانت تنتظرهم مفارز مسلحة خارج المدينة، وتابعت إطلاق النار على الهاربين. وقد تمكن بضعة آلاف من الهرب ودخلوا أراضي قرغيزيا. فطالبت سلطات أوزبكستان بتسليمهم الهاربين، باعتبارهم إرهابيين، لكن قرغيزيا حولتهم إلى بلدان الاتحاد الأوروبي بصفة لاجئين.

لقد أصبح رئيس أوزبكستان إسلام كريموف، وهو الرجل الأول الذي تمكن من الانتصار على «الثورة الملونة»، بطلاً بالنسبة إلى فلاديمير بوتين. وبعد مرور خمسة أشهر على مذبحة أنديجان، وقعت روسيا وأوزبكستان معاهدة تحالف، تضمن أنه في حال تكرار مثل هذا التهديد لنظام حكم كريموف، ستقدم روسيا مساعدتها العسكرية.

يؤكد اليوم غليب بافلوفسكي، الذي كان آنذاك مستشار إدارة الرئاسة: «حسب قوانين الاضطراب العصبي، انعكست كارثة أوكرانيا بسرعة على جميع الأماكن الأخرى - وانتقلت من موضوع أوكرانيا إلى السياسة الداخلية. وبدأنا نفكر في موضوع واحد، هو أننا غير مهيئين لـ «الثورة الملونة». وأنا لست مستثنى، فأنا كنت أفكر في هذا فقط».

لقد بدأت مرحلة تاريخية جديدة في روسيا في عهد فلاديمير بوتين. فالتكامل مع الغرب، والصداقة مع الزعماء الأوروبيين، والأحاديث حول القيم الأوروبية - كل هذا بدأ يبتعد وينسحب إلى الماضي. وكرملين موسكو، الذي شيد في العصور الوسطى، والذي لم يتعرض لأي حصار طيلة عدة قرون، بدأ يشعر بنفسه أنه قلعة محاصرة. وهذا الذعر بالذات أرغم فلاديمير بوتين على أن يطلب من فلاديسلاف سوركوف تحركات وخطوات سريعة.

إمبراطور العالم العسكري

في 2 تشرين ثاني/نوفمبر 2004 جرت الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد حدثت بعد ثلاثة أيام من الجولة الأولى للانتخابات الرئاسية في أوكرانيا، وقبل 20 يوماً من الجولة الثانية، التي أرست بداية أحداث الانتفاضة في ساحة ميدان بكييف. تم تنظيم حفل استقبال في منزل السفير الأمريكي في موسكو ألكسندر فيرشبوي. وكانت الشاشة التلفزيونية تعرض بثاً مباشراً لقناة س.ن.ن CNN، وقد وُضع في صالة الاستقبال الكبيرة تمثالان كرتونيان لجورج بوش وجون كيري، كان الضيوف يلتقطون الصور بسرور معهما. في تلك الفترة كان يأتي إلى الاستقبالات في السفارة الأمريكية جميع مشاهير موسكو تقريباً، بمن فيهم نواب مجلس الدوما وصحافيو القنوات التلفزيونية الحكومية. ولكن بعد عشر سنوات أصبح الدخول إلى صالة استقبال السفارة الأمريكية عادة ذميمة، ويناوب على مدخل الضيوف مراسلو القنوات التلفزيونية الحكومية ذاتها، متوجهين إليهم بالسؤال التالي: «بِكمْ بِعتُم أنفسكم للأمريكيين؟».

ولكن في 2 تشرين ثاني/نوفمبر عام 2004، كان قد اجتمع في صالة المنزل النخبة السياسية الأرستقراطية كلها، بمن فيهم الذين وصلوا لتوهم من كييف. كانوا يتمشون بزهو في الصالة، مشعين بالثقة الكاملة في أن حملة يانوكوفيتش بقيادتهم المرهفة تسير بخطوات رائعة، وأن الأمور منتهية تقريباً ومرشحهم قد فاز عملياً. كان عالم السياسة فياتشيسلاف نيكونوف، حفيد وزير الخارجية السوفييتية الستاليني الأسبق فياتشيسلاف مولوتوف، وهو الذي سيتزعم بعد بضع سنوات صندوق «السلام الروسي» وسيصبح نائباً في مجلس الدوما، كان يرتشف قدح الويسكي ويمزح معلقاً: أي عدم استقرار هذا في الولايات المتحدة الأمريكية - في يوم الانتخابات ليس من الواضح من سيفوز: بوش أو كيري. أما في أوكرانيا فالوضع مغاير تماماً - مفهوم وواضح مسبقاً، أن يانوكوفيتش، مرشحنا هو من سيفوز.

ولكن سرعان ما ذاب هذا التبجح. وفاز جورج بوش بصورة مقنعة. كان انحياز

الأصوات 51% مقابل 48% لصالح المرشح الجمهوري، لكن فوز بوش أحدث انطباعاً هائلاً في الكرملين. وقد أعيد انتخابه لفترة رئاسية ثانية، وفي الوقت نفسه حصل على سيطرة تامة على مجلسي الكونغرس معاً. أحدث بوش في الكرملين انطباع سيد العالم كله، المطلق، وكانوا يدعونه في الكرملين بـ «الإمبراطور العسكري».

بقي جورج بوش، بالنسبة إلى فلاديمير بوتين، نموذج الرئيس المثالي، فترة طويلة، وبقي يعتبره، حسب رأي غليب بافلوفسكي «الزعيم القوي، الذي حطم القواعد». وكان بوتين ينظر إلى بوش بحسد واحترام، وبخوف في الوقت نفسه.

وفي كانون ثاني/يناير 2005، صرح بوش في خطبة تنصيبه رئيساً للمرة الثانية: «إن سياسة الولايات المتحدة - هي البحث، والدعم لبراعم الحركات والمؤسسات الديمقراطية في كل بلد وفي كل ثقافة. إن مهمتنا الرئيسة - هي القضاء على الاستبداد في العالم كله». و«مبدأ بوش» هذا – هو مقاربة جديدة بالنسبة إلى السياسة الأمريكية، وبه أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية عملياً، شُرطِّياً عالمياً، متسترة بعبارات النضال من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان.

يقول بافلوفسكي: «كان ثمة شعور في الكرملين، أننا سنرى قريباً السيد بوش في موسكو - لقد كان هذا رد فعل خائف، وكان هذا بالطبع، مبالغة مفرطة في تقدير دور وأهمية جورج بوش. كان لدينا شعور كامل بأن بوش لن يغادر الرئاسة أبداً. فقد انتُخب لفترة رئاسية ثانية، وهو الآن إلى الأبد. وقد كان يسيطر مثل هذا الجو في العالم كله، لدرجة أن هذا لم يكن مستغرباً. كنا واثقين بأن علينا أن نتكاتف، ونعزز قوانا، ونشكل مجموعة داعمة يمكنها مجابهة مجموعاتهم الداعمة».

ولكن وحتى في مثل هذا الوضع، كان بوتين لا يزال يأمل إعادة العلاقات

الجيدة مع جورج بوش. كان يروقه تعبير «الإمبراطور العسكري»، وأراد إقامة علاقات شراكة صادقة، ولكن متكافئة حتماً. وانزعج كثيراً عندما لم يردّ بوش بالمعاملة بالمثل. في لقاءاتهما الثنائية، كان الرئيس الأمريكي يؤكد كل مرة، أن كل شيء على ما يرام. ولكن ما إن يفترق الرئيسان، كانت تجري الأمور خلاف ذلك: الثورة في أوكرانيا، إيران، العراق، الاستخبارات الأمريكية في القوقاز، أو خطط الولايات المتحدة الأمريكية لنشر الأسلحة المضادة للصواريخ في أوروبا. ولهذا في لقائهما التالي، وصل بوتين حاملاً مجموعة من الدعاوى والاعتراضات: حتى أنه أعدّ بطاقات خاصة عدد فيها جميع المؤاخذات لجورج بوش. وفي أثناء المحادثات الصريحة الخاصة، كان بوتين يتناول ورقة صغيرة ويبدأ بتوضيح علاقاتهما.

كانت مجموعة حجج بوتين التقليدية تنحصر في أن روسيا في العلاقات الدولية تتنازل دائماً. فقد كان بوتين أول من أيد بوش في حربه على الإرهاب العالمي في عام 2001، وقد أغلقت روسيا في تلك الأثناء قواعدها العسكرية الأجنبية - في فيتنام وكوبا - باعتبارها غير ضرورية. كما ابتلعت روسيا انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من معاهدة الأسلحة المضادة للصواريخ، والموجة الثانية من توسيع حلف الناتو باتجاه الشرق - حيث اقترب الحلف من الحدود الروسية، عندما انضمت إليه في عام 2004 ثلاث جمهوريات سوفييتية سابقة: إستونيا ولاتفيا وليتوانيا.

كان يتوقع بوتين علامات الاحترام رداً على هذه التنازلات - ولكنها لم تصدر عن الولايات المتحدة الأمريكية. ولم تلغ الولايات المتحدة الأمريكية تعديل جيكسون - فينيك، الذي أدخل في عام 1974، الذي يحد من التجارة مع الاتحاد السوفييتي، طالما بقيت موسكو تعيق هجرة اليهود إلى إسرائيل. وما كان يُغضب بوتين، أنه لم يعد هناك وجود للاتحاد السوفييتي، ورحل جميع اليهود منذ فترة طويلة، حتى أن بعضهم عاد من جديد إلى روسيا، ولم يُلغ هذا التعديل.

أما الاعتراضات التالية فكانت عدم رغبة بوش تصديق معاهدة القوات المسلحة العادية (غير النووية) في أوروبا، والسعي إلى نشر الأسلحة المضادة للصواريخ في أوروبا (الموجهة ضد إيران حسب الزعم الأمريكي)، وأخيراً احتمال ضم أعضاء جدد إلى حلف الناتو من بين الجمهوريات السوفييتية السابقة - جورجيا وأوكرانيا في هذه المرة. وبدلاً من عبارات الشكر على التعاون، لا يسمع بوتين من بوش إلا الملامة والمؤاخذة: بسبب حرية التعبير، وقضية يوكوس ЮКОС، والشيشان وما شابه ذلك.

لقد أصغى بوش بصبر واهتمام، لكن مستشاريه استاؤوا. كانوا مقتنعين بأنه لا يحق لبوتين التدخل في شؤون الدول الأخرى، مثل أوكرانيا أو جورجيا - والأفضل له أن يهتم بشؤون بلده الداخلية. ولم تشارك حاشية بوش تعاطف رئيسها مع بوتين.

60 عاماً من دون حرب

يروي غليب بافلوفسكي، أنه حتى عام 2005 تقريباً، كانوا في الكرملين يتابعون بصورة جادة الأمل في أن يدعوهم للدخول في حلف الناتو. وكانوا يتناقشون في أي وضع يمكنهم قبول الدعوة.

قبل انتخابه رئيساً في شباط/فبراير عام 2000، وفي أثناء لقائه الأول مع جورج روبرتسون الأمين العام لحلف الناتو، سأله بوتين: متى يخطط الحلف لدعوة روسيا للانتساب إليه. لم يكن روبرتسون مستعداً أبداً لهذا المنعطف وأجابه، ثمة إجراء - كل بلد يريد الانضمام، عليه أن يتقدم بطلب. شعر بوتين بالإحباط. كان مقتنعاً بأن روسيا يجب ألا تتقدم بطلب وتقف في الدور - بل بالعكس، على حلف الناتو أن يرجو روسيا الانضمام إليه.

كان مجلس روسيا - حلف الناتو قد تأسس منذ عام 2002، وقد أحدثه رئيس الوزراء الإيطالي سيلفيو برلسكوني، كمرتبة انتقالية سابقة لانضمام روسيا الكامل إلى حلف شمال الأطلسي. حتى أن برلسكوني، من أجل تحقيق هذه

الفكرة، نظّم مؤتمر قمة فاخراً في روما. ومنذ تلك الأثناء، حصل مندوب روسيا على مقعده على طاولة واحدة مع بقية أعضاء الحلف. وفي اللقاءات والاجتماعات المغلقة، كانت تُبحث باستمرار مسألة كيف يمكن التغلب على العقبة الأخيرة، وما هي الشروط الواجب تنفيذها، كي يتمكن حلف الناتو، من دون خوف، من إدخال روسيا في قوامه، وكي تشعر روسيا بأنها موضع احترام وتقدير كما تستحق.

لقد أصبح انضمام بلدان أوروبا الشرقية، بما فيها جمهوريات البلطيق، إلى حلف الناتو، دون إخبار بوتين، المشكلة الجدية الأولى. وأصبحت «الثورات الملونة» المشكلة الثانية. وبعد إعلان مبدأ بوش وتحويل الكرملين إلى قلعة محاصرة، وضع الكرملين إشارة ضرب على هذه الآمال.

في نيسان /إبريل 2005 ألقى بوتين خطاباً تقليدياً في مجلس الاتحاد - كان هذا خطاباً رمزياً. وقد ورد في بداية الخطاب العبارة التالية الأكثر سطوعاً، والتي تناقلتها جميع وسائل الإعلام الجماهيرية العالمية: «لقد أصبح انهيار الاتحاد السوفييتي كارثة العصر الجيوسياسية الأكبر». وعموماً، لم يحوِ الخطاب أي شيء آخر عن نزعة الثأر والحنين إلى الماضي. بل على العكس، تحدث بوتين في خطابه (واضح، إنه إثر منظِّر الكرملين الرئيس الذي أعد الخطاب) عن أن روسيا بلد أوروبي، والقيم الأوروبية بالنسبة إليها «هي مَعْلم القيم المحدد»، وأن روسيا طيلة ثلاثة قرون «سارت جنباً إلى جنب مع الأمم الأوروبية»، بما في ذلك في النضال من أجل حقوق الإنسان. علاوة على ذلك، خاطب بوتين الموظفين والنواب المملولين والضجرين قائلاً: «ليس في نيتنا تسليم البلاد إلى أيدي البيروقراطية الفاسدة غير الفاعلة»، بل «تمارس بلادنا حواراً مسؤولاً مع المجتمع، سياسياً ومناسباً».

وأوضح قائلاً: «إن قيم الديمقراطية، بالنسبة إلى روسيا المعاصرة، ليست أقل أهمية من سعيها إلى النجاح الاقتصادي أو الرفاهية الاجتماعية للمواطنين». وأضاف: «إن قيمنا تحدد أيضاً سعينا إلى نمو استقلالية الدولة الروسية وتعزيز

سيادتها». وبعد الملاحظة الثانية بالذات اندفع الموظفون الضجرون في القاعة بعاصفة حادة من التصفيق.23

وأنهى بوتين خطابه بالحديث عن ذكرى الحرب الوطنية العظمى - حيث حلت بعد شهر، في أيار/مايو 2005، الذكرى السنوية الستينية للنصر. لكن جميع أقوال بوتين كانت متواضعة للغاية وليست أبداً شوفينية متطرفة:

«لقد تم تحقيق النصر ليس بقوة السلاح وحده، بل بقوة روح جميع الشعوب المتحدة في تلك الفترة في دولة اتحادية. إن روسيا المرتبطة مع جمهوريات الاتحاد السوفييتي السابقة، بوحدة المصير التاريخي، وباللغة الروسية، وبالثقافة العظيمة، لا يمكنها أن تبقى جانباً وبعيداً عن السعي المشترك نحو الحرية.

ومع دفاعنا عن المصالح السياسية الخارجية الروسية، نهتم بتطوير الاقتصاد وتعزيز الهيبة العالمية للدول المجاورة لنا، ونحن مهتمون في تزامن آليات ومقاييس المسارات الإصلاحية في روسيا وفي دول الرابطة ومستعدون للأخذ بالتجربة المفيدة حقاً لجيراننا، وكذلك لمشاركتهم في أفكارنا ونتائج أعمالنا».

لم يقم بوتين بأية مماثلة بين الحرب الوطنية العظمى والعصر الراهن - فهي، بصورة غريبة، لم تخطر في ذهنه، ولا في ذهن فلاديسلاف سوركوف.

كانت الذكرى الستينية للنصر امتحاناً مهماً لبوتين. فقد بقي التاسع من أيار/مايو العيد السوفييتي الوحيد الذي لم يندثر في روسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي (مثل الأعياد الرئيسة في الاتحاد السوفييتي - الأول من أيار/مايو عيد العمال، أو 7 تشرين ثاني/نوفمبر عيد الثورة) فحسب، بل بالعكس، اكتسب صفة العيد «المقدس». علاوة على ذلك، كان هذا العيد يرمز إلى الدور الحاسم للاتحاد السوفييتي في الانتصار على الفاشية، ما يعني الاحترام الذي يجب أن تبديه جميع بلدان العالم تجاه روسيا. (حتى أن الدعاية الرسمية الحكومية

اخترعت شعاراً لهذا العيد: «تذكروا أننا أنقذنا العالم».) وقد كان هذا بالنسبة إلى بوتين مهماً جداً ومناسباً؛ كان في حاجة إلى أن يبدي شركاؤه الأجانب الحد الأقصى من الاحترام نحوه ونحو روسيا ككل.

أمام أعيننا مثال بوريس يلتسين الذي حدث قبل عشر سنوات: في عام 1995 كانت روسيا تمر بفترة عصيبة قاسية، لكن تم الاحتفال بالذكرى السنوية الخمسينية ليوم النصر على الفاشية بشكل غير عادي. فقد شُيِّد خصيصاً من أجل هذه الذكرى نصب تذكاري في موسكو - تل بوكلونّايا، حيث جرت الاحتفالات الرئيسة (بما فيها عرض التقنيات العسكرية). أما في مكان الاحتفالات التقليدي، في الساحة الحمراء، فلم يجر فيها إلا القسم الأول «التاريخي» من الاحتفالات: سارت صفوف المحاربين القدماء (الذين بقي منهم أعداد كبيرة أحياء في تلك الفترة). وقد حضر، كضيوف شرف إلى موسكو في 9 أيار/مايو جميع زعماء بلدان رابطة الدول المستقلة وجميع زعماء الدول «السبع العظام» تقريباً، بمن فيهم بيل كلينتون وجون ميجور، والرئيس الصيني تسزيان زيميبن، والأمين العام للأمم المتحدة بطرس غالي.

قرر بوتين عدم تشييد أي شيء خصيصاً للذكرى الستينية، بل التركيز على الاحتفالات في الساحة الحمراء. ولم تكن هناك أية تقنيات حربية حديثة - حضر فقط المحاربون القدماء، 2500 محارب عبروا الساحة على ظهر شاحنات عسكرية، ومثل هذا العدد تقريباً كان على المدرجات.

أمـا مـا يتعلق بضيوف الشرف، فقد تـم من هذه الناحيـة تحقيق الهدف، وتجاوزت أعدادهم أعداد ضيوف عام 1995. وقد حضر إلى موسكو أكثر من خمسين رئيساً ورئيس وزراء ومستشاراً، حالياً وسابقاً، كما حضر الأمين العام للأمم المتحدة، والمدير العام لمنظمة اليونسكو. وحضر جميع الضيوف الأجانب تقريباً الذين كان عليهم الحضور لإظهار احترامهم: جميع قادة الدول «الثماني العظمى» باستثناء توني بلير. فالصديق السابق الأقرب لبوتين، توني بلير، لم يستطع الحضور بعد فضيحة «الحجر التجسسي» قريبة العهد، وبعد الإهانة

العلنية للدبلوماسيين البريطانيين على شاشة التلفزيون الروسي.

كان بوش يتصرف، كما أراد له بوتين: جلس على المدرج على مقربة منه، وقف عند عزف النشيد الروسي، ذرفت الدموع من عينيه عند رؤيته للمحاربين القدماء، نطق بكلمات مؤثرة عن مساهمة الشعب الروسي الكبيرة في النصر المشترك على الفاشية. لكن الانطباع عنه كان سيئاً على أية حال. وليست المسألة عائدة فقط إلى أنه عشية 9 أيار/مايو قدمت مجموعة من نواب الكونغرس مشروع قانون حول استبعاد روسيا من «الدول الثماني العظمى» بسبب خرقها لحقوق الإنسان. فقد اعتادوا في الكرملين عدم الاستجابة لمثل هذه الهجمات. فقد أزعجه «الصديق جورج» نفسه.

في طريقه إلى موسكو، قرر بوش أن يعرِّج ليومين إلى ريغا عاصمة لاتفيا، كما أنه صرح هناك في حديث تلفزيوني، أنه ينوي أن يطرح على بوتين مسألة الاعتراف بواقع احتلال روسيا لبلدان البلطيق. ومن موسكو، توجه إلى تبليسي (حتى أنه غاب عن حفل العشاء الرسمي في الكرملين)، حيث كان ينتظره استقبال تاريخي حقيقي. ففي الساحة الرئيسة للعاصمة الجورجية استقبله 150 ألفاً من مواطني جورجيا ملوحين بالأعلام الأمريكية - مثل هذا الاستقبال كان يطمح الرئيس الأمريكي أن يراه في العراق، لكن هذا لم يحصل. وفي كلمته التي ألقاها في الحشد دعا «ثورة الورود» بانتصارٍ للديمقراطية، وسمى جورجيا بـ «منارة الحرية» في فضاء ما بعد الاتحاد السوفييتي وفي العالم كله. وبعد انتهاء زيارة بوش أطلق الرئيس الجورجي ميخائيل ساكاشفيلي على الشارع الذي سار فيه موكب الرئيس الأمريكي من المطار إلى الساحة، اسم شارع جورج بوش.

إن هذا كله أثبت ادعاءات بوتين الأبدية التي يوجهها إلى الأمريكيين: إنهم مراؤون بشكل دائم، يقولون لك في وجهك شيئاً، ومن خلفك شيئاً آخر. وقد سقطت الأقنعة بصورة نهائية بعد عام، حيث توجه نائب الرئيس الأمريكي ديك تشيني إلى فيلنيوس عاصمة ليتوانيا كي يلقي فيها خطاباً ممنهجاً حول

الديمقراطية ورفض الاستبداد الروسي. ومنها توجه إلى كازاخستان ليجري محادثات مع الرئيس الكازاخستاني الاستبدادي نور سلطان نزاربايف، الذي كان قد أمضى على رأس السلطة في بلده آنذاك 16 عاماً، حول التعاون المتبادل المقبل بين بلديهما في مجال النفط. لقد أزعج بوتين هذا وأضحكه في الوقت نفسه، ورد على أصدقاء الأمس الأمريكيين بعد أسبوع قائلاً: «الرفيق الذئب يعرف مَن يأكل. يأكله، ولا يصغِ إلى أحد».

الديمقراطية السيادية

في نضاله ضد «الثورة الملونة» المتخيلة، كان يضع سوركوف وفريقه في أذهانهم تاريخاً محدداً يمكن أن تحدث فيه هذه الثورة، وهو عام 2008. عام انتهاء الفترة الرئاسية الثانية لفلاديمير بوتين.

وقد قال سوركوف في اجتماع حزبي في مدينة كراسنويارسك: «في عام 2008 إما أن نحافظ على سيادتنا، وإما ستكون لدينا إدارة خارجية». وأضاف سوركوف، مثيراً الخوف والقلق: «نحن سنكون مع حزب «روسيا الموحدة»، نرجوك أن تبقى معنا، لأنه سيكون هناك صراع عندنا، أشد مما حدث في عام 1993». في عام 1993 جرت في موسكو حرب أهلية حقيقية وقصفت الدبابات البرلمان. لم يكن يدرك الجمهور بشكل جيد ما قصده، لكنه كان يشعر بأن الوضع جدي وخطير.

وفقاً للدستور، لا يحق لبوتين أن يترشح للرئاسة لفترة رئاسية ثالثة. وهذا يعني أنه تنكشف أمامه عدة طرق. وبادئ ذي بدء، عليه أن يقرر، هل ينوي البقاء في منصبه لفترة ثالثة. فعلى هذا النحو فعل عديد من زملائه، رؤساء بلدان «رابطة الدول المستقلة».

على سبيل المثال، ألكسندر لوكاشنكو: عدّل رئيس بيلاروسيا (انتخب للمرة الأولى عام 1994) الدستور، ولهذا، واعتباراً من عام 2001 بدأت الفترة الثانية من فترات رئاسته المتعددة. وفي عام 2004، أجرى استفتاءً ألغى بموجبه

تقييد عدد الفترات الرئاسية. وفي عام 2006 انتخب لفترة رئاسية ثالثة، وفي عام 2010 انتخب لفترة رئاسية رابعة.

وتصرف رئيسا كازاخستان وأوزبكستان نور سلطان نزاربايف وإسلام كريموف بطريقة مشابهة: كان نزاربايف يجري بصورة منتظمة تعديلات دستورية، تمدد فترات رئاسته، أما كريموف فمنذ أواسط العقد الأول من القرن الحادي والعشرين لم يعد، ببساطة، يلتفت إلى القيود الدستورية، حتى أنه لم يكلف نفسه عناء تفسير سبب تمديد رئاسته وصلاحياته الرئاسية.

وعلى الرغم من هذا العدد الكبير من الأمثلة القريبة منه، لم ينو بوتين أبداً أن يكون «آخر ديكتاتور في أوروبا» ثانياً، بعد لوكاشنكو، كما كانت تدعوه الصحافة. وبصفته حقوقياً، كان يهمه جداً أن تبدو جميع خطواته وأفعاله سليمة من الناحية القانونية. وعلى الرغم من أن الحاشية المقربة منه والمحيطة به كانت تقترح عليه من فترة لأخرى أن يفكر في الفترة الرئاسية الثالثة، إلا أن بوتين كان صلباً في رأيه، بأنه لا يجدر به الإقدام على ذلك.

في الفترة المتبقية من رئاسته حتى الانتخابات الرئاسية المقبلة، كان على بوتين أن يحدد رأيه في سيناريو تسليم السلطة. كان سوركوف يصيغ هذه السيناريوهات ويقدمها لرئيسه. وكان الأخير يحللها ويدرسها، ولا يصرح بأي منها يبدو له الأنسب. كان بوتين يتمهل في اتخاذ القرار.

كان الشرط الإلزامي الضروري لتسليم هادئ للسلطة وجود برلمان مطيع، لا يؤيد، عندما يلزم الأمر، «الثورة الملونة». ومن أجل هذا الغرض، قام سوركوف، أولاً، بتغيير النظام الانتخابي بصورة جذرية، وأسّس، ثانياً، حزباً حاكماً يمكنه أن يحل «مشكلة 2008» - هكذا كانوا يدعون في الكرملين الانتخابات الرئاسية المقبلة.

لقد أصبح تعديل النظام الانتخابي أهم عنصر في «الديمقراطية السيادية». فأولاً، حدث تقليص كبير لأعداد الأحزاب وتشديد قواعد التسجيل - فمن حيث

الجوهر، كان من غير الممكن أن تحصل على إمكانية الدخول إلى الانتخابات والمشاركة فيها، إلا الأحزاب الصنيعة، الممالئة، التي توافق عليها إدارة الرئيس. وثانياً، تم اتخاذ قرار بأن الانتخابات البرلمانية، اعتباراً من الآن، ستجري ليس وفق نظام مختلط (النصف حسب النظام النسبي، والنصف الآخر - حسب نظام الأغلبية، أي حسب الدوائر ذات المقعد الواحد) بل حصراً، حسب القوائم الحزبية. وبعبارة أخرى، لا يحق للمرشحين المستقلين، غير الأعضاء في أحد الأحزاب المسجلة الرسمية، الترشح لشغل مقعد في البرلمان بعد الآن. وهذا ما أبعد عن المشاركة في الانتخابات المرشحين غير المتوافقين مع الكرملين.

كان النظام الانتخابي الجديد يناسب أكثر ما يناسب «روسيا الموحدة» - وهو الحزب الحاكم الجديد، الذي صنعه سوركوف وشكله من حزبين متعاديين سابقاً: حزب «الوحدة» الموالي لبوتين وحزب بريماكوف - لوجكوف «الوطن - روسيا كلها». لقد بدأ سوركوف التحضير للانتخابات المقبلة منذ شهر نيسان/ إبريل عام 2005. وقد تبين أن تحويل الحزب الحاكم «روسيا الموحدة» من تجمع للبيروقراطيين المجردين من الأفكار الأيديولوجية إلى حزب أكثر أيديولوجية وذي معنى، أكثر بصعوبة بكثير من بناء منظمة شبيبة معادية للثورة من الصفر.

قرر سوركوف أن من الضروري أن يجتذب إلى الحزب أكبر عدد ممكن من الشخصيات البارزة، كما يجب، علاوة على ذلك، تشجيع الحوار الحزبي الداخلي. كي يجري المسار السياسي ليس في الصراع بين الأحزاب، بل داخل الحزب الحاكم - تقريباً على الطريقة نفسها التي كانت تجري فيها الحياة السياسية طيلة عدة عقود في اليابان، حيث كانت تجري المعارك السياسية داخل الحزب الليبيرالي - الديمقراطي.

ومن أجل هذا الغرض، شكل سوركوف داخل الحزب جناحين: جناح ليبيرالي وآخر محافظ. كما أجرى عملية تطهير واسعة في قيادة الحزب. وأبعد من الهيئات القيادية في الحزب كبار السن، ضعيفي الفاعلية، من العاملين السابقين

في الأجهزة الأمنية، من معارف بوتين القدماء. وعين بدلاً منهم في الوظائف المهمة المفتاحية النفعيين الطموحين المحترفين الذين اختارهم بنفسه. وكان عليهم أن يجعلوا من الحزب أكثر طواعية وانصياعاً، لهم بالطبع. وعين سوركوف في منصب أمين رئاسة الهيئة العامة للحزب فياتشيسلاف فولودين، الذي كان آنذاك يشغل منصب نائب الناطق الرسمي لمجلس الدوما، وكان سابقاً رئيس جناح بريماكوف في حزب «الوطن – روسيا كلها».

وعند استلامه لمنصب القائد الجديد للحزب، أعلن فولودين عدة مبادئ ينوي التمسك بها في عمله. ومنها: «أعضاء حزب «روسيا الموحدة» أنصار للقيم الأوروبية»، و«إضفاء الطابع الليبيرالي على الحزب»، و«تطوير الحوار الحزبي»، و«العمل التوضيحي الواسع بين المواطنين»، و«المكافحة الشديدة للمعارضين الذين عليهم التوقف عن خداع المواطنين». وهي أطروحات تتوافق تماماً مع نهج سوركوف وروحه.

ومن سخرية القدر، أن فولودين بالذات بعد ست سنوات انقلب على معلمه وحلّ مكانه. ومن تلك الأطروحات، بحلول تلك الفترة، لم يحافظ سوى على الأطروحة الأخيرة: المكافحة الشديدة للمعارضين. وقد تعامل بصورة إبداعية مع تركة سوركوف الأيديولوجية: فارتقى بالصراع ضد العدو الخارجي (باعتباره أسلوباً فاعلاً وشعبياً جداً لحشد القوى) إلى مرتبة القيمة المطلقة، أما بالنسبة إلى بذور الحوار الحزبي الداخلي فقد قضى عليها نهائياً. وعلاوة على ذلك، سيطور لاحقاً أفكار سوركوف: فكل ما جرَّبه سوركوف في منظمة «جماعتنا» سيستخدمه فولودين لاحقاً على المستوى الوطني.

الفصل السابع : إيغور شوفالوف، مساعد الرئيس، يبتكر طريقة لجعل روسيا إمبراطورية

من يرى إيغور شوفالوف يترك في نفسه انطباعاً بأنه أمام «الكونت» شوفالوف. فبين موظفي بوتين الكبار يتميز شوفالوف إلى حد كبير عن الجميع - وكأنه

أعلى منهم قليلاً، وخارج عنهم قليلاً، ومع بقائه مخلصاً إلى أقصى الحدود لرئيسه، يبدو وكأنه رجل ذو رسالة خاصة. يبدو وكأنه يشعر بنفسه أنه جزء عضوي من السلطة. ويمكنه أن يشغل هذا المنصب (سواء كان في البيت الأبيض الروسي، أو في أي مكان آخر)، قبل مئة عام، وبعد مئة عام. وكأنه ليس لدى شوفالوف أي فارق، من الناحية المعنوية، مهما كان ما يفعله النظام، فهو يمكنه الدفاع عن قناعاته. إنه لم يختر لنفسه أن يكون مشيراً لبوتين أو لا يكون - فهذا مصيره.

عندما يتذكر في حديثه الإمبراطورة يكاترينا الثانية أو الإمبراطور ألكسندر الثاني، فإنه يفعل ذلك بصورة عملية وعفوية، وكأنه يتحدث عن زملائه أو سابقيه المقربين الذين غادروا في الأمس دفة السلطة، كي يتنازلوا له عنها. بالمناسبة، هو يعترض بشدة، عندما أسميه موظفاً، فيقول: «أنا لست موظفاً، أنا شخصية سياسية».

ثمة نكتة رائجة بين الصحافيين، تقول، إن شوفالوف مع سيتشين يشكلان زوجاً «ملاك – شيطان» يجلس على كتفي بوتين: وكأن إيغور إيفانوفيتش شوفالوف يقدم نصائح جيدة، وإيغور إيفانوفيتش سيتشين يقدم نصائح سيئة. وثمة نكتة أخرى. وكأن بوتين طلب سكرتيره ذات يوم أن يوصله هاتفياً بإيغور إيفانوفيتش. فاستفسر السكرتير: «بشوفالوف؟»، أجاب بوتين: «لا، بالحقيقي».

بهذا الصدد، من حيث هو الكونت شوفالوف، هذا غير حقيقي بالتأكيد - فجميع أحفاد أسرته التي كانت في السلطة، بدءاً بالإمبراطورة إليزافيتا بتروفنا، هاجروا من روسيا بعد ثورة 1917. هو يحمل الكنية نفسها من دون قرابة تربطه بهم.

دولة الطاقة العظمى

في آب/أغسطس 2005 حل ضيفاً على فلاديمير بوتين في مقر إقامته في

سوتشي صديق جديد - سيلفيو برلسكوني. عرّف الرئيس الروسي ضيفه رئيس وزراء إيطاليا إلى حيواناته الأليفة: الكلب «كوني» من نوع لابرادور، والمهر «فاديك». تحدثا طويلاً عن الاستثمارات الإيطالية في روسيا. كما تحدثا عن أن روسيا ستحاول دعم سعي إيطاليا إلى أن تصبح عضواً دائماً في مجلس الأمن الدولي، ولكن بما أن هذا، موضوعياً، بعيد الاحتمال، فإنها ستعيق منح هذا الوضع لألمانيا. كان يروق بوتين جداً التواصل مع برلسكوني - منذ أن فقد الأمل من بوش، أصبح رئيس الوزراء الإيطالي بالذات النموذج القيادي الأفضل. فهذا السياسي ورجل الأعمال برلسكوني، الذي يستخدم الاقتصاد كأداة للفوز في الانتخابات، ويستخدم السياسة كأداة للإثراء، كان بالنسبة إلى بوتين، الزميل الأكثر ملائمة وراحة – فهو لم ينتقده أبداً ولم يتسقط أخطائه.

في نهاية الجلسة، حدّث بوتين صديقه سيلفيو عن الموضوع الذي سيكون أساسياً في لقاء قمة الدول العظمى الثماني المقبل الذي سيعقد بعد عام في بطرسبورغ كما هو مقرر. وروسيا، باعتبارها الدولة المضيفة، يحق لها أن تقترح جدول أعمال القمة - وقد نوت أن تجعل من أمن الطاقة الموضوع المفتاحي الرئيس. وهز برلسكوني رأسه موافقاً، فقد كان دوماً يستطيع إيجاد لغة مشتركة مع روسيا في مسائل الطاقة: وبعد تعارفه مع بوتين اتفق برلسكوني معه على أن تزود شركة «غازبروم» الروسية شركة ENI الإيطالية بالغاز بسعر مخفّض، مقابل الصداقة والدعم السياسي.

إن إيغور شوفالوف المساعد الاقتصادي الرئيس الجديد لبوتين هو من ابتكر فكرة جعل «أمن الطاقة» الموضوع الرئيس لقمة الدول الثماني. فهذا الحقوقي البارز ذو الخبرة الكبيرة في العمل مع الشركات، كان قد عمل بصورة متتالية لدى جميع الأوليغارشيين الروس عملياً، وأصبح مليونيراً، وكان غالباً أغنى موظف كبير في إدارة الرئيس. وفي كانون ثاني/يناير عام 2005 عينه بوتين مندوبه وممثله في اجتماع قمة الدول العظمى وكلفه بتحضير أول قمة عظمى لروسيا على أرضها. وفي الوقت نفسه، شرع شوفالوف بوضع أيديولوجية

سياسية خارجية روسية جديدة. وإذا ما كان فلاديسلاف سوركوف داخل روسيا يصيغ «الديمقراطية السيادية» ويتهيأ للدفاع ومواجهة «الثورات الملونة»، ففي السياسة الخارجية اقترح شوفالوف على بوتين أن يشغل موقعاً هجومياً أكثر.

وقد دُعيت الاستراتيجية الجديدة باسم «دولة الطاقة العظمى». وفي مؤتمر القمة المقبل، كان على روسيا أن تقترح على البلدان الأوروبية اتفاقاً: تأخذ روسيا على عاتقها الاهتمام بأمن الدول الأوروبية من حيث الطاقة، وتزويد كل بيت أوروبي بناقلات الطاقة - وهي تسدد مقابل هذا بالصداقة، والتفهم، والتأييد، على طريقة سيلفيو برلسكوني. أعجب بوتين بهذه الفكرة إعجاباً شديداً - فهي تسمح بإدخال مقاربة جديدة أكثر براغماتية في العلاقات مع أوروبا. فهو لم يعد يرغب في الحديث مع الزعماء الأوروبيين حول حقوق الإنسان، وحول الشيشان أو حرية التعبير، فقد ملّ من سماع النقد - وقد رأى في نقل الحديث إلى ساحة الاقتصاد والمصلحة التجارية الأسلوب الوحيد لوضع حد لهذه الانتقادات.

عين بوتين شوفالوف المفاوض الاقتصادي الرئيس: وأخذ يمثل روسيا في قمة الدول العظمى الثماني، وفي منظمة التجارة العالمية، وأخذ يسافر إلى دافوس ويجري مباحثات مع الاتحاد الأوروبي. وكان هدف استراتيجيته تحويل النفط والغاز الروسيين إلى نفوذ سياسي، ومن حيث الجوهر، أن يجعل من بوتين إمبراطور النفط والغاز في أوروبا.

حلف بوتين – شرودر

بعد أسبوع من لقائه مع برلسكوني في سوتشي، كان على الرئيس الروسي أن يستقل الطائرة بسرعة متوجهاً إلى برلين. فقد كانت لدى زميل آخر له، وهو مستشار ألمانيا غيرهارد شرودر، مشاكل جدية في الانتخابات البرلمانية. فقد كان حزبه يتراجع، حسب استطلاعات الرأي، بصورة خطيرة أمام خصميه

المتحالفين – الاتحاد المسيحي الديمقراطي والاتحاد المسيحي الاجتماعي CDU/CSU. - وقبل ذلك بثلاث سنوات، كان بوتين قد ساعد شرودر ذات مرة حيث كان من المتوقع أن يخسر شرودر في الانتخابات، ولكن فاز بمعجزة، عندما دخل في تحالف معاد للحرب مع رئيسي روسيا وفرنسا. فقد وقفوا ثلاثتهم ضد الحرب في العراق، وهذه الحركة السلمية أمّنت لشرودر الفوز في الانتخابات. في هذه المرة الآن، حمل بوتين معه هدية أخرى لشرودر: فقد اتفقت شركة «غازبروم» الروسية والاتحادان الاحتكاريان الألمانيان E.ON وBASF على بناء خط لنقل الغاز في قاع بحر البلطيق. وفي 8 أيلول/سبتمبر - قبل عشرة أيام من الانتخابات في ألمانيا - وبحضور بوتين وشرودر وقع رؤساء الشركات هذه الاتفاقية. لقد كان هذا العقد المفيد للتجارة الألمانية نقلة جيدة جداً قبيل الانتخابات، لكنه لم يقدم العون المطلوب لشرودر. فقد خسر بفارق ضئيل أمام زعيمة المعارضة أنجيلا ميركل.

كان رد الفعل على الاتفاقية الروسية الألمانية متباينة. فمن ناحية، عبر زعماء بولندا ودول البلطيق وأوكرانيا وبيلاروسيا عن سخطهم. ودعا ألكسندر كفاسنيفسكي رئيس بولندا هذه الاتفاقية بـ «حلف بوتين - شرودر»، ملمحاً لحلف مولوتوف - ريبنتروب********. وقال ألكسندر لوكاشنكو الرئيس البيلاروسي، إن هذا «أسخف مشروع تقوم به روسيا». وقال رؤساء وزراء دول البلطيق، إن بناء الأنابيب في قاع بحر البلطيق سينقلب إلى كارثة بيئية. ورد الفعل هذا ليس مستغرباً: فأنبوب الغاز هذا يجب أن يلتف على جميع هذه البلدان ويتجاوزها. وكان لوكاشنكو وكفاسنيفسكي يأملان بأنه بدلاً من هذا الخط من الأنابيب، تشيد روسيا خطاً آخر من أنابيب الغاز يامال - أوروبا يمر بالذات عبر بيلاروسيا وبولندا. ولكن لم تكن لدى بوتين أية رغبة في تقديم هذه الهدية لهما. فقد كان يذكر جيداً أن كفاسنيفسكي والرئيس الليتواني فالداس آدامكوس بالذات قد انضما إلى المفاوضات في ذروة «الثورة البرتقالية»، وهما بالذات بذلا كل جهد ممكن من أجل فوز فيكتور يوشنكو.

لكن أوروبا الغربية نظرت إلى هذه الاتفاقية بطريقة مغايرة تماماً. بعد توقيع العقد في برلين، توجه بوتين إلى لندن لحضور قمة «روسيا - الاتحاد الأوروبي»، وصفقت له الصحافة الأوروبية. وعندما تحدث بوتين عن أمن الطاقة واستعداد روسيا لتأمين الوقود لأوروبا، أصغوا إليه بوقار ووافقوا بسرور. وكان بوتين ينظر بشماتة خاصة إلى صديقه السابق توني بلير - فمعه بالذات كان بوتين قبل أربع سنوات قد بدأ مشروع هذا الخط من أنابيب الغاز، حيث خُطط له آنذاك كخط روسي - بريطاني. لكن بوتين قرر الآن عدم التعامل مع الإنكليز، وفضل الألمان عليهم.

وترجع هذه الضجة الخاصة، بخصوص خط أنابيب الغاز، إلى أن أوروبا، بحلول عام 2010، كان ينتظرها نقص في الغاز - فقد بدأت احتياطاته في بحر الشمال تنفد، وتناقص استخراجه في بريطانيا وفي النرويج. وسرعان ما أقرت اللجنة الأوروبية هذا المشروع، وعبرت بلجيكا وبريطانيا العظمى وهولندا عن رغبتها في المشاركة فيه. وأعلنت الحكومات الأوروبية عن استعدادها للسماح لشركة «غازبروم» بتوزيع الغاز في بلدانها. واقترحت الشركة الهولندية Gasunie بناء تكملة لهذا الأنبوب من ألمانيا إلى هولندا ثم بريطانيا. واتفقت شركة «غازبروم» على بناء مستودع ضخم للغاز في بلجيكا. حتى أنه وضعت مخططات لبناء أنابيب فرعية من الخط إلى السويد وفنلندا. وكان هذا يعني أنه خلال خمس سنوات سيكون لدى شركة «غازبروم» أكبر منظومة لنقل الغاز في أوروبا الغربية والشمالية.

الأممية الماجنة

بعد انتهاء الانتخابات البرلمانية في ألمانيا، ومن دون انتظار تشكيل التحالف، توجه شرودر إلى بطرسبورغ لحضور عيد ميلاد فلاديمير بوتين. وقد قال بوتين للصحافيين فرحاً: «إن أفضل هدية بالنسبة إليَّ، عندما يحل المستشار ضيفاً عندي». على أية حال، سرعان ما تبين أن شرودر لم يأتِ إلى بطرسبورغ من أجل المناسبة، بل قدِم ليجد فرصة عمل. وما إن انتهت المباحثات في

برلين، بخصوص تشكيل حكومة جديدة، وخسر المستشار السابق جميع الفرص للنضال من أجل السلطة، تم الإعلان عن أنه سيرأس لجنة المساهمين في شركة الشركة المنفذة لخط North European Gaz Pipeline Company (NEGPC)، الأنابيب المزمع بناؤه.

لقد صدم هذا الخبر كثيراً من الناخبين الألمان، لكنه لم يدهش شرودر. فقبل هذا كان ضيفاً كثير التردد على بطرسبورغ، وعلى سبيل المثال، في عام 2004 تبنّى المستشار الألماني وزوجته دوريس فتاة صغيرة عمرها ثلاث سنوات من ملجأ الأطفال في بطرسبورغ. لكنه بعد استقالته كاد أن يستقر في روسيا.

ويروي ميخائيل ساكاشفيلي، الذي كان آنذاك رئيس جورجيا، أن فلاديمير بوتين كان يحب أن يقدم لضيوفه شرودر، كهدية غالية. ذات مرة، في أثناء اجتماع قمة رابطة الدول المستقلة، وفي أثناء عرضه لزعماء الدول مقر إقامته، قصر كونستانتينسكي، اقتاد بوتين ضيوفه إلى قبو النبيذ. وكان في القبو، وكأن ذلك مصادفة، غيرهارد شرودر. فناداه بوتين، وطلب منه أن ينطق بنخب، ومن ثم سمح له بالخروج، ويروي ساكاشفيلي: «لقد أخذني العجب كل مأخذ، عندما أقدم بوتين بعد عام على الشيء نفسه، لكنه طلب منه في هذه المرة أن يتحدث عن انطباعه إلى ضيوف مؤتمر بطرسبورغ الاقتصادي».

بهذا الصدد، لم تَقم علاقات جيدة بين بوتين وخليفة شرودر في منصب المستشار السيدة أنجيلا ميركل. وقد حاولا في السنة الأولى أن يعتاد أحدهما على الآخر، ولكن منذ عام 2007 قرر الرئيس الروسي ألا يخفي استياءه من المبدئية المفرطة للسيدة ميركل. ولمعرفته أنها تخاف من الكلاب، أحضر بوتين معه إلى المفاوضات معها في مقر إقامته في سوتشي كلبه الأسود الضخم من نوع لابرادور. ولم يفارق الكلب للحظة واحدة، وحتى إلى المؤتمر الصحافي المشترك حضروا ثلاثتهم. كانت ميركل في حالة شبه إغماء من الخوف - وفي حالة من الغضب الشديد من هذه السخرية.

في حين شكل شرودر وبرلسكوني حلقة تواصل جديدة لبوتين، بعد أن تخاصم مع بوش وميركل. فقد كان يشعر بالراحة أكثر بكثير مع هذين الماجنين الأوروبيين - فهم، عملياً، كانوا يتحدثون بلغة واحدة.

على أية حال، إذا ما كان شرودر واقع في بعض التبعية لبوتين، فإن برلسكوني أصبح صديقاً وشريكاً حقيقياً. وكما يتضح من وثائق ويكيليكس، فقد كان رئيس الوزراء الإيطالي الزعيم الأجنبي الوحيد الذي كان ينام في الكرملين، وبحسب تقدير الدبلوماسيين كان بوتين وبرلسكوني يتواصلان فيما بينهما أكثر من جميع الزعماء الأجانب الآخرين.

كانا يحبان تبادل الزيارات فيما بينهما، مع أسرتيهما: وكان بوتين وابنتاه يستجمان في فيلا برلسكوني بسردينيا - وتصادقت ابنتا بوتين كاتيا وماشا مع بربارا ابنة رئيس الوزراء الإيطالي. وعندما كان برلسكوني يزور موسكو، كان بوتين يدعوه إلى حفلات العشاء العائلية. ومن المعروف من مواد محاكمة برلسكوني عام 2009 (بسبب قضية الدعارة)، فقد كان السرير الأكثر رفاهية وبذخاً، بستائره القصيرة، في مقر رئيس الوزراء الإيطالي (بالاتسو غراتسيولي) في روما، يحمل اسم «سرير بوتين» على سبيل الفكاهة.24

ذكرت وثائق ويكيليكس أن الدبلوماسيين الأمريكيين كانوا على قناعة بأن برلسكوني وبوتين كانا يرتبطان أيضاً بعلاقات تجارية: فقد كان فالنتينو فالنتيني مترجم رئيس الوزراء الإيطالي الخاص ومرافقه يستقل الطائرة إلى موسكو لأعمال تجارية عدة مرات في كل شهر.

كما نشأت علاقات متميزة بين الاتحاد الاحتكاري الإيطالي للغاز والنفط ENI وبين شركة «غازبروم Газпром» الروسية. وعلى سبيل المثال، في عام 2005 وقعت الشركتان مجموعة اتفاقيات تقضي بتوريدات مباشرة من الغاز للمستخدمين النهائيين في إيطاليا. وفي العام نفسه، كشف البرلمانيون الإيطاليون عن أن برونو منتاستي - غرانيللي صديق سيلفيو برلسكوني القديم

والمـؤتمن علـى أسـراره، والـذي يتصـرف، حسـب اعتقـاد وسـائل الإعـلام الجماهيرية، حسب مصالح برلسكوني، سيغدو المستفيد من الشركة الموردة للغاز. وقد اضطروا إلى وقف الصفقة بسبب اندلاع الفضيحة. بيد أن مشاريع شركة ENI الإيطالية الأخرى تطورت ونمت على نحو عاصف في روسيا. فهي كانت الشركة الأجنبية الوحيدة التي سُمح لها بشراء جزء من شركة يوكوس الروسية المفلسة ЮКОС.

على أية حال، أصبح مشروع خط أنابيب «السيل الجنوبي» الثمرة الرئيسة بالطبع، لصداقة بوتين وبرلسكوني. وأصبح شقيقاً لمشروع «السيل الشمالي» - مشروع أنابيب الغاز في ألمانيا. وعلى هذا النحو، كان على صديقي بوتين، شـرودر وبرلسكوني، أن يضمنا أمـن الطاقـة والـوقود فـي أوروبا، وأن يحققا نظرية إيغور شوفالوف في السياسة الخارجية الروسية الجديدة، الشهيرة في أوروبا.

كان من المفروض بالطبع، أن تصبح شركة ENI الإيطالية هي شريكة شركة «غـازبروم» الروسـية فـي بناء «السيل الجنوبي». ووفق المخطط الأول، كان يجـب أن يمـر «السيل الجنوبـي» عبـر بلغـاريا، واليونـان، وصربيا إلى إيطاليا وينتـهي فـي فرنسا. في عام 2009 حاول فلاديمير بوتين أن يوظِّف، بصفة مـدير لهذا المشـروع، قياسـاً بشـرودر، أحـد الزعمـاء الأوروبـيين المستقيلين: وعـرض بإصـرار علـى رئـيس فرنسا السابق جاك شيراك، وعلـى رئـيس وزراء إيطاليا السابق والرئيس السابق للجنة الأوروبية رومانو برودي راتباً ضخماً. فـرفض الاثنـان - لقـد حـل زمـان آخـر، حيث لا يمكن للزعيمين السياسيين ألا يأخـذا فـي اعتبارهما، أن العمل مع بوتين يقضي بكل بساطة على سمعتهما السياسية.

وقد قام بوتين في عام 2005 بمحاولة أخرى لاستخدام علاقات الصداقة غير الشكلية بـهدف تحـويـل روسيا إلـى «دولـة الطاقـة العظمـى»، ولكـن بـالاتجاه الأمريكي. ففي كانون أول/ديسمبر 2005، عندما كانت أوروبا لا تزال منبهرة بـ

«أمن الطاقة» على الطريقة الروسية، وصل بالطائرة إلى موسكو دونالد إيفانس وزير التجارة الأمريكي السابق. فهذا الصديق الأقرب لجورج بوش كان قبل أربعين عاماً نديمه الأبدي في تناول المسكرات، ولكن فيما بعد، وحسب الرواية، عندما بلغا الأربعين عاماً، أقلعا عن المشروبات الكحولية معاً. علاوة على ذلك، يقال إن إيفانس أهدى بوش الكتاب المقدس من أجل القراءة اليومية، وهو مقسم إلى 365 قسماً بحسب أيام السنة. كما أن إيفانس بالذات هو من تزعم حملة بوش الانتخابية في عام 2000.

قدم بوتين لإيفانس عرضاً مغرياً – أن يصبح رئيس مجلس إدارة شركة النفط الحكومية الروسية «روس نفط Роснефт». تردد إيفانس في البداية ثم رفض. ومن الواضح، أنه لو تأسست هذه الأممية الفاسدة، ووافق رجال السياسة العالميون على قبول صداقة فلاديمير بوتين وأمواله، تماماً كما فعل غيرهارد شرودر وسيلفيو برلسكوني، لما حدث التطور اللاحق للأحداث، وفق نموذج الحرب الباردة. ولَنسي فلاديمير بوتين «الثورات الملونة»، واقتنع بأن جميع الزعماء الغربيين غير مبدئيين، بدرجة واحدة، ويمكن العثور على مقاربة من الجميع. وربما، لكانت أصبحت روسيا، حقيقة، «دولة الطاقة العظمى»، أو شكلت روسيا تكتلها الخاص (كارتل) من مديري الطاقة الكبار ذوي التأثير العالمي.

ولكن لم يحدث أي شيء من هذا. ومن جديد، بسبب أوكرانيا.

لجنة إدارة أوكرانيا

بعد الهزيمة في «الثورة البرتقالية»، لم يعرف الكرملين كيف يمكنه مقاربة أوكرانيا. وكيف سيقيم علاقته مع السلطة الأوكرانية الجديدة، وكيف سيؤثر فيها. فالمخطط السابق - تأييد الشخص الأول - أثبت فشله. وبحلول الربيع اكتشفوا في الكرملين أشخاصاً مفهومين ومعروفين منذ زمن طويل في جميع المناصب والمواقع المفتاحية: على سبيل المثال، أصبحت يوليا تيموشنكو، التي أجرت مفاوضات مع شركة «غازبروم» طيلة عدة سنوات، رئيسة وزراء

أوكرانيا، أما سكرتير مجلس الأمن الوطني الأوكراني والدفاع فقد أصبح بيتر بوروشنكو ملك صناعة الشوكولا في أوكرانيا، المعروف جيداً في إدارة الرئيس. كما أنه في أثناء الثورة كان يزور موسكو من أجل نصب الجسور معها. بيد أن الرئيس يوشنكو تبين أنه غير قابل للتوافق مطلقاً - وبالدرجة الأولى لأنه مريض جداً. فعواقب التسمم لا تزال تؤثر في صحته، وطيلة عام 2005 كان الرئيس يتابع صراعه من أجل البقاء حياً، كما يتذكر مساعدوه المقربون، حيث كانت تقوده من تحت إبطه طبيبته المعالجة، وكانت عملياً توقع بيده جميع الوثائق الضرورية.

بحلول هذا الوقت، قرروا في موسكو أن الاعتماد على السياسيين الأوكرانيين شديد الخطورة - فهم لا يتحملون المسؤولية، ويتبدلون كثيراً. علاوة على ذلك، كان فلاديمير بوتين لا يثق إلا بشخص واحد في كييف – صديقه فيكتور ميدفيدتشوك. ومع انتصار الثورة فقد الأخير منصبه كرئيس لإدارة الرئاسة، ولم يكن له أي تأثير في السلطة الجديدة. وميدفيدتشوك بالذات هو من صاغ المنظومة الجديدة للعلاقات المتبادلة مع أوكرانيا - ومنذ الآن، أصبح الحوار يجري عبر الاقتصاد، وليس عبر الرئيس.

«لا وجود لسياسة أوكرانية - ثمة أعمال اقتصادية أوكرانية» – هذه العبارة المجنحة تُنسب إلى ميدفيدتشوك. ومع أخذ ضعف السلطة الجديدة بعين الاعتبار، كان مفهوماً أن الاقتصاد يمكنه أن يملي قواعده وحساباته. وعملياً، تم تشكيل لجنة غير رسمية لإدارة السياسة الأوكرانية من الأوليغارشيين الأوكرانيين الكبار. وكان قائد مجلس المديرين هذا ميدفيدتشوك - فهو كان يلعب دور الوسيط بين الأوليغارشيين الأوكرانيين وبوتين.

كانت المجموعة الأكثر نفوذاً، في هذه اللجنة من المساهمين في «الشركة الأوكرانية المساهمة المغفلة»، من أولئك الأوليغارشيين الذين كانت لهم علاقة بتجارة الغاز. فمنذ بداية التسعينيات كانت ورديات الغاز الروسي إلى أوروبا الغربية عبر أوكرانيا من الأعمال التجارية المبهمة الأكثر غموضاً. لم يكن يتغير

مخطط التجارة - كان يتغير فقط الأشخاص الذين يحصلون على الربح. وقد تم توقيع اتفاقية الغاز الأخيرة التي كان عليها أن تعلن نهاية المخططات القذرة واستبدالها ببنية جديدة، قبل ثلاثة أشهر من «الثورة البرتقالية». فقد اتفقت روسيا وأوكرانيا على أنه، اعتباراً من الآن سيكون بينهما وسيط - هو شركة روسية باسم «روس أوك إينيرغو» (РУЭ). وكان على هذه الشركة أن تحل محل الوسيط السابق، شركة «أورال ترانس غاز Eral Trans Gas» الغامضة الملتبسة، المسجلة في هنغاريا، والتي كان يشك الخبراء في ارتباطها بالشخصية الجنائية الروسية سيمون موغيليفيتش. وقد كان الوسيط الجديد يبدو محترماً: حيث أن 50% من أسهمها يعود لشركة «غازبروم» الروسية، و50% المتبقية للبنك النمساوي» رايف فايزن بنك». هكذا، على الأقل، ما كان مسجلاً في البيانات الصحافية الأولى. ولكن سرعان ما اتضح، أن النصف الثاني من الأسهم يتبع إدارة شركة

ولم يكن معروفاً من هو المنتفع النهائي. استمرت ،«Raiffeisen Investment» التوقعات المعلقة طويلاً، وكانت قوة الشركة تكبر: فشركة «غازبروم» لم تتنازل لها في حق تزويد أوكرانيا بالغاز فقط، بل وأيضاً بتصدير 17 مليار متراً مكعباً من الغاز الروسي إلى أوروبا الغربية.

ولم يظهر المالكون الحقيقيون لـ 50% من أسهم شركة «روس أوك إينيرغو» إلا في نيسان/إبريل 2006، فقد تبين أنهما المقاولان الأوكرانيان دميتري فيرتاش (90% من الحزمة) وإيفان فورسين (10% منها). علاوة على ذلك، اعترف فيرتاش أنه أيضاً مالك شركة «Gas Eral Trans». لماذا سمحت شركة «غازبروم» الروسية والدولة الروسية لفيرتاش هذا بربح عدة مليارات من الدولارات سنوياً؟ ومن يقف خلف فيرتاش في هذا المخطط الفاسد؟ لا يوجد حتى الآن جواب دقيق عن هذه الأسئلة.

أكد ألكسندر تورتشينوف رئيس إدارة الأمن في أوكرانيا، الذي عينه الرئيس فيكتور يوشنكو، في عام 2005، أن سيمون موغيليفيتش يقف خلف الشركة.

وثمة حلقات وصل كثيرة تربط بين فيرتاش وموغيلوفيتش: فقد كانت زوجة موغيلوفيتش السابقة تعمل في شركة Highrock Properties التي الموجودة خارج أوكرانيا. وقد بقي موغيلوفيتش مثله مثل فيشرمان سنوات طويلة في قائمة العشرة المطلوب القبض عليهم في العالم، ولم يتفوق عليهم في ذلك إلا أسامة بن لادن.

المسألة كلها تكمن في الآتي: من هو موغيلوفيتش كي يرغم روسيا وأوكرانيا على إعطائه أهم خط تجاري؟ وهل كان في إمكان موغيلوفيتش، اللص الدولي، أن يقضي على النجاحات الروسية المرسومة في أوروبا؟

حرب الغاز الأولى

في لقائه الأول مع فلاديمير بوتين اقترح عليه فيكتور يوشنكو الاتفاق على خطة جديدة لتجارة الغاز: التخلي عن المقايضة والانتقال إلى الحسابات المالية حصراً حسب الصيغة الأوروبية. وانتهت المباحثات بورطة: في أثناء خروجهما لمقابلة الصحافة، ساءت حالة يوشنكو الصحية، وسنده فلاديمير بوتين في الوقت المناسب بكتفه، هامساً له في أذنه: «استند إليّ». ولا يزال يوشنكو حتى الآن يتذكر هذه اللحظة بكثير من الدفء تجاه بوتين.

في شركة «غازبروم» أيضاً. لم يصدقوا آذانهم من السعادة عندما سمعوا أن أوكرانيا تعرض بدءاً من العام الجديد، إعادة النظر بسعر الغاز. كانوا يرون في موسكو، أن الفوضى تسود في أوساط السلطة «البرتقالية»: فحلفاء الأمس في ساحة ميدان أمضوا العام الأول من سلطتهم في مشاحنات دائمة ونزاعات داخلية. وفي شهر أيلول/سبتمبر قام فيكتور يوشنكو بخطوة حادة: سرّح في وقت واحد المسؤولَيْن الأكثر عداء: رئيسة الوزراء يوليا تيموشنكو، وعرّابه سكرتير مجلس الأمن القومي بيتر بوروشنكو.

كان لدى تيموشنكو خبرة كبيرة في المفاوضات حول الغاز وكانت معادية عن قناعة لشركة «روس أوك إينيرغو» - فطيلة فترة توليها منصب رئيسة الوزراء،

استطاعت إبعاد هذه الشركة من خطة التجارة. وقالوا عنها في شركة «غازبروم»: «إنها حاولت انتزاعها لنفسها أو الحصول على حصة». وبعد إقالتها، لم يبق لدى شركة «روس أوك إينيرغو» أعداء في السلطة الأوكرانية.

وصل المفاوضون الأوكرانيون الجدد إلى موسكو بالطائرة، من أجل الاتفاق على معالم الاتفاقية الجديدة. وقد استقبلهم في موسكو بوتين شخصياً، الذي كان هو شخصياً يقود شركة «غازبروم» - وقد أصيب المدراء الأوكرانيون بالدهشة من مدى انخراط بوتين العميق في الموضوع، ومن سهولة طرحه لهم على الورقة صيغة أسعار الغاز. وقد كانت معرفة الأوكرانيين في الموضوع أسوأ بكثير من معرفته به. وعندما أدرك بوتين أن المفاوضين الجالسين أمامه ليسوا على الدرجة المطلوبة من الكفاءة، بدأ يسخر منهم: في البداية ألقى خطبة حماسية حول أنه لن يسمح لـ «الثوريين البرتقاليين» بسرقة الشعب الروسي. وطالبهم بأن يوافقوا على مطالب شركة «غازبروم» - وإلا فإن الحديث غداً سيدور حول سعر آخر تماماً.

في تلك الفترة، كان عرض «غازبروم» يبلغ 90 دولاراً لـ 1000 متر مكعب من الغاز في بداية عام 2006، مع ارتفاع السعر التدريجي إلى حين بلوغه مستوى 230 دولاراً لـ 1000 متر مكعب بعد ثلاثة أعوام. شعر مفاوضو الغاز الأوكرانيون بالرعب من هذه الأسعار، ولكن في اليوم التالي، وكما وعد فلاديمير بوتين، ظهر على شاشات التلفزيون، وأعلن، أن ثمة مطلباً جديداً لدى شركة «غازبروم»: 230 دولار لـ 1000 متر مكعب اعتباراً من كانون ثاني /يناير 2006. حتى أن العاملين في «غازبروم» شعروا بالصدمة من مثل هذا المطلب المحلّق إلى السماء.

لم يتم بالطبع، الاتفاق حتى بداية العام الجديد. وبدأوا يعرضون على شاشات الأقنية التلفزيونية الحكومية الروسية مواضيع مثل، إن شركة «غازبروم» تنوي وقف ضخ الغاز إلى أوكرانيا. كما أرسلت الشركة إلى شركائها الأوروبيين رسائل تحذيرية مفادها، إنه واعتباراً من ليلة عيد رأس السنة يمكن توقع وقف ضخ

الغاز، لأن روسيا تستعد لتقليص ضخ كمية الغاز بما يعادل تماماً استهلاك أوكرانيا منه، وربما ستبدأ أوكرانيا بسرقة الغاز المرسل إلى الأوروبيين.

لقد بدت هذه الخطوة لبوتين تطوراً موفقاً لنظرية أمن الطاقة: فقد أظهر في الواقع للأوروبيين، أن أمن ورديات الغاز إليهم معرض للخطر، طالما يوجد على طريق أنابيب الغاز وسطاء ترانزيت غير موثوقين مثل أوكرانيا. والمخرج المنطقي، حسب رأيه، كان بناء خط جديد من الأنابيب لا يمر عبر أوكرانيا، أي السيل الشمالي والسيل الجنوبي.

وكما جاء في تحذير شركة «غازبروم»، انخفض ضغط الغاز في الأنابيب اعتباراً من 1 كانون ثاني/يناير، وفي 2 كانون ثاني/يناير تقلصت كمية الغاز المتدفق إلى النمسا إلى الثلث، وتقلصت بنسبة 40% إلى سلوفاكيا وهنغاريا. في 3 كانون ثاني/يناير وصل بالطائرة من كييف إلى موسكو فريق من مفاوضي الغاز الأوكرانيين - فنقلوهم إلى فندق «أوكرانيا»، حيث استمرت المفاوضات حتى ساعة متأخرة من الليل. وبحسب الشائعات، كان يوجد في هذا الفندق مكتب سيمون موغيلوفيتش. عرض الجانب الروسي حلاً وسطاً: يمكن تخفيض سعر النفط 230 دولاراً فقط في حالة واحدة، أن تتم العملية التجارية حصراً من خلال شركة «روس أوك إينيرغو». وسرعان ما انضم إلى المفاوضات دميتري فيرتاش وأبدى استعداده.

في المحصلة وفي وقت أقرب إلى الليل تم توقيع صفقة عجيبة: شركة «غازبروم» باعت الغاز لشركة «روس أوك إينيرغو» بسعر 230 دولاراً لـ 1000 متر مكعب (تماماً كما أعلن بوتين على شاشة التلفزيون)، لكن أوكرانيا اشترت الغاز من شركة (РУЭ) بسعر 95 دولاراً (أي بالسعر الأولي نفسه التي اقترحته شركة «غازبروم»). وكانت خسارة شركة «روس أوك إينيرغو» تغطيها شركة «غازبروم» بسماحها لها ببيع الغاز الروسي في أوروبا بسعر السوق.

ولكن، وحتى بعد هذه الصفقة، كان بوتين يؤكد على الملأ، إنه لا يعرف من

يقف خلف النصف الأوكراني من شركة «روس أوك إينيرغو». وقال: «إن شركة «روس أوك إينيرغو» بنصفها الأوكراني المعتم، غير الشفاف، تشعر بالراحة بالمقارنة مع ذلك الاحتيال الذي كان يسود عندنا طيلة الخمسة عشر عاماً عندنا في مجال الغاز». فقطِ بحلول عام 2011، اتضح أن دميتري فيرتاش يرتبط بعلاقات شراكة مع الإخوة روتنبرغ، أصدقاء طفولة فلاديمير بوتين، الذين كانوا منذ الستينيات يمارسون معه في مجموعة واحدة رياضة الجودو.

أحدثت حرب الغاز في رأس السنة انطباعاً هائلاً على الجمهور الأوروبي. وكأنه ذاب ذلك التنويم المغناطيسي الإيحائي الذي تعرض له، عندما سمع عبارة «أمن الطاقة» على لسان بوتين. إذا كان هناك من يشكل تهديداً لأمن الطاقة على أوروبا فهي شركة «غازبروم» الروسية، ويجب أن تحمي نفسها منها بالذات - هذا ما أكده الموظفون والسياسيون الأوروبيون بعد عودتهم من إجازة عيد الميلاد في كانون ثاني/يناير 2005. وقالوا إن التبعية لروسيا كبيرة بحد ذاتها، وأخذوا يقارنون السيل الشمالي والسيل الجنوبي بالملقط التي تريد روسيا بواسطته الضغط على أوروبا.

وكائناً من كان المبادر إلى حرب الغاز الأولى، وعلى الرغم من أنه لم يفز إلا بالقليل، لكنه حطم اللعبة الكبيرة. ومنذ الآن لم يعد أحد ينظر نظرة جدية إلى نظرية شوفالوف «دولة الطاقة العظمى» - فبها أصبحوا يخيفون الأطفال.

في مؤتمر القمة للدول «الثماني العظام» في بطرسبورغ، الذي كان يعد له شوفالوف، باعتباره «المفوض» الروسي، ناقشوا أمن الطاقة. يتذكر شوفالوف قائلاً:

«نحن أصررنا في المؤتمر على أن أمن الطاقة يشمل في طياته أمن استخراج الطاقة، وأمن نقلها، وأمن استهلاكها. قلنا لهم: انظروا نحن في تبعية لكم أكثر مما أنتم في تبعية لنا! لكنهم لم يريدوا الإصغاء لنا. قالوا لنا: كلا، نحن نرغب في أن يكون لدينا مُورِّدَيْن أو ثلاثة مُورِّدين».

من الناحية العملية، لقد حدد هذا سلفاً انهيار مشروع «السيل الجنوبي». ومنذ البداية، كانت تبين الحسابات أن هذا الخط من الأنابيب ليس مبرراً ولا منطقياً من الناحيـة الاقتصادية - إنه يحمل معنى سياسياً، لكنه يخلو من أي فائدة اقتصادية. وقد طرح الأوروبيون عروضاً مضادة: مثل خط أنابيب «نابوكو»، الذي كان من المقرر أن ينطلق من أذربيجان إلى أوروبا، متجاوزاً روسيا. وهذا المشروع أيضاً غير ربحي، وسياسي بحت، ولهذا صرفوا النظر عنه قبل ذلك. وقد بقي السيل الجنوبي ماثلاً في أحلام فلاديمير بوتين حتى عام 2014، عندما أعلن فجأة أن روسيا لن تقوم بتنفيذ هذا المشروع - نكاية بالأوروبيين.

الفصل الثامن : سيرغي إيفانوف، نائب رئيس الوزراء، صدَّق فعلاً أنه الوريث...

سيرغي إيفانوف – إنه جيمس بوند السوفييتي. إنه جيمس بوند حقيقي، من دون تجميل وتفاصيل زائدة، ومن دون رومانسية ودلال هوليوودي.

إنـه مُخبِر سـوفييتي مثالي - يسـتحيل تمييزه عن الحشد، إنه مثل المستر سميث في الفيلم الأمريكي «المصفوفة-Matrix»، سواء من حيث الاسم أو من حـيث الملامـح الخارجيـة. في التسعينيات تصارع جهازا الأمن الروسيان الرئيسان: جهاز الأمن الاتحادي ФСб وجهاز الأمن الخارجي СВР من أجل جلبه إلـى إدارتيهما. وفي المحصلة، تمكن بوتين من خداع مدير الأمن الخارجي واجتـذب إيفـانوف إلـى إدارتـه: فقـد خـدع بوتـين مـدير الأمـن الخـارجي تروبنيكوف آنذاك بأنه سيأخذ إيفانوف لفترة مؤقتة، لكنه لم يعده إليه.

إن سيرغي إيفانوف - هو رجل سوفييتي مثالي. مثقف، خريج كلية اللغات، يتقن اللغتين الإنكليزية والسويدية، يحب الباليه وكرة السلة. يقرأ كل صباح الصحف والمجلات الأمريكيـة والبريطانيـة - ويستاء من أنها تشوه الواقع السوفييتي.

لم أتمكن من مقابلة سيرغي إيفانوف والحديث إليه - واضطررت إلى الاكتفاء بخطبه وكلماته الرسمية ومقابلاته الصحافية، وكذلك أحاديثه مع رفاقه وزملائه. والجميع يشهد بأن إيفانوف رجل لائق للغاية، وبعيد جداً عن الفساد. وهذا نادراً ما يقال عن شخص ما. لكن إيفانوف - ضابط سوفييتي مثالي نموذجي.

إن إيفانوف يؤمن فعلاً بما يقوله. على أية حال، هذا نموذج واسع الانتشار: إنهم ضباط الإمبراطورية المنهارة، الذين يحتفظون بالولاء لها، والمستعدون للنضال من أجلها.

سباق الخلفاء

في خريف 2005 قرر فلاديمير بوتين أخيراً بدء التحضير لانتخابات عام 2008، حتى أنه حدد كيف ستكون الحملة الانتخابية الرئاسية المقبلة. كانت أسعار النفط مرتفعة جداً، وثمة كثير من المداخيل الزائدة والوفر، وكان يجري توفير القسم الأكبر منها، بإصرار من ألكسي كودرين وزير المالية، ويوضع في صندوق تحقيق الاستقرار. وقد قرر بوتين، أنه يجدر صرف جزء من الوفر لتسليم السلطة للخليفة. وقد أطلق اسم «مشاريع الأولوية الوطنية» على الآلية الانتخابية الرئيسة. أي أن الحكومة قررت صرف أموال إضافية (من 150 -200 مليار روبل سنوياً) للصحة العامة، والتعليم، والأبنية السكنية، والزراعة. وكي يربط الناخب الأموال التي هبطت من السماء بشخص معين، ويعتبر خليفة بوتين هو مرشحه المفضل والمتبرع بهذه الأموال، كان من الواجب تعيينه مسؤولاً عن توزيع هذه الأموال. فالمواطنون الروس يشعرون دوماً بالشكر الخاص والمحبة للشخص المحدد، الذي يقدم لهم المال، حتى إذا ما كان هذا المال من تعبهم وكدحهم.

وقد كلف بوتين دميتري ميدفيديف بتوزيع هذه الأموال. وكي يعرفه الناخبون، يجب نقله إلى منصب ملحوظ أكبر، في الحكومة مثلاً. لكن بوتين لم يرغب

في هذا كثيراً، لأنه كان يدرك أن قربه من بوتين هو رأسماله الأهم والأكبر. كما أن الرئيس بوتين قال مازحاً، سأعين إيغور سيتشين - عدو ميدفيديف اللدود، رئيساً جديداً لإدارة الكرملين. فرد ميدفيديف بعناد: «لا، في هذه الحالة لن أستلم أي منصب. سأبقى في الكرملين. وما حاجتي إلى هذا؟ أنا سأكون هناك في الحكومة، وسأكون محط أنظار الجميع، وهو هنا في الكرملين سيحيك ضدي الدسائس والمؤامرات؟» مثل هذه القناعة والتواضع كانا يروقان لبوتين. «حسناً، سنرى» - رد بوتين متهرباً، لأنه لم يحدد مسبقاً من سيعين رئيساً جديداً لإدارة الكرملين، إذا ما عين رئيس الإدارة القديم رئيساً للحكومة في البيت الأبيض.

في 14 تشرين ثاني/نوفمبر 2005 عقد فلاديمير بوتين اجتماعاً موسعاً للحكومة، كي يعلن عن تغييرات كبيرة جديدة في كوادر الموظفين المسؤولين - وهي التغييرات الثالثة خلال فترة رئاسته. ربما، من أجل تحقيق فاعلية كبيرة، كان يسعى بوتين دوماً إلى عدم تغيير الموظفين المسؤولين كلاً على حدة، بل إجراء تغييرات كبيرة دفعة واحدة، حتى وإن كانت غير مترابطة فيما بينها، لكنها متزامنة. ومثل هذه التغييرات في الكوادر حدثت مرتين سابقاً. الأولى في عام 2003، عندما استبدل دفعة واحدة عدداً من رجال الأمن المتنفذين، وأعاد تشكيل الشرطة الضريبية لميخائيل فرادكوف وأسس الخدمة الاتحادية للرقابة على مكافحة المخدرات برئاسة صديقه القديم فيكتور تشيركيسوف. والثانية - في عام 2004، عندما أقال حكومة كاسيانوف واستبدلها بحكومة فرادكوف. وهكذا حلت اللحظة التاريخية الثالثة.

لم يفسر بوتين معنى التغييرات بصورة دقيقة: بكل بساطة، أصبح دميتري ميدفيديف، رئيس إدارة الرئاسة، نائباً أولاً لرئيس الوزراء، ووزير الدفاع سيرغي إيفانوف أصبح نائب رئيس الوزراء فقط، وأعفي من وزارة الدفاع. وشرح بوتين ضرورة تغيير منصب ميدفيديف بأنه سيكون مسؤولاً عن المشاريع الروسية الوطنية. إلا أنه لم يفسر أبداً ترقية إيفانوف. لكن الموظفين

المسؤولين فهموا بصورة صحيحة: من أجل تحقيق التوازن. أما منصب رئيس إدارة الكرملين فلم يعين فيه سيتشين، بل عين شخصاً جديداً على النخبة الموسكوفية، وهو سيرغي سوبيانين محافظ منطقة تيومين.

لم يكن بوتين يحب أبداً الوضوح وسهولة التنبؤ، لأنه لم يكن في استطاعته أن يعلن أن ميدفيديف هو الرئيس المقبل. أما الترقية المتوازية لحليفيه المقربين، فكان بوتين يُظهر أنه لم يقرر بعد، وأنه متردد.

ويؤكد مستشارو بوتين السابقون، أن هذا مجرد مظهر خارجي. ففي خريف عام 2005 كان بوتين يعدّ ميدفيديف بالذات كي يكون خليفة له. أما ترقية إيفانوف فكانت مجرد عملية تغطية - كي لا يجعل الموقف مفرطاً في الوضوح. ويؤكد أحد مستشاري بوتين السابقين، بأن هذا كان من مظاهر الرعاية والعناية، فلو أعلن بوتين أن ميدفيديف هو الخليفة الوحيد بالتزكية، لاتحد جميع أعدائه الأشرار والتهموه غالباً، خلال فترة عامين.

ولكن مع مرور الزمن، تغير موقف بوتين. فإيفانوف الذي اعتبره بوتين في البداية مجرد شريك سجالي لميدفيديف، بدأ بتسجيل النقاط في عيون الرئيس. علاوة على ذلك، كان الجميع من حول بوتين يناقشون بحرارة المباراة بين المرشحيْن الاثنين للخلافة، لدرجة أن بوتين نفسه صدقها. وقرر الانتظار ورؤية كيف سيتمكن ميدفيديف وإيفانوف من تنفيذ واجباتهما.

كان سيرغي إيفانوف من أقدم وأخلص أصدقاء بوتين - وكانا قد تعارفا منذ أواخر السبعينيات، عندما كانا يعملان معاً في إدارة أمن الدولة ك.ج.ب في لينينغراد ومحافظة لينينغراد. حقيقة، أن مسيرة إيفانوف في المخابرات كانت أكثر نجاحاً من بوتين: فقد عمل إيفانوف في مقري إقامة في فنلندا وكينيا، أما بوتين فكان رئيس نادي في جمهورية ألمانيا الديمقراطية؛ وكان يُنظر إلى الخدمة والعمل في بلد رأسمالي أو حتى في بلد من بلدان العالم الثالث على أنه أهم وأفضل مستقبلاً من العمل والحياة الفارغة في بلد اشتراكي. بيد أن بوتين

وإن كان يحسد زميله الأكثر توفيقاً وحظاً، لكنه لم يُظهر ذلك، عندما ترأس في عام 1998 جهاز الأمن الاتحادي ФСБ. آنذاك، وبناء على نصيحة رفيقيه تشيركيسوف وباتروشيف الذين أصبحا نائبيه، استدعاه للعمل معه. وعلاوة على ذلك، نقله من الخدمة في الأمن الخارجي، حيث أكمل خدمته إيفانوف فيها إلى أن وصل إلى رتبة جنرال.

وعندما أصبح بوتين رئيس وزراء، سلم إيفانوف بالذات المنصب المهم المفتاحي، سكرتير مجلس الأمن القومي، وعندما أصبح رئيساً، ائتمن إيفانوف بالذات على وزارة الدفاع - في أثناء الحرب المستمرة في الشيشان.

وفي عهد بوتين، كان إيفانوف يقوم بوظيفة مهمة أخرى - فهو دوماً كان صلة الوصل مع واشنطن. وعندما تعرّف بوتين عام 2001 إلى جورج بوش اتفقا بأن يعين كل منهما، لتسهيل التواصل، شخصاً يمكنه بصورة عملانية معالجة المسائل كافة. وكان حلقة الوصل من الجانب الأمريكي كونداليزا رايس، ومن الجانب الروسي سيرغي إيفانوف.

وبالاختلاف عن ميدفيديف، الذي لم يكن يعرفه أحد قبل عام 2005، كان إيفانوف طيلة هذه السنوات على مرأى من الجميع. فقد أنجز إصلاح الجيش، وبدأ الانتقال إلى نظام التعاقد في الخدمة العسكرية. وتمكن من تجنب الخصام والنزاع مع أي من كبار ضباط وزارة الدفاع - والعكس هو الصحيح، فكان في كل مكان يسير محاطاً بحشد من الجنرالات الكبار، أصحاب الكروش الكبيرة.

وبما أن جميع العاملين في الكرملين نظروا إلى ترقية إيفانوف وميدفيديف على أنها نقطة البداية لسباق ما قبل الانتخابات، فقد أصبح هذا بمثابة تحد للكثيرين. وبالدرجة الأولى، لأولئك الموظفين المسؤولين الذين كانت لديهم نظرتهم الخاصة البديلة لمشكلة عام 2008. ومن بين هؤلاء نائب رئيس إدارة الكرملين إيغور سيتشين والنائب العام فلاديمير أوستينوف. فقد بدآ على الفور

صراعاً مع من بدا لهما المرشح الأقوى للخلافة؛ أي مع إيفانوف.

ركلة بالرِّجلين

في ليلة عيد رأس سنة 2006 حدثت مأساة في مدرسة المدرعات في تشليابينسك، بدأ رقيب سكير بالسخرية من أحد الجنود. وثمة روايات مختلفة حول ما حدث بالفعل. بالحد الأدنى، جندي اسمه أندريه سيتشيف أرغم في ليلة 1 كانون ثاني/يناير على أن يجلس القرفصاء طيلة ثلاث ساعات. وبالنتيجة أصيب الجندي بالغنغرينا، وبعد أسبوعين بتروا له قدميه وأعضاءه التناسلية.

لقد كان هذا حادثاً شنيعاً، لكنه ليس الوحيد من نوعه. فبحسب معطيات النيابة العامة، خلال نصف سنة فقط - من كانون ثاني/يناير إلى حزيران/يونيو 2006 توفي 17 شخصاً في روسيا غير المحاربة بسبب «العقوبات الشديدة غير النظامية». وقد اعتُبرت إحصائية وزارة الدفاع هذه مؤشراً مقبولاً، لأن عدد حالات الوفاة في السنة السابقة كان أكبر بمرتين. وهذا من دون حساب حوادث انتحار الجنود - فقد بلغ عددها 276 حالة انتحار في عام 2005.

ومع ذلك فإن حادثة سيتشيف بالذات، أصبحت الحادثة الوحيدة في روسيا المعاصرة، التي كان لها صدىً كبيراً. فهذا الجندي أدخل المستشفى المدني وليس المستشفى العسكري، وأَعلم أطباء المستشفى لجنة أمهات الجنود، والأقارب والصحافيين بالحادثة. وباشرت النيابة العامة العسكرية التحقيق في الحادثة باجتهاد خاص - وقد أعطى النائب العام أوستينوف هذه التعليمات. وهكذا بدأ الصراع بين النيابة العامة ووزارة الدفاع.

والنيابة العامة بالذات هي التي بذلت كل ما في استطاعتها كي يعلم الجميع بحادثة تشليابينسك: وبدأت وسائل الإعلام الجماهيرية الاتحادية بتغطية هذا الحدث، بعد أن ظهر تقرير مفصل عن التحقيق الجاري في الموقع الرسمي للنيابة العامة. وقد حدث هذا في 25 كانون ثاني/يناير 2006.

كانت جميع وسائل الإعلام الجماهيرية قد نشرت خبر المأساة بالقرب من تشليابينسك، وعندما طلب الصحافيون من وزير الدفاع سيرغي إيفانوف، الذي كان في تلك الأثناء في جولة في أرمينيا، التعليق على المأساة، قال إيفانوف: «لقد كنت خلال الأيام الأخيرة بعيداً عن الأرض الروسية، في أعالي الجبال، ولم أسمع بما حدث في تشليابينسك. أعتقد أنه ليس ثمة ما هو جدي خطير. وإلا لعرفت به بالتأكيد». استاء الجميع من عبارة الوزير - فهو (أو على الأصح حاشيته) اعتبر بتر رجلي جندي - شيئاً «غير جدي».

وتابعت الفضيحة انتشارها: فبعد شهر، اجتمع حشد أمام وزارة الدفاع، طالب فيه المشاركون بـ «بتر رجلي إيفانوف». وأرسلوا لبوتين نداء من مجموعة المدافعين عن حقوق الإنسان بتسريح الوزير. وجرى استطلاع للرأي في إذاعة «صدى موسكو»، اتضح بموجبه أن 95% من المستمعين يرون أن على إيفانوف أن يستقيل في أسرع وقت. في الوقت نفسه، تذكر الصحافيون أن ابنه، العامل في بنك التجارة الخارجية، قبل عام تماماً، قد دهس متقاعداً بسيارته مسبباً موته. وعلاوة على ذلك تهرّب من العقاب، ورُفعت دعوى قضائية ضد صهر القتيل، واتُهم بضرب ابن الوزير.

في هذه المرحلة، لم يكن هناك شك لدى أي كان في الكرملين، ولدى إيفانوف نفسه، في أنه أصبح هدف مطاردة وحملة شنها النائب العام.

وانتهت بهذا حملة تدخل السياسة العامة في الحملة ما قبل الانتخابية التي بدأها فلاديمير بوتين. وفي تحديده واختياره بين إيفانوف وميدفيديف كخليفة له، لم يكن عموماً يقصد أن الرأي العام أو حاشيته يجب أن يختارا. كان يعتقد أنه هو بنفسه سيختار. ولهذا قرر وضع حد للعبة السياسية. لا سيما أن ميدفيديف نفسه وليس إيفانوف وحده، كانا يشكوان بصورة دورية من دسائس سيتشين وأوستينوف.

مؤامرة الأربعة

في 13 نيسان/إبريل اجتمع مجلس النواب في البرلمان الروسي (مجلس الاتحاد)، من أجل التصديق على تعيين النائب العام فلاديمير أوستينوف لفترة جديدة - باقتراح من الرئيس فلاديمير بوتين. وحتى هذه اللحظة كان يعدّ أوستينوف شخصية أسطورية. فقد كاد أن يكون الأمني القوي الأكثر جبروتاً في روسيا. وأصبحت النيابة العامة في عهده، نموذجاً للطوعية السياسية - كانت قاسية إلى الحد الأقصى في تنفيذ إرادة الكرملين السياسية، من دون النظر أحياناً إلى المسائل الحقوقية المرهفة.

كان أوستينوف ينفذ دوماً أهم مطالب وأوامر إدارة الرئيس: فمثلاً، عشية أية انتخابات مِنطقية كانت النيابة العامة ترفع، من دون تردد، الاتهامات ضد المرشحين غير المطلوبين، ولا تسمح لهم بالمشاركة في الانتخابات.

لقد أصبح الإنجاز الكبير للنائب العام أوستينوف تجاه بوتين، المحاكمة الاستعراضية لصاحبي شركة يوكوس ميخائيل خودوركوفسكي وبلاتون ليبيديف - حيث حكم على كل منهما بالسجن سبع سنوات. وقد حدّث بوتين الصحافيين ذات يوم، بأن أوستينوف بالذات في تشرين أول/أكتوبر 2003، في حديث خاص معه، هو الذي أصر على الاعتقال الفوري لميخائيل خودوركوفسكي.

وقد ترأس أوستينوف شخصياً التحقيق في قضية حادثة الغواصة «كورسك». وتوصل إلى نتيجة مفادها، أن السبب هو أعطال فنية في تسليح الغواصة بزوارق الطوربيد، ولا تقع أية مسؤولية على العسكريين.

كما أدار أوستينوف التحقيق في العمل الإرهابي في مدينة بيسلان. وأصبحت هذه القضية تكليلاً وتمجيداً للتعسف القضائي: فالقضاة والمحققون الذين أوفدوا من موسكو تجاهلوا بإصرار، وعلى التوالي، حجج المتضررين من العمل الإرهابي، مظهرين بصورة متعمدة، أنه ليست لديهم أية رغبة في التحقيق فيما حدث لهم - فكل شيء أصبح واضحاً.

لكن الأهم - أن النيابة العامة تحولت في عهد أوستينوف إلى آلية قمعية منتظمة بدقة. وإذا كان هناك من يمارس الأعمال التجارية، على سبيل المثال، فيمكن اتهامه، غالباً بكل بساطة، بالاحتيال أو بأي جريمة اقتصادية. وثمة قاعدة أخرى ظهرت في عهد أوستينوف: سيُوجه مثل هذا الاتهام بالتأكيد، إذا ما عزم شخص غير مرغوب على ممارسة العمل السياسي.

كان أوستينوف يحب التدخل في المجالات التي لم تعتبر أبداً في يوم من الأيام مجال مسؤولية النيابة العامة، مثل مسائل الإسكان، ويحاول فرض النظام فيه. وكان يقول: «أهتم بكل شيء». وكان يهتم كثيراً بمسائل الأخلاق. ففي جميع كلماته وخطبه العامة كان يتحدث طويلاً عن انهيار القيم الروحية، وكيف يمكن للنيابة العامة أن تناضل من أجل رفعها، كما كان أخيراً يتحدث عن دور الأرثوذكسية والكنيسة. وكان أوستينوف يتردد بانتظام على المناسبات والاحتفالات الأرثوذكسية - الوطنية المتنوعة، التي كان يدعى فيها النائب العام بـ «شخصية العام».

وبصرف النظر عن شهرة النائب العام الأكثر إشكالية، فإن اعتبارات المصلحة السياسية كانت تغلب على كل شيء: وقد صوت 149 شخصاً لصالحه، وامتنع شخص واحد عن التصويت.

بعد عام، في 2 حزيران/يونيو 2006، قرأ فجأة سيرغي ميرونوف، رئيس مجلس الاتحاد، على أعضاء البرلمان أنه استلم رأي الرئيس بوتين حول إعفاء النائب العام من منصبه، «على أساس طلبه الشخصي». شعر أعضاء البرلمان بالصدمة - بدا لهم أن ثورة تحدث، وأن غضب الرئيس وقع على أقوى موظف مسؤول في الدولة.

قبل بضع دقائق من بداية الجلسة، عرف بهذا أعضاء اللجان المختصة (لجان الدفاع والأمن والمسائل القضائية - الحقوقية): فأقروا طلب الرئيس بالإجماع، من دون طرح سؤال واحد. ولهذا فعندما استفسر فجأة نائب واحد وحيد، هو

سودارنكوف، محافظ منطقة كالوغا السابق، عن سبب إقالة أوستينوف، أثار خوف الجميع. قاطعه رئيس مجلس الاتحاد ميرونوف بحزم: «لم يُشر إلى هذا في الطلب»، «نحن لا نبحث في الأسباب. نحن بحثنا فقط طلب النائب العام»، كرر بحرج رئيس اللجنة المختصة.25

أيد الاقتراح 140 نائباً، امتنع اثنان عن التصويت، و36 نائباً لم يفهموا شيئاً وقرروا عدم التصويت. عندما سأل الصحافيون رئيس لجنة الأمن والدفاع، لماذا لم يهتم النواب بسبب إقالة النائب العام، أجابهم: «ذات مرة تفاعل مجلس الاتحاد بشكل مفرط مع مسألة تغيير النائب العام، وبعدها تمت إعادة تشكيل المجلس من جديد». (كان المقصود أنه في عام 1999 رفض مجلس النواب تلبية طلب ألكسندر فولوشين، رئيس إدارة الرئيس يلتسين، بإقالة النائب العام سكوراتوف، وبعد عام فولوشين نفسه، الذي أصبح رئيس إدارة الرئيس بوتين، انتقم من النواب - بأن أعدّ إصلاح مجلس الاتحاد، الذي غيّر كلياً مخطط تشكيله، وحُرم جميع النواب السابقين من مناصبهم، وأصبح النواب الجدد مطيعين كلهم من دون استثناء).

كان واضحاً بالنسبة إلى الجميع، أنه جرت عملية خاصة على طريقة الأجهزة الأمنية: يجب أخذ الخصم على حين غرة، وتوجيه ضربة مفاجئة له، كي لا يتمكن من أخذ التوجه الصحيح ولا يفكر حتى في المقاومة. كان بوتين يحب دوماً هذا الأسلوب - التعيينات المفاجئة والإقالات المفاجئة. ولكن عادة (كما حصل مثلاً عند إقالة ميخائيل كاسيانوف) كان يميل إلى الإعلان عن التغييرات شخصياً - أو على أقل تقدير، التعليق عليها شخصياً. لكن بوتين هنا لم يَظهر - كما لم يَظهر بعد يوم أو بعد يومين. وكان الموظفون والنواب الحائرون يناقشون لعدة أيام: هل من المعقول أن بوتين كان يخشى إلى هذا الحد النائب العام أوستينوف، لدرجة أنه تخلص منه بمثل هذه التدابير من الحذر.

في الحقيقة، كما يروي أحد المقربين من بوتين، كان هدفه الرئيس إحداث مثل هذا الانطباع لدى الموظفين المسؤولين. فالهدف الحقيقي من الضربة لم يكن

أوستينوف شخصياً، بل الحلقة المقربة منه عامة.

والمسألة هي، أنه بحلول عام 2006 تشكلت على مقربة شديدة من بوتين شبكة من أصحاب الرأي الواحد. وكان النائب العام أوستينوف ومساعد الرئيس قد تصاهرا، منذ تشرين ثاني/نوفمبر 2003: تزوج ابن أوستينوف إيغور من ابنة سيتشين إينغا (لسخرية القدر، أن هذا حدث بعد مرور شهر واحد على أهم حدث في حياة سيتشين وأوستينوف - اعتقال ميخائيل خودوركوفسكي). اثنان من كبار الموظفين المسؤولين بدآ يلتقيان ويتواصلان بصورة دورية منتظمة. كان ثمة الكثير مما يجمع بينهما: النظرة المحافظة إلى النظام السياسي، وعدم الثقة بالغرب، والولع الشديد بالفلاسفة الروس - من أصحاب جماعة التربة********، والكنيسة الأرثوذكسية. ومع مرور الزمن بدأت تتسع حلقة صداقتهما. في البداية بدأ ينضم إليهما في أغلب الأوقات رئيس الوزراء ميخائيل فرادكوف، ثم تصادق مع سيتشين وحلقته عمدة موسكو يوري لوجكوف. وأخذ هذا الرباعي الغريب يلتقي بصورة دورية في جلسات خاصة ويبحث مستقبل البلاد.

لم يكن من الممكن ألا تثير الشكوك مثل هذا الصداقة بين كبار المسؤولين الأربعة. فتمركز هؤلاء الأربعة يشكل نسخة ثانية من لجنة الدولة للأحوال الطارئة: معاون بوتين الأقرب، رجل الأمن الأقوى في روسيا، وعمدة موسكو ذو الشعبية الكبيرة والخبرة، وأخيراً الرجل الثاني في الدولة، وإن كان ضعيفاً واهناً، يمكنه أن يبدأ القيام بأعمال الرئيس، إذا ما حصل شيء ما لبوتين.

في شتاء 2004 رأى بوتين أن فرضيات سيتشين مقنعة، ومفادها أن رئيس الوزراء كاسيانوف، غير الموالي، يمكنه أن يشكل خطراً عشية الانتخابات الرئاسية - في هذه المرة تكرر الوضع نفسه، ولكن ضد سيتشين الآن. علاوة على ذلك، في عام 2003 كان غليب بافلوفسكي قد رفع تقريراً سرياً ورد فيه الحديث عن خطر هذه المجموعة.

كانت تقترب الانتخابات الرئاسية الدورية، الأصعب بالنسبة إلى بوتين، تلك الانتخابات التي كان عليه فيها تسليم السلطة لخليفته - ولهذا كان يريد أن يمر كل شيء براحة وسلام. وكان لا يعرف حتى آنذاك من سيختار: سيرغي إيفانوف أم دميتري ميدفيديف. لكنه كان يدرك جيداً أنه سيشعر الأول أو الثاني بعدم الراحة والانزعاج من هذه الصداقة الغريبة التي تجمع بين سيتشين - أوستينوف - لوجكوف - فرادكوف.

كان بوتين يعرف جيداً أن سيتشين يكره إيفانوف وميدفيديف على حد سواء. وقد قدم حادث الجندي سيتشيف أسطع دليل على ذلك. ولكن إبقاءه ضمن حكومته، كي يبقى الخلفاء المحتملون في حيوية ونشاط، شيء، ووضع كامل تصميم نقل السلطة في خطر، شيء آخر.

لقد كان لدى هؤلاء «الأربعة» ما يكفي ويزيد من المنتقدين والمعارضين. أولاً: أسرة يلتسين وحاشيتها: فلوجكوف كان عدوها القديم والتاريخي، أما سيتشين فهو عدوها الجديد، بعد أن اعتقل خودوركوفسكي وأقال كاسيانوف. وثانياً: جميع حاشية بوتين القديمة البطرسبورغية: كان سيتشين يَعدُّ نفسه الساعد الأيمن للرئيس، ولهذا حاول إبعاد جميع الأصدقاء الآخرين بجد ومثابرة، بمن فيهم إيفانوف وميدفيديف. وقد استاء وغضب على نحو خاص أولئك المقربون من الرئيس، الذين كان مصدر قوتهم الأساس هو قربهم من شخص الرئيس مثل: رئيس حماية بوتين الشخصية فيكتور زولوتوف ونائبه السابق فيكتور تشيركيسيف. كانت تربط بين رئيس الحرس زولوتوف ومدير مكتب الرئيس سيتشين عداوة قديمة، لكن زولوتوف لم يكن في استطاعته إظهارها من دون عقوبات الرئيس. وهنا ظهرت فجأة العقوبة - بوتين اهتم بما يتناقش فيه «الأربعة» في جلساتهم الخاصة. فأحضر له زولوتوف وتشيركيسيف بكل سرور تسجيلاً لأحاديثهم التي تم التنصت عليها.

وتأكدت أسوأ الفرضيات: لم تنضج المؤامرة بعد، لكنها بدأت تنضج. كان «الرباعي» يبحث، فيما يبحث، أنه في إمكان ميخائيل فرادكوف أن يصبح

رئيساً رائعاً - طالما أنه رئيس وزراء رائع. ولم يكن يدخل في خطط بوتين، لا أن يجعل فرادكوف خليفة له، ولا أن يبحث هذه الآفاق مع «الرباعي».

في الواقع، لم يفعل سيتشين وجماعته أي شيء رهيب سوى الأحاديث الطموحة إلى السلطة - ومن المشكوك به أن يفعلوا شيئاً. لم يكن هناك ما يمكن معاقبتهم عليه - كان يكفي تخويفهم. وقد روى أحد المقربين من الرئيس مسار تفكير بوتين: «قرر بوتين أن يعيد أوستينوف إلى صوابه - فقد أصبحت النيابة العامة، على أية حال، ذات نفوذ كبير غير مسموح به، وسيتشين يكفي الصراخ عليه، أما لوجكوف فلا حاجة إلى المس به أبداً - فهو من دون أي شيء سيشعر بالخوف». وأما فرادكوف فلم يأخذه بوتين بالحسبان إطلاقاً - فقد كان واضحاً أنه في هذا «الرباعي» ليس شريكاً، بل كان مجرد أداة.

انتهت عملية القضاء على المؤامرة غير الناضجة فجأة، كما بدأت فجأة. طيلة خمسة أيام كان الجميع يخمّنون ماذا سيحصل لأوستيونوف المغرور ومن سيصبح بدلاً منه نائباً عاماً جباراً قوياً. وقد أذهل قرار بوتين الجميع: فقد قام بعملية إجهاض. وبدلاً من النائب العام المُقال، اقترح شخصاً أكثر تواضعاً بكثير (وكما قيل، قريب من أسرة يلتسين) وهو وزير العدل يوري تشايكا. ووضع مكانه في وزارة العدل فلاديمير أوستيونوف. وخلال بضعة أشهر، سرح تشايكا جميع نواب أوستينوف تقريباً (حيث أخذهم أوستينوف لعنده إلى وزارة العدل) وجر معه إلى النيابة العامة فريقه السابق.

فيما بعد، صاروا يمزحون في الكرملين قائلين، كان من الأبسط والأرخص أن ينقلوا اليافطتين: من النيابة العامة إلى وزارة العدل وبالعكس.

المزاح يبقى مزاحاً والنكتة نكتة، لكن مثل هذه القصة تماماً ستحدث بعد بضعة أعوام بين البيت الأبيض الروسي والكرملين، عندما سيتبادلان مواقعهما حيث سيصبح ميدفيديف الرئيس وبوتين رئيس الوزراء مع جهازيهما بكاملهما، ومساعديهما ومستخدميهما.

الإمبراطورية تتلقى الضربة

في آخر آب/أغسطس 2005 جرى حدث غيّر بصورة مفاجئة السياسة الروسية كلها، الداخلية منها والخارجية. للنظرة الأولى لم يكن لهذا الحدث أية علاقة بروسيا عموماً، لكن هذا انطباع خاطئ. في 29 آب/أغسطس تعرض شاطئ المحيط الأطلسي للولايات المتحدة الأمريكية للعاصفة «كاترينا». وقد تأثرت بهذه الكارثة البيئية ولايات لويزيانا، وميسيسبي، وفلوريدا، وألاباما، وجورجيا. ولم تستطع السلطات مسبقاً ترحيل جميع سكان نيو أورليان، ولم تتنبأ بأن السدود الواقية لن تتحمل ضغط المياه. وخلال الأيام الأولى أصبحت نيو أورليان تحت سلطة المجرمين واللصوص، لدرجة اضطرت معها السلطات إلى وقف عملية الإنقاذ. وتعرض جورج بوش لسيل من النقد والتجريح لأنه لم يقطع إجازته في تكساس، بعد أن عرف بالمأساة، أي أنه كرر الخطيئة ذاتها التي ارتكبها فلاديمير بوتين قبل خمسة أعوام إثر حادثة الغواصة «كورسك».

وقد عرضت وزارة الحالات الطارئة الروسية على الولايات المتحدة الأمريكية إرسال مساعدة (على شكل طائرتي إنقاذ). رفضت الولايات المتحدة الأمريكية العرض، لكنها بعد بضعة أيام غيرت رأيها وطلبت إرسال هاتين الطائرتين. وقد شعر بوتين ووزير الدفاع سيرغي إيفانوف، ووزير الحالات الطارئة سيرغي شويغو بالدهشة من مثل هذه الفوضوية والعشوائية. لكن ما صدم بوتين أكثر هو ما حصل بعد ذلك؛ فقد انهارت شعبية جورج بوش.

عموماً، لم يكن بوتين يعتمد أبداً (وخاصة في الأعوام الأولى من رئاسته) على تقارير مراكز البحوث السوسيولوجية. ولم تكن تقنعه تأكيدات مساعديه بأن شعبيته مرتفعة، وكان يقول: «يمكنها أن تنهار في أي دقيقة». ومع تذكره، أنه خلال أشهر معدودة، جعلته القنوات التلفزيونية والحرب الشيشانية السياسي الأكثر شعبية في روسيا، كان يعتقد بأنه يمكن أن تحدث عملية معاكسة بالسرعة نفسها. وكان بوتين بعد كل مأساة في روسيا، سواء أكانت الغواصة «كورسك»، أو «نورث – إيست» أو بيسلان، يتوقع أن شعبيته ستنهار بسرعة،

وأن السكان سوف يتهمونه هو بالذات بما حدث. بيد أن هذا لم يحدث أبداً في أي مرة. وفجأة تحقق الكابوس الرئيس لبوتين أمام عينيه، ولكن ليس معه، بل مع الرئيس الذي كان يعتبره السياسي الأقوى والأكثر خبرة وحظاً، مع «الإمبراطور العسكري العالمي» جورج بوش.

والمدهش أكثر، أن بوش لم يستطع بأي طريقة الاستجابة لهذا الانهيار. ولم يستطع الرد على الاتهامات الموجهة له بعدم الكفاءة، وعدم تحميل المسؤولية لأي كان، ولا إذهال الناخبين بخطوة قوية أخرى. فبوش الذي كان بوتين يعدّه زعيما قوياً، أقوى منه نفسه، تبين أنه ضعيف. وهذا ما زرع في نفس بوتين الثقة بقواه. وغيّر جذرياً لهجة جميع المفاوضات والمباحثات اللاحقة مع الولايات المتحدة الأمريكية: فهو الآن لا يتعامل مع إمبراطور عسكري، بل مع بطة عرجاء.

ففي تشرين أول/أكتوبر 2006، كما يقول آنغوس روكبورو، هزئ بوتين من كونداليزا رايس: واضطرت إلى الجلوس عدة ساعات في الفندق والانتظار إلى أن وافق على استقبالها. فهو بكل بساطة لم يرغب، لأنه كان يتناول المشروبات الكحولية مع رفاقه. بعد اجتماع مجلس الأمن القومي الروسي، قرر أعضاؤه عدم المغادرة، والاحتفال بيومي ميلاد رئيس الوزراء دميتري ميدفيديف وسكرتير مجلس الأمن القومي سيرغي إيفانوف. وقرر بوتين، أنه لن تحصل كارثة إذا ما انتظرت وزيرة الخارجية الأمريكية حتى المساء. وحتى في المساء، لم يرغب بقطع الاحتفال، ورأى الأفضل أن يدعو كونداليزا رايس إلى مائدتهم - ولتتحدث مباشرة مع جميع أعضاء مجلس الأمن. ويتذكر ستيفن هيدلي مساعد الرئيس الأمريكي لشؤون الأمن القومي، أنهم جمدوا عندما وصلوا إلى قصر مايندورف في روبلوفكا، ودخلوا إلى الداخل، وشاهدوا على المائدة قادة روسيا الأعلى العشر دفعة واحدة، مع المقبلات والوجبات. قال سيرغي إيفانوف مخاطباً كونداليزا رايس، مازحاً، ومشيراً إلى زجاجات النبيذ الجورجي: «كوندي، انضمي إلينا، لدينا هنا، خصيصاً لأجلك، بضعة مواد

خاصة». لكن كونداليزا رايس لم تشعر بأي حرج. ورجت بوتين، ببرودة أعصاب، بالخروج من أجل حديث سري قصير. فوافق آخذا معه سكرتيره المؤتمن للعلاقات مع الأمريكيين سيرغي إيفانوف ووزير الخارجية سيرغي لافروف بصفة مترجم.26

وانتهى هذا الحديث بفضيحة: فقد تشاجر بوتين ورايس بسبب الوضع في جورجيا. وتابعت وزيرة الخارجية الأمريكية إصرارها على أن جميع البلدان - المجاورة لروسيا، يحق لها أن تقرر مصيرها بنفسها، وكان بوتين يرد، بأن روسيا لن تسمح بحل باستخدام القوة للنزاعات المجمدة المستعصية في الجمهوريتين المجاورتين لجورجيا: أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. كان الحديث يدور بلهجة متصاعدة، ولم يكن يشبه أبداً الملحمة الغنائية السابقة التي تعود لأربع سنين خلت.

في فترت مضت كانت تربط بين سيرغي إيفانوف وكونداليزا رايس علاقات صداقة حقيقية. في أيار/مايو 2002 حل جورج بوش وزوجته وحاشيته ضيوفاً على بوتين في سانت - بطرسبورغ. في إحدى الأمسيات، اقتاد بوتين ضيوفه الأمريكيين إلى مسرح «مارينسكي» لحضور عرض «كسارة البندق». في الطريق كان يتحادث سيرغي إيفانوف وكونداليزا رايس وقالا إنهما مولعان جداً بالبالية، ولا يريدان مشاهدة العرض الكلاسيكي لـ «كسارة البندق» مئة مرة. وما إن أطفئت الأنوار، اقترح إيفانوف (وكان آنذاك وزيراً للدفاع) على كونداليزا (كانت مساعدة الرئيس لشؤون الأمن القومي) الخروج من الصالة، ومشاهدة شيء ما أكثر متعة. فوافقت. واقتادها إيفانوف إلى صالة البروفات في استوديو بوريس إيفمان. ولمراقبة الهاربين من الصالة أرسل سكرتير مجلس الأمن القومي الروسي (زميلها الروسي المماثل لها بمنصبه) فلاديمير روشايلو، الذي كان منزعجاً جداً من هذه الفوضى. لكن إيفانوف ورايس كانا يشعران بسعادة غامرة.

في تشرين أول/أكتوبر من عام 2006 لم يبق أي أثر من هذه السعادة. كانت

كونداليزا رايس، التي أفسدت جلستهم الروحية في مطعم مايندورف، واقفة على قدميها بكعبها العالي، تنظر إلى بوتين وإيفانوف من الأعلى إلى الأسفل، وتكاد أن تصرخ عليهما. وقد ردا عليها بمثل هذه الكلمات والنظرات، المفعمة بالغضب والاحتقار.

بعد أسبوعين جرت في الولايات المتحدة الأمريكية الانتخابات النصفية في الكونغرس. وأصيب الجمهوريون بهزيمة ساحقة: وفقدوا مجلس الشيوخ ومجلس النواب، الذين كانوا يسيطرون عليهما عامين قبل ذلك. وقد كانت هذه إشارة دقيقة جداً بالنسبة إلى بوتين: إن بوش هو الخاسر، ولا داع لأخذه بعين الاعتبار بعد الآن. يجب الضغط عليه.

لم يثر ضعف بوش أية شكوك. كان يبدو لبوتين أن بوش لم يعد سيداً حتى في إدارته ذاتها. في عام 2007، ولرغبته بتجنب نشر الدفاعات المضادة للصواريخ في أوروبا، قدم بوتين اقتراحاً مفاجئاً: تأسيس منظومة روسية - أمريكية مشتركة من وسائط الدفاع المضادة للصواريخ، وبدلاً من تأسيس محطات رادار جديدة في التشيك، استخدام رادارات «جابالا» لوسائط الدفاع المضادة للصواريخ، القائمة في أذربيجان. أصيب الشركاء الأمريكيون بالصدمة: لم يتوقع لا جورج بوش ولا كونداليزا رايس من بوتين هذا الانفتاح والاستعداد للتعاون. وبدا، وكأن بوتين جرد الولايات المتحدة الأمريكية من أسلحتها باقتراحه هذا. ولكن بعد شهر، وصل خبراء البنتاغون بالطائرة إلى أذربيجان، من أجل فحص رادارات «جابالا» لوسائط الدفاع المضادة للصواريخ، لكنها لم تحز أبداً على إعجابهم. وأخبروا البيت الأبيض بأن منظومة وسائط الدفاع المضادة للصواريخ قديمة ولا تطابق المتطلبات الأمريكية. لقد أسقط الخبراء بوضوح اقتراحات بوتين الاختراقية، وبوش الذي وافق بالأقوال على جميع اقتراحات بوتين، لم يبد أية إرادة سياسية، للدفاع عن اتفاقهما المشترك.

تم توضيح العلاقات غيابياً في شباط/فبراير عام 2007. قدِم فلاديمير بوتين وسيرغي إيفانوف إلى مؤتمر ميونيخ للأمن من أجل إعطاء درس لجورج

بوش. وكان بوتين قد أعد خطاباً كان من المفروض، من ناحية أولى، أن يظهر علاقته بـ «إمبراطور العالم» المطاح به، ومن ناحية ثانية، كي يكون اقتراحاً لحوار جديد للرأي العام العالمي.27

بدأ بوتين خطابه بسلسلة من الهجمات على الولايات المتحدة الأمريكية و«مبدأ بوش».

لقد فشل العالم ذو القطب الواحد، المقترح بعد الحرب الباردة.

إن التاريخ يعرف بالطبع، مراحل من حالة القطب الواحد والسعي إلى الهيمنة على العالم. فقد حدثت أشياء كثيرة في تاريخ البشرية.

ولكن ما هو هذا العالم ذو القطب الواحد؟ مهما زيّنوا وجمّلوا هذا المصطلح، فهو يعني عملياً، في نهاية الأمر، شيئاً واحداً: إنه مركز واحد للسلطة، مركز واحد للقوة، مركز واحد لاتخاذ القرار.

إنه عالم بسيد واحد، وسيادة واحدة. وهذا في نهاية الأمر، مميت ليس فقط لكل من يقع ضمن هذه المنظومة، بل ولصاحب السيادة نفسه، لأنه يدمره من الداخل.

وهذا أبعد ما يكون عن الديمقراطية، بالطبع. لأن الديمقراطية هي، كما هو معروف، سلطة الأغلبية مع أخذ مصالح وآراء الأقلية بعين الاعتبار

***

«نحن نشهد اليوم استخداماً جامحاً مفرطاً للقوة في العلاقات الدولية، للقوة الحربية، القوة التي تغرق العالم في هاوية النزاعات المتتالية واحداً إثر الآخر. وبالمحصلة لا نجد القوة الكافية لحل شمولي لأي منها. كما يغدو حلها السياسي مستحيلاً.

نحن نشهد تجاهلاً متزايداً لمبادئ القانون الدولي الأساسية. وعلاوة على ذلك،

فإن بعض القواعد، بل في الحقيقة، كامل منظومة الحقوق لدولة واحدة، وبادئ ذي بدء، الولايات المتحدة، قد تجاوزت حدودها القومية في جميع المجالات: في الاقتصاد، والسياسة، وفي الشأن الإنساني - وتفرضها على الدول الأخرى. فلمن يروق هذا؟ لمن يروق هذا؟».

هذا الجزء الصارخ، المعادي لأمريكا من خطاب بوتين، قد لاحظه الجميع واقتبسوه ونشروه. وقد أثار هذا الجزء فضيحة جدية، لدرجة أن الجزأين الثاني والثالث من الخطاب لم يلاحظهما أحد. أما الجزء الثاني فقد كان طموحاً، لكنه داعياً للسلام بدرجة أكبر بكثير: فقد طرح بوتين صياغة هندسة جديدة للأمن الدولي، أي الإصغاء لصوت روسيا وبلدان «البريكس»******** الأخرى، وليس تقرير كل شيء في إطار حلف الناتو وحده. واحتوى الجزء الثالث من الخطاب على تعداد روتيني للإساءات التقليدية التي تعرض لها بوتين: رفض البلدان الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية التصديق على معاهدة القوات المسلحة التقليدية المعدلة، توسيع حلف الناتو نحو الشرق، إعاقة الاستثمارات الروسية في أوروبا، فشل روسيا على طريق الانتساب إلى منظمة التجارة العالمية.

إن هذه الشعبوية الدولية قد لعبت دوراً مزدوجاً. من ناحية أولى، أصبح خطاب بوتين في ميونيخ الأكثر شعبية وشهرة. والصورة التي اختبرها بوتين، صورة المعادي الأكبر لأمريكا في العالم سرعان ما جلبت أرباحها - حسب محصلات السنة، تم الإعلان عن بوتين بأنه شخصية العام، حسب تقييم مجلة تايم. وذلك ليس أبداً لتحقيقه منجزات ما، على الرغم من أنه في ذلك العام 2007 استطاع بوتين تنفيذ أكبر وأعقد عملية في منصبه السياسي، وهي عملية «الخليفة». لقد نال بوتين الاعتراف العالمي تحديداً، بفضل بلاغته الجديدة التي اكتسبها بعد إدراكه أن عليه ألا يسترشد بعد الآن بجورج بوش، وألا يسعى ليحوز على إعجابه أو إعجاب أي شخص آخر. في حزيران/يونيو 2007، عشية قمة الدول «الثماني العظام»، عبر عن هذه الفكرة في حديث صحافي بالاستعارة التالية:

«بعد موت المهاتما غاندي لم يعد هناك من يمكن الحديث معه». بعد توديعه لجورج بوش، جلس بوتين منفرداً لوحده، وهو على ثقة كاملة بأنه هو الآن، الزعيم العالمي الأكثر خبرة، والأقوى والأكثر حظاً.

حرب كل يوم

كلما اقتربت أكثر نهاية فترته الرئاسية كلما غضب بوتين أكثر، مما يعني كلما أصبحت السياسة الروسية الخارجية أكثر عصبية. لم يكن واثقاً من أن عملية «الخليفة» ستتم بنجاح - وفي نهاية الأمر، لم يحدد هو نفسه من سيكون الخليفة، ومتى سيحدد اسمه، وألن تنشئ صعوبات غير متوقعة في مسار العملية.

أما المصدر الثاني لتهيّج بوتين الدائم فهو العلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية. فالإساءات المتراكمة كان يتم التنفيس عنها بتحويلها إلى إحدى الدول، ولهذا تحول عاما 2006 و2007 إلى فضائح شديدة - فالسلطة الروسية كانت تنهال بكامل قوتها على إحدى الدول المجاورة الصغيرة.

في ربيع عام 2006 قررت روسيا معاقبة جورجيا ومولدافيا بسبب سياسة سلطتيهما الجديدة الموالية للغرب: تم حظر تصدير النبيذ الجورجي والمولدافي إلى روسيا، وكذلك المياه المعدنية الجورجية.

أعلنت السلطة الجورجية عن اكتشاف مجموعة تجسس روسية، وردت روسيا ببدء حملة قوية كبيرة ضد جورجيا - فقد أبعدت خلال أسبوع جميع العمال المهاجرين العاملين في روسيا من مواطني جورجيا. ومن أجل البحث عنهم بسرعة، كان رجال الشرطة يدخلون إلى المدارس ويسجلون في قوائم جميع الأطفال والتلاميذ ذوي الأسماء الجورجية. وفي الوقت نفسه، تم وقف النقل الجوي والطائرات المتوجهة إلى العاصمة تبيليسي.

في بولندا، قام مجموعة من الأشقياء بضرب أطفال العاملين في السفارة

الروسية. رأى بوتين على الفور في هذا العمل استفزازاً ورغبة مقصودة بإهانة روسيا. وتذكر على الفور، أنه في بداية رئاسته، تطلع الشيوعي السابق رئيس بولندا ألكسندر كفاسينيفسكي نحوه بثقة، ولكن فيما بعد أصبح كفاسينفسكي بالذات الوسيط الأساسي في المفاوضات بعد «الثورة البرتقالية»، وهو نفسه بالذات من ساعد في وصول فيكتور يوشنكو إلى السلطة في أوكرانيا. وبدأت في روسيا حملة معادية لبولندا، ترافقت مع حظر المواد الغذائية البولندية.

وأخيراً، في ربيع 2007 انتقلت صفعة العدو الرئيس إلى إستونيا. فقد قررت السلطات الإستونية، تحت ضغط القومين المحليين المتعصبين، تأجيل دفن الجنود السوفييت، وكذلك نقل النصب التذكاري الذي كان قائماً في إحدى ساحات تالين الرئيسة إلى المقبرة العسكرية. وبدأت بين سكان إستونيا الناطقين باللغة الروسية أعمال التمرد التي التقطها بسرعة أعضاء منظمة سوركوف «جماعتنا». وأرسلوا قوات إنزال جوي إلى تالين وفرضوا حصاراً في الوقت نفسه على السفارة الإستونية في موسكو. وسرعان ما أيدت ضغطهم باقي أبواق سوركوف الدعائية: بدأت القنوات التلفزيونية الروسية الحكومية بإطلاق اسم «خلفاء النازيين» على القادة الإستونيين، وأخذت تقارن أحداث 2007 بالحرب العالمية الثانية - وكأن الحرب بين «الروس» و«الفاشيين» تستمر، كما كانت قبل نصف قرن. وقد صعّد هذا الوضع بوتين نفسه، حيث قال في خطبته التي ألقاها في عرض عيد النصر في 9 أيار/مايو، «كما في عهد الرايخ الثالث» هناك في العالم من يظهر «الاحتقار ذاته نحو الحياة الإنسانية، وينادي بتطلعه إلى الاستثنائية العالمية والإملاء»، حيث قارن عملياً بين الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا الهتلرية. وبعد خمسة أشهر أدان الاتحاد الأوروبي لأنه «يكرر إضفاء الصورة البطولية على النازيين وأعوانهم القتلة»، قاصداً بذلك سلطات إستونيا ولاتفيا. وقد أصبحت هذه التجربة الأولى، والوحيدة لفترة طويلة، من مثل هذه المقارنات - في المرة المقبلة حدث نقل للواقع السياسي إلى الماضي وإعادة تصميم نماذج أدوار الحرب العالمية الثانية إلى السياسة الروسية، وذلك في عام 2014.

إن سيرغي إيفانوف، الذي لم يكن مجرد خليفة محتمل لبوتين فحسب، بل ومفوضاً من قبل بوتين في التواصل مع الولايات المتحدة الأمريكية، سرعان ما أخذ يسمح لنفسه بإلقاء بيانات سياسية خارجية قوية. وبعد انتهاء الحملة المضادة لإستونيا، التقى هو بالذات بنشطاء منظمة «جماعتنا»، (وكذلك مع زعيميْها فلاديسلاف سوركوف وغليب بافلوفسكي) وشكرهم على عملهم الذي أنجزوه. وعلى الرغم من أن حصار السفارة الإستونية في موسكو شكلت خرقاً فاضحاً لمعاهدة فيينا، وكانت السلطات الروسية قد أعلنت أن لا علاقة لها بهذا الحصار، قال وزير الدفاع الروسي سيرغي إيفانوف، إنه «يؤيد الميول الوطنية» للمحاصرين، وهو «عموماً يشكرهم على هذا».

لقد أصبح سيرغي إيفانوف في عام 2007، فعلياً، الوجه السياسي الخارجي الثاني لروسيا بعد فلاديمير بوتين. وكانت تصريحاته المتشددة تُعرض في جميع النشرات الإخبارية، الأمر الذي زاد بالطبع من شعبيته. وفي الوقت نفسه، كان الخليفتان المحتملان يتجولان من دون كلل أو ملل في أنحاء روسيا، وكأنهما يتابعان الأعمال القيّمين عليها في المناطق. في حين أن الواقع، أنها كانت أشبه بحملة ما قبل الانتخاب: كان ميدفيديف يفتتح المستشفيات والجامعات الجديدة، ويوزع المساكن المجانية ويزور المؤسسات الزراعية. وإيفانوف، باعتباره قيّماً على المجمع الصناعي الحربي، كان يزور المصانع الجديدة، ووعد بالشروع بإنتاج الطائرات والحواسيب الروسية. وكانت زيارة كل واحد منهما تُغطى بصورة إلزامية في جميع القنوات التلفزيونية: حيث كانت هناك في النشرات الإخبارية المسائية ملفات خاصة عن بوتين وإيفانوف وميدفيديف.

وبحلول صيف 2007، أصبح من الواضح أن إيفانوف سيفوز. فمواضيع تصريحاته الوطنية كانت تلقى صدى أكبر بوضوح، لدى المشاهدين: وأصبحت المواضيع التي تبث عنه أكبر بوضوح، على الرغم من أنه لم تكن هناك أية تعليمات بهذا الخصوص من الأعلى - أثّر في ذلك التوجه العام للقنوات

التلفزيونية الحكومية. تفوقت شعبية إيفانوف على شعبية ميدفيديف بوضوح. وأخيراً مال تعاطف منظّر الكرملين الرئيس فلاديسلاف سوركوف باتجاه إيفانوف تحديداً. كان إيفانوف معجباً بالحركات الشبيبية التي أسسها سوركوف، حيث كان يردد بسرور الخطاب المعادي للثورة الذي زرعه سوركوف، من أجل القضاء على «الثورة الملونة» في المهد.

كان لدى كل من الخليفتين جهازه، لكن الأهم، كان لكل منهما هيئة أركانه غير الرسمية التي كانت تعمل في الواقع على تقدم مرشحها إلى الأمام.

وبحسب ذكريات العاملين في الكرملين والحكومة آنذاك، كان إيفانوف أول من ارتكب خطأً. فقد صدّق بأن لديه فرصة، وهي فرصة كبيرة جداً، وكان من غير الممكن ألا يلاحظ أنه يتفوق على منافسه ميدفيديف في جميع المؤشرات، وعلى الأغلب أراد، عن جد، أن يصبح خليفة بوتين. وفي حزيران/يونيو 2007 كُلّف إيفانوف بالذات (فجأة) بافتتاح أعمال مؤتمر بطرسبورغ الاقتصادي - ألقى الرئيس بوتين خطابه في اليوم الثاني، أما اليوم الأول فأصبح مكسباً لنائب الرئيس، الذي لم يكن مسؤولاً عن الاقتصاد.

من غير الواضح، في أية لحظة أخطأ إيفانوف. يتم ذكر، على سبيل المثال، هذه الحادثة: في أثناء زيارة إلى الخارج، في إحدى البلدان الآسيوية، بحث بوتين وإيفانوف إمكانية تسليم هذا البلد أنظمة الدفاع الجوي. وبدهي، أن إيفانوف كان يعرف أكثر موضوع البحث، وفي لحظة من اللحظات، تسارع وبدأ الإجابة عن سؤال محدثه، من دون أن يلتفت إلى بوتين. فالتفت إليه الرئيس بوتين وقال له هامساً: «ما بك، بدأت تجيب عني؟».

الثالث المجهول

في أيلول/سبتمبر 2007، قبل نصف سنة من الانتخابات الرئاسية المقبلة، وقبل ثلاثة أشهر من الانتخابات البرلمانية، قَدّم بوتين، على حين غرة، لدائرته وحاشيته المحيطة، مفاجأة. كان الجميع ينتظرون توضيحاً حول شخصية

الخليفة، أما هو، فعلى العكس من ذلك، قرر زيادة الغموض حول هذا الموضوع - من دون سبب ظاهر، أقال حكومة ميخائيل فرادكوف. علاوة على ذلك، تصرف مع رئيس الوزراء بصورة مهينة، أكثر مما فعله قبل عام مع صديقه النائب العام أوستينوف. فقد أقال بوتين أوستينوف، وطلب منه التظاهر بكتابة طلب الاستقالة (في أثناء توديعه لزملائه في النيابة العامة، نشر أوستينوف، بسرعة، رواية تزعم أن استقالته كانت طوعية).

وكي لا يحدث مثل هذا الموقف للمرة الثانية، أرغم فرادكوف على أن يقدم استقالته علناً، على الملأ - أمام كاميرات التلفزيون. فنتج مشهد مصطنع، بعيد عن الإقناع: تحدث رئيس الوزراء بشيء ما، محاولاً تفسير سبب تقديم استقالته، مع أنه هو نفسه، لم يفهم لماذا كل هذا، وهو نفسه، غالباً، كان مصدوماً بخبر إقالته.

كانت أطماع فرادكوف السرية السبب الرئيس لتسريحه، بالطبع. فبينما كان بوتين يتابع تمضية الوقت، ولم يعلن أبداً، لمن سيترك العرش، تعزز لدى فرادكوف بصورة متزايدة الأمل، بأن ثمة فرصة له. ومثل هذا الأمل كان يدعمه صديقه القديم إيغور سيتشين، بكل ما أوتي من القوة. وهما كلاهما عوقبا بفشل «مؤامرة الرباعي» التي لم تتحقق، لكنهما خففا إلى حد كبير من نشاطيهما. ومع ذلك، كان المسؤول البيروقراطي الخبير فرادكوف يضع العصي، من فترة لأخرى، في عجلات الخليفتين، اللذين كانا، رسمياً وشكلياً، نائبيه. ومما لا شك فيه، أن إيفانوف وميدفيديف كانا يشكوان للرئيس من خطواته التخريبية - ومع اقتراب اللحظة المسؤولة لنقل السلطة، قرر بوتين التخلص من حلقة فائضة لا لزوم لها، قد تلحق الضرر بخطته.

في عام 2004، بعد تعيين فرادكوف رئيساً للحكومة، مدحه بوتين أمام الصحافيين، متذكراً كيف أن ميخائيل فرادكوف أيّد، بشجاعة وبلا مهادنة، إصلاح إدارته التي كان يرأسها (الشرطة الضريبية) في سبيل مصالح الدولة. ولكن في عام 2007، روى «فاعلو الخير» لبوتين، أن فرادكوف الآن، وعند كل

فرصة سانحة، يروي رواية أخرى تماماً لتلك الأحداث. حيث يزعم أن إدارته (الشرطة الضريبية) كانت تحاسب الأوليغارشيين، وتجبي منهم الضرائب بشرف وبلا مهادنة، لدرجة أنهم تدافعوا باعتراضاتهم التافهة إلى الرئيس، وخدعوه وكذبوا عليه كي يتخلص من هذه الإدارة الفاعلة والمتابِعة لهم باستمرار. وكأن الرئيس صدق ادعاءاتهم، وخضع لافتراءات التماسيح - وعن طريق الخطأ ألغى الشرطة الضريبية. وأنه فقط، في عام 2004 بعد قضية شركة «يوكوس ЮКОС»، أدرك خطأ رأيه وأعاد فرادكوف.

عندما سمع بوتين أن رئيس الوزراء الهادئ قد تحول على هذا النحو، وأخذ يلفق عن نفسه هذه القصص، ضحك كثيراً، حسب أقوال شهود العيان. لكنه استخلص النتائج اللازمة.

عيّن بوتين في منصب فرادكوف شخصاً لا يقل عنه غموضاً، هو فيكتور زوبكوف، وهو من معارف بوتين القدماء منذ أيام لينينغراد (كان في التسعينيات نائبه في لجنة العلاقات الخارجية في محافظة بطرسبورغ)، وفي السنة الأخيرة كان يشغل منصباً متواضعاً، رئيس الاستخبارات المالية. وهو كموظف مسؤول، إنسان عادي غير متميز بأي مجال، وكسياسي ضعيف للغاية - باستثناء مرة واحدة، في عام 1999 حاول زوبكوف المشاركة في انتخابات محافظة منطقة لينينغراد (معتمداً في ذلك على حماية رئيس الوزراء بوتين)، لكن لم يستطع الوصول إلّا إلى المركز الرابع.

في عرضه على زوبكوف منصب رئيس الحكومة، بدهي، أن بوتين لم يشرح له أي شيء. وقال له، حسب أحد من المقرّبين من الرئيس، بضع عبارات عامة «الوطن يحتاج إلى خبرتك» و «على أية حال سوف نعمل معاً». على الأغلب، كان من غير المناسب لبوتين أن يقول له إنه في حاجة إلى مجرد موظف مسؤول، كي يحتفظ بمنصب رئيس الوزراء لمدة نصف عام، ليست لديه أية أطماع أو مطامح. لكن زوبكوف لم يفهم هذا بدقة - فبعد أسبوعين من تعيينه، صرّح بأنه لا يستبعد احتمالية ترشيحه لمنصب الرئيس. وعلاوة على ذلك، فهو

إنسان عديم الشعبية تقريباً، لكنه أخذ يتصرف بإسراف مفرط. وعلى سبيل المثال، في الأيام الأولى من ترأسه الحكومة، وجه كلمات مهينة لمحافظ بنزا: هدده بأنه سيرسله «ليرقص كمهرج مع الأطفال»، إذا لم يزد رواتب المربين في دور الحضانة.

بعد أسبوع، زجر بوتين زوبكوف، قائلاً، لا حاجة إلى أن تبدأ حملتك الانتخابية. عندئذٍ هدأ زوبكوف ولم يعد يقوم بأية حركة متهورة حتى شهر أيار/مايو التالي، عندما تنازل عن منصب رئيس الوزراء لفلاديمير بوتين نفسه.

بإقالته لحكومة فرادكوف، كان بوتين قد قرر بشكل نهائي من سيضع خليفة له. وكان تبديل الوزارة مجرد حركة رمزية - إنها كانت تعني نهاية الصراع الخفي ما قبل الانتخابي، وبداية عمل هادف مع الخليفة. ففي أيلول/سبتمبر عرِفت الحاشية المحيطة ببوتين كلها، أنه تم الاختيار - وأن دميتري ميدفيديف سيغدو الرئيس التالي.

كان بوتين وميدفيديف في حاجة إلى الأشهر المتبقية للاتفاق بالتفصيل على تقنية انتقال السلطة، وسيرورة العمل المقبل، ونظام تنسيق القرارات. وقال بوتين في حلقة مساعديه المقربين: «لقد فكرنا في كل شيء وقررنا كل شيء». وكي لا تنشأ مشكلات في التواصل، سينتقل رئيس إدارة الرئاسة سيرغي سوبيانين إلى مقر الحكومة في البيت الأبيض ويصبح رئيس جهاز الحكومة. أما رئيس جهاز الحكومة سيرغي ناريشكين، بالعكس، سينتقل إلى الكرملين. فهما يعرفان بعضهما جيداً، وسيؤمنان التواصل المستمر بين رأسي الدولة بالتزامن. يقول المشارك في هذا الحديث ساخراً: «من كان في إمكانه أن يفكر، أنه بعد نصف سنة، سيتوقف سوبيانين وناريشكين عن تبادل الحديث، وأنه ستنشأ المشاجرات، إلى درجة تقارب تبادل القذائف بين الكرملين والبيت الأبيض؟».

******** صيغة التصغير والتحبب لاسم دميتري. (م).

******** نسبة إلى الروائي والمسرحي الروسي الناقد نيقولاي غوغول 1852 - 1909 مؤلف رواية «المعطف» و«نفوس ميتة». (م).

******** مقر رئاسة الوزراء الروسية. (م).

******** المقصود فيكتور يوشنكو رئيس أوكرانيا السابق. (م).

******** البرلمان الألماني. (م).

******** الحلف الذي وقعه وزيرا خارجية الاتحاد السوفييتي وألمانيا النازية قبيل الحرب العالمية الثانية. (م).

******** جماعة التربة أو جماعة الأرض: تيار من الفكر الاجتماعي الروسي ظهر في الستينيات من القرن التاسع عشر. (م).

******** البرازيل، روسيا، الهند، الصين، جمهورية جنوب أفريقيا. (م).

الجزء الثالث: القيصر المزيف

الفصل التاسع: ميخائيل ساكاشفيلي رئيس جورجيا يتمكن من المحافظة على السلطة وعلى شيء أهم

ميخائيل ساكاشفيلي يحب الحياة كثيراً، حتى أنه يحبها أكثر من السلطة. وطيلة فترة رئاسته لجورجيا، كان يسرّه دوماً مقارنة نفسه ببوتين. وكثيراً ما كان يبدو سلوك كل منهما وكأنه صورة منعكسة في مرآة: كل منهما كان يسعى إلى أن يبدو زعيماً قوياً، مفتول العضلات، متشدداً، بيد صلبة، ويحلق بالطائرات، ويركب سيارة «فورمولا -1». بالطبع، كان ساكاشفيلي يقلّد بوتين (على الرغم من أنه يؤكد أن بوتين يقلده). لكن ساكاشفيلي في اللحظة الحاسمة، وعند الاختيار بين الحياة الجميلة والسلطة اختار الأولى.

عندما كان رئيساً، كان يُدهش الجميع، كيف يمكن لرئيس أن يجلس نصف النهار في مطعم مع الصحافيين، وهو يشرب الويسكي؟ أو على سبيل المثال، كيف يمكن أن يغيب طيلة أمسية ويركب الطائرة العمودية ليتوجه إلى ناد ليلي في باتومي. إن نمط حياته، الذي كان يبدو مسترخياً للغاية، لا يتوافق بأي شكل من الأشكال مع نمط حياة الرئيس–المصلح، المستعد لأن يضحي بحياته في سبيل تغيير تاريخ بلاده. كما أنه لا يتوافق بالدرجة نفسها مع صورة الديكتاتور، المستعد لتقديم حياته، كي لا يسلم السلطة لأحد.

فجأة سلّم ساكاشفيلي السلطة، فعلاً، للمعارضة - وهي ظاهرة نادرة في الاتحاد السوفييتي السابق. في المرحلة الأخيرة التقينا معه في كييف، في شارع البنوك، في مقر إدارة رئيس أوكرانيا - كان يتهيأ للعودة إلى السلطة ولكن في بلد آخر.

لقد أجرى ميخائيل ساكاشفيلي غالباً، أكثر الإصلاحات الاقتصادية إثارة للإعجاب في رابطة الدول المستقلة. ومن المتعارف عليه اعتبار المرحوم كاخا

بندوكيدزه منظّر كثير من الإصلاحات، أما صاحب الإصلاح الشهير، إصلاح جهاز الشرطة، فهو فانو ميرابيشفيلي، المعتقل في السجن. لكن الحقيقة تبقى أنه لم تجر في أي من بلدان ما بعد الاتحاد السوفييتي مثل هذه الإصلاحات السريعة والفاعلة المؤثرة، كما جرت في جورجيا. صحيح، أنها لم تستمر طويلاً، كما يحدث عادة، فالإصلاحات الأهم والأكثر جوهرية أجريت خلال العامين الأولين، ثم بدأ الركود.

كما أن ساكاشفيلي كان يعيش حياة بذخ وترف شديدين، وكان يستقل الطائرة من فترة لأخرى، برفقة مساعداته الشابات، من بلد لآخر، لشؤون مريبة، مشكوك بأهميتها وضرورتها - وهو سلوك أبعد ما يكون عن التقشف. ومع ذلك، من غير الممكن التأكيد بأن ساكاشفيلي سرق الملايين. وعلى أية حال، لم يتهمه أحد بذلك: فجميع الاتهامات التي وُجهت إليه في جورجيا تتعلق بتجاوز صلاحياته وهدر أموال الدولة ولكن ليس سرقتها. ثمة كثير من الأسئلة التي تُوجه إليه، ولكن من أدار دفة الحكم أفضل منه؟

والطريف في الأمر، لماذا ساكاشفيلي بالذات أصبح عدو بوتين الرئيس؟ إنه واثق بأن السبب لأنه بدّل الوجهة السياسية الخارجية لبلده، وأصبح إصلاحياً ناجحاً.

يخطئ ساكاشفيلي كثيراً في ذكرياته - وأحياناً يغيِّر مكان الحدث، بحيث يلحظ ذلك حتى المستمع العادي غير المؤهل. وربما المسألة لا تكمن في الإصلاحات ولا في السياسة أبداً. ربما المسألة تكمن في أن ساكاشفيلي استطاع إنجاز حلم بوتين - فقد استطاع، من دون التشبث بالسلطة، أن يحتفظ بحياته الجميلة. وهذا ما كان يرغب فيه بوتين رغبة شديدة، لكنه لم يتمكن من تحقيقه.

أعداء بالوراثة

وَرِث دميتري ميدفيديف من فلاديمير بوتين عدوّه الرئيس - جورجيا ورئيسها

ميخائيل ساكاشفيلي. وبعد «الحملة المضادة لجورجيا» في عام 2006، تعززت أكثر هذه الوضعية. في الكرملين كانوا يحبون رواية طرفة، أن بوتين يكره «ميشيكو» (صيغة تصغير للتحبب على الطريقة الجورجية لاسم الرئيس الجورجي ذي الوزن الثقيل والبنية القوية)، لأن ثمة رواية مزعومة، مفادها أن ساكاشفيلي في أثناء حديثه مع الرئيس البيلاروسي لوكاشينكو، لقب الرئيس الروسي بـ «القزم بوتين». وقد أسرع لوكاشينكو ونقل هذه العبارة إلى بوتين.

إن هذا، من ناحية أولى، قريب جداً من الحقيقة - فقد تميز لوكاشينكو بنقل مضمون الأحاديث الخاصة، والوشاية والنميمة. فهو دوماً يروي لمحدثيه كل ما يقال عنهم من وراء ظهورهم - فمثل هذه المغالطة والتدليس كثيراً ما يساعدانه في حل مشاكله الخاصة. من ناحية أخرى، يؤكد ساكاشفيلي نفسه أن هذا لم يحدث أبداً، ولم يتفوه بهذا القول - وهو يرى أن هذه الأسطورة اخترعوها في الكرملين، كي يعبروا بطريقة ما عن كراهيتهم لبوتين.

وبحسب قول ساكاشفيلي، منذ البداية، سعى بوتين إلى إظهار جبروته وعظمته. وعلى سبيل المثال، روى ساكاشفيلي القصة التالية. عندما أصبح رئيساً لجورجيا، توجه ساكاشفيلي في أول رحلة خارج جورجيا، إلى موسكو، وفي الرحلة ذاتها زار ألمانيا أيضاً. في أثناء لقائه الأول مع المستشار الألماني غيرهارد شرودر، كان ساكاشفيلي ينظر بكثير من الود والمحبة نحو بوتين (كان القسم الأكبر من المشاكل في المستقبل لاحقاً)، وحدثه بالتفصيل عن المشكلات القائمة بين جورجيا وروسيا. وبعد عدة أيام، عندما عاد الرئيس الجورجي إلى تبيليسي، حضر لعنده السفير الروسي مع تسجيل كامل للقائه المغلق مع شرودر. وقال له السفير: «كان بودي لفت انتباهك إلى تلك الجوانب من محادثاتك مع المستشار الألماني الاتحادي، التي لم ترق لنا». يقول ساكاشفيلي: «كنت آنذاك أعدّ شرودر زعيماً غربياً عظيماً. ولهذا صُدمت لأنه أعطى بوتين التسجيل الكامل لحديثنا».

كلما كانت تقترب نهاية فترة بوتين الرئاسية، كلما اتضح أكثر أن من غير

الممكن الوصول إلى علاقات صداقة مع جورجيا. في 4 نيسان /إبريل كان من المفترض أن تُعقد قمة الدول الأعضاء في حلف الناتو في بوخارست، التي كان من المقرر فيها منح جورجيا وأوكرانيا وضعية المرشحتين لعضوية الحلف. إن منح وضعية «خطة العمل لاكتساب العضوية» لبلد ما، يعني أن انضمامه إلى حلف الناتو حتمي - ولا يبقى سوى تنفيذ بعض الواجبات البيتية.

ومن الأمور ذات الدلالة الكبيرة، أنه من بين جميع بلدان رابطة الدول المستقلة لم تحاول الدخول إلى حلف شمال الأطلسي والتحرر من نفوذ موسكو سوى جورجيا وأوكرانيا. إن وضع جورجيا، مثله مثل وضع أوكرانيا، كان وضعاً خاصاً، سواء في الإمبراطورية الروسية أو في الاتحاد السوفييتي. وعلى الرغم من أن جورجيا غزتها القوات الروسية في عام 1801، ولكن في عام 1812 أصبح بيتر باغراتيون، حفيد الأسرة القيصرية الجورجية، بطل الحرب ضد نابليون واستشهد في معركة بورودينو.

لقد كان بين الزعامة السوفييتية، منذ السنوات الأولى، كثير من القادة من أصول جورجية. وكان منهم ثلاثة في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي في الفترة بين 1930 -1950: الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي جوزيف ستالين، وزعيم الصناعة الثقيلة السوفييتية سيرغو أرجينيكيدزه (وقد وقف ضد أعمال ستالين القمعية، وانتحر في عام 1937)، ولافرينتين بيريا - أحد زعماء التنكيل، ورئيس مفوضية الشعب للشؤون الداخلية، ومهندس معتقل غولاغ وأبو القنبلة الذرية السوفييتية.

ولد جوزيف ستالين في مدينة غوري الجورجية. إن شخصية ستالين لا تزال جدلية للغاية، سواء بالنسبة إلى روسيا أو بالنسبة إلى جورجيا. في عام 1956، وبعد المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، الذي أطاح فيه خروتشوف بتقديس شخصية ستالين، بدأت الاضطرابات في جورجيا - وسقط هناك ضحايا في أثناء قمع المتمردين.

لقد كانت شعبية ستالين، وخاصة بين النخبة السياسية الجورجية، ولوقت لاحق، كبيرة جداً. وكان فاسيلي مجافانادزه، الذي شغل منصب السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي الجورجي طيلة فترة طويلة (1950 -1970)، أحد المشاركين في المؤامرة ضد خروتشوف، ومن أنصار الإبقاء على متحف ستالين في مدينة غوري. حتى أن النصب التذكاري لستالين في مسقط رأسه غوري لم يُطح به حتى بعد الإطاحة بتقديس شخصية ستالين وبعد انهيار الاتحاد السوفييتي.

في الآن نفسه، كانت جورجيا في آخر أعوام الاتحاد السوفييتي مركز العداء ضد النزعة الستالينية وحتى ضد النظام السوفييتي. كما أن الفن الجورجي - السينما، والفنون التشكيلية، والموسيقى والمسرح - كانت تشكل جزءاً مهماً من الثقافة السوفييتية. ففيلم تنغيز أبولادزه «التوْبة» الناطق باللغة الجورجية، والذي أنتج قبل البيريسترويكا أصبح في عام 1994 الرمز الرئيس لحملة الغلاسنوست********، وكان قد فاز في عام 1987 بالغراند-بري (الجائزة الكبرى) في مهرجان كان السينمائي. يروي الفيلم قصة طاغية جورجي محلي لَعَنه الأحفاد، بوجه يشبه وجه بيريا******** ومجافاندزه في الآن نفسه، وفي نهاية الفيلم يقوم ابنه بإخراج جثة الديكتاتور الميت ويطيح بها جانباً.

وقد أصبح إدوارد شيفارنادزه، زعيم جورجيا في المرحلة السوفييتية المتأخرة، في عام 1985 وزير خارجية الاتحاد السوفييتي، وكان إلى جانب غورباتشوف، أحد مهندسي السياسة الخارجية السوفييتية التي أدت إلى نهاية الحرب الباردة وسقوط جدار برلين.

ويؤكد ساكاشفيلي، أنه خلال جميع لقاءاته مع بوتين، كان الأخير يحدثه عن ستالين، وكان يؤكد، على سبيل المثال، إنه يعمل في مكتب ستالين السابق في الكرملين. ويقول ساكاشفيلي: «وما حاجتي إلى سماع هذا كله؟ عموماً، أنا أبصق على ستالين».

يصعب علينا القول، ما إذا كان بوتين ينظر النظرة نفسها إلى ستالين - فهو في خطبه وكلماته العامة لم يشر أبداً إلى ستالين. بيد أنه كان يحب فعلاً استخدام بيت ستالين الريفي في فولينسك، من أجل المباحثات والمفاوضات التجارية.

على أية حال، كان رئيسا جورجيا وأوكرانيا ميخائيل ساكاشفيلي وفيكتور يوشينكو النصيرين الرئيسين للتكامل الأوروبي-الأطلسي على أراضي الاتحاد السوفييتي السابق. وكان جورج بوش الابن، وهو في سنة رئاسته الأخيرة، على قناعة بأنه يجب منح هذه الوضعية لكلا الجمهوريتين ما بعد المرحلة السوفييتية. ويتذكر ساكاشفيلي، أنه قبل بضعة أسابيع من اجتماع القمة في بوخارست، كان في واشنطن. وفي الصباح، وقبيل لقائه بجورج بوش، اتصلت به أنجيلا ميركل، وحذرته قائلة: «أتعرف، مهما أعطاك جورج بوش من وعود، لن أسمح بإعطاء جورجيا وأوكرانيا وضعية "خطة العمل لاكتساب العضوية"». فحدث ساكاشفيلي بوش باتصال ميركل. أجابه بوش: «أنجز أعمالك ومهماتك، وأنا بنفسي سأهتم بهذه المرأة».

ولكن كان واضحاً في اجتماع القمة في بوخارست، أنه لن تنتهي الأمور من دون فضيحة. كانت أنجيلا ميركل متشبثة برأيها بقوة، وقد أيدها الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي. وكانت حججهما، أن أوكرانيا وجورجيا غير مهيأتين للانتساب إلى الحلف. فما يتعلق بأوكرانيا، يقف القسم الأكبر من سكانها بحدة ضد حلف الناتو. أما بالنسبة إلى جورجيا، فقد قال ميركل وساركوزي، أولاً، إن ميخائيل ساكاشفيلي لا يبدو ديمقراطياً حقيقياً، فقد أغلق في تشرين ثاني 2007 أكبر قناة تلفزيونية للمعارضة، وفرّق بقسوة شديدة حشد المعارضين لسلطته. وثانياً، قال الرئيس الفرنسي، إن لدى جورجيا نزاعين حدوديين مجمدين، وهل بلدان حلف الناتو مستعدة لإرسال جنودها إلى هناك، إذا ما انتقل النزاعان الحدوديان في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية إلى مرحلة أخطر؟

لقد أثار موقف فرنسا وألمانيا هذا سخط بلدان أوروبا الشرقية. واتهم رؤساء هذه الدول، في اللقاء العام لرؤساء دول الحلف، ميركل وساركوزي بما يشبه

التصريح، بأنهما يقفان موقفاً ممالئاً لروسيا، وأنهما منتفعان من الغاز الروسي. علاوة على ذلك، قالوا لوزير الخارجية الألماني فرانك-فالتر شتاينماير، إن ألمانيا بعد كل ما فعلته في القرن العشرين، لا تملك أي حق معنوي لأن تقف من جديد في طريق بلدان أوروبا الشرقية نحو الحرية. وألحقوا بذلك إهانة بالوزير شتاينماير.

لقد تحول العشاء الرسمي في يوم افتتاح القمة إلى فضيحة متواصلة. وبعد العشاء تابع وفدا الولايات المتحدة الأمريكية وألمانيا جدالهما. واستمرت المباحثات إلى صبيحة اليوم التالي. وبحسب شهود العيان، كان الأكثر طرافة النقاش بين أنجيلا ميركل وكونداليزا رايس: فقد كانت هاتان المرأتان الوحيدتان في القاعة واقفتين بعيداً عن الرجال وتتحدثان بصوت عال فيما بينهما باللغة الروسية - فهما تتحدثان بطلاقة باللغة الروسية. وفي أثناء هذا الحديث الصباحي بالذات، اقترحت أنجيلا ميركل حلاً وسطاً: لن تُمنح وضعية «خطة العمل لاكتساب العضوية» لجورجيا ولا لأوكرانيا، ولكن سيشار في البيان الختامي إلى أن أعضاء الحلف على قناعة بأن هاتين الدولتين «ستكونان عضوين في الناتو». من دون تحديد أي تاريخ.

لكن هذا الحل الوسط، الذي أيدته في المحصلة جميع البلدان الأعضاء في الحلف، لم يناسب لا جورجيا ولا أوكرانيا ولا روسيا. كان ساكاشفيلي يشعر بالامتعاض، لكن فلاديمير بوتين كان أشد سخطاً، ووصل بالطائرة إلى بوخارست في اليوم الأخير من اجتماع القمة، بعد اتخاذ قرار بعدم منح البلدين وضعية «خطة العمل لاكتساب العضوية». وعلى الرغم من اتخاذ هذا القرار فقد كان غاضباً جداً لأن الحلف أكد قبول هذين البلدين في الحلف مستقبلاً.

بحسب أقوال الشهود، في اللقاء الختامي، احتد بوتين كثيراً، وقال لجورج بوش عندما دار الحديث حول أوكرانيا: «أوكرانيا - هذه عموماً ليست دولة. فقسم من أراضيها هي أوروبا الشرقية، أما القسم الآخر، والأكبر، فهو هدية منّا!». وأنهى كلمته القصيرة بالجملة التالية: «إذا ما انضمت أوكرانيا إلى حلف

شمال الأطلسي، فستنضم من دون القرم ومن دون القسم الشرقي منها - إنها ستتفكك».

لم يلتفت كثيرون إلى تهديد بوتين، لأن الجميع كانوا يتابعون التناقضات المشتعلة بين موسكو وتبيليسي. ولم يصدق أحد، بصورة جادة، أن نزاعاً حقيقياً يمكن أن ينشأ بين روسيا وأوكرانيا. علاوة على أنه لم يبق سوى شهر واحد من رئاسة بوتين، وقد حدد يوم 7 أيار/مايو موعداً لتنصيب الرئيس الجديد دميتري ميدفيديف.

قد يكون كل شيء أسوأ بكثير

حاول ميدفيديف في البداية فتح صفحة جديدة في العلاقات مع ساكاشفيلي. ويروي ساكاشفيلي، أنه في أثناء لقائهما الأول، قال ميدفيديف إن النزاعات قد نشأت قبلنا، ونحن ورثناها، وعلينا أن نقيم علاقاتنا، من دون النظر إلى تركة الماضي. واقترح التواصل واللقاء بصورة متزايدة. ولكن عندما اتصل ساكاشفيلي فيما بعد بموسكو، كي يتواصل مع زميله الجديد، وصلوه مرتين مع بوتين. وبحسب قول ساكاشفيلي، أجابه رئيس الوزراء الجديد بوتين: «وما علاقة ميدفيديف بالأمر؟ عليك أن تتحادث معي، لأنني أنا المسؤول عن العلاقات مع جورجيا».

بعد قمة بوخارست لحلف الناتو مباشرة، أخذ الوضع يتوتر حول جورجيا، وكان ثمة إحساس قوي بأنه قد تنشأ حرب بسبب أبخازيا. دفعت جورجيا بقواتها إلى الحدود. وزادت روسيا من قواتها لحفظ السلام. أرسلت جورجيا طائرات من دون طيار حلقت فوق الجمهوريتين غير المعترف بهما. فأسقطتها القوات الروسية. وأدخلت روسيا نظاماً جديداً من العمل القنصلي في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. فاعتبرتها جورجيا من أعمال الضم، وطالبت باستبدال قوات حفظ السلام الروسية بقوات من حلف شمال الأطلسي.

في أواخر أيار/مايو أدخلت روسيا إلى أبخازيا قوات السكك الحديدية. فأعقبها

رد فعل قاس من الغرب: فقد نددت وزارة الخارجية الأمريكية ومنظمة الأمن والتعاون في أوروبا والاتحاد الأوروبي بهذه الأعمال. ويروي ساكاشفيلي، إنه بعد هذا حاول الاتصال من جديد بميدفيديف، لكن بوتين هو من رفع سماعة الهاتف. وينقل ساكاشفيلي كلمات بوتين:

«أجل، أجل. لقد رأينا هذه التصريحات؟ قاسية جداً، مزعجة جداً. تمَّ هدر أوراق كثيرة. أتعرف، ما يمكنك فعله؟ انقل لأصدقائك بأن يأخذوا جميع هذه التصريحات ويدخلوها في مؤخراتهم». وقفة صمت. «نعم في مؤخراتهم».

بعد مرور شهر، جرى اللقاء المنتظر بين ساكاشفيلي وميدفيديف. وصل الرئيسان إلى كازاخستان للاحتفال بالذكرى العاشرة لنقل العاصمة إلى أستانا. ويروي ساكاشفيلي أنه لاحق ميدفيديف طويلاً، وكان الأخير يتجنب لقاءه على انفراد. وأخيراً في المساء، في ناد ليلي، استطاع الالتقاء بنظيره الروسي. ورداً على سؤاله، لماذا لا يلتقيان، ولا يتواصلان، قال ميدفيديف باستفاضة: «نحن بالطبع، من جيل واحد، ويروقنا نوع واحد من الموسيقى، ونحن كلانا من منشأ واحد ومهنة واحدة»، ولكن في موسكو قوانين أخرى للأداء.

- إذا ما التقينا لقاءً رسمياً فسيكون أسوأ - قال ميدفيديف (حسب رواية ساكاشفيلي)

- «وهل هناك أسوا من هذا؟». سأل ساكاشفيلي.

- سترى، قد يكون أسوأ بكثير.

هذا اللقاء نفسه، وصفه ميدفيديف في حديث تلفزيوني عام 2011 بطريقة مغايرة تماماً: «يصعب جداً تجنبه، لأنه دَبِق. وإذا ما أراد المعاكسة، فيعاكس ويلتصق كما يجب. اقترب مني عدة مرات. تحدثنا معاً، أذكر هذا جيداً، في أثناء جلوسنا في سيارة الباص، وفي أثناء النزهة في إحدى الحدائق. بل وأقول أكثر. بعد ذلك ذهبنا معاً مساء لنشرب الشاي وقدحاً من النبيذ، حتى

أنني جلست معه هناك على أريكة وبحثنا كيف سنلتقي. لهذا فمثل هذه الأساطير تبقى على ذمته وضميره، إلى جانب أشياء أخرى».28

وبحسب رواية ساكاشفيلي، كانت السلطات الروسية تعرف مسبقاً بالحرب المقبلة، وهي بالذات من أثارها. بيد أن الوقائع تشير إلى أن الرئيس الجورجي نفسه قد عمل الكثير من أجل نشوب الحرب. ويتذكر ميدفيديف، أن ساكاشفيلي قد هدأ واختفى قبل شهر من الحرب، وفي شهر تموز/يوليو لم يعد يتواصل هاتفياً. كانت روسيا تصر على أن يُوقِّع مع أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية اتفاقاً ينص على عدم استخدام القوة، لكن الرئيس الجورجي رد بأن مثل هذا الاتفاق يمكنه أن يوقعه مع روسيا فقط، وليس مع الصنيعتين.

وحسب أقوال ساكاشفيلي، أكد له الأمريكيون في صيف عام 2008 أنه لن يحدث أي شيء: فالروس لا يريدون الحرب، «المهم ألا تستفز أنت ولا تخضع للاستفزاز».

أما كونداليزا رايس فتتذكر الحادثة بصورة مغايرة: تقول في مذكراتها، إنها هي وجورج بوش قالا عدة مرات لساكاشفيلي: «إذا ما بدأتَ الأعمال الحربية، فلن ندعمك، ولا تعتمد أبداً على مساعدتنا».29

وصلت كونداليزا رايس إلى جورجيا في 10 تموز/يوليو. فاقتادها ساكاشفيلي للعشاء في مطعم «كوبال» على الضفة العليا لنهر كورا. وتتذكر أنها كانت تقنعه بأن يوقع اتفاق عدم استخدام القوة. فصاح ساكاشفيلي قائلاً: «كيف يمكنني التوقيع، وبوتين يفعل ما يفعله!». فأصرت رايس قائلة: «لا تسمح للروس بأن يستفزوك. وإذا ما خضعت لاستفزازهم، فلن يهب أحد لمساعدتك وستخسر». هكذا يبدو هذا اللقاء حسب رواية كونداليزا رايس. على أية حال، في المؤتمر الصحافي الختامي، صرحت على الملأ، أن الولايات المتحدة الأمريكية تدعم وحدة أراضي جورجيا وهي مستعدة للوقوف إلى جانبها.

طيلة شهر تموز/يوليو جرى تبادل لإطلاق النار وصدامات مسلحة بين جورجيا

وأوسيتيا الجنوبية. في بداية الشهر سيطرت القوات الجورجية على المرتفع الاستراتيجي الذي يشرف ويسيطر على مدينة تسخينفالي. ثم ظهرت القاذفات الجوية الروسية في سماء جورجيا - بالضبط في تلك الفترة عندما وصلت كونداليزا رايس بالطائرة إلى تبيليسي، ووعدت جورجيا في المقابل أن تسقطها. ثم بدأت المناورات الحربية الجورجية – الأمريكية «جواب عاجل - 2008»، وأعقبتها المناورات الحربية الروسية «القوقاز - 2008»: قام 8000 عسكري و700 وحدة آلية عسكرية بالتدريب على سيناريو العمليات القتالية في أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. وجرت هذه المناورات في منطقة نفق روك بالذات، الذي يربط أوسيتيا الجنوبية بروسيا.

يؤكد ساكاشفيلي أنه كان يستجم في مدينة ميرانو الإيطالية، التي كانت مكان الاستجمام المفضل للأثرياء الروس، وكانت تظهر القنوات التلفزيونية الروسية في غرفته في الفندق. واكتشف في أوائل شهر آب/أغسطس أن المراسلين العسكريين الروس قد وصلوا إلى أوسيتيا الجنوبية، وعلاوة على ذلك، أذاعت القناة التلفزيونية الروسية الأولى، أنه في 8 آب/أغسطس، في يوم بداية الألعاب الأولمبية في بكين، ستخرق جورجيا ميثاق الأولمبياد وستشن الحرب على أوسيتيا الجنوبية. لم ينتظر التاريخ المحدد، قطع ميخائيل ساكاشفيلي إجازته وعاد إلى تبيليسي. ويبدو، أنه بدأ ينفذ نبوءة القناة التلفزيونية الأولى.

«فيما بيننا فقط!»

نحو أسبوع كان يجري تبادل إطلاق النار من دون توقف على حدود أوسيتيا الجنوبية وجورجيا، وكان هناك قتلى من الجانبين. في 7 آب/أغسطس أعلن ساكاشفيلي عن وقف لإطلاق النار وهدنة من جانب واحد. وفي الليل أصدر أمراً ببدء الانقضاض على تسخينفالي، عاصمة أوسيتيا الجنوبية. وبحلول هذه اللحظة، كما يؤكد الجانب الجورجي، كانت طوابير الجيش الروسي الثامن والخمسين قد عبرت نفق روك. في يوم افتتاح أولمبياد بكين بدأت فعلاً حرب بكل معنى الكلمة.

الآن، يؤكد الرئيس الجورجي أن خطة بوتين تكمن في الإطاحة بنظام ساكاشفيلي. ولهذا كان مضطراً إلى عمل شيء استباقي ما، وعدم السماح بحدوث انقلاب.

يقول ساكاشفيلي: «كانت طوابير الدبابات قد دخلت الأراضي الجورجية. حاولنا الدخول إلى مدينة تسخينفالي، لقطع الطريق عليها، لكننا تأخرنا. كان الروس يريدون أن تبدو الصورة، وكأن متمردين ما، دخلوا إلى تبليسي، وحدث انقلاب، ولا علاقة للعسكريين الروس بهم، فهم مجرد قوات لحفظ السلام، ولتجنب إراقة الدماء. كان علينا عدم السماح بتطور الأحداث حسب هذا السيناريو».

إن ساكاشفيلي قد بالغ، بوضوح في أمر واحد - فطوابير الدبابات الروسية لم تقطع نفق روك إلا في 8 آب/أغسطس - ولو أنه كان يعرف مسبقاً بدخول الدبابات الروسية إلى أوسيتيا الجنوبية، لما لاذ بالصمت، ناهيك عن أنه لم يكن ليعلن «هدنة من جانب واحد».

في الساعة الـ 15:00 من يوم 8 آب/أغسطس عرضت القنوات التلفزيونية الروسية نداء الرئيس ميدفيديف، الذي أعلن بدء عملية «الحض على السلام». لم يعدَّها ميدفيديف حرباً لأنه لم يحصل على موافقة مجلس الاتحاد. على الرغم من أنه لو طلب الموافقة لحصل على تأييد 100 %. لقد كانت هذه الخطوة بداية ميدفيديف السياسية، وبحسب قوله، فقد اتخذ هذا القرار ببدء الحرب بمفرده، حتى من دون مناقشة مسبقة مع بوتين. وزعم بأنه لم يتصل ببوتين إلا في اليوم التالي.30

كان فلاديمير بوتين في تلك الأثناء في بكين، والتقى هناك في افتتاح الأولمبياد بجورج بوش، بيد أن حديثهما كان غير مقنع. طالب بوش باحترام سيادة جورجيا على أراضيها، ولكن يبدو أنه طالب بذلك بلهجة ناعمة مخففة - وبنتيجة هذا الحديث تابعت الدبابات الروسية تقدمها باتجاه العاصمة

الجورجية.

حاول الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي القيام بدور الوسيط في المباحثات. في البداية، حاول الحديث مع بوتين في أثناء افتتاح الأولمبياد في بكين وطلب منه عدم بدء الحرب على جورجيا، والانتظار - السماح له، باعتباره الرئيس الدوري للاتحاد الأوروبي، بالقيام بخطوات دبلوماسية لمدة 48 ساعة على الأقل، أو 24 ساعة، أو حتى 12 ساعة. فرد بوتين ثلاث مرات: «لا». وركب الطائرة مغادراً الصين - في البداية حطت به الطائرة في أوسيتيا الشمالية، ومن ثم في سوتشي، حيث التقى بميدفيديف.31

كذلك كونداليزا رايس كانت في إجازة - ولعلمها بأن الحرب ستبدأ، قررت عدم تأجيل سفرها المقرر مسبقاً، وتوجهت مع أسرتها إلى غرينبري في غرب فيرجينيا. في الـ 10 من آب/أغسطس اتصل بها سيرغي لافروف. وقد ذكرتْ حديثهما بالتفصيل في مذكراتها:

- لدينا ثلاثة مطالب.

- ما هي؟

- الأول: يجب على الجورجيين أن يوقعوا اتفاقية عدم استخدام القوة. الثاني: يجب أن تعود قواتهم إلى ثكناتها.

- اعتبرهما قد تمّا.

- المطلب الثالث: هذا الطلب «فيما بيننا فقط» يجب على ميخائيل ساكاشفيلي أن يترك الحكم.

- سيرغي، لا يمكن لوزيرة الخارجية الأمريكية أن تبحث مع وزير الخارجية الروسي الإطاحة بحكومة منتخبة ديمقراطياً. لقد أصبح مطلبكم الثالث للتو معلناً على الملأ - لأنني أنوي الآن الاتصال بكل من أستطيع، وأعلمهم، أن روسيا

تطالب بالإطاحة بالرئيس الجورجي.

- قلت لك هذا المطلب «فيما بيننا فقط».

- لا، هذا ليس فيما بيننا. الآن سيعرف الجميع به.

وأغلقت سماعة الهاتف. وبالفعل، اتصلت بوزيري الخارجية البريطاني والفرنسي، وبعد بضع ساعات قام السفير الأمريكي في هيئة الأمم المتحدة زلماي خليل زاد بالتصريح بمضمون حديث الوزيرين في جلسة مجلس الأمن الدولي.

تقول كونداليزا رايس في مذكراتها: «أنه لم يكن لدي خيار آخر. لو أراد الجورجيون معاقبة ساكاشفيلي لإشعاله الحرب، لكانت لديهم فرصة لفعل هذا وفقاً للدستور الجورجي. لكن روسيا لم يكن لها الحق في هذا الطلب. وهذا الطلب يحمل بصمات المرحلة السوفييتية، عندما كانت موسكو تقرر مصائر زعماء أوروبا الشرقية. وأنا بالتأكيد لم أكن أريد المشاركة في إعادة تلك الحقبة».32

لم يصمت بوتين حيال هذا الموقف، وقد علق قائلاً على موقف الأمريكيين: «ما يدهش، بالطبع، ليس الاستخفاف بحد ذاته. ما يدهش هو حجم هذا الاستخفاف، القدرة على إظهار الأبيض على أنه أسود والأسود أبيض. القدرة على إظهار المعتدي بصفة ضحية العدوان وتحميل المسؤولية عن العواقب للضحايا ذاتها». وتذكر بوتين العبارة المنسوبة لفرانكلين روزفلت: «إن سوموسا******** هو وغد بالطبع. لكنه وغدُنا. وسوف نساعده، وسوف ندافع عنه». علاوة على ذلك، قارن بوتين ساكاشفيلي بصدام حسين، فلأنه دمّر بعض القرى الشيعية، كان يجب بالطبع، تعليق حبل مشنقته. أما الحكام الجورجيون الحاليون الذين مسحوا من وجه الأرض عشرات القرى الأوسيتينية، بين عشية وضحاها - مثل هؤلاء الحكام، يجب بالطبع الدفاع عنهم».

بحلول يوم 11 آب/أغسطس احتلت الدبابات الروسية مدينة غوري، مسقط رأس ساكاشفيلي، ووقفت في ضواحي تبيليسي. سيطر الهلع في أروقة إدارة ساكاشفيلي. وقام الموظفون على عجل بتوضيب أوراقهم وحزم حقائبهم، وأحرقوا الوثائق، وانتزعوا اللوحات من الجدران. فاتصل ساكاشفيلي بالرئيس بوش قائلاً: «انظر إلى الساعة، وسوف ترى كيف ستعود حقبة الاتحاد السوفييتي».

قطعت رايس إجازتها، وعاد بوش من بكين، وعاد وزير الدفاع الأمريكي بوب غيت من ألمانيا. لكن الإدارة الأمريكية لم تتخذ أي قرار محدد. وكما تصف كونداليزا رايس الوضع في الإدارة، كان المشاركون في الاجتماع مرتبكين، معدِّدين ما على الولايات المتحدة الأمريكية أن تفعله - إلى أن قطع عليهم ستيفن هيدلي، مساعد الرئيس لشؤون الأمن القومي، تأملاتهم بسؤاله: «هل أنتم حقيقة مستعدون لبدء الحرب مع روسيا من أجل جورجيا؟».

وقد أيّد ميدفيديف فيما بعد، عملياً، رواية أن الهدف الرئيس للكرملين كان بالذات، الإطاحة بالنظام في جورجيا. حيث قال في حديث صحافي بعد ثلاث سنوات: «عموماً، عليه أن يكون شاكراً لي، لأنني أوقفت تقدم القوات في ساعة معينة. فلو أن القوات الروسية دخلت تبيليسي، فعلى الأغلب، لكان الآن في جورجيا رئيس آخر».

على أية حال، ورداً على سؤال، لماذا لم تصل الدبابات إلى تبيليسي، أجاب ميدفيديف على الفور: «إن هدف تلك العملية «الحض على السلام»، التي استمرت خمسة أيام، قد تم تحقيقه. لم تهدف تلك العملية إلى الاستيلاء على تبيليسي أو أية مدينة أخرى. كان المطلوب فقط وقف العدوان الذي شنه ساكاشفيلي. علاوة على ذلك، أنا لست قاضياً ولا سفاحاً، أؤكد ثانية أن تقييم ساكاشفيلي ومصيره يجب أن يقرره الشعب الجورجي عن طريق التصويت أو بطريقة أخرى».

خلال جميع تلك الأيام كان الرئيس الفرنسي نيقولا ساركوزي يتابع تنفيذ مهمته الدبلوماسية. في 12 آب/أغسطس كان من المفروض أن تحط طائرة الرئيس الفرنسي في موسكو، ومن ثم تتوجه إلى تبيليسي. وقد تم التوافق على إجراء المباحثات المكوكية، وكانت طائرة الرئيس الفرنسي في الجو، عندما ظهر على شاشات القنوات التلفزيونية الروسية دميتري ميدفيديف، وقال إن عملية «الحض على السلام» قد حققت أهدافها، ولهذا تعتبر منتهية. لقد وصل ساركوزي بالطائرة إلى موسكو، كي يشعر بنفسه أبلهَ - فقد تم تحقيق الهدف الرئيس من زيارته من دون تدخله. لكن المقبل كان أسوأ.

ما إن بدأ مباحثاته مع ميدفيديف حتى انضم إليهما بعد 40 دقيقة، فلاديمير بوتين، الذي صرح بأنه ينوي «تعليق ساكاشفيلي من خصيتيه». ويروي ساركوزي، أن بوتين بعد ذلك، اقترب منه، وأمسك به من ربطة عنقه وبدأ يهزّه، كي يظهر جَدِّية نواياه.

من موسكو طار ساركوزي إلى تبيليسي، حاملاً معه ست نقاط قام بتنسيقيها في موسكو مع ميدفيديف وبوتين. وافق ساكاشفيلي على النقاط الخمس، لكنه رفض قطعياً النقطة السادسة، ومفادها أنه ستبدأ في جنيف المفاوضات حول وضع أوسيتيا الجنوبية وأبخازيا. وخلال هذه الفترة ستبقى قوات السلام الروسية في الجمهوريتين. فمثل هذه النقطة لا يمكن أن توافق عليها جورجيا. وطار ساركوزي عائداً إلى موسكو. في هذه المرة وضع ساركوزي شرطاً قاسياً: سوف يتباحث فقط مع ميدفيديف، ويجب ألا يحضر بوتين في مكان محادثاتهما.

وبحلول هذه الفترة، قررت إدارة بوش بدء التحرك والشروع في العمل. صرح بوش من حديقة البيت الأبيض: «هاجمت روسيا دولة مجاورة ذات سيادة وهي تهدد حكومة منتخبة ديمقراطياً. إن مثل هذه الأعمال غير مسموح بها

في القرن الحادي والعشرين». وبعد يومين، في 13 آب/أغسطس أعلن عن بدء عملية إنسانية: توجهت 16 طائرة نقل إلى جورجيا، ومن خلال مضيق البوسفور عبرت طلائع الأسطول السادس. يرى ساكاشفيلي، أن هذا التصريح الخطير بالذات أرغم بوتين على وقف تقدم الدبابات الروسية. لكن، من حيث التوافق الزمني، هذا لا يتوافق أبداً - فقد كان ميدفيديف قد أعلن قبل يوم كامل عن انتهاء عملية «الحض على السلام».

المدهش في هذه الحرب التي استمرت خمسة أيام، هو سرعة تلاشيها. فقد وجه الطرفان تجاه أحدهما الآخر اتهامات مرعبة، ولكن بعد مضي عام، تناسيا كل شيء. فوزير خارجية جورجيا غريغول فاشادزه، الذي كان قد أخذ الجنسية الجورجية قبل عام واحد، وقبل عام 2005 كان يقيم في موسكو ويعمل في وزارة الخارجية الروسية، قال متحسراً في ذروة الأعمال القتالية:

إن روسيا لن تتمكن من غسل يديها من هذه الأعمال أبداً. فهي لم تكفِّر بعد عن آثام دولة أخرى، الاتحاد السوفييتي. براغ، بودابست، والآن نحن. لقد أعدت السياسة الخارجية الروسية جيداً هذا الكابوس. وماذا بعد؟ انتصروا في حرب صغيرة. واستشهد كثير من الناس - إنها مأساة، والآن سوف تتذكر روسيا لعشرات السنين مشروع "جورجيا – 2008".33

ولكن لم يحدث أي شيء. وتم تناسي كل شيء.

منذ ساعات الحرب الأولى، بدأت روسيا تتهم جورجيا بارتكاب «إبادة جماعية» في حق سكان أوسيتيا - وفي هيئة الأمم المتحدة صرح المندوب الروسي باستشهاد الآلاف أو حتى عشرات الآلاف منهم. وبعد بضعة أيام، قامت لجنة التحقيق الروسية بدراسة نتائج الحرب، وخلصت إلى استشهاد 162 شخصاً من سكان أوسيتيا الجنوبية.

في الساعات الأولى من الحرب أدخل إلى الأراضي الجورجية 40 ألفاً من العسكريين الروس. وقصفت الطائرات الروسية مدينتي غوري وبوتي

الجورجيتين، وبعد ذلك قامت قوات أوسيتيا الجنوبية، بغطاء من القوات الروسية، باحتلال غوري، وتدميرها عملياً. وخلال خمسة أيام استُشهد 397 شخصاً من سكان جورجيا.

بعد عام ونصف، أعادت روسيا وجورجيا تسيير الرحلات الجوية بينهما. وبعد عامين، ألغت جورجيا، من جانب واحد، نظام التأشيرة للمواطنين الروس.

آخر عمل من أعمال الحرب القصيرة حدث في 26 آب/أغسطس. أعلن الرئيس ميدفيديف أن روسيا تعترف بأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية جمهوريتين مستقلتين. ولم يحدث ضم الجمهوريتين إلى روسيا، وهو ما كان ينتظره ويريده كثيرون. وربما لهذا السبب بالذات، لم تكن عواقب هذه الخطوة مرعبة لهذه الدرجة على سمعة روسيا وميدفيديف شخصياً. ولم تُلصق به أبداً رقعة الرئيس الذي بدأ رئاسته بالحرب على جورجيا. ربما، لأنه لم يُصدق أحد في العالم أنها كانت حربه.

في خريف العام نفسه 2008 أجرى التلفزيون الحكومي الروسي لعبة تاريخية، باسم «اسم روسيا»، وفيها يجب على المشترك أن يحدد الشخصية التاريخية الأكثر شعبية في تاريخ روسيا. وبنتيجة التصويت الشعبي العام على الإنترنت، فاز ستالين بهذا اللقب بالإجماع. لقد كان هذا كثيراً جداً وغير مقبول، واتُّخذ قرار من الكرملين بتزوير هذه النتائج. فأنزلوا ستالين إلى المرتبة الثالثة، ودفعوا إلى الأمام بالأمير ألكسندر نيفسكي، حاكم روسيا في القرن الثامن عشر، والإصلاحي في بداية القرن العشرين بيتر ستوليبين.

خلال هذه الفترة كان قد اتُخذ قرار في جورجيا بإزالة نصب ستالين التذكاري من مدينة غوري، وهو النصب الذي أقيم في حياة ستالين، وعاش جميع موجات الاضطرابات وعدم الاستقرار. لم يُنفذ هذا القرار إلا في عام 2010 - حيث تم تفكيك النصب ليلاً، كي لا يثير امتعاض السكان وسخطهم.

الحرب العالمية

يتذكر ميخائيل ساكاشفيلي أنه عندما توقفت الدبابات الروسية، قبل أن تصل إلى تبيليسي، اختفى فلاديمير بوتين. ولم يظهر على شاشات التلفزيون قرابة شهر، حتى 31 آب/أغسطس، عندما عرض التلفزيون الروسي الحكومي الرسمي كيف قام بوتين بتنويم النِّمرة الأوسيرية في محمية في الشرق الأقصى. وكان جوهر العملية يكمن في إلباس النمرة طوقاً خاصاً يربط به جهاز إرسال GPS وبعد ذلك تجري متابعة تنقلها في غابة التايغا الكثيفة. كانت لوحة تلفزيونية رائعة: يُسدد بوتين إلى النمرة برصاصة مخدِّرة، وتصيبها على الفور، فيقترب بوتين بشجاعة من النمرة الضعيفة ويلبسها الطوق. على أية حال، روى لي علماء الحيوان فيما بعد، أن هذا كله كان رواية تمثيلية: فمن أجل تصويرها، استعاروا نمرة من حديقة الحيوانات، لم ينووا إطلاق سراحها. ومن أجل توفير الأمن لحياة رئيس الوزراء بوتين ضخوا فيها مسبقاً مواداً مهدئة. ولهذا فإن طلقة بوتين – الحقنة المخدرة - كانت بالنسبة إليها جرعة زائدة ماتت على إثرها. لم يُبث هذا في التلفزيون، وبقيت لافتة، فترة طويلة، على موقع بوتين الرسمي، تعرض متابعة تنقلات «تلك النمرة ذاتها»، التي استمرت، حسب زعمهم، في الركض في غابة التايغا.

ولكن حتى النمور الأوسيرية وحتى الحرب في جورجيا ابتعدت في آخر آب/أغسطس إلى المرتبة الثانية من الاهتمام. فقد نشأت مشكلات أكبر وأهم بكثير في جميع أنحاء العالم. ففي 15 أيلول/سبتمبر أعلن بنك Lehman Brothers، أحد أكبر بنوك الاستثمار في العالم، عن إفلاسه. في اليوم التالي ظهرت البشارة الأولى في روسيا أيضاً - أعلن بنك الاستثمار المالي «КИТ -Финанс» في سانت - بطرسبورغ عن إفلاسه. وفي اليوم التالي توقفت التجارة في البورصة بأمر من المنظِّم.

عموماً، بدأ سوق الأسهم الروسي بالانحدار منذ شهر أيار/مايو. وفي الصيف ازداد انحداره. فمن ناحية - الحرب في جورجيا. ومن ناحية أخرى - ما يعرف باسم حادثة الدكتور. في نهاية تموز/يوليو عقد رئيس الوزراء بوتين اجتماعاً

لشركات المعادن الحديدية وغضب غضباً شديداً لغياب صاحب شركة «ميتشيل Мечел» إيغور زيوزين. وقال بوتين محتداً: «طبعاً للمريض عذره، لكنني أعتقد أن إيغور زيوزين عليه أن يتعافى بأسرع وقت، وإلا سنضطر إلى إرسال «دكتور» إليه ويخلصه من جميع مشاكله». إن فظاظة بوتين قد صدمت السوق - وسرعان ما انهارت أسهم الشركة، وخلال يوم واحد انخفضت بمقدار 5 مليارات دولار. بعد أسبوع قال الرئيس ميدفيديف في اجتماع جملة تاريخية أخرى: طالب بأن يتوقف ممثلو السلطة عن «زرع الكوابيس في طريق رجال الأعمال». لكن هذا لم ينقذ المناخ الاستثماري: وتذكر الجميع عبارة بوتين بخصوص «الدكتور».

ولكن إذا لم يتذكر أحد السوق المالية في آب/أغسطس، لأن الجميع كانوا يفكرون في الحرب في جورجيا، فقد أصبح من المستحيل تجاهل هذا الانهيار في أيلول/سبتمبر. وفي 17 أيلول/سبتمبر اجتمع كبار الاقتصاديين الروس في مقر الحكومة، في مكتب شوفالوف النائب الأول لرئيس الوزراء. وكان غيرمان غريف، منظِّر إصلاحات بوتين الليبيرالية هو صاحب المبادرة لهذا الاجتماع. لكنه الآن في الحقيقة كان يقف ويتصرف في الجانب الآخر من المتراس - في عام 2007 استقال غريف من الحكومة وأقنع بوتين بتعيينه رئيساً لأكبر بنك روسي حكومي - سبيربنك Сбербанк. أما الآن فأكثر ما كان يخشاه غريف هو انهيار السوق المالية من دون دعم حكومي، وخطط لإقناع رفاقه في الحكومة بتخصيص الأموال اللازمة لدعم البنوك الحكومي. بالإضافة إليه حضر الاجتماع كودرين وزير المالية، ووزير التنمية الاقتصادية، وإلفيرا نابيولينا خليفة غريف، وسيرغي إيغناتيف رئيس البنك المركزي، والشخصيات الأولى في المؤسسات المالية الحكومية الرئيسة.

قارن الجميع الوضع الجديد الناشئ بعام 1998 حيث حدث انخفاض شديد في تسديد القروض المصرفية وأفلست مئات البنوك. وقد قطع كودرين حبل الصمت الثقيل. واقترح وزير التوفير المالي ضخ مبلغ 500 مليار روبل من

الميزانية كودائع في حسابات أضخم البنوك. واقترح شوفالوف النائب الأول لرئيس الوزراء اجتذاب الكرم الحاتمي - فقد اقترح تخصيص 500 مليار روبل أخرى من صندوق الرفاهية القومية لشراء الأوراق المالية الخاسرة. وفي اليوم التالي عُقد اجتماع عند ميدفيديف، واقترح الإعلان عن أن الحكومة مستعدة لتقديم 250 مليار دولار من الميزانية و250 مليار روبل من صندوق الأمن القومي.

وقال ميدفيديف الذي لم ينو التنازل لكودرين في مجال العلاقات العامة، محذراً: «عليك ألا تتحدث، ألكسي ليونيدوفيتش، عن هذا. سأعلن عن هذا بنفسي. ففاعل الخير الرئيس والوحيد يجب أن يكون الرئيس».

وكان الاقتصاديون الليبيراليون في الحكومة مسرورين جداً - وقالوا إن الحكومة لم تترك رجال الأعمال والتجار لوحدهم في الأزمة، وتصرفت بمسؤولية كبيرة. بعد ذلك، انتشرت كثيراً الآراء والأقوال، حول أن روسيا هي «جزيرة الاستقرار»، المكان الذي ستمرُّ عليه الأزمة العالمية بشكل جانبي بفضل بعد نظر الحكومة، وبالتحديد ألكسي كودرين، الذي اقتصد الأموال لليوم الأسود. في عام 2008، صدَّق كثيرون التعويذة القائلة بأن العالم كله في وضع سيئ وعندنا في روسيا كل شيء جيد. حتى أولئك الذين كانوا يدركون، أن روسيا، من حيث المبدأ، لا يمكنها أن تكون «جزيرة الاستقرار» – فاقتصادها مرتبط أكثر مما يجب بأسعار النفط العالمية.

إن فلاديمير بوتين، الذي انتقل من كرسي الرئيس إلى كرسي رئيس الوزراء، قد اكتسب حسب أقوال شهود العيان، عدة سمات إيجابية. وعلى سبيل المثال، اكتسب الثقة في أنه يفهم جيداً في كل شيء على الإطلاق. وبما أنه الآن، وبسبب واجباته الجديدة كرئيس للحكومة، يضطر بصورة منتظمة إلى التعمق في جميع المسائل في مختلف المجالات، أصبح بوتين فجأة يبدي أنه يعرف كل شيء بصورة رائعة، ومستعد لإلقاء محاضرات حول أي موضوع على الجميع، بما في ذلك على وزرائه. حقيقة، كان أحياناً يصغي إلى النصائح

الاقتصادية لألكسي كودرين، الذي كان يعدّه خبيراً، ولكن مع مرور الزمن، بدأ يقتنع بفكرة أن خبرته الشخصية تفوق خبرة أي كان. فلديه خبرة أكبر، وأفق أوسع، ومعلومات أكثر. وكان بوتين رئيس الوزراء يجيب رداً على حجج أعضاء الحكومة الذين كان يحاولون تغيير قناعته: «أنتم بكل بساطة لا تعرفون كل شيء. أنتم لا تعرفون ما أعرفه».

لقد اكتشف بوتين لنفسه ماهية الأزمة المالية بسرعة - ومرة واحدة وإلى الأبد. فقد أثيرت الأزمة بسبب مشكلات أمريكية داخلية، وهي نشأت حصراً بذنب الولايات المتحدة الأمريكية. وبسبب الأمريكيين بالذات انجر العالم كله إلى أشد المشكلات. وكانت هذه الفكرة تقلقه وتزعجه بصدق. كان يتفلسف بصورة دورية حول موضوع، كيف يجرؤ الأمريكيون على معاتبة بلدان ما على أخطاء أو خروقات ما، في حين أن العالم كله يعاني الصعوبات بسبب أخطائها؟ فلتفكر في أخطائها في البداية، ثم تعلّم الآخرين.

وقال بوتين في شباط/فبراير 2008 رداً على محاولات المراقبين الدوليين انتقاد الانتخابات الرئاسية في روسيا: «فليعلموا زوجاتهم أولاً صنع الحساء».

الجبهة الأوكرانية الثانية

على الرغم من وقف الأعمال القتالية في القوقاز، استمرت الحرب الجورجية، مهما بدا هذا غريباً، في كييف. فالسلطات «البرتقالية» في أوكرانيا كانت منذ البداية من أقرب وأخلص الحلفاء لميخائيل ساكاشفيلي، وقد وصل الرئيس الأوكراني فيكتور يوشينكو إلى تبيليسي في أثناء الأعمال القتالية في آب/أغسطس 2008، كي يعرب عن دعمه لها. وفي شهر أيلول/سبتمبر اجتمع البرلمان الأوكراني كي يتخذ قراراً خاصاً يدين العدوان الروسي. ولكن، تبين فجأة أن هذا البيان المعادي لروسيا لا يحظى بتأييد العدد اللازم من الأصوات. وقد وقف ضده ليس حزب المناطق، حزب فيكتور يانوكوفيتش، وحده، بل وكذلك كتلة يوليا تيموشنكو، حليفة يوشينكو في الائتلاف الحاكم.

لقد وُلد تحالف العدوين المفاجئ، يوليا تيموشينكو وفيكتور يانوكوفيتش، منذ 8 أيلول/سبتمبر 2005، قبل حرب الغاز الأولى، عندما أقال فيكتور يوشينكو رئيسة الوزراء تيموشنكو من منصبها. ففي مساء ذلك اليوم نفسه، جاءت تيموشنكو إلى يانوكوفيتش للاتفاق. ولم تخرج من مكتبه أربع ساعات - حتى أنهم شعروا بالقلق في مكتب استقباله. وعندما خرجت، بقي يانوكوفيتش فترة طويلة جالساً في مكتبه، مستغرقاً في أفكاره، ولم يستجب لأية أسئلة. وعندما عاد إلى نفسه، وسمع سؤال السكرتير الصحافي: «ماذا، هل أعجبتك يوليا تيموشنكو؟»، استنشق رائحة عطر ضيفته «آنجل Angel» وقال: «إنها عاهرة، لدرجة أنني حتى لو رغبت في «مضاجعتها» لما استطعت».

ولم يتم التحالف. بعد عامين، في خريف 2007، جرت في أوكرانيا الانتخابات النيابية غير الدورية، أظهرت فيها يوليا تيموشنكو نتيجة عالية جداً - حلت في المركز الثاني وحصدت 31% من الأصوات. وعلى الرغم من أنها جمعت أصواتاً أقل من حزب يانوكوفيتش «حزب المناطق»، لكن السلطات «البرتقالية» تمكنت من جديد من تشكيل تحالف، وأصبحت تيموشنكو من جديدة رئيسة للوزراء.

ولكن خلال عام واحد، ساءت العلاقات بصورة نهائية بين يوشينكو وتيموشنكو، وبحلول أيلول/سبتمبر 2008 كان الرئيس الأوكراني واثقاً من أن رئيسة الوزراء تجري مباحثات سرية مع موسكو، كي تدعمها موسكو في الانتخابات الرئاسية المقبلة. ولهذا بالذات، وسعياً منها إلى الحصول على إعجاب فلاديمير بوتين، لم تؤيد القرار الداعم لجورجيا. وعلاوة على ذلك، تحالفت يوليا تيموشنكو مع فيكتور يانوكوفيتش وصوتا معاً تأييداً لحزمة من القوانين التي تقلص صلاحية رئيس الجمهورية. وكانت خيانتها ظاهرة للعيان.

وبالفعل، في أوائل تشرين أول/أكتوبر 2008 توجهت رئيسة الوزراء تيموشنكو إلى موسكو لإجراء مفاوضات حول الغاز - كان من الضروري تسوية الديون الأوكرانية التي تعادل ملياري دولار. حاول يوشينكو بطريقة غريبة عرقلة زيارتها، حتى أنه استولى على الطائرة التي كان من المفروض أن يستقلها وفد

رئاسة الوزراء إلى موسكو. لكن تيموشنكو اخترقت محاولة الرئيس على أية حال، واستقلت طائرة «شارتر» بثمانية مقاعد للالتقاء ببوتين. وجاءت إلى المفاوضات في نوفو - أوغاريفو بتسريحة مثالية جذابة ومكياج رائع - في أثناء زياراتها الخارجية وقبيل أية مباحثات عاجلة كانت تتجه أولاً إلى السفارة، حيث كان ينتظرها حلاق. كانت تيموشنكو تعرف أن أدواتها الرئيسة هما سحرها النسائي وموهبتها في الإقناع. حتى أنها في أثناء عملها رئيسة وزراء كانت تمارس ثلاث مرات في الأسبوع تدريس تقنية الخطاب وفن الخطابة.

على أية حال، كان القسم الأكبر من مباحثاتها مع بوتين ليس حول الغاز، بل حول جورجيا. فعشية زيارتها لموسكو كانت صحيفة «إزفستيا» الروسية قد نشرت مادة صحافية، أماطت فيها اللثام عن أن السلطات الأوكرانية قد زودت جورجيا بالسلاح في أثناء حرب آب/أغسطس، بل وعلاوة على ذلك، ساعدتها بإرسال الخبراء العسكريين. وعبر بوتين، في أثناء مباحثاته مع تيموشنكو، عن امتعاضه من هذه الواقعة.

وقال بوتين مستغرباً بلهجة حماسية: «قبل بضعة أشهر، لم يكن ليخطر في ذهن أي كان، أن الروس والأوكرانيين سوف يتحاربون فجأة. لكن هذا ما حدث. ومن أقدم على هذه الخطوة ارتكب خطأً كبيراً».34 فبررت تيموشنكو قائلة: «أنا أعرف أن الوضع في جورجيا قد تفاقم بصورة معقدة، لكننا نريد تسوية سلمية لهذا النزاع، نريد أن يسود الهدوء».

تم التوصل إلى تفاهم متبادل بينهما. ولكن لم يتم التوصل إلى اتفاق على سعر جديد للغاز، على أية حال. كانت تيموشنكو تسعى إلى إبعاد عدوتها القديمة – شركة «ر.و.ي РУЭ» – كوسيط بين البلدين. فردت شركة «غازبروم» الروسية بأن هذا ممكن، بالطبع، ولكن، في البداية، يجب تسديد الدين. وعلاوة على ذلك، سرعان ما صرح دميتري ميدفيديف إذا لم تسدد أوكرانيا ديْنها فإن شركة «غازبروم» سترفع شكوى إلى محكمة ستوكهولم. وهددت شركة «غازبروم»

برفع السعر إلى 400$ دولار للألف متر مكعب (مقابل 179,5 $ التي كانت تدفعها أوكرانيا حتى آنذاك). وأقدم يوشينكو الرئيس الأوكراني أيضاً على تصعيد الخلاف، فصرح بأنه في هذه الحالة سوف يعيد النظر في اتفاقية تمركز أسطول البحر الأسود الروسي في القرم. إن هذه التهديدات كانت تعني لبوتين، أن يوشينكو فعلاً يريد الحرب.

في هذه الفترة كان الكرملين قد وضع خطة لمحاولته الدورية لتحالف يوليا تيموشنكو وفيكتور يانوكوفيتش: كان عليهما أن يشكلا تحالفاً حاكماً في البرلمان الأوكراني، وتوجيه الاتهام لفيكتور يوشينكو وتجريده من السلطة، بسبب ورديات الأسلحة غير القانونية، المزعومة، لجورجيا، وتوزيع منصبي الرئيس ورئيس الوزراء بينهما. وتم اختيار تاريخ محدد للإعلان عن التحالف الجديد: 4 تشرين أول/ديسمبر. ولكن في اللحظة الحاسمة اتخذت كتلة يوشينكو في البرلمان كل الخطوات اللازمة لتجنب نشوء تحالف «الكرملين»، بموافقتها على جميع شروط تيموشنكو. ففشلت الخطة، وبدأت حرب الغاز تأخذ زخماً قوياً.

في 26 كانون أول/ديسمبر حذرت شركة «غازبروم» الروسية المستهلكين الأوروبيين باحتمال الانقطاعات في ورديات الغاز عبر أوكرانيا. وتتذكر الحاشية المحيطة بيوشينكو تطور الأحداث اللاحقة على النحو التالي: في 31 كانون أول/ديسمبر، عاد المفاوض عن الجانب الأوكراني أوليغ دوبينا، رئيس شركة النفط الأوكرانية الحكومية «نفط وغاز Нафтогаз» من المفاوضات في موسكو مطمئناً. وطلب مقابلة الرئيس يوشينكو على انفراد (بحيث لا تعرف بذلك يوليا تيموشنكو)، وروى له أن رئيس شركة «غازبروم» ألكسي ميللر وعده بتقديم الغاز لأوكرانيا بسعر 250$ دولاراً «إذا وافق بوتين على هذا السعر». شكا يوشينكو من أنه سعر مرتفع، لكنهما اتفقا على أنه لا وجود لمخرج آخر. وتفرق جميع قادة أوكرانيا بهدوء، ليبدؤوا إجازاتهم في أعياد رأس السنة. وبحسب هذه الرواية، فقد كان موقف شركة «غازبروم» منذ البداية، خدعة، لأن

ميللر كان يعرف مسبقاً أن «بوتين لن يوافق على هذا السعر»، وكل ما في الأمر أنه ماطل لكسب الوقت.

أما الرواية الروسية التي كررها فلاديمير بوتين عدة مرات فهي معاكسة تماماً. لقد رفض المفاوض الأوكراني أوليغ دوبينا سعر 250 دولاراً، وفي 31 كانون أول/ديسمبر سحب الرئيس فيكتور يوشينكو الوفد المفاوض الأوكراني من المفاوضات. وأكدت يوليا تيموشنكو هذه الرواية، مكررة أن الرئيس يوشينكو هو المذنب الوحيد في أزمة الغاز.

يقول فيكتور يوشينكو إنه لم يسحب أحداً من المفاوضات - وإلا فإن قراره بالسفر إلى كارباتي في عيد رأس السنة من دون تحقيق اتفاق على العقد، يبدو غريباً على أقل تقدير. وسواء، بهذه الرواية أو بتلك، قلصت شركة «غازبروم» في ليلة عيد رأس السنة ضخ الغاز - بالقدر نفسه الذي تحتاجه أوكرانيا من الغاز. وبحلول يوم 7 كانون ثاني/يناير توقف نهائياً ضخ الغاز عبر أوكرانيا. وبقيت النمسا ورومانيا، وسلوفاكيا وبولندا من دون غاز. وبقيت أوروبا في حالة ذعر طيلة ثلاثة أسابيع تقريباً.

اتهم فلاديمير بوتين فيكتور يوشينكو بما حدث، مدعياً أنه هو من نسف الاتفاق، لأنه أراد المحافظة على شركة «ر.و.ي» كوسيط. وقال: «نحن نتابع الانهيار السياسي داخل أوكرانيا ذاتها. وهذا يدل، للأسف، على درجة عليا من قابلية الفساد في بنى السلطة، التي تناضل اليوم، في هذه الظروف، ليس من أجل أسعار الغاز، بل من أجل الإبقاء على هذه الشركات الوسيطة أو تلك».

لم ينته كل شيء إلا في 17 كانون ثاني/يناير، عندما وصلت يوليا تيموشنكو إلى موسكو والتقت بفلاديمير بوتين. المدهش في الأمر، أنه لم يحفظ أي من الصحافيين على أي نحو اتفق رئيسا الوزراء بصورة ملموسة - كل ما لفت انتباههم فستان يوليا تيموشنكو الأسود بسحّابه الطويل العمودي الذي يغطي ظهرها بكامله، وكانوا يمزحون، بأنها بمثل هذا السحّاب يمكنها خلع الفستان

بحركة واحدة من يدها.

لم يكن من المستغرب أن الصحافيين لم يحفظوا الاتفاقيات الموقعة - فنتائج هذه الاتفاقيات لم يذيعها ولم ينشرها رئيسا الوزراء للجمهور.

في اليوم نفسه، حاولت إدارة الرئيس الأوكراني معرفة على أي سعر اتفقت تيموشنكو، لكنها أجابت بأن «السعر طبيعي»، ولم تذكر رقماً معيناً. وبعد أسبوع وصل إلى كييف فاكس من شركة «غازبروم» عرفت منه السلطات الأوكرانية تفاصيل الاتفاقية الموقعة. وقد جاء في نص الفاكس، أن على أوكرانيا أن تدفع في الربع الأول من عام 2009 مبلغ 360 دولاراً ثمن الألف متر مكعب من الغاز (في أرباع السنة الثلاثة التالية أقل). كانت الاتفاقية طويلة الأمد - لمدة عشر سنوات. لكنها لا تنص على أية شركات وسيطة، ونفَّذت تيموشنكو ما سبق أن وعدت به، وتخلصت من شركة ر.و.ي.

كانت الاتفاقية بين بوتين وتيموشنكو مؤثرة ومثيرة للإعجاب حقاً: فبعد أسبوع واحد اعتُقل في موسكو سيمون موغيلوفيتش «عرّاب» مافيا الغاز، الذي دعته تيموشنكو بالقيِّم الخفي لشركة «ر.و.ي» وفي الوقت نفسه، تم الإعلان في روسيا عن أن الشريك الإسمي لشركة «ر.و.ي» دميتري فيرتاش قد وضع في قائمة المطلوبين الاتحادية. ولم يمسّوا الرعاة السريين لمافيا الغاز - لأن الشركة لم يكن في إمكانها العمل طوال هذه الفترة وبهذا النجاح من دونهم - مفضلين غالباً الاتفاق بخصوصهم مع تيموشنكو.

على أية حال، لم تتضرر أعمال دميتري فيرتاش كثيراً. وبقي مالكاً لشبكة من شركات الغاز والمنشآت الكيميائية، وكما يؤكد بوغدان سوكولوفسكي، المستشار السابق للرئيس فيكتور يوشينكو، استمر في الحصول على الغاز من روسيا، متجاوزاً شركة «نفط وغاز» والاتفاقيات الرسمية. وكان في إمكانه، بكل سهولة، إعادة بيع قسم من الغاز لأوروبا، مصرحاً بأنه مستخرج من أراضي أوكرانيا.

اعتبرت يوليا تيموشنكو اتفاقها مع بوتين نصراً لها، أما يوشينكو فاعتبر ذلك خيانة للدولة - بسبب السعر المفرط في الغلاء وشروط الاتفاق المكبِّلة. وبعد ذلك، لم تعد على ما يرام علاقات تيموشنكو ويوشينكو. وبدلاً منها، تابعت تيموشنكو مباحثاتها مع عدوها الأبدي فيكتور يانوكوفيتش حول تشكيل ما يدعى بـ «التحالف الواسع». وهذا ما كان يلحّ عليه فلاديمير بوتين، الذي كان يرغب بشدة أن يتحد أعداء فيكتور يوشينكو ضده ويعلنون إقالته.

في هذه المرة، كان الاتفاق على تشكيل «التحالف الواسع» مدروساً بعناية. كان على يانوكوفيتش وتيموشنكو أن يدخلا تعديلات على الدستور، يُنتخب الرئيس بموجبها في البرلمان وليس بالتصويت الشعبي العام. وبعد ذلك، على يانوكوفيتش وتيموشنكو أن يصبحا على التوالي رئيساً ورئيسة وزراء - وأن يتبادلا هذين المنصبين حتى عام 2029.

وكان يتابع توقيع الصفقة فيكتور ميدفيدتشوك، الذي تحول بصورة نهائية إلى الممثل الخاص لفلاديمير بوتين في أوكرانيا. كان يدرك مدى الأهمية المبدئية الكبيرة، بالنسبة إلى الرئيس الروسي، أن يُطاح بـ «المُبثَّر» (كثير البثور – هكذا كانوا يدعون فيكتور يوشينكو في الكرملين).

لكن هذه الخطة نُسفت – للمرة الثالثة. ففي 7 حزيران/يونيو، في يوم الثالوث الأقدس، توجه فيكتور يانوكوفيتش للصلاة في دير كييف - بيتشورسك، خرج بعدها ليعلن للصحافيين أنه تخلى عن «التحالف الواسع». وكانوا على ثقة في الكرملين أن الرئيس يوشينكو دفع بيانوكوفيتش إلى هذه الخطوة، مقنعاً زعيم المعارضة بأنه سيصبح على أية حال رئيساً منتخباً من الشعب كله - ولا حاجة له إلى أن يكون تابعاً لتيموشنكو. وكانوا في معسكر تيموشنكو مقتنعين بأن عدوها اللدود فيرتاش هو الذي أقنع يانوكوفيتش بذلك.

لكن فيكتور يوشينكو تم إنقاذه، وإن لم يكن لفترة طويلة - فقد بقي رئيساً حتى نهاية فترته الرئاسية وخسر بسلام في الانتخابات الرئاسية التالية. لكن

انهيار «التحالف الواسع» كان بالنسبة إلى فلاديمير بوتين هزيمة حقيقية. كان الضربة الثانية له من أوكرانيا بعد «الثورة البرتقالية». وكانت المحاولة الفاشلة الثانية للإطاحة بعدوه: ففي عام 2008 لم يتمكن من «تعليق ميخائيل ساكاشفيلي من خصيتيه»، وبعد عام بقي فيكتور يوشينكو رئيساً من دون إلحاق ضرر به.

الفصل العاشر : باراك أوباما - أفضل صديق للكرملين وعدوه اللدود

عندما ألقى باراك أوباما خطبته الأولى في روسيا، كان المستمعون يغفون علانية. إما لأن الخطيب المفوّه، في نهاية حملته الانتخابية، تعب وأصبح أقل بلاغة، وإما لأن سحره لم يؤثر في الجمهور الروسي. في عام 2009، في أثناء زيارته الأولى لموسكو، ألقى أوباما كلمة في حفل التخريج في المدرسة الاقتصادية الروسية. استمرت كلمته نحو نصف ساعة، وكان الطلاب يغفون منكسي الرؤوس. وهذا حدث في الفترة ذاتها، التي كانت شعبية أوباما في العالم، وفي روسيا أيضاً، في الذروة.

منذ البداية، لم يشعر فلاديمير بوتين بالحب تجاه الرئيس الأمريكي الجديد. فبالنسبة إليه، باراك أوباما، من ناحية أولى، ضعيف، يمكن الضغط عليه. ومن ناحية ثانية، هو شريك غير قابل إطلاقاً للتوافق، فهو مثالي أكثر من اللازم، وغير عملي، غير براغماتي إلى حد كبير. وقد أثر في موقف بوتين الفأل التقليدي القديم، المعروف منذ أيام المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي، القائل إن موسكو يمكنها أن تجد لغة مشتركة مع الجمهوريين، وليس مع الديمقراطيين.

إن فلاديمير بوتين والمحيطين به لا يصدقون أبداً الكلمات الجميلة الرنانة، حول أن المجتمع الدولي يريد أن يرى روسيا دولة قوية وحرة، وأن حقوق الإنسان هي القيمة الأسمى، وأن الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد أن تفرض

سياستها على البلدان الأخرى وتحترم مصالحها. وهذا ما تحدث عنه أوباما في خطبته في المدرسة الاقتصادية الروسية. حتى أن الشباب من حملة شهادة الماجستير في الاقتصاد، والذين يتقنون اللغة الإنكليزية بطلاقة، لم يصدقوه كثيراً.

أما بوتين فهو على ثقة كاملة، بأن كل هذا نفاق مكشوف مئة في المئة. كان جورج بوش يؤكد، صراحة، أن أمريكا تنوي غرس طريقها ونظرتها. وكانت صراحته هذه تثير احترام بوتين، بالدرجة نفسها التي أثار في نفسه خطاب أوباما الشك وعدم الثقة.

والمفارقة، أن أوباما بالذات، الرئيس الأمريكي الأكثر مثالية ومحبة للسلام، أصبح رمز الحرب في روسيا، وهدفاً للنكات العنصرية للدعاية الرسمية، وموضوعاً لكراهية ملايين الروس الوطنيين. وخلال بضع سنوات، تحول إلى صورة كاريكاتورية لعدو فاشل غير موفق، محكوم عليه بأن يتنازل أمام فلاديمير بوتين.

ولو عرف أوباما أن غالبية ما يتحدثون عنه في روسيا، مجرد اختلاق، لاستغرب كثيراً. على أية حال، كان من غير المتوقع أن يحزن كثيراً - فهو لا يهتم كثيراً بروسيا.

في تقديمه لأوباما أمام طلاب المدرسة الاقتصادية الروسية، ذكّر عريف حفلة التخريج الطلاب بأن والديه تعارفا في جامعة هاواي في درس اللغة الروسية. لكن أوباما، وعلى الرغم من اقتباسه في خطبته لأشعار بوشكين، لم يتعلم اللغة الروسية - ولم يطمح أبداً لفهم شركائه الروس. لم يستطع بوتين وفريقه أن يسامحا بوتين على لا مبالاته هذه.

الخروج من الظل

كانت المهمة الرئيسة للسنتين الأوليتين لدميتري ميدفيديف في منصب

الـرئيس، ببسـاطة، أن يكـون ملحوظاً ومحط الأنظار. فجميع وسائل الإعلام الجماهيرية العالمية كانت تدعو ميدفيديف بـ «الوريث من غير حق»، ولم ينظر أحـد إليـه نظرة جـادة. حتـى فـي تلـك الأثنـاء عنـدما أعلن وقف الحـرب مع جورجيا، كان الجميع يقولون إنها حرب بوتين، وكأن ميدفيديف ليس له أي وجود.

فـي أوائـل حزيـران/يونيو 2008 عـرض ميـدفيديف اقتراحـاً بوضـع معاهـدة جديدة للأمن الأوروبي. وبهذه المناسبة، لم ينظر إلى هذا الاقتراح نظرة جدية في العالم إلا قِلّة. في حين أن هذه المسألة كانت، بالنسبة إلى الكرملين، أهم مسألة - وقـد تحـدث عـن هـذه المسألة بالضبط فلاديمير بوتين في خطابه العنيف في ميونيخ. فروسيا الغاضبة من توسيع حلف شمال الأطلسي بدأت المطالبـة بمراعـاة مصالحها. وفـي عـام 2007 أصبحـت هـذه المسـألة الفكـرة المسيطرة على بوتين. في عام 2008 بدأ دميتري ميدفيديف الحديث عنها، ولكن بلهجة جديدة أخرى متسامحة؛ وكأنهما كانا يلعبان دور الشرطي الطيب والشرطي الشرير. ولكن، بالطبع، لم ينو أحد الإصغاء إلى اقتراح ميدفيديف، الذي صرح به قبل شهر من الحرب في جورجيا. فقد أعادت الأعمال القتالية العلاقات بين روسيا وأوروبا خطوات بعيدة إلى الوراء. وانهارت الثقة ببوتين انهياراً حاداً، أما ميدفيديف فلم تنشأ بعد لدى أي كان أية ثقة به.

بعد الحرب، ظهر لدى فريق ميدفيديف هدفان متعارضان تماماً. فمن ناحية، داخل روسيا، كان من الضرورة إثبات أنه هو، ميدفيديف بالذات، من أعطى الأمر ببدء الحرب، من دون التشاور مع بوتين، وأنه قوي ومستقل. ومن ناحية أخـرى، كـان مـن الضـرورة إثبات العكس في العالم، خـارج روسيا - أن بوتين يتحمل مسؤولية الحرب، وأن ميدفيديف هو سياسي من طراز جديد، ولا تقع على عاتقه أية مسؤولية عنها.

لقد كان هناك اثنان يقومان بتشكيل صورة جديدة لميدفيديف في آن واحد: فمن ناحية، كان هناك فلاديسلاف سوركوف، الذي كان من واجبه القيام بذلك،

باعتبار يشغل منصب المنظِّر الرئيس للكرملين. ومن ناحية أخرى، كانت ناتاليا تيماكوفا، مديرة مكتب ميدفيديف الصحافي، التي غدت بصورة مطردة مستشاراً سرياً، والمنظِّر الأقرب، والأكثر نفوذاً بين فريق ميدفيديف. وهي من حيث الجوهر، كانت تمارس بصورة متزايدة صلاحيات سوركوف، لهذا اشتد النزاع بينهما.

في 4 تشرين ثاني/نوفمبر جرت الانتخابات الرئاسية في الولايات المتحدة الأمريكية. لم تنم مدينة شيكاغو طيلة الليل من 4 إلى 5 نوفمبر، لأنه كان يجري الاحتفال في «جرانت بارك» بفوز سيناتور ولاية إيلينوي باراك أوباما. فبعد ثماني سنوات من حكم «الإمبراطور العسكري» بوش، أصبحت حملة أوباما الانتخابية، بالنسبة إلى أمريكا، رشفة هواء جديد. لم يكن المرشح الفائز ينطق بخطب حماسية حول الله والرسالة التاريخية، كان يتحدث عن الناس العاديين، وبيّن أنه أيضاً إنسان عادي وكل إنسان يمكنه تغيير حياته والعالم من حوله. وكان الناخبون يجيبونه: «نعم، نستطيع». لقد خسر المحارب القديم الهرم جون ماكين وتحطم أمام الحقوقي الشاب المبتسم، المستخدم النشيط لوسائل التواصل الاجتماعي - فقد تم جمع القسم الأكبر من الأموال لحملة أوباما الانتخابية عبر الإنترنت بالذات.

لم تبدِ موسكو أية استجابة على انتخاب أوباما، أو على الأصح، كانت استجابتها غريبة جداً. في 5 تشرين ثاني/نوفمبر، عندما ظهرت نتيجة الانتخابات في الولايات المتحدة الأمريكية، بعث ميدفيديف برسالته الأولى إلى مجلس الاتحاد. كانت أطروحته الأبرز في الرسالة الوعد بأن ينصب صواريخ «اسكندر» في منطقة كالينينغراد، أي في المقاطعة الروسية الواقعة داخل أوروبا. لقد أصبحت تحية مفاجئة من عصور الحرب الباردة رداً على انتصار الرئيس الأمريكي المحب للسلام، علاوة على ذلك، كانت هذه التحية ليست من أداء «المحارب القديم بوتين»، بل صدرت من فم «الحقوقي الشاب المبتسم ميدفيديف».

على أية حال، إذا ما قرأنا بعناية، فإن خطبة ميدفيديف الأولى كانت أكثر مفارقة مما لاحظت الصحافة العالمية.

لقد كان هناك مؤلفون كثيرون لنص هذه الخطبة. فقد وضع المقاطع الرئيسة لها (جنباً إلى جنب أو كل على حدة) دميتري ميدفيديف، وفلاديمير بوتين، ومنظِّرا الرئيس الجديد: فلاديسلاف سوركوف وناتاليا تيماكوفا.

عموماً، كان الخطاب المنهجي الأول للرئيس الجديد مشبعاً بمبدأ سوركوف الأبدي: انتقاء شعارات الخصم ونسبها لأنفسنا. فخطاب ميدفيديف، للغرابة، كان خطاباً معارضاً: وبوقوفه ضد بيروقراطيي روسيا الرئيسين، انهال على البيروقراطية بتلك القوة والحماسة، اللتين يندر بهما أن يصرِّح معارض:

«إن البيروقراطية تصيب الاقتصاد بالكوابيس بصورة دورية - كي لا يفعلوا أي شيء لا كما يجب. وتفرض رقابتها على وسائل الإعلام الجماهيري - كي لا يقولوا شيئاً غير ما يجب. وتتدخل في العملية الانتخابية - كي لا ينتخبوا أحداً من غير المرغوبين. وتضغط على القضاء كي لا يحكموا على أحد ما بحكم غير مقبول. وقيسوا على ذلك».35

ربما كان ميدفيديف، بصفته رئيساً، لا علاقة له ببعض النقاط، لكن الرقابة على وسائل الإعلام الجماهيري وعلى الانتخابات الحرة قد أصبحت مسؤوليته كرئيس للدولة. ومن حيث الجوهر، فقد وجه ميدفيديف الاتهام لنفسه. ولكن، هنا بالذات، تكمن طريقة سوركوف المفضلة. فبفضحه وكشفه للمشكلات، يبدو وكأن الناطق الصحافي بلسان الرئيس يشيح عنها، مظهراً أنه لا يشارك في مثل هذه الأعمال القميئة.

كان ميدفيديف ينتقد الجهاز الحكومي، وكأنه ليس هو من وضعه، بإصداره لقانون الخدمة الحكومية عندما ترأس إدارة الرئيس. لكن الأكثر سخرية في خطابه ليس هذا، بل اقتراحاته بنشر الليبيرالية المخففة للتشريع الانتخابي. إن ميدفيديف لم يغير، جوهرياً، أي شيء، بيد أنه في خطابه انتقد تلك الأنظمة

التي كانت قائمة آنذاك. وإذا ما أخذنا في اعتبارنا، أن فلاديسلاف سوركوف قد عمل واجتهد في هذا الخطاب، ينتج معنا أن منظِّر الكرملين، بتكليف من الرئيس الجديد، قد وجه لطمة لنفسه بنفسه، وندد بقانون الانتخابات الذي وضعه في عام 2005 من أجل مجابهة «الثورة الملوّنة».

وأخيراً، وبتغنّيه بالمجتمع المدني والانتخابات الحرة، قدم ميدفيديف اقتراحه الأخير: زيادة الفترة الرئاسية من أربع إلى ست سنوات، وفترة عمل البرلمان من أربع إلى خمس سنوات. وكان صاحب المبادرة لهذه التغييرات، بالطبع، فلاديمير بوتين وليس ميدفيديف. فبوتين لم يمس أبداً دستور يلتسين بل حتى أنه خضع له، ولم يُقدم على فترة رئاسية ثالثة. بيد أنه فعل كل شيء، كي يعدل خليفته النص عند أول فرصة سانحة.

وقد وقّت ميدفيديف اقتراحه بتغيير الدستور، بخبث، بمناسبة الذكرى الخامسة عشرة لإقراره. وبعبارة «إن اللهفة الإصلاحية تجاه القانون الرئيس غير واردة مطلقاً»، شَرَع الرئيس الجديد بمهمة إعادة صياغته.

أوباما الروسي

ومع استمرار البحث عن صورة جديدة للرئيس، أصبح من الواضح، أن القناع الأكثر ربحاً للحقوقي المثقف الشاب هي صورة باراك أوباما. وبالتدريج أخذوا يلصقون بميدفيديف اسم «أوباما الروسي». خاصة وأن الرئيس الروسي نفسه معجب بزميله الأمريكي. وعلى الرغم من عدم إعلانه عن هذا على الإطلاق، حتى في محيطه الضيق، أراد ميدفيديف بصورة بدهية، أن يكون شبيهاً به. ما كان يمنعه من ذلك انعدام الكاريزمية عنده، بيد أن ناتاليا تيماكوفا، مديرة مكتبه الصحافي، كانت تؤكد له، أن كل شيء يأتي مع الخبرة. وقد أنشأت له مدونة فيديو، ثم حساباً في تويتر وفيسبوك، واشترت له آيفون وآيباد - كان ميدفيديف يهتم بصدق بأنظمة التشغيل، ولم تكن هناك حاجة إلى إرغامه على ذلك. أحياناً، وخلال اندفاعه في هوايته، كان أشبه بهاوٍ مسقوفي، منه بالرئيس

الأمريكي، بيد أن هذا اعتبره صانعو الأقنعة، أمراً غير سيئ.

لو أن ميدفيديف حاز على إعجاب أوباما لاتخذت الإدارة الأمريكية الجديدة من الرئيس الروسي موقف الشك والريبة. فمن ناحية أولى، قام نائب الرئيس الأمريكي جو بايدن ووزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون بخطوة، كانت يجب أن ترمز إلى أن جميع الاستياءات المتبادلة من عصر بوش ذهبت مع الماضي. ففي خطبته التي ألقاها في شباط/فبراير 2009 في مؤتمر ميونيخ، قال بايدن إن على روسيا والولايات المتحدة الأمريكية أن تضغطا على زر «إعادة التهيئة» في علاقاتهما - وهكذا ولدت «إعادة البدء» الشهيرة. بعد شهر التقى سيرغي لافروف وهيلاري كلينتون في جنيف. وأهدت وزيرة الخارجية الأمريكية لزميلها الروسي زرّاً رمزياً كان عليهما أن يضغطا عليه. وقد كُتب على الزر كلمتان: كلمة إعادة التهيئة بالإنكليزية و«حمولة زائدة بالروسية. شرح لافروف لزميلته أن هذا خطأ، ومع ذلك فقد «перегрузка ضغط على الزر، وقال مازحاً «بأنه يجب أن نسعى كي لا تحدث حمولة زائدة في العلاقات الروسية - الأمريكية». بالطبع، كان هذا بصيغة رمزية للغاية. فالقيادتان الجديدتان في الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا لم يفهم أحدهما الآخر، كما في السابق، وكانتا تتكلمان، كما في السابق، بلغتين مختلفتين - وحتى مع ثقتهما بأنهما «صَفّرا» ادعاءاتهما السابقة، لكنهما في الواقع لم تغيرا شيئاً. لم يرغب ميدفيديف وبوتين في أية «إعادة البدء» - كانا يريدان «حمولة زائدة» بالتحديد، يريدان وزناً أكبر في الشؤون الدولية، واحتراماً أكبر، وشعوراً بالشراكة، وإثباتات على أن إدارة أوباما تصغي إليهما وتحسب حسابهما. كانت إدارة أوباما مستعدة للنضال ضد انحرافات بوش، ولم ترغب أبداً بمتابعة سياسة «الشرطي العالمي»، لكنها أبقت على تحاملها على روسيا.

قدِم باراك أوباما إلى موسكو للمرة الأولى في تموز/يوليو 2009، والتقى بميدفيديف في الكرملين، أما بوتين فقد استقبله في قصر نوفو - أوغاريفو. وأقام له عشاءً فاخراً مليئاً بالكافيار. ورغبة منه في أن يكون محدِّثاً محترماً،

الأمريكي، بيد أن هذا اعتبره صانعو الأقنعة، أمراً غير سيئ.

لو أن ميدفيديف حاز على إعجاب أوباما لاتخذت الإدارة الأمريكية الجديدة من الرئيس الروسي موقف الشك والريبة. فمن ناحية أولى، قام نائب الرئيس الأمريكي جو بايدن ووزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون بخطوة، كانت يجب أن ترمز إلى أن جميع الاستياءات المتبادلة من عصر بوش ذهبت مع الماضي. ففي خطبته التي ألقاها في شباط/فبراير 2009 في مؤتمر ميونيخ، قال بايدن إن على روسيا والولايات المتحدة الأمريكية أن تضغطا على زر «إعادة التهيئة» في علاقاتهما - وهكذا ولدت «إعادة البدء» الشهيرة. بعد شهر التقى سيرغي لافروف وهيلاري كلينتون في جنيف. وأهدت وزيرة الخارجية الأمريكية لزميلها الروسي زرّاً رمزياً كان عليهما أن يضغطا عليه. وقد كُتب على الزر كلمتان: كلمة إعادة التهيئة بالإنكليزية و«حمولة زائدة перегрузка» بالروسية. شرح لافروف لزميلته أن هذا خطأ، ومع ذلك فقد ضغط على الزر، وقال مازحاً «بأنه يجب أن نسعى كي لا تحدث حمولة زائدة في العلاقات الروسية - الأمريكية». بالطبع، كان هذا بصيغة رمزية للغاية. فالقيادتان الجديدتان في الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا لم يفهم أحدهما الآخر، كما في السابق، وكانتا تتكلمان، كما في السابق، بلغتين مختلفتين - وحتى مع ثقتهما بأنهما «صَفّرا» ادعاءاتهما السابقة، لكنهما في الواقع لم تغيرا شيئاً. لم يرغب ميدفيديف وبوتين في أية «إعادة البدء» - كانا يريدان «حمولة زائدة» بالتحديد، يريدان وزناً أكبر في الشؤون الدولية، واحتراماً أكبر، وشعوراً بالشراكة، وإثباتات على أن إدارة أوباما تصغي إليهما وتحسب حسابهما. كانت إدارة أوباما مستعدة للنضال ضد انحرافات بوش، ولم ترغب أبداً بمتابعة سياسة «الشرطي العالمي»، لكنها أبقت على تحاملها على روسيا.

قدِم باراك أوباما إلى موسكو للمرة الأولى في تموز/يوليو 2009، والتقى بميدفيديف في الكرملين، أما بوتين فقد استقبله في قصر نوفو - أوغاريفو. وأقام له عشاءً فاخراً مليئاً بالكافيار. ورغبة منه في أن يكون محدِّثاً محترماً،

بدأ أوباما حديثه بالسؤال «كيف نحن انحدرنا إلى مثل هذه الحياة؟». فرد عليه بوتين بمحاضرة استمرت ساعة، حول كيف حدث هذا الانحدار. لم يقاطعه أوباما إطلاقاً.

في المحصلة، لم يحز لا بوتين ولا ميدفيديف على إعجاب أوباما، وهذا على الرغم من جميع محاولات الرئيس الروسي أن يكون صديق الرئيس الأمريكي، كما كانا يتوادّان بوتين وبوش. كان على معاهدة تقليص الأسلحة الهجومية الاستراتيجية أن تغدو رمز «إعادة البدء». كان ميدفيديف يرغب رغبة شديدة في الاحتفال بالتوقيع على المعاهدة في قلعة براغ، لكن الدبلوماسيين لم يتمكنوا بأي شكل من الأشكال من تسوية تفاصيل المعاهدة. بيد أن البيت الأبيض كان لا يزال يُظهر، من دون أي إخفاء، موقفاً مستخفاً بالزعيم الروسي الجديد، فقد كان كبار الموظفين الأمريكيين يقولون ساخرين من ولع ميدفيديف بأنظمة التشغيل الإلكترونية، بحضور الصحافيين: «ربما، لن نوقع أية اتفاقية؟ وربما نرسلها برسالة إلكترونية؟».

في المحصلة، تم توقيع الاتفاقية، بيد أنه تبين أن هذه الاتفاقية فارغة المحتوى: على الأغلب، كانت ذريعة لالتقاط الصور في قلعة براغ، أكثر من أن تكون وثيقة حقيقية. فقد أرادت روسيا ربط الاتفاقية الجديدة بالتزام الولايات المتحدة الأمريكية التخلي عن نشر وسائط الدفاع المضادة للصواريخ في أوروبا. وهذا ما رفضه الأمريكيون قطعياً. وفي النهاية ربط الجانب الروسي بالقسم الروسي من الاتفاقية ملحقاً، من جانب واحد ووقعه، ومفاده، أن موسكو يحق لها الخروج من الاتفاقية وعدم التزامها، إذا ما بدأت واشنطن بإقامة الدرع الصاروخية الأوروبية.

وقد أصبحت زيارة الرئيس الروسي للولايات المتحدة الأمريكية في حزيران/ يونيو 2010 من الأمثلة التي لا تقل دلالة على انعدام الصداقة بين ميدفيديف وأوباما. فقد اقتاد أوباما ميدفيديف في البداية إلى مطعمه الشعبي المفضل Ray's Hell Burger في أرلينغتون، على مقربة من واشنطن. وطلب الرئيسان

زجاجتي كوكاكولا، وشاي مثلج، وصحن بطاطا مقلية واحداً لهما، وسندويشة برغر لكل منهما: مع البصل، والسلطة، والبندورة وجبن تشيدر (لميدفيديف)، ومع البصل وجبن تشيدر وفلفل هالبينو الحار والفطر (لأوباما). وظهرت الصور مؤثرة - وبدا وكأن الرئيسين صديقان.

ولكن في الحقيقة، لم يكن اللقاء ودياً بالدرجة المطلوبة، كما خططوا في البيت الأبيض. في الطابور المؤدي إلى الصندوق التقى أوباما بجندي أمريكي عائد من العراق، فأدار ظهره لميدفيديف وبدأ يتحدث مع الجندي بحرارة. كان الرئيس الروسي يقف حاملاً الصينية، وينتظر بلهفة، كي يلتفتا نحوه من جديد.

بعد ثلاثة أيام، عندما كان ميدفيديف في قمة الثمانية الكبار في تورنتو، انتشر خبر اعتقال الأمريكيين لمجموعة كبيرة من الجواسيس الروس - عشرة أشخاص. ولم يقل أوباما كلمة واحدة عن هذا الخبر لميدفيديف. ولم تبق أية أوهام حول الصداقة بين الرئيسين.

ميدفيديف – نقيض بوتين

في الوقت نفسه، كان يدور داخل روسيا صراع ضار مع صورة «نسخة بوتين». لقد أدلى ميدفيديف بأول حديث صحافي لوسائل الإعلام الجماهيرية الروسية المطبوعة، وخص به صحيفة لم يدل لها بوتين بأي حديث في أي وقت من الأوقات، وهي صحيفة «نوفايا غازييتا» المعارضة. وهي الصحيفة التي كانت تعمل فيها الناشطة المعارِضة الروسية آنّا بوليتوفسكايا، والتي قال عنها بوتين بعد قتلها، إن «قتلها قد ألحق ضرراً أكبر من نشاطها وكتاباتها».

في عام 2009 نشر ميدفيديف مقالة أيقونية بعنوان «روسيا، إلى الأمام!» - وقد نُشرت في جميع المنشورات الإلكترونية لصحيفة «غازييتا.رو. газета.ru» الإلكترونية، التي كانت آنذاك أفضل الصحف المستقلة الإلكترونية.

بيد أن جميع المغازلات مع الرأي العام الليبيرالي لم تحقق أية نتيجة تقريباً.

وهذا طبيعي، فميدفيديف الذي تحدث طويلاً عن الديمقراطية، ثم أدخل في الآن نفسه تعديلات على الدستور، تزيد من الفترة الرئاسية، كان يبدو نظير بوتين في ثوب حَمَل. في الأعوام الثلاثة الأولى من حكم ميدفيديف، كان مثقفو موسكو السياسيون يتجادلون فيما بينهم بضراوة حول موضوع «هل يمكن الوثوق بميدفيدف؟». فبعضهم، مثل المدافعة عن حقوق الإنسان لودميلا ألكسييفا المتقدمة في السن، كانوا يقولون: «يجب دعمه. وأسوأ ما يمكن أن يحدث - أننا نكون قد أخطأنا. وسيظهر أنه ليس أفضل من بوتين. وإذا لم نفعل شيئاً، فإننا سنبقى على أية حال مع بوتين». لكن الغالبية، مثل الشاعر دميتري بيكوف، كانت تعتقد أن ميدفيديف هو ظِلّ بوتين ولا داع لإضاعة الوقت على أوهام مزيفة. وقد اعتادوا السخرية من ميدفيديف ومن جميع محاولات مديرة مكتبه الصحافي بإكسابه ملامح التمرد. فولعه بشبكات التواصل الاجتماعي وأنظمة التشغيل الإلكترونية، وانفتاحه في التواصل - كل هذا كان يزيد من جوانبه السلبية. كانت تيماكوفا تشتعل غضباً، لكن ميدفيديف، حسب أقوالها، لم يغضب، لأنه كان «قادراً على قطع كل ما هو غير لازم». على أية حال، كان المقربون منه يقولون، إنه لم يكن يغضب فحسب، بل ويحفظ كلَّ من كان يسخر منه بحدة وقساوة.

جاءت ذروة هذه القصة الغريبة في صيف 2010. حيث انتقل مركز النشاط المعارض المحتج إلى غابة خيمكي - قطعة غير كبيرة من الأرض في ضاحية موسكو، كان من المفروض أن يمر عبرها الأوتوستراد الدولي السريع موسكو - بطرسبورغ. ولسبب ما (غالباً، بسبب خلاف مقاولين) أصبح الأوتوستراد هذا الموضوع الرئيس لروسيا كلها - فعلماء البيئة المحليون اعترضوا على قطع الغابة، وانضم إليهم جميع رجال السياسة المعارضين والنشطاء المدنيين. وفي ذروة حملة المحافظة على الغابات أيد الاحتجاج موسيقي الروك الروسي المتميز يوري شيفشوك، وانضم اليه أيضاً بونو زعيم فرقة U2 الإيرلندية العالمية الشهيرة. وفي تلك اللحظة، عندما بلغ الصراع من أجل غابة خيمكي بعداً عالمياً، أقدم دميتري ميدفيديف على خطوة مفاجئة - فقد أعلن أنه قرر

الاصغاء إلى المحتجين وينوي إلغاء شق الأوتوستراد الدولي السريع. أو، على الأصح، «إعادة النظر» في المخطط. لم يكن فلاديمير بوتين ليتصرف أبداً على هذا النحو - فهو يعتقد أن الانصياع في بعض الأحيان للمعترضين المحتجين - يعني إظهار الضعف، وهو تماماً، كمثل إجراء مفاوضات مع الإرهابيين.

إن ما يكسب هذا الموضوع مسحة سوريالية إضافية، واقع أن طريق الأوتوستراد الدولي السريع قد تم إنشاءه، على الرغم من توجيه ميدفيديف بوقف العمل فيه. فبعد نصف سنة من ذروة الاحتجاجات، قررت الحكومة المحلية في المنطقة، أن مخاوف علماء البيئة كانت غير مبررة، وأن الطريق لن يسبب أي ضرر. ولم يعد هناك من يحتج. وبعد مضي خمس سنوات، عندما تم إنجاز الطريق، وافق كثير من النشطاء الليبيراليين: الطريق جيد، وأصبح الوصول إلى مطار شيريميتوفو أسهل بكثير.

وقد أصبح الأثرَ الوحيدَ الملحوظ لهذه القصة هو دخول أركادي روتنبرغ، صديق طفولة فلاديمير بوتين، عندما كانا يذهبان معاً إلى تدريب الجودو في لينينغراد، في عداد مالكي الشركة المتعهدة لبناء الطريق.

الفصل الحادي عشر: إيغور سيتشين، نائب رئيس الوزراء، أصبح تشي غيفارا الروسي

كان لدى إيغور سيتشين، كما يروي الأشخاص الذين عملوا معه، تركيبة طريفة: ميكروباص وعصير البرتقال. في كل مكان، وحيثما يصل بالطائرة، يستقبله الميكروباص - فكما يعتقد سيتشين، التنقل عبره أكثر راحة. ويتحرك الميكروباص في الثانية التي يصعد فيها سيتشين، وعلى الباقين أن يقفزوا عليه قفزاً، وهو متحرك.

إن عصير البرتقال هو غالباً، بدعة وروعة - المقرّبون من سيتشين يعدّونه قريباً من الكائن الآليّ: يمكنه ألا ينام عدة ليال، وهو يعمل واقفاً على قدميه، ويروون

عنه الأساطير، وكأنه قد شفى نفسه بنفسه من السرطان.

إنه يثير الرعب. وهو يعرف هذا. يمكنه أن يعقد اجتماعاً، ويهاجم جميع المشاركين فيه بحدة، ويرحل - وبعد هذا يشد المشاركون ربطات عنقهم ويندفعون نحو زجاجات الكونياك - ثم يعود فجأة، متظاهراً بأنه قد نسي شيئاً، وبالتالي يجهِز على مرؤوسيه.

يتحدث سيتشين بصوت خافت، ناعم، لا يتوافق أبداً مع صورته الشيطانية وشكله الخارجي الوحشي. على أية حال، تناقضاته هذه ليست غريبة. فهو موظف تنفيذي صغير حاز على سلطة عليا، ويحاول بكل بساطة تربية مرؤوسيه على الطاعة والنظام. وينجح في هذا على جميع الأًصعدة. في قاعة استقبال سيتشين، من غير الممكن قراءة صحيفة، على سبيل المثال - يتعرض للطرد من يفعل ذلك. عليه أن يجلس على طرف الكرسي ويرتعد. وهذا طقس رسمي من طقوسه. لأنه هو نفسه هكذا يتصرف بالذات أمام رؤسائه.

سيتشين في هافانا

في بداية شهر آب/أغسطس 2008، وقبل بضعة أيام من بداية الحرب في جورجيا، استقل الطائرة وفد كبير من روسيا إلى كوبا. ثلاثة وزراء (الطاقة، والاتصالات، والتعليم)، رؤساء أكبر شركات النفط («روس نفط» و«سورغوت نفط غاز») و«غازبروم»، وسكرتير مجلس الأمن القومي (الذي كان في الأمس القريب رئيس جهاز الأمن الاتحادي) نيقولاي باتروشيف، وأخيراً، رئيس الوفد إيغور سيتشين.

كان سيتشين قد عمل سنوات طويلة في بطرسبورغ سكرتيراً شخصياً لبوتين، وبعد انتقال بوتين إلى رئاسة الحكومة عيّنه نائباً لرئيس الوزراء لشؤون الطاقة، وفي الوقت نفسه رئيس اللجنة الحكومية للعلاقات مع أمريكا اللاتينية. وهذا ليس مستغرباً: لأن سيتشين، من حيث تخصصه - مختص بعلم اللغات الرومانية، ومترجم اللغتين الإسبانية والبرتغالية. وقد بدأ عمله

الوظيفي بصفة مترجم حربي في أنغولا وموزامبيق، حيث كان يعمل جنباً إلى جنب مع الخبراء العسكريين الكوبيين. وقد بقيت لدى سيتشين ذكريات دافئة منذ مرحلة الشباب عن حلفائه في هافانا. ومنذ أيام الدراسة كان شديد الاهتمام بالثوريين في أمريكا اللاتينية وليس بتشي غيفارا وحده.

ومع ذلك، فقد أخذ سيتشين معه ثلث الحكومة إلى كوبا ليس من أجل استعادة ذكرياته. ففي صيف 2008، أنجزت إدارة بوش عشية رحيلها، تنفيذ خطتها بنشر الدرع الأمريكي المضاد للصواريخ في أوروبا. وكان على وزير الخارجية الأمريكية توقيع اتفاقية الرادارات في تشيكيا ومضادات الصواريخ في بولندا، أي عملياً، على الحدود الروسية.

كان على روسيا أن ترد بشكل ما، لكن أقوالها سبقت أفعالها. في البداية، نشرت صحيفة «الإزفستيا» أن روسيا مستعدة لإعادة قواعدها العسكرية في لوردس(كوبا) وفي كامراني(فييتنام)، التي قرر فلاديمير بوتين تركها عام 2001. علاوة على ذلك، نشرت الصحيفة المذكورة أن على روسيا نشر القاذفات الاستراتيجية في كوبا. وجاء الرد على هذا المنشور الحربي المتشدد من جانب رئيس أركان القوات الجوية الأمريكية نورمان شفارتس، الذي قال إن روسيا في هذه الحالة «تتجاوز الخط الأحمر». وفي هذه الفترة بالذات، تذكروا في موسكو، أنهم قد نسوا كلياً بحث هذا الموضوع مع الأخوين كاسترو.

كانت العلاقات معقدة مع الكوبيين عموماً بعد انهيار الاتحاد السوفييتي: فقد كانوا غاضبين ومستائين، واعتبروا أن روسيا قد خذلتهم. وقد أراد سيتشين تجديد الصداقة القديمة، وتنظيم العلاقات الجيدة مع كوبا، بما في ذلك، تشكيل تهديد كبير للأمريكيين، كما في الماضي.

لكن هذا «الإنزال» الروسي القوي في آب 2008 لم يحقق أي شيء، حتى أن فيدل كاسترو لم يستقبل الوفد الروسي. لكن سيتشين كان مثابراً ومصراً، وتابع رحلاته إلى أمريكا اللاتينية شهرياً تقريباً. وفي زيارته الثانية زار كوبا

وفنزويلا ونيكاراغوا. وكان يعرض في كل بلد السلاح الروسي وخدمات الشركات الروسية المستخرجة للنفط، وبادئ ذي بدء، شركة «روس نفط»، التي كان هو رئيس مجلس إدارتها.

وبالنتيجة، سرعان ما أعلنت نيكاراغوا، وإثرها فنزويلا اعترافهما باستقلال أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. وكان هذا استحقاقاً شخصياً لسيتشين، الذي أقنع دانييل أورتيغا وهوغو تشافيز. لم يكلف أحد سيتشين بهذه المهمة - فهو بنفسه رأى أن هذه الخطوة ستظهر لبوتين بسرعة فاعليته في منصبه الجديد. وكان الاعتراف بالجمهوريتين غير المعترف بهما نتيجة فاعلة سريعة، خلافاً للتوقيع المديد والمعقد لعقود النفط.

لقد توافق سيتشين مع شافيز بسرعة أكبر منه مع الأخوين كاسترو. ففي لقائه الأول، أخذ الرئيس الفنزويلي سيتشين نائب رئيس الوزراء الروسي بالأحضان، صائحاً: «وأخيراً! الآن لسنا وحدنا في المعركة ضد الإمبراطورية الأمريكية! الآن، روسيا معنا!». وقد سددت روسيا بكرم ثمن الاعتراف بأبخازيا وأوسيتيا الجنوبية: منحت فنزويلا قرضاً بمليار دولار عبر تزويدها بالسلاح. كما تم تأسيس اتحاد نفطي لاستثمار آبار النفط الفنزويلية، بيد أن الشركات النفطية الروسية تكبدت فيها الخسائر.

والحقيقة، أن سياسة سيتشين كانت عبارة عن النتيجة المنطقية لنظرية شوفالوف حول «دولة الطاقة العظمى»، ولكن، إذا ما كان إيغور شوفالوف قد حاول تطبيقها على الأوروبيين الجموحين المتمردين، فإن سيتشين طبقها على الأمريكيين اللاتينيين المطيعين. لم تكن هناك منفعة اقتصادية في خطوته السياسية الخارجية، ولم تكن مفروضة أصلاً: فقد كانت خطوة سياسية بحتة. ولكن، في المقابل شعر زعماء أمريكا اللاتينية بأنفسهم بأنهم في مركز الاهتمام للمرة الأولى. كان فلاديمير بوتين راضياً جداً من فاعلية مساعده القديم، أما مرؤوسو سيتشين فقد أصيبوا بالذهول من قدرته الكبيرة على العمل، ورووا أنه بعد طيران طويل لعدة ساعات إلى كاراكاس، كان يذهب سيتشين إلى

القاعة الرياضية، ويتمرن على مسار الجري الراكض، ثم ينطلق نحو مباحثاته مع شافيز لعدة ساعات. ولم يغف أبداً خلال كلماته وخطبه.

على هذا النحو، غدا سيتشين بالتدريج نقيض ميدفيديف: فإذا ما غدا الرئيس وجه روسيا، المتوجه نحو الغرب، فإن سيتشين غدا واجهة مضادة للغرب، ورمزاً ومنظِّراً لكل من لا يحب أمريكا.

الكابتن هوك Captain Crochet********

لقد كان تحول سيتشين إلى سياسي جماهيري مفاجأة للجميع، فقد كانت قوته تنبع من قربه من الرئيس وقدرته على القيام بألعاب الأجهزة الحكومية. ومنذ فترة رئاسة بوتين الأولى، كان سيتشين يترأس ديوانه، ويوماً بعد يوم، أصبح الشخص الأول الذي كان يستقبله صباحاً عند المصعد. على هذا النحو، هو بالذات الذي كان «يعبئ الرئيس طيلة اليوم» بالطاقة، ثم يختم محصلة اليوم. علاوة على ذلك، كانت قوة سيتشين تتضاعف لأنه كان قادراً على اتباع المراسم القروسطية تقريباً في إظهار الولاء لسيده، وهي التي كانت تجعل شخصيته مقربة جداً وحصينة جداً. وعلى سبيل المثال، لم يكن أحد آخر غيره يعتبر مرافقة الرئيس إلى المطار عند سفره، واستقباله عند عودته في المطار أمراً مهماً.

بعد انتقال بوتين إلى البيت الأبيض الروسي حاول سيتشين المستحيل كي يغدو رئيس جهاز الحكومة، والمحافظة على قربه السابق من بوتين. ولكن، تدخل دميتري ميدفيديف، لم يكن ليسمح بأن يشغل عدوه اللدود هذا المركز المفتاحي في الحكومة. ولهذا، عيّنه بوتين نائباً له لشؤون الطاقة.

لم يكن العداء المتبادل بين ميدفيديف وسيتشين سراً بالنسبة إلى أحد. ذات مرة، اجتمع سيتشين وزوجته وأصدقاؤه على مائدة العشاء (واختارت زوجته مارينا مكان العشاء). وصل الضيوف أولاً، وتأخر سيتشين قليلاً. وعندما وصل، كان غاضباً جداً، وطالب بالخروج من المطعم بسرعة، قائلاً: «أي مطعم اخترتم!

ألا ترون أن ميدفيديف جالساً في الزاوية؟».

ولكن، أمام الملأ، كان سيتشين يبدي ولاءً مطلقاً بل وخضوعاً أيضاً ليس تجاه الرئيس السابق، بل وتجاه الرئيس الجديد أيضاً. وهذا كان يظهر حتى في الجزئيات والأشياء الصغيرة. في أثناء ساعات الطيران الطويلة في الطائرات، في الزيارات الخارجية، كان الموظفون الحكوميون يبدلون عادة ملابسهم ويرتدون ملابس أكثر راحة، كالبذلات الرياضية والأحذية الخفيفة المنزلية. وكذلك كان يفعل سيتشين، ولكن ليس أبداً في حضور الرئيس. وإذا ما كان يرافق ميدفيديف، كان يبقى دوماً في بذلته الرسمية وربطة عنقه، واهتمامه. كي يظهر ولاءه واحترامه.

على أية حال، لا يرجع نفوذ سيتشين فقط إلى كونه كان مقرباً من الرئيس. لقد كان لدى بوتين كثير من الأصدقاء، لكن سيتشين وحده أصبح «الزعيم الروحي» للأمنيين الأقوياء الروس. بعد أن أثار سيتشين قضية شركة «يوكوس ЮКОС» وانتزع ملكيات ميخائيل خودوركوفسكي، تشكل من حوله فريق غير رسمي من خريجي الأجهزة الأمنية، الذين اعتبروا من واجبهم إرغام الأوليغارشيين على تقاسم ثرواتهم معهم - وقد أطلقوا على هذا اسم «إعادة الخصخصة المخملية».

«قال الرئيس بوتين، إن على كبار رجال الأعمال مسؤولية اجتماعية تجاه الدولة. عندئذ، قرر زملاؤنا في جهاز الأمن الاتحادي (ف.س.ب ФСБ) أن من الواجب تشكيل منظمة عليها أن تقوم بإخضاع خودوركوفسكي وأمثاله من الأوليغارشيين، وثنيهم، وتعذيبهم، وجلبهم إلى الأنشطة الاجتماعية» - هكذا وصف مخطط هذه المنظمة عضوها النشيط، رجل الأعمال أوليغ شفارتسمان في عام 2007، في حديث صحافي أدلى به لصحيفة «كوميرسانت».36 وبحسب أقواله، استطاع سيتشين تجميع أعداد ضخمة من العاملين الحاليين في الأجهزة الأمنية، وكذلك من متقاعدي المخابرات والأجهزة الأمنية السابقة ومن القوات المسلحة (وقد ورد أن مجموعهم هو 600,000 شخص).

كان يوحد ويربط بين جميع هؤلاء ليس فقط الرغبة بكسب المال، بقدر ما كانت تجمعهم أيضاً قناعات مشتركة. كان الأمنيون الأقوياء يعتبرون مزادات الرهن العقاري شراً مستطيراً، وكانوا على قناعة بأن الممتلكات الاستراتيجية، التي بيعت بأسعار بخسة في السنوات التسعينيات الحماسية، يجب أن تكون ملكيتها للدولة، وليس للأشخاص «الخطأ». إن سيتشين وأنصاره لم يعدّوا أنفسهم أبداً معتدين، كانوا يشعرون بأنفسهم بأنهم منقذون متطوعون سريّون، ينشطون لصالح الوطن. وكانت قضية «يوكوس»، بالنسبة إليهم، محاولة يائسة، مستقتلة، لإنقاذ سلطة فلاديمير بوتين من مؤامرة الأمريكيين: كان خودوركوفسكي يموّل غالبية الأحزاب في البرلمان، وفي الوقت نفسه يجري مباحثات حول بيع حزمة كتلة من الشركات للشركتين الأمريكيتين ExxonMobil وChevronTexaco. كان من المستحيل السماح بأن تحصل شركة بمساهم أمريكي على غالبية الأصوات في مجلس الدوما.

على أية حال، تبين أن أمنيي سيتشين الأقوياء (الذين كان جهاز الأمن الاتحادي لحمتهم) ليسوا الأبطال السريين الكبار الوحيدين لروسيا البوتينية. كان هناك جهاز آخر منافس، كان يضع نصب عينيه تلك الأهداف النبيلة ذاتها، وكذلك كان يسترشد بالمثل العليا لخدمة الوطن. على الرغم من أن نشاطه كان يبدو للنظرة الجانبية أشبه بالابتزاز والسرقة. إنه الجهاز الاتحادي لمراقبة تداول المخدرات (ФСКН) الذي كان يرأسه فيكتور تشيركيسيف، رفيق بوتين القديم، ومساعده السابق عندما كان بوتين يرأس جهاز الأمن الاتحادي. وكان حليف تشيركيسيف رئيس الأمن الشخصي لبوتين فيكتور زولوتوف، وكانا يتنافسان مع فريق إيغور سيتشين ونيقولاي باتروشيف (خليفة بوتين في منصب رئيس جهاز الأمن الاتحادي). وتشركيسيف وزولوتوف بالذات هما اللذان تمكنا، في عام 2006 من الإطاحة بالنائب العام أوستينوف، عندما أحضرا لبوتين تسجيل أحاديثه مع سيتشين، ولوجكوف وفرادكوف. ولكن في عام 2007، وفي ذروة عملية «الخليفة» ازدادت حدة الصراع بين الجهازين.

في تشرين أول/أكتوبر 2007 أقدم الجنرال تشيركيسيف على فعل يائس. فقد نشر رجل الأمن الخبير مقالاً علنياً في صحيفة «كوميرسانت» (التي كان صاحبها بيريزوفسكي سابقاً، ولكنها انتقلت لمالك آخر في هذه الفترة)، بعنوان «لا يمكن السماح بتحول العسكر إلى تجّار».37 وقد اكتسب الشهرة الأكبر، من هذا المقال، المقطع الذي يلاحظ فيه المؤلف، بطريقة فلسفية، أن الأمنيين وحدهم أنقذوا روسيا من الموت في نهاية التسعينيات وأوائل الألفية الثانية:

«عند سقوطه إلى القاع، تشبث المجتمع ما بعد السوفييتي بالكلاّب «الأمني» ذاته. وبقي معلقاً عليه. لكن بعضهم أراد أن يسقط إلى القاع، ويتحطم إلى شظايا. وغضب الذين كانوا ينتظرون ذلك غضباً شديداً. وأخذوا يمتعضون، متحدثين عن السمات السيئة للكلاّب «الأمني»، الذي تشبث به المجتمع...

ومع ذلك، فقد ساعدنا في نهاية الأمر في حماية البلاد من السقوط النهائي. وهنا يكمن أحد معاني عصر بوتين، وهنا يكمن الفضل التاريخي لرئيس روسيا. وهذا يضع على الأجهزة المحترفة مسؤولية كبيرة، بعيدة كل البعد عن الرضا الذاتي المتكبر».

ثم يشير المؤلف إلى أنه يجري صراع داخل «الشركات الأمنية»:

«كي تكون أية شركة (بما فيها الشركة الأمنية) سليمة معافاة، يجب أن تكون حاملة للقيم. والأفضل أن تكون هذه القيم ليست داخلية فقط، بل قومية عامة. لكنها، بادئ ذي بدء، يجب أن تكون قِيَماً. فإذا ما اختفت القيم وحل التعسف، تنهار الشركة. وقد بدأ الآن الخبراء والصحافيون يتحدثون عن «حرب الجماعات والفرق» داخل الأجهزة الأمنية».

عملياً، فيكتور تشيركيسيف وجه اتهاماً إلى إيغور سيتشين وقيادة جهاز الأمن الاتحادي، اللذين كانا قد أثارا قبل ذلك بفترة قصيرة، دعوى جنائية ضد نائبه: «وبدرجة لا تقل عن ذلك، هذا المستقبل يحدد اليوم وضعية الأمور داخل أجهزتنا. لا يصح السماح بالفضائح والمشاجرات. لا يصح تحويل القيم إلى

تعسف. لا يمكن السماح بأن يغدو المقاتلين والعسكريين تجاراً. وباعتباري عضواً في هذا الجهاز، فهو عزيز وغال عليّ كما هو. وأعتقد أنه عزيز وغال أيضاً على كل من كرس نفسه فعلاً لهذه المهنة».

إن السبب الحقيقي لنشر المقال، كما يعتقد الصحافيون، كان النزاع بين جهاز الأمن الاتحادي والجهاز الاتحادي لمراقبة تداول المخدرات حول الإشراف على الجمارك وتدفق عصابات التهريب الصينية. ومن المحتمل، أن الجهازين كلاهما كانا يؤمنان صادقين، أنهما يعملان لصالح الوطن.

كان لنشر هذا المقال صدى ووقعاً كبيرين - ولم يأت لصالح تشيركيسيف. كان يريد إيصال رسالة إلى بوتين، الذي كان سيتشين يمنعه من الوصول إليه. لكن بوتين قرر أنه يُمنع «نشر الغسيل المتسخ». وفي أثناء التغيير الدوري للمسؤولين فقد تشيركسيف منصبه في الجهاز الاتحادي لمراقبة تداول المخدرات، لكنه مع ذلك، فقد نُقل إلى منصب ليس أقل أهمية - إلى وكالة جديدة أسست خصيصاً له، وهي وكالة ترتيبات الدفاع. أما سيتشين، فعلى الرغم من هذه الضجة، عزز من وزن جهازه.

خبير نفطي حقيقي

قبل قضية يوكوس لم تكن لدى سيتشين أية خبرة عمل في مجال الطاقة. في تموز/يوليو 2004، ترأس سيتشين مجلس إدارة شركة «روس نفط»، أي بحلول أيار/مايو 2008 كانت خبرته في العمل بهذا المجال أقل من أربع سنوات. على أية حال، لم يضع سيتشين، الموَسوس، شديد الدقة، الوقت عبثاً. وإذا ما كان منافسه الأبدي دميتري ميدفيديف، في ترأسه لمجلس إدارة شركة «غازبروم»، لم يكن يهتم أبداً بالشركة، وسمح للرئيس بوتين شخصياً بترأسها، فإن سيتشين في شركته «روس نفط»، كان يعرف كل شاردة وواردة.

في عام 2006 تقدم سيتشين أكثر إلى الأمام: فبتغذية منه، بدأت الأجهزة المختصة بالتحقيق المكثف في أعمال شركة نفط روسية كبرى أخرى، شبيهة

باسم شركته وهي شركة «روسّ نيفط Русснефт». فقد رغبت شركته «روس نفط Роснуфт» بشراء آبار تلك الشركة التي تشبهها من حيث الاسم، لأن لديها الكثير من الاحتياطيات غير المكتشفة المستقبلية. لكنهما لم يتفقا على السعر، ورفض صاحب شركة «روسّ نيفط» ميخائيل غوتسيريف بيعها. عندها فرضوا عليه ضريبة قدرها 17 مليار روبل ورفعوا ضده قضية جنائية. وفي اللحظة الأخيرة باع شركته، ولكن لم يبعها لشركة «روس نفط» بل لملك صناعة الألومنيوم في روسيا أوليغ ديريباسكا، وغادر روسيا.

على أية حال، هذه القصة وصلت إلى نتيجة غير متوقعة. في عام 2010 وبعد أن أصبح ميدفيديف رئيساً، تم العفو عن غوتسيريف المالك السابق لهذه الشركة، وتمكن من العودة إلى روسيا، واستعادة ملكيته للشركة. فقد دافع عنه أصدقاءه: غيرمان غريف وزير الاقتصاد السابق، الذي ترأس بنك الادخار، والأوليغارشي فلاديمير يفتوشنكوف.

بعد أن استوعب سيتشين كل شيء في مجلس إدارة شركة «روس نفط»، اختلف مع مدير الشركة سيرغي بوغدانشيكوف، وفي عام 2010 تخلص منه، ووضع مكانه شخصاً يخضع لسيطرته.

وبصورة تدريجية، أصبح سيتشين المسؤول الأكثر نفوذاً في الصناعة الروسية وفي الحكومة الروسية. وهو في هذا قد تجاوز، بوضوح، حتى شريكه في الاسم إيغور شوفالوف (مع أن شوفالوف، من الناحية الرسمية كان أعلى منه من حيث المنصب، فهو النائب الأول لرئيس الوزراء، أما سيتشين فهو نائب رئيس الوزراء).

كان زملاؤه في الحكومة يقولون عنه، إن سيتشين لا يتمتع بالعقلية الاقتصادية المناسبة، وإنه لا يحب أعمال القطاع الخاص، ويرى أن كل شيء يجب أن تكون ملكيته للدولة.

الأول بعد بوتين

بصفته نائباً لرئيس مجلس الوزراء، بدأ سيتشين يبدي اهتماماً متزايداً بشركة «غازبروم Газпром». فشركة «غازبروم» أصبحت بعد حرب الغاز مع أوكرانيا في بداية رأس سنة 2006 أداة الكرملين الرئيسة في السياسة الخارجية. كان بوتين يقود الشركة شخصياً، أما سيتشين، فبصفته مسؤولاً عن الطاقة، كان ملزماً بمساعدته. كان رئيس مجلس إدارة «غازبروم» ألكسي ميلر يثير حفيظة سيتشين بصورة مرعبة، لأنه لم يكن يفعل شيئاً. في أثناء زياراته الخارجية كان سيتشين يشكو للصحافيين أنه كان يتفاوض على هذه الاتفاقية أو تلك، ولكن من غير الممكن التوقيع عليها لأن ميلر نائم.

إن مثل هذه الجهود كانت تكفي سيتشين للإطاحة بأي رئيس شركة آخر، لكن ميلر كان أيضاً من قدامى رفاق بوتين، وكان يعمل مع بوتين أيضاً في محافظة بطرسبورغ في السنوات التسعينيات. علاوة على ذلك، كان أسلوب عمله لا يعيق بوتين أبداً في اتخاذ جميع القرارات بصورة مستقلة. ذلك أن بوتين لم يكن ينظر إلى «غازبروم» باعتبارها شركة، بل باعتبارها أداة سياسية، من دون الاهتمام أحياناً بالجانب الاقتصادي من خطواته.

بعد أن أصبح نائب رئيس الوزراء، تابع سيتشين نضاله ضد الأوليغارشيين «غير القويمين»، ولكن على مستوى جديد. في عام 2009 حدثت أكبر كارثة تكنوجينية في روسيا ما بعد الاتحاد السوفييتي - حادثة في محطة سايان - شوشنسك الكهرمائية. حضر سيتشين شخصياً إلى مكان الحادثة لمعرفة ما حدث، وبحسب قول الشهود، كان يتحدث مع أقرباء القتلى، من دون أن يضنّ بوقته. ومن ثم في أحد الاجتماعات، قال سيتشين جملة مجنحة: أشار بيده باتجاه حشد السكان المحليين الذين دفنوا أهلهم وأقاربهم المتوفين في الحادث قائلاً: «أعطوهم كل شيء». وهذا يعني أن الشركة المالكة للمحطة الكهربائية عليها أن تأخذ على عاتقها المسؤولية الكاملة عن تسديد التعويضات كافة للمتضررين.

بعد ذلك ترأس سيتشين لجنة إزالة آثار الحادثة، وبصورة غريبة، توصل إلى نتيجة، مفادها، أن المذنب في كل شيء هو عدوه القديم أناتولي تشوبايس، مهندس الخصخصة في عهد يلتسين، التي اعتبرها سيتشين غير عادلة. وتشوبايس بالذات، بتكليف من بوتين، وضع إصلاح الطاقة الكهربائية الروسية وأنجزه بنجاح، وقضى نهائياً على الهيمنة الحكومية على الطاقة الكهربائية للشركة الروسية المساهمة لمنظومة الطاقة الموحدة (راو.ي.ي.س РАО ЕЭС) في عام 2008. وعندما تم حل الشركة، شرع إيغور سيتشين بالعملية المعاكسة: فقد ترأس القسم الأكبر المتبقي من الشركة الحكومية «شركة إنتر الروسية المساهمة Интер РАО» وبدأ بجمعها من جديد، معيداً الشركة إلى ما قبل إصلاح تشوبايس الليبيرالي.

كان رئيس مجلس إدارة الشركة المنحلة (راو.ي.ي.س РАО ЕЭС) في عهد تشوبايس، ألكسندر فولوشين، الرئيس السابق لإدارة الرئيس، ورئيس سيتشين السابق، وعدوه القديم.

في عام 2003 كان سيتشين عملياً، هو من تمكن من إقالة فولوشين. ولكن بعد أزمة 2008 دخل سيتشين القوي في صراع ضار مع أسرة يلتسين وتمكن من التغلب على فولوشين، وديريباسكا، والأخوين يوماشيف، وحتى ميدفيديف.

من حيث المظهر الخارجي، كان هذا يبدو بمثابة نزاع الشركاء في شركة «نورنيكل»، أكبر شركة تعدين في العالم. فحتى عام 2008 كان أكبر مساهميها فلاديمير بوتانين، نائب رئيس الوزراء الروسي السابق، في عهد يلتسين، وصاحب خطة مزادات الرهن العقاري، وشريكه القديم ميخائيل بروخوروف. وعشية الأزمة، قرر الشريكان فك شراكتهما، وباع بروخوروف حصته لأوليغ ديريباسكا، ملك صناعة الألومنيوم وصهر فالنتين يوماشيف، الذي هو بدوره، صهر بوريس يلتسين. وفقد مؤسس الشركة فلاديمير بوتانين الإشراف عليها، وأصبح فولوشين، الذي يمثل مصالح ديريباسكا، رئيساً لمجلس إدارة الشركة. وفي هذه الفترة بالذات، اتجه بوتانين إلى سيتشين، باعتباره القوة الوحيدة

القادرة على حمايته من أسرة يلتسين التي بدأت تستعيد قوتها.

وساعده سيتشين: بداية، ساعده بجعله مديراً عاماً لشركة السياحة الروسية «روس توريزم» التي كان يرأسها. ليس منصباً متخصصاً للغاية، لكن المرشح لهذا المنصب كان صديق الرئيس بوتين منذ أيام بطرسبورغ، وهذا ما لم يكن يستطع أي من زعماء شركة «نورنيكل» أن يفتخر به: لا بوتانين، ولا ديريباسكا، ولا فولوشين. ومن ثم في عام 2010 قام سيتشين وبوتانين بمناورة حاذقة وطردا فولوشين من مجلس إدارة الشركة. وكانت المرحلة الساخنة من الصراع آنذاك. كان الرئيس ميدفيديف يؤيد فولوشين، لكن هذا لم يعط سوى أثراً مؤقتاً.

في المجلس الاستثنائي للمديرين أعيد فولوشين إلى المجلس. ولكن بعد ثلاثة أشهر، طُرد فولوشين نهائياً من مجلس المديرين. لقد خسر فولوشين الحرب - وتبين أن سيتشين أكثر صبراً وتحملاً. وحتى وهم مجتمعين، ما يعرف باسم «تجمع العائلة» – ميدفيديف، فولوشين، ديريباسكا، الأخوان يوماشيف - لم يستطع التغلب عليه. وهذه الخسارة في قطاع الأعمال كانت مؤلمة جداً، لأنها أظهرت أن الرئيس ميدفيديف ليس أبداً بالشخصية المعتبرة. وأنه ليس الشخص الأول في الدولة، بل وليس الشخص الثاني - إنه الشخص الثالث - بعد بوتين وسيتشين.

معركة موسكو

لقد حدث الصدام العلني الأفضح بين ميدفيديف وسيتشين في خريف 2010. من حيث المظهر الخارجي، لم يكن لسيتشين أية علاقة بهذه الفضيحة: فتحدي الرئيس لم يأتِ منه، بل من متقاعد السياسة الروسية، عمدة موسكو الذي لا يتبدل لوجكوف. بيد أن السياسي الخبير لوجكوف لم يكن ليجرأ أبداً على تحدي الرئيس لو لم يكن واثقاً من أنه لن يتعرض للعقاب. فقد أقنع سيتشين لوجكوف بأن وزن جهازه كبير وقوي، بحيث أنه غير ملزم إطلاقاً أن يحسب

حساب ميدفيديف. وإذا ما حدث أي شيء - فإن بوتين لن يسمح بأن يمسه سوء.

كان سيتشين في حضور ميدفيديف يتصرف دوماً بصورة لائقة وبحسب البروتوكول، ولكن كان يسره أن يهينه بأيدي الآخرين. سيما وأن يوري لوجكوف كان يعتبر أن ميدفيديف ليس من مستواه. فقد أصبح عمدة موسكو عام 1992. وفي عام 1993 أيد يلتسين بحزم في معركته مع السوفييت الأعلى. وفي عام 1999 كان واثقاً بأنه سيصبح رئيس روسيا، لكنه خرج من السباق تحت ضغط العلاقات العامة السوداء. كان سيد العاصمة لمدة 18 عاماً يعتقد أن ميدفيديف ليس من مستواه، وأنه ليس ملزماً أبداً أن يتعاطف معه أو أن يتملقه.

يتذكر لوجكوف نفسه، أن نزاعاته مع ميدفيديف بدأت منذ عام 2005، عندما كان ميدفيديف مديراً لإدارة الرئيس. ويحسب أقواله، فالذريعة كانت زيادة رواتب الممرضات في جميع أنحاء البلاد. بعد أن عرف بذلك، قرر لوجكوف، بصورة متوازية، زيادة رواتب جميع أطباء موسكو، وإلا، كما يؤكد، قد ينشأ تفاوت جدي. فغضب ميدفيديف، وكأنه صرخ قائلاً: «ماذا تفعل؟ أنت ألغيت تأثير القرار الحكومي!».

النزاع التالي الذي يتذكره لوجكوف حدث بعد أن أصبح ميدفيديف رئيساً. في تشرين ثاني/نوفمبر 2008 أدلى عمدة موسكو بحديث تلفزيوني لمقدم البرامج التلفزيوني الأسطوري فلاديمير بوزنير، قال فيه إن حاكم العاصمة، برأيه، يجب أن ينتخبه المواطنون، سكان العاصمة، لا أن يعينه الرئيس. (الآن، على أية حال، يصرح بأنه في عام 2004 بعد حادثة بيسلان، كان يؤيد، حسب زعمه، إلغاء انتخاب المحافظين، وعندما استشاره بوتين أيده في رأيه).

في هذا الحديث التلفزيوني كان ثمة جوانب مهمة أخرى. على سبيل المثال، أيد لوجكوف الفكرة التي طرحها ميدفيديف للتو (وهي في الواقع فكرة

بوتين) حول زيادة الفترة الرئاسية. كما تحدث فجأة عن القرم وسيفاستوبول، فقال لوجكوف شاكياً: «إن سيفاستوبول لم تكن في يوم من الأيام أرضاً أوكرانية... أما القرم فقد أعطيناه لأوكرانيا بجرة قلم، عندما قسمنا البلاد... والآن هذه المشكلة تحزُّ في قلب كل روسي». في تلك الفترة لم تكن تلك المشكلة، في الواقع، اتجاهاً سائداً في المجتمع الروسي. ولم تكن تُناقش على نطاق واسع، ربما فقط تحدث عنها لوجكوف بصحبة إيغور سيتشين وأنصارهما في الرأي. ولهذا لم يلتفت أحد إلى كلمات حاكم مدينة موسكو هذه. ورسخ في أذهان الجميع فقط النقد لعدم انتخاب العمدة.

كان الرئيس ميدفيديف يستجيب لهذه الكشوف والإيحاءات بصورة عصبية - كان لوجكوف يزعجه، وأراد أن يُظهر من هو سيد البلاد. فصرح ميدفيديف في اليوم التالي: «من لا يوافق فلينصرف».

يروي لوجكوف قصة أشبه بحكاية مثيرة للشفقة: وكأنه عندما سمع كلمات ميدفيديف، جمع العائلة (وبالتحديد زوجته يلينا باتورينا، أغنى امرأة في روسيا، التي دخلت في قائمة الـ 20 فوربس الأكثر ثراءً في العالم، وابنتيه) وسألهن: «ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل «أبتلعها»؟ أتظاهر بأنه لم يحدث أي شيء؟».

قالت لي ابنتاي: «بابا، ماذا عن الكرامة! دافع عن شرفك!». وبعد هذا كتب لوجكوف طلب استقالة ساخر، اتهم فيه ميدفيديف بأنه يستعيد العام السابع والثلاثين******** وينكِّل بالمخالفين في الرأي. كان من الخطأ البدهي إقالة لوجكوف لأنه دعا إلى الانتخابات الديمقراطية، ولهذا لم يقبل ميدفيديف استقالته.

بيد أن النزاع التالي لم يكن بين لوجكوف «الديمقراطي» وميدفيديف «الديكتاتوري». يروي عمدة موسكو السابق، أنه كان مرتبطاً بستالين. في عام 2010 كانت سلطات موسكو تستعد للاحتفال بالذكرى السنوية الخامسة والستين للنصر في الحرب الوطنية العظمى. وفي هذه المرة، قرر لوجكوف، أنه

يجب أن تكون صور ستالين حاضرة في احتفالات هذا العيد.

يقول لوجكوف الآن: «وضعنا صوراً لستالين تناسب دوره. وكان دوره مهماً جداً. لقد كان له إسهامه في النصر، وكان إسهامه من الإسهامات الأقوى والأكثر حسماً. إن ستالين بالذات هو من كان يدير الموارد، وهو من كان يشرف على الاستراتيجية. المرحلة الأولى من الحرب – ذنبه، أما المرحلة الثانية فهي نجاحه. من المستحيل شطبه. كان جنودنا يندفعون في الهجوم تحت شعار «من أجل الوطن، من أجل ستالين!». لكن إدارة الرئيس وقفت موقفاً مضاداً بصورة قطعية - وأمر ميدفيديف بأن لا تظهر صور ستالين في أي مكان.

يبدي لوجكوف استياءه حتى الآن قائلاً: «ما هذا الهذيان؟ ما هذه الهمجية؟ لقد اتخذت قراراً آخر - أطلقنا اسم ستالين على طريق في جبل بوكلونايا».

يتحفظ لوجكوف على الفور، بأنه «ليس ستالينياً»، «فستالين مسؤول عن موت 50 مليون إنسان، وأول ما وقع على ذمة هذا الرجل، على ذمته السوداء - هو 20 مليوناً من القتلى الكولاك الأثرياء، المديرين التنفيذيين الأقوياء، الذين كان في إمكانهم جعل اقتصادنا الزراعي مزدهراً». لم يستخدم لوجكوف صدفة تعبير «المدير التنفيذي القوي» - فهكذا كان يلقبه الصحافيون طيلة عمله عمدة موسكو 18 عاماً. وكل هذا لا يبدو له متناقضاً أبداً.

وحلت النهاية في آب/أغسطس -أيلول/سبتمبر 2010. حل الجفاف صيفاً في وسط روسيا، واشتعلت حرائق الغابات حول موسكو. وفي أواسط آب/أغسطس أحاط بموسكو ضباب كثيف. وسيطر الذعر على سكان المدينة، وفي اللحظة الحاسمة نشرت وكالات الأنباء الحكومية خبراً غريباً. مصدر مجهول في إدارة الكرملين (كانت تختفي خلف هذا التعبير اللطيف دوماً ناتاليا تيماكوفا، مديرة مكتب ميدفيديف الصحافي) طرح سؤالاً، لماذا عمدة العاصمة يستجم في جبال الألب النمساوية في الفترة التي يختنق فيها الموسكوفيون من الدخان.

عـاد لـوجكوف مهاناً وممتعضاً إلى أبعد الحدود. في البداية، ظهر على قناة المدينة ت.ف.تس ТВЦ (أي قناته التلفزيونية) وقال: «من الإدارة وردت ضربة: عاد - هذا جيد، لكنه عاد متأخراً. أترون؟، فترة طويلة، إنها ستة أيام – ستة أيام بقي الرفيق في الإجازة - هذا كثير». ثم رد على «المصدر المجهول» بمقال مجهول المؤلف نشره في صحيفة «موسكوفسكي كومسوموليتس». كان المقال موقعاً باسم يـوري كوفيلتسين، لكن الجميع عرف، أن الكاتب الحقيقي هو لوجكوف. وفيه اتهم الرئيس ميدفيديف صراحة بمؤامرة ضد بوتين:

«وضـع فلاديمـير بوتـين مسـبقاً كثيراً مـن الضوابط والتوازنـات لـدميتري ميدفيديف. إن فريق الشخص الأول الحالي يدفع بتلك القوة، بحيث أن الوضع - وبخاصة، الاضطهاد المباشر من خلف جدران الكرملين على عمدة موسكو - يخرج بعيداً عن إطار أية مباريات وآداب سياسية.

إن استبدال حاكم موسكو، الموالي لرئيس الوزراء، والذي عمل الكثير معه من أجل استقرار الوضع ليس في العاصمة فقط بل وفي روسيا كلها، يفتح الطريق إلى التمرد الملون، الذي لم يجرب الشعب الروسي بعد نشوته الكاذبة، ولهذا قد ينجر إليه.

في بلادنا روسيا ثمة أعداد كافية من الناس الذين يعدون قدراتهم العقلية والماليـة كافيـة كـي يستغلوا لصالحهم أيـة كـوارث. وهـم الآن يتملقـون ميدفيديف، مواظبين، ويحرضونه على الأبّ السياسي، وعلى جميع مرتكزاته الرئيسة - بما فيها على لوجكوف».38.

لقد أصيب ميدفيديف بالذهول من وقاحة لوجكوف. وكان يدرك، أنه لم يكن ليتصرف على هذا الشكل الصارخ لو لم يشعر بالأمان الكامل، ومثل هذا الشعور بالأمان الكامل لا يمكن أن يوحي له به إلا سيتشين.

من الناحية الشكلية القانونية، يحق لميدفيديف إقالة عمدة موسكو في أية لحظة. لم تكن هناك سوابق تنحية المحافظ «بسبب فقدانه ثقة الرئيس» حتى

تلك الفترة، لكن من الناحية القانونية لا شيء يمنع ذلك. ولكن ثمة مسألة أخرى - يجب أن يشرح لبوتين: لماذا سرّح عمدة خبيراً وذا شعبية. بوتين، بالطبع، لم يكن يحب لوجكوف، لكنه لم يقرر مسّه، لأنه كان يعتقد أن الموسكوفيين يحبونه. كان المخرج الوحيد هو إقناع بوتين بأن الموسكوفيين لا يحبون لوجكوف.

وانهالت على لوجكوف الآلة الدعائية للقناة التلفزيونية ن.ت.ف - تلك القناة ذاتها التي أيدت قبل عشرة أعوام لوجكوف ويفغيني بريماكوف، ووقفت ضد «صنيعة أسرة يلتسين» فلاديمير بوتين. لقد تغير الآن كل شيء. وبثت قناة ن.ت.ف فيلمين فضائحيين: - «المسألة في القبعة» (عن لوجكوف نفسه)، ومن ثم فيلم «العزيزة يلينا نيقولايفنا» – عن زوجته باتورينا.

بعد ذلك، استدعى سيرغي ناريشكين رئيس إدارة الرئيس عمدة موسكو لوجكوف إلى مكتبه وعرض عليه كتابة طلب استقالة. وعد لوجكوف بالتفكير في الأمر وسافر في إجازة (إلى جبال الألب النمساوية ثانية) للاحتفال بعيد ميلاده. وصرح مصدر مجهول في الكرملين لوكالات الأنباء: «واضح، أن يوري لوجكوف يمر الآن بمرحلة قاسية في حياته، ويحتاج بالطبع، إلى وقت للتفكير».

من الإجازة، كتب لوجكوف لميدفيديف رسالة استفزازية أخرى. واتهم إدارته بـ«الإرهاب الإعلامي» وبمحاولة إعادة عام 1937، وإدخال الرقابة على حرية الكلمة. وكمثال على الرقابة، ذكر لوجكوف، أنه بهاتف من الكرملين، ألغت قناة موسكو التلفزيونية ТВЦ بث فيلم وثائقي مؤيد للوجكوف - كانت تبدو له حقيقة وجود قناة تلفزيونية خاصة به في جيبه ظاهرة ديمقراطية.

استشهد لوجكوف في رسالته بـ«احتجاجات الموسكوفيين القوية»، باعتباره كان مقتنعاً بأن سكان العاصمة يؤيدونه. وفي هذا، كما سيتضح فيما بعد، اعتبر رغباته حقيقة - أو، وثق كثيراً بعلماء الاجتماع الموالين له. وأنهى رسالته

بعبارة: «لي الشرف».

عندما عاد من إجازته في 27 أيلول/سبتمبر، أعلن لوجكوف للصحافيين أنه لا ينوي تقديم استقالته. كان ميدفيديف آنذاك في زيارة رسمية في الصين. ولكن في صباح اليوم التالي، في 28 أيلول/سبتمبر ظهر على موقع ميدفيديف الرسمي مرسوم يقضي «بعزل لوجكوف من منصبه لانعدام الثقة».

بعد يومين، علق بوتين على هذا النزاع العلني. وكأنه نأى بنفسه عن الاثنين، قائلاً، بأنه لم يكن جديراً بلوجكوف أن يقدم على النزاع مع ميدفيديف، وبما أنه تنازع معه، فمن حق ميدفيديف تسريحه.

الآن، يقول لوجكوف، إن السبب الحقيقي للنزاع والإقالة هو عدم رغبته دعم ميدفيديف الذي كان ينوي ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية. وكأن أحد معارفه القدماء كان قد جاءه منذ شهر شباط/فبراير 2010 بصفة مبعوث من ميدفيديف وطلب منه أن يجيب، هل يؤيد فترة رئاسية ثانية لميدفيديف. وبحسب قوله، أجاب لوجكوف بالرفض.

هذه الحادثة يقارنها الآن بحادثة أخرى وقعت حسب زعمه في شباط/فبراير أيضاً، ولكن قبل 11 عاماً، في عام 1999 - آنذاك جاءه بوريس بيريزوفسكي، كي يعرض عليه أن يصبح مرشحاً للرئاسة باسم عائلة يلتسين. ورفض لوجكوف آنذاك. وبحسب روايته، لأنه كان ينوي إعادة النظر في نتائج الرهون العقارية، أما حسب رواية أسرة يلتسين، لأنه كان يعتقد بأنه سينتصر بحد ذاته، وأنه ليس في حاجة إلى دعم الكرملين.

يقال في حاشية ميدفيديف، أنه لم يعرض أحد شيئاً على لوجكوف ولم يكن في إمكانه أن يعرض. فقد كانت بادية وظاهرة بوضوح للغاية الروابط الوثيقة بين عمدة موسكو وإيغور سيتشين عدو ميدفيديف الأبدي.

على أية حال، إن ما لم يخطئ فيه لوجكوف بالتأكيد، هو أنه في عام 2010

بالتحديد، ظهرت لدى ميدفيديف مطامح حقيقية - لقد أراد أن يبقى رئيساً لفترة رئاسية ثانية. وفي هذا الموقف بالذات، كان على سيتشين أن يلعب الدور الحاسم.

الفصل الثاني عشر: الأميرة الروسية تاتيانا يوماشيفا تؤسس حزباً ديموقراطياً جديداً

لم يَدعُ أحد أبداً تاتيانا بوريسفنا******** بالأميرة. فهي لا تشبه أبداً الأميرة، بطلة أفلام والت ديزني. لكنها، في الحقيقة، تشبه الأميرات البريطانيات غير الخياليات: كالأميرة آنّا، والليدي دي (ديانا) أو حتى كاميلا باركر بويلز. الابتسامة المشعة. وبرودة العينين. إحساس بثقل لا يحتمل بالمسؤولية تجاه الأسرة، تجاه السمعة، تجاه الوالدين، تجاه الأبناء، الذي سيبقى دوماً أهم من أي شيء آخر.

تعتبر تاتيانا بوريسفنا نفسها متابعة قضية أبيها، وحافظة تركته. ورسالتها - الدفاع عن اسمه الطيب، وذكراه، والتأكيد على عظمته. وهي تغضب بصدق على أي انتقاد يوجه ليلتسين. وهي تدافع بصدق عن رؤيتها لأحداث التسعينيات (1990)، وقد تم تجاهلها كثيراً بالطبع. تؤكد تاتيانا بوريسفنا (إثر أمها نايينا إيوسيفوفنا)، أن بوريس يلتسين لم يكن مدمناً على المشروبات الكحولية. وكما ينطق فوهاهما، فبوريس يلتسين -هو عموماً شخصية شبه أسطورية. لكنهما لم يخترعاه - حقيقة، إنهما هكذا يذكرانه، وواثقتان بأنه كان هكذا، ومقتنعتان بأن الآخرين جميعهم يكذبون ويراؤون.

تعتبر تاتيانا بوريسفنا أباها ديمقراطياً نموذجياً، أما السنوات التسعينيات 1990 فتعدها عصر الحرية. إنها تعدُّ نفسها بصدق ديمقراطية غيورة - فهي ابنة أبيها. إنها تستاء عندما تسمع النقد الموجه للسنوات التسعينيات. فهذا بالنسبة إليها خرق للمقدس: الحرية والديمقراطية. وهي، ربما، لا ترى الفرق أبداً، بين الديمقراطية وسلطة أبيها. وهي تخلط، بوضوح، بين وجهات نظرها وبين القيم

الليبيرالية. عموماً، هذا الاختلاط أصاب في التسعينيات النخبة السياسية الروسية كلها: ففي عام 1996 اختلط الأمر على الديمقراطيين الروس بين الديمقراطية وسلطة الديمقراطيين.

كانت تاتيانا بوريسفنا تريد بالطبع، أن تصبح سياسية. وهي تدرك أنه كان في إمكانها ذلك. فلديها خبرة كافية، وكاريزمية. وربما كان في إمكانها أيضاً إنقاذ البلاد. ولكن، لا. عليها أن تحمل عبء ابنة الرئيس. فهي لا يمكنها أن تحمل هذا العبء وعبء أسرتها. وقد ضحّت بمطامحها السياسة الخاصة. وهذا هو خيارها - أو أنها تقنع نفسها، بأن هذا خيارها.

الأسرة تعود من جديد

توفي بوريس يلتسين أول رئيس لروسيا في نيسان/إبريل 2007 قبل نهاية الفترة الرئاسية الثانية لبوتين وبداية عملية «الخليفة». ومن سخرية القدر، أنه بعد وفاته بالذات، أصبحت الأسرة من جديد في مركز الاهتمام الكبير. وطيلة الوقت المنصرم منذ استقالة يلتسين بقيت الأسرة في الظل. والجمهور نسي تماماً من هما تانيا وفاليا. في حين أنه في نهاية السنوات التسعينيات، وبحركة خفيفة من مقدم البرامج التلفزيوني يفغيني كيسيليف تعرفت البلاد كلها على وجه الرديفين: ابنة الرئيس تاتيانا دياتشنكو (كنية والدتها) ورئيس إدارته فالنتين يوماشيف وسمتهما باسميهما - من دون ذكر الكنية. كما سمتهما بـ «الأسرة» بأحرف كبيرة. فقد كانا يعتبران المستشاريْن السريّيْن الأقرب للرئيس والكرديناليْن الرماديْين للسياسة الروسية. وقد تزوجت تانيا وفالنتين بعد استقالة بوريس يلتسين في تشرين ثاني/نوفمبر 2001.

قرابة عشر سنوات، لم يدليا بأي حديث صحافي، ولم يظهرا في الأخبار. وعلى أية حال، لم يعد هناك وجود لأولئك الصحافيين الذين كان في استطاعتهم عبثاً تذكر اسميهما. فالقناة التلفزيونية ن.ت.ف التي كانت يوماً معادية لأسرة الرئيس يلتسين كان قد سحقها يفغيني كيسيليف منذ ربيع 2001، وفيما بعد

رحل للعمل في أوكرانيا.

كانت تاتيانا يوماشيفا تتابع عملية «الخليفة» من الجانب، لكن تعاطفها كان واضحاً. كان ألكسندر فولوشين، الصديق القريب والرئيس الأخير لإدارة يلتسين، وهو الذي نقل السلطة في عام 2000 إلى بوتين، المركز الدماغي الفعلي لأركان دميتري ميدفيديف. لم يقل أحد هذا علناً، لكن كان هناك شعور الكثيرين، أن السياسة الكبيرة تعود من جديد باتجاه أسرة يلتسين. وكانت هناك تفاصيل وجزئيات صغيرة مما يحدث، تذكر بعودة عصر والد تاتيانا. وبدأت على الأقل، من أن الرئيس الجديد بدأ يعيش في منطقة «غوركي»، (بقي بوتين في نوفو - أوغاريفو، مقر إقامة غورباتشوف السابقة، أما ميدفيديف فانتقل إلى مقر يلتسين السابق في غوركي-9)، وعلى هذا النحو، فإن آل يلتسين - ويوماشيف والرئيس الجديد أصبحوا جيراناً. ولم يبق بالنسبة إليهم سوى إنجاز الإصلاحات في الفيلا الشخصية الخاصة بهم الواقعة في غوركي-10، التي بدأت بعد استقالة يلتسين ولم تنته خلال حياته.

ما إن شغل بوتين منصبه عام 2000 وقّع مرسوم «ضمانات لرئيس الاتحاد الروسي الذي توقف عن أداء صلاحياته، وضمانات لأفراد أسرته». وثبّت ليلتسين مقرّه في غوركي-9. لم يتحدث المرسوم عن أية ضمانات بخصوص سلامته، ولا عن أية وعود من بوتين. ولكن كان ثمة اتفاق غير مكتوب بأن تمتنع أسرة يلتسين عن ممارسة النشاط السياسي طيلة فترة رئاسة بوتين، وتحترم السلطة الجديدة ملكية الأسرة - بالمعنى الواسع للكمة. وكان يدخل بالمعنى الواسع لكلمة ليس فقط تاتيانا ورديفها فالنتين، بل وكذلك صهر فالنتين يوماشيف، أوليغ ديريباسكا، مالك شركة «روسال РУСАЛ» أكبر شركة للأومنيوم في العالم، وكذلك رومان أبراموفيتش - وإن لم يكن عضواً من الأسرة، لكنه صديقها المقرّب.

كانت تعني بداية رئاسة ميدفيديف، بالنسبة إلى أسرة يلتسين، ليس فقط الانتقال المقبل السريع إل مقر الإقامة الجديد فحسب، بل وكذلك تلميحاً إلى

أن جزءاً من الالتزامات التي أخذتها الأسرة على عاتقها قبل عشر سنوات، أصبحت في حل منها. في 3 كانون أول/ديسمبر، تماماً بعد عشر سنوات من عملية «الخليفة» في عيد رأس السنة، قررت تاتيانا إنهاء صمتها. وظهر لقاؤها الصحافي في مجلة «ميدفيد - الدب»، لكن الأهم، أنها افتتحت مدوَّنتها الخاصة على الإنترنت. في اليومين الأولين وعدت بالكتابة عن اللياقة البدنية وتربية الأولاد. وبعد نحو أسبوع بدأت الكتابة عن السياسة.

في 23 كانون أول/ديسمبر كتبت تاتيانا نصاً مفصلاً تحدثت فيه عن سبب اختيار والدها بوتين بالذات خليفة له - وكأن الآخرين جميعهم كانوا أسوأ. لم يكن لدى «الليبيراليين» تشوبايس، ونيمتسوف، وتشرنوميردين أية فرصة لأن يختارهم، أما لوجكوف وبريماكوف فقد كانا خطرين، لأنهما كان يمثلان الجيل القديم من السياسيين - وكان في إمكانهما إعادة الاتحاد السوفييتي.

بعد يوم انطلقت تاتيانا إلى أبعد من ذلك - قررت التصريح بخصوص الالتزامات التي أخذتها على عاتقها الأسرة وبوتين عند تسليمه السلطة. صرحت - لم تكن هناك أية التزامات، وقالت: «هل تحدثا عن ظروف حياة البلاد في عهد الرئيس الجديد؟ عن سياسة الكوادر، عن السياسة الاقتصادية. هل كانت هناك حزمة من الاتفاقيات، المكتوبة أو غير المكتوبة؟ أجيب. عدا عن جملة «حافِظْ على روسيا» لم يطلب أبي من فلاديمير بوتين أي شيء آخر. لا عن الأسرة، ولا عن الأقرباء، ولا عن نهج السياسة (فهذا كان بدهياً بالنسبة إليه)، ولا عن المحافظة على الكوادر العزيزة على قلب أبي. كان القائم بأعمال الرئيس حراً بصورة مطلقة في سياسة الكوادر، وفي اختيار الاستراتيجية المقبلة. وهذا ما تؤكده الحياة - لقد قرر الاستقالة والمتابعة من الجانب لما يحدث».39.

من ناحية - المدوّنة عن بوتين من باب المجاملة فقط. ولكن من ناحية أخرى - هل تتعلق هذه المدوَّنة فقط بـ«عملية يلتسين - بوتين»؟ أم أن يوماشيفا قدمت نصيحة على هذا النحو للرئيس السابق بوتين - بالابتعاد جانباً وعدم مضايقة

الرئيس الجديد، ميدفيديف في عمله؟

جميع كلماتها اختيرت بحذر، بيد أن واقع أنها تطرقت إلى هذا الموضوع بحد ذاته، اعتبرها كثيرون أقرب إلى التحدي. حتى لتلك الإيديولوجيا التي خلقتها الدعاية البوتينية الرسمية طيلة السنوات الأخيرة. ففي عام 2007 كان الموضوع الرئيس للتلفزيون الحكومي معارضة السنوات التسعينيات المتطرفة (وكان هذا من جديد، من ابتكار القناة التلفزيونية ن.ت.ف، التي وإن أصبحت موالية للسلطة، لكنها لسخرية القدر بقيت معادية ليلتسين). فبوتين لم «ينهض بروسيا من رُكْبتيها» فحسب (أي أعاد لها سمعتها في العالم واسمها)، بل ووضع حداً للفوضى التي سادت في عهد يلتسين - ذلك هو التعهد الرئيس للسلطة في أثناء الانتخابات النيابية في عام 2007.

لقد أخذت يوماشيفا تكتب بصورة أكبر وأكثر، للنظرة الأولى، بهدف واحد - تبييض اسم أبيها واسمها، وكذلك اسم زوجها فالنتين. وأن تُعارض بشيء ما الصورة المرعبة للسنوات التسعينيات المتطرفة، وأن تكتب صيغة بديلة للتاريخ.

إنها نهاية عصر الصمت، ولتكن بمساعدة مدوَّنة إنترنت متواضعة، كانت تتحدث عن شيء واحد فقط - إن يوماشيفا تجرب قواها بصفة جديدة، بصفة شخصية عامة. إنها تريد تذكير الرأي العام بنفسها. وفي الوقت نفسه، أكدت غير مرة، أنه لم تكن لديها أية فكرة بممارسة السياسة. بيد أن السياسة جاءت بنفسها إلى آل يوماشيف - فحلقة الأصدقاء التي تجتمع حول آل يوماشيف كانت تبحث دوماً، هل ثمة فرصة لدى ميدفيديف للخروج من عباءة بوتين وهل سيصبح رئيساً حقيقياً. بعضهم كان يقول لا، لأن الرئيس الشاب لا يمكنه أن يقرر حتى تعيين رؤساء إدارته وقادة أجهزته الأمنية الأقوياء. ولمعرفتهم ببوتين، كانوا يعتقدون بأنه لن يسمح أبدا للخليفة بـ«السباحة الحرة». وكانت تتمسك بمثل هذا الرأي، على سبيل المثال، تاتيانا نفسها. حتى أنها تراهنت مع أصدقائها على عدة صناديق شمبانيا على أن بوتين سيعود للرئاسة بعد أربع

سنوات. عموماً، غالبية ضيوف آل يوماشيف كانت تراهن على أن ميدفيديف يمكنه فعل شيء - كانوا يريدون جداً تصديق ذلك. حتى الأكثر مهارة، كأصحاب المليارات من قائمة فوربس مثلاً، كانوا يراهنون على أن ميدفيديف لن يستسلم بسهولة. وحجتهم كانت بسيطة: لم يحدث في تاريخ روسيا أن سلم حاكم السلطة بنفسه. الأطروحة غامضة، لكن غالبية المتناقشين كانوا يثقون بها.

كان الأمنيون الأقوياء من دائرة بوتين يتابعون باهتمام كبير، بالطبع، ازدياد نشاط تاتيانا وفالنتين ويقدمون لبوتين بصورة منتظمة تقارير، يُستدل منها على أنه ظهرت لدى الأسرة من جديد، مطامح سياسية. وعلاوة على ذلك، ثمة احتمال بحدوث مؤامرة. لاذ بوتين بالصمت.

حزب جديد

قبل عام من الانتخابات البرلمانية عام 2011 خطرت في ذهن دميتري ميدفيديف فكرة تأسيس حزب خاص به: حزب حاكم، يمكنه أن يضم الطبقة الوسطى الروسية ويؤيد الإصلاحات الليبرالية. فالحزب الحاكم السابق «اتحاد القوى اليمينية»، الذي جمع 8,5% في انتخابات 1999 قد ذبُل نهائياً بحلول عام 2007، وانهار في انتخابات الدوما، وجمع أقل من 1%، ولم يعد له وجود.

كانت فكرة حزب ليبرالي يميني جديد تحوم في الفضاء. وحول أنه يجب أن يقوم في روسيا حزب حاكم كان يتحدث بصورة منتظمة أناتولي تشوبايس، المنظِّر الرئيس لليبراليين الروس، وواضع الإصلاحات الروسية في التسعينيات، والذي ترأس في عهد بوتين شركة الطاقة الحكومية «راو.ي.ي.س». وكان يفكر في هذا أيضاً ألكسندر فولوشين، رئيس إدارة الكرملين السابق في عهد يلتسين وبوتين، ومن ثم استقال في عام 2003 وترأس مجلس إدارة شركة الطاقة الحكومية.

بحلول عام 2009 أنهى تشوبايس وفولوشين إعادة إصلاح قطاع الطاقة، وتم

تسليمها إلى القطاع الخاص، وحل كل منهما شركته، وأخذ كلاهما يفكر في العودة أكثر إلى السياسة - وإن كان بصورة حذرة، وليس في الأدوار الأولى. ومع بداية شتاء 2010 طور ألكسندر فولوشين الذي لا يحب الظهور نشاطاً ملحوظاً لا سابق له. فقد افتتح مكتباً له في منطقة «أكتوبر الأحمر»، في بناء معمل الشوكولا السابق.

مكان شديد الرمزية - جزيرة على نهر موسكو تقع مقابل الكرملين مباشرة، كانت دوماً نقيضته. في القرن السابع عشر أعدم فيها ستيبان رازين أحد أكبر المتمردين العصاة في التاريخ الروسي. في بداية القرن العشرين، وبالقرب من الجسر الحجري الكبير (كاميني موست) تم تشييد بناء على ضفة النهر، حيث أقامت نخبة دولة البلاشفة الجديدة. في السنوات الثلاثينيات 1930 تعرض القسم الأكبر منها لحملة كبيرة من التنكيل والاعتقالات - ففي كل ليلة تقريباً، كانت تأتي سيارة سوداء كي تعتقل «عدو الشعب» الجديد. أما في أوائل القرن الحادي والعشرين، فقد تأسس هنا الحي الأحدث والأكثر عصرية في موسكو الجديدة. وحل في أبنية معمل الشوكولا السابق من الآجر الأحمر وحدات تشغيل تكنولوجيا المعلومات والمطاعم ومعارض الفن الحديث، واستقرت هنا قناة «دوجد – المطر»، القناة التلفزيونية المستقلة الوحيدة في روسيا، وكل هذا أكسب هذا المكان سمعة حي العاصمة الحر الرئيس. ومهما بدا هذا غريباً، هنا استقر ألكسندر فولوشين مؤقتاً. وبجلوسه قرب النهر على الضفة المقابلة من الكرملين، بدأ يحدد اللقاءات مع أصحاب صفحات الإنترنت الشعبية الشهيرة والصحافيين والكتّاب، ويتحادث معهم حول ماذا ينتظر السياسة الروسية في المستقبل، وكيف سيكون الحزب الليبيرالي الجديد، ومن يمكنه، ومن يريد الانتساب إليه.

هذه الأسئلة كان يطرحها ألكسندر فولوشين بوضوح كاف، لدرجة أنه كان يظهر إحساس بدهي لدى محدثيه - بأنه يفعل هذا ليس بمبادرته الشخصية. وربما، ليس بنصيحة الأسرة سيئة السمعة – «مدوّنة» تاتيانا الجديدة وزوجها

فالنتين. اعتقد الجميع، بأن لدى فولوشين مهمة خاصة من الرئيس ميدفيديف. على الرغم من أن فولوشين لم يقل أي شيء لأحد عن هذا.

بعد شهرين كانت الأوساط الموسكوفية كلها تهدر. وتمكن الجميع تقريباً من حضور اللقاء مع الكاردينال الرمادي السابق لبوتين والكاردينال الرمادي السري الحالي لميدفيديف. ورووا أساطير مختلفة حول أن القائمة الانتخابية للحزب الجديد أصبحت جاهزة، وكأن أحدهم رأى، كيف أن تاتيانا يوماشيفا كتبتها في مطعم على محرمة ورقية. ولكن لم يكن يعرف أحد من سيصبح وجه هذا الحزب الليبيرالي الجديد. ذلك أن مؤسسيه دوماً تقريباً كانوا يفضلون البقاء في الظل وأن يكونوا استراتيجيين سريين، على الرغم من أن نشاطهم لم يكن سراً على أحد.

لقد كان لآل يوماشيف بالفعل، علاقة مباشرة بالمشروع الجديد. في أثناء تفكيره بالمشروع، استدعى ميدفيديف إلى مكتبه في الكرملين فالنتين يوماشيف وطلب منه المساعدة في توظيفه وتعيينه. كان يوماشيف مسروراً جداً بالمهمة - وقد اقترح فكرة، بأن الحزب يجب ألا يكون له زعيم واحد، بل على الأغلب قائمة من عشرة أشخاص، يمكنهم أن ينطلقوا بالحزب في جميع أنحاء البلاد. لكن ميدفيديف لم يوافق - كان يعتقد بأنه يجب أن يكون شخص أول واحد.

حق القنانة

لقد أصبحت الليبيرالية فجأة موضة عصرية - بفضل الرئيس ميدفيديف، بالطبع. فقبل عام، كان لا يزال ظل بوتين قريباً، كان رئيس الدولة الجديد يرغب كثيراً في أن يبدو ليبيرالياً مثقفاً. وإذا ما أقدم في البداية على الخطوات الأولى فقط، فإنه في عام 2011 قد حان الوقت لحملة من العلاقات العامة. ومن أجل هذا الغرض، قام ميدفيديف بتنظيم مؤتمر في بطرسبورغ مكرس للذكرى السنوية الـ 150 لإلغاء حق القنانة.********

وبحسب خطة ميدفيديف والدائرة المحيطة به، فإن هذا المؤتمر، وخطاب ميدفيديف فيه، يجب أن يصبحا نقطة انطلاق لمنصبه السياسي الجديد. قال الرئيس للحضور في المؤتمر: «لقد أثبت التاريخ، أن القيصر ألكسندر الثاني كان على حق وليس نيقولاي الأول ولا ستالين»، مدققاً أنه يعدّ نفسه بالذات متابعاً لنهج القيصر الذي حرر الفلاحين. فتأوه الجمهور - وأدرك كثيرون، نقول «ستالين ونيقولاي الأول»، ونقصد «بوتين». لم يكن ميدفيديف ليسمح لنفسه بعد بالاختلاف مع بوتين، ولكنه بدأ بوضوح يقارن نفسه به.

بقي عام واحد على الانتخابات الرئاسية، وأقل من عام على الانتخابات البرلمانية، وبدأ التحضير النشيط في فريق ميدفيديف لها. كان يعد الخطط، بالطبع، فلاديسلاف سوركوف، منظر بوتين وخبيره السياسي في السابق الذي لا بديل له.

لم يثق ميدفيديف على الفور بسوركوف، وبقي متذكراً أنه كان يراهن على خليفة آخر لبوتين - إيفانوف. وبقي ميدفيديف فترة طويلة يعتبر أن سوركوف مُرسل إليه من بوتين، بصفة «مراقب». لكن فولوشين لعب دوره، حيث أنه كان يعتبر سوركوف تلميذاً له. ومنذ بداية عام 2010 بدأ فلاديسلاف سوركوف، بتكليف من ميدفيديف، بالتخطيط للحزب الجديد، الذي يمكن أن يصبح حزباً موازناً ليبيرالياً لجنينه الذي أسسه – حزب
«روسيا الموحدة».

فكر سوركوف طويلاً، كيف على الرئيس أن يتصرف، كي يراعي جميع قواعد اللعبة ويعاد انتخابه لفترة رئاسية ثانية. وكان بدهياً، أنه لم يكن هناك أي اتفاق مسبق متبادل بين بوتين وميدفيديف في عام 2007 عندما تبادلا المناصب: «سننظر في الأمر، حسب الموقف، نحن لسنا غرباء». والآن حان الوقت لنمذجة موقف بحيث يكون من السهل والمريح لبوتين أن يتنازل عن الرئاسة لميدفيديف. فأولاً، يجب أن يتمتع بشعبية. وثانياً، يجب أن يكون ذا فاعلية وقدرة - أن يظهر بأنه زعيم قومي، وأن ميدفيديف يدرك بشكل أفضل الواقع

المعاصر، ويتكيف بشكل أفضل مع العالم الجديد.

بدأت «الثورة 2.0»******** في جميع أنحاء العالم، وأطاح المعارضون بأنظمة الحكم بمساعدة فيسبوك وتويتر. إذاً، فالزعيم الأكثر فاعلية هو ذاك القادر على استخدام طاقة قنوات التواصل الاجتماعي لصالحه، والذي يمكنه بواسطتها إدارة الجماهير، فيصبح زعيمها. وكان ميدفيديف، يطابق هذا الوصف. لديه حسابات في فيسبوك وتويتر وانستغرام، حتى أنه كان يضع فيها صور القطط، مظهراً في الوقت نفسه لبوتين أنه رئيس فاعل وعصري، يمسك بيده نبض الشارع والحدث، ولا يسمح بأن تقوم في البلاد أية ثورة من خلال تويتر.

لقد تبين أنه ليس من الصعب جمع مليون من التواقيع والمتابعين - ففي هذا المجال لم تكن هناك أية منافسة لدى ميدفيديف. بيد أن تأسيس حزب كان يتطلب إتقاناً وكفاءة. فمن ناحية، كان من الواجب عدم بث الرعب في أعضاء حزب «روسيا الموحدة» ودائرة بوتين المحيطة، وإيضاح أن كل شيء يجري لصالحهم، ومن ناحية أخرى - يجب إبعادهم بلطف من المركز إلى المحيط.

وأخيراً، من أجل أن يرشح نفسه لفترة رئاسية ثانية، كان على ميدفيديف أن يملك مجموعة قوية من الأنصار، ودعم جمهور الناخبين وإثباتات واضحة بأنه يسيطر على الموقف.

لنعش حتى شهر أيلول/سبتمبر

اصطدمت خطط سوركوف فجأة بعقبة لم يتوقعها أحد. فقد تابع عميلها (ميدفيديف) التشدد في خطه، صانعاً لنفسه صورة زعيم غربي ليبيرالي معاصر. وكأنه تصادق مع باراك أوباما وبذل جهده كي يصبح «أوباما الروسي» - زعيماً شاباً نموذجياً أنيقاً. في آذار/مارس 2011 كان على الزعيمين الشابين الاتفاق حول الخطوات الواجب اتباعها في ليبيا. كان ميدفيديف وأوباما يكنّان مشاعر متماثلة تقريباً تجاه ما يجري في ليبيا. فمن ناحية أولى، كان النظام الليبي بغيضاً بالنسبة إليهما، وزعيمه معمر القذافي أكثر إثارة للاشمئزاز. كل

منهما كان قد اجتمع به مرة واحدة، وشعر معه بالحرج والإهانة - فالقذافي كان يتصرف منذ زمن كإنسان مجنون فقد صلته بالواقع. حتى أنه كان يسبب الخجل لابنه سيف الإسلام الشاب العصري المتحضر الذي كان زبوناً دائماً للنوادي الليلية الموسكوفية العصرية، وكان يحب التنزه مع الأوليغارشيين الروس، وحبك روايات الغرام مع السيدات الروسيات المثقفات، وكان يتحدث برعب ويأس، في كل مرة، عن أبيه المخبول في خيمته البدوية التقليدية.

من ناحية أخرى، كان يشعر ميدفيديف وأوباما ببغض لا يقل عنه تجاه نيقولاي ساركوزي الزعيم الرئيس للتحالف المضاد لليبيا. كان يعرف الجميع، أن الرئيس الفرنسي أخذ مالاً من القذافي من أجل حملته الانتخابية. لكن هذه الواقعة كانت تحثُّ، لسبب ما، ساركوزي، وقد سعى كي يظهر للعالم كله، أنه ليس ملزماً بشيء للقذافي، وسارع بقصف ليبيا. لم يكن يرغب ميدفيديف في مساعدة ساركوزي - وبخاصة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار الذكريات غير السارة حول عملهما المشترك في تسوية النزاع الجورجي - الأوسيتيني في عام 2008. بيد أن الوقوف إلى جانب القذافي كان أسوأ. وفي المحصلة، اتفق ميدفيديف وأوباما على أنهما لن يعيقا ساركوزي، وسيسمحان له بضرب القذافي.

هل كانت المسألة الليبية مهمة بالنسبة إلى ميدفيديف - بالطبع، لا. كان مهتماً أكثر من ذلك بتشكيل صورته داخل البلاد. كان يضبط ويراجع بعناية الكلمات التي ألقاها على الملأ، و«صورته»، وعدد مرات ورود ذكره في القنوات التلفزيونية الاتحادية، والتعليقات حوله في وسائل التواصل الاجتماعي. ومن كان في حاجة إلى ديكتاتور ليبي عجوز فقد عقله؟ في بحثه لآفاق العملية الليبية، راجع بصورة سريعة أوراق التعاون الروسي - الليبي واقتنع بأن كل شيء صحيح: القذافي تقليدياً، لا يسدد بالنقود، يشحذ السلاح بالقروض، ولا يوقع عقوداً مربحة. العقد الوحيد المهم كان عقد «شركات السكك الحديدية الروسية». لكن رئيسها فلاديمير ياكونين كان يزعج ميدفيديف دوماً، لهذا لم يمانع الرئيس من التضحية به. ورمى بانزعاج بوثائق وزارة الخارجية الروسية

التي نصحه فيها الدبلوماسيون الروس الباهتون بإصرار باستخدام حق النقض ضد قرار مجلس الأمن توفير منطقة آمنة فوق ليبيا عند التصويت في مجلس الأمن. وامتنعت روسيا عن التصويت.

لكن لم يكن كل شيء على ما يرام، عرف ميدفيديف عملياً من أخبار التلفزيون. فقد ألقى بوتين كلمة نقلتها الأقنية التلفزيونية الروسية.

كان هذا غريباً. فبوتين عادة، لم يكن يعبر عن رأيه بخصوص السياسة الخارجية - كان يظهر بصورة استعراضية مراعاة القواعد الدستورية، والتي بمقتضاها السياسة الخارجية من اختصاص رئيس الدولة وحده. أما الآن، ففي أثناء زيارته لمصنع الصواريخ في فوتكينسك، دعا بوتين بسخط قرار مجلس الأمن بـ«دعوة قروسطية إلى حملة صليبية». وبعد ذلك، وعلى الهواء مباشرة، وجه تأنيباً حقيقياً للرئيس ميدفيديف:
«ما يقلقني ليس واقعة التدخل المسلح بحد ذاتها، فالنزاعات المسلحة كثيرة، وهي تحدث دوماً وغالباً ستحدث في المستقبل أيضاً... ما يقلقني تلك السهولة التي تتخذ فيها قرارات حول استخدام القوة في القضايا الدولية اليوم».

سيطر الرعب في البداية على ميدفيديف - فهو بالفعل ارتكب خطأ شنيعاً، لأنه لم يتشاور مع بوتين. لكن الضربة العلنية التي وجهها له رئيس الوزراء كانت إهانة لا يمكن التغاضي عنها، وكان من الواجب الرد عليها. والسؤال الرئيس كان ينحصر فيما إذا كان سيتصل ببوتين هاتفياً، أم سيرد عليه بصورة علنية. وبعد أن أحصى السخريات منه على مواقع التواصل الاجتماعي، قرر أنه لن يتصل ببوتين، ويعتذر، ويسأل ما الذي حدث - ذلك أن بوتين نفسه لم يتصل به، قبل أن يوجه الضربة له على الهواء مباشرة.

بعد أن ألقى نظرة على جدول أعماله اليومي، قرر ميدفيديف، أنه سيصدر بياناً جوابياً في اليوم نفسه - في أثناء زيارته لقاعدة «أومون OMOH - فصائل شرطة المهام الخاصة»، صرح ميدفيديف بلهجة واعظة أمام كاميرا التلفزيون:

«لا يُسمح بأي شكل من الأشكال استخدام التعابير التي تؤدي، من حيث الجوهر، إلى صدام الحضارات، مثل «الحملات الصليبية» وما شابهها. إن هذا غير مقبول. وإلا فإن كل شيء سينتهي نهاية أسوأ، مما يجري. وهذا يجب أن يتذكره الجميع».

سيطر الرعب على مديري القنوات التلفزيونية الحكومية. ماذا يعرضون، وماذا يبثون؟ وهل يمكن الإعلان على الملأ أن بين المترادفيْن انقسام وأن الشخصين الأولين قد تشاجرا بسبب ليبيا؟ بدأ مديرو التلفزيون اتصالاتهم برئيسي المكتبين الصحافيين لرئيس الوزراء والرئيس. وبعد فترة تأمل قصيرة، جاء الجواب من ديوان بوتين: الرئيس في الدولة مسؤول عن السياسة الخارجية، لهذا فإن وجهة نظره وحدها يجب أن تنعكس في نشرات أخبار القنوات التلفزيونية الحكومية. ويجدر نسيان تصريح رئيس الوزراء بوتين.

وهنا فقط، أدرك اللاعبون الخبراء وحدهم في فريق ميدفيديف الخطيئة الكبيرة التي ارتكبوها. فقد اعترف بوتين، بصورة استعراضية، بالهزيمة وتراجع - وهذا يعني أنه لن ينسى هذه المشادة العلنية.

لقد أصبح التوضيح العلني للمواقف بين الرئيس ورئيس الوزراء فضيحة غير مسبوقة. فالعلاقات بين الكرملين والبيت الأبيض الروسي كانت متوترة منذ عام 2008: والعاملون في الجهازين كانوا في خلاف دائم، وسيرغي ناريشكين رئيس إدارة الرئاسة وسيرغي سوبيانين رئيس إدارة الحكومة لا يتحادث أحدهما مع الآخر. لكن بوتين وميدفيديف لم يظهرا علناً أبداً أي نفور تجاه أحدهما الآخر.

في السنوات الأولى من رئاسة ميدفيديف، كان لديهما الوقت الكافي كي يلتقيا بصورة دورية ويناقشا جميع المسائل الواردة. لكن جداول أعمال الشخصين الأولين في الدولة أصبحت فيما بعد ممتلئة بصورة متزايدة، ولم يستطع رئيسا الإدارتين، اللذان لا يتحادثان فيما بينهما، التنسيق بحيث تتوفر الفرصة

للرئيس ورئيس الوزراء للقاء بصورة دورية. وفي المحصلة، وبحلول عام 2011، كان بوتين وميدفيديف بالكاد يلتقيان مرة واحدة في الشهر. وبعد الفضيحة الليبية، اتضح للمستشارين، أن على الرئيس ورئيس الوزراء أن يلتقيا أكثر، وإلا، فإن العاقبة ستكون سيئة.

وازداد التوتر. وبدأ يتردد بين المعسكرين مبعوثو هدنة نصحوا الرئيس ورئيس الوزراء، بأن عليهما أن يكثرا من لقاءاتهما، من أجل تجنب سوء الفهم وتجنيب فريقيهما المبالغات والخطوات غير المدروسة. وفي أثناء إحدى هذه الأحاديث، قال بوتين: «لا بأس، كل شيء سيكون على ما يرام. سنعيش حتى شهر أيلول/سبتمبر، وسنفعل ما علينا أن نفعله، وسيصبح الوضع أسهل على الجميع».

الحزب الليبيرالي

بحلول نهاية آذار/مارس 2011 تحولت مدونة الإنترنت الخاصة بابنة الرئيس يلتسين إلى مشروع تاريخي كبير بعنوان «قبل عشرين عاماً». ويوماً بعد يوم، كانت تاتيانا يوماشيفا تنشر إعادة تصميم لعملية انهيار الاتحاد السوفييتي، وكيف حلت محلّه روسيا الديمقراطية. ولم تذكر يوماشيفا أية مقارنات. لكن الغرض الرئيس، نهاية الحكم الشمولي - انتصار الفكرة الليبيرالية، كان يتراءى في كل كلمة. وكان أبوها بوريس يلتسين بالطبع، رمز الديمقراطية. كان واضحا للجميع أن هذا العمل الكبير لا يمكنها أن تقوم به بمفردها، وأن مدوّنة تاتيانا يوماشيفا يديرها فريق كبير من المؤرخين والصحافيين.

بصورة متوازية، كان يجري عمل تحضيري في اختيار نشطاء الحزب المقبل - وبالدرجة الأولى، اختيار من يقوم بدور زعيم الحزب.

كأساس للحزب المقبل، أخذ سوركوف «القضية العادلة» - وهو مشروع مركّب تم وضعه في عام 2008 على حطام الحزب الليبيرالي السابق «اتحاد القوى اليمينية»، الذي خسر في انتخابات مجلس الدوما. بيد أن ميدفيديف نفسه لم يكن في استطاعته ترأس حزب قزم - كان لا بد في البداية أن يكتسب هذا

الحزب وزناً سياسياً. لهذا كان لا بد من العثور على شخصية توحي بالثقة للناخب الليبيرالي من ناحية، ومن ناحية أخرى، تهيئ التربة لفترة رئاسية ثانية للرئيس ميدفيديف. كان الليبيراليون السابقون والحاليون الرئيسون في الحكومة: ألكسي كودرين وزير المالية، إيغور شوفالوف نائب رئيس الوزراء، غيرمان غريف حاكم بنك التوفير الذي عين مؤخراً وزيراً للاقتصاد، المرشحين الواضحين.

كان الرئيس ميدفيديف يتحدث مع كل واحد من الليبيراليين الحكوميين على انفراد. الأول كان غريف. رفض غريف، فقد تعب كثيراً من الخدمة في دوائر الدولة خلال سبع سنين من عمله وزيراً وكان راضياً جداً عن حريته الجديدة في الحركة في بنك التوفير - فهو لم يرغب في الانصراف إلى مغامرات غريبة.

الثاني كان كودرين. بدا له مستقبل ترؤس حزب ليبيرالي مغرياً. لكنه، حقيقة، بدأ بوضع الشروط. يروي المقربون من كودرين حديثه مع ميدفيديف: «المسألة صحيحة، ومهمة، لكن حزباً خاضعاً لرقابة سوركوف لا يناسبني». وكأن ميدفيديف كان يقنعه قائلاً: «ولكن، هكذا، من دونه، لن تجد الوقت لصنع شيء جديد». فيرد كودرين، حسب رواية المقربين منه: «لن أصنع - ليس بالأمر الرهيب، لا أريد صنع أشياء زائفة». على أية حال، هو لم يعط جواباً نهائياً بالرفض، بل قرر أن يفكر في الأمر، والتشاور مع بوتين، بالطبع. وضع رئيس الوزراء بوتين نهاية لتأملاته وأفكاره: «قال له، الآن، ليس هذا الوقت المناسب له، يجب الاستعداد للانتخابات. وإذا ما خرجت أنت، فلن تكون لهذا نهاية في الحكومة. وقال له: «أنا أرجوك شخصياً، هذا سيضعف الجميع».

لم يتوقع كودرين رفض بوتين. ولكن طالما أن بوتين رئيس الوزراء قد ترجاه - لا يمكنه كوزير أن يرفض طلبه. ورفض اقتراح ميدفيديف. فانزعج منه الرئيس انزعاجاً شديداً.

مرشح ميدفيديف التالي كان نائب رئيس الوزراء شوفالوف. بيد أنه لم يقل

لميدفيديف «موافق» (كذلك بنصيحة بوتين). وانزعج ميدفيديف من جديد. علاوة على ذلك، كان غاضباً جداً. واتضح له أكثر، أنه لا أحد من الليبيراليين في السلطة لا يجرؤ على الوقوف إلى جانبه (على الرغم من أنه هو نفسه لم يخاطر بالإعلان عن طموحاته)، ولا بتزعّم الحزب الليبيرالي، حاكماً على الفكرة الليبيرالية بالانهيار في الانتخابات البرلمانية المقبلة.

خلال هذا الوقت، بدأ بوتين فجأة، الذي لم يكن في حاجة إلى حزب أبداً - فقد كان لديه حزب محافظ «روسيا الموحدة» - بممارسة التكنولوجيات السياسية. ففي الوقت نفسه مع ميدفيديف، ولكن بصورة أنجح من ميدفيديف، بدأ فياتشيسلاف فولودين الرئيس الجديد لجهاز بوتين بممارسة البناء الحزبي. ومنذ أن تحول سوركوف نحو ميدفيديف، كان بوتين في حاجة إلى «سوركوف» جديد - وعثر عليه في شخص فولودين.

وسعياً منه إلى استرضاء معلمه بوتين، اخترع فولودين، رئيس جهاز الحكومة، مشروعاً تقنياً سياسياً جديداً – «الجبهة الشعبية» – وهي ليست حزباً، بل تحالف المنظمات الاجتماعية المختلفة، المتحدة حول بوتين. أصيب أعضاء حزب «روسيا الموحدة» العاديون بالتشوش: وما الحاجة إلى بنية تنظيمية ثانية، وحزب مزدوج؟ وعندما كانوا يطرحون هذا السؤال على أمينهم التقليدي في إدارة الرئيس، كان سوركوف يهز بكتفيه متجاهلاً. كان بناء «الجبهة الشعبية» يجري من ورائه، ولم يكن يهمه كثيراً. لكن ما أزعجه أن فولودين كان يبدي استقلالية في مجاله، الذي كان دوماً إرث سوركوف التقليدي. لكنه هنا، لم يكن قادراً على فعل أي شيء - كان فولودين يتصرف باسم رئيس الوزراء بوتين. الشيء الوحيد الذي أدخل الاطمئنان إلى قلب سوركوف، أن مشروع «الجبهة الشعبية» قد صُنع بطريقة فظة خشنة، وخرقاء.

للنظرة الأولى، لم يكن هناك أي معنى سياسي في هذا التنظيم - سوى أن يُظهر لميدفيديف، أنه ليس في حاجة أبداً إلى صرف الوقت على تأسيس حزب ليبيرالي. فالرأي العام كله يؤيد بوتين، كما تقول النشرات الإخبارية اليومية

للقنوات التلفزيونية. فهي أخذت تغدو أكثر شبهاً بكوادر الأفلام التسجيلية السوفييتية: قاعات مكتظة بالعمال وكادحي الأرياف ينظمون حملات التصفيق المستمرة لرئيس الوزراء بوتين. بالطبع، كان يبدو هذا كله مصطنعاً، مزيفاً، على الطريقة السوفييتية. لكنه كان موجوداً. لقد انتسبت المنظمات النقابية إلى «الجبهة الشعبية» البوتينية في جميع أنحاء البلاد بصورة جماعية (حقيقة، تم هذا أحياناً، مع الفضائح). أما فريق ميدفيديف فلم يتمكن من جمع خمسة مثقفين شعبيين شهيرين، يمكنهم أن يوافقوا على تزعّم حزب جديد قريب، في روحه، من الرئيس.

الوجه الجديد

ابتسم الحظ أخيراً لسوركوف، عندما بدأ البحث ليس بين المسؤولين الحكوميين بل بين كبار رجال الأعمال. فقد اقترح الدور الرئيس في الحزب على ميخائل بروخوروف أغنى رجل في روسيا سابقاً، وهو المالك الشريك السابق لشركة «نورنيكل»، والذي توفّق في بيع حصته عشية أزمة عام 2008، لهذا حاز على سمعة رجل الأعمال الأسعد حظاً في روسيا.

هذا الأوليغارشي الثري الأعزب، المتغطرس قليلاً، والذي يعيش، بصورة استعراضية، حياة ماجنة، تم اعتقاله قبل أربع سنوات في مدينة كورشيفيل الفرنسية بتهمة ممارسة الدعارة - لأنه أحضر معه إلى المنتجع عدداً كبيراً من «العارضات». كان من المستحيل انتقاء مرشح أقل صلاحية منه. ولكن، خلال ذلك، وكما اكتشف سوركوف، ظهر لدى بروخوروف «حماس طليعي». وبعد أن ضجر من الأعمال والتجارة، شرع الأوليغارشي بعمله الجديد بحماسة كبيرة، حتى أنه بدأ يصرف أمواله بكل يسر على بناء الحزب الجديد.

فيما بعد، قال بروخوروف، إن سوركوف وميدفيدف «حاولا استخدامه في الظلام». أي تأسيس حزب غني وقوي بيديه، وفي اللحظة الأخيرة دمج الحزب في اللحظة الأخيرة كي يكون الحزب حزب ميدفيديف ويصبح بالنسبة إليه

منصة للترّشح للرئاسة. لقد ظنا أنه سيوظف المال في الحزب في البداية، ومن ثم عندما يحل وقت الترشيح، يتنازل عن مكانه لميدفيديف، ويتراجع بامتثال إلى الصف الثاني.

خلال شهرين، وظف بروخوروف في «القضية العادلة» نحو 20 مليون دولار واجتذب إلى الحزب عدداً من الشخصيات الشهيرة. ومن أهمهم، بالطبع، آلّا بوغاتشوفا، أشهر مطربة في روسيا خلال نصف القرن الأخير، اعتباراً من عصر بريجنيف. وهي لم تنتسب سابقاً لأي حزب، وفجأة أيدت بروخوروف. ودارت شائعات، أن القضية كلها كانت تكمن حول النقود - فهذه النجمة التي أصبحت متقدمة في السن توقفوا عن دفع الأجور لها عن حفلاتها الغنائية، ولهذا وافقت على أجر شهري كبير وكريم (20 ألف دولار شهرياً) مقابل ظهورها في أثناء أوقات الاستراحات في مؤتمرات الحزب وأدائها نشيد الحزب.

ولكن، بدأت فيما بعد مشكلات بروخوروف مع سوركوف. ذلك أن بروخوروف، المدير السابق لشركة «نورنيكيل» اعتاد على الاستقلالية، ولم يكن يبرمج أبداً تنسيق كل خطوة يخطوها مع إدارة الرئيس. كان سوركوف ينزعج من أسلوب العمل هذا - فقد اعتاد على الرقابة الكلية الشمولية والإدارة اليدوية في البنية الحزبيـة. لقد كان متحسساً جداً من أن صنيعته، فياتشيسلاف فولودين بدأ العمل من دون النظر إليه، أو التنسيق معه، فلم يستطع أن يتحمل الشيء نفسه من صنيعته الجديد ميخائيل بروخوروف.

ولكن في بداية أيلول/سبتمبر فرض سوركوف على بروخوروف عدة شروط: مثـل، حـذف اسم يفغيني رويزمـان الشعبوي الأورالي والمناضل ضد إدمان المخدرات من قوائم الحزب. كان هذا الطلب مهيناً، لأن بروخوروف أعلن على الملأ غير مرة أن رويزمان سيكون ضمن قوائم الحزب. وكانت تعني الموافقة على طلب الكرملين التخلي عن قوله ووعده.

في البداية، أخذ سوركوف يقنع ميدفيديف أن بروخوروف لا يخضع للرقابة،

وأن المراهنة عليه كان خطأً. لم يدافع الرئيس عن الأوليغارشي. ثم وجه سوركوف جميع جهوده التقنية السياسية، التي كانت تهدف في البداية إلى مساعدة بروخوروف إلى بناء حزب جديد، ومن ثم إلى إبعاد بروخوروف عن الحزب.

كان سوركوف قد جرّب تقنية شن الغارات على الأحزاب بتفاصيلها سابقاً - مع أحزاب أخرى، أصغر. عشية المؤتمر الدوري لحزب «القضية العادلة» حصل على الأغلبية في لجنة التكليف أعداء ميخائيل بروخوروف، فأعلنوا أنهم ينوون طرح مسألة إقالة الأوليغارشي من منصب زعيم الحزب. وقد أظهر التدقيق أن القسم الأكبر من قادة الفروع الإقليمية المنطقية للحزب قد تم تهيئتهم مسبقاً وهم جاهزون لتنفيذ أي توجيه من إدارة الرئيس. في اليوم الثاني انقسم الحزب إلى قسمين. أعداء بروخوروف اجتمعوا في مركز التجارة الدولية في كراسنويا برسنيا (الذي استأجرته إدارة الرئيس على عجل) وخلعت الزعيم الملياردير.

انتقل أنصار بروخوروف، بمن فيهم آلّا بوغاتشوفا إلى بناء أكاديمية العلوم (الذي كان الأوليغارشي قد استأجره عشية انعقاد المؤتمر). صعد بروخوروف إلى المنصة، وأمام الكاميرات التلفزيونية ألقى خطاباً استفزازياً بأنه سوف يصارع. واتهم فلاديسلاف سوركوف شخصياً بشن حربٍ على الحزب وقال، إنه لا ينوي الاستسلام بعد الآن لهذا الأسلوب البيزنطي للعمل في السياسة. ولكنه بدلاً من النضال، سافر في اليوم التالي للاستجمام في تركيا وغاب لمدة شهر كامل.

كان سوركوف مقتنعاً بأن هذه ليست نهاية المشروع الليبيرالي - لقد تخلص بكل بساطة من عنصر تنفيذي غير مريح، ويكفي استبداله، لتنطلق العجلات من جديد. لكن حساباته كانت خاطئة. فالفضيحة كانت كبيرة وقوية، لدرجة أن المشروع الليبيرالي الذي فكّر فيه ميدفيديف وآل يوماشيف وفولوشين طيلة عام كامل، انتهى بهذه القصة. وانتهى حزب «القضية العادلة» عملياً عن

الوجود. وبدلاً من بروخوروف، تزعم الحزب شخصيات كاريكاتورية، استأجرها سوركوف، من أجل تشكيل مظهر نشاط سياسي - وفي محصلة الانتخابات، شغل الحزب الذي كان من المقرر أن يوحد جميع الليبيراليين الروس، المركز الأخير.

وكان ثمة مُشاهد آخر لانهيار الحزب الليبيرالي اليميني. إنه رئيس الوزراء بوتين. كان جالساً في مقر إقامته، يعيد من فترة لأخرى مشاهدة خطبة بروخوروف في مبنى أكاديمية العلوم، ويضحك ساخراً، ويكرر قائلاً: «هذا ما تستحقونه!» ثم وجه ضربة لسوركوف، فقال ضاحكاً بحقد: «هل ضعِفت؟ تعودت على التعامل مع الضعفاء؟ لست مستعداً أبداً لمعركة حقيقية». وواقع، أن الرئيس الذي يمتلك الإمكانات الهائلة والموارد الضخمة لم يتمكن حتى من تأسيس حزب يؤيده، قد أثبت أن ميدفيديف غير قادر على تحديات أخرى أكثر أهمية وجدية.

الحرب تبدأ

لم يتطرق بوتين عبثاً إلى موضوع الحرب. فالحرب كانت الموضوع الذي كلما فكر فيه أكثر كلما تحدث عنه أكثر. وعلى الرغم من أن ميدفيديف لم يول أحداث ليبيا أي اهتمام، فقد تركت هذه الأحداث انطباعاً قوياً على بوتين.

كان بوتين يعرف القذافي شخصياً - فقد زار القذافي موسكو، ونصب في الكرملين خيمته البدوية، وحضر مع بوتين حفلة كونشرتو المطربة الفرنسية ميري ماتييه. في وقت المفاوضات كله كان القذافي يتحدث لبوتين عن الأمريكيين، عن أن هدفهم الحقيقي قتله وفرض سيادتهم على العالم. كما أنه كان يمدح بوتين، لأنه مثله، يقاوم الأمريكيين.

لقد اعتبر بوتين قرار ميدفيديف بتأييد قرار مجلس الأمن المعادي لليبيا ضعفاً لا يغتفر. وإثر هذا القرار وردته على الفور سلال من التقارير من وزارة الخارجية الروسية ومن جهاز الأمن الخارجي، حول أن روسيا فقدت الكثير

بخيانتها للقذافي. قبل هذا لم يكن يجرؤ أحد من الدائرة المحيطة ببوتين بتوجيه أي اتهام إلى ميدفيديف، لكن القرار الليبي، وردّ فعل بوتين الانفعالي عليه رفعا أي تابو. فكانوا يهمسون لرئيس الوزراء: «لقد خان ليبيا، وسيخونك».

وكان بوتين يغضب أكثر وأكثر. وعندما يتطرق الحديث إلى القذافي، أخذ ينسى أن السياسة الخارجية من صلاحيات الرئيس. كان يتساءل على شاشة التلفزيون: «قالوا إن السماء الليبية ستكون مغلقة أمام الطائرات الحربية، فكيف هي مغلقة عندما يقصفون بالطائرات كل يوم القصور التي يقيم فيها القذافي؟ يقولون إنهم لا يريدون قتله، فلماذا يقصفون إذاً؟ هل يريدون إخراج الفئران من هناك على هذا النحو؟».

وعندما قُتل معمر القذافي، غضب بوتين أكثر. كان غدر الغرب أكثر ما يثير استياءه. بادئ ذي بدء، عندما كان قائد الجماهيرية الليبية معادياً للغرب، كان نظامه قوياً. ولم تبدأ المشاكل عنده إلا عندما بدأ بالتنازلات، واعترف بجميع آثامه، ودفع التعويضات لأقارب ضحايا الطائرة فوق لوكربي. وقد خرج من العقوبات حتى أنه شارك في قمة الدول الثمانية الكبار عام 2009 في مدينة لاكويل الإيطالية (بصفته رئيس الاتحاد الأفريقي)، حيث صافحه حتى باراك أوباما. ولكن، اتضح أنه قد عوقب على الطاعة الزائدة والليونة والامتثال. تماماً في تلك اللحظة التي انفتح فيها القذافي ووثق بالغرب، وجه له الغرب طعنة في الظهر. حينما كان القذافي منبوذاً، لم يمسوه بسوء، وما إن حاول أن يصبح موالياً للغرب ومطيعاً - لم يطيحوا به فحسب، بل وقتلوه على قارعة الطريق، مثل كلب عجوز.

كان بوتين يعتبر ميدفيديف مسؤولاً بصورة غير مباشرة عن مقتل القذافي - ذلك أن شركاءه الغربيين وعدوه بكل بساطة بإقامة منطقة حظر للطيران فوق ليبيا، من أجل منع الديكتاتور من قصف مواقع المتمردين. وقد صدَّق وعدهم.

في متابعتهم لميدفيديف وسوركوف وهما يفتنان الهواة، ويتقنان مواقع

التواصل الاجتماعي - تويتر وفيسبوك، بدأ الأمنيون الأقوياء من دائرة بوتين فجأة يطرحون افتراضات جريئة: قد يكون هذا كله ليس وقاية من «الثورة الملونة»، بل تحضيراً لها؟ وقد يكون هذا كله جزءاً من مخطط الأمريكيين الذين يتابعون إفساد النخبة السياسية الروسية، من أجل تكرار السيناريو الليبي؟

في أواخر الصيف، دعا بوتين ميدفيديف إلى رحلة لصيد السمك. توجها إلى منطقة آستراخان، إلى منتجع «جيتنوي» الذي شيده لنفسه وزير الدفاع. ثلاثة أيام كانا يصطادان السمك ويتقصدان الظهور للصحافيين. كان الاثنان مسرورين. اعتبر الرئيس، أن رئيس الوزراء غير منزعج منه أبداً، وأنه ليس هناك أي توتر بينهما - وكأنه لم يكن أصلاً. وأن المترادفين قويان.

في أثناء رحلة صيد السمك هذه، قال بوتين لميدفيديف إنه سيكون من الأفضل إذا ما تنازل له عن منصب الرئيس. يروي المقربون حديثهما الأسطوري كما يلي: «الوضع في العالم معقد، يا دميتري، يمكنك خسارة البلاد». ارتبك ميدفيديف وقال: «ولماذا؟ لماذا أخسرها؟». فرد بوتين: «لأن الوضع في العالم معقد جداً، يا دميتري. القذافي كان أيضاً يعتقد أنه لن يخسر بلده. لكن الأمريكيين كانوا أشد خبثاً».

لم يكن لدى ميدفيديف أي حجج. لكن الحجج كانت متوفرة لدى بوتين.

وقال له بوتين، حسب الرواية، تقريباً: «في عام 2008، كنتُ السياسي الأول. وكان في إمكاني ترشيح نفسي للرئاسة مرة أخرى، لكن الدستور لم يكن يسمح لي. وقررت الخضوع للدستور وتنازلت عن الرئاسة لك. واتفقنا أنه عندما يحين الوقت نجلس معاً ونقرر ما علينا أن نفعله لاحقاً. وها هو قد حان الوقت: أنا ما زلت كالسابق، السياسي رقم 1، وأنت في المركز الثاني. وبحسب القانون، يمكننا نحن الاثنان المشاركة في الانتخابات. أنت أكثر شباباً، وهذه نقطة إيجابية لصالحك. ولدى خبرة أكبر، وهذه نقطة إيجابية لصالحي. ثمة اختلاف

واحد - لدي شعبية أعلى. لدي «جبهة شعبية» تؤيدني وتدعمني. في أي بلد يرشح الحزب الحاكم ذلك المرشح الأكثر شعبية. إن السلطة ستكون أقوى إذا ما ذهبنا إلى الانتخابات كفريق واحد. أنت ستكون رئيس وزراء، كما أنا الآن - هكذا كان يقنعه بوتين - وفيما بعد ستعود أنت رئيساً». لم يكن لدى ميدفيديف أي جواب.

النتيجة حلت بسرعة. في 23 أيلول/سبتمبر بدأ مؤتمر حزب «روسيا الموحدة»، وكان واضحاً لجميع المشاركين، أنه هناك سيصدر البيان المصيري. كيف سيكون هذا البيان، لم يكن يعرف أحد - حتى أقرب مساعدي ميدفيديف. في 24 أيلول/سبتمبر استدعي المشاركون إلى (لوجنيكي) في الصباح الباكر، قبل بضع ساعات من بدء الاجتماع. كان يسير في القاعة رؤساء الأقسام ويتمرنون مع المشاركين على الهتافات. من باب الاحتياط يتمرنون على ترنيمة «بوتين - بوتين!» و«ميدفيديف - ميدفيديف!».

كان بوتين هو الخطيب الأول - قال بغموض، إن «لدى دميتري ميدفيديف اقتراحات بخصوص ترتيب السلطة المقبل». وقدم الكلمة للرئيس. ألقى ميدفيديف خطاباً طويلاً، استعرض فيه نتائج رئاسته، ثم اقترح ترشيح بوتين لمنصب الرئيس. فدوت القاعة بعاصفة التصفيقات والهتافات التي تدربوا عليها.

ختم ميدفيديف خطابه قائلاً: «إن هذه العاصفة من التصفيق تمنحني الحق بألا أشرح أية خبرة وأي نفوذ يتمتع بهما فلاديمير بوتين. وإليكم بضع كلمات حول هذا الموضوع. كانوا يسألونني دائماً: «متى ستحدد رأيك، وبم ستخاطب الناس؟»، وأحياناً كانوا يسألونني ويسألون فلاديمير بوتين: «أنتما، ألم تتخاصما، أحدكما مع الآخر؟» أريد بشكل كامل أن أؤكد ما قيل للتو. إن ما اقترحناه على المؤتمر - هو قرار اتخذناه بعد تفكير عميق. بل وأكثر من ذلك. لقد بحثنا فعلاً هذه الصيغة من تطور الأحداث منذ تلك الفترة عندما تشكل اتحادنا الرفاقي».

لم تشعر حاشية ميدفيديف بالعزاء والمواساة، حتى أن أركادي دفوركوفيتش، أقرب مساعدي ميدفيديف، لم يحتمل وكتب تغريدة على تويتر: «لا، لا سبب يدعونا للفرح».

الفصل الثالث عشر: زعيم المعارضة ألكسي نافالني، أحس أنه قادر على قيادة الشعب إلى الكرملين

ألكسي نافالني – من كوكب آخر. للنظرة الأولى، يبدو أنه إنسان عادي، حتى أنك يمكنك أن تظن، من غير قصد، أنه إنسان عادي فعلاً - يمشي في الشوارع، بركب المترو، يتردد إلى المحلات التجارية، بكلمة واحدة، يفعل كل ما يفعله الناس العاديون وما لا يفعله المسؤولون الحكوميون الكبار والنجوم الروس الكبار. بيد أن هذا مظهر خارجي. في الواقع، نافالني سياسي معروف. وكل ما يفعله تقريباً، لا يفعله بالصدفة. فكل أفعاله مليئة بمعنى خاص. وكل شيء خاضع عنده لنشاطه السياسي ومستقبله السياسي. وعندما تدرك هذا بشكل مفاجئ، تجد نفسك كما لو أنك تكتشف أن الشخص الذي تتواصل معه منذ زمن، يختفي خلف قناع، وأنه وافد من كوكب آخر.

يعيش نافالني في ظروف صعبة للغاية، بالطبع. فقد انهال عليه جبروت آلة الدولة كلها، لكنه يتعامل معه بطرق مختلفة. إنه، على سبيل المثال، لا يقود سيارة، لأنه يخشى أن يرتمى على عجلات سيارته شخص ما- ومن ثم يمكن وضع نافالني خلف القضبان، لصدمه انساناً من المشاة.

وخلال ذلك، يدرك نافالني، بالطبع، أنه ليس نجماً متألقاً. بل ويمكنه أن يفكر، من دون سخرية، قائلاً، إن بوتين لا يضعه خلف القضبان عامداً متعمداً، كي لا تزيد شعبيته. يدرك نافالني استثنائيته وفرادته - فهو، على الأغلب، السياسي الحقيقي الوحيد في بلد عدد سكانه 143 مليوناً.

لم يكن هناك أبداً سياسي مثل نافالني، لا بوتين، ولا سيتشين، ولا كودرين، ولا

رمضان قديروف. فهم لم يسعوا أبداً إلى تلك السلطة التي حصلوا عليها، ولم يحلموا بتحقيق مستقبل سياسي، وكل عظمتهم الحالية انهالت على رؤوسهم من فوق. وعموماً، هم لم ينووا التضحية بكل شيء من أجل السلطة - علاوة على ذلك، كثيرون منهم (باستثناء قديروف طبعاً) ربما يندمون لأنهم استبدلوا الحياة العادية بالسلطة.

إن نافالني هو إنسان فريد، جعل خياره هذا مقصوداً عن وعي وإدراك. وليس لديه حتى الآن أية سلطة، ولن تكون لديه أبداً. لكنه استبدل حتماً امكانية الحياة العادية بالصراع من أجل السلطة. وهو يدعو هذه الإمكانية بتبديل حياة البلاد نحو الأفضل.

لو كانت في روسيا سياسة عامة علنية، مباحة للجميع، لما كان نافالني وحيداً على الغالب. ولكن، وبما أنه لا وجود لها، فإنه لا وجود على الغالب لمجانين آخرين يتخلون عن الحياة من أجل ممارسة السياسة. لماذا لا يزال نافالني ثابتاً، واقفاً على قدميه، ويتابع حياته، وكأنه ثمة سياسة عامة في البلاد، وأنه يعلم يقيناً أن ساعته ستحل، وربما سيحل مكان بوتين في منصب الرئيس؟ ثمة تفسير واحد بسيط لذلك - إنه من كوكب آخر.

مارقون ولصوص

في شباط/فبراير 2011 أجرى المعارض الشهير الشاب ألكسي نافالني محاورة إذاعية مع نائب غير معروف من نواب حزب «روسيا الموحدة». كان اسم النائب يفغيني فيدوروف، ولم يكن له ما يميزه، سوى أنه وافق على المحاورة مع نافالني، باعتباره عضو الحزب الحاكم. وقد أصبح نافالني في السنتين الأخيرتين بطل الإنترنت، والفاضح الأشهر للفساد في روسيا والوجه الجديد الرئيس الوحيد للمعارضة. سعت السلطة بشدة إلى تجاهله - كي لا تزيد من شعبيته. على الرغم من أن شعبيته كانت تزيد بحد ذاتها - وذلك بالدرجة الأولى بفضل مدوّنته الواخِذة الشجاعة، التي كان ينشر فيها نتائج أبحاثه المعادية

للفساد.

من هذه المناظرة بين نافالني وفيدوروف، لم يحفظ الجمهور سوى واقعة واحدة - فخلالها، وصف نافالني لأول مرة حزب «روسيا الموحدة» بأنه «حزب المارقين واللصوص». وتحت هذا الشعار بالذات، أطلق نافالني حملته المقبلة كلها للانتخابات في مجلس الدوما عام 2011. وقد بذلت الآلة الدعائية الحكومية الجبارة التي عملت لصالح الحزب جميع جهودها من أجل قهر مدوني الإنترنت، ولم تتمكن.

الطريف في الأمر، أن يفغيني فيودوروف أصبح فيما بعد نجم الإنترنت: فبعد أربع سنوات، وبعد ضم القرم، اكتسبت شعبية كبيرة حركته المسماة بـ«حركة التحرر الوطني» - وهي المنظمة التي تضم أنصار نظرية المؤامرة، الواثقين بأن روسيا توجهها قوى خارجية من أمريكا، ومن أجل النضال ضدها، يجب إلغاء الدستور الروسي بالسرعة الممكنة. لكنه في عام 2011 كان «كومبارساً» لا يعرفه إلا قليلون، وبدأ لسبب ما المناظرة مع نافالني، وهذا ما ساعده بصورة عرضية.

يتذكر نافالني، أنه في البداية اضطر إلى مجابهة رفاقه في المعارضة: ففي خريف 2011، في ضواحي موسكو جرى مهرجان باسم «الخريف الأخير». كان العرض الرئيس في المهرجان مناظرة أكبر ثلاثة معارضين في روسيا: بوريس نيمتسوف، نائب رئيس الوزراء من جناح يلتسين، غاري كاسباروف بطل العالم السابق في الشطرنج، وألكسي نافالني. كان نيمتسوف يقدم مشروعاً فكاهياً تهريجياً «ناخ - ناخ нах -нах»********، وبحسب رأيه، فهذه الكلمات بالذات كان يجب كتابتها على البطاقة الانتخابية، والتشهير بهم في أثناء الانتخابات المقبلة. وكان كاسباروف يُقنع بأنه يجب بكل بساطة مقاطعة الانتخابات. أما نافالني فكان يُصر على أن كلا الاقتراحين يزيدان من حصة حزب «روسيا الموحدة» في البرلمان، ولهذا يجب التصويت لصالح أي حزب معارض يمكن أن يكون له موطئ قدم في مجلس الدوما، باستثناء «حزب المارقين واللصوص».

لقد انتصر نافالني بسهولة في هذه المناظرات. عموماً، هذا لم يكن مستغرباً، أنه لم يتمتع أي من زعماء المعارضة، بمن فيهم الأكثر شهرة، مثل نيمتسوف وكاسباروف، خلال السنوات العشر الأخيرة، بشهرة كبيرة. وقد أظهرت جميع استطلاعات الرأي أن جميع المعارضين الحقيقيين للسلطة لا يثيرون لدى المواطنين أية مشاعر: كان يجذب الناخبين فقط الموظفون الحكوميون المدينون للسلطة. زد على ذلك، فقط في تلك الفترة عندما كانوا يشغلون مناصبهم - مثل يوري لوجكوف، الذي كان يظهر أن درجة الشعبية تتحول إلى صفر مع تقديم الاستقالة. أما وضع نافالني فكان مغايراً، من الناحية المبدئية - فقد ظهر فجأة أنه السياسي الأول، الأكثر شهرة في روسيا منذ أيام بوريس يلتسين. وبعبارة أدق، السياسي المعارض الأشهر بعد يلتسين.

إن شعبية نافالني تقتصر بالطبع على جمهوره - وهو يتألف من المواطنين الشباب التقدميين، المستخدمين للإنترنت، القراء المحتملين لمدونته. لكن نفوذه كان بين هذه الفئة مطلقاً ولا جدال فيه - ولم يكن هناك غيره من يفخر بمثل هذه النواة الصلبة من الأنصار. وللمفارقة، أن حملة نافالني ضد «حزب المارقين واللصوص» أصبحت الحدث السياسي الرئيس في خريف 2011.

قبل هذه اللحظة، كانت المبادرة السياسية دوماً إلى جانب السلطة. فهي كانت (في شخص فلاديسلاف سوركوف) تمسك يدها على نبض المجتمع بل وتسعى إلى تحديد تطلعاته، عارضة عليه جدول أعمال مزيف: صرف أنظاره عن كل ما هو مهم بمشاريع تركيبية صناعية ما. أما خريف 2011 فقد أصبح استثناءً، لأن الطبقة الحاكمة كانت روحها المعنوية منهارة. وقد أصيب معسكر ميدفيديف بالصدمة لأن جميع آماله وأحلامه ستنهار لا محالة قريباً. فرعب أنصار ميدفيديف من مؤتمر حزب «روسيا الموحدة» قد تعاقب مع خيبة الأمل الرهيبة من تصرف رئيسهم دميتري ميدفيديف، الذي كانوا ينتظرون منه أي فعل آخر وليس الخضوع والامتثال في لحظة اغتصاب السلطة منه.

كان فلاديسلاف سوركوف يشغل، كما في السابق، منصب نائب رئيس إدارة الرئيس، وعليه كما في السابق، أن يعمل على الانتخابات المقبلة. لكنه، أولاً، كان مصاباً بخيبة الأمل من خيانة ميدفيديف ولم يبد اهتماماً خاصاً بالحياة السياسية. وثانياً، الحملة الانتخابية بدأت من دونه - فكامل أعمال «الجبهة الشعبية» كان يديرها تلميذه السابق فلاديسلاف فولودين. ومن حيث الواقع، كان قد بدأ حملة بوتين الانتخابية منذ الصيف - والآن لم يكن يرغب سوركوف أن يأخذ منه مقاليد العمل.

وفي المحصلة، لم يجر أي شيء فعلي تقريباً من جانب حزب «روسيا الموحدة»: فالموظفون الحزبيون اقتصروا على نضالهم المحموم من أجل المحافظة على أماكنهم في القوائم الحزبية، ومزقوا حناجر بعضهم بعضاً من أجل إمكانية الوصول إلى مكان لهم ضمن مقاعد الحزب المحددة في مجلس الدوما.

وفي المقابل، استفاد من حملة نافالني حزب «روسيا العادلة» - وهو عموماً حزب – صنيعة مزيف، أسسه فلاديسلاف سوركوف في إطار نظريته حول «الساقين الاثنتين»، كحزب يساري وسط، اشتراكي - ديمقراطي مجابه لحزب «روسيا الموحدة» اليميني الوسط. وعشية الحملة توجه جميع رعاة الحزب تقريباً، وجميع النجوم إلى حزب السلطة، ولهذا تسلح الخبراء السياسيون بأشرطة فيديو نافالني، وأخذوا يقنعون جمهور الإنترنت بأن الأسلوب الوحيد للتقليل من عدد نواب «حزب المارقين واللصوص» في البرلمان - هو التصويت لصالح حزب «روسيا العادلة».

وأخيراً، فإن هذا الحزب الذي لم يكن ملحوظاً أبداً في المعارضة الحقيقية، أقدم على خطوة مهمة أخرى. فسعياً منه إلى زيادة عدد أنصاره، أخذ يعرض على جميع الراغبين أن يصبحوا ممثلين للحزب في اللجان الانتخابية - بصفة مراقبين أو حتى بصفة أعضاء اللجان الانتخابية مع حق الصوت المقرر. وهكذا، فانتخابات عام 2011، غير الجذّابة إطلاقاً، والخالية نهائياً من

الدسائس والمؤامرات، والتي خلت من أي حزب معارض في البطاقات الانتخابية، أصبحت فجأة مهمة وجذابة: وأصبحت بمثابة لعبة شعبية للشبيبة المثقفة - حتى أن الناس الذين لا يهتمون بالسياسة، سجلوا أسماءهم، من باب الفضول البحت، في قوائم المراقبين، كي يشاهدوا كيف تجري العملية الانتخابية، بالفعل، وكي يروا بأم أعينهم كيف سوف تقوم السلطة بتزوير الانتخابات، ذلك أن الجميع كانوا واثقين مسبقاً، أن هذا ما يجري.

إن آلاف الناس الذين سجلوا أنفسهم فجأة مراقبين، كانوا ينظرون إلى هذا العمل كتسلية على الأغلب. مثل الذهاب إلى المسرح التفاعلي. أو المشاركة في رحلة علمية. وكما في مشاهدة عرض خطير، دارج في هذا الموسم. إن نتيجة هذه التجربة فاقت جميع التوقعات لدرجة أنها غيّرت السياسة الروسية كلها.

تمرد الأحذية القذرة

في 4 كانون أول/ديسمبر، في يوم الانتخابات، وقبل أن ينتهي التصويت في موسكو، بدأت تتوارد أخبار غير رسمية حول كيف انتهت الانتخابات في الشرق الأقصى وفي سيبيريا. يتذكر نافالني، أنه في ساعات النهار كانت هناك مشكلات جدية لدى حزب «روسيا الموحدة» - فهو لم يجمع بوضوح 50% من الأصوات، بل على العكس تتراوح نسبته عند 35%. ولكن مع الاقتراب من منطقة موسكو، كان الوضع يتعدّل - وبحلول المساء، بدأوا في العاصمة بطرد المراقبين المستقلين في كل الدوائر الانتخابية، حتى أنهم أخرجوهم بالقوة خارجها بمختلف الذرائع الملفقة. ونُقلت على الإنترنت لقطات فيديو مصورة على الموبايلات تبيِّن كيف يتلاعب رؤساء اللجان بالنتائج، وكيف يطردون المراقبين بصورة فاضحة.

في صباح اليوم التالي، أعلن تشوروف رئيس اللجنة الانتخابية المركزية أن حزب «روسيا الموحدة» جمع في مختلف أنحاء روسيا 49% من الأصوات. بعد ذلك بقليل، ورغبة منه في مدح تشوروف على التنفيذ الناجح للانتخابات، قال

ميدفيديف: «أنت، ببساطة، ساحر».

في مساء يوم الاثنين، اليوم الأول بعد الانتخابات، كان من المبرمج مسبقاً اجتماع جماهيري لاتحاد» التضامن» المعارض في حديقة «تشيستي برودي». يقول نافالني، إنه لم ينو الذهاب إلى هناك، ظناً منه أنه سيكون اجتماعاً عادياً، معادياً لبوتين، مملاً، لا يحضره إلا القليل. ولكن بتأثير نتائج الانتخابات قرر الذهاب - وطلب على مدوّنته من الجميع الذهاب والمشاركة.

هذا الاجتماع دخل التاريخ باسم «اجتماع الأحذية القذرة». كان يهطل مطر ممزوج بالثلج في موسكو، وجميع الذين حضروا الاجتماع كانوا واقفين فوق برك من مياه الأمطار. وكان الجو مظلماً، لهذا لم يكن معروفاً عدد الحاضرين. ولكن كان هناك شعور، بأن عدد الحاضرين كان كبيراً جداً.

يتذكر نافالني: «لقد كان هذا أكبر اجتماع جماهيري حاشد رأيته في حياتي حتى هذه اللحظة. وبحسب المعايير الحالية، يمكن اعتباره فشلاً، لكنه بدا آنذاك مفاجئاً جداً، والمزاج كان فظيعاً». وهو يعتقد أن هذا الاجتماع الجماهيري بالذات هو الأهم، أهم بكثير من جميع الاجتماعات الجماهيرية اللاحقة.

وباعتباره كان في مزاج رائع، ألقى نافالني خطاباً رائعاً ً(الآن هو يدعوه خطاباً موفقاً جداً، أما منتقدوه فيسمونه خطاباً «هتلرياً»): «قد يدعوننا بالقوارض. نعم أنا قارض الشِباك وسأقرض حلاقيم هذا القطيع!». وقد أصبحت ترنيمات الصرخات المختلفة أسلوب نافالني المميز: يسأل نافالني الحشد: «هل انتخبتم «يدرو********؟». يجيب الحشد صارخاً: «لا». يسأل نافالني الحشد: «ما اسم هذا الحزب؟». يجب الحشد: «حزب المارقين واللصوص!». وفي نهاية الخطاب، ومن دون أي نداء أو سؤال من نافالني بدأ الحشد يردد ترنيمة «بوتين - لص!».

يتذكر نافالني: «فكرت في أنه سيكون من المزعج أن ينتهي الاجتماع على هذا النحو. واقترحت على ياشين، أنه يجب بعد الاجتماع الجماهيري الإعلان عن

مسيرة. لم يرغب ياشين في ذلك، «لدي أعمال أخرى، وقد يأخذوننا إلى قسم الشرطة»، ومع ذلك فقد دعا المجتمعين من على المنصة إلى التوجه مباشرة إلى اللجنة الانتخابية المركزية.

لم تستمر المسيرة طويلاً. فقد قطعوا «ذيلها» – والقسم الأكبر من المحتشدين بقي في ساحة تورجينيف. وأولئك الذين اقتلعوهم من المسيرة بدأوا باعتقالهم. وقد اعتقلوا نحو 100 شخص، بمن فيهم نافالني وياشين. وهم كانوا بصورة أساسية من المراقبين. يقول نافالني: «من بين الـ 20 شخصاً الذين جلسوا معي في مركز الاعتقال، 18 كانوا من المراقبين الذين ذهبوا إلى الانتخابات بالصدفة، وقد سحبوهم من هناك بأيديهم وأرجلهم، وكان اعتقال هذه المئة مفتاح الزناد. فقبل هذا لم يعتقلوا أحداً».

الأسبوع التالي مر في التحضير للاجتماع الجماهيري التالي. في الكرملين كانوا يضربون أخماساً بأسداس، ما الذي حدث: فتكنولوجيو الثورة الملونون الذين حاربهم سوركوف، قد نموا مع ذلك وتكاثروا، أو أن الحديث لا يدور عن التكنولوجيات الملونة، بل عن مؤامرة وطنية محلية؟ كان هناك من يتابع ما يجري باهتمام، ومن يتابعه بشماتة، وفريق ثالث يتابع من دون أن يفهم شيئاً.

حاولت «جماعتنا» التي شكلها سوركوف إعاقة المحتجين في اليوم الثاني - يوم الثلاثاء، 6 كانون أول/ديسمبر. خرج المحتجون إلى ساحة النصر والتقوا هناك وجهاً لوجه بأفراد مجمعين من المناطق من «جماعتنا» – كانوا يقرعون على الطبول ويرددون ترنيمة «روسيا! - بوتين!». وكان خصومهم المحتجون يصرخون مجيبين: «روسيا من دون بوتين» و «من العار أن تكون من حزب "جماعتنا"». في تلك الأمسية تم اعتقال نحو 200 من المحتجين. لكن «جماعتنا» اختفوا من الشوارع منذ هذا اليوم - فلم يعد يظهر أي واحد من التلاميذ الفتيان الذين درّبهم فلاديسلاف سوركوف.

الموظف الوحيد الذي كُلِّف بمواجهة الموقف هو نائب عمدة موسكو ألكسندر

غوربنكو - فلم يقبل موظف في منصب أعلى المشاركة في المفاوضات حول أين ستتجه المسيرة. حاول غوربنكو إعادة جميع محاوريه إلى جادة الصواب - فحدثهم عن أن الأمريكيين يحيكون مؤامرة ضد روسيا، وهم بالذات، دفعوا الأموال للمراقبين الذين عملوا في أثناء الانتخابات. وقال، إن هذا كله نتيجة مؤامرة وحساب دقيق. وقد أصبحت نظرية «المؤامرة الأمريكية» شعبية وواسعة الشهرة في تلك المرحلة بين الموظفين من جميع الاتجاهات. حتى أنهم كانوا يروون لبعضهم بعضاً أن الأمريكيين قد خدعوا بوتين متعمدين، وأجروا له عملية جراحية تجميلية بنوعية سيئة مع استخدام البوتوكس، من أجل الإساءة إلى هيبته.

على الرغم من كل شيء، تكللت مفاوضات غوربنكو مع المعارضة بالنجاح - فقد سمحت سلطات موسكو بإجراء المسيرة في ساحة بولوتنايا - يفصلها نهر عن الكرملين، وفي ساحة بولوتنايا، في هذا المكان تاريخياً، كانت تنشأ حالات التمرد والعصيان أو يجري إعدام المتمردين.

تجدر الإشارة هنا، أن قصص الرعب التي أوردها غوربنكو ليست كلها خيالاً محضاً. ففي عام 2011 لم تبعثر الوكالة الحكومية الأمريكية «USAID» مواردها التي كان عليها توجيهها على البرامج الهادفة إلى دعم الديمقراطية في روسيا، بل خصصت منحة ضخمة باسم «HKO - صوت»، كانت تراقب الانتخابات وتجري إحصاءً مستقلاً. وعلى أية حال، فإن عدد مراقبي منحة «صوت» في الانتخابات لم يزد على 3000 مراقب، أي لا أكثر من 10% من جميع المتطوعين، الذين توافدوا إلى اللجان الانتخابية.

نهضة ميدفيديف

في المحصلة جرت المسيرة في 10 كانون أول/ديسمبر في ساحة بولوتنايا - التي يفصلها نهر عن الكرملين وتبعد خطوات قليلة عن استوديو القناة التلفزيونية «دوجد». وبحسب الاحصاءات المستقلة، حضر المسيرة 50 ألف

شخص، علاوة على ذلك نقلت قناة «دوجد» المسيرة في بث مباشر على الهواء.

وحضـر إلـى الساحة فجأة، إضافة إلـى المعارضين المسجلين، والمراقبين السابقين و«قارضي الشبكات» الشباب، بل ونحو نصف العاملين في إدارة الرئيس، بمن فيهم ميخائيل أبيزوف، الملياردير والشريك في حملة ميدفيديف، والذي أصبح بعد بضعة أشهر أحد وزراء حكومته المقبلة. وقد ظهر تقريباً لدى جميع الحاضرين الشعور بنشوة غريبة.

كان معسكر ميدفيديف يمر بمرحلة نهضة عجيبة. وقد أصبحت الجملة التالية، التي تُنسب إلى ناتاليا تيماكوفا، أسطورية: «لو كنا نعرف، أنه سيخرج وراءنا مثل هذا العدد الكبير من الشعب لتصرفنا بطريقة أخرى في أيلول/سبتمبر». هل قالت تيماكوفا هذه العبارة أم لا، لكن مما لا جدال فيه: أن أنصار ميدفيديف شعروا بالمشاركين في مسيرة ساحة بولوتنايا بأنهم شركاءهم في الرأي. علاوة على ذلك، كانوا يرون - وليس عبثاً إلى حد كبير - أن الاحتجاجات أصبحت نتيجة لـ 24 أيلول/سبتمبر، وعودة بوتين، التي لم تعد ترغب الانتليجينتسيا التقدمية الروسية في رؤيته رئيساً لها.

في الواقع، وبحسب أقوال نافالني، كانت غالبية المحتجين تكره ميدفيديف وسوركوف بدرجة لا تقل عن كراهيتها لبوتين. وقد صاح نافالني من على المنصة في حديقة «تشيستيي برودي» مع طنين الجماهير: «نحن لا نريد أن يكون رئيسنا تافهاً ولا منفوخاً». وإذا ما كانت عبارة «منفوخ» المهينة هي صفة وضعها نافالني تعريفاً لبوتين، فإن عبارة «تافه» – هي صفة معروفة ومتعارف عليها في تلك الفترة لميدفيديف، فقد ترافقت كثير من التغريدات في تويتر عن ميدفيديف بهذا الهاشتاغ.

يرى نافالني الآن، أن الاحتجاج كان غير عادل قليلاً بحق ميدفيديف. يقول نافالني متأملاً: «كان ميدفيديف يعتقد أنه يفعل أشياء صحيحة - وهذا حق. ولكان رئيساً أفضل (مما أصبح عليه بوتين). كان ضعيفاً، جباناً، مضحكاً، لكن

كل ما فعله - كان حركة في الاتجاه الصحيح. وإصلاحاته - مثل الإصلاح القضائي - هو حركة في الاتجاه الصحيح. هي كانت بالطبع، إصلاحات جزئية - وربما لا تشكل أكثر من 10% من الضروري، لكنها صحيحة». ويرى نافالني، أن ميدفيديف، بإرغامه على الموافقة على الإجهاض مع بوتين، قد أهين، ولهذا ومع بداية الاحتجاج، كان يشعر بالشماتة هو والدائرة المحيطة به. يقول نافالني: «أعتقد، أنهم هكذا كانوا يرددون: أترون، كنتم تعانون وتتألمون. أما نحن فقد كنا نريد التحديث، وكنا نجحنا في هذا أفضل منكم».

في يوم السبت الواقع في 24 كانون أول/ديسمبر خُطط لاجتماع حاشد جماهيري ثان - قبل يومين من الموعد المحدد، في 22 من الشهر ألقى دميتري ميدفيديف خطابه الأخير في مجلس الاتحاد. وبعد أن أشار لمنجزاته الرئيسة (أنسنة النظام القضائي، الانتساب إلى منظمة التجارة العالمية، إشهار كبار المسؤولين الحكوميين الإلزامي عن مداخيلهم المالية، تأسيس منطقة سكولكوفو العلمية التقنية الحديثة الابتكارية في موسكو)، تطرق الرئيس إلى حركات الاحتجاج التي بدأت وقال بأنه يجب الإصغاء إلى المجتمع وتغيير التشريع الانتخابي من جديد. ومن بين الإجراءات المحددة، اقترح ميدفيديف العودة إلى انتخاب المحافظين (الذي ألغاه بوتين عام 2004)، وإدخال نظام مبسّط في تسجيل الأحزاب وتبديل نظام تشكيل مجلس الدوما - تغيير نظام النسب إلى نظام مختلط (أي إلغاء نظام منع «الثورة الملونة» الذي وضعه سوركوف في عام 2005).

والطريف في الأمر، أن السلطة لم تكن تنوي تنفيذ أي من المطالب المحددة للمعارضة: أي أن تشوروف رئيس اللجنة الانتخابية المركزية لم يقال من منصبه ولم تحدد انتخابات جديدة لمجلس الدوما. بيد أن الإصلاح السياسي المعلن كان يعني أن السلطة لا يمكنها أن تتجاهل المجتمع بالكامل، أو على الأقل ميدفيديف لا يمكنه تجاهله. ويتذكر نافالني: «كنا ندرك، أنهم بالطبع، يحاولون خداعنا وتشتيتنا. لكن هذا بدا لنا غير ذي أهمية كبيرة، لأنه كان من

الواضح أن كل شيء عندهم كان يسير إلى المنحدر - وعندنا كل شيء كان يسير نحو الارتقاء. كل شيء كان ينهار عندهم - وفي جميع أحاديثي الصحافية آنذاك كنت أقول، أنه بقي أمام هذه السلطة عام أو عام ونصف».

وفي الوقت نفسه، ومع إصلاح ميدفيديف السياسي، حدث اعتراف سوركوف - ففي اليوم نفسه، في 22 كانون أول/ديسمبر نشرت صحيفة «الإزفستيا» مقابلة صحافية منهجية مدح فيها سوركوف، منظِّر الكرملين والمحارب الشرس لـ«الثورة الملونة»، احتجاج ساحة بولوتنايا، ولكن بأسلوبه الجدلي المميز، حقيقة.

وقد أكد سوركوف، أن الاحتجاجات التي بدأت - هي ليست احتجاجات أبداً «لقد بدأت هياكل المجتمع الطبقية حركتها، واكتسب النسيج الاجتماعي نوعية جديدة. لقد صرنا في المستقبل. والمستقبل ليس هادئاً. ولكن لا داع للخوف والقلق. فالاضطراب، حتى القوي منه - ليس كارثة على الرغم من كل شيء، بل نوعاً من الاستقرار».

ودعا سوركوف المحتجين بـ «الجزء الأفضل من مجتمعنا أو، على الأصح، الجزء الأكثر إنتاجاً فيه». ووعظ الوصي المشهود له أكثر من مرة: «لا يصح أبداً النظر باستخفاف واستعلاء إلى رأيهم. يمكن التأكيد، بالطبع، أن الذين خرجوا إلى الشارع هم أقليّة. هذا صحيح، ولكن في المقابل، أية أقلية مهمة هذه!».40

انهيار الخط المغلق

كان للاحتجاج المفاجئ أثره ليس على «البرج الليبيرالي للكرملين» فحسب. فقد انبعثت فجأة جميع «الخلايا النائمة» للسياسة الروسية - أولئك الناس الذين كانوا في أعماق نفوسهم فقط يفكرون في السياسة، أحسوا فجأة أن وقتهم قد حان.

وأبدى اهتماماً مفاجئاً بالسياسة من جديد، ميخائيل بروخوروف، الذي ودع

حزبه في شهر آب/أغسطس ولم يشارك في انتخابات مجلس الدوما. فبعد يوم من الاجتماع الحاشد في ساحة بولوتنايا، ظهر بروخوروف، الذي اختفى لمدة نصف عام ليعلن عن وجوده من جديد، وعن عزمه الترشح للرئاسة. وقد كتب على مدونته الانتخابية على الإنترنت في 14 كانون أول/ديسمبر: «بالطبع، أنا مناسب ومفيد للكرملين في الانتخابات. بالطبع، هم يريدون اللعب بطريقة ما على ساحة بولوتنايا. يريدون أن يلعبوا بالديمقراطية، كي يتشكل لدى الناس انطباع أنه «كان لديهم ما يشبه الانتخابات». ومن هنا يأتي خطاب بسكوف، وخبراء السياسة في الكرملين، والقنوات التلفزيونية الاتحادية، التي لم أظهر عليها منذ ثلاثة أشهر... نعم هذا كله حقيقة - السلطة تحاول استغلالنا من أجل أهدافها التي نفهمها جميعاً...».

وفي شهر كانون أول/ديسمبر، ظهرت بين المحتجين شخصية أخرى غير متوقعة -ألكسي كودرين. المستشار الأقرب لفلاديمير بوتين كان الضحية الأولى للخطوة القاضية التي حصلت في 24 أيلول/سبتمبر.

في يوم مؤتمر حزب «روسيا الموحدة» الذي أعلن فيه ميدفيديف وبوتين أنهما سيتبادلان منصبيهما، كان ألكسي كودرين في واشنطن، في اجتماع مجلس إدارة صندوق النقد الدولي. وقد أصبح هذا الإعلان، بالنسبة إليه، كما هو بالنسبة إلى الدائرة المقربة كلها من بوتين، مفاجأة غير متوقعة. وكانت مفاجأة غير سارة على نحو خاص، كلمات بوتين حول أنه اعتباراً من شهر أيار/مايو سيغدو رئيس الحكومة دميتري ميدفيديف، الذي كان لكودرين نزاع قديم معه.

وكان كودرين منذ فترة طويلة يشعر بالحسد من رفيقه غيرمان غريف، وزير التنمية الاقتصادية السابق، الذي استطاع الخروج من الحكومة وترأس بنك الادخار. فقد تعب كودرين أيضاً من الحكومة، ومن وزارة المالية، وقد توقفت الإصلاحات، ولم يستطع تغيير شيء، وكان دوماً يهدر وقته على معارك داخل جهاز وزارته. ولهذا، وبعد أن شاهد في غرفة الفندق في واشنطن البث التلفزيوني لمؤتمر الحزب، قام بتصرف غريب - جمع في ردهة الفندق

الصحافيين وعقد مؤتمراً صحافياً قصيراً، حيث قال: «أنا لا أرى نفسي في الحكومة الجديدة. والمسألة ليست فقط في أنه لم يعرض عليَّ أحد منصباً وزارياً، لكنني أعتقد أن تلك الخلافات التي لدي لا تسمح لي بالمشاركة في هذه الحكومة».

لم يستطع ميدفيديف أن يتحمل الصفعة. وبينما ركب كودرين الطائرة من واشنطن متوجهاً إلى موسكو، غدت كلماته حول أنه لن يعمل مع رئيس الوزراء ميدفيديف الخبر الرئيس. وبينما لايزال ميدفيديف رئيساً - قرر إجراء اجتماع مفاجئ حول مسائل الاقتصاد، وقرر عقده ليس في موسكو بل في منطقة أوليانوفسك، حيث كان عليه أن يتوجه بجولة رسمية.

عشية الاجتماع اتصل سوركوف بكودرين، كي يعرف هل ينوي ركوب الطائرة وحضور الاجتماع، ثم اتصلت به رئيسة قسم المراسم عند ميدفيديف واقترحت نقله بطائرة الرئاسة إلى مكان الاجتماع. ثم اتصل بوتين، وقال له: «رأيت تصريحك. أنا أعتبره خاطئاً. كان عبثاً ما قلته.41

لقد تحول هذا الاجتماع إلى استجلاء علني للعلاقات بين ميدفيديف وكودرين. قال ميدفيديف:

- إن ألكسي ليونيدوفيتش الموجود هنا قد بعث لنا خبراً مفرحاً، مفاده أنه لا ينوي العمل في الحكومة الجديدة. ولأن لديه خلافات خطيرة عملية مع الرئيس الحالي. لديك مخرج واحد. وأنت تعرفه - قدِّم طلب استقالة. هل ستكتب طلب تقديم الاستقالة؟

- دميتري أناتوليفيتش، لدي فعلاً خلافات معك، لكنني سأتخذ القرار بخصوص اقتراحك بعد استشارة رئيس الوزراء.

- يمكنك استشارة من تريد. ولكن طالما أنا الرئيس، فمثل هذه القرارات أنا أتخذها.

حـدثت هـذه المناوشـة أمـام عدسـات الكـاميرات التلفزيونيـة. وهكـذا عـوّض ميـدفيديف، الـذي أهانـه بوتـين بـالأمس في مؤتمر حزب «روسيا الموحدة»، بإهانة صديق بوتين القديم. وانتهى الاجتماع بأن أرسل ميدفيديف كودرين للاتصـال ببوتـين - للتشـاور معـه بخصـوص الاسـتقالة. جمع كـودرين حقيبتـه وأوراقه، ولكنه لم يشرع بالاتصال – لأنه لم يكن يحمل الخط الهاتفي الآمن، وبوتين لا يتحدث أبداً بشبكات اتصال هاتفية غير محمية.

لكن ميدفيديف كان مصراً. بعد الاجتماع اتصل هو بنفسه ببوتين، وروى له الحـديث الـذي جرى في الاجتمـاع، ثم أعطـى السمّاعة لكودرين. وفي مسـاء اليوم نفسه صدر قرار إقالة وزير المالية.

ولكن، وعلى الرغم من أنه أقيل علناً على الشاشة التلفزيونية، حافظ كودرين مع ذلك على نفوذه السابق. وبقي المستشار الأقرب لبوتين. حتى أنه لم يغادر مكتبه في وزارة المالية.

منذ بداية الاجتماعات الجماهيرية في كانون أول/ديسمبر أخذ كودرين يهتم بها اهتماماً كبيراً. فعشية الاجتماع الجماهيري الأول في ساحة بولوتنايا قرر بعض أعضاء اللجنة التنظيمية استشارته وحددوا لقاءً معه في مطعم قريب مـن وزارة الماليـة. أراد زعمـاء الاحتجـاج أن يعـرفوا هـل سـتسمح السـلطة بـالاجتماع الحاشد، وألن تقوم بـأعمال استفزازية. هـبّ كـودرين، الـذي أصبح رسمياً، مُقالاً من منصبه، للمساعدة. وبعد أن تناول طعام الغداء مع مجموعة من النشطاء في المطعم في مركز مدينة موسكو، وأصغى إلى أسئلتهم، قال كودرين: «عليَّ أن أتحدث بخط هاتفي آمن». وخرج باتجاه وزارة المالية.

وعلى الرغم من استمراره التواصل مع بوتين بصورة منتظمة، فقد حاز كودرين مع ذلك على ثقة المعارضين. وبدهي أنه بطلب من رئيس الوزراء بوتين كان يَدرُس المعارضين، وبناء على طلبهم - كان يحدثهم عما يفكر فيه بوتين. ذات يوم، حضر كودرين للقاء ألكسي نافالني، فبدأ الأخير يسأله عما يريده بوتين

في الواقع. هل حقيقة، إنه متعب؟ هل حقيقة أنه منذ زمن يريد أن يترك كل شيء ويسافر إلى مكان ما في جنوب روسيا؟ وأن يعيش حياة خاملة على طريقة الأوليغارشي، من غير هموم، مع اليخت والبلاج، وفيلا على شاطئ البحر والنساء الجميلات؟ ولكن كودرين، حسب أقوال نافالني، أكد له أن هذا غير صحيح: بوتين يعتقد أن روسيا ستنهار؛ وأنه سينقذ روسيا، وأنتم تعيقونه في أداء مهمته، على هذا النحو تقريباً وصف الوزير السابق طريقة تفكير بوتين.

ذروة السياسة

في 24 كانون أول/ديسمبر جرى أكبر اجتماع حاشد للمعارضة - واحتشد في شارع ساخاروف أكثر من 100 ألف شخص. وقد علق نافالني قائلاً: «لقد كان هذا ذروة السياسة». قبيل الاجتماع، كاد الجميع أن يتشاجروا حول موضوع مَن يدعون إلى الاجتماع ومَن لا يدعون، وهل يجب دعوة القوميين أو اليساريين. فبعضهم كان قطعياً ضد أن يلقي القوميون كلمة، وآخرون كانوا ضد كسينيا سوبشاك********. ولكن في المحصلة، ألقى جميع الراغبين كلماتهم. حتى أن ميخائيل بروخوروف حضر الاجتماع الجماهيري، لكنه حاول البقاء جانباً بعيداً عن محتجي «ساحة بولوتنايا». لم يصعد إلى المنصة، لكنه وقف مع الحشد. لكن المشارك الأكثر مفاجأة والذي لم يتوقعه أحد ليس بروخوروف ولا ابنة مدير بوتين كسينيا سوبشاك، بل ألكسي كودرين بالذات - حليف بوتين الأقرب، ووزير ماليته الدائم ومستشاره الاقتصادي الأقرب.

علاوة على ذلك، لم يحضر فقط إلى شارع ساخاروف الكبير الناس الذين استيقظت طموحاتهم السياسية فجأة. لقد حضر حتى الناس الأكثر حذراً في روسيا - كبار رجال الأعمال وأصحاب البنوك.

أما في الدائرة المحيطة ببوتين، فقد كانوا ينظرون إلى احتجاجات «ساحة بولوتنايا» نظرة أخرى تماماً. أولاً، كانوا يُحضِرون إلى رئيس الوزراء بوتين

بانتظام، تسجيلات للأحاديث الدائرة في محيط ميدفيديف، والتي ينتج منها أن كثيراً من العاملين في إدارة الرئيس لا يشعرون بالحزن مما يجري بل بالفرح. وثانياً، تم العثور على كثير من الأدلة والقرائن التي تثبت أن الناس الذين حصلوا، أو حتى لا يزالون يحصلون على تمويل كبير من جهة سوركوف، كانوا يشاركون بنشاط في الاحتجاجات. ولا حاجة إلى الذهاب بعيداً بحثاً عن الأمثلة - فالبث التلفزيوني المباشر تم على حساب ميزانية الدولة من قبل «وكالة الأنباء الروسية: ريا РИА» (وقد أعيد تشكيلها بعد عامين).

فياتشيسلاف فولودين، المحمي سابقاً من سوركوف، ومنافسه المباشر الآن، رسم لرئيس الوزراء بوتين بوضوح الصورة المتشكلة. وينتج منها، أن ميدفيديف الذي تنازل عن مكانه لبوتين في الرئاسة لم يستسلم أبداً، بل حاول عن طريق سوركوف، زعزعة الوضع ونسف الانتخابات الرئاسية، والمحارب السابق لـ«الثورات الملونة» فلاديمير سوركوف قد بدل اختصاصه إلى صانع لـ«الثورة الملونة» – لصالح معلمه الجديد دميتري ميدفيديف.

هذه الصيغة بدت لبوتين مقنعة للغاية. في 27 كانون أول/ديسمبر أجرى بوتين الانقلاب الدوري في كوادر الموظفين: تم تسريح فلاديسلاف سوركوف من إدارة الرئيس ونقله إلى الحكومة، نائباً لرئيس الوزراء لشؤون الابتكار والتكنولوجيا الجديدة. وعين بدلاً منه فياتشيسلاف فولودين، نائباً لرئيس إدارة الكرملين، أي المنظِّر الرئيس للبلاد. على أية حال، يُقال الآن في الدائرة المحيطة بسوركوف، إن هذا التغيير لم يبدُ له هو نفسه عقوبة - فهو، على حد زعمه قد تعب من العمل مع شيطان الكرملين الأكبر، وبوده التركيز على شيء ما إيجابي. كأن يدخل التاريخ، على سبيل المثال، بصفته المبتكر الرئيس في البلاد.

وظهر رمز آخر لانتهاء عصر ميدفيديف، وهو عودة سيرغي إيفانوف، منافس ميدفيديف المهزوم إلى منصب قيادي. فقد أصبح رئيس إدارة الرئيس. على أية حال، يُزعم بأن ميدفيديف نفسه هو من رشحه، لأنه بقيت لديه معه بعض

العلاقات. فجميع الخيارات المطروحة الأخرى (سيتشين أو فولودين) كانت بالنسبة إلى ميدفيديف أسوأ.

وبحلول الاجتماع الحاشد الثاني للمعارضة - في 4 شباط/فبراير، وفي ساحة بولوتنايا ثانية - سيُعِدُّ العدة لها فولودين. فهو سيجمع على جبل بوكلونايا حشداً مضاداً، باسم «حشد بوتين». حيث سيجتمع نحو 100 ألف من العاملين في دوائر ومؤسسات الميزانية تحت شعارات: «لا للثورة البرتقالية»، «ثمة ما نخسره» و«ومَن، إن لم يكن بوتين؟». وكان هذا التصميم يناسب بوتين.

كما سيصبح المدعو إيغور خولمانسكيخ رئيس ورشة معمل الأورال لعربات السكك الحديدية رمزاً جديداً لصراع فولودين ضد المحتجين الليبيراليين. في 15 كانون أول/ديسمبر إثر الاجتماع الحاشد الأول في ساحة بولوتنايا، أجرى بوتين لقاءه السنوي التقليدي عبر بث مباشر مع المواطنين - واستمر نحو أربع ساعات حيث أجاب عن أسئلة الناخبين على البث الفضائي المباشر. الأسئلة، بالطبع، كانت معدة ومُطّلعاً عليها مسبقاً. ولعل أكبر نجاح حققه موقف أبدعه فولودين: «عامل» من منطقة تاغيل السفلى، كان يقف إلى جانب رفاقه، فقال لبوتين، إنه وجماعته «يقدّران الاستقرار حق التقدير ولا يريدان العودة إلى الوراء». إنه لم يطرح سؤالاً، لكنه أعلن قائلاً: «إذا كانت الشرطة عندنا لا يمكنها العمل أو عاجزة عن مواجهة الاجتماعات الحاشدة، فنحن مع الرجال مستعدون للدفاع عن استقرارنا، ولكن بالطبع، ضمن إطار القانون».

أجابه بوتين: «تعالوا - وبعد وقفة قصيرة أضاف - ولكن ليس الآن، وليس بهذا الخصوص». بعد بضعة أشهر عيّن بوتين هذا الشخص، إيغور خولمانسكيخ، رئيس ورشة معمل الأورال لعربات السكك الحديدية كممثله الشخصي المطلق الصلاحية في مقاطعة الأورال الاتحادية.

كان هذا التعيين رمزياً للغاية. ومنذ تلك الأثناء، لم يعد بوتين يغازل الانتليجينتسيا الليبيرالية. فـ«الطبقة المبدعة»، كما دعا فلاديسلاف سوركوف

المشاركين في احتجاجات بولوتنايا، أصبحت ملعونة منذ تلك الأثناء - لقد خانت بوتين. وعلاوة على ذلك، فهي، برأي بوتين، فضلت ميدفيديف عليه. ومنذ تلك الأثناء لم يعد بوتين يقوم بأية محاولات ليحوز على إعجاب الانتليجينتسيا، ولمتابعة الحديث معها بلغة واحدة. فقد قرر أن الطبقة المتوسطة هي سقفه - فأولئك الناس الذين منحهم الاستقرار، والوفرة، وإمكانية السياحة، والحصول على القروض، والمطالبة برفاهيتهم - لم يقدروا هذا كله. وهم لم يشعروا بالرضى من أن العقد الأول من القرن الحادي والعشرين أصبح العقد الأكثر رفاهية خلال تاريخ روسيا كله. إن الطبقة الوسطى - دعامة نظام بوتين، حسب نموذج سوركوف - لم يبرر الآمال التي علقها بوتين عليها. وسرعان ما سيسدد سوركوف والطبقة المتوسطة ثمن عدم الوفاء، وعدم الإخلاص.

محاولة «ميدان»

مرت الانتخابات الرئاسية بهدوء مستغرب. وسجل آلاف من المشاركين في اجتماعات بولوتنايا وشارع ساخاروف أسماءهم مراقبين من جديد، ولكن لم يتم اكتشاف حالات غش وتزوير كبيرة - وقد حصل فلاديمير بوتين على 64% من الأصوات.

مساء، في يوم الانتخابات، تم تجميع حشد جماهيري هائل في ساحة مانيجنايا، بالقرب من الكرملين. وظهر أمام الحشد المهلِّل، كما حدث قبل أربع سنوات، رئيسان، الراحل ميدفيديف، والصاعد الجديد بوتين. أول ما استرعى أنظار الحشد، أن بوتين كان يبكي - كانت الدموع في عينيه. فيما بعد، شرح سكرتيره الصحافي دميتري بسكوف سبب الدموع بالريح القوية. على أية حال، لسبب ما، لم تؤثر الريح القوية في ميدفيديف الذي كان واقفاً إلى جانبه.

قال بوتين باكياً: «لقد كان هذا ليس مجرد انتخاب رئيس روسيا - لقد كان هذا اختباراً مهماً جداً لنا جميعاً، لشعبنا كله: لقد كان اختبار النضج السياسي،

والنزعة الاستقلالية، والاستقلال. لقد أظهرنا أنه لا يمكن لأحد، بالفعل، أن يفرض علينا شيئاً - لا أحد ولا أي شيء!

لقد أظهرنا أن شعبنا قادر فعلاً على التميُّز بسهولة بالرغبة في الحداثة، وبالتجديد بعيداً عن الاستفزازات السياسية، التي تسعى نحو هدف واحد - تحطيم الدولة الروسية واغتصاب السلطة.

لقد أظهر الشعب الروسي اليوم، أن هذه الصيغ، وهذه السيناريوهات لن تمر على أرضنا. إنها لن تمر!».

من خلال مظهر بوتين المنفعل بصدق كامل يمكن الافتراض بأنه فعلاً قد أنقذ روسيا بأعجوبة من أولئك الذين أرادوا «اغتصاب السلطة». فمن كان يقصد؟ هل كان يقصد ميدفيديف، الواقف إلى جانبه؟ أم الولايات المتحدة الأمريكية؟ أم نافالني الذي كان جالساً في بيته؟

مع ذلك، لم تحدث هذه الانتخابات وخطاب بوتين المؤثر أي انطباع لدى المحتجين. لم يكن هناك من يعتقد، أنه قد خسر كل شيء. يتذكر نافالني: «كنا ندرك، أنهم بالطبع، لم يفقدوا السلطة. وهم لن يسرحوا تشوروف، ولن ينفذوا المطالب، وسوف يحاولون تنفيس البخار المضغوط من خلال بعض الإصلاحات. ولكن، كان واضحاً، أننا سنتغلب عليهم، لأننا نستند إلى قوة». وقد حُددت المسيرة التالية للمعارضة في يوم 6 أيار/مايو - عشية تنصيب بوتين رئيساً.

يتذكر نافالني قائلاً: «كنت قد قلت قبل هذا الاجتماع الحاشد، لدينا استراتيجية واحدة - استراتيجية التصعيد. كانوا جميعاً يقولون من حولي: لا نريد بعد الآن السير في مسيرات سلمية، نريد على طريقة المتشددين، سنذهب للقتال مع رجال الشرطة».

عشية مسيرة 6 أيار/مايو، كان مفهوماً أنها لن تنتهي على خير. لم تشارك هذه

المرة كسينيا سوبشاك، التي كانت تشارك في جميع الاجتماعات والمسيرات، بدءاً من مسيرة شارع ساخاروف، وقالت إنها تخشى من الأعمال الاستفزازية. يتذكر نافالني أنه كان يعرف مسبقاً، أن 600 شخص يتوجهون إلى موسكو من الضواحي المجاورة مع خيمهم، وهم لا ينوون المغادرة والتفرُّق، بل تنظيم معسكر، مخيم ساحة بولوتنايا.

الآن، أصبح واضحاً، أنه كان هناك خائن عميل بين اللجنة المنظمة للمسيرة - كونستانتين ليبيديف، مساعد منسق «الجبهة اليسارية» سيرغي أودالتسوف، كان عميلاً للأجهزة الأمنية. وكان جهاز الأمن الاتحاد على علم مسبق بجميع خطط المعارضين، بل وبصورة مبالغة، حسب رأي نافالني. وقد حضر العاملون في الأجهزة الأمنية ولجنة التحقيق إلى الساحة، عارفين أنه سيجري شيء ما.

فيما بعد وقع المحتجون في مَصيَدة مُحكمة. ففي ذروة المسيرة أغلقت الشرطة الجسر، الذي سار عليه المشاركون في اتجاه الحشد، وبدأ التدافع، والشجار والعراك، والجري. لقد كان هذا الصدام الجدي الأول بين المشاركين في الاحتجاج والأوصياء على القانون والنظام - وفي الصباح التالي، كان لدى المعارضة مزاج رائع، شعور بأن كل شيء يسير حسب الخطة. يتذكر نافالني: «كان يظن الجميع: ممتاز، بدأت الحركة».

في صباح اليوم التالي كان صباح تنصيب بوتين رئيساً. ومن أجل البث التلفزيوني الآمن تم منذ الصباح إيقاف حركة السير في مركز المدينة كله - بدءاً من البيت الأبيض، أي مقر الحكومة الروسية، مكان عمل بوتين السابق، وحتى الكرملين - مكان التنصيب ومقر بوتين الجديد. ومن أجل تجنب الحوادث تم تنظيف وتطهير الشوارع بحيث لا يوجد عليها أحد من المشاة أو أحد من العابثين والمتفرجين - عادة هكذا تبدو المدن في الأفلام السينمائية - الكارثية بعد الحرب النووية أو نهاية العالم.

بمحض الصدفة تماماً، على بعد 100 متر من طريق سير العربة في حي أربات

الجديد، في بولفار نيكيتسكي مر حشد رمزي صغير من المحتجين. وعلى الرغم من أنه لم تكن أمامهم أية فرصة لإعاقة الاحتفال أو حتى للظهور في لقطة الكاميرا التلفزيونية، لكن فصائل شرطة المهام الخاصة «الأومون OMOH»، احتياطاً لكل طارئ، أمسكت بجميع المشاركين، وفي الوقت نفسه اخترقت المقهى، حيث كان يجلس زملاؤهم - المقهى الشهير «جان - جاك». كانت جميع القنوات التلفزيونية تبث اللوحة التي لا تشوبها شائبة لانتقال بوتين في المدينة الخالية، أما قناة «دوجد» التلفزيونية فقد قسمت شاشة التلفزيون إلى قسمين - في النصف الأول كانت تعرض عملية التنصيب، وفي النصف الثاني هجوم فصائل شرطة المهام الخاصة «الأومون» على مقهى «جان - جاك». وهذه اللوحة أصبحت رمز الفترة الرئاسية الجديدة للرئيس القديم - على الرغم من أنه، والحق يقال، لم يكن أحد يدرك هذا آنذاك.

بداية رد الفعل

يقول نافالني عن أحداث عام 2012: «لم يتوقع أحد منا، أن بوتين يمكن أن يذهب هكذا بعيداً. لم يكن أحد يتوقع أن يضحي بجميع منجزاته، بكل ما فعله، من أجل البقاء في السلطة. كنا جميعاً نعتقد أن أهم شيء بالنسبة إليه هو الرسالة التاريخية. أنه يريد أن يبقى في كتب التاريخ مثل بطرس الأكبر. لم يتوقع أحد أنه سيدخل في نزاع مع القسم الطليعي من المجتمع، وأنه سيتوجه إلى النزعة الأصولية - كي يضمن سلطته».

حقيقة، لم يدرك، في وقت قريب، نافالني وبقية المحتجين والمعارضين أنهم قد خسروا المعركة. وقد مر صيف عام 2012 كله تقريباً تحت شعار التمرد الرومانسي - كانت الشبيبة تقيم «مهرجانات شعبية» في الشوارع والبولفارات في مركز موسكو، وأقامت مخيماً لعدة أيام في منطقة «الينابيع النقية - تشيستيي برودي» بعنوان «احتلّ آباي»********، وكان لدى الجميع شعور مريح بالكرنفال. وهذا الغرور المزهو بالتمرد استمر حتى نهاية شهر أيار/مايو، حيث بدأت الاعتقالات.

أطلقت لجنة التحقيق ما عرف باسم «قضية بولوتنايا» – وبدأت باعتقال المشاركين في الاحتجاجات والفوضى في ساحة بولوتنايا، واحداً إثر آخر، وأولئك الذين من المفترض أنهم شاركوا في المشاجرات مع الشرطة.

بحسب أقوال نافالني، حاول المعارضون خلال هذه الفترة التغلب على «أزمة القيادة» – وفي الخريف تم انتخاب مجلس تنسيقي للمعارضة ضم أبرز الناشطين لأعمال الاحتجاج، وكذلك نجوم الغناء ورجال الأعمال المؤيدين للمتمردين: وقد احتل المركز الأول في الانتخابات نافالني، وأتى من بعده الشاعر دميتري بيكوف، وبطل الشطرنج غاري كاسباروف، ومقدمة البرامج التلفزيونية كسينيا سوبشاك. وقد اتسم النشاط اللاحق لمجلس المعارضة التنسيقي بالانهيار - فقد غرق في الخلافات الداخلية. يقول نافالني: «لم يكن لهذا المجلس أي صلة بالزمن المتغير والنظام المتغير». وبعد نحو نصف عام، توقف المجلس التنسيقي للمعارضة عن الاجتماع.

في شهر تشرين أول/أكتوبر عرضت قناة ن.ت.ف التلفزيونية فيلم «تشريح التمرد -2»، ويتحدث عن أن حركات التمرد في موسكو كانت أيضاً منظمة في الخارج. وقد عرض فيلم لقطة سرية للقاء جرى بين سيرغي أودالتسوف عضو المجلس التنسيقي للمعارضة والسياسي الجورجي غيفي تارغامادزي، وكأنهما بحثا خلال هذا اللقاء تمويل حركات التمرد في موسكو. وقد قام بتنظيم هذا اللقاء عميل الأجهزة الأمنية ذاته كونستانتين ليبيديف.

فيما بعد حُكم على أودالتسوف بالسجن أربع سنين ونصف بتهمة تنظيم أعمال شغب جماعية. وتبرأ بقية أعضاء المجلس التنسيقي منه، عملياً - فلم يقوموا بأي عمل واسع دعماً لأودالتسوف.

يقول نافالني متأملاً: «يُقال الآن، إن الاحتجاجات لم تحقق أي شيء، لكنها انتصرت على روسيا البوتينية، انتصرت على روسيا البوتينية - الميدفيدية. وللأسف، أدت الاحتجاجات إلى الحرب في أوكرانيا. تماماً، مثلما قضت ثورة

1905 على روسيا القيصرية السابقة، لكنها أدت إلى وصول الرجعية».

إن طرق العمل مع المعارضة، بدءاً من خريف 2012 أصبحت مغايرة تماماً عما كانت عليه سابقاً: فاعتباراً من هذه الفترة، نشطت القضايا الجنائية، والاعتقالات، والزج في السجون. وضد نافالني نفسه رُفعت في عام 2012 ثلاث دعاوى جنائية دفعة واحدة: واحدة في شهر أيار/مايو، واثنتان في شهر كانون أول/ديسمبر.

يقول نافالني: «لم يكن في استطاعة بوتين أن يتصرف بطريقة أخرى. كان بوتين يدرك، أنه لو ترك السلطة فلن يعتقله نافالني. سيعتقله باستريكين، وكودرين، وميدفيديف، وسرديوكوف، وسوركوف. أي أولئك الأشخاص الذين عمل معهم، فهم أول من سيقف ضده. ما إن يضعف قليلاً، هم أول من سيأتون لاعتقاله. إن هذا مجرد فهم لذلك النظام الذي أقامه بوتين - فهذا النظام كان من الممكن أن يلتهمه. ولم تقتصر مهمة بوتين على إدخال الرعب إلى المعارضة فحسب. فقد كانت مهمته الرئيسة الضرب بيد من حديد على جماعته - كي يهابه الغرباء ويخشوه».

إلغاء الميدفيدية

في اليوم التالي بعد تنصيب فلاديمير بوتين رئيساً، وكما وعد قبل نصف سنة، عين دميتري ميدفيديف رئيساً للوزراء. وبصرف النظر عن جميع الشكوك، التي حامت حول خليفته في أثناء احتجاجات «بولوتنايا»، قدر بوتين عالياً الشيء الأهم - لقد سلمه ميدفيديف السلطة. لقد نفذ الغرض الرئيس المطلوب منه - أعاد لبوتين كرسي الرئاسة في الفترة المحددة، مثبتاً بذلك ولاءه.

لكن «المترادِفيْن» اللذين هللت لهما آلة الدعاية الرسمية طيلة السنوات الأربع الأخيرة، لم يعد لهما وجود. إن غليب بافلوفسكي، الذي كان الساعد الأيمن لسوركوف، وكان قد سُرّح من العمل وحُرِم من بطاقة الدخول إلى الكرملين لتأييده المفرط لميدفيديف في عام 2011، اخترع في عام 2012 مصطلح

«إلغاء الميدفيدية демедведизация».

بدأ مجلس الدولة بصورة منهجية بإلغاء جميع القوانين التي أقرها في عهد ميدفيديف. والمرحلة الثانية من الإذلال بدأت عندما شرعت الحكومة التي يرأسها ميدفيديف بإلغاء جميع مبادرات ميدفيديف. في صيف 2012 أظهر البرلمان نشاطاً غير مسبوق - فقد أقر دفعة واحدة عشرات القوانين القمعية: وضع شروطاً قاسية لنظام إجراء الاجتماعات الحاشدة والمسيرات، أدخل العقوبة بصورة الحرمان من الحرية بسبب الافتراء، (وبهذا ألغى قانون ميدفيديف الذي ألغى العقوبة بخصوص هذه المادة). إن المشرِّع الحقيقي لجميع هذه القوانين كان فياتيشسلاف فولودين، أما البرلمان فقد وضع دمغته بمثابرة مفرطة على جميع القوانين التي وردته من إدارة الرئيس وأقرّها. ولهذا السبب دعا الصحافيون الساخرون هذه الدورة من مجلس الدوما بـ«الطابعة المسعورة».

وقد أصبح تقرير ميدفيديف السنوي أمام مجلس الدوما في نيسان/إبريل 2013 ذروة استهزاء الدوما وسخريتها منه: حتى النواب المنتسبون إلى حزب «روسيا الموحدة» الذي يتزعمه ميدفيديف، دعوا حكومته بأنها غير فاعلة. والنائب المعارض فلاديمير جيرينوفسكي الموالي دوماً للسلطة، اتهم رئيس الوزراء ميدفيديف بأنه مشارك في تنظيم الاجتماع الحاشد في بولوتنايا: «كيف خرجوا جميعاً بصورة منظمة؟ يبدو أنه هناك من ساعدهم، وليس من قبل الغرب فقط، بل ومن جانب الأوساط الحكومية!».

وقد أصبح التشهير العلني بميدفيديف إذلالاً آخر له. ففي آب/أغسطس 2012 بمناسبة الذكرى السنوية للحرب في جورجيا، نُشر في الإنترنت فيلم وثائقي بعنوان «يوم الحرب المفقود» (أو «جُبن ميدفيديف قَتَل ألف شخص»). كان الفيلم متقناً جداً من حيث النوعية والإخراج، ويبدو أنه من تنفيذ العاملين في إحدى القنوات التلفزيونية الاتحادية. كان أبطال الفيلم الرئيسين هم الجنرالات المتقاعدون (بمن فيهم رئيس الأركان السابق يوري بالويفسكي)، الذين اتهموا

ميدفيديف بالجبن والتردد، وبأنه بقي طويلاً لا يستجيب لخطوات ساكاشفيلي العدائية ولم يرغب في البدء بالأعمال القتالية في أوسيتيا الجنوبية – «إلى أن تلقى ركلة من بوتين». وبعد بضعة أشهر، ظهر فيلم وثائقي ثانٍ، اتهم ميدفيديف بأنه سلّم ليبيا للأمريكيين. وكان أحد المتحدثين في الفيلم يفغيني بريماكوف رئيس الوزراء الأسبق، المتقدم في السن. وقد أصبحت السخرية العلنية الاستعراضية برئيس الوزراء الحالي ميدفيديف، عملياً، نغمة جيدة محببة بين المحافظين.

أصبح هجوم الجنرالات القدماء على ميدفيديف خطوة عادية مألوفة للغاية. وقد أصبح عملياً مقدمة للخطوة التالية - هزيمة وزير الدفاع سرديوكوف.

بداية، سرديوكوف كان رجل سيتشين، ومن أزلامه - فهو بالذات في ذروة قضية شركة «يوكوس ЮKOC»، في عام 2004 ضغط لترشيحه لمنصب رئيس إدارة الجمارك. وبما أن ميخائيل خودوركوفسكي كان متهماً بالذات بعدم تسديد الضرائب، كان دور رئيس إدارة الضرائب جوهرياً جداً. فتمكن من تحقيق المهمة واستحق الترقية - وفي عام 2007 عشية عملية «الخليفة»، أصبح سرديوكوف وزيراً للدفاع.

كان يعتبر هذا المنصب في تلك الفترة منصباً «مُحرِقاً»، وخاصة بعد حادثة الجندي سيتشيف والاجتماعات الحاشدة أمام وزارة الدفاع المطالبة بقطع رجلي وزير الدفاع سيرغي إيفانوف. كان على سرديوكوف أن يجابه النار بصدره، ويغير وجهة اهتمام الرأي العام، وفي الوقت نفسه، إجراء الإصلاح العسكري غير المحبوب في الجيش. وقد شرع بالإصلاح بهمة عالية غير عادية - وسرعان ما وضع نفسه ضد الجنرالات الكبار القدماء، الذين كان يكرههم، ويسخر منهم صراحة، ويدعوهم بـ«الرجال الصغار الخضر».

إن الإصلاح العسكري الذي نفذه سرديوكوف كان جذرياً إلى حد كبير. لكن استطاعة الوزير الجديد تأمين ميزانية كبيرة للجيش من أجل تحديث أسلحته

لم يكسبه محبة الجنرالات. فقد احتقروا الوزير والدائرة المحيطة به - بصورة رئيسة من النساء الشابات العنيدات اللواتي سيطرن على الإدارة العسكرية، وقمن هناك بإعادة توزيع الميزانية.

في عام 2008 دخل سرديوكوف في مرحلة الحسم مع ألكسي كودرين. فقد كانت علاقاتهما متوترة منذ فترة طويلة - منذ أن كان سرديوكوف رئيس جهاز الضرائب، أي عملياً، كان يجمع النقود لوزير المالية. ففي حسابه لنتائج الحرب المنتهية في جورجيا، طالب وزير الدفاع بتخصيص مبلغ 28 ترليون روبل خلال السنوات العشر المقبلة لإعادة تسليح الجيش. كانت وزارة المالية تنوي تخصيص 9 ترليون روبل فقط، واقترحت وزارة التنمية الاقتصادية كحل وسط مبلغ 13 ترليون روبل. في عام 2010 اقترح رئيس الوزراء بوتين الاعتماد على الحل الوسط. ولكن في تلك اللحظة، عندما كان يبدو أن القرار قد اتخذ، ذهب سرديوكوف وقابل الرئيس ميدفيديف وأقنعه شخصياً، أن 13 ترليون روبل مبلغ غير كاف. في أواخر عام 2010 عقد ميدفيديف اجتماعاً حول نفقات الدفاع، وأعلن أمام الكاميرات التلفزيونية أن الدولة مستعدة لتخصيص مبلغ 20 ترليون روبل.

فقال بوتين لوزير الدفاع بانزعاج غير مخفي تماماً: «لقد اتفقنا معك على شيء آخر».

لقد أصبحت النفقات الحربية بالذات تلك المشكلة التي دعاها كودرين بمطلبه الرئيس من ميدفيديف - بالذات بسبب عدم موافقته على ذلك الرقم، أعلن، حسب قوله، أنه لن يعمل بعد الآن في الحكومة.

لكن رقم 20 ترليون روبل للدفاع لم يثر كودرين وحده. فجميع الجهاز الحكومي وقع في حيرة. فبمثل هذه الميزانية غدت وزارة الدفاع والوزير سردريوكوف القوة العظمى وأغنى مركز للقوة في بنية السلطة الجديدة. وبدأت تتردد في الكرملين وفي البيت الأبيض الهمسات أن الأموال التي قدمها

ميدفيديف لسرديوكوف هي «تسديد حساب لولائه». ومن ثم أحضروا لبوتين تسجيلاً لحديث جرى، حسبما قيل، بين ميدفيديف، عندما كان رئيساً ووزير الدفاع سرديوكوف: «نحن سنكون حليفك الأمني القوي» - وكأن سرديوكوف قال هذا، قاصداً، بالطبع، المجابهة المحتملة بين بوتين وميدفيديف. وعلى أية حال، وبما أنه لم تحدث أية مجابهة، وميدفيديف لم يحضِّر لها بوضوح، فهذا الحديث، على الأغلب، أسطورة مختلقة لتشويه سمعة سرديوكوف.

وثمة عدو آخر لسرديوكوف هو سيرغي إيفانوف، سلفه في منصب وزير الدفاع، وهو الآن رئيس إدارة الكرملين. فخلال عمله في وزارة الدفاع لم يكن سرديوكوف يخجل من التعبير في أحاديثه عن إيفانوف - وبوجود شهود، كان يشير إلى أن إيفانوف لم يتمكن من تحقيق الإصلاحات، وكان، على أقل تقدير، وزيراً غير فاعل. فهو لم يتوقع، أن إيفانوف، الذي لم يخلفه في الوزارة، قد يعود من جديد إلى أعلى سلم السلطة، وبالغ بوضوح في تقدير نفوذه الشخصي.

في خريف 2012 رفعت لجنة التحقيق قضية جنائية في واقع سرقات حصلت في وزارة الدفاع. وقد خضع للتحقيق مباشرة عدة نساء - من بينهن يفغينيا فاسيلييفا، عشيقة سرديوكوف، المديرة السابقة لقسم المشتريات في وزارة الدفاع. وتطور التحقيق فيما بعد، كما في روايات القرون الوسطى.

في صباح 25 تشرين أول/أكتوبر، في الحي المعروف باسم الحي الذهبي اللطيف، أغنى أحياء موسكو، كاد أن يقع صدام بين محققي لجنة التحقيق وعناصر المهام الخاصة من إدارة الأركان العامة. جاء المحققون لتفتيش شقة يفغينيا فاسيلييفا في جادة مولوتشني، لكن عناصر المهام الخاصة منعوهم من الدخول. اضطر المحققون إلى التراجع تكتيكياً، لكن إيفانوف رئيس إدارة الكرملين تدخل في القضية. وأصر على أن يسمح عناصر المهام الخاصة للمحققين بالدخول. فدخل المحققون إلى الشقة ووجدوا فيها وزير الدفاع نفسه. سرعان ما تسرب هذا الخبر المثير إلى الصحافة الصفراء، وهو بحد ذاته

أمر لا يصدق. فوسائل الإعلام الجماهيرية الروسية لا تكتب أبداً عن حياة السياسيين الشخصية، وهنا فجأة بدأت الصحف ومواقع الإنترنت تهزأ باستمتاع من وزير الدفاع. ومما زاد من صعوبة الوضع، أن سرديوكوف كان متزوجاً من ابنة رئيس الوزراء الأسبق فيكتور زوبكوف.

بعد التفتيش الفاضح استدعى بوتين سرديوكوف وحذره من التدخل في التحقيق. بيد أن هذا لم يكن يعني أن الرئيس كان يشك فيما إذا كان سيسرح الوزير أم لا - إنه ببساطة لا يحب اتخاذ أية خطوات سريعة محمومة - يجب المحافظة دوماً على مسافة فاصلة بين السبب والنتيجة.

لقد كانت الفضيحة قاتلة بالنسبة إلى الوزير. ولم يكن هناك من يدافع عنه -فالحامي السابق له ميدفيديف كان عاجزاً حتى عن الدفاع عن نفسه، وجميع الشخصيات النافذة الأخرى كانت متعطشة إلى دم سرديوكوف. في 6 تشرين ثاني/نوفمبر أعلن بوتين عن إقالة وزير الدفاع – وعيّن مكانه الجنرال سيرغي شويغو، الرئيس السابق لوزارة الحالات الطارئة، الذي كان في عام 1999 قد ساعد بوتين على أن يصبح رئيساً لأول مرة، بتزعمه لكتلة «الوحدة».

انتهت هزيمة «عشيرة ميدفيديف «بحلول شهر نيسان. في ربيع عام 2013 بدأت لجنة التحقيق عملها في التحقيق في وليد ميدفيديف المفضل - صندوق منطقة «سكولكوفو» الابتكارية، الذي كان يشرف عليه شخصياً نائب رئيس الوزراء سوركوف. وشرع منظِّر الكرملين السابق سوركوف في الدفاع عن مرؤوسيه. وقد هاجم سوركوف المحققين المفرطين في نشاطهم، في كلمته التي ألقاها في مدرسة الاقتصاد بلندن، قائلاً: «إن الحماسة التي تنشر بها لجنة التحقيق في روسيا الاتحادية افتراضاتها تثير لدى الناس العاديين الشعور بأن ثمة جرائم مرتكبة. لكن هذه مجرد طاقة مفرطة لدى لجنة التحقيق. فليثبتوا أن هؤلاء الناس مذنبون بشيء ما، وسنرى، سيثبتون أم لا». ولكن تبين أن لجنة التحقيق لا تعتبر سوركوف القوي القادر على كل شيء سابقاً، شخصية اعتبارية لا يمكن المساس بها. فقد نشر فلاديمير ماركين السكرتير الصحافي

للجنة التحقيق في اليوم التالي مقالة في صحيفة «الإزفستيا» بعنوان: «في نظرتك من لندن، لا حاجة إلى أن تلقي اللوم على المرآة».

«الآن ثمة موضة جديدة دارجة لدى «المدراء الفاعلين». ما إن يبدأ بحث وتفتيش في القصور المتعددة الطوابق لمعاون محافظ منطقة فقيرة، حتى يصرخ زملاؤه على الفور بالدافع السياسي، وبالمستبدين من لجنة التحقيق ومن غرفة الحسابات. من الدارج الآن أن يكون المرء سجيناً سياسياً، حيث يمكن على الفور المراهنة على اهتمام وكالة الأنباء البريطانية BBC، وربما على لجنة العفو الدولية Amnesty International. ربما لهذا السبب، يفضل القيّمون على المديرين الفاعلين جداً إلقاء الكلمات مع أغنية ضيف موسكوفي من لندن، وسط جمهور مستهدف. إن أنين الأغاني عندهم يستدعي الانتباه. والأغنية تدعو إلى الرأفة مباشرة بين جدران مدرسة الاقتصاد بلندن: «إن لجنة التحقيق تتسرع بشطط أكثر مما ينبغي، معلنة بصوت عال عن الإساءات في مشروع سكولكوفو».

بهذا الصدد، نشأ لدى مواطني روسيا، بمن فيهم العاملين في لجنة التحقيق الروسية سؤال خطابي لا يتطلب جواباً: كم سيبقى في منصبه عضو حكومة صاحبة الجلالة البريطانية، إذا ما أدان، خلال وجوده في موسكو بزيارة شخصية، سكوتلاند يارد لأنها تقوم بواجباتها المباشرة؟ يبدو، أنه لدينا في موسكو نظام أكثر ليبيرالية، بالمقارنة.42

كانت لهجة المستشار الصحافي متطاولة، صفيقة، بحيث غدا واضحاً - أنه ليس هو صاحب المبادرة لهذه المقالة، وأن أيام سوركوف في الحكومة أصبحت معدودة. في اليوم التالي، وقع بوتين مرسوم إقالة سوركوف.

تم إنجاز التطهير المثالي للكرملين والبيت الأبيض من غير الموالين - أو حتى من المشكوك بموالاتهم. وكان دميتري ميدفيديف، الذي يعتبر نفسه زعيم الليبيراليين في السلطة، ينظر إلى هذا التطهير بصمت وصبر. ربما كان يعتقد،

أن عليه أن يتحمل هذا التفتيش. ولم يدافع عن أحد من أنصاره وحلفائه السابقين.

******** حملات العلانية والشفافية. (م).

******** بيريا: وزير داخلية الاتحاد السوفييتي في عهد ستالين وشريكه في الاعتقالات وأعمال التنكيل، ومجافانادزه – السكرتير الأول للحزب الشيوعي الجورجي من 1950-1970، وهو ستاليني النزعة. (م).

******** اناستاسيو سوموزا غارسيا: ديكتاتور موالٍ لأمريكا، رئيس جمهورية نيكاراغوا من 1973-1979. (م).

******** الشخصية الشريرة في قصص بيتربان. (م).

******** المقصود العام 1937، وهو العام الأشهر في حملة ستالين القمعية. (م).

******** ابنة بوريس يلتسين. (م).

******** نظام الرق، أو عبودية الفلاحين: نظام مدني وعقاري وقضائي بقي مطبقاً في عموم الريف الروسي، وينص على أن الفلاحين المزارعين جزء من ملكية الأرض التي يعملون فيها، فهم أقنان، ويتبعون لمالك الأرض. وقد ألغي حق القنانة في الإصلاح السياسي الذي أجراه القيصر ألكسندر الثاني عام 1816. (م).

******** يلمح المؤلف هنا إلى كتاب المدوِّن والناشط المصري وائل غنيم «الثورة 2.0». (م).

******** اختصار لتعبير روسي شعبي مبتذل يعني الازدراء. (م).

******** اختصار اسم حزب «روسيا الموحدة» باللغة الروسية. (م).

******** ابنة أناتولي سوبشاك عمدة بطرسبورغ السابق في عهد يلتسين. (م).

******** شعار رفعه المتمردون والمحتجون، والمقصود به التجمع والتجمهر أمام تمثال الشاعر الكازاخستاني آباي كونانبايف في بولفار شيستيي برودي. (م).

الجزء الرابع: بوتين الثالث الرهيب

الفصل الرابع عشر: البطريرك كيريل يُوجّه الوزراء

كان صاحب السيادة كيريل يكاد يعتبر فترة طويلة الرجل الأكثر ثقافة في روسيا. في السنوات التسعينيات، المشبعة بالحيوية، بدأ صاحب السيادة كيريل برنامجه على القناة الأولى من التلفزيون الروسي – «كلمة الراعي» – الذي تميز بأنه كان يتحدث بلغة روسية جميلة معاصرة، وكانت برامجه واضحة، فلسفية، عميقة، ومعاصرة جداً. وكان يبدو عصرياً جداً وإصلاحياً جداً، لدرجة أن الكهنة الكنسيين المحافظين بدأوا يتهمونه بالهرطقة، والاقتراب من الكاثوليك، والنزعة الغربية والليبيرالية المفرطة. وقد زاد اتهامه كثيراً عندما خرجت النزعة الليبيرالية من الموضة.

كان الجميع يدرك، أن «التعاطف مع الكاثوليكية»، بالنسبة إلى الكنيسة الروسية، هي أخطر تهمة ممكنة، تكاد تحاذي الخيانة. وبعد أن أصبح بطريركاً، اختار كيريل لفريقه المفكرين اللامعين. ولكن، لم يعقب ذلك أي إصلاح. فقد طالبته الدولة بأن تكون الكنيسة حارسة وحامية للأسس الروسية والتقاليد - وتغير خطاب البطريرك.

أول مرة التقيت كيريل، كان لا يزال مطراناً، في ظروف عجيبة. في عام 2008 جرت في كييف احتفالات بمناسبة الذكرى السنوية الـ 1020 لاعتناق روسيا للمسيحية. كان على رأس السلطة في أوكرانيا رئيس موال للغرب هو فيكتور يوشنكو، الذي دعانا إلى عيد بطريرك القسطنطينية برتلماوس. لقد رأت بطريركية موسكو في هذه الدعوة خطراً جلياً - فقد كانت تخشى من أن تكون السلطات الأوكرانية تريد التطاول على المنطقة الكنسية للكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وانتزاع الرعية الأوكرانية من سلطة بطريركية موسكو. وصل إلى كييف وفد كبير برئاسة البطريرك ألكسي الثاني الذي كان مريضاً جداً.

في يوم الاحتفال الرئيس في ساحتي كييف المتجاورتين، كما يجري غالباً في العاصمة الأوكرانية، كانت هناك حفلتان متنافستان للعيد. في ساحة صوفيا كان يجلس الرئيس يوشنكو وبطريرك القسطنطينية، ولكن في الساحة الرئيسة - في ميدان الاستقلال كانت هناك حفلة موسيقى الروك التي نظمتها الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. وكان فريق الموسيقيين والكهنة الكنسيون يسخر أحدهما من الآخر. كانت فرقة الروك الروسية «د.د.ت ДДТ» الأكثر شعبية في تلك الفترة متصدرة للعناوين، ولم تكن تخفي ميولها المعارضة. في الاستراحة بين الأغاني أعلن مقدِّم الفرقة بصوت عال: «والآن، استقبلوا المطران كيريل – مطران كالينينغراد وسمولنسك!». فركض المطران مسرعاً إلى خشبة المسرح، ونظر بعينيه خلال ثانية واحدة، إلى الجمهور الذي يبلغ قرابة مئة ألف، ومد يديه على طريقة مغنيّ الروك وصاح بالميكروفون: «مرحباً، أيها الميدان!». فصاح الحشد مجيباً: «مرحباً، أيها المطران!». بعد ذلك، ألقى المطران خطاباً قصيراً، لكنه بليغ ومعبر جداً، بعده أخذ الحشد يردد، مترنماً في ساحة الميدان بضعة دقائق: «المطران – المطران!».

لقد كان هذا عيداً موفقاً جداً بالنسبة إلى بطريركية موسكو - فنفوذها لم يتزعزع ولم يهتز في أوكرانيا. وكان هذا عائداً، في غالبيته، لعزيمة المطران كيريل. ولكن عندما أصبح بطريركاً أخذ اتجاهاً مغايراً تماماً. فالكهنة الكنسيون بدأوا يناضلون من أجل الأخلاق والآداب العامة، وفي عام 2015 قام كاهن معروف بإخراج رعيته من الكنيسة، من أجل تخريب حفلة موسيقى أقيمت في شارع قرب الكنيسة - مدعياً، أن الموسيقى تزعج المؤمنين في صلاتهم.

«البطريرك يثق ببوتين»

في 21 شباط/فبراير2012، قبل أسبوعين من الانتخابات الرئاسية دخلت عدة فتيات، مرتديات قبعات -أقنعة (بالاكلافا - balaklava) ملونة على رؤوسهن، إلى معبد المسيح المخلص، وهي الكاتدرائية الرئيسة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية. وقد صوَّرن هناك فيديو كليب لأغنيتهن المدعوة «يا سيدتنا مريم،

اطردي بوتين». ومن أجل الغرض نفسه، جئن إلى كاتدرائية بلوخ، وهي الكاتدرائية الثانية من حيث أهميتها في العاصمة الروسية. لكن الحرس طردهن منها. ولم يستطعن الحصول على لقطات موفقة في معبد المسيح المخلص أيضاً: فما إن بدأت أربع فتيات بالرقص على المنصة، حتى ركض الحرس وأخرجهن خارج المعبد.

وهذا العمل، أو «صلاة الأشرار»، كما دعته الفتيات أنفسهن، قد جلب للفتيات المشاركات في فرقة «بوسي ريوت - Pussy Riot» شهرة كبيرة. وأخذت جميع وسائل الإعلام الجماهيرية الروسية فجأة تتحدث عنها. ولم يحصل على مثل هذا الصدى الكبير أي عمل آخر من الأعمال السابقة - على الرغم من أنهن قبل شهر كنّ قد ذهبن إلى مكان تنفيذ أحكام الإعدام في الساحة الحمراء، من أجل تصوير فيديو كليب حول الموضوع السابق «روسيا تمردت - بوتين تبول». وتخلصن آنذاك بدفع غرامة وببعض الملاحظات والإشارات في الإنترنت.

عموماً، هذه الفرقة الموسيقية «بوسي ريوت» لم تكن من الفرق الموسيقية المتميزة، ولم تحاول ممارسة الإبداع الموسيقي - فقد كانت العروض السياسية القارصة هي وسيلتها المفضلة.

لم يحدث أي شيء خلال الأيام العشر الأولى بعد «صلاة الأشرار». ولكن في 3 آذار/مارس نشطت فجأة أجهزة القوى الأمنية: عشية الانتخابات الرئاسية اعتقلت فتاتان من الفتيات المشاركات في الفرقة، هما ناديجدا تولوكونيكوفا وماريا أليخينا. وفي اليوم التالي، في يوم الانتخابات، اعتقلت المشاركة الثالثة، يكاتيرينا سوماتسفيتش. ولم تقم الأجهزة بالبحث عن بقية المشاركات (كان عددهن خمس فتيات).

وبحسب الرواية الرسمية (التي تنفيها إدارة الكنيسة الروسية الأرثوذكسية بصورة تقليدية) جرت الاعتقالات بعد تدخل البطريرك كيريل. تزعم الرواية بأن البطريرك اتصل بفلاديمير بوتين وطلب معاقبة «الباغيات» اللواتي دنّسن

المعبد. وبحسب قول الأشخاص المحيطين بالبطريرك، بعد حادثة «صلاة الأشرار»، أصيب البطريرك فعلاً بالذهول، ولم يره أحد سابقاً في مثل هذه الحالة.

ليس مستبعداً، أن البطريرك (اسمه الحقيقي - فلاديمير غوندياييف) قد شعر أيضاً بالإهانة من نص الأغنية، التي تم تصوير فيديو الكليب الخاص بها في المعبد. ويحوي نص الأغنية، على سبيل المثال، السطر التالي: «البطريرك غوندياي يؤمن ببوتين. كان من الأفضل لـ«القحب» أن يؤمن بالله».

هكذا بدأت الدعوة القضائية المديدة للمشاركات في فرقة «بوسي ريوت» الموسيقية التي جعلت منهن نجمات عالميات. يبدو، أنه لم يكن أحد يتوقع مثل هذا الصدى العالمي. استمرت المحاكمة نحو نصف عام - وانتهت بحكم قاس للغاية. لقد حُكم على الفتيات المشاركات في هذه الفرقة «الفاسدة» بالسجن لمدة عامين. وخلال هذه الفترة أصبحن نجمات عالميات لفن البوب. أما كبار الكهنة الكنسيون، مثل الأرشمندريت تيخون شيفكونوف، رئيس دير سريتنسكي، والذي كان يعد الأب الروحي لبوتين، فقد بدأوا الأحاديث حول أن هذا يثبت بوضوح، بأنه خلف فتيات «بوسي ريوت» ثمة موجهون للدمى يحيكون مؤامرة ضد السلطة الروسية. وقال الأرشمندريت تيخون: «أنا لست من أنصار نظريات المؤامرة، كما يحبون الحديث الآن. ولكني أعتقد، أنه بعد فترة من الزمن، سنرى كم كان التحضير خبيثاً، رهيباً، وخطيراً لهذه المسألة».

لقد أصبحت قضية فرقة «بوسي ريوت» الفضيحة الأكبر، لكنها ليست الفضيحة الوحيدة التي حدثت في تلك الفترة للكنيسة الروسية الأرثوذكسية ورئيسها البطريرك كيريل.

لسخرية القدر، في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه المسيرات والاجتماعات الحاشدة في ساحة بولوتنايا، في خريف عام 2011، بدأت محكمة موسكو النظر في قضية مرتبطة بشقة مؤلفة من خمسة غرف للبطريرك، واقعة في

البناء الشهير على ضفة النهر، وتشرف نوافذها على ساحة بولوتنايا وعلى الكرملين. في هذه الشقة (التي كانت قد أهدتها محافظة موسكو في الأعوام التسعينيات للبطريرك المقبل) كانت تعيش امرأة اسمها ليديا ميخائيلوفنا ليونوفا (وبحسب أقوال البطريرك، ابنة عمه). وكان جارهما يوري شيفشنكو، وزير الصحة السابق، وعلاوة على ذلك، الطبيب المعالج لزوجة بوتين لودميلا بوتينا. وقد تم إجراء إصلاحات في شقة شيفشنكو، وقاموا بتكسير نظام التهوية، وبسبب ذلك تغطت شقة البطريرك كلها بطبقة سميكة من الغبار. رفعت قريبة البطريرك دعوى على الوزير السابق إلى المحكمة وأصدرت المحكمة حكماً بتغريمه مبلغ 20 مليون روبل - من أجل تنظيف مكتبة البطريرك الفريدة من «ذرات الغبار».

وكي يتبرأ من الاتهامات، طلب البطريرك من مقدم البرامج الإذاعية والتلفزيونية البغيض فلاديمير سولوفيوف، بأن يروي على شاشة التلفزيون روايته عن محاكم الشقق. ولكن الوضع أصبح أسوأ - فبعد شفاعة سولوفيوف، تحولت القضية إلى فضيحة جدية - ومن بين ما رواه، ذكّر سولوفيوف الجمهور بفضيحة منسية - ففي إحدى الصور القديمة يظهر البطريرك كيريل يحمل ساعة من ماركة «بريجيت Breguet» باهظة الثمن. في حديثه مع سولوفيوف، كان البطريرك يؤكد أن هذه الصورة كانت ملصقة، مزورة، ومع أن لديه ساعة بريجيت، لكنها لا تزال في علبتها المختومة.

وبعد أسبوع ظهرت فضيحة أخرى. فقد اكتشف هواة الإنترنت على الصفحة الرسمية للبطريركية صورة لقاء البطريرك مع وزير العدل. في الصورة الأصلية يظهر البطريرك وبيده الساعة الثمينة، لكن الموظفة في المكتب الصحافي قررت، من باب الاحتياط، مسح الساعة من مرفق البطريرك كيريل عن طريق الفوتوشوب، لكنها لم تنتبه إلى أن الساعة الممسوحة بقي ظلها منعكساً على السطح اللامع للطاولة. واضطرت الكنيسة الروسية الأرثوذكسية إلى الاعتذار وإعادة الصورة الأصلية وتسريح الموظفة المهملة.

وتراكمت الفضائح واحدة إثر أخرى وتكاثرت، وانتشرت على شبكات التواصل الاجتماعي. وأقدمت الكنيسة على الهجوم المعاكس. بدأ المسؤولون الأوائل في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، ومن ثم البطريرك نفسه، يقولون إن ثمة هجوماً مخططاً يوجه ضدهم. قال الممثل الرسمي للكنيسة: «لقد وردتنا تحذيرات بأنهم سوف يعملون ضدنا»، وأكد قائلاً، تُثار حملة ضد البطريرك، وهناك من له مصلحة في هذه الحملة «ممن يوجد الآن في أروقة السلطة اليوم، وممن كان في هذه الأروقة سابقاً».

بالفعل، كل ما يجري كان شبيهاً إلى حد كبير بأفعال منسقة. والطريف بالأمر، أن الأحداث كانت تنتشر ليس فقط في وسائل الإعلام الجماهيرية الليبيرالية فحسب، بل وفي وسائل الإعلام التي تمولها إدارة الرئاسة. ومع استمرار حركات الاحتجاج، كانت تتطور وتكبر قضية فرقة «بوسي ريوت»، وكانت تنشر في الإنترنت صور ملصقة جديدة للبطريرك وهو يحمل ساعة بريجيت، وكان يبدو، وكأن مؤشر الرأي العام قد انتقل من الرئيس بوتين إلى البطريرك. بيد أن هذا سرعان ما أدى إلى انقسام المجتمع المدني المؤيد للتمرد.

والعجيب في الأمر، أن البطريرك، قبل الفضيحة، كان تقريباً يؤيد المحتجين والمتمردين. وقد قال في حديثه المتلفز في يوم عيد الميلاد: «إذا ما بقيت السلطة من دون أي إحساس تجاه التعبير عن حالات التمرد، فهذه علامة سيئة جداً، إنها علامة على عجز السلطة عن ضبط نفسها. على السلطة أن تضبط نفسها بحيث تتقبل الإشارات والرسائل من الخارج... وتعدِّل نهجها». ولكن بعد شهرين تغير خطاب البطريرك جذرياً.

في المحصلة ظهر انقسام في صفوف المتمردين. فشعار «من أجل انتخابات شريفة». جمع من حوله أعداداً كبيرة من الناس، بينما كان شعار «بوتين لص!» إشكالياً أكثر، لكن الخطاب المعادي للكنيسة أخذ يسبب النفور للقسم الأكبر من المتمردين. فالنضال ضد السلطة شيء، وهنا كان الرأي العام مجمعاً عليه، أما النضال ضد الكنيسة فهذا شيء آخر. وهنا لم يكن الجميع برأي واحد قاطع.

إن الحملة المعادية للكنيسة التي انتهت في الخريف لم تضعف موقع البطريرك كيريل والمؤسسة الكنسية، بل بالعكس - عززت من موقعه. ومن حيث الجوهر، ساعدت الكنيسة بوتين في تعبئة المجتمع، والتغلب على «احتجاجات بولوتنايا».

في شهر آب حُكم على المشاركات في فرقة «بوسي ريوت» بالسجن لمدة عامين. «صُفعن لسنتين» – هكذا علق فلاديمير بوتين على الحكم الجائر. لكنهن لم يمكثن في السجن سوى عام ونصف - ففي كانون أول/ديسمبر 2013 تم العفو عنهن بمناسبة الذكرى السنوية العشرين للدستور الروسي.

قول الراعي وفعله

تشكلت العلاقات الوثيقة بين الكنيسة والدولة في سنوات العهد السوفييتي الأخيرة. ففي أوائل التسعينيات (1990) عندما تم فتح أرشيف أمن الدولة «ك.ج.ب» نشرت لجنة مختصة مقتطفات من الوثائق الداخلية، يتضح من خلالها، أن غالبية كبار أصحاب المناصب في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية كانت مرتبطة بشكل أو بآخر بـ «ك.ج.ب». ومن بين العملاء المحتملين لـ «ك.ج.ب» ذكروا اسمي البطريرك ألكسي الثاني (باسم العميل «دروزدوف») وخليفته البطريرك كيريل (العميل «ميخائيلوف»). بيد أنه لم يعلق أحد من ممثلي الكنيسة الروسية الأرثوذكسية على هذه المعلومات.

لم يكن الرئيس يلتسين إنساناً أرثوذكسياً شديد التدين، وكان يعتبر واجبه القدوم إلى الكنيسة في الأعياد: في عيد الفصح وفي عيد الميلاد، وهكذا أرسى تقاليد مرحلة ما بعد الاتحاد السوفييتي الجديدة.

بينما كان المصرفي سيرغي بوغاتشوف، أحد أكثر المقربين إلى أسرة يلتسين من رجال الأعمال، مقرباً جداً من الكنيسة. فالبطريرك ألكسي الثاني كان يتواصل عن قرب معه، حتى أنه كان يرتبط بعرى الصداقة مع أسرة

بوغاتشوف. ولا يزال بوغاتشوف يحتفظ حتى الآن برسالة من البطريرك إلى الرئيس يلتسين يقترح فيها البطريرك على الرئيس اعتبار المصرفي بوغاتشوف وسيطاً في العلاقات بين الكنيسة الروسية الأرثوذكسية والدولة.

إن سيرغي بوغاتشوف بالذات هو الذي عرّف فلاديمير بوتين على المراتب الكنسية. فبعد أن انتقل بوتين إلى موسكو عام 1996 اقتاده بوغاتشوف للمرة الأولى إلى دير سريتنسكي، الواقع على مقربة من بناء جهاز الأمن الاتحادي في ساحة لوبيانكا. وفي عام 1998 ترأس بوتين جهاز الأمن الاتحادي وأخذ يتردد أكثر إلى الدير.

وسرعان ما اكتسب دير سريتنسكي أهمية خاصة لممثلي السلطة، وبخاصة لقادة الأجهزة الأمنية. وكان هذا الدير منذ السنوات التسعينيات قد أصبح «أبرشية للأمنيين الأقوياء»، ومع بداية الألفية الثانية أصبح مكان اجتماع لجميع المسؤولين الأوائل تقريباً في الدولة. وأصبح جميع المحيطين ببوتين من الزوار الدائمين المنتظمين للدير. أما رئيس الدير تيخون شيفكونوف فأخذوا يدعونه بالأب الروحي لبوتين، وأحد أبرز القادة الكنسيين الروس المُؤثِّرين، المتواصلين بصورة وثيقة بالأجهزة الأمنية، وبالدرجة الأولى بنيقولاي باتروشيف رئيس جهاز الأمن الاتحادي. وكان هناك زعيم ديني في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية أكثر نفوذاً وشعبية هو المطران كيريل - رئيس قسم العلاقات الكنسية الخارجية، أي وزير خارجية الكنيسة الروسية الأرثوذكسية.

وبحسب أقوال بوغاتشوف، فإن البطريرك ألكسي لم يسع خلال ذلك للاقتراب من بوتين، فهو لم يكن يحب «الأمنيين»، ولم يرغب في أن تكون له أية علاقة بهم. بيد أن كهنة كنسيين آخرين كثيرين كانوا يتصرفون بطريقة أخرى، ويظهرون نشاطاً خاصاً كي يثبتوا للدولة أهميتهم وحاجتها إليهم.

يؤكد بوغاتشوف، أن حماس بوتين للكنيسة كان عقلانياً للغاية: فالأرثوذكسية

بدت للرئيس فكرة قومية مثالية، تجمع الشعب يشكل أفضل من أية أحزاب سياسية. فبحسب الاستطلاعات، 80% من الروس لا يفقهون شيئاً في الأرثوذكسية ولم يقرؤوا الكتاب المقدس والكتب الدينية الأخرى، لكنهم يعتبرون أنفسهم أرثوذكسيين.

منذ فترة رئاسته الأولى، بدأ بوتين يشارك بنشاط أكبر في السياسة الكنسية. ففي عام 2003 وفي أثناء زيارته لنيويورك أخذ زمام المبادرة في إجراء مباحثات الكنيسة الروسية الأرثوذكسية والكنيسة الروسية في الخارج التي انفصلت عنها عام 1917. وكان أحد ملهمي هذه المباحثات تيخون شيفكونوف الذي رافق الرئيس في زيارته. وفي عام 2007، وقبل عام من انتهاء فترة رئاسته الثانية، اختتمت المباحثات بتوحيد الكنيستين: وقد نظمت إدارة الرئيس العملية بصورة مباشرة، لأن بوتين كان يرى أنه على هذا النحو قد أدخل اسمه في التاريخ.

وقبل بضعة أشهر من انتهاء فترة رئاسة بوتين الثانية عرضت القناة التلفزيونية الحكومية (التي تدعى اليوم «روسيا 1») فيلماً بعنوان «سقوط الإمبراطورية: درس بيزنطة». صوّر الفيلم رئيس دير سريتنسكي تيخون شيفكونوف. تم تنفيذ الفيلم كنوع من بيان معاد للغرب. وفيه يحذر الأب الروحي لمدير جهاز الأمن الاتحادي نيقولاي باتروشيف (وربما الأب الروحي للرئيس أيضاً) مشاهدي التلفزيون والسلطة من الولع الشديد بالإصلاحات والتقارب من الغرب. والصورة المشوهة جداً من قبل المؤلف لبيزنطة (والمقصود بها روسيا) تبدو كما يلي: إمبراطورية عظيمة وغنية سقطت لأن الغرب حاك مؤامراته ضدها، وسرق الأوليغارشيون البيزنطيون ثرواتها الوطنية ونقلوها إلى الغرب، وأصبح الجيش بعد الإصلاح والتغيير ضعيفاً، ونشأ داخل بيزنطة نفسها أنصار للغرب الذين أغراهم بروح الرذيلة والنزعة الاستهلاكية والنزعة الفردية. لقد كان هذا عرضاً للمؤامرة التقليدية التي يفضلها الأمنيون الأقوياء، بمن فيهم باتروشيف.

بدأ الموقف يتغير في عام 2008 بعد موت البطريرك ألكسي. انتُخب المطران كيريل (فلاديمير غونديايف) خليفة له، من خلال انتخابات هي غالباً الأكثر ديمقراطية وحرية جرت في روسيا في القرن الحادي والعشرين.

وعلى الرغم من أن البطريرك كيريل كان يعدّ مفضلاً، ويشغل عملياً منصب خليفة البطريرك السابق ألكسي الثاني، فإن الحملة الانتخابية كانت فاضحة بصورة نادرة. فقد استخرج أعداؤه أدلة قديمة للتشهير به والمساومة: وكأنه في التسعينيات، استغل امتيازاته الضريبية الكنسية وأدخل إلى روسيا سجائر ومشروبات كحولية مهربة. بينما إدارة الرئاسة (التي كان يرأسها فلاديسلاف سوركوف) على العكس، كانت تؤيد بنشاط البطريرك كيريل، وتنشر في وسائل الإعلام الجماهيرية ذات النفوذ أدلة للتشهير بمنافسه.

وقبل انتخابه بطريركاً، كان كيريل يعدّ ليبيرالياً وميّالاً للغرب - مفكراً تقدمياً واسع الثقافة. بيد أن انتخابه تزامن مع ازدياد قوة النزعة المحافظة الأرثوذكسية. وكانت تأتي المبادرة في غرس «المشابك الروحية»، غالباً، من إدارة الرئاسة أو القادة المدنيين الآخرين، لكن الكنيسة لم يكن في إمكانها رفض مثل هذه «الهدية».

كان كيريل منذ فترة طويلة مندمجاً بصورة جيدة مع نخبة الموظفين والمسؤولين الرسميين، وعلاوة على ذلك، وكما يعبرون في إدارة الرئاسة، «كان يبدي نشاطاً خفياً»، أي يعبر عن استعداده لمساعدة الكرملين في تحقيق أهدافه السياسية. والآن أصبحت الأرثوذكسية، عملياً، أيديولوجية حكومية رسمية، ولُحمة للربط بين ناخبي بوتين.

كان البطريرك كيريل من الهواة القدامى للتزلج على الجليد في الجبال - فأخذ يتزلج كثيراً مع بوتين وميدفيديف في سوتشي، في منتجع الرئيس الشخصي:لونآيا بوليانا - مرج القمر». ولكن، والحق يقال، كان يتزلج أكثر في سويسرا.

في أثناء فترة رئاسة بوتين الثالثة حاز البطريرك كيريل على نفوذ سياسي لا سابق له. وأصبحت لديه إمكانية الدخول إلى مكتب بوتين في أي لحظة، وأصبح في إمكانه تعيين أصحابه في مناصب رفيعة في المجالات المختلفة. وعلى سبيل المثال، في عام 2015، بناء على طلبه، سرّح وزير الثقافة مدير مسرح الأوبرا والبالية في نوفوسيبيرسك، حيث تم عرض نسخة تجديفية من أوبرا فاغنر «دار التنوّب Tannhauser»، وعُيِّن مكانه الشخص الذي طلب تعيينه البطريرك بالذات.

تبديل الرعية

في كانون ثاني/يناير 2012، قبل فترة قصيرة من بداية الفضائح حول البطريرك، وصلت رسالة إلى رئيس الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. كتب الرسالة بوريس بيريزوفسكي، المقيم منذ فترة طويلة في لندن. لم تكن تربطهما معرفة جيدة عن قرب - باستثناء أن كيريل قام بتعميد بيريزوفسكي اليهودي في السنوات التسعينيات، ولهذا فإن مناشدته للبطريرك من منفاه في لندن كانت مفهومة جزئياً. على أية حال، لم يخضع مغزى رسالته لأي منطق. وقد جاء في رسالته: «ساعد بوتين على أن يصحو، أَوصلْ إليه صوت الشعب. وعندما يصغي إليك بوتين، خذ السلطة من يده وسلمها للشعب بسلام وحكمة، وعلى الطريقة المسيحية». وعلقت الإدارة الصحافية للكنيسة الروسية الأرثوذكسية بأن هذه رسالة علاقات عامة، غريبة من مهاجر سياسي، وأعلنت أن البطريرك لن يرد على رسالة بيريزوفسكي.

كان الأوليغارشي السابق في تلك الفترة قد انفصل نهائياً تقريباً عن الواقع السياسي الروسي. في عام 2010 شارك بيريزوفسكي في اجتماع حاشد في لندن حاملاً ملصقاً «أنا ولدتُك وأنا أقضي عليك» (وكأنه نداء من روسيا إلى بوتين). ومع الشعور بالواقع، فَقَد بيريزوفسكي القسم الأكبر من ثروته وأملاكه. ففي عام 2008 توفي شريكه في في الأعمال بدري باتراكاتسيشفيلي، وتبين أن جميع ممتلكاتهما كانت مسجلة على اسم المتوفى وبعد وفاته انتقلت إلى

في أثناء فترة رئاسة بوتين الثالثة حاز البطريرك كيريل على نفوذ سياسي لا سابق له. وأصبحت لديه إمكانية الدخول إلى مكتب بوتين في أي لحظة، وأصبح في إمكانه تعيين أصحابه في مناصب رفيعة في المجالات المختلفة. وعلى سبيل المثال، في عام 2015، بناء على طلبه، سرّح وزير الثقافة مدير مسرح الأوبرا والبالية في نوفوسيبيرسك، حيث تم عرض نسخة تجديفية من أوبرا فاغنر «دار التنوّب Tannhauser»، وعُيِّن مكانه الشخص الذي طلب تعيينه البطريرك بالذات.

تبديل الرعية

في كانون ثاني/يناير 2012، قبل فترة قصيرة من بداية الفضائح حول البطريرك، وصلت رسالة إلى رئيس الكنيسة الروسية الأرثوذكسية. كتب الرسالة بوريس بيريزوفسكي، المقيم منذ فترة طويلة في لندن. لم تكن تربطهما معرفة جيدة عن قرب - باستثناء أن كيريل قام بتعميد بيريزوفسكي اليهودي في السنوات التسعينيات، ولهذا فإن مناشدته للبطريرك من منفاه في لندن كانت مفهومة جزئياً. على أية حال، لم يخضع مغزى رسالته لأي منطق. وقد جاء في رسالته: «ساعد بوتين على أن يصحو، أَوصلْ إليه صوت الشعب. وعندما يصغي إليك بوتين، خذ السلطة من يده وسلمها للشعب بسلام وحكمة، وعلى الطريقة المسيحية». وعلقت الإدارة الصحافية للكنيسة الروسية الأرثوذكسية بأن هذه رسالة علاقات عامة، غريبة من مهاجر سياسي، وأعلنت أن البطريرك لن يرد على رسالة بيريزوفسكي.

كان الأوليغارشي السابق في تلك الفترة قد انفصل نهائياً تقريباً عن الواقع السياسي الروسي. في عام 2010 شارك بيريزوفسكي في اجتماع حاشد في لندن حاملاً ملصقاً «أنا ولدتُك وأنا أقضي عليك» (وكأنه نداء من روسيا إلى بوتين). ومع الشعور بالواقع، فَقَد بيريزوفسكي القسم الأكبر من ثروته وأملاكه. ففي عام 2008 توفي شريكه في في الأعمال بدري باتراكاتسيشفيلي، وتبين أن جميع ممتلكاتهما كانت مسجلة على اسم المتوفى وبعد وفاته انتقلت إلى

أسرته. حاول بيريزوفسكي عن طريق المحكمة الحصول على نصف ثروة بدري المقدرة بـ 11 مليار، ولكن لم ينجح في ذلك.

في أواخر عام 2011 بدأت أهم دعوى قضائية عند بيريزوفسكي. وكان في عام 2007 قد رفع دعوى في محكمة لندن ضد شريكه السابق رومان أبراموفيتش، لكن النظر في هذه الدعوى بدأ في عام 2011. لقد تذكر بيريزوفسكي كيف قام بتنظيم خصخصة شركة «سيبنفط Сибнефт» في مزاد الرهن العقاري، واقتنى كذلك عدة ممتلكات لشركات التعدين، التي اندمجت فيما بعد بشركة «روسال РУСАЛ»، كان يؤكد بيريزوفسكي أنه يعتبر شريكاً في جميع هذه الممتلكات. حتى أن أبراموفيتش، حسب أقواله، كان يدفع له أرباحاً حتى تلك اللحظة عندما سافر بيريزوفسكي فيها إلى لندن عام 2003. وبعد فترة قصيرة، دفع له أبراموفيتش 1,3 مليار دولار مقابل 43% من أسهمه في «سيبنفط» - وهو برأي بيريزوفسكي أقل بكثير من المبلغ المطلوب. وكان يطالب بتعويض بحدود 5,5 مليار دولار. وقد أجاب أبراموفيتش أن بيريزوفسكي لم يكن أبداً شريكاً في الشركة، بل كان يحصل على المال بصفته «مظلة سياسية».

وقد أدلى بالشهادة في أثناء المحاكمة كل من ألكسندر فولوشين وأوليغ ديريباسكا. كان بيريزوفسكي معصّباً وخائفاً من الشهادتين، أما أبراموفيتش فقد كان هادئاً ومتحذلقاً. وبالمحصلة، توصلت القاضية إيليزابيت غلوسترفي صيف عام 2012 إلى نتيجة مفادها، أن بيريزوفسكي» ليس معبِّراً من حيث الأصل، وهو شاهد لا يوحي بالثقة، يفهم الحقيقة على أنها مفهوم متبدل مرن، يمكن أن يتكيف لتلبية حاجاته الآنية. وكانت شهاداته أحياناً غير صادقة بصورة مقصودة، وأحياناً أخرى كان يلفق إثباتات عندما كانت تصعب عليه الإجابة عن الأسئلة من أجل إدارة القضية، وفي حالات أخرى، تشكلّ لدي انطباع أنه ليس بالضرورة كان غير صادق عن قصد، لكنه أقنع نفسه بأن روايته للأحداث صحيحة».

يقول ميخائيل خودوركوفسكي، إنه ليست لديه أية شكوك، في أن

بيريزوفسكي كان شريك أبراموفيتش. ويروي خودوركوفسكي قائلاً: «يمكنني الشهادة في أية لحظة، أنهما كانا شريكين، وعلاوة على ذلك، أن بوريس بيريزوفسكي نفسه دعا رومان أبراموفيتش منذ عام 1998 عندما بدأت المباحثات الأولى حول اندماج شركتي «يوكوس ЮКОС» و«سيبنفط»، وقد تحادثا معي كشريكين. لم يجر الحديث حول أية «مظلة» – كانا مالكين شريكين 50% مقابل 50%». بيد أنه لم يكن في استطاعته الإدلاء بشهادته، لأنه كان في هذه الفترة معتقلاً في السجن.

لقد خسر بيريزوفسكي الدعوى، وخسر تكاليفها ومصروفاتها القانونية التي بلغت نحو 100 مليون جنيه استرليني. وبعد انتهاء الدعوى، حسب شهادة أصدقائه، أصيب بحالة شديدة من الاكتئاب وحزن كثيراً لعدم إمكانية عودته إلى موسكو. حتى أنه كتب رسالتين لبوتين، طلب فيهما السماح له بالعودة إلى روسيا. وقد سلم إحدى هاتين الرسالتين لرومان أبراموفيتش (اعترف بوتين على الملأ أن أبراموفيتش سلمه الرسالة في شباط/فبراير 2013)، والرسالة الثانية أرسلها لبوتين عن طريق رجل الأعمال الألماني كلاوس مانغولد. وفي آذار/مارس 2013 تم العثور على جثة بيريزوفسكي في غرفة الحمام في بيت زوجته السابقة. ويثق كثير من أصدقائه بأنه قد أقدم على الانتحار.

في الأشهر الأخيرة من حياته، التقى بيريزوفسكي عدة مرات بلاجئ سياسي آخر من روسيا، كان يعدُّ نفسه أيضاً «عرّاب» الرئيس بوتين. وهو سيرغي بوغاتشوف، صديق بوتين الأقرب السابق، الذي كان يعتبر في بداية الألفية الثالثة «المصرفي الأرثوذكسي» الأقوى، وفي عام 2012 انتقل للعيش في لندن. أما في عام 2013 فقد رُفعت ضده دعوى جنائية وصدرت بحقه مذكرة بحث دولية في الإنتربول.

وبحسب رأي بوغاتشوف، فإن جميع ممتلكاته الروسية - بما فيها أحواض بناء السفن، ومنجم استخراج الفحم في توفا، ومشروع التطوير العقاري في الساحة الحمراء التي تقدر كلها بمبلغ إجمالي نحو 30 مليار دولار - قد صادرتها

الدولة. وبحسب رواية الأجهزة الأمنية الروسية، فإن البنك الذي يشرف عليه بوغاتشوف قد وزع قروضاً لأشخاص وهميين وأخرج إلى خارج روسيا نحو 68,5 مليار روبل. فمن الذي سرق الآخر، يبدو أن القضاء الفرنسي هو الذي سيقرر. خطط بوغاتشوف في البداية مجابهة روسيا في القضاء البريطاني، بيد أنه خسر دعوى قضائية ضد الوكالة الروسية للتأمين على الودائع، بعد ذلك رفع دعوى إلى جهاز الأمن البريطاني سكوتلايارد، بأن هناك من يريد قتله ويشعر بأن هناك من يراقبه على طريقة ك.ج.ب، وانتقل بسرعة إلى فرنسا، باعتباره يحمل الجنسية الفرنسية.

لقد أصبحت وصمة عار بوغاتشوف سمة خاصة من سمات العصر. وبالاختلاف عن بيريزوفسكي وغوسينسكي وخودوركوفسكي، لم يبد بوغاتشوف أبداً أية طموحات سياسية شخصية، ولم يجابه السلطة علناً - على الأقل إلى أن رُفعت ضده قضية جنائية. بل على العكس، كان عضواً في الحلقة المقربة من فلاديمير بوتين.

ولكن بحلول نهاية عام 2000، تجددت هذه الحلقة المقربة. وابتعد فلاديمير بوتين عن أولئك الأشخاص الذين كانوا قد تصادقوا معه قبل توليه الرئاسة أو في أثناء فترة الرئاسة الأولى، وأحاط نفسه بأصدقاء الشباب. مثل أركادي روتنبرغ، الذي كان يتدرب معه في فترة الطفولة في قسم الجودو. في السنوات التسعينيات كان روتنبرغ يعمل مدرباً للأطفال في الجودو، بيد أنه في الألفية الثانية حقق قفزة بسرعة البرق في القطاع الاقتصادي - فقد أصبح «ملك طلبات الدولة وعروضها» ومن أكثر رجال الأعمال نفوذاً في روسيا. ومن الأمثلة الأخرى - فلاديمير ياكونين ويوري كوفالتشوك، صديقا بوتين من منتصف التسعينيات، أسسا معه تعاونية المساكن الريفية «البحيرة». وقد أصبح يوري كوفالتشوك في الألفية الثانية المالك الروسي الرئيس لوسائل الإعلام: فقد تركزت بين يديه وتحت إشرافه أكبر القنوات التلفزيونية الخاصة (القناة الأولى، ن.ت.ف، القناة الخامسة، ت.ن.ت THT) وكذلك صحيفة

«الإزفستيا». وكان فلاديمير ياكونين يرأس الاحتكار الحكومي للسكك الحديدية.

بهذا الصدد، تبين أن ياكونين أرثوذكسي نشيط أكثر من بوغاتشوف. فقد تقرب أيضاً من تيخون شيفكونوف وتصادق معه. وأخذ يُحضر معه بصورة منتظمة إلى كاتدرائية المسيح المخلص آثار مقدسة مسيحية (مثل «زنار السيدة مريم»)، كان الزوار يصطفون لرؤيتها في طوابير طويلة تقدر بالكيلومترات. وبالاشتراك مع محافظ بطرسبورغ الجديد غيورغي بولتافشنكو (أيضاً من الأجهزة الأمنية سابقاً) أرسى تقليداً جديداً هو الحج بصورة دورية منتظمة إلى جبل آثوس في اليونان، وكذلك إلى دير جزيرة فالآم في بحيرة لادوغا.

الفصل الخامس عشر: منظِّر الكرملين - فياتشيسلاف فولودين يخترع فكرة قومية جديدة

«لا حاجة إلى أن تفرضوا عليّ برنامجكم». يقول فياتشيسلاف فولودين عندما يطرحون عليه أسئلة لا تروق له. ولكن مثل هذه الأسئلة لم يعودوا يطرحونها عليه منذ بضعة سنوات. لدى فياتشيسلاف فولودين برنامج لا تشوبه شائبة - إن فولودين يعتمد في كل شيء على رأي الشعب. إنه يحب استطلاعات الرأي السوسيولوجية كثيراً، وينظر إليها كما ينظر إلى كرة صافية من الكريستال، ويرى فيها المستقبل.

علاوة على ذلك، فولودين يعرف جيداً النظام السياسي للولايات المتحدة الأمريكية ويمكنه دوماً نقل الحديث إلى المشكلات الأمريكية. وكأن الوضع عندنا بخير - فالوضع في أمريكا أسوأ بكثير.

يقال عنه إنه هادف جداً وعازم، ولا يفعل أبداً أي شيء يمكن أن يسيء إلى منصبه السياسي. ففي السنوات الأخيرة، مثلاً، توقف عن الحديث مع الصحافيين، وحتى إذا ما تحدث معهم فيرجوهم أن لا يلزموه بجدول أعمالهم

وبرنامجهم.

يروى عنه أنه حقود جداً - وكأن لديه مذكرة يسجل فيها قائمة بالأعمال التي عليه القيام بها، وقائمة بالأعداء الذين عليه القضاء عليهم.

إنه يعدّ نفسه رجل الفعل والعمل، وعلاوة على ذلك، فهو مقتنع بصدق بأنه لا أحد يعرف مثله ماذا يريد الناس، ولا أحد مثله يصغي إلى آرائهم. وهو على الغالب، يعتبر نفسه صادقاً بأنه ديمقراطي حقيقي - فاستطلاعات الرأي المغلقة تعطيه إمكانية معرفة إرادة الشعب الحقيقية بدقة.

علاوة على ذلك، يسمح فولودين لنفسه أحياناً بالشك علناً: فقد يكون نهجه السياسي الداخلي غير صحيح؟ وقد لا يكون أحد في حاجة إليه، بل وقد يكون ضاراً بالآخرين؟ لكن هذه الفكرة لا يطورها. فهذه ليس من برنامجه، ولا من جدول أعماله.

رد غير متماثل

في كانون أول/ديسمبر 2012 جمع نائب رئيس إدارة الكرملين فياتشيسلاف فولودين في مكتبه جميع قادة مجلس الدولة: الناطق بلسان المجلس سيرغي ناريشكين (الذي كان يرأس منذ فترة قريبة إدارة الكرملين) وزعماء جميع الأحزاب الأربعة. كان هدف اللقاء «قانون ماغنيتسكي»، القانون الذي أقره الكونغرس الأمريكي، الذي يقضي بفرض عقوبات شخصية على عدد من المسؤولين الحكوميين الروس، المسؤولين شخصياً، برأي وزارة الخارجية الأمريكية، عن خرق حقوق الإنسان. لم يُقرّ القانون فترة طويلة - وأخيراً صوتوا لإقراره واعتماده في أوائل كانون أول/ديسمبر 2012، إثر إعادة انتخاب باراك اوباما لفترة رئاسية جديدة. والآن، على البرلمان الروسي الرد على هذا القرار. في البداية، قرأ فياتشيسلاف فولودين على زملائه محاضرة نارية حول ازدواجية معايير الأمريكان، وكيف أنهم هم بأنفسهم يخرقون حقوق الإنسان في جميع أنحاء العالم، ولهذا ليس لديهم أي حق معنوي لتوجيه اللوم لأحد.

الذين حضروا إلى الكرملين لم يكونوا مستجدّين في السياسة - فهم ألقوا غير مرة مثل هذه الخطب والمحاضرات. ولهذا فقد أصغوا إلى هجمات فولودين باستغراب: هل جمعهم ليلقي عليهم موعظة؟

في الواقع، كان هذا القانون يمكن أن يكون مميتاً للعلاقات الروسية - الأمريكية. ولكن، ومن أجل عدم قتل هذه العلاقات بصورة نهائية، خصَت إدارة أوباما في المحصلة هذا القانون وجرّدته من التفاصيل المحددة. ولكن هذا لم يقدم أية فائدة: فردة فعل روسيا كانت أقوى مما كان يمكن أن تتوقعه واشنطن. كان البيت الأبيض يظن أن الكرملين سيقدر التخفيف للعقوبات الذي أقدم عليه باراك أوباما. لكن «الكردينال الرمادي» الجديد في الكرملين فياتشيسلاف فولودين سيطر عليه الغضب الشديد.

إن الأيديولوجيا التي صنعها تنص على أنه لا يصح أبداً تقديم أية تنازلات للغرب. وسعى لكي يحوز على إعجاب بوتين، مبيناً له كيف يكون قوياً ومحبوباً في أوساط الشعب، من دون أن يغازل الإنتليجينتسيا. وكانت تعني هذه المقاربة أنه يجب الرد على «قانون ماغنيتسكي» الأمريكي رداً قوياً وغير متماثل.

على أية حال، كان يزيد من صعوبة الموقف جانب جزئي إداري - لم يكن في استطاعة فولودين الحصول على تعليمات من فلاديمير بوتين. فهو لم يظهر في الكرملين منذ أكثر من شهر. فالرئيس الذي لا يمكن تقرير أي أمر من دون إشارة منه، قد مرض، ولم يجرؤ أحد على السؤال عنه أو إزعاجه.

ولهذا بالذات، عند وضعه لخطة الرد على «قانون ماغنيتسكي»، قرر فولودين، احتياطاً لكل طارئ، رفع المسؤولية عن كاهله، وجعلها مسؤولية جماعية. لقد كانت شبيهة بالجريمة التي وصفتها آغاتا كريستي في كتابها «جريمة قتل في قطار الشرق السريع»: كي لا يعرف من هو القاتل بالذات، يُقدم كل من المتواطئين الاثني عشرة على توجيه ضربة بالسكين إلى ظهر الضحية.

لم يتناقش زعماء أحزاب مجلس الدوما، ووافقوا على أن الرد الروسي على «قانون ماغنيتسكي» يجب أن يكون إشارة تضامنية من مجلس الدوما كله. وسيدعى زعماء الأحزاب مؤلفين مشاركين، ومن ثم فيما بعد سيضع بقية النواب العاديون تواقيعهم. ولكن، لم يسبق أبداً في تاريخ روسيا أن عُرض قانون بهذه الموارد البرلمانية القوية وبهذا الإجماع البرلماني.

كانت الصيغة الأولى للقانون تتضمن أشياء عامة: حظر الدخول من دون تأشيرات وحظر العمل على الأمريكيين في المنظمات غير الحكومية الروسية. ولكن وقبل القراءة الثانية، أضاف فولودين إلى القانون تعديلاً آخر: حظر تبني الأمريكيين للأطفال الروس. فقد تذكر، أن بوتين عبر عن رأيه بصورة سلبية، في أوساط المقربين، وقال بأنهم ينقلون الأطفال الروس إلى الخارج، حتى أنه دعا ذلك بـ«بيع الأطفال».

من يقود البلاد

انعدام الاتصالات مع بوتين سبب إحراجاً خطيراً ليس لفولودين وحده. حيث لم يره ولم يجتمع به الوزراء، وكبار رجال الأعمال، وحتى أصدقاؤه القدامى المقرّبون. ماتياس فارنيغ، الأجنبي الأقرب إلى الرئيس الروسي، حاول عدة مرات ركوب الطائرة إلى بيته في ألمانيا على عيد الميلاد. وحضر عدة مرات إلى المطار، وفي كل مرة، كان يحصل معه الشيء نفسه - كان يرنّ هاتفه الجوال ويخاطبه شخص مجهول بصوت مُلحّ ومهذب: «يرجى من السيد فارنيغ عدم السفر». فكان يدير فارنيغ سيارته إلى الوراء، ويعود أدراجه إلى موسكو، ويذهب إلى قاعة استقبال الرئيس وينتظر عدة ساعات، من دون أن يظهر بوتين.

من حيث عدد المناصب والصلاحيات، كان فارنيغ، على الأغلب، أكثر نفوذاً من رئيس الوزراء الروسي. فهذا الألماني، المولود في جمهورية ألمانيا الديمقراطية، شغل في آن واحد، بطريقة غير مفهومة، مناصب قيادية في

جميع كبريات الشركات الروسية عملياً، سواء أكانت خاصة أم حكومية. كان عضواً في مجلس إدارة شركة «روسال РУСАЛ» أكبر شركة تعدين في العالم. وكان يرأس مجلس إدارة شركة خط أنابيب النفط الحكومية الروسية الاحتكارية «ترانس نفط Транснефт». وكان فارنيغ عضواً في مجلسي المراقبة في أهم مصرفين روسيين حكوميين: بنك التجارة الخارجية الحكومي و«بنك روسيا» الخاص. كما كان عضواً في مجلس إدارة شركة «روس نفط Роснефт» أكبر شركة نفط حكومية روسية، وأخيراً، كان يعتبر المدير الأهم لشركة «غازبروم Газпром»– ومسؤولاً عن الممثلية الأوروبية للشركة، وترأس فرعها الأوروبي.

ليس هناك أي مواطن روسي يملك مثل هذا العدد من المناصب المهمة المفتاحية مثله. ومع هذا كله، لم يبق أمام فارنيغ سوى الجلوس باستكانة وامتثال على الكنبة الجلدية في قاعة الاستقبال في الكرملين لساعات، وتأمُّل الأرضية والجدران، ووجوه ضباط جهاز الحماية الاتحادي. كان يدرك أن الضباط أنفسهم لا يعرفون أين بوتين، ولماذا لا يستطيع استقبال حتى رفاقه المقرّبين إليه. ولكن، وبما أن الفضل في كل جبروت فارنيغ وقوته ومناصبه تعود إلى بوتين شخصياً - فقد عُيّن في جميع مجالس المديرين بصورة استثنائية، كأجنبي، ذي صلة مباشرة بالرئيس - فكان يصبر، من دون أن يخطر في باله حتى أن يكز على أسنانه.

كل من كان في الكرملين في تلك الأيام الغريبة، كان يخطر في ذهنه السؤال التالي: من يقود الدولة الروسية؟ خلال 12 عاماً من الحكم، استطاع بوتين إقامة نظام تكون فيه كلمته بالذات هي الحاسمة والمقررة في كثير من المسائل. فكيف تُقرّر هذه المسائل الآن، حيث لا ترد من بوتين أية أوامر؟ تعلم المرؤوسون بالطبع، تخمين أفكار رئيسهم، ومتابعة تفكيره، واستقراء أفكاره. لكن غياب بوتين الآن قد طال كثيراً. فمن كان يحل محله؟ وهل كان هناك من يحل محله، أم ببساطة، لم يعمل أحد شيئاً وكانوا ينتظرون عودة معلمهم؟

هل كان سكرتيره الصحافي دميتري بسكوف موكّلاً عنه؟ فقد كان يتابع إصدار التعليقات والتصريحات باسم بوتين حتى في فترة غيابه. على الأغلب، لا، لأنه، كما يبدو من شكل بسكوف، كانت لديه مشكلة كبيرة: فهو لا يدرك كيف سوف ينظم تواصل بوتين السنوي التقليدي مع مشاهدي التلفزيون - وهل سيتم هذا التواصل هذا العام أم لا. كان الرئيس في كل خريف أو بداية الشتاء يجري لقاءً تقليدياً مباشراً لعدة ساعات مع المشاهدين على الهواء مباشرة. وكان بسكوف قد أخبر الصحافيين في شهر تشرين أول/أكتوبر، أنه لن يكون هناك بث مباشر، مدعياً بأن المكتب الصحافي قرر عدم تعريض الناس للبرد القارس، حيث كان الناس عادة يخرجون من قرى بكاملها إلى الكاميرات التلفزيونية، من أجل طرح الأسئلة على الرئيس، وتقرر إرجاء البث المباشر إلى وقت دافئ من أوقات السنة. ولكن بسكوف لم يكن في استطاعته ترك المشاهدين من دون نداء الرئيس في رأس السنة. وقد أصبح رأس السنة على الأبواب.

هل كان في إمكان رئيس إدارة الكرملين سيرغي إيفانوف أن يكون حاكم روسيا الخفي؟ لقد كان مفهوماً للعاملين العاديين في الإدارة، أن سيرغي إيفانوف يبذل جميع جهوده كي لا يقود أي شيء. فالجميع يذكر كيف لم يستطع سيرغي إيفانوف أن يصبح خليفة في عام 2007، لأنه وثق بهذا قبل الأوان بوقت طويل. وتلك الهزيمة أصبحت بالنسبة إليه ضربة من أشد الضربات، ولكن بعد أربع سنوات، ظهر سيرغي إيفانوف فجأة من جديد في قمة هرم الدولة. وبحكم الواقع - الشخص الأول في الدولة. ولكنه لم يستطع أن يفعل أي شيء. لم يستطع إرغام نفسه على فعل شيء - لأنه كان يخشى، أن يكون هذا مجرد اختبار. لأنه كان يفكر في نفسه، بأن قراراً واحداً خاطئاً يتخذه - ويُسمع صرير الباب لطرده، ويظهر بوتين فجأة. ولهذا عليه بالصبر. عليه ألا يرتكب أي خطأ.

بقي أخيراً منظر الكرملين فياتشيسلاف فولودين. إنه منذ عام واحد فقط حل في منصب كاردينال الكرملين الرمادي محل فلاديسلاف سوركوف. لم يكن

فولودين من معارف بوتين القدماء - كان مجرد مدير أعمال مستأجر، عُرض عليه وضع مخطط فاعل جديد بدل المخطط القديم الذي لم يعد صالحاً.

كان هناك أيضاً، بالطبع، رئيس الوزراء دميتري ميدفيديف، وكان في إمكانه إدارة البلاد في غياب الرئيس - وهذا ما كان عليه فعله من حيث المنصب الذي يشغله. لكن الموظفين المسؤولين المحرجين لم يقصدوه أبداً من أجل تقرير المسائل الملحة. فبعد استقالته من منصب الرئيس انهارت سمعته كثيراً لدرجة أنه لم يعد يُعتبر تقريباً مركز قوة.

ينتج إذاً، أن البلاد طيلة شهرين لم يقدها أحد. حتى أن المواطنين العاديين لم يخمِّنوا هذا الأمر. ولم تنشر وسائل الإعلام الجماهيرية الروسية شيئاً عن هذا الأمر. ولم تخطر مثل هذه الأفكار حتى في أذهان الزعماء الأجانب الذين كشفوا للعالم الستار عن صحة بوتين. وقد اعترف رئيس الوزراء الياباني إسخيكو نودا قائلاً: «بسبب الحالة الصحية المتوعكة لرئيس الاتحاد الروسي فلاديمير بوتين، اضطررت مؤقتاً إلى تأجيل زيارتي إلى موسكو». ولكن هل كان في إمكان رئيس الوزراء الياباني أن يتصور، في الواقع، حقيقة أن رئيس روسيا مريض؟

أفشى الرئيس البيلاروسي ألكسندر لوكاشينكو سر زميله قائلاً: «لقد حدثت له إصابة في عموده الفقري في أثناء التدريب على الجودو». لكن لوكاشينكو، المولع بمراقبة كل شيء، والذي اعتاد على الإمساك بجميع الخيوط بين يديه، لم يستطع أبداً أن يتصور، أن بوتين فقد الاهتمام بإدارة البلاد. وأن النخبة السياسية الروسية كلها مرتبكة لأبعد الحدود.

تذكر الجميع أن بوتين، هاوي الحيوانات والرياضات الخطرة، قد حلّق مع الغرانيق البيضاء: فخلف عجلة قيادة دراجة ثلاثية العجلات، ذات جناحين، علّم الطيران لفراخ الطيور التي كبرت في الحاضنة، والتي كان عليها أن تعترف به قائداً للسرب.

على أية حال، في الدائرة المحيطة بالرئيس كانوا يؤكدون، شفاهاً، أن الإصابة حلت ببوتين قبل التحليق - وبالذات على السجادة في أثناء تدريب غير موفق على الجودو.

بعد التحليق مع الغرانيق السيبيرية مباشرة، توجه بوتين إلى لقاء قمة أبيك في (منظمة التعاون الاقتصادي لمنطقة آسيا والمحيط الهادي) APEC فلاديفوستوك، وكان هناك يعرج بشدة على قدمه. وبعد مؤتمر القمة اختفى بوتين. وتم إلغاء جميع زياراته الخارجية في ذلك الخريف.

ثورة الأطفال

إن غياب بوتين، مهما بدا هذا غريباً، لم يحدث أي صدى في المجتمع الروسي. والسلطة لم تعلق أبداً على الزيارات الملغاة وعلى كلمات القادة الأجانب حول مرض الرئيس - ولم يثر هذا قلق أحد بصورة خاصة.

وفي المقابل، أثيرت ضجة لا تصدق عندما رفع فولودين إلى مجلس الدوما قانون يحظر تبني الأجانب للأطفال اليتامى الروس. فجأة وقفت الحكومة ضد هذا القانون. فالمجابهة المكشوفة والعقيمة مع الولايات المتحدة الأمريكية بدت لكثيرين من أعضاء الحكومة ضارة، لا سيما وأن قائمة الموظفين المسؤولين الروس الذين مستهم العقوبات الأمريكية لم تنشرها وزارة الخارجية الأمريكية بعد، ونوت نشرها في شهر شباط/فبراير. واعتقاداً منهم بأن إرادة بوتين ليست وراء مشروع القانون هذا -لأن بوتين ليس حاضراً الآن - بدأ الوزراء علانية بنقد مشروع قانون الأيتام، الذي دعوه في مجلس الدوما باسم «قانون ديما ياكوفليف» – على شرف الصبي الروسي الذي مات في الولايات المتحدة الأمريكية نتيجة لا مبالاة والديْه الأمريكيين المتبنين له.

وكان من بين المنتقدين لمشروع القانون نائبة رئيس الوزراء أولغا غولودتس، وزير التعليم دميتري ليفانوف، وزير المالية أنطون سلطانوف، والوزير بلا وزارة ميخائيل أبيزوف. حتى أن وزير الخارجية سيرغي إيفانوف، الذي لم يعبر أبداً

منذ استلامه للوزارة عن رأي شخصي، لم يخجل من الوقوف ضده - فقد كان يشعر بالأسى للجهود التي بذلها موظفوه في وزارة الخارجية التي أنهت للتو الاتفاقية الثنائية مع الولايات المتحدة الأمريكية حول التبني. والآن، وفي حال إقرار القانون، لا بد من إلغائه بعد مرور شهر على دخوله حيز التنفيذ. لقد أصبح هذا التمرد الجماعي للوزراء ظاهرة لا سابق لها في تاريخ روسيا البوتينية. فمن ناحية أولى، عبر الوزراء، واحداً إثر الآخر عن عدم موافقتهم مع فولودين ولا يريدون أن يصبحوا ضحايا للعقوبات الأمريكية المحتملة. ومن ناحية ثانية، كانوا واثقين أن مشروع القانون من صنع فولودين، وأن بوتين سيلغيه بلا جدال، كمنعطف في ميدان، كما فعل عدة مرات عندما كانت فكرة ما تواجه معارضة داخل النخبة الحاكمة.

لكن تمرد النخبة، حقيقة، لم يكن أبداً علنياً بهذه الطريقة، بيد أنه، في السابق كان يمكن الوصول للرئيس. أما في هذه المرة، فقد قرر أعضاء الحكومة التعبير عن آرائهم بصورة علنية، لأنه لم يكن لديهم طريقة أخرى للوصول إلى الرئيس. لاذ بالصمت آنذاك عضو الحكومة «الليبيرالي» المفتاحي - رئيس الوزراء دميتري ميدفيديف.

أخيراً، تم تحديد المؤتمر الصحافي السنوي لبوتين في يوم 20 كانون أول/ ديسمبر.43 أصيب الجميع بالجمود. فبوتين، كما في السابق، لم يتواصل مع أحد، ولم يكن واضحاً، مع أي طرف سيقف بوتين. كان الليبيراليون واثقين من أن الرئيس يتريث عامداً، كي يقطف لنفسه جميع أكاليل الغار، كمنقذ للأطفال، وكي يُظهر للرأي العام العالمي، وكذلك للنخبة الليبيرالية، مدى تسامحه. وعلاوة على ذلك، كي يذكّر الجميع أنه هو، وهو وحده بالذات – الحاكم الأعلى والمؤيد للمساواة.

ولكن، حدث كل شيء بالعكس تماماً. فنصف الصحافيين الذين طرحوا الأسئلة على بوتين، كانوا يسألون، كالمتواطئين مسبقاً، عن الشيء نفسه - عن القانون المعادي لليتامى. أما بوتين فرد عليهم بانزعاج واضح، بمحاضرات معادية

لأمريكا. قال بوتين إن الاتفاقية الثنائية الموقعة لا تُنفّذ. وشرح بوتين للصحافيين الفضوليين قائلاً: «عندما يأتي ممثلونا من أجل تنفيذ واجباتهم في إطار هذه الاتفاقية، يقال لهم إن هذه المسألة لا تتعلق بالسلطة الاتحادية، بل بسلطة الولايات، وعلى مستوى الولايات ليست لدينا أية اتفاقيات، ويقولون لنا: اذهبوا إلى وزارة الخارجية، إلى الجهة التي وقعتم معها الاتفاقية، وابحثوا معها المسألة. والسلطات الاتحادية في الولايات المتحدة الأمريكية ترسلنا إلى سلطة الولايات. ولِمَ أصلاً وقعوا هذه الاتفاقية؟ ببساطة، وقعّوا اتفاقية مخادعة، هذا كل ما في الأمر».

ثم سمح لنفسه بإخراج الكراهية المتراكمة الجاثمة في صدره، فقال: «بم يهتم شركاؤنا في الولايات المتحدة والمشرعون الأمريكيون؟ يهتمون بحقوق الإنسان في سجوننا، بأماكن الحرمان والانتقاص من الحرية. قضية جيدة، ولكن عندهم، في عقر دارهم مشكلات لا حصر لها. وقد سبق أن تحدثت عن هذا: سجن أبو غريب، سجن غوانتانامو - سنوات طويلة يعتقلون الناس فيهما من دون توجيه أية تهمة. إن هذا أمر لا يقبله العقل. زد على ذلك، لا يعتقلونهم فحسب من دون أي اتهام، المعتقلون هناك يسيرون والقيود في أيديهم وأرجلهم، كما في العصور الوسطى. لقد سمحوا بالتعذيب داخل بلادهم. هل تتصورون لو حدث عندنا هذا أو شبيه به؟ لالتهمونا أحياء بحواصلنا منذ زمن! لأثاروا ضجة لا مثيل لها في العالم كله! وهناك عندهم كل شيء هادئ. كم من المرات وعدوا وكرروا أن سجن غوانتانامو سوف يغُلق، وما يزال قائماً حتى الآن. ولا نعرف قد تكون أعمال التعذيب فيه مستمرة أيضاً. وما يدعى أيضاً بالسجون السرية لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية. ومن طاله العقاب؟ ويشيرون إلينا بأن لدينا بعض المشكلات. أجل، شكراً، نحن نعرف. ولكن، اتخاذ أعمال معادية لروسيا على هذا الأساس - هذا أمر خارج جميع الأصول، اتُخذ من دون أي استفزاز من جانبنا».

في 28 كانون أول/ديسمبر وقع بوتين «قانون ديما ياكوفليف». ولسخرية

التاريخ، تزامن هذا اليوم مع اليوم المسيحي لذكرى الأطفال الصغار الذين قتلهم القيصر إيرود، وسرعان ما أطلقوا في الإنترنت الروسي على هذا القانون اسم «قانون القيصر إيرود». وأصبح هاشتاغ «بوتين - آكل الأطفال» الهاشتاغ الأكثر شهرة وشعبية في تويتر باللغة الروسية.

لم يظهر بوتين أمام حشد المسؤولين الحكوميين المنكوبين. ولم يستقبل أحداً من الدور الذي احتشد في قاعة استقباله. ولم يشرح لأعضاء الحكومة، ما الذي حدث، ولماذا قرر الأخذ بهذا القرار غير الواضح وغير المنطقي، ولماذا قبل بكل سرور، بالطريق المعادي للغرب، الذي اقترحه عليه فولودين.

كان أعضاء الحكومة يعانون من الصدمة. فقد أصبح «قانون ديما ياكوفليف»، بالنسبة إليهم، درساً كبيراً، يعني أنهم غير قادرين أبداً على تخمين رأي الرئيس، ناهيك عن التأثير في رأيه. وأصبح هذا القانون، بالنسبة إلى فولودين، نصراً كبيراً، فقد حدس مزاج بوتين، وأدرك مبعث تهيّجه، ووجد الطريقة المناسبة للتعبير عنه - بحظر تبني الأجانب للأيتام الروس.

وسيمضي شهران آخران قبل أن يبدأ بوتين من جديد بالاهتمام بالسياسة والدولة. وطيلة هذين الشهرين كان أي انتقاد، وأية حجج مضادة، وأية احتجاجات، بما فيها الاجتماعات الشتوية الحاشدة في موسكو ضد «قانون ديما ياكوفليف»، لن تثير لدى بوتين سوى الهيجان الأصم والمرضي.

الوباء السرطاني

«في شباط/فبراير 2013، غدا واضحاً أن السياسة انتهت» - قال أحد المقاولين المقربين من بوتين. لقد تعافى الرئيس نهائياً بعد المرض، وتعافى بمزاج مشبوه للغاية.

كانت الأخبار العالمية تزداد بصورة جنونية. في فنزويلا كان الرئيس هوغو تشافيز ينازع من مرض السرطان. لم يكن صديقاً مقرباً لبوتين، لكن طريقيهما

منذ البداية كانا متوازيين: فقد أصبحا رئيسين في وقت واحد تقريباً، وكافحا في الوقت نفسه ضد الأوليغارشيين، وأخضعا لسلطتيهما وسائل الإعلام الجماهيرية والصناعة النفطية، وأسسا منظمات شبيبية، وجابها التهديدات الأمريكية. لكن الديماغوجي تشافيز بدأ قبل بوتين بقليل النضال ضد «الطابور الخامس» - ولم يبدأ بوتين باستخدام هذا التعبير إلا بعده بعدة سنوات. لقد كانت فنزويلا البلد الوحيد (إذا ما استثنينا نيكاراغوا وناورو) الذي اعترف باستقلال أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية. وقد ارتبط تشافيز بعلاقات الصداقة مع إيغور سيتشين بعد أن ترأس الأخير شركة النفط الروسية.

كانوا في الكرملين لا يبحثون وضع تشافيز وحده - كان «الوباء السرطاني» الذي أصاب رؤساء أمريكا اللاتينية يذهل الجميع. فقد تم تشخيص السرطان لدى رئيسين في البرازيل (الرئيس السابق لولا دا سيلفا والرئيسة الحالية ديلما روسيف)، ورئيسة الأرجنتين كريستينا كيرشنير (فيما بعد دُحض هذا التشخيص)، ورئيس الباراغواي فرناندو لوغو، ورئيس كولومبيا خوان مانويل سانتوس، ورئيس بوليفيا إيفو موراليس. وفي أثناء محادثات خاصة، قال تشافيز مقتنعاً، بأن الأمريكيين قد عرضوه للإصابة بالأشعة عندما وصل بالطائرة إلى نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة. ومن بين المسؤولين الحكوميين الروس المحيطين ببوتين كانت هناك حالات الإصابة بالسرطان، لكنها انتهت بالشفاء. وكان الجميع تقريباً يثق بنظرية المؤامرة التي يرويها تشافيز.

سافر إلى فنزويلا للمشاركة في تشييع تشافيز وفد مهيب كبير: رئيس مجلس الشيوخ في البرلمان فالنتين ماتفيينكو، ووزير الخارجية الروسية سيرغي لافروف، وصديق شافيز إيغور سيتشين، ورئيس شركة «روس تيخ Ростех» سيرغي تشيميزوف (الشركة الروسية الاحتكارية لإنتاج السلاح).

بعد وفاة تشافيز أخذ المستشارون الأمنيون يوصون بوتين بصورة متزايدة بالالتفات إلى «الطابور الخامس» - الانتباه إلى أن كثيراً من المسؤولين

الحكوميين الروس الكبار لديهم ملكيات وحسابات في الخارج، ويدرس أطفالهم هناك، حتى أن لدى بعضهم إقامات هناك. وإذا ازداد الموقف تأزماً يمكن لهؤلاء الموظفين أن يصبحوا «حلقة ضعيفة» - حيث ستتمكن الأجهزة الأمنية الغربية من ابتزازهم. وقد أصغى بوتين فجأة لأقوالهم وأعطى ضوءاً أخضرَ لفولودين كي يعدّ مشروع قانون، يحظر على الموظفين الحكوميين الكبار والنواب أن يملكوا حسابات وأسهماً مالية في الخارج.

وقع بوتين القانون في أيار/مايو 2013. وهذا ما أدهش الجميع. لم ينو أحد من أعضاء الحكومة أن يتخلى عن ملكياته المتعددة: وكثيرون لم يخفوا ذلك أبداً. وعلى سبيل المثال، في تصريح النائب الأول لرئيس الوزراء شوفالوف ذُكر منزلان في الإمارات العربية المتحدة وأستراليا وشقة في بريطانيا، ولدى أعضاء الحكومة الآخرين تم التصريح عن شقق ومنازل في إسبانيا وإيطاليا وبلغاريا وسويسرا. وكان من المستحيل تحمل مصاريف العقارات، من دون فتح حسابات أجنبية. ومع أن أعضاء الحكومة كانوا واثقين من أن القانون الجديد لن يمسّهم - فكثيرون كانوا يرددون على سبيل المزاح، أنهم يفضلون مغادرة مناصبهم على إغلاق حساباتهم وبيع عقاراتهم في الخارج.

على أية حال، في المحصلة، هكذا فعل عدد قليل منهم. ومن بينهم الملياردير رومان أبراموفيتش. وهو بالطبع استخدم القانون كذريعة. فمنذ عام 2000 وحتى عام 2008 كان أبراموفيتش محافظ منطقة تشوكوتكا - أبعد منطقة في روسيا عن موسكو، بعد ذلك بقي فترة طويلة يطلب الإحالة على التقاعد، والسفر للإقامة نهائياً في لندن. في البداية، سمح له بوتين، ثم رأى أن أبراموفويتش لم يبذل حتى الآن ما يكفي من جهده في روسيا، وطالبه بالبقاء في منصب رمزي كناطق بلسان برلمان تشوكوتكا. ولعل القانون الجديد في عام 2013 هو الذي ساعد أبراموفيتش على مغادرة ساحة السياسة الروسية الخطيرة وغير الجذابة، بصورة نهائية، ومغادرة روسيا عملياً.

سنودن بدلاً من أوباما

كانت غالبية الموظفين المسؤولين تقول إنه، وعلى الرغم من حظر الحسابات المصرفية والأسهم المالية في الخارج، لا مجال لأي حديث حول التحضير لمجابهة جدية مع الغرب. وتثبت صدقيتها بأن التحضير للزيارة الكبيرة التي سيقوم بها باراك أوباما إلى روسيا كان يجري على قدم وساق، حيث تبدأ أولاً بزيارة موسكو، وبالمباحثات مع بوتين، ومن ثم عليهما أن يركبا الطائرة معاً إلى بطرسبورغ، ويتواصلان مع رجال الأعمال. وكان القسم الليبيرالي من الحكومة يعلّق آمالاً كبيرة، ويقنع بوتين بأنه حتى إذا ما كانت الشراكة السياسية لا يمكن الوصول إليها، فإن الشراكة الاقتصادية ممكنة جداً.

لقد حدثت الزيارة، ولكن ليس تلك الزيارة التي تم التخطيط لها. في شهر حزيران/يونيو وصل بالطائرة من هونغ كونغ إلى موسكو إدوارد سنودن الموظف في الوكالة الأمريكية للأمن القومي. طالبت الولايات المتحدة الأمريكية بتسليمه فوراً، واقترحت على روسيا أن يأخذه عملاء مختصون مباشرة من مطار شيريميتيفو في موسكو. رفضت موسكو هذا العرض، فأثيرت ضجة كبيرة - واختبأ سنودن في فندق مطار شيريميتيفو.

سرعان ما جرى حديث هاتفي حاسم بين بوتين وأوباما. قال الرئيس الأمريكي إن موسكو، على الأغلب، تستخف بمسألة سنودين، وإذا لم يسلمه الروس، فإن هذا سيعرّض الزيارة الرسمية لموسكو للخطر. فأجاب بوتين بأن المسؤولية تقع على الأمريكيين: لماذا أثاروا هذه الضجة عندما وصل سنودن إلى مطار شيريميتيفو في موسكو؟ فقد كان ينوي الطيران إلى كوبا، وكان يمكنهم أخذه من كوبا بهدوء. فأصر أوباما قائلاً، بأن الرأي العام والمؤسسة السياسية لن يفهماه إذا لم يعمل على تسلّم العميل الأبيض. فرد بوتين بأن الرأي العام لن يفهمه إذا ما سلّمه. وانتهى الحديث الهاتفي على هذا النحو.

وقال بوتين أيضاً: «إذا ما أراد البقاء هنا، يمكنه البقاء بشرط واحد: عليه أن يتوقف عن العمل الهادف إلى إلحاق الضرر بشركائنا الأمريكيين. مهما بدا

صدور هذا القول غريباً على لساني»، مؤكداً بذلك للأمريكيين أن سنودن لم يكن عميلاً روسياً.

لقد أصيب الفريق الحكومي المكلف بالإعداد لزيارة أوباما بالصدمة. فالقسم الليبيرالي من مسؤولي الكرملين والحكومة، الخاضعين لتأثير نظرية المؤامرة العامة، شرح لبوتين بأن ثمة مؤامرة صينية جلية، واضحة للعيان: وكأن الصينيين قد أرسلوا سنودن خصيصاً، من هونغ كونغ إلى موسكو، من أجل افتعال مشكلة بين موسكو وواشنطن. ولكن، كان كل شيء قد انتهى.

قررت إدارة أوباما أن الزيارة الكاملة إلى روسيا سوف تُلغى، وسيقتصر الرئيس على حضور قمة الدول الـ20 الكبار في سانت - بطرسبورغ. وبدلاً من زيارة موسكو، سيزور السويد قبل ذلك لمدة يومين.

هل كانت هذه الزيارة، التي لم تحصل، الفرصة الأخيرة لإرساء علاقات جيدة بين أوباما وبوتين؟ هذا غير معروف، لكن هذه الفرصة قد ضاعت. وبعد هذا تحولت جميع المباحثات بين البلدين إلى شتائم علنية. وعشية لقاء «العشرين» دعا بوتين تصريحات الأمريكيين حول أن السلطات السورية استخدمت السلاح الكيماوي ضد الثوار المتمردين بأنه «هراء غير معقول». ثم أضاف بأن جون كيري وزير الخارجية «يكذب» بقوله إنه لا وجود لعناصر «القاعدة» في سورية.

ربما كان هذا الخطاب موجهاً كي لا يحضر أوباما لقاء القمة نهائياً في بطرسبورغ. لكنه حضر، وكان مجرد لقاء واجب، كان خلاله أوباما متحفظاً إلى أقصى الحدود، ولجأ بوتين من جديد إلى الوقاحة. وقد أعلم الأمريكيون، في كواليس المؤتمر، المشاركين الآخرين في القمة أن من المستحيل ومن العبث، إجراء حوار مع بوتين. فهو غير بنّاء وغير إيجابي، لدرجة أن واشنطن لن تقوم بالمحاولة بعد الآن. وقالوا، إن بوتين لم يعد له وجود، بالنسبة إلى الأمريكيين.

قِيم أخرى

كانت تقنيات فولودين السياسية الداخلية ناجحة إلى حد كبير. فقد اختار منظِّر الكرملين الجديد مقاربة معارضة لطريقة سوركوف السابقة: فلم يحاول إقامة بنى معقدة، والدعوة إلى قيم جديدة أو ابتداع أنظمة جديدة. كان يرى أنه يجب إعطاء الشعب ما يريده. كان فولودين يحب دراسة الحسابات الإحصائية والاستطلاعات السوسيولوجية: فهي كانت تؤكد أن السلطة تعمل كل شيء بصورة صحيحة، وأن بوتين ذو شعبية، وجميع خطواته تحظى بالتأييد. وخلال ذلك، كان فولودين في أعماله، يحب كثيراً الاسترشاد بتحليل أفضليات السكان بالذات، واتباع سياسة تكون على الأغلب مقبولة وشعبية. وهذه الشعبوية الجديدة كانت تعني التركيز على القيم المحافظة التقليدية.

قال بوتين في خطابه إلى مجلس الاتحاد في كانون أول/ديسمبر 2012: «أشعر بالألم في الحديث اليوم عن هذا، لكنني ملزم بالحديث عنه. إن المجتمع الروسي اليوم يعاني نقصاً واضحاً في الروابط الروحية». وهذه التركيبة من الكلمات القديمة أصبحت أساس الأيديولوجية الجديدة للفترة الرئاسية الثالثة.

في أثناء فترته الرئاسية الأولى، كان بوتين خلال لقاءاته مع الزعماء الغربيين يشرح طويلاً، وبالتفصيل، آراءه في كل شيء: ما الذي يجري في القوقاز، لماذا لا حاجة إلى انتقاد الكرملين بسبب مسائل حقوق الإنسان، ولماذا يجب اعتبار روسيا شريكاً استراتيجياً ومتكافئاً متساوياً في الحقوق.

وعندما لم يستطع إقناع أصدقائه في هذا، غيّر برنامجه: ففي أثناء رئاسته الثانية كان يكيل اللوم، ويعبر عن متطلباته التي لا تنتهي من شركائه، متهماً إياهم بعدم الإخلاص وعدم الصدق وعدم تنفيذ وعودهم.

في الفترة الرئاسية الثالثة أصيب بخيبة أمل في كل شيء، وبدأ يشرح مسائل أخرى تماماً.

قال بوتين في محادثاته مع نائب الرئيس الأمريكي جو بايدن: «لا تبنوا أحكاماً

واستنتاجات مزيفة. نحن لسنا مثلكم أبداً. نحن فقط نشبهكم. لكننا مغايرون تماماً. من حيث الشكل فقط، الروس لا يختلفون بشيء عن الأمريكيين. أما في الواقع فنحن في الداخل مختلفون. لدينا قيم أخرى تماماً». عملياً، هذا القول يناقض تماماً أطروحات بوتين قبل عشر سنوات.

قال بوتين مخاطباً أنجيلا ميركل: «تصوري، أنك تجلسين في الكرملين، ولديك ناخبون يقيمون في كالينينغراد، وثمة ناخبون يقيمون في بتروبافلوفسك في كامتشاتكا. وعلى هذه الأراضي الشاسعة كلها التي يقيم عليها أناس مختلفون بلغاتهم وآرائهم وظروف حياتهم، عليك أن تجمعي بينهم بشكل من الأشكال. يجب أن تقولي شيئاً لهؤلاء الناس، كي يلتحموا فيما بينهم. إحدى مواطِناتك الألمانيات، مواطِنة عظيمة كانت إمبراطورتنا - يكاتيرينا الثانية. أرادت في البداية إلغاء «حق القنانة» بسرعة. ثم بعد ذلك، درست البنية الروسية، وهل تعرفين ماذا فعلت؟ إنها عززت من حقوق النبلاء وقضت على حقوق الفلاحين. من غير الممكن عندنا بطريقة أخرى: خطوة إلى اليمين، وخطوة إلى اليسار - وينتهي كل شيء، وتفقدين السلطة».

وبحسب أقوال أحد المساعدين المقربين، كان بوتين يفكر كثيراً في القيم الروسية التقليدية: «يفكر في القيم بالذات، وليس في الطريق الروسي الخاص - فالطريق، برأيه، واحد لدى الجميع، على أية حال، يجب بناء الرأسمالية». وكان المصدر الرئيس لتأملاته مؤلفات الفيلسوف الروسي إيفان إيلين. وانطلاقاً من مؤلفاته وأعماله، كان بوتين يصيغ القيم الرئيسة للإنسان الروسي على النحو التالي: الله، الأسرة، الملكية.

ويكرر نيابة عن بوتين أحد مستشاريه: «على الرغم من جميع التقلبات الخارجية، على الروس أن يدافعوا عن هذا المنهج المحافظ أكثر من الشعوب الأخرى. فهو بالنسبة إلينا أهم، وليس من العبث أننا أرثوذكسيون. فلو لم نكن أرثوذكسيين لكانت هويتنا أخرى. وبما أننا اعتنقنا الأرثوذكسية، فإننا بشكل أو بآخر، قد عارضنا أنفسنا بالعالم الغربي».

ويقول مقرّب آخر من المقربين لبوتين، إنه في إحدى الفترات، أصبحت اللحمة الرئيسة، بالنسبة إلى بوتين، التي «تلصق» الشعب الروسي من كالينينغراد إلى كامتشاتكا، هو بوتين نفسه. وقد صدق الرئيس أن من دونه سينهار كل شيء.

لقد اهتم فولودين بالذات، بحماية «القيم التقليدية» المنتشرة في الشعب - لاسيما وأن تعزيز البطريركية ساعد في النضال ضد المعارضة الليبيرالية. وكانت ألقية موفقة مكافحة الدعاية للمثلية التي أصبحت فجأة، في عام 2013، من أهم مواضيع جدول أعمال السياسة الداخلية. فقد اندمجت بصورة منطقية في سياسة «الروابط الروحية». وبُدئ منذ منتصف العقد الأول من القرن الحادي والعشرين في المناطق والأقاليم الروسية بإصدار قوانين تحظر «الدعاية المثلية». وفي عام 2012 حل دور بطرسبورغ. فهذه العاصمة الثقافية التي أصبحت في عهد المحافظ بولتافشنكو عاصمة روسيا الأرثوذكسية، أقرت قانوناً مماثلاً، أثار ضجة كبيرة في الصحافة.

في كانون أول/ديسمبر، وجواباً على سؤال مباشر، ألن يُقرّ قانون مماثل على المستوى الاتحادي، قال ميدفيديف رئيس الوزراء: «ليس من الضروري أن تتحول جميع المسائل الأخلاقية والعادات السلوكية والاتصالات بين الناس إلى تشريعات وقوانين».

ولكن بعد شهر واحد، رُفع مثل هذا القانون تماماً إلى مجلس الدوما وتم إقراره منذ القراءة الأولى بالإجماع تقريباً (امتنع نائب واحد عن التصويت، ونائب آخر صوت ضده، وجميع النواب الآخرين أيّدوه). وامتدت موجة الاحتجاجات في جميع أنحاء العالم، وتمت تغطيتها بنشاط في وسائل الإعلام الجماهيرية الحكومية الروسية. كانت تروي ما يجري بتفسير واحد لا لبس فيه: جماعات الضغط المثلية الغربية لا يمكنها أن تغفر لبوتين دفاعه عن القيم التقليدية. حتى أن القناة التلفزيونية الحكومية «روسيا -1» اخترعت مصطلح «هوروبا Horope» أي «أوروبا المثلية»، الذي يرمز إلى أن أعداء بوتين في الغرب

(وحتى في روسيا) - هم ممثلو الأقليات الجنسية المثلية.

السياسة من جديد

إن احتجاجات عام 2011 قد أخافت الكرملين، بيد أنه بحلول عام 2013 كان فولودين على ثقة تامة بأن زعماء احتجاجات بولوتنايا قد تم التشهير بهم وهزيمتهم تماماً. وقد رُفعت ضد غالبيتهم دعاوى جنائية أدت إلى انعدام نشاطهم السياسي.

وكانت قضية ألكسي نافالني الجنائية القضية الأغرب. لجنة التحقيق قد اتهمته منذ عام 2011 بالاحتيال المرتبط بقضية شركة كيروف للغابات «كيروف ليس Кировлес». وفي نيسان/إبريل عام 2012 تم إغلاق القضية بسبب انعدام مكوّن الجريمة - لم يتم العثور على أي ضرر. ولكن في شهر حزيران/يونيو انتقد ألكسندر باستريكين رئيس لجنة التحقيق المحقق علناً أمام عدسات الكاميرا التلفزيونية، لأنه أغلق القضية، وطالب بتجديدها ورفعها من جديد.

رد نافالني على باستريكين بتحقيقه الشخصي - فقد نشر معلومات تفيد بأنه، وخلافاً للقانون، يمتلك باستريكين شركة قانونية في تشيكيا، وعلاوة على ذلك، يتمتع بحق الإقامة فيها، ولديه شقة في براغ. وهذا كله لم يذكر في تصريح رئيس لجنة التحقيق. ورفع نافالني شكوى ضده إلى إدارة الرئيس وإلى لجنة التحقيق ذاتها، من أجل التحقق من نشاط رئيسها. لكن هذا لم يجلب أية عواقب على باستريكين. فقد كان يتمتع بثقة خاصة من قبل الرئيس - كانا على معرفة قديمة من فترة الدراسة الجامعية. علاوة على ذلك، كان باستريكين عريف المجموعة التي كان يدرس فيها بوتين، ولهذا لُقب بالعريف في أوساط الكرملين. كانت نفوذ «العريف» كبيراً جداً، وكانت لديه إمكانية الدخول يومياً تقريباً إلى مكتب بوتين، ولهذا لم يشك أحد في أن الأمر بتجديد النظر في قضية «كيروف ليس» ضد نافالني كان طلباً شخصياً من الرئيس.

اقتربت الدعوى من نهايتها في آخر تموز/يوليو 2013. وقد تزامن انتهاء

الدعوى مع بدء الحملة للانتخابات المبكرة لعمدة موسكو، وقد عبر نافالني عن عزمه على المشاركة في الترشيح. ولكن لم تتوفر له فرصة تسجيل ترشيحه لأن محكمة كيروف أصدرت في 18 تموز/يوليو حكماً بسجنه لمدة خمس سنوات. وفي يوم صدور الحكم اجتمع في مركز مدينة موسكو في ساحة مانيجنايا حشد جماهيري كبير غير مرخص به، وقد قطع المحتجون الطريق إلى بولفار تفيرسكوي، وتسلقوا إلى شرفات بناء مجلس الدولة، وملأوا جدران البرلمان بالملصقات المؤيدة لنافالني. بيد أن هذا الاحتجاج كان قد فات أوانه - فقبل بداية الحشد كان فلاديمير بوتين قد عقد اجتماعاً خاصاً بـ «مشكلة نافالني»، وصاح على المرؤوسين، وبالدرجة الأولى على فياتشيسلاف فولودين، الذي أعطى الأمر باعتقال المعارض. وقال بوتين، إن اعتقال نافالني - يعني أن نجعل منه بطلاً، كما حدث بالنسبة إلى خودوركوفسكي. والأكثر فاعلية، أن نجعله منبوذاً وهامشياً. يجب إطلاق سراحه، والسماح له بارتكاب جميع الأخطاء بنفسه. على الفور اتصل النائب العام بمحاميي نافالني ونصحهم بالطعن بالحكم وكذلك بالتدبير الوقائي - الاعتقال - قبل دخول الحكم حيز التنفيذ، أي قبل الاستئناف. لم يصدق المحامون آذانهم. وقالوا إن هذا بلا طائل، فمثل هذا لم يحدث أبداً في الممارسة القضائية الروسية، أن يُطلق سراح المحكوم بانتظار الاستئناف. وعندها أخذت النيابة العامة بالمبادرة وطعنت بقرار المحكمة. وفي اليوم التالي، أطلق سراح نافالني.

بعد هذا بدأت تجربة غريبة، فريدة من نوعها: أول انتخابات شريفة وخيارية ونزيهة بالمطلق في تاريخ روسيا البوتينية. وعلاوة على ذلك، ساعدت إدارة الرئيس بصورة استعراضية المرشح المعارض في تسجيل ترشيحه: وضع أعضاء حزب «روسيا الموحدة» التواقيع الضرورية من نواب المدينة لتأييده.

كان فولودين في حاجة لإثبات أن قوة نافالني كلها - تكمن بصورة استثنائية في قدرته على استخدام وسائل التواصل الاجتماعي، وهو في الانتخابات الواقعية سيخسر حتماً. وعشية الانتخابات قدم تقريره لبوتين بأن ما سيحصل

هو الآتي: سيحصل نافالني على 10% - وكحد اقصى على 15% من الأصوات. وفي الواقع، اتضح أن الباحثين قد أخطأوا بحدود الضعف تقريباً. فقد حصل نافالني على 27% من الأصوات. وحصل المحافظ القائم على رأس عمله سوبيانين على النسبة اللازمة وهي 51%، للفوز من الجولة الأولى.

على أي حال، كان فولودين راضياً عن النتيجة. فقد أثبت لبوتين أن كل شيء تحت السيطرة، ويجب فقط ترقب الوقت – وطاقة الاحتجاج سوف تنتهي من تلقاء ذاتها. ومتوسط الموارد الإعلامية سيسمح قريباً بالقضاء على شعبية نافالني.

الفصل السادس عشر: دميتري بسكوف، مستشار بوتين الصحافي أدرك أنه لن يروق للغرب أبداً

في قاعة استقبال دميتري بسكوف في ساحة ستارايا عُلِقت صورة مضحكة جداً لبريجنيف - يظهر بريجنيف الهرِم في قميصه الداخلي جالساً تحت مظلة على الشاطئ يقرأ صحيفة «البرافدا». وهي تبدو كإعادة صياغة بارعة لإحدى المقابلات الصحافية القديمة التي أجراها بسكوف. في عام 2012، في استوديو القناة التلفزيونية «دوجد» كان بسكوف يروي، أن بريجنيف لم يُقدَّر حق التقدير كزعيم سياسي، وأن عصر بريجنيف بالذات، كان العصر الذهبي للاتحاد السوفييتي، وأن في «الجمود البريجنيفي» ثمة كثير من الإيجابيات. ربما لم يكن بسكوف يقصد هذا عندما علّق هذه الصورة. وقد لا يكون هو من فكر في تعليقها. وربما لم يلاحظ هذه الصورة أبداً.

دميتري بسكوف يشعر بالملل. إنه إنسان حيوي مشرق، نشيط، واضح من خلال كل شيء، أنه بلا عمل. فلاديمير بوتين ليس في حاجة إلى مدير علاقات عامة نشيط وحيوي. فشعبيته داخل روسيا بلغت أقصى الحدود. أما صورته في الخارج... يبدو، وكأن الجميع يصب لعناته عليه. لقد ولىّ ذلك الزمان عندما كان بسكوف يستأجر وكالة «كيتشوم Ketchum» كي تروّج صورة روسيا في

الخارج. الآن لم يعد هناك أية أوهام - جميع الفرص قد ولّت، ومن المستحيل على مدراء العلاقات العامة تصحيح أي شيء. وربما لا داع حتى للمحاولة وبذل الجهد.

بسكوف في رحلات دائمة، هو دوماً ينظم عملية ما، ودوماً يقدم تعليقات وتوضيحات - مرة في اليوم، عن طريق مسنجر تلغرام يتواصل مع صحافيي ما يعرف بتجمع الكرملين، كي يجيب عن جميع أسئلتهم. وهو منفتح جداً على الصحافة، وصريح عادة، ومباشر مع الصحافيين.

عموماً، يعيش بسكوف حياة مدنية نشيطة ويتمتع بها. في آب/أغسطس 2015 تزوج من البطلة الأولمبية بالرقص على الجليد تاتيانا نافكا. وقد احتفلا بالعرس في مدينة سوتشي. ربما في المكان نفسه حيث تم التقاط صورة بريجنيف مع صحيفة «البرافدا» وتحت المظلة الشمسية قبل أربعين عاماً.

الألعاب التي استحققناها بجدارة

بدأت ملحمة إجراء الألعاب الأولمبية الشتوية في منطقة روسيا شبه الاستوائية منذ عام 2005، أي منذ تلك الفترة عندما كانت روسيا ليست دولة غنية فحسب بل غنية جداً، وكان يبدو وكأن أموالها لن تنفد أبداً. وقد بدأت من دون مشاركة بوتين.

وقبل هذا، كانت روسيا قد تقدمت بطلب لإجراء مباريات رياضية ضخمة على أراضيها - بطولة أوروبا بكرة القدم عام 2008، والأولمبياد الصيفي في موسكو لعام 2012 - ولكن خصصت لهذا الطلب أموال غير كبيرة بما فيه الكفاية، فكانت تختفي بسرعة ومن دون أثر. لقد طرح فلاديمير بوتانين فكرة إجراء الأولمبياد الشتوي في سوتشي، أكبر متزلج على الجليد في الجبال بين الأوليغارشيين الروس، وصاحب شركة: «نورنيكل Норникель» لصناعة الألومنيوم. وكانت هذه الفكرة هي الفكرة الثانية – بعد فكرة مزادات الرهون العقارية - التي غيرت تاريخ روسيا.

كان بوتانين يحب التزلج في منطقة «كراسنايا بوليانا»، وكان لديه منزل هناك، وحاول تطوير منتجع «مزرعة الورود». في الوقت نفسه، أعجب بالفكرة رئيس اللجنة الرياضية الروسية آنذاك، لاعب الهوكي السوفييتي الأسطوري فياتشيسلاف فيتيسوف. وقد شكل الاثنان لجنة التنفيذ.

كان يدرك الاثنان أن الفكرة قد تروق لبوتين الذي كان أيضاً يقضي وقتاً طويلاً في سوتشي ويتزلج في منطقة «كراسنايا بوليانا». عرض بوتانين الفكرة على بوتين، لكن الرئيس في البداية لم يتحمّس لها. عندئذ توجهت لجنة التنفيذ إلى دميتري بسكوف، الذي يشغل الآن المستشار الصحافي لبوتين، وكان آنذاك يشغل منصب نائب ألكسي غروموف.

حسب الرواية، اقترح بسكوف القيام بحملة إعلامية صغيرة موجهة لشخص واحد – لبوتين. أعدت لجنة التنفيذ لوحات، تعلن عن طلب إجراء الأولمبياد في سوتشي وبرامج إذاعية، وأعلم بسكوف اللجنة بالطريق الذي يتبعه الرئيس عند ذهابه للعمل، وما هي المحطات الإذاعية التي يسمعها بالسيارة وفي أي وقت. وعلى الطريق الذي يتبعه موكب الرئيس تم تعليق اللوحات، وتم وضع المؤشر على المحطات الإذاعية اللازمة. وكان هناك شعار للجمهور (أي في الواقع لبوتين) كُتب عليه «الألعاب التي نستحقها بجدارة».

وتم استئجار شخص ليتصل على الخط الساخن إلى إدارة الرئيس ويطرح أسئلته، متى ستكون الألعاب الأولمبية في روسيا؟ لقد شكل هذا كله أرضية قوية – ولم يكن هناك أي شك لدى بوتين في أن الجميع من حوله يريدون أن تكون الألعاب الأولمبية في سوتشي ويفكرون فيها. فلوح بوتين بيده موافقاً. وفي هذه اللحظة، نقل الخبر جميع القنوات التلفزيونية، وكانت ميزانية التنفيذ بلا حدود.

يقول بسكوف: «لقد ترك هذا كله بصماته على تكتيك بوتين المفضل. فهو يعتقد، إنه وبسبب بطئنا وانعدام مرونتنا، كدولة، لا وقت لدينا لمعالجة المسائل

المنهاجية كافة. فنحن منذ زمن طويل لم نبنِ مدناً جديدة. وغالباً، نحن الروس، كي نتمكن من النجاح في المهمة المطلوبة، علينا أن نلتزم علناً أمام العالم كله. وأن يكون لدينا موعد أخير دقيق محدد. وعندها نخصص كل الأموال اللازمة، ولو كانت آخر ما لدينا، وننجز المهمة في الموعد المحدد».

يشرح بسكوف، لماذا لم يشعر أحد بالإحراج من حقيقة أنه تم اختيار مدينة سوتشي، الواقعة في المنطقة شبه الاستوائية لإجراء الألعاب الأولمبية الشتوية، قائلاً: «إن سوتشي هي مصحتنا الاتحادية. وهناك، لم يكن أي صرف صحي موجوداً، ولم يكن فيها مطار. فكيف كان يمكننا العثور على طريقة أخرى لبناء منتجعنا الرئيس؟».

ومن أجل إحداث انطباع طيب لدى مفتشي اللجنة الأولمبية الدولية استخدموا جميع الطرق الممكنة. واضطروا حتى إلى تقليد عمل مطار سوتشي الذي لم يُشيّد بعد. كان من الممكن الاعتراف بصدق، بأن المطار لم يُبنَ، فقد بقيت سبع سنوات على بداية الألعاب. لكن وزير الاقتصاد غيرمان غريف قرر أن من الأفضل بناء قرية بوتيومكين******** حيث نقلوا إلى أرض المطار الطلاب الذين كانوا يمشون ويؤدون دور المسافرين، وكانت الأكشاك والمطاعم تقلّد عمل مثيلاتها في المطارات، وكانت اللوحة تظهر توقيت الرحلات الجوية التي لا وجود لها. ومن حسن الحظ، أن هذا التزوير تم كشفه بعد التصويت في اللجنة الأولمبية الدولية.

لم يكن من الصعوبة بمكان التفوق على المدينتين المنافستين - بيونغ تشانغ الكورية وزالسبورغ النمساوية بوجود ميزانية مفتوحة بلا حدود. ويقول عضو اللجنة التنفيذية، إن السر بسيط: كان من الواجب عمل كل شيء أفضل ما هو موجود، ومن حسن الحظ، أن الأموال كانت متوفرة. أولاً، تم استئجار المستشارين الذين قاموا بتنفيذ طلبات لندن وباريس، المرشحتين للألعاب الأولمبية الصيفية لعام 2012. وثانياً، بحثنا عن مقاربة فردية نحو كل عضو من أعضاء اللجنة الأولمبية الدولية.

يتذكر مشارك في العطاء الروسي لتنفيذ الأولمبياد: «كان هذا أصعب بكثير من رشوة أعضاء اللجنة التنفيذية للفيفا على سبيل المثال، فهم مجرد موظفين لا يعرفهم أحد. أما في اللجنة الأولمبية الدولية فيعمل مشاهير العالم، أبناء الأسر الملكية». وقد وزعنا أعضاء اللجنة الأولمبية الدولية على المشاركين في مجموعة العمل، من أجل العمل معهم بصورة فردية. فما الذي يمكن أن يجذب أمير موناكو ألبرت الثاني، على سبيل المثال؟ وعنده يتوفر كل شيء في العالم. لكنه كان يحب الحياة الليلية. وأخذ الأمير يحل ضيفاً دائماً على نادي «دياغيليف» أغلى نادٍ ليلي في موسكو، حيث كنا نُحضِره ونجلبه إلى أفضل الحفلات. وكان الوضع أصعب مع الآخرين: «هناك من قال منهم إن قريبه يتاجر بالقرميد. وقال إنه يريد تطوير تجارته في روسيا أيضاً. فقلنا له: بالطبع، سنساعده».

عشية التصويت في غواتيمالا، أوصيت كبريات الشركات الروسية أن تدفع كل منها عدة مليارات من الدولارات. وأين ذهبت هذه الدولارات؟ غير معروف.

وكان العرض في غواتيمالا تاج العرض الروسي للأولمبياد. فقد نقلوا على طائرة MES، أضخم طائرة في العالم، إلى غواتيمالا، البلد الشديد الحرارة في أمريكا اللاتينية، حلبة تزلج جليدي صناعي. وقد أصيب بالذهول جميع السكان المحليين وجميع أعضاء اللجنة الأولمبية الدولية. ثم وَصل على طائرة خاصة فلاديمير بوتين. وقد قلده في سلوكه وتكتيكه الظافر توني بلير عشية اختيار لندن عاصمة الأولمبياد الصيفي عام 2012. جلس بوتين في جناحه في الفندق، وكان يستقبل جميع أعضاء اللجنة الأولمبية الدولية كلاً على حدة. وكان يجري مع كل واحد منهم أحاديث عاطفية قلبية: «كيف يعيش أبناؤك الثلاثة؟ - كان ينظر في إضبارة كل منهم، ويسألهم باهتمام - فليأتوا إلى موسكو، وسيكونون ضيوفاً أعزاء». وقد شعر محدِّثوه بسعادة غامرة من هذا الاهتمام.

لم ينتظر بوتين نتائج التصويت وركب الطائرة مغادراً غواتيمالا بعد إلقاء

كلمته مباشرة. كان واثقاً من الفوز. حقيقة، واحتياطاً لكل طارئ، حذّر بسكوف بأن عرض سوتشي في حال رفضه، فهو وحده سوف يعلق على ذلك، أما في حال الفوز فيمكن للجميع أن يعلقوا.

إذا كان عرض سوتشي غالياً وفاعلاً، فإن بناء المنشآت كان غالياً جداً جداً. يقول بسكوف: «كان غالياً جداً، لكن هذه وقائعنا».

اعترف فلاديمير بوتين، أنه تم صرف 214 مليار روبل على المنشآت الأولمبية بصورة مباشرة. منها 100 مليار من التمويل الحكومي الصرف، و114 مليار على حساب المستثمرين. وخلال ذلك، وبحسب تقارير الشركة الحكومية «أوليمب - ستروي Олимп -строй» للتحضير للألعاب الأولمبية (بما فيها طرق السكك الحديدية وطرق السيارات، والمحطات الكهربائية وغيرها من مشاريع البنية التحتيـة) تـم صـرف 1,524 تـرليون روبـل، أو 37,5 مليـار يورو. وهذا المبلغ، حسب التقديرات المستقلة، يعدّ قياسياً ليس فقط في التعبير المطلق خلال تـاريخ الأولمبيـاد، بـل وفـي التعبيـر النسـبي: مـن حيث درجة تجاوز التقدير الأصلي. فالنفقات الفعلية على أولمبياد سوتشي تجاوزت النفقات المذكورة في العطاء الرسمي بأكثر من أربع مرات (300%)، في حين أن الزيادة المتوسطة للأولمبياد تشكل نحو 180%.

على أية حال، هذا الانتقاد يبدو لبسكوف إزعاجاً. يقول بسكوف: «إن الطريق من سوتشي إلى كراسنايا بوليانا له علاقة بالأولمبياد - يبدو له علاقة، وربما ليس علاقة. ببساطة، الأولمبياد، أعطانا فرصة تطوير المنطقة. ولهذا نحن هذه التكاليف قسمناها، أما الحاسدون والأشرار فضموها وجمعوها».

وبسكوف نفسـه، بهذا الصدد، يورد أمثلة كيف تم صرف أموال زائدة ليس نتيجة نوايا خبيثة، بل نتيجة خطأ. وعلى سبيل المثال، ملعب «فيشت» الذي كان يجب أن يجري فيه حفلا افتتاح الأولمبياد واختتامه، تم تصميمه على أن يكون مكشوفاً - كي يمكن استخدامه فيما بعد لبطولة العالم بكرة القدم

مستقبلاً. ففي الملاعب المغلقة لا ينبت العشب (الغازون). لكن المهندسين لم يحسبوا حساب قوة الرياح - وفي ذروة البناء، أدركوا أن تيارات الهواء تتدفق من البحر إلى اليابسة قوية جداً، لدرجة أنها تدفع بالناس حملة الأعلام في أثناء الاحتفال. وفي المحصلة، اضطروا إلى تغطية الملعب بسقف مقابل مبالغ طائلة.

«وإلاّ قد نفقدها»

بينما كانت روسيا تستعد للأولمبياد، كانت أوكرانيا تستعد لتوقيع اتفاقية الترابط مع الاتحاد الأوروبي. وهذا إنجاز أقل أهمية لكنه، مع ذلك، كلّف روسيا فيما بعد أكثر من الأولمبياد. وقد كان المبادر لتوقيع هذه الاتفاقية فيكتور يانوكوفيتش، الرئيس الذي كان يعتبره فلاديمير بوتين بأنه رَجُله الخاضع لسيطرته.

كان لدى فيكتور يانوكوفيتش وفلاديمير بوتين تاريخ طويل مشترك: فمنذ عام 2004 كان بوتين واثقاً بأنه سيجعل يانوكوفيتش رئيساً لأوكرانيا. يقول موظف مسؤول يعرف يانوكوفيتش عن قرب، إن يانوكوفيتش منذ تلك الأثناء طلب من بوتين جواز سفر روسياً، احتياطاً لكل طارئ، إذا ما اضطر إلى الهرب من بلده. وغير معروف، ما هو كان جواب بوتين.

لقد أصبحت «الثورة البرتقالية» كارثة بالنسبة إلى يانوكوفيتش. وقد روى هو بنفسه للمقربين منه القصة التالية. وكأنه في المعمودية، في 17 كانون ثاني/ يناير 2005، قرر الانتحار بإطلاق النار على نفسه. كان يعيش آنذاك في مقره، في ميجيغوري بالقرب من كييف، ليلاً أخذ بندقيته وذهب إلى البحيرة ليطلق النار على نفسه. ولكن على شاطئ البحيرة رأى فجأة ضوء القمر يسقط على سطح الماء الأملس المتجمد على شكل صليب. وبدا له أن هذه علامة. فركض، ودعا الرجال والحرس وأمرهم بقطع الجليد وعمل حفرة في الجليد على شكل صليب. ثم خلع ثيابه، وغطس في هذه الحفرة، ثم خرج منها وعاد إلى البيت.

لم يكن هناك أحد في البيت (فقد هجره الجميع)، باستثناء أختيه، والطبّاخة والنادلة. طلب يانوكوفيتش تحضير العشاء له. وقد أصبحت النادلة فيما بعد زوجته الشرعية.

يصعب الجزم بمدى صدقية هذه القصة، التي كان يانوكوفيتش يرويها للمقربين. على أية حال، هو يتميز برواية القصص المحيرة للعقل، حول ماضيه، حتى للناس الذين لا يعرفهم معرفة جيدة.

وفي المحصلة، تمكن يانوكوفيتش من تجاوز الحشود الأولى لساحة ميدان في كييف، وليس هذا فحسب، بل وتمكن من تعبئة جميع الساخطين. وبعد عام ونصف على «الثورة البرتقالية» فاز في الانتخابات النيابية وأصبح رئيساً للوزراء، وبعد ثلاثة أعوام ونصف، في عام 2009، أصبح رئيساً لأوكرانيا.

لم يكن فلاديمير بوتين في يوم من الأيام صديقاً ليانوكوفيتش، ولم يكن يثق به ثقة كاملة، لكنه كان يؤيده ويدعمه باستمرار. طيلة عام 2013 كان يانوكوفيتش يقول إن أوكرانيا أخذت بنهج التكامل الأوروبي وتنوي توقيع اتفاقية الترابط مع الاتحاد الأوروبي. وهذا كان موقفا براغماتياً من جانبه، لأن هذه الفكرة كان يؤيدها جميع السياسيين الأوكرانيين - باستثناء سياسي واحد. كان يعارض هذه الفكرة فيكتور ميدفيدتشوك، صديق بوتين الأقرب، الذي كان يعبر عن وجهة نظر الرئيس الروسي. كان جميع السياسيين يقولون إن أوكرانيا بلد أوروبي، بينما ميدفيدتشوك وحده كان يؤكد أن مستقبل أوكرانيا أن تكون مع روسيا. وقد أسس حركة موالية لروسيا باسم «خيار أوكرانيا»، وكانت شعارات هذه الحركة وملصقاتها تزيِّن جميع مواقف سيارات الباص في جميع أنحاء أوكرانيا. لكن أفكار ميدفيدتشوك لم تلق ذلك التأييد الشعبي الواسع الذي كان يعتقد به بوتين. وبقي رئيس إدارة الرئيس سابقاً كوتشما أحد زعماء النظام الأقل شعبية.

في 27 تموز/يوليو وصل بوتين إلى كييف لحضور الاحتفال بالذكرى السنوية

الـ 1025 لاعتناق روسيا المسيحية. وبعد أن حضر الصلاة في جبل فلاديمير، التقى بيانوكوفيتش. استمر اللقاء 15 دقيقة، وهذا ما أكدت عليه جميع وسائل الإعلام الجماهيرية الأوكرانية. وبعدها توجه إلى المائدة المستديرة التي نظمّها ميدفيدتشوك بعنوان «القيم الأرثوذكسية - السلافية - أساس خيار أوكرانيا الحضاري».

وقد ناقش المشاركون، حسب مخطط ميدفيدتشوك، «هل القيم الأوروبية التي يفرضها الموظفون الأوروبيون قريبة من المجتمع الأوكراني، أم أن الأوكرانيين يدعون إلى حماية وتأكيد التوجهات والأسس والتقاليد الروحية الأرثوذكسية – السلافية؟».

وقال بوتين في كلمته: «نحن، روسيا وأوكرانيا، كنا دوماً متحدين، وفي هذه الوحدة بالذات يكمن مستقبلنا. نحن دوما كنا نحترم وسوف نحترم خيار شركائنا وزملائنا وأصدقائنا وإخوتنا الأوكرانيين، مهما كان خيارهم. وبودي أن يكون هذا الخيار صحيحاً، وأن يبنى تعاوننا على مبادئ الشفافية، والثقة المتبادلة والوحدة الروحية». وبالاختلاف عن عام 2004، عندما كان بوتين شعبوياً في أوكرانيا، وكانوا يصغون إلى كلماته، لم يحدث خطابه في هذه المرة أي انطباع على الأوكرانيين.

في الخريف، وعشية قمة الاتحاد الأوروبي في فيلنيوس، حيث كان على يانوكوفيتش أن يضع توقيعه على اتفاقية الارتباط، أخذ بوتين بنشاط متزايد يشرح له ما هو الخيار الصحيح.

كان رفض أوكرانيا توقيع الاتفاقية، بالنسبة إلى بوتين، قضية مبدأ. وكان منذ بداية رئاسته الأولى كثيراً ما يقول في الاجتماعات: «علينا أن نهتم بأوكرانيا، وإلا قد نفقدها». وكان هو نفسه دوماً المسؤول عن «الملف الأوكراني» في الكرملين، ولم يكن يعهد بمثل هذا المشروع المهم لأي كان. وفي خريف 2013 أخذ هو نفسه يضغط على يانوكوفيتش، كي يتخلى عن خطته. وفي آخر

تشرين أول/أكتوبر - أول تشرين ثاني/نوفمبر حضر يانوكوفيتش بالطائرة ثلاث مرات إلى روسيا لإجراء المباحثات.

كان المال من بين أذرع الضغط: فقد وعدت روسيا بتقديم قرض لأوكرانيا بحدود 15 مليار دولار. والذراع الثانية كانت قضية يوليا تيموشنكو.

بعد أن فاز على منافسته الأبدية (يوليا تيموشنكو) في الانتخابات الرئاسية عام 2010، بدأ فيكتور يانوكوفيتش بمقاضاتها الجنائية. ورفع ضدها عدة اتهامات (بما فيها اتفاقيات الغاز لعام 2009 التي وقعتها مع بوتين) واعتقلها في خريف 2011. كان من الواضح أن يانوكوفيتش يخشى تيموشنكو ولهذا رفض الدخول معها في «تحالف واسع» في عام 2009، خوفاً من أن تغلبه وترتقي فوقه. حتى أن الدائرة المحيطة من المقربين من يانوكوفيتش كانت ضد اعتقال تيموشنكو في السجن، لكنه كان على قناعة راسخة بأن هذه هي الطريقة الوحيدة لتجنب ثورة ساحة ميدان أخرى وثورة جديدة. وكان يانوكوفيتش يفكر في نفسه، في أن تيموشنكو إذا ما بقيت حرة طليقة يمكنها أن تتفق حتى مع بوتين، وتطيح به، عاجلاً أم آجلاً.

وقد نظروا في الغرب إلى اعتقال تيموشنكو بصورة سلبية جداً، وخاصة أنجيلا ميركل التي كانت دوماً منشغلة بها. ففي أثناء كل لقاء لها مع يانوكوفيتش كانت تبدأ اللقاء وتنهيه بالحديث عن موضوع تيموشنكو، وتقول دوماً إنه يجب نقلها إلى ألمانيا للعلاج. وذات مرة، وبناء على طلبها، سُمح للأطباء الألمان بالدخول إلى مستشفى في خاركوف، وقاموا بفحوصات دقيقة للحالة الصحية لرئيسة الوزراء السابقة تيموشنكو. ولكنهم لم يكتشفوا أمراضاً جدية خطيرة، ما أثار دهشة أنجيلا ميركل. عموماً، كانت تيموشنكو تخاف كثيراً على حياتها، وبخاصة من التسمم (بعد حالة التسمم التي أصابت فيكتور يوشينكو، أصيب جميع السياسيين الأوكرانيين تقريباً بفوبيا التسمم). وفي أثناء وجودها في مستشفى السجن، كانت تيموشنكو لا تأكل ولا تشرب إلا ما تحضره لها ابنتها. وقد بدأت السلطات تشدد عملية نقل المواد الغذائية إلى المستشفى ما

أدى إلى تأخير وصولها، واضطر تيموشنكو إلى الإضراب قسراً عن الطعام.

كل هذه التفاصيل كانت تؤثر في المستشارة الألمانية، وألحت بأن من غير الممكن ارتباط أوكرانيا بالاتحاد الأوروبي إلا بعد إطلاق سراح تيموشنكو. وقد استغل فلاديمير بوتين مبدئيتها هذه. وكرر ليانوكوفيتش أكثر من مرة، أن الأوروبيين يريدون الإطاحة به، وأنهم لن يقبلوا ببقائه، حتى إذا ما وقع الاتفاقية - وسيسعون إلى إطلاق سراح تيموشنكو وجعلها الرئيسة المقبلة. وكانت هذه ضربة في الصميم بالنسبة إلى يانوكوفيتش. فمن ناحية، كان يدرك يانوكوفيتش أن توقيع الاتفاقية مع الاتحاد الأوروبي يضمن له إعادة انتخابه لفترة رئاسية جديدة في عام 2015، ومن ناحية أخرى، لم يكن في إمكانه التوقف عن الخوف من تيموشنكو.

على الأغلب، كانت لدى الكرملين أذرع أخرى للتأثير على يانوكوفيتش. على أية حال، أقدم يانوكوفيتش على منعطف خطير في الفترة الأخيرة. ففي 21 تشرين ثاني/نوفمبر 2013، وقبل أسبوع من قمة فيلنيوس، أعلن رئيس الوزراء الأوكراني نيقولاي آزاروف أن توقيع الاتفاقية قد تم تأجيله. وعلى الأثر بدأ يحتشد في ساحة ميدان المحتجون الأوائل - الطلاب الذين كانوا يطالبون بانضمام أوكرانيا للاتحاد الأوروبي.

تقول صونيا كوشكينا44 في كتابها، في يوم 27 تشرين ثاني/نوفمبر حضر يانوكوفيتش إلى حفل عيد ميلاد الأوليغارشي الأوكراني الكبير إيغور سوركيس، مالك نادي كرة القدم «دينامو كييف» وهو الشريك التجاري لميدفيدتشوك وصديقه. وكان يجلس على المائدة كبار رجال الأعمال الأوكرانيون (هم أنفسهم «أعضاء لجنة إدارة أوكرانيا»، بمن فيهم دميتري فيرتاش وإيغور كولومويسكي). وبدلاً من تهنئة المُحتفى بعيد ميلاده، بدأ يانوكوفيتش الأمسية بإعلان أن التكامل مع أوروبا قد ألغي. وطيلة السهرة كان الرئيس يتحدث عن هذا الموضوع فقط، مفسراً قراره بالاقتصاد وحده.

أصيب بالذهول جميع أنصار يانوكوفيتش. فلم يكن أحد ليتوقع مثل هذا القرار، فحتى اليوم الأخير كان كل من يشك من أعضاء الحزب الحاكم بصورة علنية بالتكامل الأوروبي ويقف ضد اتفاقية الارتباط مع الاتحاد الأوروبي، يُفصل من صفوف الحزب ومن عضوية البرلمان - إلى درجة رفع قضية جنائية ضده.

في قمة الاتحاد الأوروبي في فيلنيوس في 28 تشرين ثاني/نوفمبر رفض يانوكوفيتش توقيع الاتفاقية، واقترح دعوة روسيا إلى مباحثات لاحقة (رفضت قيادة الاتحاد هذا الاقتراح). وفي شريط فيديو تم العثور عليه بالصدفة في الإنترنت للأحاديث بين يانوكوفيتش وميركل ورئيسة ليتوانيا داليا غريباوسكايتي، يبدو واضحاً صوت يانكوفيتش وحديثه إليهما: «كان بودي أن تسمعوني. لقد بقيت وحيداً طيلة ثلاثة أعوام ونصف. كنت وحيداً في ظروف عصيبة جداً ومع روسيا القوية جداً».

في ليلة 29 ليوم 30 تشرين ثاني/نوفمبر حاولت الوحدات الخاصة الأوكرانية «بيركوت» تطهير ساحة كييف الرئيسة من المحتجين المتمردين الذين نصبوا خيامهم فيها. وهرباً من رجال الشرطة الذين كانوا يضربون المحتجين، لجأ المحتجون المتمردون إلى دير ميخائيلوفسكي - حيث حماهم الرهبان. ومنذ تلك اللحظة بدأت الثورة الأوكرانية الثانية.

الألعاب الأولمبية: البداية

لقد ظهر أن الألعاب الأولمبية في سوتشي كانت اختباراً عسيراً للغاية. موقف الصحافة العالمية كان محرجاً للغاية. وكانت المخاوف الكبرى لبوتين والمحيطين به ترتبط بحدوث أي طارئ ما في أثناء فترة الألعاب الأولمبية. وقال أحد كبار العاملين في إدارة الرئيس: «كنا نخشى من أن نصف المنشآت التي شُيدت بسرعة قد يكون من نوعية سيئة وقد تنهار بسرعة». وكنا نقلق من أن يحصل نقص في الطاقة الكهربائية في أثناء الأولمبياد. وكانوا يخشون في

الكرملين: «المنشآت ضخمة جداً، وربما كان التنفيذ سيئاً في بعض منها».

ولكن، في النتيجة، كل شيء جرى بصورة مثالية تقريباً. كان التصميم الغريب لـدورات الميـاه فـي المجمع الفنـدقي الـرائع، الـذي شـيدته شـركة «غـازبروم Газпром» الشيء الغريب الوحيد. ففي مقصورات المراحيض بدلاً من وضع وعاء المرحاض و«بيديه»، وضعوا في كل مقصورة مرحاضين - وقد أصبحت هذه الصور هي الصور الرئيسة في الإنترنت في الأيام الأولى للأولمبياد. ولم تكن هناك أية انتقادات جدية أخرى على منظمي الألعاب.

وكان وزير الدفاع سيرغي شويغو ووزير الخارجية سيرغي لافروف من بين آخر من حمل الشعلة الأولمبية النارية عندما وصلت النار الأولمبية إلى سوتشي.

حفل افتتاح الأولمبياد كان رائعاً ومؤثراً جداً، لكن مشهداً واحداً مفتاحياً كان قـد خطـط له المنظمون تمَّ إلغاؤه بإصرار اللجنة الأولمبيـة الدولية. كان من المفروض أن يوجد مغلف في مقعد كل مشاهد يحوي صورة شهيد من شهداء الحرب الوطنية العظمى: مع ذكر اسمه الكامل وتاريخ ميلاده واستشهاده. وكان على عريف الحفل في إحدى اللحظات أن يعلن عن دقيقة صمت، ويرفع خلالها المشاهدون صور الشهداء. كان مُخرج الافتتاح كونستانتين إيرنست، رئيس القنـاة التلفزيونيـة الروسـية الأولـى قـد بـذل جهداً كبيراً جداً من أجل إدراج دقيقـة الصمت هـذه علـى الملعب فـي حفـل الافتتـاح. لكن اللجنة الأولمبيـة الدولية قررت أن مثل هذه الخطوة السياسية ستكون سابقة غير مرغوبة - وإذا ما تنازلت لها في سوتشي، فإن المنظمين في جميع الألعاب الأولمبية اللاحقة سوف يعلنون عن دقائق صمت ما45.

حضـر حفـل الافتتـاح نحـو أربعين زعيماً أجنبياً (بمن فيهم أربعة زعماء من الدول العشرين الكبار: رؤساء وزراء إيطاليا واليابان وتركيا ورئيس جمهورية الصين الشعبية)، وقد اعتبرت وسائل الإعلام الجماهيرية الروسية الحكومية هذا بمثابة اعتراف دولي كبير واسع. ومن بين الضيوف كان رئيس أوكرانيا

فيكتور يانوكوفيتش. وقد كان قدومه إلى سوتشي، بالنسبة إليه، خطوة مشبعة بالأخطار، ذلك أن المجابهة بين المعارضة والعناصر الأمنية القوية في مركز مدينة كييف قد أدت إلى سقوط أول الضحايا، ففي أواخر كانون ثاني/ يناير تم إطلاق النار على بعض النشطاء من قبل قنّاصين مجهولين.

كان هدف يانوكوفيتش الرئيس من قدومه السعي إلى الحصول على القسط الثاني من القرض الموعود في كانون أول/ديسمبر وهو 15 مليون. بيد أن بوتين لم يكن في عجلة من أمره لإعطائه النقود.

وبحسب قول دميتري بسكوف، وحتى عندما عاد يانوكوفيتش إلى كييف، بقي على اتصال دائم ببوتين. وكان يتصل به عدة مرات في اليوم. لكن الأحداث في كييف قد أساءت إلى المزاج الاحتفالي لرئيس روسيا. كان يحاول دوماً أن يقدم النصائح ليانوكوفيتش، واقترح عليه المساعدة، لكن يانوكوفيتش كان يجيبه: «لا حاجة، فلاديمير فلاديميروفيتش، كل شيء تحت السيطرة». لم يصدقه بوتين، ولم يلح. ولهذا لم يعطه النقود.

في هذه الفترة – مع بداية الأولمبياد - لم يعد هناك بالطبع، شيء تحت السيطرة. فمنذ 16 كانون ثاني/يناير كان البرلمان الأوكراني قد أقرّ على عجل عدة قوانين، كان عليها أن تضع حداً للاضطرابات. وقد أسمتها المعارضة بأنها قوانين «ديكتاتورية». وبالفعل، فقد كانت منقولة من القوانين الروسية التي أقرت خلال عام، بعد الاجتماعات الحاشدة في ساحة بولوتنايا: المسؤولية الجنائية عن الافتراء، المعاقبة الأشد قسوة على التطرف (اندرجت تحت هذا التعريف النداءات إلى الإطاحة بالسلطة)، مفهوم «العميل الأجنبي» للمنظمات غير الحكومية، حظر الإنترنت – وسائل الإعلام الجماهيرية غير الخاضعة للرقابة الحكومية.

إن إقرار هذه القوانين في روسيا كان خلال فترة ممتدة زمنياً، ولم يثر أية احتجاجات جدية، باستثناء بعض التذمر في وسائل الإعلام الجماهيرية

الليبيرالية. أما في كييف الهائجة فقد أثار إقرارها هزة أرضية لم يتوقعها يانوكوفيتش أبداً. فقد بدأت إراقة الدماء في شارع غروشيفسكي المجاور لبناء البرلمان الأوكراني وبناء رئاسة الحكومة: بين مقاتلي الوحدات الخاصة «بيركوت» ونشطاء مقاومة ساحة ميدان، بمن فيهم الجناح المقاتل المعروف باسم «القطاع الأيمن»، حيث بدأوا بتبادل إطلاق النار.

بعد أسبوع، عرض يانوكوفيتش على أرسين ياتسينيوك، أحد زعماء المعارضة، أن يصبح رئيس وزراء ويشكل حكومة وحدة وطنية. بيد أن هذا جعل الأمر أسوأ. فقد رفض ياتسينيوك، لكن يانوكوفيتش لم يكلف نفسه عناء إعلام حزبه وأعضاء الحكومة ورئيس الوزراء القائم آزاروف بنواياه. فقد علموا بعرضه من التلفزيون. ومنذ هذه اللحظة تقريباً بدأ التسرب الهادئ في صفوف أنصار يانوكوفيتش - حيث بدأ أعضاء حزب الأقاليم بالانفصال عن الرئيس واحداً إثر الآخر.

في 28 كانون ثاني/يناير استقال رئيس الوزراء آزاروف. وفي اليوم نفسه، ألغى البرلمان القوانين «الديكتاتورية»، وعين يانوكوفيتش سيرغي أربوزوف - صديق ابنه ألكسندر - قائماً بأعمال رئيس الوزراء. وهذا ما أثار سخط النخبة الأوكرانية كلها، بما فيها حزب الأقاليم.

في الكرملين، يبدو، أنهم لم يدركوا جيداً ما الذي حدث خلال سنوات رئاسة يانوكوفيتش. لقد وصل يانوكوفيتش إلى السلطة بدعم من كبار الأوليغارشيين الأوكرانيين، لكنه قرر وضع حد لتبعيته لهم. وكانت الطريقة الوحيدة ليؤمن لنفسه استقلالاً كاملاً عن كبار رجال الأعمال الأوكرانيين أن يصبح واحداً منهم، بل أن يصبح أكبرهم. وهذه المهمة بدأ بتنفيذها ألكسندر يانوكوفيتش - ابن الرئيس، وهو طبيب من حيث الاختصاص ولُقّب بـ ساشا – طبيب الأسنان. كان يتصرف بطريقة عدوانية وبوقاحة لدرجة أنه أدهش من رأى تماسيح رجال الأعما. كان ينتزع الفرص ليس من المقاولين الصغار والمعادين فحسب، بل وحتى من أصدقاء والده ورعاته. حتى أن رجل الأعمال الروسي الكبير

فلاديمير يفتوشنكوف، الذي كان يعد صديق الرئيس الأوكراني، أصبح أحد ضحايا ألكسندر يانكوفيتش.

وبحسب الرواية، بعد حفل تنصيبه في عام 2010، قال فيكتور يانوكوفيتش في حفلة مع أصدقائه مقترحاً النخب التالي: «لن آكل شيئاً لعامين! سأعمل لأجل البلد!». ولسخرية القدر، عند انقضاء هذين العامين، تبين أن يانوكوفيتش قد تفرغ فقط لثروته الشخصية. وقد أصبح مقره في ميجيغوري، الذي رُويت عنه شائعات تفوق الخيال في الصحافة الأوكرانية الليبيرالية، رمزاً لثرائه الشخصي. وقد أنّبه رينات أخميتوف أوليغارشي دونيتسك وأكبر راع لجميع حملات يانوكوفيتش الانتخابية بقوله: «يمكن للرئيس أن يملك بلداً ويمكنه أن يملك فيلا».

كان الرئيس يانوكوفيتش شديد التعلق بهذه الفيلا سيئة السمعة. منذ عام 1935 كانت ميجغوري تعد مقر إقامة الحكومة، حيث كان يعيش قادة أوكرانيا السوفييتية (بمن فيهم نيكيتا خروتشيف). ويانوكيفيتش نفسه عاش فيها منذ عام 2002، لكنه في عام 2007 تمكن من خصخصة العزبة - في تلك الفترة كان فيكتور يوشنكو رئيساً، وفيكتور يانوكوفيتش رئيس وزراء. بيد أن يوشنكو أراد حل البرلمان وإجراء انتخابات مبكرة، ولهذا، وكي لا يعترض يانوكوفيتش، وكتعويض له عن احتمال خسارته السلطة، أهداه هذا المقر الكبير.

هذا المقر تبلغ مساحته 140 هكتار، وقد أحيط بسور ارتفاعه خمسة أمتار. ويوجد ضمن أراضي المقر مرسى لليخوت، وحديقة حيوانات، ونادي للخيل، وساحة للرماية، وملعب للتنس، وأراضي للصيد. في شهر شباط/فبراير، بعد الإطاحة بيانوكوفيتش اكتشف المتمردون في المقر، على سبيل المثال، مجموعة من السيارات القديمة وثقّالة ورق ذهبية على شكل رغيف أسطواني.

الألعاب الأولمبية: الأوج

أمضى فلاديمير بوتين في سوتشي يومي العطلة الأولين فحسب، ثم عاد في

يوم الثلاثاء 11 شباط/فبراير إلى موسكو. حيث عيّن هناك مسؤولاً جديداً عن حقوق الإنسان والتقى بوزير الدفاع المصري عبد الفتاح السيسي الذي وصل إلى موسكو، والذي كان قبل ذلك بنصف عام قد تغلب على «الحراك المصري»، وأطاح بالرئيس المصري محمد مرسي. وعملياً أعلن المشير السيسي في موسكو بالذات عن عزمه على ترشيح نفسه رئيساً - فقبل ذلك لم يدلِ بمثل هذا التصريح، لكن بوتين في أثناء اللقاء أيد علناً ترشيحه.

مع بقائه على تواصل دائم مع يانوكوفيتش، كان بوتين مقتنعاً بأن كل ما يجري في كييف - هو نتيجة عملية ينفذها الأمريكيون. فمنذ شهر كانون أول/ديسمبر كانت قد وصلت بالطائرة إلى كييف مساعدة وزير الخارجية الأمريكية فيكتوريا نولند وعضو مجلس الشيوخ جون ماكين. وقد كانت توزع في ساحة ميدان البسكويت والسندويتش على المتمردين وعلى المقاتلين، وكان ماكين يلقي الخطب على المنصة.

ويروي بسكوف، أنه كانت هناك أدلة أخرى كثيرة دامغة تثبت التدخل الأمريكي: «لقد كان انهياراً غير قابل للسيطرة. كانت أخطاء يانوكوفيتش تنسكب على استفزازات واشنطن للموقف. كان الناس يتوافدون إلى مطار كييف بأعداد كبيرة محملين بالأموال، وبقيت النوافذ مضاءة ليلاً ونهاراً. كان كل شيء مبرمجاً ومنظماً حسب المخطط. لقد كان هذا تحدياً مباشراً لأمن روسيا».

في 14 شباط/فبراير عقد بوتين اجتماعاً لمجلس الأمن القومي في نوفو أوغاريفو، وفي اليوم التالي عاد إلى سوتشي. وهنا أيضاً، كانت المجابهة مع الولايات المتحدة الأمريكية واضحة للعيان. في 15 شباط/فبراير لعب منتخب الهوكي الروسي ضد المنتخب الأمريكي في المجموعة. وقد حضر إلى المنصة الرئيس بوتين ورئيس الوزراء ميدفيديف ورئيس إدارة الكرملين إيفانوف. بيد أن المباراة انتهت بفضيحة. فبعد أن بلغت النتيجة 2:2 في الوقت الإضافي سجل لاعب الهوكي الروسي هدفاً ثالثاً، لكن الحكم الأمريكي بريدلي ماير لم

يحتسبه لأن المرمى قد تحرك من مكانه. وبعد ذلك خسرت روسيا في ضربات الجزاء الترجيحية.

كان بوتين وجميع المتعاطفين مع الفريق الروسي غاضبين جداً. لماذا يحكِّم المباراة مع الأمريكيين حكم أمريكي، كانوا غاضبين من المؤامرة المعادية لروسيا الواضحة للعيان. ولم يكن غضبهم أقل من التهنئة التي كتبها الرئيس الأمـريكي بـاراك أوبـاما علـى تويتـر للاعبي الـهوكي الأمـريكيين: «أهنئ ت.ج.أوشي والمنتخب الشجاع للولايات المتحدة الأمريكية في الهوكي بالفوز الكبير! لا تفقدوا الإيمان أبداً بالمعجزات». التوقيع «أو.ب OB»- ما يعني أن هذه التغريدة كتبها بنفسه وليس عبر السكرتير الصحافي.

وقد علق بوتين على المباراة ساخراً: «من المؤسف، أن الحكّام لم يلاحظوا هذا في الوقت المناسب، لأن اللعب مع مرمى متحرك من مكانه - هو دوماً مفيد جداً لأحد الفريقين، حيث المرمى متحرك باتجاهه، وبخاصة إذا لم يلاحظ الحكم ذلك. لأن الفلكة إذا دخلت المرمى يمكن دوماً التحدي والمعارضة، أما إذا لم تـدخل، فـيمكن الاعتمـاد علـى الـهجوم المضـاد النـاجح. لكن الحـكّام أحيـاناً يخطئون، ولهذا لو كنت أنا لما وجهت أي لوم لأي كان، بل لانطلقت من أننا سوف نفوز بسبب الفرق الواضح في النقاط».

بعد المباراة توجه الرئيس بوتين للقاء المحاربين القدماء في حرب أفغانستان - ففي هذا اليوم تصادف الذكرى السنوية. الخامسة والعشرون لانسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان، وانتهاء الحرب التي كانت من أسباب القضاء على الاتحاد السوفييتي.

وبعد انتهاء اللقاء مع المحاربين القدماء في أفغانستان، توجه بوتين للقاء رياضيي ومـدربي المنتخب الأوكراني. وفـي أثناء اللقاء، قال أحد المدربين لبوتين أمام عدسة الكاميرا التلفزيونية إن الجميع يشجعون منتخب الهوكي الروسي ويتألمون بسبب الهدف الذي لم يحتسبه الحكم الأمريكي. فأجاب

بوتين قائلاً: «جيد جداً. يسرني جداً أن أسمع منكم هذا».

أفغانستان الجديدة

بسبب الأولمبياد، لم يلاحظ أحد تقريباً هذه الذكرى السنوية الـ 25 لانتهاء التدخل العسكري السوفييتي في أفغانستان، ولم يحتفل بها. هذه الحرب القاتلة للاتحاد السوفييتي بدأت في عام 1979. كان الانقلاب في كابول محركاً لإدخال القوات السوفييتية: فقد قام رئيس الوزراء الأفغاني حافظ الله أمين بالانقلاب على الرئيس الأفغاني طرقي وقتله.

عانى بريجنيف كثيراً من مقتل طرقي، الذي كان قد استقبله قبل ذلك بفترة قصيرة في موسكو، ودعا أمين بإنسان غير شريف. علاوة على ذلك، بعد مقتل طرقي أخذت لجنة أمن الدولة أي «ك.ج.ب» ترسل تقارير أمنية مفادها أن أمين ينوي تغيير توجهه نحو الولايات المتحدة الأمريكية، وأنه يلتقي سراً بالدبلوماسيين الأمريكيين، ويقدم تعليماته لأجهزته الأمنية بتشديد المراقبة على المواطنين السوفييت العاملين في أفغانستان. إن القسم الأكبر من هذا كان افتراءات صادرة من أعداء أمين. لكنها كانت كافية كي يبحث المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفييتي تهديداً أكبر. فقد اعتبر أندروبوف رئيس لجنة أمن الدولة ووزير الدفاع أوستينوف، أن تطور الأحداث اللاحق في أفغانستان مشبع بخطر قيام نظام معاد للاتحاد السوفييتي في أفغانستان. ولم يبق سوى مخرج واحد - دخول القوات السوفييتية إلى أفغانستان.

كان رئيس الأركان العامة أوغاركوف ضد هذه الفكرة قطعياً. لكن أندروبوف استطاع إسكاته بالعبارة التالية: «دُعيتَ إلى هنا ليس من أجل سماع رأيك، بل من أجل أن تكتب تعليمات المكتب السياسي وتقوم بتنفيذها». وكان كوسيغين رئيس الحكومة السوفييتية معارضاً أيضاً لإدخال القوات السوفييتية إلى أفغانستان. بيد أنه في الاجتماع التاريخي للمكتب السياسي في 12 كانون أول/ديسمبر 1979 كان كوسيغين غائباً - واتخذ قرار إدخال القوات

السوفييتية بالإجماع.

استمرت الحرب سنوات عشر، وأصبحت أفغانستان «فييتنام السوفييتية»، وفاتحة لانهيار الاتحاد السوفييتي... وقد لعب الأمريكيون دوراً كبيراً بالطبع - فقد دعموا بقوة كبيرة المجاهدين الذين كان يقاتلون الاتحاد السوفييتي في أفغانستان. وكان السعودي أسامة بن لادن، الذي أصبح في أواخر التسعينيات عدو الأمريكيين رقم واحد، هو المنتدب الإقليمي للمتطوعين، الذي كان يوزع الأموال الأمريكية خلال الحرب.

في عام 1989 اتخذ ميخائيل غورباتشوف قراراً بانسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان. وبعد ثلاث سنوات تمت الإطاحة بالزعيم الأفغاني نجيب الله الموالي للسوفييت. وعاش في السنوات الأربع التالية في بناء بعثة هيئة الأمم المتحدة. وفي عام 1996 عندما استولت قوات طالبان على العاصمة كابول اقتحمت بناء بعثة الأمم المتحدة، واعتقلت نجيب الله وقتلته. لم يعترف المجتمع الدولي بحكومة طالبان، لكنها كانت تحكم أفغانستان بحكم الواقع. ولم تتم الإطاحة بها إلا في عام 2001 - وفي هذه المرة على يد الأمريكيين، على رأس التحالف الدولي وبدعم من روسيا. لكن الحرب في أفغانستان لم تنتهِ مع ذلك.

في شباط/فبراير 2015، عند الاحتفال بالذكرى الـ 25 لانسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان، اعترف بوتين بأنه يتفهم قرار بريجنيف جيداً: «الآن، عندما تمر السنوات، وعندما تتضح وقائع جديدة أكثر، نحن نفهم أفضل وأفضل ما الذي شكل الذريعة والسبب لإدخال القوات السوفييتية إلى أفغانستان. بالطبع، كانت هناك أخطاء كثيرة جداً، ولكن كانت هناك تهديدات واقعية، حاولت القيادة السوفييتية في تلك الفترة مجابهتها بإدخال القوات إلى أفغانستان».

وبصورة رمزية، فإن المحاربين القدماء في حرب أفغانستان سيلعبون أهم دور

في الأحداث اللاحقة في القرم.

الألعاب الأولمبية: الحصيلة

إن نتيجة الفريق العامة وليس الانتصارات الفردية هي النتيجة الأهم لأية ألعاب أولمبية، بالنسبة إلى روسيا. فالبلد الذي حاز على أكبر عدد من الميداليات الذهبية يعدّ هو البلد الفائز. بيد أن الوضع لم يكن مسراً للغاية عند الفريق الروسي حتى نهاية الألعاب. فقبل خمسة أيام من النهاية، كانت روسيا، البلد المضيف للأولمبياد في المركز الخامس، وقد سبقتها ألمانيا والنرويج وهولندا والولايات المتحدة الأمريكية. وغادر فلاديمير بوتين سوتشي من جديد، فقد نشأت لديه مشاكل أهم بكثير من حساب الميداليات الأولمبية. في 18 شباط/فبراير استؤنفت من جديد الأعمال القتالية في كييف. حيث بدأ نشطاء ساحة ميدان في النهار الهجوم على الحي الحكومي، وحاولت قوى الأمن في الليل تطهير الساحة. وخلال الليل قُتل 25 شخصاً.

كان بوتين يتواصل هاتفياً يومياً مع فيكتور يانوكوفيتش (الذي كان يتابع القول إن الأمور تحت السيطرة)، ومع أنجيلا ميركل، التي كان يقنعها بأن المعارضة الراديكالية هي المذنبة في العنف والمسببة له ولا يمكن اتهام رئيس أوكرانيا في هذه المأساة.

وخلال هذه الفترة أخذت تتحسن أوضاع المنتخب الروسي في نهاية الأولمبياد بشكل سريع. ففي 19 شباط/فبراير حصل المنتخب الروسي على الميدالية الذهبية في التزلج على الجليد للرجال، وفي 20 منه حصل على ميدالية ذهبية أخرى في الرقص على الجليد للنساء.

وقد ازداد توتر الوضع في كييف خلال هذه الفترة. كان مركز المدينة مشتعلاً، هائجاً، وقد قُتل في 20 شباط/فبراير خلال الصدامات أكثر من 90 شخصاً. وغادر عدد من الرياضيين الأوكرانيين الأولمبياد في سوتشي احتجاجاً على سفك الدماء في وطنهم.

في 20 شباط/فبراير بدأت المباحثات بمشاركة وزراء خارجية ألمانيا وفرنسا وبولندا: فرانك والتر شتاينماير، لوران فابيوس، رادوسلاف سيكورسكوي، وكذلك الممثل الخاص للرئيس الروسي فلاديمير لوكين -المحقق الذي استقال مؤخراً.

في الوقت نفسه وصل بالطائرة إلى العاصمة الأوكرانية فلاديسلاف سوركوف، مساعد بوتين. وكانت لديه مهمة خاصة تختلف عن مهمة فلاديمير لوكين. فإذا كان على لوكين العمل مع الدبلوماسيين الأجانب، فإن على سوركوف العمل مع يانوكوفيتش وحاشيته، كانت مهمته توفير سلامة السلطة الأوكرانية والحفاظ على تعقّلها. وهذا ما كان يشك فيه بوتين كثيراً بعد شهرين من أقوال يانوكوفيتش حول أن «كل شيء تحت السيطرة».

أبلغ الوزراء الأوروبيون يانوكوفيتش أنه نتيجة سفك الدماء فقد أصبح عملياً، خارج الشرعية الدولية، ولهذا فمن مصلحته القبول بجميع التنازلات الممكنة. كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد فرضت عقوبات شخصية على يانوكوفيتش وعلى قادته الأمنيين المسؤولين عن إطلاق النار في ساحة ميدان، وكان على الاتحاد الأوروبي أن يحذو حذوها. ووعد وزير الخارجية الفرنسي بـ«فرض عقوبات مادية على المسؤولين عن أعمال القتل والقمع».

بينما كان الوزراء الأوربيون وزعماء المعارضة الأوكرانية ويانوكوفيتش يجرون المفاوضات، كانت تقلع طيلة يوم 20 شباط/فبراير طائرات خاصة من مطاري كييف. حيث نقل كبار موظفي حكومة يانوكوفيتش أسرهم وأموالهم وثرواتهم. ومن مطار جولياني وحده في كييف أقلعت 64 طائرة خاصة لرجال الأعمال VIP.

وفي أثناء المفاوضات وافق يانوكوفيتش على كل شيء، ووعد بإجراء إصلاحات دستورية وانتخابات مبكرة في كانون أول/ديسمبر 2014. وفي اللحظة الحاسمة اتصل من جديد بفلاديمير بوتين، الذي ألح على يانوكوفيتش

بأن يوقع اتفاقية مع المعارضة. وبصورة متوازية اتصل بوتين بأنجيلا ميركل وباراك أوباما وفرانسوا أولاند وديفيد كاميرون.

بيد أن معارضة ساحة ميدان لم توافق على توقيع الاتفاقية. فعندما خرج زعماء المعارضة الأوكرانية إلى ساحة كييف الرئيسة كي يحدثوا الحشود المجتمعة بما تم الاتفاق عليه مع يانوكوفيتش استهجنت الحشود وقابلتهم بالصفير. وفي أثناء خطبة فلاديمير كليتشكو، الذي كان يعدّ نفسه زعيم المعارضة الأوحد، صعد إلى المنصة أحد النشطاء وصاح: «زعماؤنا يقبِّلون يد القاتل! يا للعار! لن يحكمنا نيقولاي يانوكوفيتش عاماً آخر! غداً حتى الساعة العاشرة صباحاً عليه أن يستقيل!». وأخذت ساحة ميدان تردد بحشودها «ارحل أيها المحكوم********». وتابع الناشط فلاديمير باراسيوك الذي صعد إلى المنصة، قائلاً: «إذا لم يصدر ساستنا حتى الساعة العاشرة بياناً بأن على يانوكوفيتش أن يستقيل بأقصى سرعة، فإننا سنهجم بأسلحتنا! أقسم لكم على ذلك!».46 وفي تلك اللحظة حُملت التوابيت التي تضم جثث الشهداء، وجثا زعماء المعارضة، بمن فيهم كليتشكو، على ركبهم احتراماً للشهداء.

أما الحدث المفاجئ يوم 21 شباط/فبراير فلم يكن عدم توقيع الاتفاقية مع المعارضة، وليس أن الحشود في ساحة ميدان لم تقرّها، بل أن عناصر الأمن بعد هذا غادروا مواقعهم وتفرقوا ورحلوا إلى بيوتهم. كما رحلت قوات وزارة الداخلية التي كانت تحرس مبنى الحكومة والبرلمان الأوكراني، وكذلك الوحدات الخاصة «بيركوت» التي كانت تحيط ببناء إدارة الرئيس. وقد أعطى الأمر بالرحيل ومغادرة الموقع وزير الداخلية فيتالي زاخارتشنكو. وقد كانت هذه صدمة حقيقية للإدارة - يانوكوفيتش وحاشيته أصبحوا فجأة من دون حراسة، وجهاً لوجه مع المتمردين.

اتصل يانوكوفيتش ببوتين كي يخبره بأنه وقع الاتفاقية وأنه ينوي الآن التوجه إلى خاركوف. فصرخ بوتين قائلاً: «أين تنوي الذهاب؟ ابق مكانك! البلد كلها تخرج من تحت سيطرتك. عصابات اللصوص تتجول في كييف. ماذا بك،

أنت مجنون؟». أجاب يانوكوفيتش: «كل شيء تحت السيطرة». وسيقول هكذا تقريباً فيما بعد بوتين عن زميله السابق: «لا يمكن للمرء أن يتصور مثل هذا الحمق، ومثل هذا الجبن. هذا ما لا يمكن أن يخطر في ذهن إنسان».

لقد أسقط سوركوف عملياً مهمته، فقد كان عليه عدم السماح بهروب يانوكوفيتش من كييف وسقوط نظامه. وقد كانت استقالة سوركوف من مهمته محتومة، لكن بوتين كان يمهله، لأنه لم يكن يحب إيقاع العقوبة بمزاج متهور - فأسلوبه يقوم على الفصل الزمني بين السبب والنتيجة. ولهذا بالذات، سافر سوركوف في آذار للاستجمام في الخارج، أما زوجته فشرعت بنشاط أكبر في وضع صوره على انستغرام. فقد أخذ يعتبر نفسه عملياً أنه لم يعد موظفاً، ويمكنه أن يسمح لنفسه لأن يعيش حياة خاصة. لكن الغرب أنقذ سوركوف بإدخاله في قائمة المعاقبين الأولى من قبل الاتحاد الأوروبي. فلم يستطع بوتين أن يعاقب مرة ثانية من عاقبه الأعداء. واحتفظ سوركوف بمنصب مساعد الرئيس للشؤون الأوكرانية وبعد فترة قصيرة، أوفد من جديد إلى أوكرانيا. ولكن في هذه المرة - من أجل بحث الوضع في الدونباس.

القشرة انتُزعت

في مساء 24 شباط/فبراير توجه يانوكوفيتش إلى مقر إقامته في ميجيغوري - إلى تلك الفيلا التي كانت عنده أكثر أهمية من الدولة. وهناك بدأت أعمال الترحيل على قدم وساق: فاعتباراً من 19 شباط/فبراير بدأوا بنقل الأشياء والممتلكات والأموال والسبائك الذهبية.

دعا يانوكوفيتش إلى عشاء الوداع رئيس الإدارة والناطق باسم البرلمان الأوكراني - والأشخاص الأوفياء الذين لم يستقيلوا ولم يغادروا أوكرانيا. على أية حال، حضر رئيس البرلمان فلاديمير ريباك إلى ميجيغوري بالذات، كي يكتب طلب استقالته. فقد أدرك أنه لن يتمكن من البقاء. ومنذ الصباح كان غالبية نواب حزب الأقاليم قد تقدموا بطلبات انسحابهم من حزب السلطة.

وبعد العشاء توزع الجميع على السيارات وانطلقوا جميعاً باتجاه خاركوف، حيث خُطط لعقد مؤتمر انفصالي كان عليه أن يتحدى انتصار المتمردين في ساحة ميدان، وربما المطالبة بفيدرالية أو انفصال المناطق الشرقية. وكان قد قام بمثل هذه المحاولة يانوكوفيتش في عام 2004، في ذروة «الثورة البرتقالية». لكنها انهارت آنذاك.

في هذه المرة أيضاً انهارت المحاولة من جديد. وكما تصف صونيا كوشكينا في كتابها، كان يانوكوفيتش يتصرف وكأنه لم يحدث أي شيء، وكأنه لا يزال رئيساً، كما في السابق، وأن ما يزال هناك من يصغي لكلمته. وقد اعتبر محافظ خاركوف ميخائيل دوبكين سلوكه غير لائق، وأقنع يانوكوفيتش بعدم الظهور في المؤتمر. وعلاوة على ذلك، قال له، إنه لا يضمن أمنه الشخصي.

ومع ذلك، فإن يانوكوفيتش فكر جدياً بتقسيم البلاد. ففي المساء جمع حوله شركاءه القدامى في الرأي وطرح عليهم السؤال التالي: «فكّروا في اسم للدولة؟». قال أحد المتحدثين مازحاً: «الصين»، أجاب آخر بصورة جادة: «ثمة بلد اسمه الصين». غضب يانكوفيتش قائلاً: «هل تسخر؟».

في صباح يوم 22 شباط/فبراير، علِم يانوكوفيتش، أن سكان كييف احتلوا مقر إقامته المفضل في ميجيغوري. ثم سجل نداء هاتفياً قال فيه، إن ما يجري في البلاد هو: «لصوصية، وأعمال تخريبية، وانقلاب على الدولة».

ثم حدثت ربما لحظة حاسمة أخيرة، غير قابلة للتراجع. بعد أن هرب من العاصمة، اقترب الرئيس من قصر خاركوف للرياضة، حيث كان من المفروض عقد مؤتمر النواب، فخرج من سيارة الجيب واتجه إلى مدخل القصر. وفي هذه اللحظة بالذات، رن جهاز هاتفه الموبايل. وبعد حديث قصير، توقف يانوكوفيتش، ولم يدخل وعاد إلى سيارته وغادر.

لم يُعقد المؤتمر - فقد اقتحم البناء مشجعو كرة القدم المتعصبون، مؤيدو ساحة ميدان الأوروبية. وبالهرب وحده أنقذت الطبقة الحاكمة العليا كلها نفسها

في مدينة خاركوف.

توجه يانوكوفيتش إلى مطار دونتسك، لكن حرس الحدود المحليين رفضوا السماح بإقلاع طائرته فالكون الخاصة إلى روسيا. عندها توجه يانوكوفيتش بسيارته إلى القرم. وهناك أطلق حراسه واتجه على طريق الشاطئ، حيث التقطته طائرة روسية عمودية.

ظهر يانوكوفيتش للمرة التالية أمام الجمهور بعد أسبوع في 28 شباط/فبراير في روسيا. وفي أثناء مؤتمر صحافي عقده في روستوف على نهر الدون، ترك انطباعاً لدى الحاضرين بأنه إنسان غير كفؤ، مؤكداً باستمرار أنه لا يزال الرئيس الشرعي الوحيد. وألقى المسؤولية عن كل ما حدث على المعارضة الراديكالية «والشبيبة الفاشية» و«الوسطاء الدوليين» الذين خانوه.

على الرغم من خيبة أملهم بيانوكوفيتش، كانوا في الكرملين يشاركونه الرأي بخصوص دور الوسطاء الغربيين. يحلل دميتري بسكوف الوضع قائلاً: «لقد وقع الاتفاقية، وأصدر أمراً بإخراج قوات الأمن والشرطة، وبقي في البلاد. ووعد الوسطاء الأوروبيون بأن يكونوا ضمانة تنفيذ الاتفاقية. إن ما حدث – هو وضع شنيع بكل بساطة. وتطور للأحداث لا سابق له - لقد كان هذا تهديداً مباشراً لروسيا».

في الـ23 من شهر شباط/فبراير اختتمت الألعاب الأولمبية في سوتشي. في الأيام الثلاثة الأخيرة حصل المنتخب الروسي على ميداليتين ذهبيتين في كل يوم، وأنهى الأولمبياد بفوزه بالمركز الأول في حساب الفرق. لقد كان هذا عيداً وطنياً.

بيد أن الكرملين كان مشغولاً بمسائل أخرى تماماً. فقد كان بوتين قد اتخذ قراراً بالبدء بعملية القرم.

يتأوه بسكوف قائلاً: «مفارقة هذه الألعاب الأولمبية تكمن في أنها كانت من

أفضل الألعاب في تاريخ الأولمبياد. لكنها لم تعش في الذاكرة الاجتماعية العالمية سوى بضعة أيام. فالصحافة الأوكرانية السليطة اللسان قد شطبت كل شيء».

في تلخيصه لمحصلة الأولمبياد، قال بوتين نفسه، إنه لم يكن يشك في تحامل الغرب وتحيزه: «ثمة جماعة من المنتقدين، إنهم بعيدون عن الرياضة، إنهم يهتمون بالصراع التنافسي في مجال السياسة الدولية. وقد استخدموا هذا المشروع الأولمبي لتحقيق أهدافهم الخاصة في مجال الدعاية المضادة لروسيا. ومهما قلنا لهم، ومهما حاولنا إقناعهم، فهذا مستحيل، لأن لديهم عمل آخر، لديهم هدف آخر».

يقول بسكوف واثقاً: «إن هدفهم التخلص من بوتين. فهو، بالنسبة إليهم، غير مريح، بشكل مميز. فروسيا في عهد بوتين عنيدة جداً، لا تميل إلى التنازلات، وهم مستعدون لكل شيء من أجل التخلص منه. لقد شعرنا بهذا في السابق، ولكن بعد أحداث أوكرانيا ظهر كل شيء بطريقة أخرى. لقد خُلعت الأقنعة الدبلوماسية بعد أحداث أوكرانيا. في السابق كانت المجابهة مغطاة بقشرة دبلوماسية، أما الآن فقد انتُزعت هذه القشرة».

في عام 1980 خرّبت بداية الحرب في أفغانستان العيد الذي كان الاتحاد السوفييتي يعد العدة له عام – الدورة الأولمبية– 80 في موسكو. وقد قاطعت الألعاب الأولمبية آنذاك 65 بلداً بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وكندا وجمهورية ألمانيا الاتحادية وتركيا واليابان وحتى الصين. لم تحصل مقاطعة للألعاب الأولمبية في سوتشي - فأحداث القرم بدأت إثر انتهاء الأولمبياد. بيد أن الاحتفال الرياضي تم تخريبه من جديد.

الفصل السابع عشر: وزير الدفاع سيرغي شويغو ينتقم لأفغانستان ولنيقولاي الأول

يحب سيرغي شويغو أن يردد، أنه منذ الطفولة كان يحلم بأن يصبح سائق شاحنة: بشرط أن يكون حراً بصورة مطلقة، ولا يرتبط إلا بنفسه. ووزير الدفاع الحالي - وهو محطم الرقم القياسي في البقاء في السلطة، كان قد فقد حريته واستقلاليته منذ عام 1991.

إن شويغو دوماً، وحتى قبل أن يصبح وزيراً للدفاع، كان يتصرف كرجل عسكري: فالنكات العسكرية، والانضباط، ولهجة الحديث القاسية، ومحبة النظام - كل هذا متوفر فيه. وحتى على خلفية «ضباط الأمن» يبدو أكثر وحشية - فهو ليس خريج معهد اللغات من حيث التعليم، بل مهندس بناء.

يتمتع شويغو بشهرة مثالية للرجل السياسي - لكنه لم يستخدمها أبداً. وهو، على الأصح، ليس سياسياً. إنه عسكري، ينفذ دوماً الأمر بدقة.

في عام 2006 في أثناء تسجيل برنامج تلفزيوني سأل مراهق شويغو، وكان آنذاك وزير الحالات الطارئة، السؤال التالي: «تخيل، أننا جميعاً على ظهر طائرة بدأت بالسقوط. فبماذا تأمر أن نفعل؟». أجاب شويغو، من دون تردد: «لا شيء، فهي تسقط على أية حال».

الرئيس

إن مشاهدة فلاديمير بوتين لعملين فنيين قد دفعته لتعيين سيرغي شويغو وزيراً للدفاع. العملان هما: فيلم The Boss ومسلسل House of Cards. «سيكون ذلك مفيداً لك»، هكذا أوحى هذا العملان للرئيس. وجلي لماذا حازا على إعجاب بوتين: فقد عززا رأيه في أن رجال السياسة الغربيين أوغاد ماجنون عاديون، وأن جميع أقوالهم عن القيم وحقوق الإنسان لا تساوي شيئاً، وهم يحتاجون إليها فقط لمجابهة أعدائهم. وكان شويغو يؤمن بالكامل برأي بوتين هذا.

كان وزير الدفاع الجديد ميالاً إلى أقصى حد إلى بوتين، على الرغم من أن

منصبه الوظيفي قد بدأ قبل فترة طويلة من قدوم بوتين إلى موسكو. وعموماً، ليس هناك في دائرة بوتين المقرّبة «رجلاً معمراً» بقي مثل هذه المدة الطويلة مثل شويغو. فقد أصبح وزيراً اتحادياً منذ عام 1991، عندما كان بوتين يعمل مستشاراً لدى عمدة بطرسبورغ أناتولي سوبشاك. في البداية، أسس شويغو من الصفر فيلق المنقذين، ثم نمّاه وكبّره وحوله إلى «وزارة الحالات الطارئة» - جهاز خاص قوي وفاعل. وفي عام 1992 كان شويغو وسيطاً في تسوية النزاع الجورجي - الأوسيتيني، واهتم بإجلاء النازحين الروس من طاجيكستان.

بيد أن شويغو كان يسعى دوماً إلى عدم إبراز خبرته والتضخيم بها. ومع ذلك، فإن الفضل يعود له جزئياً في وصول بوتين إلى الرئاسة: فوزير الحالات الطارئة ذو الشعبية الكبيرة ترأس في عام 1999 القائمة الانتخابية لحزب «الوحدة» الموالي لبوتين، وهو الحزب الذي أسسه بيريزوفسكي وفولوشين. النتيجة الناجحة (المركز الثاني) ضمنت عملياً لبوتين الفوز في الانتخابات الرئاسية، لأنه قضى على الرديفين المنافسين بريماكوف - لوجكوف. بيد أن هذا لم يجلب لمؤسسي الحزب لا الأرباح، ولا شكر بوتين. فبعد عام رحل بيريزوفسكي في هجرة طوعية في لندن، وجميع المحافظين تقريباً، الذين شكلوا الهيكل العظمي لحزب «الوحدة» سرعان ما فقدوا مناصبهم. ولم تكن الأمور على ما يرام بالنسبة إلى شويغو في سنوات رئاسة بوتين الأولى.

كان زعيم حزب «الوحدة» حاسماً ضد اندماج وليده بكتلة «الوطن – روسيا»، التي خطط لها فلاديسلاف سوركوف. بيد أن الكرملين قرر تجاهل رأي الوزير شويغو، على الرغم من أنه حصل على منصب رمزي هو رئيس مشارك لـ«روسيا الموحدة» (إلى جانب عمدة موسكو لوجكوف الذي انتصر شويغو عليه، ورئيس تاتارستان شايمييف).

وكانت علاقات شويغو أشد تعقيداً مع نخبة بوتين الجديدة - زملاء بوتين السابقين في جهاز الأمن الاتحادي الذين سيطروا على إدارة الرئيس الجديدة. وقد أصبح عنصر الأمن القوي من فريق يلتسين، بالنسبة إليهم، عدواً طبيعياً.

وأصبح زعيم حزب «روسيا الموحدة» في انتخابات الدوما عام 2003 – بدلاً من شويغو - هو وزير الداخلية الجديد بوريس غريزلوف، وهو شخص لا يتمتع بأية كاريزمية، لكنه منفذ مطيع للتعليمات وزميل مدير جهاز الأمن الاتحادي نيقولاي باتروشيف في المدرسة. وقبل نصف عام من الانتخابات، في حزيران/ 2003، بدأ غريزلوف حملة علاقات عامة جبارة ضد الفاسدين في صفوف إدارته. فصورة الشرطي الصارم والعادل يجب أن تحوز على إعجاب الناخبين. وقد دعوا عاملي وزارة الداخلية المفضوحين الفاسدين في الصحافة بـ«ذئاب ضارية بكتآفيات». بيد أن رئيس الجماعة المجرمة الفاسدة اتضح أنه ليس شرطياً، بل ضابط برتبة جنرال في وزارة الحالات الطارئة، والمرؤوس الأقرب لسيرغي شويغو. ومع حصوله على الأصوات اللازمة له في الحملة الانتخابية دفن وزير الداخلية في الوقت نفسه رفيقه في الحزب.

اهتز الحزب. وسرت فيه شائعات أن مرؤوس شويغو المعتقل قد أدلى بشهادة ضد رئيسه نفسه، وعلاوة على ذلك، اعترف في أثناء التحقيق، أن طائرات وزارة الحالات الطارئة كانت تنقل إلى روسيا المخدرات من طاجيكستان. وهذه الشائعات بقيت مجرد شائعات، لكن وضع الوزير تضعضع كثيراً.

بيد أن ولاء شويغو وصبره ساعداه على تجاوز العار. وكانت الطريقة الوحيدة، بالنسبة إليه، لعدم خسارة كل شيء هي الحفاظ على صلة للوصول إلى بوتين. وهنا، استطاع شويغو استخدام محبة الرئيس للصيد ورحلات الرياضات الخطرة، وكذلك المصادر الفريدة لوزارة الحالات الطارئة. وفي الحقيقة، أصبح شويغو المدير السياحي الحصري لبوتين، وكان في استطاعة خبرائه تنظيم رحلات بوتين إلى أية منطقة في روسيا، مثلاً إلى موطن شويغو في توفا - جمهورية صغيرة جميلة على حدود منغوليا. وأصبح وزير الحالات الطارئة نفسه رفيق بوتين الثابت لصيد الحيوانات والأسماك. وعلى سبيل المثال، شويغو بالذات هو الذي نظم رحلة صيد الأسماك لبوتين والأمير ألبير الثاني في عام 2007 في توفا، عندما وقف أمام المصورين لأول مرة عاري الصدر، وكذلك

مجموعة من الصور الشهيرة التي التقطت في شهر آب/أغسطس 2009، حيث كان بوتين شبه عار يقفز على حصان في قبعة رعاة البقر.

وفي أثناء هذه الرحلة كان شويغو عملياً يؤدي دور المخرج – مدير التصوير: فهو الذي اختار لبوتين قبعة رعاة البقر من مستودع وزارة الحالات الطارئة، واختار الشجرة التي تسلق عليها بوتين فيما بعد. وكما روى شهود العيان، بذل بوتين جهده آنذاك كي يكون التصوير بجودة عالية: واضطر إلى عبور نهر خيمشيك الضيق البارد ثلاث مرات على الأقل، إلى أن ظهرت لقطة جيدة لبوتين وهو يسبح سِباحة الفراشة.

بعد نصف عام حصلت مأساة – احترق في بيرم نادٍ ليلي، وفي أثناء الحريق توفي حرقاً 156 شخصاً. واتضح على الفور أن المسؤول هي خدمة أمن الحريق التي فحصت البناء عدة مرات وقدمت له - مقابل رشوة - جميع الرخص والموافقات. وأخذت وسائل التواصل الاجتماعي تكتب أن مثل هذا الأسلوب يميز أيضاً وزارة الحالات الطارئة، التي يرأسها شويغو، وهي بالذات المسؤولة عن أمن الحرائق. لكن هذه المأساة لم تنعكس أبداً على وضع شويغو.

في عام 2009 ارتقت هواية شويغو وبوتين المشتركة إلى مستوى جديد: فقد ترأسا معاً الجمعية الجغرافية الروسية، تلك المؤسسة العلمية التي يعود تأسيسها إلى منتصف القرن التاسع عشر. وأصبح شويغو رئيساً لها، وبوتين رئيس مجلس الوصاية (كان سابقوه في هذا المنصب الأباطرة نيقولاي الأول، وألكسندر الثاني، وألكسندر الثالث، ونيقولاي الثاني).

يؤكد مساعدو شويغو، إنه فعلاً يحب الرياضات الخطرة - فهو كل عام ينطلق في رحلات سيراً على الأقدام في الغابة، وكل رحلة من هذه الرحلات تغدو مصيبة مزعجة لجهاز الحماية الاتحادي، حيث لا يحق للعاملين فيه أن يبعدوا عن مجال رؤيتهم الشخص الذي يحمونه. وخلف الوزير وعناصر جهاز حماية الرئاسة يركض في غابات توفا ضباط وزارة الدفاع مع أجهزة الاتصال الخاصة

وحقيبة المفاتيح النووية.

في عام 2012 تعرض سيرغي شويغو لامتحان خطير: عند عودته إلى الكرملين، عين بوتين الوزير الأبدي للحالات الطارئة محافظاً لريف موسكو. لقد كان هذا بالنسبة إليه تخفيضاً واضحاً في مرتبته، لكن شويغو استقبل الضربة بصمود وتابع بولائه نفسه تنفيذ أوامر بوتين وتعليماته. وقد قدر الرئيس حق التقدير انضباطه هذا - واستمر منفاه في ريف موسكو نصف عام. وعند تسريحه لسرديوكوف من منصب وزير الدفاع، عين بوتين شويغو مكانه - فهو رجل موال، وليست له أية علاقة بالحملة على سرديوكوف. وهذا النظام «نظام الضوابط والتوازنات» نظام تقليدي بالنسبة إلى بوتين - فبعد أن يخضع لتأثير أحد من دائرته المقربة، يقوم بتطبيق بنصف النصيحة. فإذا ما ضغط أحد المقربين من أجل استقالة مسؤول ما، فمن المستبعد جداً أن يعين الشخص الذي يوصي به في المنصب الفارغ. لقد عمل على إقالة سرديوكوف رئيس الإدارة سيرغي إيفانوف و«ملك صناعة الأسلحة» سيرغي تشيميزوف، وبالتالي فإن الوزير الجديد يجب أن يكون شخصاً لا يرتبط بهما أبداً.

وقد أصبحت أهم مهمة لشويغو في منصبه الجديد ترتيب العلاقات مع الضباط الكبار (الجنرالات) – فقد كانوا يكرهون سرديوكوف لأنه لم يكن يهتم بآرائهم، ويرى فيهم عائقاً لتجديد الجيش وإصلاحه. أما شويغو فقد طرد جميع أفراد فريق سرديوكوف الذي يتألف من النساء القادرات على حساب الأموال.

لا مجال للمماحكة

في فيلم «القرم. الطريق إلى الوطن» يروي بوتين أنه أمضى الليلة كلها من 22 إلى 23 شباط/فبراير في وضع مترقب، مشرفاً بنفسه على عملية إنقاذ حياة فيكتور يانوكوفيتش: اتصل عدة مرات برئيس أوكرانيا الهارب من دونتسك، ثم التقط الاتصال مع حرسه، ووجه القوات الخاصة حول كيفية العثور على موكب يانوكوفيتش. وبحسب أقوال بوتين، كانت لديه معلومات بأن السلطة

الجديدة في أوكرانيا تنوي قتل الرئيس المعزول. ومصدر هذه المعلومات قد يكون يانوكوفيتش نفسه، الذي أكد في ندائه التلفزيوني الأخير إلى الشعب الأوكراني، بأنهم أطلقوا النار على سيارته، كما أطلقوا النار على سيارة الناطق بلسان البرلمان الأوكراني فلاديمير ريباك (بهذا الصدد، هذا غير صحيح، وهو ما أكده ريباك نفسه).

أمضى بوتين تلك الليلة من دون نوم في نوفو - أوغاريفو، برفقة أقرب المستشارين: وزير الدفاع سيرغي شويغو، سكرتير مجلس الأمن القومي نيقولاي باتروشيف، رئيس جهاز الأمن الاتحادي ألكسندر بورتنيكوف ورئيس إدارة الكرملين سيرغي إيفانوف.

وقد لخص بوتين أحداث تلك الليلة على الشكل التالي: «قلت لجميع زملائي، وكان عددهم أربعة، لقد تطور الوضع في أوكرانيا، بحيث أصبحنا مضطرين إلى البدء في العمل على إعادة القرم إلى قوام روسيا. لأنه لا يمكننا أن نرمي بهذه الأراضي والسكان الذين يعيشون فيها للقدَر، تحت نير القوميين المتعصبين».

استقبل المتحاورون هذه الفكرة بدرجة مختلفة من الحماسة: أيد باتروشيف الفكرة بحرارة وحاول إقناع بوتين لاتخاذ القرار من دون تأخير. أما شويغو، فكان على العكس، في غاية التحفظ والحذر. فعليه بالذات ستقع مسؤولية تنفيذ العملية التي يُخطط لها، ولهذا فقد ذكر جميع الحجج المضادة لها. وفي المحصلة، لم يصغ بوتين إلى رأيه.

يروي أحد المستشارين الذين شاركوا بشكل مباشر في التحضير للعملية في القرم، أن الرئيس يخلط قليلاً في التواريخ: ف«الناس المحترمون» نُقلوا على البواخر إلى نوفوروسيسك وأرسلوا إلى سيفاستوبل قبل ذلك بفترة قصيرة، في 20 شباط/فبراير - أي قبل الإطاحة بيانوكوفيتش. على أية حال، في تلك اللحظة بدا أن مصيره قد تقرر - فرئيس أوكرانيا بدأ المفاوضات مع الوزراء الأوروبيين وكان مستعداً للقبول بشروطهم. وهذا بالذات ما يفسر حقيقة، أن

بوتين وجه ممثله فلاديمير لوكين بعدم توقيع الاتفاقية.

ويُروى في الكرملين، أن بحث خطة العمل المحددة في القرم قد بدأ منذ شهر كانون أول/ديسمبر 2013. ففي تلك الأثناء بالذات، أحضروا إلى موسكو رئيس المجلس الأعلى للقرم دميتري كوسنتانتينوف، الذي صرح لسكرتير مجلس الأمن القومي نيقولاي باتروشيف، إنه في حال الإطاحة بيانوكوفيتش فإن سلطات الجمهورية ذات الحكم الذاتي سوف تكون مستعدة «للانضمام إلى روسيا». استغرب باتروشيف مثل هذا التصميم - لكن استغرابه كان ساراً، حسب رواية شاهد عيان.

فكرة إعادة القرم لروسيا لم تكن عفوية. فمنذ عام 2008، في قمة بوخارست، قال بوتين، إن أوكرانيا إذا ما انضمت إلى حلف الناتو فستخاطر بفقدان القرم وشرق أوكرانيا. وكلما اقترب الوقت أكثر كان يزداد الحديث أكثر حول هذا الموضوع. ومع مرور الزمن، تحولت ترنيمة بوتين الشهيرة «علينا الاهتمام بأوكرانيا، وإلا سنفقدها» إلى «إذا ما انضمت أوكرانيا إلى حلف الناتو، فسنأخذ القرم». ففي مدينة القرم - سيفاستوبل – «مدينة المجد الروسية» توجد أهم قاعدة استراتيجية لأسطول البحر الأسود، التي استأجرتها روسيا من أوكرانيا منذ عام 1991.

في عام 2010 وقع دميتري ميدفيديف وفيكتور يانوكوفيتش اتفاقيات خاركوف: خفّضت روسيا أسعار الغاز (متنازلة لأوكرانيا عن الصيغة غير المناسبة لها، عن ذلك المبلغ الذي من أجله سُجنت يوليا تيموشنكو)، وفي المقابل مددت لـ25 سنة إيجار القاعدة لأسطول البحر الأسود، وبصورة موازية زادت من أعداد الحد الأقصى من العسكريين الروس المقيمين في سيفاستوبل.

وفي خريف 2013، عندما بدأت ثورة ساحة ميدان في كييف، أصبحت الأحاديث حول موضوع «القرم لنا» بين القادة الأمن المتنفذين ورجال الأعمال الوطنيين يومية. ومن أبرز المشجعين على هذا الموضوع كان رئيس شركة

«روس نفط» إيغور سيتشين ورئيس شركة السكك الحديدية الروسية فلاديمير ياكونين.

كان القرار بإعادة القرم إلى قوام روسيا خطيراً للغاية. فمن ناحية أولى، كان باتروشيف وبورتنيكوف يقنعان بوتين أنه بحسب الاستفتاءات السرية التي أجراها جهاز الحماية الاتحادي فإن سكان القرم سيقفون من الانضمام إلى روسيا موقفاً إيجابياً بصورة حصرية. ومن ناحية أخرى، لا يمكن أن تقوم معارضة حقيقة: فالدولة الأوكرانية تسيطر عليها الفوضى، وليس هناك من يعطي الأمر للجيش بالدفاع عن القرم. وفي المحصلة، اتُخذ القرار بوجوب البدء بعملية «إعادة القرم»، ولكن بكثير من الحذر، وتم تكليف شويغو بقيادتها. وكان يدرك بقية المتحمسين المخاطر المحيطة بانهيار العملية، ولم يرغبوا بأن يكونوا متطرفين في حال الفشل. وكانوا يخشون الفشل جدياً، لأنه على الرغم من الأحاديث التي استمرت سنوات عديدة حول ضرورة إعادة القرم، لم تكن هناك أية خطة لإعادته. وبالفعل، فقد قرروا العمل حسب الوضع.

كان يقود الجانب السياسي من العملية في القرم شخص جديد كلياً على السياسة الروسية، وهو أوليغ بيلافينتسيف، الذي عمل سنوات طويلة مساعداً لشويغو في أدق المهمات. في وزارة الحالات الطارئة كان يرأس وكالة «إميركوم Emercom» التي تقوم بتغطية عمليات الوزارة في الخارج. وعندما عُين شويغو محافظاً لريف موسكو، أصبح مدير أعماله. وأخيراً، عندما انتقل شويغو إلى وزارة الدفاع ترأس بيلافينتسيف تلك الشركة المقاولة بالذات التي اتهمت بأقصى درجات الفساد في عهد سرديوكوف وتجسدت في قضيته الجنائية «الخدمة الدفاعية».

سافر بيلافينتسيف في 23 شباط/فبراير إلى القرم وأخذ يدرس الموقف. تم التخطيط للاستيلاء على القرم في البداية بمساعدة رئيس وزراء الجمهورية الحالي أناتولي موغيليوف، الموالي لفيكتور يانوكوفيتش. وقد وافق على عدم إعاقة موفد موسكو. لكنه خاف فيما بعد، وهرب إلى دونتسك.

عندئذ لجأ بيلافينتسيف، كخطوة أولى، إلى زعيم شيوعيي القرم، الرئيس السابق لمجلس القرم الأعلى ليونيد غراتش، البالغ من العمر 66 عاماً. وكان يعد في موسكو سياسي القرم الموالي لروسيا الأشهر، لكنه كان في بلده يشتهر بأنه مجنون المدينة. تباحث معه مبعوث موسكو، وبعد بضعة أيام عرض عليه أن يصبح رئيساً جديداً للوزراء. حتى أنه أعطاه سماعة الهاتف ليتحدث مع شويغو. فقال الأخير للشيوعي، إن روسيا تبدأ بإعادة القرم إلى قوامها، وطلب منه أن يتحمل المسؤولية.. فوافق غراتش بسرور.47

لكن شويغو سرعان ما أدرك أن غراتش لا يسيطر على أي شيء في القرم، وليس هناك ما يستحق المراهنة عليه. وتناسوا الشيوعي القديم.

في 26 شباط/فبراير بدأت الفوضى والاضطرابات في سيمفيروبل. اجتمع حول بناء المجلس الأعلى حشدان: حشد من أهل القرم والتتار وحشد روسي. وسرت شائعة في المدينة، أن المجلس الأعلى ينوي توجيه نداء إلى بوتين ليقبل القرم في قوام روسيا. وخرج الروس لتأييد هذا الطلب. أما التتار فخرجوا لمعارضته والاحتجاج عليه. وبدأت المعركة بين الطرفين المتخاصمين. وقُتل اثنان: أحدهما داسوه تحت الأقدام، والثاني بسبب نوبة قلبية. لكن زعماء الحزب الروسي والتتري تمكنوا مع ذلك من تفريق الحشود. كان يرأس الحزب الروسي النائب الروسي المحلي سيرغي أكسيونوف، البالغ من العمر 41 عاماً.

في الليلة نفسها أمر شويغو بإنزال قوات فرقة حرس بسكوف 76 في القرم من الجو. وحطت في سيفاستوبول عشر طائرات، سيطرت قوات الإنزال ليلاً على المجلس الأعلى، وعلى حكومة القرم، وأغلقت الفضاء الجوي للقرم. ورُفع على بناء المجلس الأعلى العلم الروسي، لكن العسكريين كانوا من دون شارات انتماء روسية – وقد أطلق عليهم السكان المحليون اسم «الجنود الخضر». لم تعترف السلطات الروسية بأن هؤلاء الجنود من جنسية روسية، بل على

العكس، كانت تنفي أية مشاركة بكل ما يحدث. كانت قوات الإنزال التي سيطرت على المجلس الأعلى في سيمفيروبل تعمل في الظلام، ولم يخبروها إلى أين ومن أجل أي هدف يتم نقلها. المهمة تمت صياغتها على أنها فرض السيطرة على بناء، ولكنها لم تكن واضحة في أي مدينة وفي أي بلد. وأصبح عملياً بيلافينتسيف السيد الآمر في بناء المجلس الأعلى.

في فيلم «القرم. الطريق إلى الوطن» يروي بوتين أنه لم يكن في حاجة إلى استخدام موافقة مجلس الاتحاد لإدخال القوات إلى أوكرانيا: «بحسب الاتفاقية الدولية الموقعة بخصوص قاعدتنا الحربية في القرم، كان يحق لنا أن ندخل إليها 20 ألف عسكري، بل وأكثر بقليل، ومع كامل الجنود الذين تم إدخالهم، فهم لم يكمِّلوا 20 ألفاً. وبعبارة دقيقة، نحن لم نخرق أي شيء ولم ندخل قوات إضافية». على أية حال، كان يؤكد القائم بأعمال رئيس أوكرانيا آنذاك ألكسندر تورتشينوف، أنه كان يتواجد في القرم 46 ألفاً من الجنود الروس.48 وقد توجه بوتين إلى مجلس الاتحاد من أجل الموافقة على إدخال القوات إلى أوكرانيا بعد ذلك بفترة، أي في 1 آذار/مارس بعد انتهاء عملية القرم، في الواقع، ولم يعد هناك أي شك في نجاحها.

وقبل المواجهة أمام بناء المجلس الأعلى في 26 شباط/فبراير، كان قد وصل بالطائرة إلى القرم عناصر من جهاز الأمن الاتحادي وإدارة الأركان العامة (بمن فيهم إيغور غيركين، الذي سيصبح معروفاً فيما بعد باسم إيغور ستريلكوف). وكان هدفهم تنظيم اجتماع عاجل للبرلمان وانتخاب رئيس وزراء جديد. فرفض النواب السفر لحضور الاجتماع واقتاد هؤلاء العناصر النواب بلباسهم المدني، بالقوة.

اقترح رئيس مجلس القرم الأعلى انتخاب سيرغي أكسيونوف رئيساً للوزراء - وهو زعيم الحزب الروسي – النائب غير المعروف ذو الماضي الإجرامي. وهو نفسه الذي أثار المشاجرة حول المجلس الأعلى في 26 شباط/فبراير، ودخلت بعدها القوات الروسية على نحو عاجل إلى سيفاستوبول. ووصف بوتين

معرفته الأولى بأكسيونوف بالعبارة التالية: «قال لي رئيس البرلمان: إنه تشي غيفارا بالنسبة إلينا. يلزمنا مثل هذا الشخص الآن».

وقد روى بوتين في مقابلة تلفزيونية: «كان البرلمان هو الجهاز الذي يتمتع بالتمثيل الشرعي الكامل للسلطة في القرم. وقد اجتمع النواب وصوتوا، وانتخبوا سيرغي أكسيونوف رئيساً جديداً للحكومة في القرم. وقد وافق الرئيس القانوني يانوكوفيتش على تعيينه. لقد تم التقيد بجميع القوانين الأوكرانية. بالطبع يمكن لكل شخص الثرثرة والتفسير على هواه، ولكن لا مجال للمماحكة».

بعد أن التقطت الطائرة العمودية الروسية يانوكوفيتش في القرم في 23 شباط/فبراير ونقلته إلى سفينة حربية روسية، ومنها إلى موسكو، أقام في منتجع مدير أعمال الرئيس في بارفيخ. لكنه، حقيقة، وبحسب رواية بوتين، عاد مرة ثانية إلى القرم في آخر شهر شباط/فبراير، إلى أن أدرك أنه «لم يعد هناك من يتفق معه» في كييف.

في صباح 27 شباط طرح المتحدث باسم برلمان القرم على التصويت مسألة إقالة رئيس الوزراء موغيليوف وانتخاب أكسيونوف رئيساً جديداً للوزراء. وبحسب المعطيات الرسمية، بلغ عدد الحضور في قاعة البرلمان 64 نائباً صوت منهم 61 نائباً لصالح القرار. ولكن، والحق يقال، كان عدد النواب حسب أقوالهم 53 نائباً، أي أن النصاب القانوني لم يكن متوفراً، وصوت 42 نائباً مؤيدين ترشيح أكسيونوف.

وفي 28 شباط/فبراير نُقل بواسطة طائرات النقل العسكرية إيل -76 إلى سيفاستوبل 170 من العسكريين المتقاعدين من متقاعدي الحرب في أفغانستان والشيشان، وكذلك الرياضيون وراكبو الدراجات النارية والمشاركون في الأندية الوطنية. وقد تم إنزالهم في المصحات العسكرية في القرم.49 وأشرف على نقلهم نائب مجلس الدوما، زعيم اتحاد متقاعدي الحرب في

أفغانستان فرانس كلينتسيفيتش، وهو أيضاً صديق قديم لوزير الدفاع. ففي عام 1999، وبدعوة من شويغو أحضر متقاعديه من الحرب الأفغانية إلى حزب «الوحدة» الموالي لبوتين الذي كان يجري تشكيله، وبعد تعيين شويغو وزيراً للدفاع، حفظ التعليق القائل: «حيث يوجد شويغو، يكون النصر دوماً».

إن «السياح» الذين توافدوا إلى القرم كانوا يريدون حقاً، وبصدق، عودة القرم إلى روسيا. وكانوا يشعرون بحنين قوي إلى الماضي الإمبراطوري السوفييتي. حتى أنهم كانوا مستعدين للحرب والقتال، لكن كان قد أُعِد لهم دور الحشد. كانوا يمثلون دور سكان القرم المحتشدين المتمردين، المطالبين بانضمام القرم إلى روسيا. لقد كان هذا ارتجالاً وتقليداً لحشد ساحة ميدان، وكان صادقاً مثله مثل الحشد في كييف. مع فارق وحيد، هو أن غالبية المشاركين في حشد سيفاستوبل كانوا من الروس، أي مواطنين أجانب في تلك الأثناء. على أية حال، من حيث سحنتهم الخارجية، كان من غير الممكن تمييز غالبيتهم عن السكان المحليين. وكان قد دربهم كلينتسيفتش على كيفية التصرف في المواقف الصعبة الطارئة.

خلال أيام معدودة استطاع العسكريون الروس، بدعم من «الميليشيا الرديفة»، من السيطرة على جميع القواعد العسكرية الأوكرانية. لم يبد أحد أية مقاومة - فجميع القواعد العسكرية في القرم تقريباً كان يعمل بها جنود متعاقدون من السكان المحليين. وكلهم تقريباً كانوا موالين لروسيا ومؤيدين لفكرة الانضمام إليها.

شبح القيصر نيقولاي الأول

إن للقرم تاريخ طويل معقد. لقد دخل في قوام روسيا منذ عهد الإمبراطورة يكاتيرينا العظيمة في عام 1783. لكن الأحداث الأكثر مأساوية حدثت في شبه جزيرة القرم بعد ذلك بسبعين عاماً - في عهد حكم الإمبراطور نيقولاي الأول.

كاد نيقولاي الأول أن يصبح أعظم إمبراطور روسي في القرن التاسع عشر. فقد

قهر أخوه الأكبر ألكسندر الأول نابليون، لكنه بقي في ذاكرة الأحفاد على أنه «حاكم ضعيف ومخادع». لم يكن نيقولاي الأول مثله - فقد قمع انتفاضة الديسمبريين********، وقد قام مُنظِّره في القصر، وزير الثقافة الكونت أوفاروف، بصياغة الفكرة القومية الروسية له: «لأرثوذكسية، الحكم المطلق، النزعة الشعبية». وقمع الإمبراطور بقسوة الحركة الانفصالية البولونية - كانت بولونيا بالنسبة إليه، مثلما أصبحت الشيشان لبوتين. قدم نيقولاي الأول المساعدة للإمبراطور النمساوي في قمع الثورة في هنغاريا - ولهذا استحق لقب «شرطي أوروبا». وأخيراً، فإن نيقولاي الأول الذي كان يعد نفسه ملكاً أرثوذكسياً عظيماً، كان يرى رسالته في تحرير الشعوب السلافية الخاضعة لسلطة تركيا. وعلاوة على ذلك، كان يحلم باحتلال القسطنطينية، على الرغم من إدراكه أن من الخطر جداً التسرع في هذا.

لقد قارنوا نيقولاي الأول ببوتين أكثر من مرة. وكان من أكبر المؤيدين لهذه المقارنة وزير خارجية التشيك السابق كارل شفارتسنبرغ. وقال معللاً ذلك: «في عهد نيقولاي الأول، غزا الروس القسم الأكبر من آسيا الوسطى. والآن يضع بوتين بنجاح هذه المناطق تحت سيطرة روسيا، والغرب يخسر».

لقد أصبحت حرب القرم مأساة نيقولاي الأول - وهي الحرب الأولى والوحيدة في التاريخ الروسي التي كانت تقف فيها روسيا وحدها ضد بقية العالم كله. ففي حرب القرم ضد روسيا اتحدت بريطانيا وفرنسا وتركيا وحتى سردينيا. في سنوات ما بعد الاتحاد السوفييتي ستظهر بين الباحثين الاجتماعيين الروس المعادين للغرب صورة نمطية مفادها، أن تاريخ روسيا كله عبارة عن مجابهة مع الغرب. في الحقيقة، مثل هذه المجابهة مع الغرب كله لم تحدث في التاريخ الروسي إلا مرة واحدة.

إن أطماع روسيا المتزايدة بالذات أصبحت سبب الحرب - وقررت بريطانيا وفرنسا إنقاذ تركيا من الهجوم الروسي. بدأت حرب القرم بسبب نزاع دبلوماسي حول كنيسة المهد في بيت لحم. ومن أجل الضغط على تركيا،

أدخلت روسيا قواتها إلى مولدافيا ووالاشيا الخاضعتين لسيطرة الإمبراطورية العثمانية. ورداً على ذلك، أدخلت فرنسا وبريطانيا أسطوليهما الحربيين إلى بحر مرمرة، وبعد انتقال القوات الروسية عبر نهر الدانوب، أعلنتا الحرب على روسيا.

وقد غطت الدعاية المعادية لروسيا الصحافة الأوروبية. وأطلقت على القيصر نيقولاي الأول لقب «ديكتاتور الشمال»، أما الصحف البريطانية فكانت تؤكد، أن المسيحيين في تركيا يتمتعون بحرية دينية أكبر من الكاثوليك والبروتستانت في روسيا الأرثوذكسية (وهذا على الرغم من أن نيقولاي الأول كان قد زار لندن منذ عام 1844 وحلّ ضيفاً شخصياً على ملكة بريطانيا فيكتوريا). وفي الوقت نفسه شُنّت في روسيا حملة دعائية واسعة معادية للغرب.

في أثناء حرب القرم بدا واضحاً تخلف روسيا التقني الكبير عن بريطانيا وفرنسا. وانتهت الحرب بهزيمة مريرة وبموت الإمبراطور نيقولاي الأول. وبحسب إحدى الروايات، أنهى القيصر حياته بالانتحار بعد أن تداعى الهجوم الذي بدأه بمبادرته على أوباتوريا، أما دفاع سيفاستوبول فقد حُكم عليه بالفشل.

لقد بدأ تمجيد دفاع سيفاستوبول إلى حد كبير بفضل ذكريات أحد المشاركين فيه وهو الكاتب الكبير ليف تولستوي. أما التقديس النهائي لسيفاستوبول باعتبارها «مدينة المجد الروسي» فقد حدث في القرن العشرين، عندما تم الاحتفال بالذكرى السنوية المئوية للدفاع عنها.

في الذكرى السنوية المئوية للدفاع عن سيفاستوبل، عام 1954، قررت القيادة السوفييتية نقل تبعية القرم من روسيا لأوكرانيا. وفي عام 2014، بعد عملية إعادة القرم، قال بوتين إن هذا كان قراراً شخصياً من خروتشوف. ولكن في الحقيقة، لم يكن خروتشوف يملك السلطة الكافية كي يتخذ مثل هذه القرارات بصورة شخصية. فبعد عام من موت ستالين كانت تقود الاتحاد السوفييتي

جماعة من ورثة ستالين. وكان أولهم رئيس الحكومة سيرغي مالينكوف. وكان على الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي أن يأخذ برأيهم. ولم يستطع خروتشوف الأمين العام للحزب الشيوعي السوفييتي إبعادهم وفرض سلطته الفردية إلا في عام 1957. على أية حال، لا وجود حتى الآن لتفسير موثوق لسبب ضم القرم لجمهورية أوكرانيا السوفييتية. ولعل التفسير الزراعي هو الأكثر إقناعاً: فقد كان خروتشوف ينوي ري سهول القرم بمياه نهر الدنيبر وينوي أن يضع على عاتق القيادة الأوكرانية الاهتمام بالتطوير الزراعي لشبه جزيرة القرم.

القِرم لنا

بعد انتخابه رئيس وزراء جديداً في أواخر شهر شباط/فبراير، اتخذ برلمان القرم قراراً بإجراء استفتاء في 25 أيار/مايو - وفي الآن نفسه انتخاب رئيس جديد لأوكرانيا بدلاً من يانوكوفيتش. وخلال ذلك، أعلن أكسيونوف أن سلطات القرم تعتبر يانوكوفيتش بالذات هو الرئيس الشرعي وسوف تنفذ توجيهاته. لم تنشر الصيغة الدقيقة للأسئلة التي سوف تُطرح في الاستفتاء. قالت سلطات القرم في البداية، أن المقصود ليس انضمام القرم لروسيا، بل إعادة دراسة وضع القرم الفدرالي ضمن روسيا.

كانت المشكلة تكمن في أن موسكو لم تقرر بعد ما العمل بالنسبة إلى القرم. فالقسم الليبيرالي من الكرملين كله والحكومة كانا ضد الضم - وأشارا إلى مثال أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية اللتين اعترف بهما الرئيس ميدفيديف دولتين مستقلتين في عام 2008، لكنه لم يضمهما إلى روسيا، كي لا يخرق القانون الدولي. وبالطريقة نفسها يجب الاعتراف بالقرم دولة مستقلة - هكذا كان يقول غالبية المسؤولين الحكوميين - فهو بحكم القانون سيكون دولة مستقلة، ولكننا «لن نتخلى عنه» بحكم الواقع.

في 28 شباط/فبراير، في اليوم التالي بعد الإعلان عن إجراء الاستفتاء في

القرم، رُفع إلى مجلس الدوما مشروع قانون لتسهيل نظام دخول أراضٍ جديدة في قوام روسيا. فحسب التشريع القائم يحق للإقليم الجديد الانضمام إلى روسيا فقط في حالة توقيع اتفاقية دولية مع الدولة التي انسحب منها. أما بحسب القانون الجديد، فلا حاجة إلى مثل هذه الاتفاقية، ويكفي إجراء استفتاء فيه ومناشدة السكان المحليين لموسكو. وقد سُجِّل مشروع القانون باسم سيرغي ميرونوف، زعيم حزب «روسيا العادلة»، على الرغم من أنه في الحقيقة، قد وُضع وصِيغ في الكرملين. هكذا أراد فلاديمير بوتين اختبار الفكرة - معرفة كيف سيكون وقع هذه الفكرة على البرلمانيين. المهم، أن هذه المبادرة وكأنها لم تصدر عن السلطة بل عن المعارضة.50

بعد هذا بدأت مفاوضات ضارية. في ليلة 1 لـ 2 آذار/مارس تحادث فلاديمير بوتين مع باراك أوباما على الهاتف ساعة ونصف. هدد الرئيس الأمريكي روسيا بالعزلة، وقال بأنه لن يحضر قمة الدول الثمانية الكبار في سوتشي، المقررة في شهر حزيران/يونيو. وبعد يوم ألقى أوباما خطاباً في البيت الأبيض، وأعلن أنه «لا يحق لروسيا أن تخرق المبادئ الأساسية التي يعترف بها العالم»، وأن الولايات المتحدة الأمريكية تستعد لاتخاذ «التدابير الديبلوماسية لعزلها». ولم يستخدم كلمة «عقوبات».

تم رسمياً التصديق على الصيغة الجديدة للاستفتاء، التي تنص على ضم القرم إلى روسيا من قبل المجلس الأعلى للقرم في 6 آذار/مارس. وبحسب أقوال الناس الذين شاركوا بصورة مباشرة أو غير مباشرة في العملية، فإن العمل على الصيغة الجديدة قد بدأ تقريباً في 3 -4 آذار/مارس.

في الرابع من آذار/مارس عقد بوتين مؤتمراً صحافياً قال فيه إن روسيا لا تبحث صيغة ضم القرم، بيد أنه تذكر كوسوفو، والحق يقال، فأشار بأنه «حتى الآن لم يُلغ أحد حق الأمم في تقرير المصير». بحلول هذه اللحظة، كان القرار المبدئي بضم القرم لروسيا قد اتخذ. ولاصطدامه بضغط لا سابق له من جانب أوباما وميركل، قرر بوتين، أنه لا يمكنه التنازل، وهو لم يكن يعتقد أنهما

سيقدمان على عقوبات جادة. كان يعتقد أن انتقام الحد الأقصى قد تم الإعلان عنه - وهو مقاطعة قمة الدول الثمانية الكبار في سوتشي. لقد كانت هذه إهانة قوية في منظومة قيم بوتين. بيد أن بوتين لم يكن يسمح لنفسه التضحية بقمة الدول الثمانية من أجل القرم. فقد كان واثقاً من أن الغرب لن يقدم على شيء أكثر جدية، وحتى إذا ما أقدم فلفترة قصيرة. فبعد الحرب في جورجيا هدد الغرب روسيا بالعزلة، ولكن لم يحدث أي شيء، وتم تناسيها.

ومع ذلك، في المحصلة اعتبروا في مجلس الدوما قانون ميرونوف غير ضروري ولم يتم التصديق عليه. ولكن في ليلة 5 -6 آذار/مارس أعلن برلمان القرم عن تغيير صيغة الاستفتاء («هل أنت موافق على جمع شمل القرم مع روسيا بصفة عضو له كامل الحقوق في روسيا الاتحادية؟») وعن تغيير التاريخ - ليس في 25 أيار/مايو ولا في 30 آذار/مارس، كما كان في السابق، بل في 16 آذار/مارس. أي خُصص للتحضير عشرة أيام فقط.

في 7 آذار/مارس في موسكو، وتحت جدران الكرملين، في منطقة فاسيليفسكي، تم إجراء «تجمع الشعب من أجل الشعب الشقيق»، حيث تردد لأول مرة شعار «القِرم لنا».

في 16 آذار/مارس صوّت في القرم 96,77% من الناخبين مؤيدين الانضمام إلى روسيا، حسب المعطيات الرسمية. وقد تم إجراء استفتاء مشابه في سيفاستوبول - ولكن كان الاستفتاء فيه أكثر سهولة، فالمدينة يقيم فيها العسكريون الروس والميول الموالية لروسيا أقوى وأشد. وبعد يوم واحد، في 18 آذار/مارس وقع فلاديمير بوتين في الكرملين في مراسم رسمية معاهدة قبول القرم وسيفاستوبول في قوام روسيا الاتحادية.

وقد أصبح يوم النصر في 9 أيار/مايو أوج عام 2014. حيث ركب الطائرة إلى سيفاستوبول بوتين وشويغو وحضرا عرض النصر، وقد ظهر هذا بمثابة نصرهما الأكبر. كانت المدينة تهدر «روسيا، روسيا!». لقد كان هذا نصراً حقيقاً

مطلقاً. وبعد العرض ذهب بوتين إلى يالتا إلى فيلا صديقه فيكتور ميدفيدتشوك للاحتفال بهذه المناسبة.

الربيع الروسي

بعد الاستفتاء مباشرة، رحل القسم الأكبر من «ميليشيا» كلينتسيفيتش، وكذلك قوات الإنزال وعناصر جهاز الأمن الاتحادي من القرم. عادت قوات الإنزال إلى قواعد إقامتهم الدائمة، أما المتطوعون فتوجهوا إلى شرق أوكرانيا - لمتابعة تطبيق فكرة بوتين القائلة «ستذهب أوكرانيا إلى حلف الناتو من دون القرم والشرق».

لم يعد شويغو يقود العملية لاحقاً (فقد بقي رجله بيلافينتسيف في القرم وعُيِّن سفيراً مفوضاً من رئيس روسيا في الجمهورية). في البداية لم يقد أحد العملية في الدونباس، ولم يكن هناك مركز موحد لاتخاذ القرارات، كانت إدارة الرئيس تجمع المعلومات من أطراف مختلفة وتشجع جميع المتعاطفين، لكنها لم تعط أية توجيهات وتعليمات محددة.

حسب الشعور العام للسلطة الروسية، أوكرانيا، كدولة، لم يعد لها وجود، ولم يعد هناك سلطة مركزية فيها، وعلى المناطق الشرقية منها أن تتابع الانضمام إلى أحضان روسيا، كما فعل القرم، وسيؤيد السكان المحليون ذلك، ولن يُبدي السكان العسكريون أية مقاومة.

كان الاقتصادي سيرغي غلازيف، مستشار بوتين، المؤيد الرئيس لأعمال روسيا النشيطة في شرق أوكرانيا. كان من الممكن تعيينه قبل سنة رئيساً للبنك المركزي، لكن ألكسي كودرين عارض، وغيّر رأي بوتين. كذلك لم يكن بوتين يصغي بصورة جدية إلى نصائح غلازيف، الاشتراكي الاقتصادية - كان الليبيراليون يوجهونه. ولم يكن لغلازيف أي عمل في روسيا، ولهذا وجه جميع جهوده للصراع في شرق أوكرانيا، لا سيما وأن موطنه الأصلي من زابوروجي.

كان غلازيف يرسل لبوتين بصورة منتظمة التقارير التي تقول إن الميول المؤيدة لروسيا في شرق أوكرانيا تتزايد، وأن سكان دونتسك يتابعون مسيراتهم وحشودهم من أجل الانفصال عن كييف. وكان غلازيف بالذات يروج بنشاط أكثر من الآخرين لمشروع «روسيا الجديدة – نوفوروسيا» - هكذا كان يدعى في عهد القيصر القسم الجنوبي - الشرقي من أوكرانيا. وبحسب خطة غلازيف، كان من المفترض أن تنضم «نوفوروسيا» إلى روسيا إثر القرم.

بيد أن بوتين لم يرغب باتخاذ أية خطوات حاسمة. كان يكرر كل مرة لغلازيف: فليقْدِم سكان شرق أوكرانيا على الخطوة الأولى، وبعد ذلك ستدعمهم روسيا. وعلى أية حال، بدأ بوتين باستخدام مصطلح «نوفوروسيا - روسيا الجديدة». قال بوتين في 17 نيسان/إبريل: «إن نوفوروسيا، وخاركوف، ولوغانسك، ودونتسك، وخيرسون، ونيقولايف، وأوديسا – لم تدخل في قوام أوكرانيا في عهد القياصرة. جميع هذه الأراضي سلمتها الحكومة السوفييتية لأوكرانيا في الأعوام العشرينيات 1920».

في عدد من مناطق جنوب شرقي أوكرانيا (أوديسا، دونتسك، لوغانسك، خاركوف، دنيبروبتروفسك) استمرت الحشود والمسيرات - المضادة لحشود الميدان في كييف. وكانت في غالبيتها صادقة، مخلصة - فقد كانوا مستائين من أن سلطات كييف، القديمة منها والجديدة على السواء، لا تسمعهم ولا تأخذ بآرائهم. على أية حال، كان القسم الأكبر من المسيرات منظماً بشكل جيد.

أما الرعاة والممولين فكانوا عادة، الأوليغارشيون، المؤيدون في السابق لفيكتور يانوكوفيتش. ومع وصول السلطة الجديدة إلى كييف كان من الممكن أن يتعقد وضعهم بصورة جذرية، ولهذا كان عليهم الحصول على مساحة للمناورة، وإثبات الضرورة الخاصة للسلطة الجديدة ونفوذهم في المناطق.

وعلى سبيل المثال، كان يموّل الحشد المعادي لميدان كييف في دونتسك رينات أخميدوف، مالك المدينة وأغنى رجل في أوكرانيا، وهو المموّل الرئيس

السابق لفيكتور يانوكوفيتش طيلة منصبه السياسي. وخلال عشرة أعوام قام أخميدوف بإعمار دونتسك، وأراد بوضوح جعلها مدينة أوروبية عصرية. وقد شيد مطاراً جديداً فيها (أطلقوا عليه اسم الموسيقار سيرغي بروكوفييف المولود في دونتسك)، وشيد ملعباً رياضياً ضخماً لناديه الرياضي لكرة القدم «شاختيور»، الذي جرت فيه بطولة أوروبا لكرة القدم عام 2012. وقد تم تدمير كل هذا خلال نصف عام، في عام 2014.

الرامي********

قال العقيد إيغور ستريلكوف في حديث للصحيفة القومية المتشددة «زافترا – الغد» في تشرين الثاني/نوفمبر 2014: «كنت قد ضغطت على زناد الحرب على الرغم من كل شيء. لو أن تشكيلنا لم يعبر الحدود، لانتهى كل شيء في المحصلة. في خاركوف كما في أوديسا، كان هناك عشرات من القتلى، والمحترقين والأسرى. وكان يمكن أن ينتهي بهذا كل شيء. بيد أن عجلة الحرب كانت لا تزال تدور، عملياً. لقد أطلقنا قواتنا. وخلطنا جميع الأوراق على الطاولة. جميعها!».

وبالفعل، إن عملية القرم الخاطفة لم تتكرر في أية منطقة من المناطق. فالمتمردون في خاركوف وفي دونتسك احتلوا مراكز إدارات المناطق، ولم يحدث أي شيء آخر، ولم يطرحوا أية مطالب.

في 12 نيسان /إبريل سيطرت مجموعة من المسلحين على مخفر الشرطة في سلافيانسك بمنطقة دونتسك. كان قائدهم إيغور ستريلكوف. ومن هذا اليوم بدأ النزاع المسلح في شرق أوكرانيا.

يتذكر ستريلكوف قائلاً: «كنت مستشاراً عند أكسيونوف في القرم، أقود الفصيل الموحد لميليشيا القرم: سرية المهام الخاصة التي كانت تنفذ المهام القتالية. ولكن بعد المعركة من أجل وحدة الخرائط، حيث استشهد اثنان (أنا كنت قائد هذه المعركة)، تم حلّ السرية، وتفرق أفرادها كل في ناحية.

عندما جرت الأحداث في القرم، كان واضحاً أنها لن تقتصر أبداً على القرم وحده. فالقرم في قوام «نوفوروسيا» - هو مكتسب كبير، وجوهرة في تاج الإمبراطورية الروسية. أما القرم لوحده مفصولاً ببرازخ دولة معادية - فليس بالشيء المناسب.

عندما بدأت تنهار السلطة الأوكرانية على مرأى الجميع، كان يأتي باستمرار إلى القرم مندوبون من مناطق «نوفوروسيا»، كانوا يريدون أن يكرروا في مناطقهم ما حدث في القرم. كانت هناك رغبة واضحة لدى الجميع بمتابعة العملية. كان المندوبون يخططون للانتفاضات في مناطقهم ويطلبون المساعدة. وبما أن هذا العبء وقع على أكسيونوف، الذي كان يعمل عشرين ساعة في اليوم، فقد طلب مني أن أهتم بالمناطق الشمالية. وعينني مستشاراً في هذا الموضوع. وبدأت العمل مع جميع المندوبين: من أوديسا، من نيقولايف، من خاركوف، من لوغانسك ودونتسك. وكان الجميع على ثقة كاملة بأن الانتفاضة إذا ما بدأت فستهب روسيا للمساعدة. ولهذا جمعت مقاتلي السرية الذين لم يسافروا، وجمعت متطوعين. وبلغ المجموع 52 شخصاً.

وصلنا إلى بلدة سلافيانسك بالصدفة. كنا في حاجة إلى بلدة متوسطة الحجم. 52 رجلاً هي قوة في منطقة سكنية غير كبيرة. وقيل لي، إن في بلدة سلافيانسك النشطاء الأكثر قوة. واعتبرنا هذه الصيغة هي المثلى».51

تم استبعاد سلطات المدينة السابقة. وأخذت تحكم سلافيانسك «الميليشيا» – هكذا سما أنفسهم رجال ستريلكوف. في الأيام الأولى لم تتخذ السلطات المركزية بهذا الخصوص أية خطوات. حيث لم يكن هناك تدخل مباشر من قبل روسيا - لم يكن بوتين واثقاً من النجاح ولهذا لم يعط أية أوامر. وفي المقابل ساعد ستريلكوف رب عمله السابق رجل الأعمال الروسي الكبير كونستانتين مولوفييف.

كانت السلطات الأوكرانية مشغولة بالتحضير للانتخابات الرئاسية التي جرت

في 25 أيار/مايو. وسرعان ما توقفت الاضطرابات في خاركوف بعد أن استعاد رجال الشرطة من الميليشيا المحتلة بناء إدارة المنطقة. لم تجرؤ سلطات كييف الإقدام على الهجوم على دونتسك ولوغانسك، خشية من إراقة الدماء. وفي المقابل بدأت معارك أكثر جدية بالقرب من سلافيانسك: لم تكن الجيوش تتحارب، بل مجموعتان مسلحتان. من ناحية، كانت هناك «الميليشيا» بقيادة ستريلكوف، ومن الناحية المقابلة كانت هناك المنظمة القومية الأوكرانية العسكرية «القطاع اليميني»، التي تشكلت في ميدان كييف، برئاسة دميتري ياروش.

سرعان ما أصبح ستريلكوف شخصية جماهيرية، وأخذ يعقد مؤتمرات صحافية ويسجل نداءات بالفيديو. كان يدعو فيها السلطات الروسية لتقديم المساعدة له، وإرسال القوات إلى شرق أوكرانيا. وكان ينسّق خطواته مع موسكو، وبادئ ذي بدء مع غلازيف. بيد أنه لم ينتظر أية مساعدة. فقد اصطدمت موسكو بالعقوبات بسبب القرم، ولم ينوِ بوتين ضم شرق أوكرانيا إلى روسيا.

كان يروي ستريلكوف قائلاً: «كان لدي أمر قطعي - عدم تسليم سلافيانسك. وعندما أعلمتهم أنني أنوي الخروج منها، كرروا لي الأمر عدة مرات بعدم الخروج، وبالدفاع عن سلافيانسك حتى الرجل الأخير: «سيفكون الحصار عنكم بالتأكيد، دافعوا عن سلافيانسك». أسألهم: بماذا ستساعدوننا؟ صمت. لدي ألف شخص، ولدى الألف شخص أفراد عائلاتهم. ولم يكن لدي الحق بالتضحية بهم. ولهذا اتخذت قراراً باختراق الحصار».

في 5 تموز/يوليو عندما كانت سلافيانسك مطوقة تقريباً من الجهة الأوكرانية، خرج ستريلكوف ورجاله من الحصار واخترقوا دونتسك. وقد أرسوا بذلك بداية مرحلة جديدة في الحرب.

يتذكر ستريلكوف قائلاً: «عندما دخلنا دونتسك، كان كل شيء رائعاً هناك. كان

يجلس العمدة المعيّن من قبل كييف، وإدارة الشؤون الداخلية تخضع لسلطة كييف كما في السابق - مثال كلاسيكي على سلطتين. لم تكن المدينة مهيأة للدفاع أبداً. الحواجز سيئة التجهيز، الطرق غير مقطوعة، كان من الممكن الدخول إليها من كل الجوانب... كانت دونتسك في تلك اللحظة مدينة مسالمة بكل معنى الكلمة. الشعب يتشمّس، ويستجم ويسبح، والرياضيون يتدربون، والناس يشربون القهوة في المقاهي. كما كانت موسكو صيفاً، كذلك كانت دونتسك».

وخلال بضعة أشهر، تحولت دونتسك، مدينة المليون نسمة إلى جحيم حربي. وستريلكوف يفخر بهذا. وبادئ ذي بدء، اقترح ستريلكوف تفجير الأبنية المؤلفة من تسعة طوابق في أطراف المدينة، كي يسهل الدفاع عن المدينة. وبدأت في المدينة مصادرة السيارات الخاصة للأغراض العسكرية. وفرضت «ضريبة الحرب» ومقدارها 5% على رؤوس الأموال.

كان رينات أحمدوف قد رحل من المدينة في شهر أيار/مايو. وفي شهر آب/ أغسطس أحرقوا بيته. ونَقل ناديه «شاختيور» لكرة القدم إلى أوكرانيا الغربية، إلى مدينة لفوف.

وخلال هذه الفترة، بدأ الكرملين يهتم أكثر بشرق أوكرانيا. وانضم إلى سيرغي غلازيف فلاديسلاف سوركوف، وقد خُطط في البداية، أن يهتم الأول باقتصاد المنطقة، ويهتم الثاني بالسياسة. وسوركوف بالذات هو مَن شكّل أجهزة السلطة فيما يعرف بجمهورية دونتسك الشعبية. وقد عُين الخبير السياسي الموسكوفي والكاتب ألكسندر بوروداي رئيساً للوزراء، وعُين ستريلكوف وزيراً للدفاع.

تبنى غلازيف في الفترة الأولى فكرة طبع عملة خاصة ونظام نقدي خاص بجمهورية دونتسك. بيد أنه كانت لدى سوركوف مهمة مغايرة تماماً – لم يطلب منه بوتين تطوير الدولة غير المعترف بها، بل على العكس، كان في

حاجة لامتلاك رافعة للضغط والتأثير على أوكرانيا. كان هدف سوركوف محاولة دمج دونتسك ولوغانسك من جديد في قوام الدولة الأوكرانية، كي يؤثر عن طريقهما على السياسة الأوكرانية. مثل عدم السماح بدخول أوكرانيا في حلف شمال الأطلسي(الناتو) أو غيره من التحالفات.

لم يفهم غلازيف هذا الهدف ولم يرد أن يفهمه، فهو كان ينوي جاداً بناء حياة جديدة في الأراضي التي أوكلت إليه. ولهذا سرعان ما أبعد عن العملية. أما سوركوف، فكان يتنقل باستمرار بين كييف وموسكو، ويتفاوض مع الرئيس الجديد بوروشنكو حول طرق المصالحة مع الشرق.

كان سوركوف على معرفة بالرئيس بوروشنكو منذ فترة طويلة، حيث كان يتردد الأخير على الكرملين للمباحثات في عام 2004 قبل «الثورة البرتقالية»، علاوة على ذلك كان لدى بوروشنكو - ملك الشوكولا - معمل للشوكولا في روسيا وممتلكات في القرم. وكان محاوراً مناسباً جداً. بيد أنه لم يكن في استطاعته الموافقة على شروط سوركوف (مثل العفو العام عن جميع الذين شاركوا في الانتفاضة أو إعلان النظام الفدرالي في أوكرانيا والاعتراف بوضع خاص لدونتسك ولوغانسك) – ولو وافق لَما تفهمه ناخبوه.

«إمبراطورية الشر» من جديد

في مساء 17 تموز/يوليو ظهر على صفحة مجموعة إيغور ستريلكوف في شبكة التواصل الاجتماعي التعليق التالي: «في منطقة توريز تم الآن إسقاط طائرة آن-25، وهي تسقط الآن خلف منجم بروغريس. لقد حذّرنا من عدم الطيران «في سمائنا». وهذا هو شريط فيديو يؤكد سقوط الطائرة. لقد سقطت في منطقة النفايات، لم تمس الأبنية السكنية. ولم يُصب السكان المدنيون بأذى. وثمة معلومات عن إسقاط طائرة ثانية، غالباً من طراز سو».

بعد ساعة، اتضح أنه فوق سماء دونتسك تم إسقاط طائرة ركاب «بوينغ -777»52، وعلى متنها 283 راكباً و15 شخصاً طاقم الطائرة.53

لقد شكل تحطّم طائرة الـ«بوينغ» صدمة للعالم كله. ولو أن النزاع بقي خفياً، لعرف الجميع به في اليوم التالي. وقد كانت صدمة كبيرة لبوتين أيضاً. فقد شكلت نقطة تحول، أصبح بعدها إلغاء العقوبات مستحيلاً.

في عام 1983 أسقطت طائرة سوفييتية مقاتلة طائرة «بوينغ» تابعة لكوريا الجنوبية، دخلت خطأ في المجال الجوي للاتحاد السوفييتي. وقد شكل هذا الحدث ضربة رهيبة على صورة موسكو - وبعده لَقّب الرئيس الأمريكي ريغان الاتحاد السوفييتي باسم «إمبراطورية الشر». والآن وجد فلاديمير بوتين نفسه في موقف مشابه. بعد سقوط طائرة «بوينغ»، اتضح له أنه لم يعد هناك طريق إلى الوراء، إلى العلاقات السابقة مع الغرب، ولن يكون.

لم يعترف الانفصاليون بمسؤوليتهم عن إسقاط الطائرة، متهمين الجانب الأوكراني في كل شيء، لكنهم كانوا منهارين تماماً من الناحية المعنوية. وفي هذا الوقت كان هجوم الجيش الأوكراني يتقدم بنجاح وسرعة. وتابع ستريلكوف حياته العامة النشيطة على شبكة التواصل الاجتماعي - مطالباً بوتين بصوت عال بإدخال القوات الروسية بسرعة، من أجل دعم قوات المقاومة في دونتسك. وخلال هذه الفترة، طوّقت القوات الأوكرانية دونتسك من الجانبين وأصبحت قريبة من فصلها عن الحدود الروسية.

في أواخر تموز/يوليو نشرت إدارة أمن الدولة في أوكرانيا على الإنترنت تسجيلاً لمحادثة هاتفية تم التنصت عليها بين رئيس وزراء جمهورية دونتسك الشعبية بوروداي والمُموِّل الرئيس لقوات المقاومة، رجل الأعمال كونستانتين مالوفييف (تم تحديده خطأ على أنه ألكسي تشيسنياكوف، مساعد سوركوف - لأن الاثنين في لحظة المحادثة كانا في فرنسا، أحدهما في بياريتز والثاني في النورماندي). قال بوروداي: «إذا لم يتغير شيء على الصعيد العسكري، فلن نصمد أسبوعين»، مؤكداً بذلك أن قدرات جمهورية دونتسك الشعبية بدأت تنفد. علاوة على ذلك، اشتكى للمموّل بأن الأموال تنفد أيضاً. ووعد الأخير

بتزويده بالمال.

ورداً على هذه المحادثة قال له مالوفييف إنه على سفر مع الأب تيخون (شيفكونوف)، ونقل إليه بكلمات الأب تيخون رجاء ستريلكوف: بأنه سيظهر أمام الرأي العام ويعلن عن ولائه وإخلاصه لبوتين.

قال مالوفييف: «من المهم جداً، أن يدلي البطل «الأسطوري» بحديث صحافي يظهر فيه موالياً مخلصاً بصورة مثالية، والذي يقول فيه، ها أنا ذا قد وصلت أخيراً إلى دونتسك. كل ما يجري هنا، عبارة عن أناس يكتبون على شبكة التواصل الاجتماعي، وكأنني ضد القيادة العليا... ها أنا ذا أقول. أنا ضابط، ولدي قائد أعلى. في اللحظة الراهنة لا أنفذ أوامره المباشرة، لأنني موجود في دولة أخرى. لكنني أنظر إليه باحترام كبير. وإنني أعتبره أعظم زعيم معاصر، وبفضله نهضت روسيا ووقفت قوية على قدميها. ونحن جميعاً ننظر إليه بأمل، ليس بمعنى «متى؟»، بل بمعنى أننا: نحبه، ونثق به، إنه مثلنا الأعلى، ومهما اتخذ من قرارات، فسوف ننفذ جميع قراراته، لأنه القائد الحكيم للعالم الروسي».

كان قلق الأب تيخون وبوتين نفسه يرتبطان بازدياد شعبية ستريلكوف عبر الإنترنت بسرعة غير مسبوقة. فالرأي العام الذي كان بالأمس يشيد ببوتين لإلحاقه القرم بروسيا، أخذ اليوم يطالب بانتصارات جديدة. وكانت نداءات ستريلكوف بإدخال القوات الروسية إلى أوكرانيا تجد صدى واسعاً لدى كثيرين - وأخذ عدد متزايد من الناس يلوم بوتين على تردده.

وفي المحصلة أصبح الوضع خطيراً في شهر آب/أغسطس. وأصبح واضحاً، أن القوات الأوكرانية ستطوق الانفصاليين وتفصلهم عن الحدود الروسية، وبعدها لن يبقى لدى موسكو أية قدرة للتأثير أو الضغط على أوكرانيا. وسيغدو بيتر بوروشنكو منتصراً ولن يبقى أي أساس ليقبل برأي سوركوف. وعندها قرر فلاديمير بوتين، على الرغم من كل شيء، إشراك القوات الروسية النظامية.

تماماً، كما حدث في القرم، بصورة سرية.

شمعة على روح الشهداء

لدعم ستريلكوف أرسل سيرغي شويغو وحدات الإنزال ذاتها التي كانت قد سيطرت في الشتاء على القرم، ومن ثم كوفئت على شجاعتها بميداليات تذكارية. وانتقلت جمهورية دونتسك الشعبية فجأة إلى الهجوم المضاد. وفي حديث صحافي أدلى به ستريلكوف لصحيفة «الغد - زافترا» دعا العسكريين الروس بـ«المستجمِّين»، فبحسب الرواية الرسمية، ذهبوا جميعهم في إجازة، كي يحاربوا متطوعين من أجل «نوفوروسيا».

قال ستريلكوف متذكراً: «لقد صمدنا أربعين يوماً إلى أن جاء «المستجمُّون». في الأيام الأخيرة كنا قد وصلنا إلى مرحلة اليأس».

انطلق الجنود الروس إلى الهجوم المضاد من جهة ماريو بول المحاذية للبحر، وهي المدينة الثانية من حيث الحجم في منطقة دونتسك، التي انتقلت إليها من دونتسك إدارة المنطقة التابعة لكييف. وكادوا أن يستولوا عليها.

وهاكم رواية ستريلكوف لما حدث: «عموماً، هجم «المستجمون» على ماريوبول. كانت مدينة ماريوبول خالية، ولم يكن فيها جنود أوكرانيون طيلة يومين، وكان من الممكن السيطرة عليها من دون معركة. ولكن كان هناك أمر بعدم احتلالها. لم يكن هناك أمر بالتوقف، بل أمر بعدم احتلالها بأي شكل من الأشكال».

اختُتم هجوم القوات الروسية في مدينة إيلوفايسك في المعركة التي عُرفت باسم «أتون إيلوفايسك» - وهي أقسى هزيمة للجيش الأوكراني خلال فترة النزاع كلها، حيث انهارت محاولة تطويق الانفصاليين، وقُتل من الجانب الأوكراني نحو 1000 شخص.

ظهرت الخسائر الأولى بين الجنود الروس أيضاً - في المقبرة بالقرب من

بسكوف ظهرت قبور جديدة لرجال الإنزال، الذين قتلوا في شرق أوكرانيا. وأصبح من المستحيل إخفاء اشتراك الجيش الروسي في المعارك، من حيث الواقع. لكن فلاديمير بوتين تابع نفي ما هو جلي للعيان. ففي حديثه الهاتفي مع أنجيلا ميركل، أكد بوتين أنه في المعارك بالقرب من دونتسك كان يحارب فقط الجنود الذين ذهبوا في إجازة. فسألته المستشارة الألمانية مستغربة: «حسناً، وهل الجنود عندكم يذهبون في إجازة بمعداتهم القتالية؟». أجاب بوتين، من دون إحراج أو تلكؤ: «أتعرفين، عندنا في بلادنا، كم هائل من السرقات والفساد. على الأغلب هذه المعدات سرقوها من المستودعات». فأغلقت ميركل السماعة في وجهه.

وفي هذه الحالة، لم يكن بوتين يعتبر أنه يخدع أحداً ما: فالجنود، حسب رأيه، كانوا يعرفون، إلى أين يذهبون. بعد أسبوع، في 10 أيلول/سبتمبر وبعد انتهاء المعارك بالقرب من مدينة إيلوفايسك، ذهب إلى الكنيسة، كما قال «وأوقد الشمع على أرواح من استشهد وعانى مدافعاً عن الناس في نوفوروسيا». وهو بهذا قد أشاد بذكرى أولئك الجنود الذين لم تعترف روسيا بمشاركتهم حتى الآن. ودُفعت لأسر العسكريين المستشهدين تعويضات - بشرط أن لا يدلوا بأي حديث للصحافيين.

بعد بداية المعارك بالقرب من إيلوفايسك نُقل إيغور ستريلكوف من دونتسك إلى موسكو، وانتقلت قيادة العمليات إلى جنرالات موسكو بتكليف من وزير الدفاع سيرغي شويغو، أما زعيم المقاومة فأُبعد لأنه كان ثرثاراً. ونُقل معه إلى موسكو رئيس الوزراء بوروداي - حيث انتقلت الإدارة العملياتية من الموسكوفيين إلى إدارة دونتسك المحلية.

عاد ستريلكوف إلى موسكو بخيبة الأمل، وقال متذكراً: «في البداية، كنت أنطلق من محاولة تكرار صيغة القرم - أن تدخل القوات الروسية. تلك كانت الصيغة الأفضل. وكان السكان يسعون إليها. لم يكن هناك من ينوي الدفاع عن جمهورية لوغانسك ودونتسك. منذ البداية كان الجميع يؤيدون روسيا.

والاستفتاء أجريناه من أجل الانضمام لروسيا، وذهبنا للقتال من أجل روسيا. الناس كانوا يريدون الانضمام إلى روسيا. كانت الأعلام الروسية مرفوعة في كل مكان. عندي في الأركان كان العلم الروسي مرفوعاً وكذلك عند الجميع. والسكان كانوا يؤيدوننا تحت العلم الروسي. كنا نظن: ستأتي الإدارة الروسية، وستنظم الأمور، وستكون هناك جمهورية أخرى ضمن قوام روسيا. لم أفكر أبداً في بناء دولة. وفيما بعد، عندما أدركت أن روسيا لن تضمنا إليها (أنا أشرك نفسي مع المقاومة)، كان هذا القرار صدمة، بالنسبة إلينا».54

السياسة الخارجية أصبحت داخلية

بعد عودته إلى موسكو، بدأ ستريلكوف بفضح فلاديسلاف سوركوف، الذي كان يقود سياسة الكرملين في الدونباس. دعا القيّم السابق عليه بـ«المتآمر الكبير الذي بذل كافة جهوده من أجل إعادة نوفوروسيا من جديد إلى قوام أوكرانيا بصفة «منطقة ذات حكم ذاتي» مقابل الاعتراف بالقرم روسياً»، كما اتهمه فريقه أيضاً بالسرقة.

قال ستريلكوف شاكياً: «سوف تخصص الأموال فعلاً، لكنني أؤكد، غالبية هذه الأموال، بوجود مثل هذا القائد، وهؤلاء المنفّذين لن تصل إلى الشعب... سوف يوضع ذلك النظام الذي يجعل من المستحيل الإشراف على صرف هذه الأموال. إنه سوف «يبتلعها»، كما يقال في روسيا. النهب والسرقة على جميع المستويات».55

لكن فضيحة صغيرة لم تؤثر على العملية السياسية أبداً. فستريلكوف، البطل السابق في دونتسك، تبين أنه في موسكو ليس حتى شخصية سياسية عادية، بل منبوذ شبه منسي. أما فلاديسلاف سوركوف فقد تابع إجراء المفاوضات مع كييف وإدارة الجمهوريتين غير المعترف بهما في شرق أوكرانيا. وقد تم تناسي عاره السابق. وفي أحد الأعياد، نطق رئيس وزراء جمهورية دونتسك الشعبية السابق بوروداي على شرفه بنخب صارخ، وكأن فلاديسلاف سوركوف وحده،

بعد أن نُقل من السياسة الداخلية إلى السياسة الخارجية، استطاع أن يجعل من سياسة روسيا الخارجية داخلية.

إن سوركوف بالذات (مع صديق بوتين القديم فيكتور ميدفيدتشوك) أصبح المهندس الرئيس لاتفاقيات مينسك. وهدفها هو نفسه - الحصول على أداة دائمة للتأثير على أوكرانيا، مع المحافظة خلال ذلك على السيطرة الكاملة على جمهورية دونتسك الشعبية.

وكان الجنود الروس متورطين أيضاً في المعركة الحاسمة الثانية - فقبل توقيع اتفاقية مينسك الثانية مباشرة، احتل الانفصاليون مدينة ديبالتسوفو، وهي أهم عقدة مواصلات، تربط بين دونتسك ولوغانسك. وفي أتون موقعة ديبالتسوفو قُتل أكثر من 250 من العسكريين الأوكرانيين. وخلال بضعة أشهر بعدها، أصلح الخبراء الروس الخط الحديدي، وأصبحت القاطرات الكهربائية تسير بين دونتسك ولوغانسك.

لقد أصبحت الحرب في شرق أوكرانيا أكثر شبهاً بالنزاع المجمّد، مثل أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية أو ترانسنيستريا. وكان يُنقل كل شهر من روسيا إلى الدونباس ما يصل إلى 7 مليار روبل عملة نقدية (لعدم وجود نظام مصرفي هناك). علاوة على ذلك، كانت الشركتان الروسيتان «غازبروم Газпром» و«إنتر راو ИнтерРАО» تزودان الدونباس بالغاز والكهرباء مجاناً.

واستمر النزاع الحربي الراكد، لكنه لم يُحدث أي ابتعاد أو نأي عند السكان الروس. بل بالعكس، فالحرب كانت شعبية، أكثر من أي وقت آخر. والموجة الوطنية التي بدأت مع الأولمبياد وأحداث القرم لم تنحسر أبداً. وفلاديمير سوركوف، الذي كان قبل عشر سنوات يقلّد الحرب، بهدف الحماية من «الثورة البرتقالية»، أصبح في هذه المرة يمارس حرباً حقيقية. وبدأ الجنود الروس يجابهون بصورة جدية الجنود الأوكرانيين، لأنهم كانوا واثقين ثقة مطلقة بأحقية قضيتهم، وبأنهم ليسوا معتدين بل ضحايا. وأن روسيا لا تهاجم بل

تدافع - إنها مرغمة على الدفاع، لأن أمريكا هاجمتها.

لقد أصبح الاحتفال بالذكرى السبعين لعيد النصر في 9 أيار/مايو 2015 رمزاً لعزلة روسيا. فقد قاطعه جميع زعماء الدول السبع الكبار. وفي المقابل، حضر رئيس جمهورية الصين الشعبية سي تسزيني بين، والزعيم الكوبي راؤول كاسترو ورئيس زيمبابوي روبرت موغابي. لكن وزير الدفاع سيرغي شويغو أصبح بطل العرض الرئيس. وقد أحدث انطباعاً في نفوس مشاهدي التلفزيون، أن شويغو قبل أن يأمر بافتتاح العرض، خلع قبعته ورسم علامة الصليب على صدره. لقد اندمجت النزعات الشيوعية والأرثوذكسية في كل واحد، مشكلة طقوس بوتين غير المسبوقة من قبل.

الفصل الثامن عشر: ألكسي كودرين خسر المعركة في تأثيره على الرئيس

ربما يكون ألكسي كودرين موظفاً مسؤولاً مثالياً. عند مغادرته الحكومة، واندماجه في عداد المعارضة المعتدلة، أصبح عميداً لكلية الفنون والعلوم الحرة في جامعة سانت - بطرسبورغ. وهذا يناسب كودرين جداً. فهو يبدو بالذات، كأستاذ اقتصادي قدير، حكيم. لكن كودرين، في الحقيقة، لم يكن أستاذاً أبداً، لقد كان دائماً موظفاً. ومعارفه الأكاديمية الاقتصادية اكتسبها في أثناء عمله في الوزارة. في تلك الأعوام، كانوا يمازحونه ويلقبونه بكبير محاسبي روسيا.

بعد استقالته، بدأ يدعوه، من كان يسخر منه سابقاً، بالوزير الأكثر صدقاً واحترافاً. وحتى بعد الاستقالة، يتصرف كودرين كموظف مسؤول، وإن كان ليبيرالياً ومثقفاً جداً. إن الاتفاق معه على موعد ولقاء أشبه ما يكون بملحمة صعبة. لقد أجّل موعد حديثنا الصحافي (بسبب الانشغال، واللقاءات المفاجئة، والسفرات العاجلة وإلخ) نحو عشر مرات، وفي كل مرة كان يرسل رسائل اعتذار.

لدى كودرين مكتب رائع. إنه أشبه بقصر متواضع صغير، على الرغم من أنه خَلف متحلق سادوفوي الدائري، بالقرب من شارع أولمبيسكي. مكتب كودرين شبيه جداً بمكتبه في البيت الأبيض عندما كان نائباً لرئيس مجلس الوزراء.

إن كودرين نفسه، لا يعدُّ نفسه معارضاً بالطبع. فهو كما يبدو، يعتقد أنه على قائمة الاحتياطيين - وأن وقته سيحين. فهو، بالاختلاف عن الليبيراليين الآخرين، يتابع من فترة الأخرى بصورة نادرة، التواصل مع بوتين، ويقدم له نصائحه. هل يأسف لأنه استقال من الحكومة بسبب النزاع مع الرئيس السابق ميدفيديف، وبالتالي قلّص من تواصله مع بوتين؟ رداً على هذا السؤال، يبتسم كودرين بصورة غامضة: «يطرحون عليَّ أحياناً هذا السؤال. ولكن، لا، لست آسفاً. ولا يمكنني القول لماذا. إنها ليست مجرد اتفاقات مع بوتين أو غيره ممن في السلطة. إنها أسبابي الشخصية». يقول كودرين، بلهجة الأستاذ الذي لا يمكنه أن يشرح ببساطة للطالب جوهر اكتشافه الجديد.

وداعاً لمجلس الوزراء

في آذار 2014، أصبح من المفهوم، أن «الحزب الليبيرالي» في الكرملين قد خسر المعركة. ولم يعد فلاديمير بوتين عملياً يصغي إلى آرائه. كان يلتقي تقريباً مرة في الأسبوع مع وزير المالية الجديد أنطون سيلوآنوف، ويستمع مرة في الشهر إلى سلفه ألكسي كودرين، لكنه لم يكن ينوي تغيير مقاربته للسياسة. كانت صلاحياتهما تتعلق فقط بمجال المالية - أما في كل ما تبقى فكان بوتين يرى أنه يعرفه ويفقه فيه أفضل منهما، ولهذا لم يكن يسأل عن آراء الليبيراليين.

بقي ألكسي كودرين في السلطة، كما كان في السابق. وكان يشارك في كثير من الاجتماعات، وكثيراً ما كانت كلمته هي الكلمة الأخيرة الحاسمة. وقد رُويت لي القصة التالية: في أواخر عام 2013 استدعى بوتين كودرين إلى اجتماع حول المسائل الاقتصادية. كان موضوع الاجتماع تعديل ضريبة الدخل، وكان كامل

فريق الحكومة الاقتصادي مجمعاً على رأي واحد: وزير الاقتصاد، ووزير المالية، ورئيس البنك المركزي، ومستشار الرئيس للشؤون الاقتصادية. وكان ضد هذا الرأي ألكسي كودرين وحده، الذي كان حاضراً الاجتماع، من دون أن يُعرف بأية صفة. وبعد مناقشات حامية، أخذ الرئيس برأي كودرين، وأعلن عن انتهاء الاجتماع.

بعد استقالته في عام 2011 بقي كودرين عدة أشهر في مكتبه في وزارة المالية. وقد تمكن من إلقاء كلمة في أكبر مسيرة حاشدة للمعارضة في شارع ساخاروف، مع احتفاظه خلال ذلك بمكتبه في شارع إيلينكا، في بناء وزارة المالية القديم. أما الوزير الجديد، خليفته، أنطون سيلوآنوف - فمن باب الاحترام لسلفه الوزير لم ينتقل إلى مكتبه. في الأشهر الأولى بعد الاستقالة، كان كودرين يعيش في وضعية الشبح، «شبح والد هاملت». لم يكن يشغل أي منصب حكومي، لكنه كان يتابع حسب العادة الذهاب إلى العمل من وقت لآخر.

لم يكن أحد من الليبيراليين الحكوميين، بمن فيهم الوزير الجديد، مستاءً من كودرين. وهو إن لم يكن الأكبر، على أية حال، فهو الأول بين الأشخاص المتكافئين، لأنه إلى جانب خبرته الكبيرة، كانت لديه ميزة مهمة جداً. لقد كان أن صديق بوتين. كان كودرين يملك إمكانية الوصول المباشر إلى بوتين. فقد كانا يعملان معاً منذ بداية التسعينيات، علاوة على ذلك، فإن كودرين هو الوحيد من بين جميع البيروقراطيين المعاصرين المحيطين، الذي لم يكن مرؤوساً من قبل بوتين - كانا متكافئين متساويين. في التسعينيات كان بوتين يرأس قسم العلاقات الدولية في محافظة بطرسبورغ، أما كودرين فكان يرأس القسم المالي - الاقتصادي. وقد انتقل كودرين بصورة مستقلة - من دون رعاية بوتين - إلى موسكو، حيث استدعاه مهندس الإصلاحات الاقتصادية أناتولي تشوبايس. كانا بوتين وكودرين يتخاطبان من دون رسميات، برفع الكلفة، ويناديه الرئيس تحبباً بـ«ليوشا». باختصار، ربما كان ألكسي كودرين الديمقراطي الليبيرالي الأخير من ذوي النفوذ في روسيا.

لكن كودرين في أوائل عام 2014 وجد نفسه في دور غريب، دور الرسول الوحيد، الذي تجرأ على إحضار أخبار سيئة. ولم يعد بوتين يصغي إليه. جميع المتبقين، جميع المحيطين بالرئيس قالوا تماماً عكس ما قاله كودرين. جميعهم كانوا مقتنعين بأن النهج الذي اختطه بوتين كان صحيحاً. ولهذا لم يكن لدى بوتين لا الوقت ولا الرغبة لسماع شكوك كودرين.

الأهم - أن كودرين لم يكن يصدق أن الحرب ضد روسيا تشنها الولايات المتحدة الأمريكية. كثيراً ما شرح له بوتين، وعرض عليه تقارير الاستخبارات، والأرقام والمعطيات. وكأن كودرين كان لا يسمع. كان كل مرة يبدأ كودرين بالحديث عن العواقب الاقتصادية. ونفد صبر بوتين. وما دخل العواقب الاقتصادية هنا؟ الولايات المتحدة تخوض حرب إبادة. إنها تريد الإطاحة به شخصياً، إنها تحاول القيام بذلك مرة ثانية، كما حاولت في عام 2003 بواسطة خودوركوفسكي. ولكن حتى في هذه المرة لم يتوصلا إلى اتفاق.

أما في الحرب، فليست لدى كودرين أية فرص. فامتيازات الموظفين المسؤولين، والتصريحات الخاصة والاتصالات الخاصة لم تعد تجدي ولا تعطي أية أفضليات إضافية - لم تعد توفر له حتى فرصة إيصال وجهة نظره إلى بوتين. وبالتالي ليست هناك أي حاجة ليرهق نفسه بعبئها. حتى أن كودرين لم يجهز مكتبه الجديد بخط مباشر سري للتواصل مع الرئيس.

انتقام النظام

كان اليوم الأول من آذار/مارس رهيباً. توجه فلاديمير بوتين رسمياً إلى مجلس الاتحاد - مجلس الشيوخ في البرلمان - بطلب السماح باستخدام القوات المسلحة خارج روسيا. وهذا هو المفروض، حسب الدستور. وهذه، بالطبع، ناحية شكلية تماماً، ولم يفعل ذلك في السابق أي رئيس روسي. فبوريس يلتسين لم يطلب الموافقة عندما أدخل القوات إلى الشيشان، ودميتري ميدفيديف لم يحصل على الموافقة لإدخال الدبابات الروسية إلى جورجيا.

لكنهما كلاهما أكدا أن هاتين الحالتين ليست بحرب أبداً بل «عملية ضد الإرهاب» أو حتى «عملية للدفع نحو السلام». لقد توجه بوتين عمداً إلى البرلمان - فهذه الحركة هي رمزية. وهو على هذا النحو هدد العالم.

لم يكن العالم بالفعل يتوقع هذا، وكان مصدوماً. لكن أكثر من أصيب بالصدمة هي فالنتينا ماتفيينكو، رئيسة مجلس الاتحاد، التي كان عليها في يوم السبت، يوم العطلة، جمع أعضاء المجلس كي يصادقوا بالإجماع على قرار الرئيس. لم تكن هناك أية شكوك في نتائج التصويت - فأعضاء مجلس الشيوخ كانوا جميعاً ودوماً يؤيدون القرارات بالإجماع. ولكن كيف يمكن جمعهم؟

عندما علمت فالنتينا ماتفيينكو، وهي كانت في شبابها مرشدة في منظمة الطلائع، أن عليها أن تجمع على الأقل نصف أعضاء مجلس الشيوخ، ظهرت عليه حالة من الهيستريا الهزلية. فالمهمة غير قابلة للتنفيذ إلى حد السخرية. إن مجلس الاتحاد - ليس تلك الهيئة التي تعمل بدقة الساعة. رسمياً، يجتمع مجلس الشيوخ للبرلمان الروسي في موسكو مرتين في الشهر - هذا من دون حساب فترات الإجازات لدى أعضاء مجلس الشيوخ (أي طيلة فصل الشتاء وطيلة فصل الصيف). ومن الناحية العملية، لدى أعضاء مجلس الشيوخ 15 أو 20 يوم عمل في السنة، لكنهم لا يحضرون جميعهم هذه الاجتماعات. فالحضور عادة نحو 50% (وهذا كاف للنصاب القانوني). ومن حيث وضعهم الوظيفي هم يماثلون أعضاء الحكومة ويحصلون على رواتب مماثلة، كرواتب الوزراء الاتحاديين. لكن غالبية أعضاء مجلس الشيوخ ليست في حاجة إلى هذا الراتب عامة. لأن أعضاء مجلس الاتحاد غالباً هم من أصحاب المليارات الذين يحتاجون إلى صفة حكومية إضافية فقط. أو من أصحاب السوابق الجنائية الكبار (أيضاً من أصحاب المليارات)، الذين يحتاجون إلى هذا الوضع الحكومي كضمان لهم من الملاحقة الجنائية. وفي حالات نادرة جداً، يكون أعضاء مجلس الاتحاد من المتقاعدين المستحقين الكبار، الذين أحيلوا على الراحة والتقاعد من اللعبة السياسية الكبيرة.

لم تكن قد بدأت الدورة الربيعية. وأولمبياد سوتشي انتهى للتو - وجميع أعضاء مجلس الشيوخ في الاستجمام: منهم من ذهب إلى جبال الألب ومنهم من ذهب إلى جزر الكناري. وخلال يوم واحد يستحيل الاتصال بالجميع - وليس إرغامهم على الحضور إلى مجلس الاتحاد فحسب. كان الجميع يتصل بأعضاء مجلس الشيوخ بصورة تشنجية: ماتفيينكو نفسها، ونوّابها، ورؤساء اللجان، والمحافظون - ومن كان لديه طائرته الخاصة صدرت له التعليمات بأن يأخذ زملاءه معه - وينقل رفاقه في هذه المصيبة إلى موسكو، ويقتلعهم من إجازاتهم.

حُدد موعد الجلسة في الساعة السادسة مساء. ولكن في الساعة السادسة لم يكن هناك حضور يكفي للنصاب القانوني. مع ذلك أعلنت رئيسة الجلسة فالنتينا ماتفيينكو أن «اللوحة معطلة»، واقترحت على أية حال بدء الجلسة - وبحسب قولها، وَعَد عدد من أعضاء مجلس الشيوخ بالقدوم في أثناء الجلسة. وبالفعل، سرعان ما ظهر على لوحة الحضور الرقم 90 - حيث توافد المتأخرون.

كان أعضاء مجلس الشيوخ المنقولون من جبال الألب الفرنسية مجمعين في الرأي. ولو سمع كلماتهم مشاهد غير متابع لظن أن مجلس الاتحاد يصادق ليس على إدخال القوات إلى أوكرانيا بل على الفور على إعلان الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية.

قال نائب رئيس الاتحاد فوروبيوف: «إن باراك أوباما قد اخترق الخط الأحمر، وأهان الشعب الروسي كله!».56 وكان معروفاً كأفضل صديق لوزير الدفاع سيرغي شويغو ونائبه لسنوات طويلة. وباعتباره محافظ ريف موسكو -الأب، فعند مغادرته لمنصب محافظ ريف موسكو، سلم شويغو - بالوراثة - هذا المنصب لابن صديقه الأفضل، وهو ابنه بالمعمودية، وعضو مجلس الشيوخ. طالب هذا السناتور في الجلسة بأن: «على روسيا أن تستدعي سفيرها في واشنطن».

لم يلقِ أحد من أعضاء مجلس الشيوخ كلمة عميقة مؤثرة مثل كلمة السناتور نيقولاي ريجكوف، البالغ من العمر 84 عاماً. من حيث الواقع، كان ما قاله كلمات عادية. وكأن ما يحدث في أوكرانيا «انقلاب على الدولة»، واستلم السلطة «طاعون قاتم وهذا نتيجة مؤامرة الأمريكيين والأجانب الآخرين»، الذين سبق أن «دمروا يوغوسلافيا، ومصر، وليبيا، والعراق وغيرها». إنه عموماً، خطاب تقليدي لشيوعي قديم. لكنه، بالنسبة إلى ريجكوف، كان خطابه والتصويت بحد ذاته، يعني الانتصار وإعادة الاعتبار.

كان نيقولاي ريجكوف رئيس الوزراء قبل الأخير للاتحاد السوفييتي. وهو بالذات الذي طبق جميع الإصلاحات الاقتصادية للبيريسترويكا (إعادة البناء)، التي تم اعتبارها فيما بعد فاشلة. وفي عام 1990 اختلف مع غورباتشوف، وأصيب بنوبة قلبية، واستقال من منصبه، منتقداً رئيس الاتحاد السوفييتي بقسوة، ومتهماً إياه بأنه يدمر دولة عظمى. وفي عام 1991 حاول ريجكوف العودة إلى النشاط السياسي - فهو كان المنافس الرئيس لبوريس يلتسين في الانتخابات الأولى التاريخية لرئيس روسيا. فاز يلتسين آنذاك من الجولة الأولى، أما ريجكوف فشغل المركز الثاني وحصل فقط على 16% من الأصوات. وقد بدا وكأن مهنته السياسية قد انتهت. ونُسي أمر ريجكوف، على الرغم من أنه تابع شغل بعض المناصب البروتوكولية الاحتفالية، وعندما بلغ الرابعة والسبعين من عمره، عُيِّن عضواً في مجلس الشيوخ عام 2003.

لقد كان انهيار الاتحاد السوفييتي وسقوط الاقتصاد المبرمج مأساة حياة ريجكوف كلها. وطيلة العشرين عاماً الأخيرة من عمره كان يَصِم الليبيراليين بالسعي إلى السلطة، وبادئ ذي بدء ألكسي كودرين، وأبدى فرحه بإقالته، علناً.

من حيث وجهات النظر كان ريجكوف وكودرين نقيضين كاملين. الأول - كان رئيس القسم الاقتصادي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، والمدافع عن الفلسفة الماركسية - اللينينية؛ والثاني - نصير اقتصاد السوق عن قناعة. ومنذ أواخر الثمانينيات، وفي ذروة البيريسترويكا وفي المؤتمرات

الأولى لنواب الشعب كان ريجكوف العدو الرئيس تقريباً لأناتولي سوبشاك عمدة بطرسبورغ المقبل، ورئيس ومعلم كودرين وبوتين. وفي كتاب ذكرياته «الطريق إلى السلطة»، كرس أناتولي سوبشاك فصلاً كاملاً منه لريجكوف بعنوان: «البلشفي الباكي نيقولاي ريجكوف». وفيه يصف رئيس الوزراء السابق كبرغي مثالي في الآلة السوفييتية، كممثل النظام البيروقراطي السوفييتي، المستعد للدفاع عن مصالحه حتى الرمق الأخير.

ولسخرية القدر، بعد 23 عاماً من هزيمته الكاملة، انتقم «البلشفي الباكي» فجأة. لم ينبعث الاتحاد السوفييتي بالطبع، لكن خطابه السوفييتي القديم فجأة أصبح مناسباً وملحاً وشعبياً. وعلاوة على ذلك، كان ريجكوف حاضراً في جلسة مجلس الاتحاد التي اتخذ فيها قراراً بإدخال القوات الروسية إلى أوكرانيا. وهذا علماً بأن ريجكوف نفسه أوكراني المولد. فقد وُلد في منطقة دونتسك في أسرة عامل منجم. وكان «البلشفي الباكي» سعيداً.

ومن الجدير بالذكر، أن ريجكوف لم يكن السيناتور «الأوكراني» الوحيد الذي صوّت لإدخال القوات الروسية إلى أوكرانيا. ففي أوكرانيا ولدت الناطقة بلسان مجلس الشيوخ فالنتينا ماتفيينكو، على الرغم من أنها سافرت للدراسة إلى بطرسبورغ، مدينة بوتين وكودرين وسوبشاك.

أيد جميع أعضاء مجلس الشيوخ القرار. وفي اليوم التالي حصلت فالنيتينا ماتفيينكو على توبيخ من إدارة الرئيس، ومن ثم وردها توبيخ آخر من بوتين نفسه، بسبب هذا الحضور الضئيل في مثل هذه الجلسة التاريخية. فقد بلغ مجموع الحاضرين 90 عضواً من أصل 168 عضواً.

في 16 آذار/مارس جرى في القرم استفتاء. وفي اليوم نفسه، نشرت الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوروبي قوائم العقوبات الأولى. وقد شملت هذه القائمة فالنتينا مافيينكو وأعضاء مجلس الشيوخ، الذين دعوا بنشاط إلى إدخال القوات إلى أوكرانيا. بمن فيهم نيقولاي ريجكوف البالغ من العمر 84

عـاماً. وبفضل العقوبات التـي أصابته، أصبح نيقولاي ريجكوف بطلاً فجأة. وبدأوا يصورون أفلاماً عنه، وأجرت معه الصحف الاتحادية مقابلات صحافية مجدّت «آخر رئيس وزراء الإمبراطورية السوفييتية». إن «بطريرك» السياسة الروسية الـذي تم العثور عليه من جديد، قد وصم «الخائنين» غورباتشوف ويلتسين، ومدح بوتين لأنه بعث روسيا من جديد.

اعتراف في الكرملين

في 18 آذار/مارس، بعد يومين من استفتاء القرم، أحيطت الساحة الحمراء بفصائل شرطة المهام الخاصة (الأومومون) المقبلة من نوفوسيبيرسك - وقد جُلبت على نحو خاص إلى العاصمة من على بعد 3000 كم من أجل تعزيز حمايـة النظام العام. كـانت المـدينة تقريباً في حالة حصار، لأنه كان يجري التحضير في الكرملين لإلقاء رسالة الرئيس العاجلة. كان بوتين ينوي إلقاء رسالته هذه أمام أعضاء مجلس الدوما، ومجلس الاتحاد والحكومة، وضيوف الشرف المدعوين خصيصاً لهذه المناسبة. ولهذا جلبوا رجال الشرطة لتعزيز الأمن في العاصمة من جميع أنحاء البلاد - حتى من سيبيريا.

كـان الجو صقيعاً في موسكو، وشكل النواب طابوراً كبيراً عند مدخل قصر المؤتمرات الكبير في الكرملين. جميعهم كانوا في معاطف سوداء وقبعات فرو سـوداء متشابهة جـداً - مثـل أعضـاء المكتـب السياسي. وعلى هذه الخلفيـة الموحدة كان يبرز فقط الملاكم العملاق (ونائب مجلس الدوما أيضاً) نيقولاي فـالويف - فـي معطـف رمـادي وقبعة خفيفة. وكـان كل من النواب يصل إلى مستوى خصره، والتقطوا جميعهم الصور التذكارية معه. في أثناء وقوفهم في الطابور، كانوا يتبادلون النكات والمزاح بخصوص العقوبات حصرياً: من أصابته العقوبات، ومن لم تصبه بعد. كانت النخبة السياسية تشعر بالعصبية قليلاً - أحـدهم بسـبب حتميـة العقوبات، وآخـر إدراكاً منه للحظة التاريخيـة. «سـوف أحدِّث أحفادي بما جرى في الكرملين في هذا اليوم التاريخي، عندما سمعت هذا الخطاب التاريخي».

كان خطاب بوتين، فعلاً، خطاباً تاريخياً. وذلك ليس فقط لأنه أعلن أن القرم وسيفاستوبول يدخلان الآن في قوام روسيا الاتحادية. لقد تذكر بوتين وروى خلال نصف ساعة كامل قصة رئاسته: وكيف تغيرت نظرته إلى العالم، كيف كان يسعى إلى أن يكون رئيساً أوروبياً ليبيرالياً عادياً، وكيف خاب أمله بالأصدقاء الغربيين، وكيف اقتنع بعدائهم، وكيف أنه لن يثق أبداً بعد الآن بصدقيتهم وإخلاصهم. لم ينطق أي رئيس روسي في يوم من الأيام بمثل هذه الكلمات المؤثرة والعميقة - إنه ليس خطاباً بل اعتراف - جلسة جماهيرية من التحليل النفسي على أعلى المستويات.

تقاسم بوتين مع الحضور الاستياء الذي يشعر به قائلاً: «لقد سعت روسيا بإخلاص إلى الحوار مع زملائنا في الغرب. نحن نعرض باستمرار التعاون في جميع المسائل المهمة، ونريد تعزيز مستوى الثقة، ونريد أن تكون علاقاتنا متكافئة، منفتحة وشريفة. لكننا لم نكن نجد خطوات مماثلة. بل على العكس، كانوا يخدعوننا مرة إثر مرة، ويتخذون قرارات من وراء ظهرنا، ويضعوننا أمام الأمر الواقع. وكانوا يؤكدون لنا الشيء ذاته: هذا لا يتعلق بكم».

قبل 14 عاماً كان صوت بوتين يتردد بطريقة مغايرة كلياً. يمكن لروسيا أن تصبح عضواً كامل الحقوق في حلف شمال الأطلسي «إذا ما أخذوا مصالح روسيا بعين الاعتبار، إذا ما أصبحت شريكاً متساويا في الحقوق» - هذا ما قاله بوتين عندما كان مرشحاً للرئاسة، في آذار/مارس 2000 على الهواء في حديث مع هيئة الإذاعة البريطانية. يصعب القول، هل كان فعلاً يؤمن بهذا المستقبل، لكنه كان يريد فعلاً أن يحوز على إعجاب زملائه الغربيين.

فيما بعد، تصادق بوتين مع جورج بوش الابن. وكما كان يذكر الرئيس الأمريكي فيما بعد، إنه نظر إلى عيني «صديقه فلاديمير» و«رأى فيهما روحه». وعندما قبل الصديقان جورج وتوني، من خلف ظهر بوتين، في عام 2004، سبعة بلدان في حلف شمال الأطلسي، بما فيها بلدان البلطيق، اعتبر بوتين هذا بمثابة

خيانة شخصية. يتذكر توني بلير في مذكراته انتهاء الصداقة مع بوتين قائلاً: «لقد توصل بوتين إلى نتيجة مفادها أن الأمريكيين لا يخصصون له ذلك الحيِّز الذي يستحقه».

قال بوتين بنص مباشر في خطابه في الكرملين: كانوا يخدعوننا مرة إثر مرة، ويتخذون قرارات من وراء ظهرنا، ويضعوننا أمام الأمر الواقع. وكانوا يؤكدون لنا الشيء ذاته: هذا لا يتعلق بكم».

وكان قرار محكمة لندن برفض تسليم زاكايف وبيريزوفسكي إلى روسيا ضربة أشد قوة. حتى أن بوتين لم يصدق أن بلير لا يمكنه التأثير على القضاة. واعتبر سلوك أصدقائه السابقين مرائياً - وذكّر به في خطابه في الكرملين: «إن شركاءنا الغربيين وعلى رأسهم الولايات المتحدة الأمريكية، يفضلون في سياستهم العملية الاسترشاد بحق الأقوى وليس بالقانون الدولي. أنهم مقتنعون بتفردهم واستثنائيتهم، وبأنه يحق لهم تقرير مصير العالم، وأنهم وحدهم يكونون دوماً على حق».

الواقع، حقيقة أن الأمريكيين والأوروبيين لم يعترفوا ببوتين شريكاً مساوياً، مكافئاً لهم - كانت تغضبه دوماً - وقد اعترف بوتين بهذا بصدق عجيب. وعبر بوتين عن الفكرة ذاتها في حديث صحافي مع مجلة تايم Time في عام 2007 - عندما تم تصنيفه من قبل المجلة بأنه الزعيم العالمي لعام 2007 - حيث قال: «إن أمريكا لا تحتاج إلى أصدقاء. يتكون لدينا انطباع، وكأن الولايات المتحدة الأمريكية في حاجة إلى تابعين يمكنها قيادتهم وتوجيههم... إنها تقول لنا ولجميع الآخرين: لا، من الممكن قرصهم قليلاً، ومعاتبتهم، لأنهم ليسوا متحضرين تماماً، ما زالوا متوحشين بعض الشيء، ففي الأمس فقط نزلوا من الأشجار. ولهذا علينا أن نسرّح لهم شعرهم- فهم بأنفسهم عاجزون عن ذلك - يجب السيطرة عليهم وغسلهم من القاذورات. هذا هو دورها الحضاري».57 لم يعبر أي زعيم في العالم عن استيائه أبداً بمثل هذه الصراحة كما عبر بوتين.

كان صديق بوتين الحقيقي هو هوغو تشافيز58 الذي تميز أيضاً بالصدق والشفافية المفرطة. فالتوجه إلى الجمهور الأمريكي الذي لجأ إليه بوتين في خطابه في الكرملين كان الأسلوب الخطابي المفضل عند الرئيس الفنزويلي. كان تشافيز يجري برنامجاً تلفزيونياً أسبوعياً لعدة ساعات بعنوان «ألو، أيها الرئيس»، يتوجه فيه بصورة منتظمة إلى الأمريكيين، وكأنهم من مشاهدي تلفزيون فنزويلا الرسمي. وكان يقول فيه الشيء نفسه الذي يقوله بوتين: «يحاولون وضعنا في زاوية حرجة لأننا نقف موقفاً مستقلاً، ولأننا ندافع عن موقفنا، ولأننا ندعو الأشياء بأسمائها ولا نرائي». في عام 2006 توجه تشافيز إلى الأمريكيين من على منبر هيئة الأمم المتحدة، داعياً إياهم للتفكير السديد والفهم، بأن الرئيس بوش هو شيطان في جسد إنسان. والرئيس بوتين، في خطابه في الكرملين، توجه لأول مرة إلى الشعب الأمريكي، وكذلك إلى الأوروبيين والأوكرانيين... وهذه سابقة لم يفعلها من قبل.

إن موقف بوتين من الاتحاد السوفييتي خلال عشر سنوات لم يتغير أبداً: في عام 2005 في رسالته إلى مجلس الاتحاد، اعتبر بوتين انهيار الاتحاد السوفييتي «أعظم كارثة جيوسياسية في القرن العشرين» و«أعظم مأساة للشعب الروسي». والأن، بعد عشر سنوات، كرر الفكرة ذاتها، ولكن بصيغة أقل رسمية وأقل علمية: إن الروس هم الشعب الأكثر تقسيماً في العالم، أما السكان الروس في القرم فقد سُلِّموا، كما يُسلم «كيس البطاطا». إنه لم يبدل وجهة نظره ولم يناقض نفسه.

ولكن، ظهر موضوع أعاد بوتين النظر في موقفه منه بصورة جذرية.

قال بوتين في عام 2007 في حديثه الصحافي مع مجلة تايم Time: «إن الأحرار حقاً، الذين لا يخشون من تردي علاقتهم مع قيادتهم، ولا يخافون من فقدان وظائفهم ومناصبهم، ويكتبون ما يعتقدون – مثل هؤلاء الناس أعدادهم قليلة، في الواقع، أعدادهم قليلة ليس في أوساط الصحافيين فحسب، أعدادهم قليلة بشكل عام: إنهم أناس عاطفيون، انفعاليون، إنهم في أي وسط،

منشقون قليلاً. ومع ذلك، فهؤلاء الناس بعيدون عن الأنانية، شرفاء، مخلصون، ويستحقون الاحترام، حيثما كانوا يعملون - صحافيين كانوا أو سياسيين أو أي عمل آخر يمارسونه». في خطاب الكرملين لم يرد أي ذكر للمنشقين، وفي المقابل ظهر «خونة الأمة» و«الطابور الخامس»، وهو بهذه المناسبة، الاستعارة المفضلة عند تشافيز. بيد أن تشافيز كان يطلقها على المعارضة والصحافيين الليبيراليين، الذين يجردهم من الإخلاص والإيثار.

عندما يصاب يوماً بخيبة أمل، كان بوتين مع توالي السنين يتعمق أكثر في خيبة أمله. فبعد أن قرر مرة أن شركاءه الأوروبيين قد خانوه، لم يعد قادراً على الصفح عنهم، وتابع تعزيز هذه الفكرة في نفسه. وهذا ما حصل بالنسبة إلى المنشقين - فبعد أن دعاهم مرة بـ«الخونة»، أظهر بوتين أنه لن يستمع إليهم أبداً بعد ذلك.

كانت القاعة تشعر بالسعادة الغامرة. وكان الحاضرون ينفجرون بعاصفة من التصفيق بعد كل مقطع من خطاب بوتين - وكأن يداً سحرية كانت تحركهم. وبلغ مجموع عواصف التصفيق 27 عاصفة. علاوة على ذلك، كانت عاصفتا التصفيق في كل من بداية الخطاب ونهايته وقوفاً - فقد هب جميع الحاضرين في قاعة غيورغي في الكرملين من مقاعدهم وبدأوا يرددون «روسيا! روسيا!» و«بوتين! بوتين!».

بعد ذلك وقّع بوتين وقادة القرم بصورة رمزية وثائق حول انضمام شبه جزيرة القرم إلى روسيا. وعُزف النشيد الوطني الروسي. وتوجه الجميع نحو المخرج - يعانق أحدهم الآخر ويهنئه. وكان رئيس الشيشان رمضان قديروف متألقاً ومبتسماً بصورة مميزة. كان يتجه نحو المخرج، وصوته يردد سطوراً من النشيد الوطني الروسي. وتوقف في طريقه عند رؤية أحد معارفه، فسأله بضحكة سعيدة: «وماذا بعد، هل يأتي دور آلاسكا؟».

الآخرون أيضاً أظهروا فرحهم – ولكنهم في الردهات كانوا يتحدثون عن

العقوبات. وعلاوة على ذلك، وبحضور الصحافيين، بدأوا يؤكدون بأن العقوبات لا تساوي شيئاً، بل هي مناسبة للفخر، «تُذكِّر بـ"الأوسكار" السياسي»، كما عبر فلاديسلاف سوركوف منظِّر الكرملين السابق. وقال، متحدثاً عن أنه بالأمس ورد اسمه في قائمة المعاقبين: «إنه شرف كبير بالنسبة إليَّ. ليست لدي حسابات في الولايات المتحدة الأمريكية، يهمني في الولايات المتحدة الأمريكية مؤلفات توباك شاكور، وآلان غينزبيرغ، وجيكسون بولوك. ولست في حاجة إلى تأشيرة دخول من أجل الحصول على مؤلفاتهم. لهذا، فإنني لا أخسر شيئاً». وعلاوة على ذلك، عند سؤاله، باعتباره مثقفاً عريقاً وهاوياً للفن الأوربي، ألا تخشى أن يندرج اسمك في قائمة أوربية مماثلة من المعاقبين، قال سوركوف بثقة كاملة: «إن أوروبا كلها هنا - في رأسي. وهذا كاف».

لقد أظهر جواب سوركوف، عموماً، أنه لم يكن لديه أي شك – فقد كان ينتظر يوماً بعد يوم، إدراج اسمه في قائمة المعاقبين التي ستصدر عن الاتحاد الأوروبي، وبعدها لن يتمكن من السياحة في أوروبا إلا بالخيال. ولهذا، لم يضع دقيقة من الوقت، ففي اليوم التالي جمع سوركوف حقائبه وأسرته وأصدقاءه وتوجه في رحلة إلى ستوكهولم، مدينته المفضلة. ولم يخطئ في ذلك. ففي 21 آذار/مارس نُشرت القائمة الأوروبية الإضافية، حيث ورد اسم سوركوف. وكانت رحلة سوركوف إلى ستوكهولم بالفعل لقاءه الأخير مع أوروبا.

الأصدقاء المعاقَبون

إذا كان إدراج اسم نيقولاي ريجكوف في قوائم المعاقبين كان يعني بالنسبة إليه فرحة كبيرة ودليلاً على أنه غير منسي، بل ومعاصر، فإن إدراج اسم فلاديسلاف سوركوف أصبح يشكل إزعاجاً كبيراً له، لأنه كان يهوى بصدق السفر إلى أوروبا. لقد شكلت العقوبات لكثير من أصدقاء بوتين المقربين مأساة حقيقية. ذلك لأنهم منذ سنوات طويلة كانوا يقيمون في الخارج، وكانت هناك أماكن سكنهم، حيث تعلم أبناؤهم، وحيث توجد ملكياتهم الخاصة وأعمالهم التجارية.

ولكن ليس هؤلاء من حاول إعادة فلاديمير بوتين إلى جادة الصواب. بل فعل هذا، كما في السابق، ألكسي كودرين وزير المالية السابق غير المرضي عنه. والطريف في الأمر، أن كودرين أخذ على عاتقه وحده هذه المهمة. ولماذا لاذ بالصمت من طالته العقوبات؟ لماذا جميع محاوري بوتين قالوا له قولاً حسناً عن صحة سياسته؟ لماذا لم يحاول أصدقاؤه القدامى أركادي وبوريس روتنبرغ ويوري كوفالتشوك (الذين يحملون الجنسية الفنلندية) أو غينادي تيمشنكو (المقيم في سويسرا ومواطن فنلندا) تغيير قناعته؟

يروي أحد أصحاب يوري كوفالتشوك كلماته التي قالها وسطة حلقة أصدقائه: «ضعوا أنفسكم مكاني. إذا ما كنت سوف أزعجه، مثل كودرين، وأقول له ما لا يروقه ويتعارض مع رؤيته - ما العاقبة التي ستعود عليَّ من ذلك؟ سوف أقلل من إمكانية وصولي إليه وتواصلي معه، وبذلك سأعاقب نفسي بعقوبة أقوى من عقوبة الأوروبيين. سأفعل الأسوأ وما حاجتي إلى هذا؟ ومن أجل من؟».

لم يجرؤ أحد من المقربين من بوتين على مجادلته، لأن كثيرين كانوا يدركون أنه هو - وهو وحده - الضمانة الرئيسة والمصدر الرئيس لرفاهيتهم. وقد جمعوا ثرواتهم ليس بعملهم الدؤوب ولا بمواهبهم في إدارة الأعمال، بل بفضل علاقتهم به. وغضبه عليهم شخصياً أخطر بكثير من أية عقوبات غربية. علاوة على ذلك، كان أوليغارشيو بوتين يتفاخرون باستعدادهم للتضحية بثرواتهم من أجل بوتين، في مقابلاتهم الصحافية الاحتفالية. فقد قال غينادي تيمشنكو في مقابلة صحافية مع وكالة إيتار - تاس الحكومية: «إذا ما تطلب الأمر، غداً سأنقل كل ما أملك للدولة. أو للمؤسسات الخيرية. بشرط أن تذهب للصالح العام. وقد بحثت وزوجتي هذا الموضوع عدة مرات. نحن شخصياً لسنا في حاجة إلى المليارات...».59

لم يذكر تيمشنكو زوجته صدفته. فزوجته يلينا تيمشنكو سيدة مجتمع طموحة، وكان لها تأثير كبير على زوجها. كانت تعيش في سويسرا في فيلا

عائلية بالقرب من بحيرة جنيف وتؤدي دور السيدة الأوروبية المثقفة، الراعية للفنون والآداب. وكانت تعدّ نفسها راعية الفنون، حتى أنها كانت تنظم مهرجاناً سينمائياً خاصاً بها في جنيف، وتدعو إليه نجوم السينما الروسية وغير الروسية.

كانت يلينا تيمشنكو من أوائل من ألحقت بهم العقوبات ضربات قاسية. فهي لم تفقد الفيلا الفاخرة ونمط الحياة الرغيدة فحسب. وكما روى زوجها تيمشنكو عدة مرات، كانت قد أجرت عملية جراحية، وعليها تسديد أجور العملية، ولكن تبين أن حسابها قد تم تجميده. وقد أثّرت هذه الحادثة في فلاديمير بوتين نفسه - فكان يرويها من فترة لأخرى، كدليل على لا إنسانية العقوبات التي لم تقتصر على الأشخاص المدرجة أسماؤهم في القوائم، بل شملت أفراد أسرهم. حتى أن يلينا تيمشنكو أصبحت أحد مواضيع الخط الهاتفي المباشر الذي استخدمه بوتين مع الرؤساء خلال شهر نيسان/إبريل 2014.

«يهوديان وأوكراني»

كان منتدى بطرسبورغ من أحب إبداعات بوتين إليه. في التسعينيات 1990، أسس أوليغارشيو يلتسين المنتدى الاقتصادي الروسي في لندن، من أجل اجتذاب الاستثمارات إلى روسيا والتعارف الأفضل على زملائهم الأجانب. ومنذ عام 2007 قرر بوتين أن عرض منجزات الاقتصاد الروسي في بريطانيا عديم الفائدة، وحظر على المسؤولين الحكوميين السفر إلى منتدى لندن - وبدلاً منه أوصى بمنتدى بطرسبورغ الذي يجري سنوياً منذ عام 1997. وكان عام 2014 يجب أن يغدو عاماً يوبيلياً لهذا المنتدى – فقد بدأت الممثلية الروسية العمل في «الدول الثمانية الكبار»، وقرر بوتين إجراء قمة الدول الثمانية الكبار مع المنتدى في آن واحد. ومن أجل هذا تم تعديل موعد المنتدى ونقله من شهر حزيران/يونيو إلى شهر أيار/مايو.

بيد أن ضم القرم والعقوبات التي تبعته بدلت جميع الخطط. والدول الثمانية

الكبار انهارت من تلقاء ذاتها، والقمة ألغيت - وفي المحصلة تحول منتدى بطرسبورغ إلى عرس حزين، هربت منه العروس، وتابع العريس وأصدقاؤه تشجيع أحدهم الآخر، مؤكدين أن العروس لا تروقنا كثيراً، حتى عدم وجودها أفضل.

وكان جميع المشاركين تقريباً خاضعين للعقوبات، وجميعهم، كما قال أحدهم، كانوا يرددون، أن العقوبات هي خير وليست مرعبة أبداً، بل إنها مفيدة.

وكان هناك فعلاً مَن شعر بالسرور من العقوبات. فبالنسبة إلى البعض (مثل ياكونين رئيس شركة السكك الحديدية الحكومية الاحتكارية) أصبح ورود اسمه في قائمة المعاقبين إنقاذاً، من الناحية العملية. فقد تكاثفت الغيوم السوداء فوق المسؤولين الحكوميين، وسرت شائعات بأنهم سرعان ما سيسرحون ويُحالون للتقاعد، لكن العقوبات الغربية عدّلت الوضع. ولم يكن في استطاعة بوتين أن يرمي بإنسان مخلص في ساعة المحنة - وياكونين الذي طالته العقوبات الغربية تم تجديد تعيينه لفترة أخرى. ولم يتم تسريحه إلا بعد عام، في شهر آب/أغسطس 2015.

وصل فلاديمير بوتين إلى المنتدى في مزاج رائع. وألقى كلمة طويلة في الجلسة أمام رجال الأعمال، ثم كرر الكلمات ذاتها في الجلسة العامة، ثم أجاب عن الأسئلة. وكانت تتردد دوماً التعويذة: روسيا مدّت للغرب غصن الزيتون، والغرب يرفضه. نحن نسعى إلى السلام، والغرب لا يريد التواصل معنا. وقد روى بوتين عدة مرات أن وزير الاقتصاد الروسي ألكسي أوديوكايف (وهو، بالمناسبة، ليبيرالي) – كرر بوتين بصورة قارصة ومقصودة واخذة ذلك - سافر لإجراء مباحثات مع ممثلي الاتحاد الأوروبي - ولم يرغب أحد أبداً في الحديث معه.

على أية حال، وبدرجة مماثلة من المزاج تحدث بوتين أيضاً عن أصدقائه القدامى، فقال مازحاً، وقاصداً الأخوين روتنبرغ وتيمشنكو: «ضد من فرضوا

العقوبات؟ وكأنهم اختاروا على نحو خاص يهوديين وخوخول********».

في اليوم الأخير من المؤتمر التقى بوتين في مقر الإقامة الريفي بالصحافيين الأجانب. في الساعتين الأوليتين كان مسترخياً، وكان يمزح. وفجأة، وعندما اقتربت نهاية اللقاء، طرح صحافي من وكالة أسوشيتيد بريس Associated Press سؤالاً عن حرية التعبير في روسيا، غضب الرئيس، وصاح قائلاً: «لست أنتم أيها الأمريكيون من يعلمنا! بعد أن اقترفت الأقنية التلفزيونية الأمريكية عن أحداث الميدان في كييف هذه الأكاذيب المريعة، ليس لديكم أي حق معنوي للحديث عن حرية الكلمة!».

إن القسم الأكبر من الضيوف الأجانب لم يحضر إلى المنتدى، وفجأة أصبحت العقوبات هي موضوع النقاش الرئيس. والشيء الوحيد الذي لم يتغير هو البرنامج الاجتماعي للمؤتمر. وقد قام الملياردير ميخائيل بروخوروف بتنظيم حفلة استقبال ديسكو مع راقصات ستربتيز، على طاولات البار، كما في «سنوات الخير» السابقة.

الصراع من أجل التأثير على بوتين

في شهر حزيران/يونيو، قُدّم للرئيس بوتين تقرير تحليلي، يؤكد أن خطر فقدان السيطرة على الثروات الباطنية قد خيم من جديد على البلاد. وقبل 11 عاماً، كان مستشارو الرئيس قد قرعوا جرس الإنذار، موجهين تحذيراً له، بأن أغنى رجل في روسيا، صاحب شركة يوكوس ЮКОС ميخائيل خودوركوفسكي، ينوي بيع النفط الروسي للأمريكيين - ولا يزال بوتين يعبر عن شكره لهم، وبالدرجة الأولى لإيغور سيتشين، لأنهم حافظوا على سلطته، ومنعوا بيع أكبر شركة للنفط للخارج.

وها هو ذا الآن يتكرر كل شيء. ويقرع سيتشين جرس الإنذار: ثمة شركة نفط روسية كبيرة قد تُباع للأجانب، وهذا أمر لا يمكن السماح به. وخاصة في هذه اللحظة، عندما يفرض الأمريكيون العقوبات على روسيا، ويبذلون الجهود

الممكنة كافة من أجل إضعافها. كان المقصود شركة «باشنفت Башнефт». وهي ليست شركة النفط الأكبر في روسيا، بل السادسة من حيث حجمها، لكنها شركة تنمو باطراد كبير، وتملك احتياطياً نفطياً كبيراً. وأكد سيتشين لبوتين، أن من المفروض أن تضع هذه الشركة أسهمها في بورصة لندن في شهر أيلول/ سبتمبر، وبالتالي تخرج عن السيطرة.

كان إيغور سيتشين، مثله مثل ألكسي كودرين، يعمل مع بوتين منذ بداية التسعينيات 1990. ولكن إذا كان كودرين في السنوات الأولى من عمله مع بوتين كان شريكا متكافئاً، فإن سيتشين كان مرؤوساً عند بوتين. وكان يعرف أن أشد اتهام بالنسبة إلى بوتين هو الاتهام بالخيانة. فخيانته شخصياً وخيانة روسيا - هذان المفهومان أصبحا بالنسبة إلى بوتين قريبين جداً. وأخذ سيتشين يقنع بوتين بثبات أن مالك شركة «باشنفت Башнефт» فلاديمير يفتوشنكوف خائن. فهو لا يريد فقط بيع شركته للخارج، لقد خاف من العقوبات، ويريد خيانة رفاقه، وأبناء وطنه، ورئيسه.

لقد جمع يفتوشنكوف ملياراته بفضل عمدة موسكو السابق يوري لوجكوف. فقد كان رجل أعمال حاشيته، ويعود له الفضل في ممتلكاته وثروته - علاوة على ذلك، كانا صهرين نسيبين، حيث أن يفتوشنكوف متزوج من شقيقة يلينا باتورينا زوجة لوجكوف. ولكن عندما حصل نزاع بين لوجكوف والرئيس وبدأوا يشنّون عليه الحملات في القنوات التلفزيونية الروسية الاتحادية وسرعان ما أرغم على الاستقالة، لم يقتصر يفتوشنكوف على عدم الدفاع عن معلمه. بل بدأ يتنكّر له ويقول في أحاديثه الصحافية أنه لا يرتبط أبداً بلوجكوف - وأنه لم يزره أبداً في بيته.

لقد ساهم يفتوشنكوف كثيراً في تطوير تكنولوجيا المعلومات، وكان يروقه عندما يدعونه بـ«بيل غيتس الروسي». وقد كُلِّفت شركته بالذات بإطلاق نظام «غلوناس ГЛОНАС» النظام الروسي النظير والمنافس لنظام الإبحار الأمريكي ج ب س GPS. وكان القيّم على هذا المشروع سيرغي إيفانوف، الذي كان يعدُّ

في عام 2007 خليفة فلاديمير بوتين المحتمل، لكنه خسر المنافسة أمام دميتري ميدفيديف. وعندما أصبح معروفاً أن إيفانوف لن يصبح الرئيس المقبل، بدأ المشروع ينطفئ تدريجياً - توقف يفتوشنكوف عن إظهار أية غيرة واهتمام بوجوده. وفي المقابل اهتم بمبادرة أخرى – «الآيفون الروسي»، أو ما يعرف باسم م ت سي غلوناس 945 -945 MTC Glonass. وقد تم إنتاجه، وتقديمه للأشخاص الأوائل مزوداً، بمضخة، لكن أنتجته الشركة الصينية ز ت ي ZTE. وعندما لم يعد دميتري ميدفيديف رئيساً، توقف يفتوشنكوف عن الاهتمام باللعبة السابقة هذه.

كل هذه المقاطع من سيرة حياة يفتوشنكوف جمعها إيغور سيتشين في إضبارة واحدة وعرضها على بوتين، كي لا يبقى لدى الأخير أي شك في أن يفتوشنكوف خائن. كانت شركة «باشنفت Башнефт» هي البند الرئيس بالطبع - لقد امتلك يفتوشنكوف هذه الشركة عام 2007 بموافقة دميتري ميدفيديف. وكان بوتين على علم بهذه الصفقة، بالطبع، بيد أن سيتشين زود الرئيس بتفاصيل غير معروفة، مثل أن للشركة «مساهمين كامنين» غير معلنين.

كانت لدى سيتشين أسبابه للتآمر على يفتوشنكوف. فشركة «روس نفط» التي كان يرأسها – أكبر شركة للنفط في روسيا – كانت تعاني من مشكلات جدية، فقد تقلص استخراجها للنفط، وكانت تطالب الحكومة بالإعانات المالية. وكان ابتلاعها لشركة «باشنفت Башнефт» الصغيرة والناجحة جداً والمتنامية بسرعة يمكن أن يحل جميع مشكلات «روس نفط» وسيتشين في آن واحد.

وعلاوة على ذلك، بعد انفصاله عن لوجكوف تصادق فلاديمير يفتوشنكوف مع أبرز الليبيراليين من الدائرة المحيطة ببوتين: رئيس بنك الادخار Сбербанк غيرمان غريف ومهندس إصلاحات يلتسين أناتولي تشوبايس. وكانا خصمي سيتشين الفكريين والمبدئيين، وكان توجيه ضربة لليبيراليين قضية شرف بالنسبة إلى سيتشين.

لم يكن هناك شك، بالطبع، بالنسبة إلى سيتشين، أن وضع أسهم شركة «باشنفت Башнефт» في بورصة لندن يشكل ضربة بأمن الطاقة في روسيا، وضربة في الظهر للبلاد في الفترة التي يشن فيها الغرب حرباً اقتصادية ونفسية على روسيا. ولهذا، بذل سيتشين كافة جهوده أولاً، من أجل منع وصول أسهم شركة باشنفت Башнефт إلى بورصة لندن، وثانياً نزع الشركة عن يفتوشنكوف.

يروي رجال الأعمال الذين كانت لهم علاقة بسيتشين، أن لديه ميزة لافتة. كان سيتشين يرفع بسرعة ضد أي رجل أعمال - شريك له قضية جنائية. من دون أي سبب، من باب الاحتياط، كي يكون الشركاء أكثر توافقاً وخضوعاً للسيطرة. وفي كثير من الأحيان كانت تنتهي هذه القضايا من دون أي محاكمة - تغلق القضية ببساطة. هذا هو أسلوب سيتشين في العمل - وهذه عادته القديمة.

في منتصف شهر تموز/يوليو علم المساهمون في شركة «باشنفت Башнефт» فجأة، أن أسهمهم قد تم الحجز عليها بقرار محكمة منطقة بوسمان بموسكو - وهي المحكمة نفسها التي أقرت قبل 11 عاماً اعتقال خودوركوفسكي. وتبين أن لجنة التحقيق التي بدأت بحث قضية خصخصة شركة «باشنفت Башнефт»، اكتشفت أن المالكين السابقين للشركة (الذين باعوا الأسهم ليفتوشنكوف) اشتروا الأسهم بصورة غير قانونية، وبالتالي، فيجب اعتبار يفتوشنكوف مشتري بضاعة مسروقة.

كان يعني حجز الأسهم أن عرضها في بورصة لندن مستحيل قانونياً. لكن هذه كانت البداية فقط. وقد أعلن يفتوشنكوف نفسه للصحافيين أن هذا استيلاء بالقوة على شركته. وبعد شهرين، أصدرت محكمة بوسمان بموسكو نفسها قراراً بوضع يفتوشنكوف تحت الإقامة الجبرية في منزله. واتُّهم بـ«سرقة واستباحة» أسهم شركة «باشنفت Башнефт».

وقد سبب اعتقال يفتوشنكوف للاقتصاد الروسي الكبير صدمة لا تقل عن صدمة ضم القرم والحرب على أوكرانيا. وقال أصحاب المليارات من قائمة

فوربس: «إن هذا أسوأ من أية عقوبة. لقد اتضح الآن، أنه لا وجود لأية قواعد للعبة. ويمكنهم الاستيلاء على كل ما يريدون من أي شخص».

وبالفعل، فإن اعتقال يفتوشنكوف، من وجهة نظر الاقتصادي، الذي يعرف جيداً منطق بوتين، يختلف جذرياً عن قضية شركة يوكوس ЮКОС. فقد خرق ميخائيل خودوركوفسكي قواعد اللعبة - وبدأ يتدخل في السياسة، وعوقب لهذا السبب. أما يفتوشنكوف فهو نقيض كامل لخودوركوفسكي. كان حذراً دوماً، وكان يشعر دوماً بالظرف بدقة، ولم يقدم أبداً على خطوات خطرة أو حادة. وصفقة شراء «باشنفت Башнефт» تم تنسيقها مع جميع الجهات.

حاول الجميع عملياً أن يشفع ليفتوشنكوف - وبادئ ذي بدء رفيقاه تشوبايس وغريف. لكنهما سرعان ما أدركا أن شفاعتهما غير فاعلة، بل وخطيرة. ففي تلك الإضبارة السرية التي عرضوها على بوتين، ورد أن تشوبايس وغريف هما مساهمان كامِنيْن في شركة «باشنفت Башнефт»، ولا يؤدي تدخلهما إلا إلى إثبات هذه الرواية. حتى بوتين لم يرغب في سماع حججهما. وعملياً، جميع الليبيراليين من دائرة بوتين كانوا مفصولين عنه - ولم يكن في استطاعتهم ممارسة أي تأثير عليهم.

وكي يُسمعوا رأيهم للرئيس استخدموا طريقة ميؤوس منها إلى حد كبير. فإذا لم يتمكنوا من لقاء شخصي مباشر معه، قرروا أن ينشروا رأيهم في الصحافة علناً، كي يسمعهم بوتين، وربما يفهمهم.

كان أولهم غيرمان غريف. فقد ألقى خطاباً غير مخطط مسبقاً في المنتدى الاستثماري «روسيا تدعوكم!» - وفجأة بدأ يتحدث عن أسباب انهيار الاتحاد السوفييتي. وقال غريف مستنكراً: «كانت القيادة السوفييتية غير كفوءة بصورة عجيبة. لم يعرفوا أبداً قوانين الاقتصاد ولم ينفذوا متطلباتها. عموماً كانوا أناساً سعداء». وتحدث عن أن روسيا في حاجة إلى المنافسة و«لا يصح حث الناس على العمل بالاعتقال».

في تلك اللحظة لم يكن بوتين في المنتدى، وقد ألقى كلمة بعد الظهر، لكن كلمة غريف أصبحت كالقنبلة - وقد غطت على جميع أحداث المنتدى، وجميع الصحف كتبت فقط عن «تمرد غريف». لكن بوتين الذي ألقى كلمة بعد الظهر لم يشر إليه بأية كلمة. فقد أكثر من المزاح (أمام ضحك الجمهور الصاخب في القاعة)، وأكد أن اقتصاد روسيا قوي جداً، غير أنه يحتاج إلى تعبئة جدية، وثمة موارد لدى الدولة من أجل هذا. ولكن استرعى انتباه المستمعين القدامى لكلمات بوتين الموقف التالي في خطابه - عندما قال عبارة «الشيطان ليس رهيباً كما يصورونه» توقف الرئيس فجأة، ورسم علامة الصليب وقال: «يا إلهي، اصفح عني». إنه سلوك غير نموذجي أبداً بالنسبة إلى روسيا في القرن الحادي والعشرين - فذكر الشيطان عبثاً في كل مكان يعد إثماً. كان مقبولاً على الأغلب في القرن التاسع عشر، أما في العالم المعاصر فمثل هذه العادات يقوم بها الرهبان فقط. واستنتج الليبيراليون: «إنه يتواصل كثيراً مع الكهنة ورجال الدين».

بعد ثلاثة أيام حاول ألكسي كودرين إعادة بوتين إلى جادة الصواب. والصيغة الوحيدة التي اختارها للحديث مع الرئيس هي حديث تلفزيوني على القناة الأولى من التلفزيون الروسي مع فلاديمير بوزنير أشهر مقدِّم برامج تلفزيوني روسي. تكلم كودرين عملياً، بلغة بوتين: «إن حماية المصالح الروسية القومية بالنسبة إليَّ، تكمن في تعزيز قوتها الاقتصادية. ومن دونها لن تكون لا قوة حربية ولا قوة أخرى. وإذا ما أضعفت قوتنا الاقتصادية فلن نتمكن من تحقيق تلك الأهداف التي رسمناها في سياستنا الخارجية والداخلية، ولهذا ازداد قلقي».

كان كودرين يأمل بأنه، بتذكير بوتين بشخصه سيسترعي اهتمامه. لكن بوتين الماضي، الذي كان يأمل كودرين بانبعاثه، لم يبد أية علامة من علامات الحياة. ووجد في التصريحات العلنية العامة معطيات إحصائية غير صحيحة، مؤكداً أن الاقتصاد في وضعية سليمة، ومكرراً مرة إثر أخرى، أن روسيا لا تريد العزلة

- وهي، على العكس تسعى إلى الحوار، لكن الشركاء الأوروبيين يتجاهلونها.

وأخذ زملاء كودرين يكثرون من التفكير في أنه كان من العبث أن يستقيل كودرين من وزارة المالية. وكرر رجال الأعمال ذوو النفوذ: «للأسف، لقد خسر الليبيراليون الصراع من أجل بوتين». وسيطر على الجميع إحباط رهيب. وقد قال أحد كبار رجال الأعمال في روسيا: «إن من المستحيل فعل أي شيء في مثل هذا الوضع. إذا كانت الحافلة تهوي إلى القاع، فيجب الابتعاد إلى المؤخرة». لم يكن هناك من يعتقد أن من الممكن تغيير الوضع في البلاد، وبِدء الصراع بشكل من الأشكال - فالصراع الرئيس، الصراع من أجل التأثير على بوتين، قد فشل بالفعل.

ولن يمر شهر، حتى يظهر في المنتدى السياسي في سوتشي منظِّر الكرملين الجديد فياتشيسلاف فولودين، الذي يرفع علانية شعار المرحلة: «بوتين – هو روسيا. بوتين موجود - روسيا موجودة، لا وجود لبوتين - لا وجود لروسيا».

الفصل التاسع عشر: رمضان قديروف سافر إلى دبي وعاد منها

في المنتدى الاقتصادي العالمي عام 2015 في سانت - بطرسبورغ، كان رمضان قديروف يشبه في مظهره ملكاً زائراً. يسير في الجناح على رأس حاشية كبيرة. ومن خلفه الوزراء، والمحافظون. بينما نواب رئيس الوزراء كانوا يسيرون وحدهم، ويجلسون في المقهى، ويتحدثون إلى الصحافيين.

كان قديروف بحاشيته الكبيرة يبدو غريباً على الطريقة الشرقية.

شاب في سترة قوقازية من فرو أستراخان يحيط به عشرون مساعداً متجهماً بثياب سوداء. هذا هو الرجل الذي تكتب الصحافة عنه، منذ عشر سنوات، أن في جمهوريته تُمارس أعمال التعذيب والنهب والسرقة. كان البوليس الدولي (الإنتربول) أعد بطاقات بحث عن أفراد من حاشيته المقرّبة. إنه أشبه ببطل من

القرون الوسطى، محاط بالشائعات حول تنكيله بأعدائه. ويبدو أن الوزراء الذين كانوا يجلسون في جناح المنتدى الاقتصادي بهدوء، كانوا أيضاً يخافون منه.

إن الحاشية بالذات هي التي تخلق صورة ملك الشيشان – الديكتاتور الشاب المرعب، الغريب المُقرِّر للمصائر. عندما اقتربت الصحافية الشهيرة كسينيا سوبشاك من أجل طرح سؤال على رمضان قديروف، أبعدتها مجموعة من مساعديه بأكتافهم من المدخل، وضغطتها عملياً إلى الجدار الزجاجي للأستوديو التلفزيوني - ومرّ قديروف من أمامها من دون أن يتوقف.

إن جميع الصحافيين الذين يعرفون قديروف منذ فترة طويلة، يستغربون جداً هذه الصورة. وهم يصفونه باعتباره شاباً لم يحصل على التعليم الأساسي، ولهذا يصعب إجراء حديث صحافي معه. إنه شديد الحساسية إلى حد كبير - فهو على سبيل المثال، لا يمكنه أن يصفح عن أحد أبرز الصحافيين الروس لقوله: «لقد التقينا معك قبل الآن، أتذكر، كنتُ ضيفاً عند والدك، وأنت أحضرت لنا الشاي». إنه لا يشبه أبداً المحاربين القدماء الشيشان الرهيبين - الناس الذين يمكنهم قتل أحد أقربائهم بسبب ابتسامة ساخرة.

لقد فقد رمضان قديروف أباه وأخاه الأكبر باكراً، ولهذا فهو يقدر أكثر ما يقدر الإخوة الجدد - أصدقائه المقربين، وكذلك أصدقاء والده. إن كلمة رمضان المحبوبة هي – «الصحوة». هكذا هو، على سبيل المثال، يسمي تلك الحالة التي يشعر بها عندما يردد الذِّكر - الرقصة الصوفية التي تقود إلى حالة النشوة. وهو بهذه الكلمة وصف الشعور الذي انتابه عند زيارته للكعبة المكرمة في مكة. وفي حديث صحافي أدلى به لمجلة «نيوزويك Newsweek» قال قديروف، إنه رأى في منامه، أنه سيتمكن من الدخول إلى الكعبة مع جميع أصدقائه - وبالفعل، تمكن من الدخول إليها في عام 2013، مع 15 من أصدقائه المقربين الذين يدعوهم عادة بـ «الإخوة» (وعلاوة على ذلك، التقط معهم صورة سيلفي للانستغرام) وشعر بـ«الصحوة».60

المعارض مقتول، والرئيس مفقود

في أثناء المفاوضات في منسك حول التسوية السلمية نصح فلاديمير بوتين بيوتر بوروشنكو بحضور شهود عيان، قائلاً بأن لا يكرر أخطاءه، أخطاء بوتين، ويغطي الدونباس بالدماء، «يجب تغطيته بالمال».

إن المشكلة الرئيسة لفترة رئاسة بوتين الأولى، وهي الشيشان، التي بدت وكأنها قد حُلّت 100% بحلول عام 2014. وكان قد قال في عام 1999، عندما كان رئيساً للوزراء، في مقابلة تلفزيونية: «حيثما نظرت عندنا تجد أمامك الشيشان. وليس فقط في شمال القوقاز. أنا أعبر بصورة مجازية». وكان يقصد أن في روسيا عدداً كبيراً من المشكلات فقال: «إن الإيماء الدائم إلى الخارج باعتباره مصدر جميع مآسينا غير صحيح... جميع مآسينا ومصائبنا - كامنة فينا، كل ما يجري نابع من إهمالنا وفوضانا وضعفنا... إذا ما نظرت إلى الاقتصاد عندنا تجد المآسي وجبالاً من المشكلات. انظر إلى علاقاتنا الدولية، علاقاتنا مع الدول الأجنبية المجاورة. لدينا ثغرات في كل مكان».

في عام 2014، كان في إمكان بوتين تكرار عبارة «لدينا الشيشان في كل مكان»، ولكن بمعنى آخر: لدينا استقرار في كل مكان. جمع رئيس جمهورية الشيشان رمضان قديروف في 28 كانون أول/ديسمبر 2014 في إستاد العاصمة جميع العاملين في الشرطة الشيشانية من أجل أداء قسم الولاء والإخلاص لفلاديمير بوتين. وقال رئيس الشيشان: «لقد حل الوقت كي نُقدم على خيارنا الواعي، ونحن نقول للعالم كله، إننا رجال فلاديمير بوتين المقاتلون، وإذا ما صدر أمر، سنثبت بالفعل، أن هذا هو الواقع. منذ خمسة عشر عاماً يساعد فلاديمير بوتين شعبنا. ونحن معكم الآن، وأعدادنا عشرات الآلاف، وقد اجتزنا دورة خاصة، نرجو زعيم روسيا الوطني بأن يعتبرنا فصيلاً خاصاً متطوعاً تابعاً للقائد الأعلى، ومستعداً للدفاع عن روسيا». وردد 20 ألفاً من رجال الشرطة في ثيابهم المموهة بصوت واحد: «الله أكبر!».

إن الفيديو الذي صُوِّر من الإستاد، والذي كان يبدو مُهدداً ومرعباً، سرعان ما انتشر على الإنترنت. وكان يبدو دليلاً على أن لدى رمضان قديروف جيشاً موالياً، مخلصاً حسن التدريب والإعداد، أكثر مما هو دليل على أنه جيش فلاديمير بوتين.

وعلى أية حال، فقد أصبح أداء القسم القروسطي للولاء في تلك الفترة أمراً منتشراً. ففي شهر كانون ثاني/يناير وفي سباق من أجل اعتبارهم الأكثر ولاءً وإخلاصاً لبوتين شارك المحاربون القدماء في أفغانستان وراكبو الدراجات النارية بقيادة النائب فرانتس كلينتسيفيتش - ذلك الذي كان قبل عام قد نقل المتطوعين إلى القرم، من أجل تنظيم «إعادته إلى قوام روسيا» – في حركة «المسيرة المعادية لميدان كييف». وهذه الحركة المعادية لمسيرة ميدان كييف عام 2013، أعلنت هدفها النضال ضد «الطابور الخامس» الموالي للغرب. وأصبح ألكسندر زالدوستانوف، الملقب بالجراح، رئيس نادي راكبي الدراجات النارية «الذئاب الليلية» أحد زعماء الحركة. وقد قال: «إن الشيء الوحيد الذي يجبرهم [المعارضين] على التخلي عن أهدافهم، هو الخوف؛ فهم مستعدون لخيانة وقتل الكفلاء والرعاة مقابل المال، لكنهم غير مستعدين للموت من أجل المال!».

في 21 شباط/فبراير في شارع تفيرسكايا، الشارع الرئيس بموسكو انطلقت المسيرة الحاشدة المعادية لميدان كييف، والموالية للكرملين، والتي غطتها بشكل واسع جميع الأقنية الفضائية الروسية الاتحادية. كان المشاركون في المسيرة يحملون صور أعدائهم، المنظّمين المحتملين لحركة «ميدان» روسية معارضة. ومن بينهم كان بوريس نيمتسوف، زعيم المعارضة الليبيرالية، في السنوات التسعينيات، الذي كان في عهد يلتسين نائب رئيس الوزراء.

وبعد أسبوع، في 27 شباط/فبراير 2015، وعلى جسر موسكوريتسكي الكبير، مقابل سور الكرملين مباشرة، أطلقت النار على بوريس نيمستوف. لقد سبب مقتل نيمتسوف صدمة للكثيرين بمن فيهم للسلطات العليا الروسية. وفي

الليلة نفسها عقد فلاديمير بوتين اجتماعاً مع الأقوياء من العناصر الأمنية وأعطى تعليمات لجهاز الأمن الاتحادي ووزارة الداخلية وللجنة التحقيق بالتحقيق العاجل في الجريمة المرتكبة تحت نوافذ مقره الرسمي.

في صباح اليوم التالي، وكما ورد في الخبر الرسمي لموقع الكرملين، تحادث بوتين هاتفياً مع ملك الأردن، ومن ثم مع ولي عهد أبو ظبي، وبعدها مباشرة أرسل برقية تعزية إلى والدة بوريس نيمتسوف.

كان ملك الأردن وولي العهد في أبو ظبي معروفين في روسيا، ومشهورين بارتباطهما بعلاقات قوية مع رمضان قديروف. فهو يزور الأردن والإمارات العربية المتحدة عدة مرات في السنة، وهما يزورانه كثيراً في الشيشان. وقد سمى قديروف الحديقة العامة في غروزني باسم الملك حسين والد الملك عبد اللّه الثاني. وفي عمّان، عاصمة الأردن، ثمة شارع باسم شارع رمضان قديروف. ومع أصدقاء رمضان قديروف الأجانب قرر فلاديمير بوتين بحث مقتل بوريس نيمتسوف.

في 4 آذار/مارس قدِم بوتين إلى وزارة الداخلية، حيث طالب بالكشف السريع عن القضية: «يجب تخليص روسيا أخيراً من العار والمآسي كالتي عشناها معكم بالأمس ورأيناها، وأقصد جريمة القتل الوقحة لبوريس نيمتسوف في مركز العاصمة».

في اليوم التالي، التقى بوتين برئيس الوزراء الإيطالي ماتيو رينتسي. وبعدها اختفى الرئيس. لم يعد يظهر على الملأ وعلى صفحات التواصل الاجتماعي. وربما لم يكن ليلاحظ أحد هذا، لو لم يشرعوا في موقع الكرملين بإعادة نشر «المحفوظات» القديمة: أي التقارير عن لقاءات الرئيس بالمحافظين التي جرت بالفعل قبل أسبوع، والتي تم نشرها في الصحف المحلية. وفيما بعد شرحوا في الدائرة المحيطة المقربة من بوتين أنه أصيب بأنفلونزا وسافر إلى فالداي. بيد أن كبار الموظفين المسؤولين كان يروي أحدهم للآخر شائعات تقول إن

الرئيس بالفعل قد «سافر للتفكير»، ما العمل لاحقاً. وربما قد يكون اختفى - خوفاً على حياته. وكي تتوفر له الفرصة ألا يتخذ أية قرارات - وكي ينحل الموقف من دونه.

«سند» جديد

ما إن غادر الرئيس موسكو حتى شرع العاملون في جهاز الأمن الاتحادي بالإمساك بقتلة نيمتسوف المفترضين. تم الإمساك باثنين مشتبهين في 7 آذار/مارس في إنغوشيتي، وحاولوا اعتقال الثالث في الشيشان لكنهم لم يفلحوا. فقد قُتل في أثناء الإمساك به، حيث فجر نفسه بقنبلة يدوية، حسب الرواية الرسمية. وذكر التحقيق، أن المنفذ المباشر لجريمة القتل هو زاور دادايف، من عسكريي القوات الداخلية في الشيشان، مقاتل في فصيل «الشمال». في 8 آذار/مارس وافقت المحكمة على اعتقاله. وفي اليوم نفسه، دافع رمضان قديروف عن المعتقل في انستغرام نشره: «أنا أعرف بأن زاور وطنيٌ حقيقي محبٌ لروسيا... كان زاور من أشجع عسكريي الفوج وأكثرهم رجولة... وقد كوفئ بوسام الرجولة، وبميداليات «الشجاعة»، و«خدمة جمهورية الشيشان»، وبرسالة شكر من رئيس جمهورية الشيشان، وغيرها. إنني على قناعة راسخة بأنه مخلص وشديد الولاء لوطنه روسيا، وكان مستعداً لتقديم حياته من أجل وطنه... تنشر وسائل التواصل الاجتماعي أن زاور أكد في المحكمة تورّطه في مقتل بوريس نيمتسوف. إن جميع من يعرف زاور يؤكدون أنه إنسان متدين بعمق، وكذلك كان مصدوماً، مثله مثل جميع المسلمين، بأفعال شارلي وبالتعليقات المؤيدة لنشر الصورة الكاريكاتورية... وكذلك بيسلان شافانوف الذي مات في أثناء محاولة الإمساك به، كان مقاتلاً شجاعاً. نحن نثق بأنه سيجري تحقيق دقيق سيظهر إن كان دادايف مذنباً بالفعل أم لا، وما هو السبب الحقيقي لهذه الجريمة».

حاول قديروف الاتصال بالرئيس، ولكن بلا طائل: لم يرفع بوتين سماعة الهاتف (ولم يظهر على شاشة التلفزيون منذ عدة أيام).

في اليوم التالي، 9 آذار/مارس، استلم قديروف إشارة غريبة من بوتين: صدر قرار بمنحه وسام الشرف. حاول الزعيم الشيشاني من جديد الاتصال بالرئيس، فلم يصلوه به، كما في السابق. عندئذ توجه إليه عن طريق الانستغرام: «أشكر بلا حدود رئيس روسيا، القائد الأعلى للقوات المسلحة لروسيا الاتحادية فلاديمير بوتين على هذه المكافأة الرفيعة، وعلى تقدير عملي المتواضع. وأنا بكامل المسؤولية أعلن، أن كل الفضل في السلام والاستقرار في جمهورية الشيشان يعود إلى فلاديمير فلاديميروفيتش بوتين! لقد سمحت سياسته الحكيمة وحدها، ودعمه وتأييده، بالوصول إلى سلام دائم وبعث الجمهورية، واقتصادها وثقافتها وحياتها الروحية. سأكون دوماً شاكراً لفلاديمير بوتين على كل ما فعله لي شخصياً ولشعبي. سأبقى دائماً حليفه المخلص. إن من أبسط المهام أن أقدم حياتي من أجل هذا الإنسان. وأود أن أؤكد، أنني سأنفذ أي أمر، وأؤدي من أجله أي مهمة مهما كانت صعوبتها، مهما كلفتني من جهد. أخدم روسيا! أخدم الشعب!».

من المستبعد أن يكون قديروف بنفسه هو من يكتب وينشر على حساب الانستغرام الخاص به، لكن من كتبها عمل بوضوح ضمن إرشادات قديروف - فلم يكن لديه من وسيلة أخرى للوصول إلى بوتين في تلك اللحظة.

خلال هذه الفترة، جرت أحداث مقلقة في موسكو في منطقة كريلاتسكوي. ففي ليلة 10 - 11 آذار/مارس في إحدى ضواحي موسكو الراقية، في «جزيرة الأحلام»، حيث يعيش الوزراء وأصحاب المليارات، حدثت مشاحنة بين حرس سناتور الشيشان السابق والمرشح السابق لرئاسة روسيا، رجل الأعمال عمر جبرائيلوف وبين راكبي الدراجات النارية من نادي «الذئاب الليلية». وبالتالي بين المشاركين في مسيرة «الميدان المضادة لميدان كييف» ومقاتلين من «الطابور الخامس».

جاء راكبو الدراجات النارية «الذئاب الليلية» إلى عزبة الملياردير الشيشاني،

ليس من أجل مناقشة الصراع مع «الطابور الخامس» الليبيرالي. كان يتوقع جيران جبرائيلوف أن راكبي الدراجات النارية جاؤوا من أجل إعلام رجل الأعمال أن «سَنَد» السابق، رمضان قديروف، لم يعد دعماً صالحاً له، والآن هم سيشكلون «سنداً له». وبشكل أو بآخر، لم يتم تسوية النزاع والاتفاق إلا بالتدخل الشخصي للجراح******** وجبرائيلوف.

إن النزاع في منطقة كريلاتسكوي كان يعني أن أجهزة الأقوياء الأمنية لم تعد تعتبر رمضان قديروف قوة كبيرة كافية. هذا على الرغم من أنه حتى تلك اللحظة، كان الشيشانيون أنفسهم في موسكو يشكلون «السند» ويدعمون كثيراً من رجال الأعمال. كان يخدم في موسكو، بصورة دائمة، عدة مئات من رجال الشرطة الشيشانيين الذين كان يقودهم آدم ديليمخانوف، الساعد الأيمن لرمضان قديروف، ونائب الشيشان في مجلس الدوما. وكان «أوتيل بريزيدنت» – فندق خمسة نجوم، بالقرب من ساحة بولوتنايا عشاً لرجال الشرطة الشيشانيين. حيث كان رجال الشرطة يقيمون فيه بشكل دائم. ولسخرية القدر، في هذا الفندق بالذات كانت تقع أركان الظل لبوريس يلتسين عام 1996 - حيث كان يقيم خبراء السياسة الأمريكيون الذين ابتدعوا عملية «صوّتْ أو تخسر».

وبحسب الشائعات، كان لدى «الذئاب الليلية» «سند» أقوى بكثير، منه لدى رجال الشرطة الشيشانيين من «أوتيل – بريزيدنت»، وهو جهاز الأمن الاتحادي، ولهذا قرروا، استغلال ضعف الخصم، وصرف الأموال الطائلة على أنفسهم.

في 11 آذار/مارس استُدعي رمضان قديروف إلى بيتيغورسك إلى الاجتماع الخارجي لمجلس الأمن القومي الذي كان يرأسه سكرتير المجلس نيقولاي باتروشيف، المدير السابق لجهاز الأمن الاتحادي، وأكثر رجال الأمن نفوذاً. وقد روى لقديروف تفاصيل التحقيق في مقتل نيمتسوف، والأدلة المتوفرة ضد الأشخاص من حاشيته.

بعد أن عاد إلى مدينته في 13 آذار/مارس، عقد قديروف اجتماعاً موسعاً للعاملين في وزارة الداخلية في الشيشان. وهاكم العبارة التي ظهرت في الانستغرام عنده بعد الاجتماع: «... تحاول الولايات المتحدة الأمريكية والغرب زعزعة الوضع في روسيا، ونسف اقتصادها، وإثارة الفوضى وعدم الاستقرار في بلادنا. وقد قام أعداء روسيا سابقاً بمحاولة لتحطيمها عبر جورجيا والشيشان. وقد حصلوا في المرتين على رد لائق بهم، فأشعلوا الحريق في أوكرانيا. لهذا من الضروري جداً تكاتف شعوب روسيا حول زعيمها الوطني، الرئيس الروسي فلاديمير بوتين. إن الولايات المتحدة الأمريكية والغرب وأجهزتهما الأمنية تحاول توجيه ضربتها بالدرجة الأولى لأولئك المخلصين والموالين بلا حدود لفلاديمير بوتين. وتستخدم وسائل الإعلام الجماهيرية والمؤسسات المختلفة التابعة لها أية ذريعة، من أجل تشويه سمعه رئيس جمهورية الشيشان. فإذا ما عبر أحد المشاة الشارع في المكان غير الصحيح، فإن قديروف هو المسؤول. في الأيام الأخيرة شُنّت حملة بسبب اعتقال زاور دادايف الذي كان يخدم في القوات المسلحة لوزارة الداخلية في جمهورية الشيشان... أعلن مرة ثانية، وبصرف النظر عمن أكون، وعن منصبي، وعن عملي، أنني أكرس نفسي بتفان وولاء لفلاديمير بوتين ومستعد حتى نهاية أيامي لمجابهة أعداء روسيا. وأؤكد أنني طيلة حياتي مدين لفلاديمير بوتين، وموال له ومخلص له كإنسان. وهذا بصرف النظر عن كونه في موقعه في الرئاسة أم لا! إن كل من يحاول الإساءة إلى رئيس روسيا وإلى روسيا نفسها عليهم أن لا يشكّوا، ولا لثانية واحدة، في أنني سأفعل كل شيء، من دون أن يرف لي جفن، من أجل عدم السماح بهذا».

وقد بدأت المواقع الإلكترونية التي تشرف عليها المعارضة الشيشانية، الكتابة عن أن قديروف تسيطر عليه حالة من اليأس لأن بوتين توقف عن التواصل معه، وقد بدأ المباحثات مع حكام الأردن والإمارات العربية المتحدة حول منحه اللجوء السياسي.

يقول أحد العاملين في الكرملين المقربين من بوتين: «لدى بوتين وقديروف علاقة خاصة. إنها منظومة غريبة جداً. لا يمكن لرئيس إقليم ضمن روسيا أن يكون معبوده ومثله الأعلى بوتين وحده ولا أحد غيره. إنها علاقة تبعية جداً لكنها هكذا نشأت».

وتؤكد انستغرام رمضان قديروف كذلك دوماً: إن رئيس الشيشان مدين بمنصبه السياسي لفلاديمير بوتين وحده. في عام 2011 في حديث مع التلفزيون الشيشاني تحدث بوتين فجأة بصراحة عن قصة علاقاته بأسرة آل قديروف.

قال بوتين متذكراً معرفته الأولى بوالد رمضان - أحمد قديروف مفتي الشيشان - الذي كان قد راهن عليه في بداية رئاسته: «عندما تعرّفت عليه، تشكل انطباع أولي لديّ، هل هو قادر عموماً على الحديث أم لا، لأنه كان يهدر، بصورة رئيسة، رداً على الكلام، بألفاظ غير مفهومة».

من أجل إيقاف الحرب، حاول بوتين نقلها إلى مستوى محلي: وجعلها بحيث يكون النزاع ليس عبارة عن «الروس ضد الشيشان»، بل «الشيشان ضد الشيشان». ووافق أحمد قديروف على ترأس الحكومة الموالية لروسيا في الشيشان، ونجح في ذلك بصورة عامة.

وتابع بوتين حديثه للقناة التلفزيونية الشيشانية61: «كنت أنظر بدهشة، كيف يكشف عن نفسه عندما بدأ العمل بشكل واقعي، وكنت أنظر بدهشة إلى شاشة التلفزيون كيف وماذا يقول، وكيف يلتقط بدقة جوهر الأحداث الجارية، وكيف يصيغ موقفه منها بصورة مباشرة وواضحة. وكان هذا بالنسبة إليَّ اكتشافاً».

وبناء على طلب ورجاء من «قديروف – الأب» اعتنى بوتين بـ «قديروف – الابن»: «لقد تم هذا في البداية بناء على طلب الحاج أحمد. فقد قال لي: انتبه

إليه، إنه شاب جيد، أمامه آفاق واسعة. لكنه لم يطلب أبداً أن أجعل من ابنه رئيساً للجمهورية، ولم يكن يُبرزه أبداً، ولم يصحبه معه». وقد أصيب بوتين بالدهشة أيضاً من رمضان قديروف، الذي كان يعمل رئيساً لحرس والده: «رمضان نجح في عمله، ويعمل بشكل جيد. أقول صادقاً، لم أكن أتوقع أن يهتم رمضان بهذا النشاط بالجانب الاقتصادي. كنت في مدينة غروزني عدة مرات ورأيت في أية حالة كانت المدينة بعد انتهاء الأعمال القتالية. إنها، ببساطة، مثل ستالينغراد. عندما كنت أمشي بين الأبنية المدمرة، كانت الفكرة الأولى التي خطرت في ذهني: هل من الممكن إعادة بناء كل هذا، وإذا كان ممكناً، فمتى؟». وقال بوتين مادحاً رئيس الشيشان: «لقد أخذ على عاتقه هذه المهمة وأنجزها. وكان هذا مدهشاً بالنسبة إليَّ. إنه شاب شجاع ماهر! كنت أظن أنه قادر فقط على الصعود على الجبال وبيده البندقية - كلا».

من حيث الجوهر، تم توقيع حلف بين فلاديمير بوتين ورمضان قديروف. منذ الأيام الأولى، قال الزعيم الشيشاني الشاب لرئيس روسيا، أنه اعتباراً من الآن يعتبره والده ومستعد لتقديم حياته من أجله. هذه الكلمات أشعلت الدفء في روح بوتين، ورداً على ولائه الشخصي المطلق قدم بوتين لقديروف الابن «كارت - بلانش» (بطاقة بيضاء) مطلقة. أولاً: إعانات مالية هائلة (حسب المعطيات الرسمية، تراوحت بين 15 - 20 مليار روبل سنوياً). وبحسب «الملف الشيشاني»، الذي نشرته الويكيليكس وكتبه السفير الأمريكي السابق في روسيا ويليام بيرنس، فإن نحو ثلث المساعدة التي وصلت إلى الجمهورية كان يأخذه قديروف لنفسه. وثانياً: حصل قديروف على إمكانية التخلص من جميع منافسيه السياسيين (كانت نقطة ضعفهم أنهم لم يقسموا يمين الولاء الشخصي لبوتين).

كان الأخوان يامادايف أخطر أعداء قديروف. وقد قُتل الاثنان في عامي 2008 - 2009. والجانب الرمزي في مقتلهما، أن الأخ الأكبر، روسلان يامادايف، النائب السابق في مجلس الدوما عن الشيشان، قد أطلقت عليه النار مقابل البيت

الأبيض، أي مقابل مكتب بوتين، الذي كان آنذاك يشغل منصب رئيس الوزراء.

في أيلول/سبتمبر 2008 توقفت سيارة يامادايف أمام إشارة المرور الحمراء عند جسر سمولنسك، اقترب منها القاتل وأطلق النار على يامادايف عن كثب. الراكب الثاني في السيارة بقي على قيد الحياة. بعد بضعة أشهر، تم اعتقال القاتل. وللصدفة الغريبة، أن كنية القاتل تطابقت تماماً مع كنية القاتل المفترض لبوريس نيمتسوف بعد سبعة أعوام - وهي دادايف. مجرد تشابه الكنيتين. لكن التحقيق لم يذكر اسم المحرض على قتل روسلان يامادايف.

بعد مقتل روسلان يامادايف بنصف عام قُتل أخوه الأصغر سوليم في دبي. كانت أجهزة التحقيق في الإمارات العربية المتحدة أكثر توفيقاً من أجهزة التحقيق الروسية: فقد اعتقلت منفذي جريمة القتل (أحدهم كان الحارس الشخصي لرمضان قديروف) كما ذكرت العميل المحرض على الجريمة - الساعد الأيمن لقديروف - نائب في مجلس الدوما عن الشيشان. وقد حُكم على القتلة بالسجن مدى الحياة. ولكن، في الحقيقة، بعد سنتين، تم تقليص الحكم إلى 27 شهراً، وعادوا بعد ذلك من دبي إلى الشيشان.

إن جرائم القتل التي اتُهمت حاشية قديروف أو اشتُبهت بها، لم تترك، عموماً، صدى خاصاً في روسيا. باستثناء مقتل الصحافية آنّا بوليتكوفسكايا، المعروفة بتحقيقاتها في جرائم القتل والتعذيب والسرقة والنهب في الشيشان قديروف. لقد أطلقت عليها النار في 7 تشرين أول/أكتوبر 2006، في يوم عيد ميلاد الرئيس بوتين. ولم يتم اكتشاف المسؤولين عن قتلها، وعددهم خمسة أشخاص، كمنفذين ومنظمين إلا في عام 2014، ولكن لم تُذكر أبداً أسماء المحرضين والدافعين إلى القتل. وتؤكد وسائل التواصل الاجتماعي المؤيدة للحكومة أنها على الأغلب، عمل استفزازي من جانب الغرب أو المعارضة ضد بوتين وقديروف.

بيد أن جميع هذه الجرائم التي ارتبطت في الوعي الاجتماعي باسم قديروف،

لم تخرج عن إطار الحلف: بقي رمضان موالياً شخصياً، ومُعززاً مُوحداً للجمهورية، وفي المقابل يحصل على دعم مالي غير محدود، و«كارت - بلانش» في عمليات الاغتيال من جانب الأقوياء الأمنيين.

لقد أصبح مقتل نيمتسوف الحدث الأول الذي لم يندرج ضمن هذه الأطر. بالنسبة إلى حاشية قديروف، كان هذا الزعيم القديم للمعارضة الليبيرالية عدواً منبوذاً لا لبس فيه. فهي لم تربطه بالسلطة، وكان من الممكن ألا تعرف ماضيه الوظيفي في الدولة. فالصراع ضد الليبيراليين وأنصار «الثورة الملونة» كان، بالنسبة إلى قديروف، جزءاً من التزاماته تجاه بوتين.

لكن الطبقة الحاكمة في موسكو، بما فيها الكرملين، نظرت إلى اغتياله بطريقة أخرى تماماً: ونيمتسوف، بالنسبة إليها، كان أكثر قرباً، وكان رجلها، أكثر من قديروف. وجرائم القتل حتى الآن، وحتى إذا ما حدثت في موسكو، كانت تتعلق بأشخاص بعيدين، ذلك أنهم كانوا يقتلون سياسيين شيشانيين، أو صحافيين من المدافعين عن حقوق الإنسان. أما في حالة نيمتسوف فكان كل شيء مغايراً: فقد أصبح الضحية نائب رئيس الوزراء الأول السابق، رئيس بوتين السابق، والخليفة السابق المحتمل للرئيس بوريس يلتسين.

الهرب إلى الإمارات

طالت فترة غياب بوتين. وأخذت تبحث عنه جميع وسائل الإعلام الجماهيرية العالمية، مورّد الإنترنت الروسي الجديد، الذي اكتسب شعبية كبيرة، كان يعد الثواني والدقائق والأيام التي انقضت منذ أن ظهر بوتين للمرة الأخيرة للجمهور.

على أية حال، يتحدثون في دائرته المقربة، أن بوتين ينظر بحساسية ودقة إلى صحته، ولا يحب عندما يعلق الصحافيون على صحته. واعتقاداً منه أن من الممنوع عليه أن يمرض، يطرد بوتين دوماً زوّاره إذا ما رأى أنهم قد ينقلون له العدوى. وحتى إذا ما دخل إلى مكتبه موظف كبير مسؤول، أو وزير، وعطس،

فهذا قد يعني نهاية المقابلة: «هيا، اخرج، اخرج من هنا، ممنوع عليّ أن أمرض!» – يقول بوتين في مثل هذه الحالات. علاوة على ذلك، هو مولع بالرياضة: فهو يخصص كل يوم ساعتين للسباحة والتدريب في صالة الجمنازيوم، إضافة إلى ذلك، يلعب الهوكي عدة مرات في الأسبوع (ليلاً عادة).

في أثناء غيابه الذي استمر عشرة أيام لم يقتصر بوتين على ممارسة الرياضة فقط. كان يفكر، ماذا عليه أن يفعل الآن مع الشيشان، وكيف يتصرف مع رمضان قديروف - هكذا أكدت مصادر من دائرته. وأخيراً، وبعد غياب طويل، ظهر بوتين أمام الكاميرات التلفزيونية في 16 آذار/مارس، حيث التقى في بطرسبورغ رئيس قرغيزيا. لكنه لم يتحدث مع قديروف.

كتب قديروف في انستغرام ساخطاً: «إن الأيام الأخيرة ستدخل في التاريخ العالمي كأسبوعٍ لانتشار الكذب. وربما خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة لم يسكب في آذان المواطنين في أي مكان وفي أي وقت مثل هذا القدر من الافتراءات والزيف والمعلومات المضللة الوقحة. وكان من يُدعى بـ «خبراء السياسة، والمحللين السياسيين، والخبراء في شؤون روسيا» يؤكدون، مدعومين بمموليهم ورعاتهم، أن رئيس روسيا فلاديمير بوتين في حالة مرضية شديدة، ولا يظهر على الجمهور، وغير قادر على إدارة شؤون الدولة. وكان الأكثر حماسة يتكلم وكأنه حصل انقلاب في روسيا. وكان أعداء روسيا الصريحون يتدافعون بأكواعهم فيما بينهم، ويندفعون إلى الأثير وإلى صفحات التواصل الاجتماعي من أجل إظهار أمنياتهم على أنها واقع وحقيقة. إن زعيمنا الوطني فلاديمير بوتين وفريقه أعلى من هذا بكثير! وهم حسناً فعلوا عندما لم يردوا على صياح الأوغاد. واليوم ارتبطت ألسن جميع «العرّافين» عندما رأوا في حفل استقبال رسمي الرئيس الروسي في بطرسبورغ نشيطاً، سليماً، معافى، واثقاً من نفسه! إن روسيا دولة عظمى، ولديها رئيس قوي، حازم، هو الرئيس فلاديمير بوتين الذي لن يسمح أبداً للولايات المتحدة الأمريكية والدول الغربية التابعة لها بتحويل وطننا إلى أرض تدار وتُوجه من لندن

وواشنطن! وفي الختام، أود أن أقول: **لن تحققوا مبتغاكم** !».

ولكن حتى بعد ظهور بوتين، لم يتمكن قديروف من الحديث مع الرئيس. في المقابل، في 26 آذار حضر بوتين إلى لوبيانكا، للمشاركة في مجلس جهاز الأمن الاتحادي. وهذه كانت خطوة رمزية، فقد حدثت تماماً في يوم الذكرى السنوية الخامسة عشرة لانتخابه رئيساً. وقد لاحظوا بدهشة في الدائرة المحيطة ببوتين، أنه بعد غياب استمر عشرة أيام، ضاعف أعداد حرّاسه.

في اليوم نفسه، ركب رمضان قديروف الطائرة متوجهاً إلى الإمارات العربية المتحدة، مصطحباً معه حاشيته المقربة كلها. تابع في البداية سباق الخيل، الذي شاركت فيه خيوله، وبعد السباق لم يسرع بالعودة إلى الشيشان. أمضى قديروف وفريقه عشرة أيام في الإمارات. وفي أثناء وجوده في دبي وأبوظبي، تابع قديروف حلف يمين الولاء لبوتين: «إن رياء أعداء روسيا لا يعرف الحدود! عندما تقرؤون هذه الكلمات قد تظنون أنني أتحدث عن أولئك الجالسين في عواصمهم الغربية، ويوجهون صواريخهم إلى سدودنا ومحطاتنا الكهربائية. كلا، بالطبع! فهم يعرفون أن الرد سيكون كالصاعقة، ولهذا لن يضغطوا على زر الإطلاق أبداً. أنا أتحدث عن أولئك ممن يعدُّ بواحد من جوازيْ سفره على الأقل مواطناً روسياً، ويفعلون كل شيء لنسف الاستقرار من الداخل. ويبذلون قصارى جهدهم في هذا، مدعومين بكرم من الصناديق والميزانية الأمريكية، إنهم مجموعة من الناس اجتمعوا تحت أجنحة صحيفتين أو ثلاث. إن طرقهم لا تتميز بالحداثة. وقد تم إتقانها من قِبَل منظِّر مشهور في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن الماضي، كان يؤكد أن الكذب كلما كان أكثر وقاحة كلما صدقوه بسرعة أكبر. وثمة صيغ أخرى لهذا القول. إنهم يسعون بجهودهم كافة إلى خلق انطباع بوجود نزاع بين بعض رجال السياسة وقادة الأقاليم وبين قيادة البلاد. وقد وصل الأمر بإحدى وسائل الاتصال الجماهيري إلى إجراء استفتاء بعنوان قارص «هل يخاف الكرملين من الشيشان؟». إن فكرة بحث الموضوع بحد ذاتها ذات طابع استفزازي وقح...

الكرملين عليه ألا يخاف، وهو لا يخاف من الشيشان، كما هو لا يخاف من موسكو ومن روستوف أو ماغادان، ولا يخاف منكم. بل وعلاوة على ذلك، إن الكرملين لا يخاف من محبوباتكم لندن وواشنطن وبرلين. ولا يخاف الكرملين من أمريكا ومن حلف شمال الأطلسي، لأن الكرملين هو روسيا، هو الشيشان، هو موسكو، هو تشيليابينسك، هو روستوف وآلاف من المدن والبلدات الأخرى! لقد قلت دوماً وأكرر الآن، لمن ينسى أو يتناسى، إنني جندي مشاة عند رئيس روسيا، القائد الأعلى فلاديمير بوتين».

لم يعد قديروف وفريقه إلى غروزني إلا في 6 نيسان/إبريل. وفي اليوم نفسه، نُشر أمر بوتين الذي يمنح مدينة غروزني لقب «مدينة المجد العسكري» - وهذا اللقب كان يُمنح عادة للمدن المتميزة في سنوات الحرب الوطنية العظمى.

بعد يوم وصل قديروف إلى موسكو - استقبله منظّر الكرملين الجديد، نائب رئيس إدارة الكرملين فياتشيسلاف فولودين. لم يكن القيِّم على السياسة الداخلية الروسية شخصية معتبرة بالنسبة إلى قديروف، فهو لم يكن يعترف إلا ببوتين وابن بلده، الشيشاني من ناحية الأب فلاديمير سوركوف. لكن فولودين الذي كان يجلس الآن في مكتب سوركوف السابق، عرض عليه أن يندرج ضمن المنظومة.

وقد سجل قديروف بحماس في انستغرام انطباعه عن لقائه بفولودين فقال: «إن فياتشيسلاف فيكتوروفيتش فولودين، كرجل دولة خبير وحكيم، يقدم دوماً نصائح مهمة، ويساعد، ويؤيد المشاريع الضرورية لجمهورية الشيشان. من المفرح جداً أن فريق زعيمنا الوطني فلاديمير بوتين يضم مثل هؤلاء الأشخاص المخلصين للوطن! وبمثل هذا الفريق يمكننا أن نكون واثقين بمستقبل روسيا!».

الذئب والدب

قال بوتين في حديث مع التلفزيون الشيشاني عام 2011: «إنني أعتبره مثل

ابني. نحن جميعاً بشر، ولدينا جميعاً نقاط ضعف ونقاط قوة. وعلى الأغلب، لديه مشاكله أيضاً، لكنه إنسان شريف، وأنا أقدر هذا حق التقدير».

إن بوتين، بتسميته لقديروف ابناً، أخذ بعين الاعتبار، على الأغلب، أنه يخاطب الجمهور الشيشاني. يصف أحد المقربين من بوتين مشاعر بوتين تجاه قديروف: «لقد كان قديروف دوماً بالنسبة إليه ذلك الذئب الصغير الذي ربّاه وآواه».

حقيقة، كان بوتين دوماً، بالنسبة إلى قديروف، مثلاً أعلى وقدوة يحتذي بها. فقد تعلم قديروف منه التواصل مع الزعماء الأجانب، ومع الناشطين الحقوقيين، ومع رجال الأعمال، وأخذ عنه عادة إحاطة نفسه بنجوم هوليوود. في شهر كانون أول/ديسمبر قام أصدقاء بوتين بإهدائه فرصة نادرة: في أثناء أمسية «خيرية» بمشاركته، دعوا نجوم السينما العالمية: مونيكا بيلوتشي، شيرون ستوين، ميكي رورك، كوين كوستنير، آلن ديلون، جيرار ديبارديي، فينسان كيسيلن كورت راسل، أورنيلا موتي. كان نجوم السينما يجلسون في القاعة، وبوتين على خشبة المسرح يعزف على البيانو أغنية «بلوبيري هيل Blueberry Hill». بعد عام، رغب رمضان قديروف في تكرار هذه التجربة. وبمناسبة عيد ميلاده الخامس والثلاثين، أقام حفلة دعا إليها نجوم السينما: هيلاري سوينك، جان - كلود فان دام، سيل وفينيسا ميي. ولم يتم الكشف عن المكافآت التي تلقوها. وبعد أن عرضت قناة يورونيوز Euro news التلفزيونية ريبورتاجاً عن هذا الاحتفال، هاجمت منظمات حقوق الإنسان النجوم المشاركين. ولم يستجب سوى النجمة هيلاري سوينك، فحولت مكافأتها كلها إلى المنظمات الخيرية وسرحت مديري أعمالها.

وجواباً عن الأسئلة: من أين لزعيم جمهورية تعيش على الإعانات، أن يصرف الأموال على مثل هذه الحياة الباذخة، كان قديروف يجيب دوماً: «الله يعطي». حتى أنه كان يبدأ بالنقاش مع صحافية عنيدة، فيصرّ قائلاً: «أثبتي أن غير الله من يعطي».

وبحسب أقوال الصحافيين الذين زاروا رئيس الشيشان في السنوات السابقة، خلال رئاسته استبدل رمضان قديروف عدة قصور، وكل قصر كان أكثر بذخاً، ومذهّباً أكثر. في عام 2006، عندما أصبح قديروف رئيس وزراء الشيشان انتقل من قرية تسنتورا مسقط رأسه إلى مدينة غودرميس، وهي المدينة الرابعة في الشيشان من حيث الحجم، ولم تعانِ كثيراً من الدمار في أثناء الحربين مثل غروزني. وقد أصبحت حديقة حيواناته الخاصة إحدى ثروات قديروف الجديدة. كان الضيوف يهدونه الحيوانات البرية، وكان قديروف يحب إظهارها للصحافيين، وهي تصغي لأوامره وتعليماته. كان يحمل على يديه النمور والدببة الصغيرة، ويضع أصابعه في فم الدب الصغير، مبيناً أن الدب الصغير عنده أهلي وليس برياً. وبعد سنتين كبرت الحيوانات الوحشية، وفي الليالي كانت يسمع في غودرميس زئير وعواء مشؤوم - إنها أصوات حيوانات قديروف الوحشية التي كبرت.

الحرب تستمر

بعد أسبوع من عودته من الإمارات، تلقى قديروف درساً. في 19 نيسان/إبريل، كان رئيس جمهورية الشيشان يشاهد مباراة كرة القدم - وكان يشجع ناديه «تيريك» الذي كان يلعب مع نادي «دينامو» موسكو، الذي كان يعدّ في العهد السوفييتي، نادي وزارة الداخلية. في هذه الفترة قدم إلى غروزني رجال شرطة من منطقة ستافروبل المجاورة، وبالقرب من المقر الرسمي لقديروف قتلوا رجل أعمال باسم دادايف (يحمل الكنية نفسها كالرجل المتهم بقتل نيمتسوف). وزعموا أنه قُتل في أثناء محاولة القبض عليه. هذا الحادث أثار غضب قديروف الشديد. وفي اليوم التالي، ألقى كلمة أمام عناصره الأمنيين المتنفذين، وطالبهم في المرة المقبلة بفتح النار عند ظهور غرباء: «أعلن لكم رسمياً، إذا ما ظهر على أراضيكم، ومن دون علمكم - أحد ما من موسكو أو من سترافروبول لا فرق - افتحوا عليه النار لإصابته».

رد عليه رسمياً المكتب الصحافي لوزارة الداخلية: «إن وزارة الداخلية الروسية تعتبر أن من غير المسموح لقائد جمهورية الشيشان الإعلان عن «فتح النار للإصابة» بحق العاملين في الأقاليم الأخرى، من دون علم أجهزة حفظ القانون المحلية، التي تنفذ عمليات خاصة في الجمهورية». ثم صرح دميتري بسكوف المستشار الصحافي للرئيس بوتين، إن على قديروف أن يتذكر التابعية وأن يعرف أن رجال الشرطة الشيشان لا يتبعون له، بل يتبعون لوزارة الداخلية الروسية الاتحادية.

والطريف في الأمر، أن قديروف نفسه هو ضابط برتبة جنرال في وزارة الداخلية. وفي 28 كانون أول/ديسمبر، عندما أدى الأمنيون الأقوياء الشيشان في الإستاد القسم بالولاء لبوتين، أرغموهم على تدعيم القسم الشفهي بتقرير كتابي. وقد جاء فيه، أن كلاً منهم يلتزم الولاء للرئيس بوتين ولوزير الداخلية الروسي كولوكولتسيف ولرئيس الشيشان رمضان قديروف. لكن الوضع تغير خلال أربعة أشهر بحيث لا يمكن التعرّف عليه.

المناوشة العلنية بين قديروف ووزارة الداخلية الروسية كانت تدل على شيء واحد: هو أن الزعيم الشيشاني فقد ميزة الاتصال المباشر مع بوتين والشكوى له عن المسيئين إليه. على أية حال، فهو لم يفقد وزنه السياسي السابق. فبعد شهر واحد، أعلنت لجنة التحقيق، أنه قد تم تبديل المحقق في قضية مقتل بوريس نيمتسوف. وقد عُين لإدارة هذه القضية الشخص نفسه الذي تولى التحقيق في عام 2008 في مقتل روسلان يامادايف - ولم يُعثر آنذاك على أي محرضين ودافعين لقتله.

وفجأة، وبعد 15 عاماً من إدارة فلاديمير بوتين، تبين أنه حتى الآن لم تُحل المشكلة أبداً، التي وعد بوتين بحلها عندما أصبح رئيساً في عام 2000.

في سنوات الألفية الثانية السعيدة، تمكن بوتين من إجبار المجتمع الروسي على نسيان رعب الشيشان. ونشأ فجأة في روسيا عقد اجتماعي جديد – «عدم

النطق بكلمة الشيشان بصوت عال». وقد ناسب هذا الأمر الجميع - وتم إبعاد جمهورية الشيشان نهائياً من الوعي الجماعي الجماهيري. ولم تُعق هذا العقد حتى الأحداث الرهيبة المرتبطة بالشيشان: بيسلان، «نورث - إيست» أو الطائرات التي نسفتها الانتحاريات الشيشانيات. إنها معجزة التنويم المغناطيسي الجماعي - وكان المجتمع الروسي يعتقد بالمسلمة البدهية «لا تزعج رأسك به طالما هو هادئ»، بمعنى: إذا لم نتذكر الشيشان فقد لا تتذكرنا.

كان يسيطر طيلة هذه السنوات في الأوساط الصحافية إجماع بدهي: من الآمن جداً في روسيا أن تكون صحافياً، بشرط ألا تكتب عن الشيشان. اكتب عن كل شيء، ولكن، لا تكتب عن الشيشان. لأن الصحافيين الذين كتبوا عن الشيشان بالذات، كان مصيرهم الموت. عملياً، كان الجميع يعرف هذه القاعدة، وكانوا يرون أن هذا الجزء الصغير يمكن، حقيقة، التضحية به، في المقابل يمكن الكتابة عن كل شيء.

لقد قفزت الشيشان بصورة غريبة من الوقائع الحربية والقضائية إلى الوقائع الاجتماعية المدنية. وكان رمضان قديروف طيلة هذه السنوات بطل المجلات اللامعة، حيث كان يدلي بأحاديثه الأنيقة المداهنة للتلفزيون، ويشارك في منتدى بطرسبورغ الاقتصادي. وكان أعلام الثقافة والفن، والحكّام، والمثقفون والمفكرون من مختلف الاتجاهات يلتقطون الصور معه، بابتسامة، وهم يحتضنونه ويحتضنون السياسيين الشيشانيين من حاشيته، المتهمين بجرائم القتل. هذا هو العقد الاجتماعي.

يمكن للإنسان الذي لا يعرف سيكولوجية المجتمع الروسي معرفة جيدة أن يفترض، أن هذا تعويض عن الشعور بالذنب الذي يشعر به الروس تجاه آلام الشعب الشيشاني ومعاناته في الأربعينيات وفي التسعينيات - مثل الشعور بالذنب الذي يشعر به الأمريكيون البيض تجاه الأمريكيين السود، أو الألمان تجاه اليهود. لكن هذا، على الأغلب، شعور من طبيعة أخرى. خليط من الخوف مع الجهل، المتعارف على تسميته في روسيا بانعدام الثقافة السياسية: «أنا لا

أهتم بالسياسة، ولا أعرف ماذا يحدث في الشيشان».

والأكثر غرابة، أن لعبة «الغُميّضة» هذه تنسحب حتى على فلاديمير بوتين. فقد قرر هو أيضاً، بأنه طالما يتظاهر بأنه ليست هناك أية مشكلة شيشانية، فهذا يعني أن المشكلة محلولة. كان فلاديمير بوتين يثق بأنه سيتمكن من تهدئة الشيشان بإغراقها بالمال. لكن حاشيته فقدت هذا الإيمان فجأة في عام 2015.

توقفت حاشية بوتين فجأة عن بحث موضوع أوكرانيا تقريباً. أو، على أقل تقدير، بدأت تردد أن أوكرانيا ليست المشكلة الأشد خطورة. كما ظهر تعبير جديد، بدأ المسؤولون يخيف أحدهم الآخر به، وهو «الحرب الشيشانية الثالثة».

******** إشارة تلميحية إلى الأسطورة التاريخية التي تقول إن الأمير الروسي بوتيومكين قرر بناء مجسمات قرى مزدهرة على طول طريق سَفر الإمبراطورة الروسية يكاتيرينا الثانية إلى القرم. (م).

******** إشارة إلى أن يانوكوفيتش كان قد سجن منذ زمن بعيد، وصدر عليه حكم في قضية جنائية. (م).

******** حركة تمرد قام بها الضباط النبلاء ضد القيصر في 14 ديسمبر 1825. (م).

******** هذا العنوان (الرامي) مأخوذ من كنية بطل هذه الفقرة العقيد إيغور ستريلكوف. حيث أن كنية ستريلكوف باللغة الروسية مقتبسة من كلمة ستريلوك Стрелок – الروسية التي تعني «الرامي»، وهو عنوان هذه الفقرة في الكتاب، وهذا تلميح من الكاتب إلى دور هذه الشخصية، وتورية للعلاقة القوية بين كنيته ودوره في أحداث هذه الفقرة. (م).

******** أوكرانياً. (م).

******** رئيس نادي راكبي الدراجات النارية. (م).

الخاتمة: بوتين الرابع القديس

أخ للأبد

في 11 أيار/مايو عام 2000، وبعد ثلاثة أيام من تنصيب فلاديمير بوتين في رئاسته الأولى، عُرض على شاشات السينما في روسيا فيلم «الأخ – 2». يروي الفيلم قصة محارب قديم في الحرب الشيشانية، يسافر إلى أمريكا من أجل مساعدة شقيق صديقه المستشهد في الحرب. ويصارع هناك المافيا الأوكرانية، يصرخ قائلاً: «أنتم أيها الأوغاد، سوف تدفعون ثمن ما اقترفته أيديكم في سيفاستوبل!»، ورجال الشرطة الأمريكيين يسألون: «.هل أنتم رجال عصابات؟». «لا، نحن روس»، وينقذ أبناء بلده الواقعين في مصيبة: «الروس في الحرب لا يتركون أبناء بلدهم». وتتوّج ذروة مونولوج البطل الرئيس للفيلم على النحو التالي: «قل لي، أيها الأمريكي، في أي شيء تكمن القوة؟ هل تكمن القوة في المال؟ يقول أخي في المال. لديك الكثير من المال، لكن ماذا يعطيك؟ أما أنا فأعتقد، أن القوة في الحقيقة. من لديه الحقيقة فهو الأقوى».

كانت السينما الروسية في تلك المرحلة تقع في حالة يرثى لها - فقد كان عدد الأفلام المصورة الجديدة قليلاً، والجمهور لا يشاهدها. لكن فيلم «الأخ - 2» أصبح مشهوراً جداً. في عام 2015 أصبح مزيج العداء لأمريكا مع العاطفة الوطنية البسيطة الصريحة تياراً سياسياً، لكنه كان يبدو آنذاك مفاجئاً، بل وطازجاً. ولم يتطلب الأمر أي طلب رسمي من الدولة من الأعلى - كان يكفي الطلب الاجتماعي للبلاد التي تلفها الأزمة والذي استطاع السينمائيون التقاطه.

أحدث الفيلم انطباعاً عميقاً على كثير من المشاهدين، بمن فيهم الرئيس بوتين ومدير جهاز الأمن الاتحادي نيقولاي باتروشيف. وفي أحاديثهما الصحافية، كان الاثنان يحبان اقتباس هذا المقطع من المونولوج في الفيلم: «قل لي، أيها الأمريكي، في أي شيء تكمن القوة؟». فالعداء اليومي لأمريكا الذي جسده فيلم «الأخ – 2» كان يطابق كثيراً وجهة نظر باتروشيف، وكذلك مصالحه

السياسية.

يقول أشخاص من حاشية فلاديمير بوتين، إن نيقولاي باتروشيف - هو الشخصية الأقل تقديراً من جانب الرأي العام في القيادة الروسية. لكن باتروشيف بالذات، أصبح فيما بعد، المركز الدماغي لغالبية عمليات بوتين الخاصة. ومنها، على سبيل المثال، ضم القرم إلى روسيا.

إن باتروشيف ليس رجل بوتين أبداً، على الرغم من أنه كان نائبه في جهاز الأمن الاتحادي. ويُروى، أن بوتين لم يرغب أبداً في رؤية باتروشيف خليفته في جهاز الأمن الاتحادي. لكن الأخير كان دوماً قادراً على البقاء على صهوة الفرس. وباتروشيف بالذات، هو الذي كان دوماً يحشو دماغ بوتين بأن الأعداء يحيطون به من كل جانب، وأن من المستحيل الوثوق بالأمريكيين، وأن جهاز الأمن الاتحادي هو الدعامة الضرورية، التي لا يمكنه من دونها البقاء في السلطة.

طيلة العقد الأول من القرن الحادي والعشرين الذي ترأس فيه جهاز الأمن الاتحادي، كان باتروشيف واحداً من أقل الشخصيات نشراً وكتابة في القيادة الروسية. في حديث صحافي، أطلق باتروشيف على العاملين في جهاز الأمن الاتحادي اسم «النبلاء الجدد» في روسيا، لكنه لم يعبر عن آرائه السياسية الأخرى. حتى أنه لم يعلِّق على أية أعمال إرهابية كانت تجري في البلاد، على الرغم من أن جهازه بالذات كان مسؤولاً عن مكافحة الإرهاب.

في عام 2008، عندما أصبح دميتري ميدفيديف رئيساً، سرّح نيقولاي باتروشيف من منصب مدير جهاز الأمن الاتحادي بسبب مرضه الشديد، ونقله إلى منصب أقل مسؤولية، وهو منصب سكرتير مجلس الأمن القومي. لكن باتروشيف سرعان ما تغلب على المرض، ومع عودة فلاديمير بوتين إلى الكرملين، طور من جديد نشاطه السياسي الكبير. وبعد ضم القرم، بدأ ينشر التعليقات حول مسائل الأمن القومي الروسي والسياسة الخارجية. وقبل هذا،

كان الحديث في هذه المسائل يقتصر على الرئيس بوتين ووزير الخارجية سيرغي لافروف. وهكذا أصبح نيقولاي باتروشيف الصقر الروسي الرئيس، والشخص الأول في الحزب «المعادي للغرب» و«المعادي لأمريكا» في القيادة الروسية. وله وحده كان مسموحاً، بصوت عال، فضح المؤامرة العالمية.

في 15 تشرن أول/أكتوبر2014 نشرت صحيفة «روسيسكايا غازييتا» الروسية الحكومية مقالاً له - بياناً منهجياً بعنوان «الحرب الباردة الثانية».62

ومنذ هذا اليوم تقريباً، تحول العداء لأمريكا، الذي اكتسب شعبية خلال سنوات طويلة في المجتمع الروسي، إلى عداء علمي لأمريكا، وقُدِّم بصفته إيديولوجية رسمية روسية جديدة.

في هذا البيان عرض باتروشيف رؤيته لتاريخ روسيا المعاصر: انهار الاتحاد السوفييتي نتيجة خطة وضعها زبيغنيو بريجينسكي ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية، هادفة إلى إضعاف الاقتصاد السوفييتي. بيد أنه بعد انهيار الاتحاد السوفييتي لم تنته الحرب الباردة أبداً: فقد وضعت الولايات المتحدة الأمريكية نصب عينيها تجزئة روسيا. وقد أثارت الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الغربية الأخرى، بصورة متعمدة، الحرب في الشيشان (تم تقديم الدعم للمتطرفين ومؤيديهم في روسيا من قبل أجهزة مخابرات بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك من قبل حلفائهما في أوروبا وفي العالم الإسلامي)؛ وطيلة سنوات ما بعد الاتحاد السوفييتي كانت الولايات المتحدة الأمريكية تهيئ الأزمة وتغذيها في أوكرانيا (وبنتيجة هذا النشاط نما في أوكرانيا جيل كامل، مسمم كلياً بكراهية روسيا وبأساطير القيم الأوروبية). بيد أن الهدف الحقيقي للغرب كان توجيه ضربة لروسيا بالذات (ولو لم تحدث كارثة في أوكرانيا، لوجدت ذريعة أخرى من تعزيز سياسة «لجم» بلادنا).

في المقابلات الصحافية التالية63 طور باتروشيف هذه الفكرة، مضيفاً إليها اتهامه للولايات المتحدة الأمريكية بخلق تنظيم الدولة الإسلامية في العراق

والشام، وببعث النازية في دول البلطيق وأوكرانيا. وفي هذه المقابلات كان يقتبس باستمرار أقوال مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة. وحسب اقتباسه كانت تقول: إن «من غير العدل» أن «تخضع لسلطة موسكو» تلك الأراضي الواسعة الشاسعة والغنية بالثروات والموارد الطبيعية مثل سيبيريا والشرق الأقصى.

أما أولبرايت نفسها فهي تنفي ذلك، ولم يتم العثور على أية تأكيدات أخرى لهذا القول، بيد أن الصحافيين في تموز/يوليو 2015 عثروا على المصدر الأول لهذه الأسطورة: اعترافات الضابط السابق للمخابرات الروسية، الذي كان قد قال في عام 2007، وكأن جهاز الأمن الاتحادي كان يستخدم التخاطر والاستماع عن بعد، من أجل قراءة أفكار السياسيين الغربيين. ومن بين هذا الاستخدام، أن الضباط الروس - الوسطاء الروحيين كانوا يقرؤون أفكار وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت، حول أن سيبيريا الغنية بالموارد يجب ألا تتبع روسيا.

وهكذا، بدا وكأن القيادة الروسية نفسها قد صدقت دعايتها. والآن، لم تعد فقط العجائز هن من يثرثرن عن الكواليس العالمية، وليس القناة التلفزيونية «روسيا اليوم» التي تسعى لإغراء هواة نظرية المؤامرة العالمية، بل وحتى المسؤولون الرسميون الأكثر نفوذاً في روسيا.

وهذه لم تكن المرة الأولى في روسيا التي تتولد فيها أساطير تاريخية، تؤثر فيما بعد على السياسة العالمية الواقعية. فهكذا حدث في أواخر القرن التاسع عشر، حيث تم في الإمبراطورية الروسية اختراع وثيقة زائفة مثل «بروتوكولات حكماء صهيون» – «خطة إخضاع اليهود للعالم»، التي يُزعم أنها سُرقت من منظِّر الصهيونية تيودور هيرتزل. وهذه الوثيقة المزورة التي أثارت مذابح اليهود في روسيا، نُشرت في الولايات المتحدة الأمريكية، ثم طبعت بأعداد هائلة من النسخ في ألمانيا النازية. وفي السنوات التسعينيات 1990 انتشرت على نطاق واسع خطة مختلقة «خطة ألن دالاس المدير السابق لوكالة

المخابرات المركزية الأمريكية» للإفساد المعنوي للمجتمع السوفييتي. وقد أصبحت أهم حجة للعداء لأمريكا والإمبريالية الجديدة بعد انهيار الاتحاد السوفييتي.

وقد روى لي قيادي حكومي بارز (ليبيرالي وليس أبداً من العناصر الأمنية المتنفذة) قصة عن معاهدة 1972 بين الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية حول حظر السلاح الجرثومي. فالاتحاد السوفييتي، بالطبع، وعلى الرغم من المعاهدة الموقعة، كان ينتج السلاح الجرثومي. ولكن في أواخر فترة البيريسترويكا (إعادة البناء) أغلق غورباتشوف برامج إنتاج هذا السلاح وسمح بإدخال الخبراء الأمريكيين إلى روسيا. وفي الوقت نفسه، ذهب الخبراء الروس في جولة تفتيشية إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وكانت المفارقة، أن الأمريكيين سرعان ما عثروا على وقائع تدل على خرق الاتحاد السوفييتي لمعاهدة 1972، أما خبراؤنا في الولايات المتحدة الأمريكية فلم يعثروا على أي خرق.

فما هي النتيجة التي استخلصها المسؤول الحكومي الكبير الذي روى لي هذه القصة؟ قال ملخصاً: «لقد خدَعنا الأمريكيون من جديد. كان لديهم بالطبع سلاح جرثومي، لكننا نحن، ببساطة، لم نعثر عليه». سألته: «ومن أين لديك هذه الثقة؟ وهل من غير الممكن الافتراض بأن الأمريكيين كانوا شرفاء وصادقين ولم يخرقوا المعاهدة؟». - فأجابني: «لا بالطبع. وهل هم أفضل أحسن منا؟ إذا كنا نحن قد خرقناها سراً، فلماذا كان عليهم أن يتقيدوا بها؟».

قد تكون نزعة السياسيين الروس المعادية للغرب ليست حالة مرضية بل مجرد حساب دقيق. فهم يعرفون جمهور ناخبيهم، ويسعون إلى لحديث معه بلغة واحدة. بعد «حشود الاحتجاج في بولوتنايا» عامي 2011 - 2012 بدأوا يتوجهون إلى الجماهير الشعبية الواسعة. وهذه الجماهير تحب نظرية المؤامرة، ولا تحب أمريكا. علاوة على ذلك، يعرف القادة الروس بأنهم إذا لم يعرضوا على المشاهد التلفزيوني جواباً بسيطاً ومشابهاً للحقيقة عن السؤال

الجيوسياسي الذي يقلقه، فهو نفسه سيخترع جواباً أسوأ.

على أية حال، هذه النظرية، هي أيضاً نظرية مؤامرة. وليست هناك أية أدلة تثبت أن المسؤولين الحكوميين الروس على هذه الدرجة من الذكاء والمكر. وعلى الأغلب، إنهم يثقون فعلاً باختلافاتهم.

أصدقاء للأبد

لو أن هذا الكتاب استمر لاحقاً أيضاً لكان نيقولاي باتروشيف بطل الفصل العشرين. وبعد ذلك - من يعرف، من يعرف كم من الفصول سيحتاج هذا الكتاب؟ إن لدى فلاديمير بوتين عدداً كثيراً جداً من الأصدقاء: يوري كوفالتشوك، أركادي روتنبرغ، غينادي تيمشنكو، وفلاديمير ياكونين نفسه - على الرغم من أنه قد أحيل على التقاعد لكنه لم يُشطب من القائمة. وكل منهم ينتظر ساعته وفرصته على الأغلب.

ثمة أسطورة بين الناس الذين عرفوا فلاديمير بوتين في أثناء فترة رئاسته الأولى، وكأنه لم يكن يرغب في ترشيح نفسه لفترة رئاسية ثانية. فقد أدرك المشاكل الكبيرة المرتبطة بالرئاسة، وكان ينوي جدياً التخلص من الأعباء التي انهالت عليه. وبحسب الأسطورة ذاتها، فقد بذلت الدائرة المحيطة به جهداً كبيراً من أجل إقناعه بالترشح لفترة رئاسية ثانية. وينسبون العبارة التالية: «إن فلاديمير لن يقدم أبداً على خطوة ضد نفسه» إلى يوري كوفالتشوك، صديق بوتين، الذي حاول مع أصدقائه الآخرين إقناع الرئيس بالبقاء.

وقد شرحوا لبوتين أن البقاء في الحكم ضرورة، وأن المغادرة تشكل خطراً عليه نفسه. وبحسب رواية أخرى، قام بالدور المفتاحي الأساسي نيقولاي باتروشيف الذي أثبت لبوتين الأخطار والصدمات الرهيبة المشحونة بمغادرته الحكم.

إن دائرة المقرّبين، من زملاء وأصدقاء، طيلة 15 عاماً كانت تتشابك بالتصاق

أكبر حول بوتين، وتحميه بشكل أوثق من الواقع. من أجل مصالحه الخاصة ومن أجل مصالحهم. كانوا يقنعون بوتين بأنه لا يمكنه الخروج من السلطة، وإلا فقد تنهار السماء على الأرض.

ومما لا شك فيه أن هذا صحيح، بالنسبة إليهم، فالمصدر الرئيس لرفاهيتهم وثروتهم هو قربهم من الرئيس. «إن لم يكن بوتين، فمن غيره؟»، هذا الشعار أصبح الشعار الرئيس في المسيرات (التي دعيت بالبوتينية) في عام 2012. وهكذا اعتاد التفكير، غالباً، خلال السنوات الـ 15 الأخيرة غالبية السكان الروس.

كثيرون من حاشية بوتين تعرضوا لعقوبات الغرب ضد روسيا، ومنعوا من السفر، وفقدوا إمكانية زيارة أسرهم المقيمة بشكل دائم في الخارج. وعموماً، في هذه الحاشية، لا أحد يتذمّر.

مَلِك إلى الأبد

في الفترة التي كُتب فيها هذا الكتاب، تابع الاقتصاد الروسي انكماشه. بثبات واطّراد، مثل الجلد المُحبّب********. وتميز كبار رجال الأعمال خلال ذلك بالهدوء والاسترخاء.

اتخذت حاشية بوتين الملكية قراراً ثابتاً بالسير حتى النهاية. افتراضياً، الأموال المتوفرة تكفي لفترة طويلة. وإذا ما ارتفعت أسعار النفط، فإن الموقف يمكن أن يتعدل ويستوي. وإذا لم ترتفع - فسوف يمكن تقليص المدفوعات والتعويضات الاجتماعية. وفي وضع أصعب - يمكن زيادة الضرائب، مثل ضريبة استخراج الثروات الباطنية. وفي أسوأ الأحوال - يمكن سحب عائدات كبريات شركات الموارد.

ويدرك جميع رجال الأعمال الكبار تقريباً أن ملكياتهم (أو أجزاء منها) يمكن، في فترة ما، أن تُصادر لصالح الدولة. وهم سلّموا بهذه الفكرة منذ زمن طويل. ومن المتعارف عليه القول إن رجال الأعمال الروس الكبار ليسوا من أصحاب

المليارات، بل يعملون بها. إنهم يديرون تلك الملكية التي يسمح فلاديمير بوتين لهم بإدارتها.

لم ير أحد من جلسائي والمتحدثين معي أي أفق لتغيير الوضع. والأصح، كل منهم كان يسمح بشرط واحد، في حال حدوثه، يمكن حدوث تغيير ما. ولكن لم يجرؤ أحد على تسمية هذا الشرط. بعضهم استخدم التعابير المجازية والملطِّفة: «عندما تطير البجعة السوداء»، «الرئيس سيطير إلى نجم ألفا سنتاوري»، «ستسقط السماء على الأرض». وكانوا يقصدون من حيث الجوهر، شيئاً واحداً بسيطاً - إذا لم يعد بوتين رئيساً.

وهم أخطأوا في هذا بالطبع. إن هذه أسطورة مهمة جداً: وكأن كل شيء في روسيا متعلق ببوتين، ومن دونه سيتغير كل شيء.

يعرض هذا الكتاب أن بوتين، كما نتصوره، لا وجود له في الطبيعة. وليس بوتين هو من قاد روسيا إلى وضعها الحالي - حتى أنه عارض طويلاً هذه التحولات. ثم استسلم فيما بعد، مدركاً أن هكذا أبسط.

لم يكن بوتين يعتقد أن روسيا محاطة بالأعداء من جميع الجهات. وبوتين لم يكن ينوي إغلاق جميع القنوات التلفزيونية المستقلة. وبوتين لم يكن عازماً على دعم فيكتور يانوكوفيتش. وهو لم يرغب في إجراء الألعاب الأولمبية في سوتشي.

المقرّبون منه كانوا يظنون، أنهم يسعون إلى تخمين نواياه وإدراكها - وفي الحقيقة، هم نفذوا نواياهم وأفكارهم.

إن صورة بوتين الحالية - صورة بوتين - القيصر الروسي الرهيب - قد صيغت له، وغالباً من دون مشاركته: من قبل الحاشية، والشركاء الأجانب، والصحافيين. وفي الصورة الفوتوغرافية الملونة الأشهر، يبدو بوتين عاهلاً متشامخاً، «إمبراطور العالم العسكري». لكن هذا ليس بوتين نفسه، إن هذا

مجرد غلاف مجلة التايم Time، التي اعتبرته رجل عام 2007.

نحن جميعاً اخترعنا لأنفسنا شخصية بوتين التي تروقنا. وعلى الأغلب، لن تكون الشخصية الأخيرة.

******** نسبة إلى رواية الكاتب الفرنسي هنري دو بلزاك «الجلد المحبب»، وتروي قصة قطعة جلد يبيعها تاجر إلى شاب يائس من الحياة مبلغاً إيّاه أن من خصائص هذا الجلد أنه يحقق كل رغبات صاحبة وأمانيه، لكنه في كل مرة يحقق فيها له أمنية تتقلص مساحة قطعة الجلد بعض الشيء. (م).

الحواشي

1 - بورودوالين. ف. فقدت روسيا 000 000 000 15 دولار بسبب بريماكوف// صحيفة «كوميرسانت Коммерсанть». 24/3/1999. العدد047.

2 - تريغوبوفا ي. أوبرا في أعلى المستويات. في مسرح مارينسكي قُدمت مسرحية دبلوماسية.// «كوميرسانت Коммерсанть» 14/3/2000. العدد 042.

3 - Blair T., A Journey: My Political Life (Sep 20, 2011).

4 - لقاء مع الأهل. تقرير مسجل من لقاء رئيس روسيا فلاديمير بوتين مع أهل وأقارب طاقم الغواصة «كورسك»// صحيفة «كوميرسانت - فلاست - Власть Коммерсанть» 12/9/2000. العدد 34.

5 - http: //www.rg.ru/2004 /06 /15/andropov.html.

6 - http: //2003.novayagazeta.ru/nomer/2003 /30n/n30n -s00.shtml.

7 - http: //2003.novayagazeta.ru/nomer/2003 /96n/n96n -s00.shtml.

8 - كلمة وأجوبة عن الأسئلة في لقاء مع ممثلي الأوساط العلمية والاجتماعية والتجارية في اسكوتلندا// الموقع الرسمي للكرملين. 25/6/2003.

9 - Browne J. Beyond Business: An Inspirational Memoir from a Visionary Leader May1, 2011.

10 - https://www.ft.com/content/763b10fc-337e-11d9-b6c3 -00000e2511c8

11 - https://www.vedomosti.ru/newspaper/articles/2014 /09 /22/

nu-vy-ponimaete-chto-ya-ne-budu-sidet-tiho-mihail

12 - كاسيانوف م.، كيسيليف ي. من دون بوتين. حوارات سياسية مع يفغيني كيسيليف. موسكو. نوفايا غازييتا. 2009.

13 - «الدولة والأوليغارشية» («في روسيا يجري إعداد انقلاب أوليغارشي»). تقرير مجلس الاستراتيجية القومية.

14 - http://2003.novayagazeta.ru/nomer/2003 /67n/n67n-s00.shtml

15 - كاسيانوف م.، كيسيليف ي. مرجع سابق.

16 - غيفوركيان ن.، كوليسنيكوف آ.، تيماكوفا ن. من الشخص الأول: أحاديث مع فلاديمير بوتين. - فاغريوس، 2000.

17 - سافيلييف يو. بيسلان: حقيقة الرهائن.

http://pravdabeslana.ru/doklad/oglavlenie.htm

18 - ناشيزم – جماعتنا، الكرملين يؤسس حركة شبيبية جديدة: 21.02.2005

http://www.kommersant.ru/doc/549170

19 - تعرّف إلى «جماعتنا» في ضاحية موسكو جرى مؤتمر حركة سرية. 28/02/2005.

http: //www.kommersant.ru/doc/550696

20 - فرقة السلطويين. 25/07/2005.

http: //www.kommersant.ru/doc/595759

21 - روكسبورو آ. بوتين الحديدي: نظرة من الغرب. - موسكو: آلبينا بيزنس بوكس، 2012.

22 - المرجع نفسه.

23 - رسالة إلى الجمعية الاتحادية للاتحاد الروسي// الموقع الرسمي لرئيس روسيا، 25/04/2005.

24 - The Prime Minister, Patrizia the prostitute – and Putin's bed // Independent, 21 July 2009.

25 - محضر مسجل لاجتماع مجلس الاتحاد بتاريخ 2 حزيران/ يونيو2006.

http://council.gov.ru/activity/meetings/?date=02.06.2006

26 - روكسبورو آ. بوتين الحديدي: نظرة من الغرب. - موسكو: آلبينا بيزنس بوكس، 2012.

27 - كلمة ومناقشة في مؤتمر ميونيخ حول مسائل سياسة الأمن.// الموقع الرسمي لرئيس روسيا، 10/02/2007.

28 - مقابلة صحافية مع ميدفيديف.

29 - Rice C. No higher honor. A memoir of my years in Washington. NY: Droadway

30 - مقابلة صحافية مع ميدفيديف وفينيديكتوفا، وشيفارنادزه وكوتريكاتزه.

31 - Rice C. Op. cit.

32 - المصدر نفسه. Idem.

33 - http://e-rubtsovsk.ru/portal/news-e/countrynews/5872-soc.html

34 - كوليسنيكوف آ. روسيا وجدت شريكاً استراتيجياً// كوميرسانت. 10/03/ 2008. العدد 179.

35 - رسالة إلى الجمعية الاتحادية للاتحاد الروسي// الموقع الرسمي لرئيس روسيا، 09/11/2008.

36 - http://www.kommersant.ru/doc/831089

37 - http://www.kommersant.ru/doc/812840

38 - كوفيليتسين يو. المنافسة حول موسكو. العمدة كدعامة في الصراع من أجل الرئاسة// MK. العدد 25 438. 31/08/2010

39 - مدونة تاتيانا يوماشيفا.

https://t-yumasheva.livejournal.com/

40 - شيشكونوفا ي. فلاديسلاف سوركوف: «لقد تبدل النظام» // صحيفة الإزفستيا - أونلاين 22/12/2011.

41 - بيسمينايا ي. مرجع سابق.

42 - ماركين ف. نظرة من لندن. لا توجه اللوم للمرآة.// صحيفة الإزفستيا - أونلاين 07/05/2013.

43 - مؤتمر صحافي لرئيس روسيا جرى في مركز التجارة العالمية على جسر كراسنوبريسنينسكايا 20/12/2012.

44 - كوشكينا س. ساحة «ميدان». قصة لم تروَ. – كييف: Брайт Стар Паблиширг، 2015.

45 - كوليسنيكوف آ. الليلة الرئيسة في سوتشي// صحيفة «كوميرسانت» - أونلاين. 07/02/2014.

46 - كوشكينا س. مرجع سابق.

47 - http://ru.krymr.com/content/article/26947587.html

(مقابلة أجراها بيلافينتسيف).

48 - كوشكينا س. مرجع سابق.

49 - http://www.novayagazeta.ru/inquests/64242.html

http://www.novayagazeta.ru/inquests/64030.html

50 - غاليموفا ن. نحن ذاهبون إلى روسيا. كيف – لا أعرف. كيف روسيا ضمت القرم: دراسة. «Газеты.ru».

http://www.gazeta.ru/politics/2015/03/11_a_6503589.shtml

51 - بروخانوف آ. من أنت أيها الرامي؟ // صحيفة «الغد». 20/11/2014.

52 - http://news.bigmir.net/samoletboeing777

53 - http://news.bigmir.net/ukraine/831315-Boeviki-sbili-ukrainskij-samolet-An-26-nad-Torezom---SMI

54 - http://zavtra.ru/content/view/kto-tyi-strelok/

55 - http://novorossiia.ru/main/13879-g-n.html

56 - محضر مسجل لاجتماع مجلس الاتحاد بتاريخ 01/03/2014.

57 - Putin Q&A: Full Transcript Time, 2007.

58 - http://www.vedomosti.ru/persons/1142/%D0%A3%D0%B3%D0%BE%D0%A7%D0%B0%D0%B2%D0%B5%D1%81

59 - فانـدنكو آ. مقابلـة صـحافية لغينـادي تيمشينكو في مشروع «الأشخاص الأوائل»// TACC تاس. 04/08/2014.

60 - Ramzan Kadyrov Talks About Chechnya’s Future. BY ANNA NEMTSOVA. 10 /24 /10.

61 - http://my.mail.ru/mail/fira70/video/8 /771.html

62 - http://www.rg.ru/2014 /10 /15/patrushev.html

63 - http://www.rg.ru/2015 /02 /11/patrushev.html

ميخائيل زيغار

كاتب وصحافي وصانع أفلام روسي، من مواليد العام 1981.

عمل مراسلاً حربياً لصحيفة «كورمسانت»، حيث غطى حربي العراق ولبنان، وأحداث دارفور، والمظاهرات الشعبية في قيرغيزستان. وفي العام 2005، كان الصحافي الوحيد الذي غطى أحداث أنديجان في أوزبكستان.

عمل في العامين 2009 و2010 نائباً لرئيس تحرير النسخة الروسية من مجلة نيوزويك.

كما عمل رئيس تحرير لأول محطة تلفزيونية مستقلة في روسيا «دوشت-المطر»، والتي اشتهرت بتغطيتها المستقلة لمواضيع سياسية حساسة، مثل المظاهرات الشعبية في روسيا في الفترة بين 2011 إلى 2013، والأزمة في أوكرانيا.

حصل في العام 2014 على الجائزة الدولية لحرية الصحافة.

صدر له: «الحرب الأسطورة: مجموعة مقالات»، «غازبروم: سلاح روسيا الجديد».

د. نزار عيون السود

باحث وأستاذ جامعي ومترجم.

ولد في حمص عام 1954، وفيها تلقى تعليمه الثانوي.

تلقى تعليمه الجامعي في المعهد العالي للثقافة في لينينغراد، حيث حصل على درجة الماجستير في العلوم التربوية (1970) وحصل على شهادة الدكتوراه في العلوم النفسية (اختصاص علم نفس اجتماعي) في عام 1983. بدأ بممارسة الترجمة منذ عام 1972.

صدر له أكثر من 35 كتاباً تأليفاً وترجمة وتعريباً عن دور النشر السورية المحلية والعربية، من أهم مؤلفاته «نشوء وتطور الفكر النفسي الاجتماعي عند العرب». ومن أهم ترجماته: «دراسات في الأدب والمسرح»، «التفكير والإبداع»، «مقدمة علم النفس الاجتماعي»، «القصة القصيرة الروسية الساخرة»، «دوستويفسكي دراسات في أدبه وفكره»، وغيرها.

أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. مارس التدريس الجامعي في الجامعات السورية العامة والخاصة وفي جامعات السودان والجزائر وعمان.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

